صحيفة

الجزء الثاني من مروج الذهب ومعادن الجوهر
في التاريخ للشيخ العالم العلامة
أبي الحسن علي بن الحسين
المسعودي رحمه
الله تعالى
امين
م



(ذكر خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه)

بويع علي بن أبي طالب في اليوم الذي قتل فيه عثمان بن عفان رضي الله عنه فكانت خلافته الى أن استشهد أربع سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام وقيل أربع سنين وتسعة أشهر الا يوما وكانت الفرقة بينه وبين معاوية على ماذكرنا في خلافته وكان مولده في الكعبة وقيل ان خلافته كانت خمس سنين وثلاثة أشهر وسبع ليال واستشهد وهو ابن ثلاث وستين سنة وعاش بعد الضربة الجمعة والسبت وتوفي ليلة الاحد وقد قيل في مقدار عمره أقل مما ذكرنا وقد تنوزع في موضع قبره فمنهم من قال انه دفن في مسجد الكوفة ومنهم من قال انه حمل الى المدينة فدفن عند فاطمة ومنهم من قال حمل في تابوت على جمل وان الجمل تاه ووقع الى وادي طيئ وقد قيل من الوجوه غير ماذكرنا وقد أتينا على ذلك في كتابنا في أخبار الزمان والكتاب الاوسط (ونذكر نسبه ولمعا من أخباره وسيره) هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف ويكنى أبا الحسن وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ولم يكن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم الى وقتنا هذا من خلافة [illegible] على غيره والمكتفي بالله علي بن المعتضد وكان أول من ولده هاشم [illegible] الخلفاء وقد قيل انه بويع البيعة العامة بعد قتل عثمان بأربعة أيام وقد ذكرنا البيعة الاولى فيما سلف من هذا الكتاب وتنازع الناس في اسم أبي طالب أبيه وولد أبي طالب بن عبد المطلب أربعة

ذكوروا بنات فطالب وعقيل وجعفر وعلي وفاختة وجمانة لأب وأم أمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم وبين كل واحد من البنين عشر سنين بين جعفر وعلي عشر سنين وبين جعفر وعقيل عشر سنين وبين عقيل وطالب عشر سنين وأخرج مشركو قريش طالب بن أبي طالب يوم بدر الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم كرها ومضى ولم يعرف له خبر وحفظ من قوله هذا اليوم

يارب أما خرجوا بطالب * في مقنب من تلكم المقانب
فاجعلهم المغلوب غير الغالب * والرجل المسلوب غير السالب

وكان زوج فاختة بنت أبي طالب أبو وهب هبيرة بن عمرو بن عابد بن عمرو بن مخزوم وخلف عليها ابناء وبنات وهاجرت ومات زوجها بنجران مشركا وفيها يقول ببلاد نجران من أبيات كثيرة

أشاقتك هند أم نآك سؤالها * كذاك النوى أسبابها وانتقالها
وأرقني في رأس حصن ممرد * بنجران يسرى بعد نوم خيالها
فان تك قد تابعت دين محمد * وقطعت الارحام منك حبالها

وهي طويلة وكانت تكنى أم هانئ وقد استعمل علي حين أفضت الخلافة اليه ابنها جعدة ابن هبيرة وجعدة هو القائل

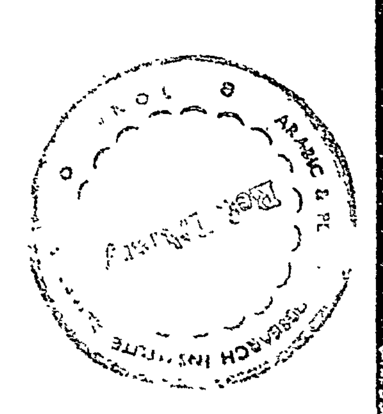
واني من مخزوم ان كنت سائلا * ومن هاشم أمي لخير قبيل
فمن ذا الذي يأى علي بخاله * وخالي علي ذو الندى وعقيل

وجمانة بنت أبي طالب كان بعلها سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي كذلك ذكر الزبير بن بكار في كتابه في أنساب قريش وأخبارها وهاجرت وماتت بالمدينة في أيام النبي صلى الله عليه وسلم وكان مسير علي الى البصرة في سنة ست وثلاثين وفيها كانت وقعة الجمل وذلك في يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الاولى منها وقتل فيها من أصحاب الجمل وأهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفا وقتل من أصحاب علي خمسة آلاف وقد تنازع الناس في مقدار ما قتل من الفريقين فمن مقلل ومكثر فالمقلل يقول قتل بينهم سبعة آلاف على حسب ميل الناس وأهوائهم الى كل فريق منهم وكانت وقعة واحدة في يوم واحد وقيل انه كان بين خلافة علي الى وقعة الجمل وبين أول الهجرة خمس وثلاثون سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام وبين دخول علي الى الكوفة وبين التقائه مع معاوية للقتال بصفين ستة أشهر وثلاثة عشر يوما وبين ذلك وأول الهجرة ست وثلاثون سنة وثلاثة عشر يوما وقتل بصفين سبعون ألفا من أهل الشام ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا وكان المقام بصفين مائة يوم وعشرة أيام وقتل بها من الصحابة ممن كان مع علي خمسة وعشرون رجلا منهم عمار بن ياسر أبو اليقظان المعروف بابن سمية وهو ابن ثلاث وسبعين سنة وكانت عدة الوقائع بين أهل العراق والشام سبعون وقعة وفي سنة ثمان وثلاثين كان التقاء الحكمين وهما عمرو بن العاص وأبو موسى الاشعري بأرض البلقاء من أرض دمشق وقيل بدومة الجندل وهي على عشرة أميال من دمشق وكان من

قوله وجمانة كذا في نسخ وفي نسخة بجمانة بالجيم

قوله فاختة بنت أبي طالب وقيل اسمها هند وهو الذي في الابيات الآتية اه مصحح

قوله واني من مخزوم البيتين فيهما عيب الاقواء وهو اختلاف المجرى بكسر وضم اه مصحح



أمرهما ما قد شهر وسنورد في هذا الكتاب جوامع ما ذكرنا وان كنا قد أتينا على مبسوط ذلك فيما سلف من كتبنا وفي هذه السنة حملت الخوارج وهم الشراة وكان ممن شهد صفين مع علي من أصحاب بدر سبع وثمانون رجلا منهم سبعة عشر من المهاجرين وسبعون من الانصار وشهد معه من الانصار ممن بايع تحت الشجرة وهي بيعة الرضوان من المهاجرين والانصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعمائة وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائة وفي سنة ثمان وثلاثين كان خروجه مع أهل النهروان من الخوارج وقعد عن بيعته جماعة عثمانية لم يروا الا الخروج عن الامر منهم سعد بن ابي وقاص وعبد الله ابن عمر وبايع يزيد بعد ذلك والحجاج لعبد الملك بن مروان ومنهم قدامة بن مظعون ووهبان ابن صيفي وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة الثقفي وممن اعتزل من الانصار كعب بن مالك وحسان بن ثابت وكانا شاعرين وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة حليف بني عبد الاشهل وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة ومسلمة بن خالد في آخرين ممن لم نذكرهم من العثمانية من الانصار وغيرهم من بني امية وسواهم وانتزع علي أملاكا كانت لعثمان أقطعها جماعة من المسلمين وقسم ما في بيت المال على الناس ولم يفضل أحدا على أحد وبعث أم حبيبة بنت أبي سفيان الى أخيها معاوية بقميص عثمان مخضبا بدمائه مع النعمان بن بشير الانصاري واتصلت بيعة علي بالكوفة وغيرها من الامصار وكانت أهل الكوفة أسرع اجابة الى بيعته وأخذ له البيعة على أهلها أبو موسى الاشعري حتى تكاثر الناس عليه وكان عليها عاملا لعثمان وأتاه جماعة ممن تخلف عن بيعته من بني امية منهم سعيد بن العاص ومروان ابن الحكم والوليد بن عقبة بن أبي معيط فجرى بينه وبينهم خطب طويل وقال له الوليد انا لم نتخلف عنك رغبة عن بيعتك لكنا قوم وترنا الناس وخفنا على نفوسنا فعذرنا فيما نقول واضح أما أنا فقتلت أبي صبرا وضربتني حدا وقال سعيد بن العاص كلاما كثيرا وقال له الوليد أما سعيد فقتلت أباه صبرا وأهنت مثواه وأما مروان فانك شتمت أباه وكبت عثمان في صنعه اياه وقد ذكر أبو مخنف لوط بن يحيى أن حسان بن ثابت وكعب بن مالك والنعمان بن بشير قبل نفوذه بالقميص أتوا عليا في آخرين من العثمانية فقال كعب بن مالك يا أمير المؤمنين ليس مسيئا من أعتب وخير كفء ما محاه عذر في كلام كثير ثم بايع وبايع من ذكرنا جميعا وقد كان عمرو بن العاص انحرف عن عثمان لانحرافه وتوليته مصر غيره فنزل الشام فلما اتصل به أمر عثمان وما كان من بيعة علي كتب الى معاوية يهزه ويشير عليه بالمطالبة بدم عثمان وكان فيما كتب به اليه ما كنت صانعا اذا قشرت من كل شئ تملكه فاصنع ما أنت صانع فبعث اليه معاوية فسار اليه فقال له معاوية بايعني قال والله لا أعينك من ديني حتى أنال من دنياك قال سل قال مصر طعمة فأجابه الى ذلك وكتب له به كتابا فقال عمرو بن العاص في ذلك

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل * به منك دنيا فانظرن كيف تصنع

فان تعطني مصرا فاربح صفقة * أخذت بها شيخا يضر وينفع

وأتى المغيرة بن شعبة عليا فقال له ان حق الطاعة النصيحة وان الرأي ما لم تحوز به ما في غد

وان التصارع اليوم تضيع به ما في غد أقرر معاوية على عمله وأقرر ابن عامر على عمله وأقرر العمال على أعمالهم حتى اذا أتتك طاعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت قال حتى انظر فخرج من عنده وعاد اليه من الغد فقال اني أشرت عليك بالامس برأى وتعقبته وانما الرأى أن تعاجلهم بالنزع فتعرف السامع من غيره ويستقل امرك ثم خرج فتلقاه ابن عباس خارجا وهو داخل فلما انتهى الى على قال رأيت المغيرة خارجا من عندك ففيم جاءك قال جاءني امس بكيت وكيت وجاءني اليوم بذيت وذيت فقال أما أمس فقد نصحك وأما اليوم فقد غشك قال فما الرأى قال كان الرأى أن تخرج حين قتل عثمان او قبل ذلك فتأتى مكة فتدخل دارك فتغلق عليك بابك فان العرب كانت جائلة مضطرة فى أثرك لا تجد غيرك فأما اليوم فان بنى أمية سيحسنون الطلب بان يلزموك شعبة من هذا الامر ويشبهون فيك على الناس وقال المغيرة نصحته فلم يقبل فغششته وذكر انه قال وأما انا فنصحته قبلها ولا انصحه بعدها (قال المسعودى) وجدت فى وجه آخر من الروايات أن ابن عباس قال قدمت من مكة بعد مقتل عثمان بخمس ليال فجئت عليا أدخل عليه فقيل لى عنده المغيرة بن شعبة فجلست بالباب ساعة فخرج المغيرة فسلم على وقال متى قدمت قلت الساعة ودخلت على على وسلمت عليه فقال اين لقيت الزبير وطلحة قلت بالنواصف قال ومن معهما قلت ابو سعيد ابن الحارث بن هشام بن قتيبة من قريش فقال على أما انهم لم يكن لهم بد أن يخرجوا يقولون نطلب بدم عثمان والله يعلم انهم قتلة عثمان فقلت اخبرنى عن شان المغيرة ولم خلا بك قال جاءنى بعد مقتل عثمان بيومين فقال اخلنى ففعلت فقال ان النصح رخيص وانت بقية الناس وأنا لك ناصح وأنا اشير عليك ان لا ترد عمال عثمان عامك هذا فاكتب اليهم باثباتهم على اعمالهم فاذا بايعوا لك واطمأن أمرك عزلت من أحببت وأقررت من أحببت فقلت له والله لا أداهن فى دينى ولا أعطى الرياء فى امرى قال فان كنت قد أبيت فانزع من شئت واترك معاوية فان له جراءة وهو فى أهل الشام مسموع منه ولك حجة فى اثباته فقد كان عمر ولاه الشام كلها فقلت له لا والله لا استعمل معاوية يومين ابدا فخرج من عندى على ما أشار به ثم عاد فقال انى اشرت عليك بما اشرت به وابيت على فنظرت فى الامر واذا انت مصيب لا ينبغى ان تأخذ امرك بخدعة ولا يكون فيه دنسة قال ابن عباس فقلت له اما أول ما اشار عليك فقد نصحك وأما الآخر فقد غشك وانا اشير عليك ان تثبت معاوية فان بايع لك فعلى أن أقلعه من منزله قال لا والله لا اعطيه الا السيف ثم تمثل

فما ميتة ان متها غير عاجز * بعار اذا ما غالت النفس غالها

فقال يا أمير المؤمنين انت رجل شجاع أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الحرب خدعة فقال على بلى قلت اما والله لئن أطعتنى لأصدرن بهم بعد ورود ولا تركنهم ينظرون فى آثارهم الأمر ولا يدرون ما كان وجهها من غير نقص لك ولا اثم عليك فقال يا ابن عباس لست من هنياتك وهنيات معاوية فى شئ يسير مالك عندى الطاعة والله ولى التوفيق

(ذكر الاخبار عن يوم الجمل وبدئه وما كان فيه من الحرب وغيره) ودخل طلحة والزبير مكة وقد كانا استأذنا عليا فى العمرة فقال لعلكما تريدان البصرة والشام فاقسما انهما لا يقصدان

غير مكة وقد كانت عائشة رضى الله عنها بمكة وقد كان عبد الله بن عامر عامل عثمان على البصرة هرب عنها حين أخذ البيعة لعلى بها على الناس حارثة بن قدامة السعدى ومصير عثمان ابن حنيف الانصارى اليها على خراجها من قبل على رضى الله عنه وانصرف عن اليمن عامل عثمان وأعطى عائشة وطلحة والزبير اربعمائة درهم وكراعا وسلاحا وبعث الى عائشة بالجمل المسمى عسكرا وكان شراؤه عليه باليمن مائتى دينار فارادوا الشام فصدهم ابن عامر وقال ان به معاوية ولا ينقاد اليكم ولا يطيعكم لكن هذه البصرة لى بها اصنايع وعدد فجهزهم بالف الف درهم ومائة من الابل وغير ذلك وسار القوم نحو البصرة فى ستمائة راكب فانتهوا فى الليل الى ماء لبنى كلاب يعرف بالحوأب عليه ناس من بنى كلاب فعوت كلابهم على الركب فقالت عائشة ما اسم هذا الموضع فقال لها السائق بجملها الحوأب فاسترجعت وذكرت ما قيل لها فى ذلك فقالت ردونى الى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حاجة لى فى المسير فقال ابن الزبير بالله ما هذا الحوأب ولقد غلط فيما اخبرك به وكان طلحة فى ساقة الناس فلحقها فاقسم أن ذلك ليس بالحوأب وشهد معهما خمسون رجلا ممن كان معهم فكان ذلك اول شهادة زور اقيمت فى الاسلام فأتوا البصرة فخرج اليهم عثمان بن حنيف فمانعهم وجرى قتال ثم انهم اصطلحوا بعد ذلك على كف الحرب الى قدوم على فلما كان فى بعض الليالى بيتوا عثمان ابن حنيف فأسروه وضربوه ونتفوا لحيته ثم ان القوم استرجعوا وخافوا على مخلفيهم بالمدينة من اخيه سهل بن حنيف وغيره من الانصار فخلوا عنه وارادوا بيت المال فمانعهم الخزان والموكلون به وهم السابحون فقتل منهم سبعون رجلا غير من جرح وخمسون من السبعين ضربت رقابهم صبرا من بعد الاسر وهؤلاء اول من قتل ظلما فى الاسلام وصبرا وقتلوا حكيم ابن جبلة العبدى وكان من سادات عبد القيس وزهاد ربيعة ونساكها وتشاح طلحة والزبير فى الصلاة بالناس ثم اتفقوا على أن يصلى بالناس عبد الله بن الزبير يوما ومحمد بن طلحة يوما فى خطب طويل كان بين طلحة والزبير الى ان اتفقا على ما وصفنا وسار على من المدينة بعد اربعة اشهر وقيل غير ذلك فى سبعمائة راكب منهم اربعمائة من المهاجرين والانصار منهم سبعون بدريا وباقيهم من الصحابة وقد كان استخلف على المدينة سهل بن حنيف الانصارى فانتهى الى الربذة بين الكوفة ومكة من طريق الجادة وفاته طلحة والزبير وقد كان على اراد هم فانصرف حين فاتوه الى العراق فى طلبهم ولحق بعلى من اهل المدينة جماعة من الانصار فيهم خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وأتاه من طيء ستمائة راكب وكاتب على من الربذة اباموسى الاشعرى ليستنفر الناس فثبطهم ابو موسى وقال انما هى فتنة فنمى ذلك الى على فولى على الكوفة قرظة ابن كعب الانصارى وكتب الى ابى موسى اعتزل عملنا يا ابن الحائك مذموما مدحورا فما هذا اول يومنا منك وان لك فيها الهنات وهنات وسار على بمن معه حتى نزل بذى قار وبعث بابنه الحسن وعمار الى الكوفة يستنفر الناس فسارا عنها ومعهما من اهل الكوفة نحو من سبعة الاف وقيل ستة الاف وخمسمائة وستون رجلا فانتهى الى البصرة وراسل القوم وناشدهم الله فابوا الا قتاله وذكر عن المنذر بن الجارود فيما حدث به ابو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى عن ابن عائشة عن معن بن عيسى عن المنذر بن الجارود قال لما قدم على رضى

الله

الله عنه البصرة دخل مما يلى الطف فاتى الزاوية فخرجت أنظر اليه فورد موكب نحو الف
فارس يقدمهم فارس على فرس اشهب عليه قلنسوة وثياب بيض متقلد سيفا معه راية واذا
تيجان القوم الاغلب عليها البياض والصفرة مدججين فى الحديد والسلاح فقلت من هذا فقيل
ابو ايوب الانصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهؤلاء الانصار وغيرهم ثم تلاهم
فارس اخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض متقلد سيفا متنكب قوسا معه راية على فرس اشقر
فى نحو ألف فارس فقلت من هذا فقيل هذا خزيمة بن ثابت الانصارى ذو الشهادتين ثم مر بنا
فارس آخر على فرس كميت معتم بعمامة صفراء من تحتها قلنسوة بيضاء وعليه قباء أبيض
مصقول متقلد سيفا متنكب قوسا فى نحو الف فارس من الناس ومعه راية فقلت من هذا
فقيل لى ابو قتادة بن ربعى ثم مر بنا فارس آخر على فرس اشهب عليه ثياب بيض وعمامة سوداء
قد سدلها بين يديه ومن خلفه شديد الأدمة عليه سكينة ووقار رافع صوته بقراءة القرآن
متقلد سيفا متنكب قوسا معه راية بيضاء فى ألف من الناس مختلفى التيجان حوله مشيخة
وكهول وشباب كأن قد اوقفوا للحساب أثر السجود قد أثر فى جباههم فقلت من هذا فقيل
عمار بن ياسر فى عدة من الصحابة من المهاجرين والانصار وابنائهم ثم مر بنا فارس على فرس
اشقر عليه ثياب بيض وقلنسوة بيضاء وعمامة صفراء متنكب قوسا متقلد سيفا تخط رجلاه فى
الارض فى ألف من الناس الغالب على تيجانهم الصفرة والبياض معه راية صفراء قلت من
هذا قيل هذا قيس بن سعد بن عبادة فى الانصار وابنائهم وغيرهم من قحطان ثم مر بنا فارس
على فرس أشهل ما رأينا أحسن منه عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها بين يديه بلواء
قلت من هذا قيل هو عبد الله بن العباس فى عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
ثم تلا موكب آخر فيه فارس أشبه الناس بالاولين قلت من هذا قيل قثم بن العباس أو سعيد
ابن العاص ثم اقبلت المواكب والرايات يقدم بعضها بعضا واشتبكت الرماح ثم ورد
موكب فيه خلق من الناس عليهم السلاح والحديد مختلفو الرايات فى أوله راية كبيرة يقدمهم
رجل كأنما كسر وجبر (قال ابن عائشة وهذه صفة رجل شديد الساعدين نظره الى
الارض اكثر من نظره الى فوق كذلك تخبر العرب فى وصفها اذا اخبرت عن الرجل انه كسر
وجبر) كأنما على رؤسهم الطير وعن ميسرتهم شاب حسن الوجه قلت من هؤلاء قيل هذا على
ابن ابى طالب وهذان الحسن والحسين عن يمينه وشماله وهذا محمد بن الحنفية بين يديه معه
الراية العظمى وهذا الذى خلفه عبد الله بن جعفر بن ابى طالب وهؤلاء ولد عقيل وغيرهم
من فتيان بنى هاشم وهؤلاء المشايخ اهل بدر من المهاجرين والانصار فساروا حتى نزلوا
الموضع المعروف بالزاوية فصلى أربع ركعات وعفر خديه على التربة وقد خالط ذلك دموعه ثم
رفع يديه يدعو اللهم رب السموات وما أظلت والارضين وما أقلت ورب العرش العظيم هذه
البصرة اسالك من خيرها واعوذ بك من شرها اللهم انزلنا فيها خير منزل وانت خير المنزلين
اللهم هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتى وبغوا على ونكثوا بيعتى اللهم احقن دماء المسلمين
وبعث اليهم من يناشدهم الله فى الدماء وقال علام يقاتلوننى فابوا الا الحرب فبعث رجلا من
اصحابه يقال له مسلم معه مصحف يدعو الى الله فرموه بسهم فقتلوه فحمل الى على وقالت أمه

يارب ان مسلما اتاهم * يتلو كتاب الله لا يخشاهم
فخضبوا من دمه لحاهم * وأمه قائمة تراهم

وامر علىّ رضى الله عنه ان يصافوهم ولا يبدأوهم بقتال ولا يرموهم بسهم ولا يضربوهم ولا يطعنوهم برمح حتى جاء عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى من الميمنة باخ له مقتول وجاء قوم من الميسرة برجل قد رمى بسهم فقتل فقال علىّ اللهم اشهد وأعذروا الى القوم ثم قام عمار ابن ياسر بين الصفين فقال ايها الناس ما انصفتم نبيكم حيث كففتم عقائلكم فى الخدور وابرزتم عقيلته للسيوف وعائشة على جمل فى هودج من دفوف الخشب قد البسوه المسوح وجلود البقر وجعلوا دونه اللبود قد غشى على ذلك بالدروع فدنا عمار من موضعها فنادى الى ماذا تدعيننى قالت الى الطلب بدم عثمان فقال قتل الله فى هذا اليوم الباغى والطالب بغير الحق ثم قال ايها الناس انكم لتعلمون اينا الممالئ فى قتل عثمان ثم انشأ يقول وقد رشقوه بالنبل

فمنك البكاء ومنك العويل * ومنك الرياح ومنك المطر
وانت امرت بقتل الامام * وقاتله عندنا من أمر

وتواتر عليه الرمى واتصل فحرك فرسه وزال عن موضعه فقال ماذا تنتظر يا أمير المؤمنين وليس لك عند القوم الا الحرب فقام على رضى الله عنه فقال ايها الناس اذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح ولا تقتلوا اسيرا ولا تتبعوا موليا ولا تطلبوا مدبرا ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل ولا تهتكوا ستراولا تقربوا من أموالهم الا ما تجدونه فى عسكرهم من سلاح اوكراع اوعبد اوامة وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله وخرج على بنفسه حاسرا على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا سلاح عليه فنادى يازبير اخرج الىّ فخرج شاكا فى سلاحه فقيل لعائشة فقالت واحرباه بأسماء فقيل لها ان عليا حاسر فاطمأنت واعتنق كل واحد منهما صاحبه فقال له علىّ ويحك يازبير ما الذى أخرجك قال دم عثمان قال قتل الله اولانا بدم عثمان اما تذكر يوم لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى بياضة وهو راكب حماره فضحك الىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحكت انت معه فقلت انت يارسول الله ما يدع علىّ زهوه فقال لك ليس به زهو أتحبه يازبير فقلت انى والله لأحبه فقال لك انك والله ستقاتله وانت له ظالم فقال الزبير استغفر الله لو ذكرتها ما خرجت فقال يازبير ارجع فقال وكيف ارجع الآن وقد التقت حلقتا البطان هذا والله العار الذى لا يغسل فقال يازبير ارجع بالعار قبل ان تجمع العار والنار فرجع الزبير وهو يقول

اخترت عارا على نار موججة * مان يقوم لها خلق من الطين
نادى علىّ بامر لست اجهله * عار لعمرك فى الدنيا وفى الدين
فقلت حسبك من عدل أبا حسن * فبعض هذا الذى قد قلت يكفينى

فقال ابنه عبد الله أين تدعنا فقال يابنى أذكرنى ابو حسن بامر كنت قد انسيته فقال لا والله ولكنك فررت من سيوف بنى عبد المطلب فانها طوال حداد تحملها فتية انجاد قال لا والله ولكنى ذكرت ما أنسانيه الدهر فاخترت العار على النار ابالجبن تعيرنى لا أبالك ثم أمال سنانه وشد فى الميمنة فقال على أفرجوا له فقد هاجوه ثم رجع فشد فى الميسرة ثم رجع فشد فى القلب

ثم عاد الى ابنه فقال أيفعل هذا جبان ثم مضى منصرفا حتى اتى وادى السباع والاحنف ابن قيس معتزل فى قومه من بنى تميم فاتاه آت فقال له هذا الزبير مار فقال ما اصنع بالزبير وقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس يقتل بعضهم بعضا وهو مار الى منزله سالما فلحقه نفر من بنى تميم فسبقهم اليه عمرو بن جرموز وقد نزل الزبير الى الصلاة فقال أتؤمنى أو أؤمك فامه الزبير فقتله عمرو فى الصلاة وقتل الزبير رضى الله عنه وله خمس وسبعون سنة وقد قيل ان الاحنف ابن قيس قتله بارسال من أرسل من قومه وقد رثته الشعراء وذكرت غدر ابن جرموز به وممن رثاه زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل اخت سعيد بن زيد فقالت

غدر ابن جرموز بفارس بهمة * يوم اللقاء وكان غير معدد
ياعمرو لو نبهته لوجدته * لا طائشا رعش الجنان ولا اليد
هبلتك امك أن قتلت لمسلما * حلت عليك عقوبة المتعمد
ما ان رايت ولا سمعت بمثله * فيمن مضى ممن يروح ويغتدى

وأتى عمرو عليا بسيف الزبير وخاتمه ورأسه وقيل انه لم يات برأسه فقال على سيف طال ما جلا الكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنه الجبن ومصارع السوء وقاتل ابن صفية فى النار ففى ذلك يقول عمرو بن جرموز التميمى

اتيت عليا برأس الزبير * وقد كنت أرجو به الزلفة
فبشر بالنار قبل العيان * وبئس بشارة ذى التحفة
لسيان عندى قتل الزبير * وضرطة عنز بذى الجحفة

ثم نادى على رضى الله عنه طلحة حين رجع الزبير يا أبا محمد ما الذى أخرجك قال الطلب بدم عثمان قال على قتل الله أولانا بدم عثمان أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأنت أول من بايعنى ثم نكثت وقد قال الله عز وجل ومن نكث فانما ينكث على نفسه فقال استغفر الله ثم رجع فقال مروان بن الحكم رجع الزبير ويرجع طلحة ما ابالى رميت هاهنا أم هاهنا فرماه فى أكحله فقتله فمر به على بعد الوقعة فى موضعه فى قنطرة قرة فوقف عليه فقال انا لله وانا اليه راجعون والله لكنت كارها لهذا أنت والله كما قال القائل

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه * اذا ماهو استغنى ويبعده الفقر
كان الثريا علقت فى يمينه * وفى خده الشعرى وفى الآخر البدر

وذكر أن طلحة رضى الله عنه لما ولى سمع وهو يقول

ندامة ما ندمت وضل حلمى * ولهفى ثم لهف أبى وأمى
ندمت ندامة الكسعى لما * طلبت رضى بنى حزم بزعمى

وهو يمسح عن جبينه الغبار وهو يقول وكان أمر الله قدرا مقدورا وقيل انه سمع وهو يقول هذا الشعر وقد جرحه فى جبهته عبد الملك ورماه مروان فى أكحله وقد وقع صريعا يجود بنفسه وهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عبيد الله بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم الله وهو ابن عم ابى بكر الصديق ويكنى أبا محمد وأمه الصعبة وكانت ابنة أبى سفيان صخر بن حرب كذلك ذكر

قوله الزلفة فيه مع التحفة والجحفة عيب الاصراف والاختلاف هنا بالفتح مع الكسر اه مصحح

قوله بنى حزم بزعمى فى نسخة بنى عمرو بن حزم

الزبير بن بكار فى كتابه فى انساب قريش وقتل وهو ابن اربع وستين سنة وقيل غير ذلك ودفن بالبصرة وقبره ومسجده الى هذه الغاية وقبر الزبير بوادى السباع وقتل محمد بن طلحة مع ابيه فى ذلك اليوم ومر به على فقال هــذا رجل قتله بره بابيه وطاعته وكان يدعى بالسجاد وقد تنوزع فى كنيتــه فقال الواقدى كان يكنى بابى سليمان وقال الهيثم بن عدى كان يكنى بابى القاسم وفيه يقول قاتله

واشعث سجاد بايات ربه * قليل الاذى فيما ترى العين مسلم
شككت له بالرمح جيب قميصه * فخر صريعا لليــدين وللفم
على غير شئ غير ان ليس تابعا * عليا ومن لا يتبع الحق يندم
يذكرنى حاميم والرمح شارع * فهــلا تلا حاميم قبل التقدم

وقد كان اصحاب الجمل حملوا على ميمنة على وميسرته فكشفوها فاتاه بعض ولد عقيل وعلى يخفق نعاسا على قربوس سرجه فقال له يا عــم قد بلغت ميمنتك وميسرتك حيث ترى وانت تخفق نعاسا قال اسكت يا ابن اخى فان لعمك يوما لا يعدوه والله لا يبالى عمك وقع على الموت أو وقع الموت عليه ثم بعث الى ولده محمد بن الحنفية وكان صاحب رايته احمل على القوم فابطأ محمد عليــه وكان بازائه قوم من الرماة ينتظر نفاد سهامهم فأتاه على فقال هلا حملت فقال لا اجد متقدما الا على سهم اوسنان وانى لمنتظر نفاد سهامهم وأحمل فقال احمل بين الاسنة فان للموت عليك جنة فحمل محمد فسكن بين الرماح والنشاب فوقف فاتاه على فضربه بقائم سيفه وقال ادركك عرق من أمك وأخذ الراية وحمــل وحمل الناس معه فما كان القوم الا كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف وطافت بنو أمية بالجمل واقبــلوا يرتجزون ويقولون

نحن بنو ضبة أصحاب الجمــل * ننازل الموت اذا الموت نزل
ردوا علينا شيخنا ثم بجــل * عثمان ردوه بأطراف الاسل
والموت أحلى عندنا من العسل

وقطع على خطام الجمل سبعون يدا من بنى ضبة معهم كعب بن سور القاضى متقلدا مصحفا كلما قطعت يد واحد منهم قام آخر فأخذ الخطام وقال انا الغلام الضبى ورمى الهودج بالنشاب والنبل حتى صار كأنه قنفذ وعرقب الجمل وهو لا يقع وقد قطعت أعضاؤه واخذته السيوف حتى سقط ويقال ان عبد الله بن الزبير قبض على خطام الجمل وهو لا يقع وقد ناشده على نخلى عنه ولما سقط الجمل ووقع الهودج جاء محمد بن أبى بكر فادخل يده فقالت من انت قال أقرب الناس قرابة وابغضهم اليك أنا محمد أخوك يقول لك أمير المؤمنين هل أصابك شئ قالت ما أصابنى الا سهم لم يضرنى فجاء على حتى وقف عليها فضرب الهودج بقضيب وقال يا حميراء رسول الله أمرك بهذا ألم يأمرك أن تقرى فى بيتك والله ما أنصفك الذين أخرجوك اذ صانوا عقائلهم وأبرزوك وأمر أخاها محمدا فأنزلها فى دار صفية بنت الحارث بن أبى طلحة العبدى وهى ام طلحة الطلحات ووقع الهودج والناس مفترقون يقتتلون والتقى الاشتر ابن مالك بن الحارث النخعى وعبد الله ابن الزبير فاعتركا وسقطا الى الارض عن فرسيهما

قوله جنة كذا فى النسخ ولعله محرف عن منة

والناس حولهم يجولون وابن الزبير ينادى

اقتلوني ومالكا * واقتلوا مالكا معى

فلا يسمعهما احد لشدة الجلاد ووقع الحديد ولا يراهما راء لظلمة النقع وترادف العجاج وجاء ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت الى علي فقال يا أمير المؤمنين لاتنكس اليوم رأس محمد واردد اليه الراية فدعا به ورد عليه الراية وقال

اطعنهم طعن ابيك تحمد * لا خير في حرب اذا لم توقد

بالمشرفي والقنا المسرد

ثم استسقى فأتي بعسل وماء فحسا منه حسوة وقال هذا الطائفي وهو غريب البلد فقال له عبد الله بن جعفر ماشغلك ما نحن فيه عن علم هذا قال انه والله يا بني ما ملأ بصدر عمك شئ قط من امر الدنيا ثم دخل البصرة وكانت الوقعة في الموضع المعروف بالخريبة يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين على حسب ما قدمنا آنفا من التاريخ وخطب الناس بالبصرة خطبته الطويلة التي يقول فيها يا اهل المسجد يا أهل المؤتفكة ائتفكت بأهلك من الدهر ثلاثا وعلى الله تمام الرابعة يا جند المرأة يا أتباع البهيمة رغا فاجبتم وعقر فانهزمتم اخلاقكم رقاق واعمالكم نفاق ودينكم زيغ وشقاق وماؤكم اجاج زعاق وقد ذم علي أهل البصرة بعد هذا الموقف مرارا كثيرة وبعث بعبد الله بن عباس الى عائشة يأمرها بالخروج الى المدينة فدخل اليها بغير اذنها واجتذب وسادة فجلس عليها فقالت يا ابن عباس أخطأت السنة المأمور بها دخلت الينا بغير اذننا وجلست على رحلنا بغير أمرنا فقال لها لو كنت في البيت الذي خلفك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دخلنا الا باذنك وما جلسنا على رحلك الا باذنك ان أمير المؤمنين يأمرك بسرعة الأوبة والتأهب للخروج الى المدينة فقالت ابيت ما قلت وخالفت ما وصفت فمضى الى علي فخبره بامتناعها فرده اليها وقال ان أمير المؤمنين يعزم عليك ان ترجعي فأنعمت وأجابت الى الخروج وجهزها علي وأتاها في اليوم الثاني ودخل عليها ومعه الحسن والحسين وباقي أولاده واولاد اخوته وفتيان اهله من بني هاشم وغيرهم من شيعته من همدان فلما بصرت به النسوان صحن في وجهه وقلن يا قاتل الأحبة فقال لو كنت قاتل الاحبة لقتلت من في هذا البيت واشار الى بيت من تلك البيوت قد اختفى فيه مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عامر وغيرهم فضرب من كان معه بايديهم الى قوائم سيوفهم لما علموا من في البيت مخافة ان يخرجوا فيغتالوهم فقالت لهم عائشة بعد خطب طويل كان بينهما انى أحب ان اقيم معك فاسير الى قتال عدوك عند سيرك فقال بل ارجعي الى البيت الذي تركك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته ان يؤمن ابن اختها عبد الله بن الزبير فأمنه وتكلم الحسن والحسين في مروان فأمنه وامن الوليد بن عقبة وولد عثمان وغيرهم من بني أمية وأمن الناس جميعا وقد كان نادى يوم الوقعة من ألقى سلاحه فهو آمن ومن دخل داره فهو آمن واشتد حزن علي على من قتل من ربيعة قبل ورود البصرة وهم الذين قتلهم طلحة والزبير من عبد القيس وغيرهم من ربيعة وجدد حزنه قتل زيد بن صوحان قتله في ذلك اليوم عمرو بن سبرة ثم قتل عمار بن ياسر عمرو بن سبرة في ذلك

اليوم أيضا وكان علي يكثر من قوله

يالهف نفسي على ربيعه * ربيعة السامعة المطيعه

وخرجت امرأة من عبد القيس تطوف القتلى فوجدت ابنين لها قد قتلا وقد كان قتل زوجها واخوان لها فيمن قتل قبل مجيء علي البصرة فانشأت تقول

شهدت الحروب فشيبنني * فلم ار يوما كيوم الجمل

أضر على مؤمن فتنة * واقتله لشجاع بطل

فليت الظعينة في بيتها * وليتك عسكر لم ترتحل

وقد ذكر المدائني أنه رأى بالبصرة رجلا مصطلم الاذن فسأله عن قصته فذكر انه خرج يوم الجمل ينظر الى القتلى فنظر الى رجل منهم يخفض رأسه ويرفعه وهو يقول

لقد أوردتنا حومة الموت أمنا * فلم ننصرف الا ونحن رواء

أطعنا بني تيم لشقوة جدنا * وماتيم الا أعبد واماء

فقلت سبحان الله اتقول هذا عند الموت قل لا اله الا الله فقال يا ابن اللخناء اياي تأمر بالجزع عند الموت فوليت عنه متعجبا منه فصاح بي ادن مني لقني الشهادة فصرت اليه فلما قربت منه استدناني ثم التقم أذني فذهب بها فجعلت ألعنه وأدعو عليه فقال اذا صرت الى امك فقالت من فعل هذا بك فقل عمير بن الاهلب الضبي مخدوع المرأة التي أرادت ان تكون أمير المؤمنين وخرجت عائشة من البصرة وقد بعث معها علي اخاها عبد الرحمن بن أبي بكر وثلاثين رجلا وعشرين امرأة من ذوات الدين من عبد القيس وهمدان وغيرهما البسهن العمائم وقلدهن السيوف وقال لهن لا تعلمن عائشة أنكن نسوة كأنكن رجال وكن اللاتي تلين خدمتها وحملها فلما اتت المدينة قيل لها كيف رأيت مسيرك قالت كنت بخير والله لقد أعطى علي بن أبي طالب فاكثر ولكنه بعث معي رجالا فعرفها النسوة أمرهن فسجدت وقالت ما ازددت والله يا ابن أبي طالب الا كرما ووددت أني لم اخرج وان اصابتني كيت وكيت من امور ذكرتها وانما قيل لي تخرجين فتصلحين بين الناس فكان ما كان وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أن الذي قتل من اصحاب علي في ذلك اليوم خمس الاف ومن اصحاب الجمل وغيرهم من اهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر الفا وقيل غير ذلك ووقف علي على عبد الرحمن بن عتاب بن اسيد بن أبي العاص بن امية وهو قتيل يوم الجمل فقال لهفي عليك يعسوب قريش قتلت الغطاريف من بني عبد مناف شفيت نفسي وجدعت انفي فقال له الاشتر ما اشد جزعك عليهم يا أمير المؤمنين وقد ارادوا بك ما نزل بهم فقال لي انه قامت عني وعنهم نسوة لم يقمن عنك واصيب كف ابن عتاب بمنى القاها عقاب وفيها خاتم نقشه عبد الرحمن بن عتاب وكان اليوم الذي وجد فيه الكف بعد يوم الجمل بثلاثة ايام ودخل علي بيت مال الكوفة في جماعة من المهاجرين والانصار فنظر الى ما فيه من العين والورق فجعل يقول يا صفراء غري غيري وادام النظر الى المال مفكرا ثم قال اقسموه بين اصحابي ومن معي خمسمائة خمسمائة ففعلوا فما نقص درهم واحد وعدد الرجال اثنا عشر الفا وقبض ما كان في عسكرهم من سلاح ودابة ومتاع وآلة وغير ذلك فباعه وقسمه بين أصحابه وأخذ لنفسه ما أخذ لكل واحد

ممن معه من أصحابه واهل خمسمائة درهم فأتاه رجل من أصحابه فقال يا أمير المؤمنين انى لم آخذ شيأ وخلفنى عن الحضور كذا وأدلى بعذر فأعطاه الخمسمائة التى كانت له وقيل لابى لبيد الجهمى من الازد أتحب عليا قال وكيف أحب رجلا قتل من قومى فى بعض يوم الفين وخمسمائة وقتل من الناس حتى لم يكن أحد يعزى أحدا واشتغل اهل كل بيت بمن لهم وولى على على البصرة عبد الله بن عباس وسار الى الكوفة فكان دخوله اليها لاثنتى عشرة ليلة مضت من رجب وبعث الى الاشعث بن قيس يعزله عن اذربيجان وارمينية وكان عاملا لعثمان فكان فى نفس الاشعث على على ما ذكرنا من العزل وما خاطبه به حين قدم عليه فيما اقتطع هنالك من الاموال ووجه بجرير بن عبد الله الى معاوية وقد كان جرير قال لعلى ابعثنى اليه فانه لم يزل لى مستنصحا وواداً فآتيه وأدعوه الى أن يسلم هذا الامر وأدعو اهل الشام الى طاعتك فقال الاشتر لا تبعثه ولا تصدقه فوالله انى لاظن هواه هواهم ونيته نيتهم فقال على دعه حتى ننظر ما يرجع به الينا فبعث به وكتب الى معاوية معه يعلمه مبايعة المهاجرين والانصار اياه واجتماعهم عليه ونكث الزبير وطلحة وما أوقع الله بهما ويأمره بالدخول فى طاعته ويعلمه أنه من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة فلما قدم عليه جرير دافعه وسأله أن ينتظره وكتب الى عمرو بن العاص على ما قدمنا فى صدر هذا الباب فأشار عليه عمرو بالبعثة الى وجوه الشام وأن يلزم عليا دم عثمان ويقاتلهم به فقدم جرير على على فأخبره خبرهم واجتماع اهل الشام مع معاوية على قتاله وأنهم يبكون على عثمان ويقولون ان عليا قتله وآوى قتلته ومنع منهم وانهم لا بد لهم من قتاله حتى يفنوه أو يفنيهم فقال الاشتر قد كنت أخبرتك يا أمير المؤمنين بعداوته وغشه لو بعثتنى لكنت خيرا من هذا الذى ارخى خناقه وأقام حتى لم يدع بابا نرجو منه الا فتحه ولا بابا يخاف منه الا اغلقه فقال جرير لو كنت ثم اقتلوك والله لقد ذكروا أنك من قتلة عثمان قال الاشتر لو أتيتهم والله يا جرير لم يعينى جوابهم ولا ثقل على خطابهم ولحملت معاوية على خطة أعجله فيها عن الفكر ولو أطاعنى أمير المؤمنين قبل لحبسك وأشباهك فى محبس فلا تخرجون منه حتى يستقيم هذا الامر فخرج جرير عند ذلك الى بلاد قرقيساء والرحبة من شاطئ الفرات وكتب الى معاوية يعلمه ما نزل به وأنه أحب مجاورته والمقام فى داره فكتب اليه معاوية بالمسير اليه وبعث معاوية الى المغيرة بن شعبة الثقفى عند منصرف على من الجمل وقبل مسيره الى صفين بكتاب يقول فيه قد ظهر من رأى ابن أبى طالب ما كان يقدم من وعده لك فى طلحة والزبير فما الذى بقى فى رأيه فينا وذلك أن المغيرة بن شعبة لما قتل عثمان وبايع الناس عليا دخل عليه المغيرة فقال يا أمير المؤمنين ان لك عندى نصيحة فقال وما هى قال ان اردت ان يستقيم لك ما انت فيه فاستعمل طلحة بن عبيد الله على الكوفة والزبير بن العوام على البصرة وابعث الى معاوية بعهده على الشام حتى تلزمه طاعتك فاذا استقر قرارها رأيت فيه رايك قال أما طلحة والزبير فسأرى رأيى فيهما وأما معاوية فلا والله لا يرانى الله استعين به ما دام على ابدا ولكنى ادعوه الى ما عرفته فان أجاب والا حاكمته الى الله فانصرف المغيرة وقال

نصحت عليا فى ابن هند مقالة * فردّت فلا يسمع لها الدهر ثانيه

وقالت له ارسل اليه بعهده * على الشام حتى يستقر معاويه
ويعلم اهل الشام ان قد ملكته * وام ابن هند عند ذلك هاويه
فلم يقبل النصح الذى جئته به * وكانت له تلك النصيحة كافيه

(قال المسعودى) رحمه الله وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب ما كان من المغيرة مع علىّ وما اشار به وهذا أحد الوجوه المروية فى ذلك فهذه جوامع ما يحتاج اليه من أخبار يوم الجمل وما كان فيه دون الاكثار والتطويل وتكرار الاسانيد فى ذلك والله ولى التوفيق

* (ذكر جوامع مما كان بين اهل العراق وأهل الشام بصفين) *

(قال المسعودى) رحمه الله وقد ذكرنا جملا وجوامع من أخبار على رضى الله عنه بالبصرة وما كان يوم الجمل فلنذكر الآن جوامع من سيره الى صفين وما كان فيها من الحروب ثم نعقب ذلك بشأن الحكمين والنهروان ومقتله عليه السلام وكان سير علىّ من الكوفة الى صفين لخمس خلون من شوال سنة ست وثلاثين واستخلف على الكوفة ابا مسعود عقبة بن عامر الانصارى فاجتاز فى مسيره بالمدائن ثم اتى الانبار وسار حتى نزل الرقة فعقد له هناك جسرا فعبر الى جانب الشام وقد تنوزع فى مقدار ما كان معه من الجيش فمكثر ومقلل والمتفق عليه من قول الجميع تسعون الفا فقال رجل من اصحاب علىّ لما استقروا مما يلى الشام من ابيات كتب بها الى معاوية

اثبت معاوى قد اتاك الحافل * تسعون الفا كلهم مقاتل * عما قليل يضمحل الباطل

وسار معاوية من الشام وقد تنوزع فى مقدار من كان معه فمكثر ومقلل والمتفق عليه من قول الجميع خمس وثمانون الفا فسبق عليا الى صفين وعسكر فى موضع سهل افيح اختاره قبل قدوم علىّ على شريعة لم يكن على الفرات فى ذلك الموضع أسهل منها للوارد الى الماء وما عداها أخراق عالية ومواضع الى الماء وعرة ووكل ابا الاعور السلمى بالشريعة مع اربعين الفا وكان على مقدمته وبات علىّ وجيشه فى البر عطاشا قد حيل بينهم وبين الورود الى الماء فقال عمرو بن العاص لمعاوية ان عليا لا يموت عطشا هو وتسعون الفا من اهل العراق وسيوفهم على عواتقهم ولكن دعهم يشربون ونشرب فقال معاوية لا والله او يموتوا عطشا كما مات عثمان وعلىّ يدور فى عسكره بالليل فسمع قايلا وهو يقول

ايمنعنا القوم ماء الفرات * وفينا الرماح وفينا الحجف
وفينا علىّ له صولة * اذا خوفوه الردى لم يخف
ونحن غداة لقينا الزبير * وطلحة خضنا غمار التلف
فما بالنا الامس أسد العرين * وما بالنا اليوم شاة النجف

والقى فى فسطاط الاشعث بن قيس رقعة فيها

لين لم يجل الاشعث اليوم كربة * من الموت عنا للنفوس تعلت
ونشرب من ماء الفرات بسيفه * فهبنا اناسا قبل كانوا فموتوا

فلما قرأها حمى واتى عليا رضى الله عنه فقال له اخرج فى اربعة آلاف من الخيل حتى تهجم فى وسط عسكر معاوية فتشرب وتستقى لاصحابك او تموتوا عن اخركم وانا أسير فى خيل ورجاله

وراءك فسار الاشعث وهو يقول مرتجزا

لاوردن خيلي الفراتا * شعث النواصي او يقال ماتا

ثم دعا علي الاشتر فسرحه في اربعة آلاف من الخيل والرجالة فصار يؤم الاشعث صاحب رايته وهو رجل من النخع يرتجز ويقول

يا أشتر الخيرات ياخير النخع * وصاحب النصر اذا عال الفزع

قد خرج القوم وعالوا بالفزع * ان تسقنا اليوم فما هو بالبدع

ثم سار علي رضي الله عنه وراء الاشتر بباقي الجيش ومضى الاشعث فاردوجهه حتى هجم على عسكر معاوية فأزال أبا الاعور عن الشريعة وغرق منهم بشرا وخيلا واورد خيله الفرات وذلك ان الاشعث داخلته الحمية في هذا اليوم وكان يقدم رمحه ثم يحث اصحابه فيقول ارجوهم مقدار هذا الرمح فيزيلوهم عن ذلك المكان فبلغ ذلك من فعل الاشعث عليا فقال هذا اليوم نصرنا فيه بالحمية وفي ذلك يقول رجل من أهل العراق

كشف الاشعث عنا * كربة الموت عيانا

بعد ماطارت كلانا * طيرة مست لهانا

فله المن علينا * وبه درات رحانا

وارتحل معاوية عن الموضع وورد الاشتر وقد كشف الاشعث القوم عن الماء وازالهم عن مواضعهم وورد علي فنزل في الموضع الذي كان فيه معاوية فقال معاوية لعمرو بن العاص يا أبا عبد الله ماظنك بالرجل اتراه يمنعنا الماء لمنعنا اياه وقد انحاز باهل الشام الي ناحية في البر نائيا عن الماء فقال له عمرو لا ان الرجل جاء لغير هذا وانه لا يرضى حتى تدخل في طاعته او يقطع حبال عاتقك فارسل اليه معاوية يستاذنه في وروده مشرعته واستقاء الناس من طريقه ودخل رسله عسكره فاباحه علي كما سال وطلب منه ولما كان اول يوم من ذي الحجة بعد نزول علي على هذا الموضع بيومين بعث الى معاوية يدعوه الى اتحاد الكلمة والدخول في جماعة المسلمين وطالت المراسلة بينهما فاتفقوا على الموادعة الى آخر المحرم في سنة سبع وثلاثين وامتنع المسلمون عن الغزو في البحر والبر لشغلهم بالحروب وقد كان معاوية صالح ملك الروم على مال يحمله اليه لشغله بعلي ولم يتم بين علي ومعاوية صلح على غير ما اتفقا عليه من الموادعة في المحرم وعزم القوم على الحرب بعد انقضاء المحرم ففي ذلك يقول حابس بن سعد الطائي صاحب راية معاوية

فما دون المنايا غير سبع * بقين من المحرم او ثمان

ولما كان في اليوم الآخر من المحرم قبل غروب الشمس بعث الى اهل الشام اني قد احتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم اليه واني قد نبذت اليكم على سواء ان الله لا يحب الخائنين فلم يردوا عليه جوابا الا السيف بيننا وبينك او يهلك الاعجز منا واصبح علي يوم الاربعاء وكان اول يوم من صفر فعبأ الجيش واخرج الاشتر امام الناس وأخرج اليه معاوية وقد تصاف اهل الشام واهل العراق حبيب بن مسلمة الفهري وكان بينهم قتال شديد واسفرت عن قتلى من الفريقين جميعا وانصرفوا فلما كان يوم الخميس وهو اليوم الثاني اخرج علي هاشم بن عتبة

ابن أبي وقاص الزهري المرقال وهو ابن اخي سعد بن أبي وقاص وانما سمي المرقال لانه كان يرقل في الحرب وكان أعور أذهبت عينه يوم اليرموك وكان من شيعة علي وقد اتينا على خبره في اليوم الذي ذهبت فيه عينه وحسن بلائه في ذلك اليوم في الكتاب الاوسط في فتوح الشام فاخرج اليه معوية ابا الاعور السلمي وهو سفيان بن عوف وكان من شيعة معاوية والمنحرفين عن علي وكان بينهم الحرب سجالا وانصرفوا في آخر يومهم عن قتلى كثير وأخرج علي في اليوم الثالث وهو يوم الجمعة ابا اليقظان عمار بن ياسر في عدة من البدريين وغيرهم من المهاجرين والانصار فيمن شرع معهم من الناس وأخرج اليه معاوية عمرو بن العاص في تنوخ ونهر وغيرهما من اهل الشام وكانت بينهم سجالا الى الظهر ثم حمل عمار بن ياسر فيمن ذكرنا فازال عمرا عن موضعه والحقه بعسكر معاوية واسفرت عن قتلى كثيرة من اهل الشام ودونهم من اهل العراق واخرج علي في اليوم الرابع وهو يوم السبت ابنه محمد بن الحنفية في همدان وغيرها ممن خف معه من الناس فاخرج اليه معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب في حمير ولخم وجذام وقد كان عبيد الله بن عمر لحق بمعاوية خوفا من علي ان يقيده بالهرمزان وذلك ان ابا لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة قاتل عمر كان في أرض العجم غلاما للهرمزان فلما قتل عمر شد عبيد الله على الهرمزان فقتله وقال لا أترك بالمدينة فارسيا ولا في غيرها الا قتلته وكان الهرمزان عليلا في الوقت الذي قتل فيه عمر فلما صارت الخلافة الى علي اراد قتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان لقتله اياه ظلما من غير سبب استحقه فلجأ الى معاوية فاقتتلوا في ذلك اليوم وكانت على اهل الشام ونجا ابن عمر في آخر النهار هربا واخرج علي في اليوم الخامس وهو يوم الاحد عبد الله بن العباس فاخرج اليه معاوية الوليد بن عقبة بن أبي معيط فاقتتلوا واكثر الوليد من سب بني عبد المطلب بن هاشم فقاتله ابن عباس قتالا شديدا وناداه ابرز الي يا صفوان وكان لقب الوليد وكانت الغلبة لابن عباس وكان يوما صعبا واخرج علي في اليوم السادس وهو يوم الاثنين سعيد بن قيس الهمداني وهو سيد همدان يومئذ فاخرج اليه معاوية ذا الكلاع وكانت بينهما الى آخر النهار واسفرت عن قتلى وانصرف الفريقان جميعا واخرج علي في اليوم السابع وهو يوم الثلاثاء الاشتر في النخع وغيرهم فاخرج اليه معاوية حبيب بن سلمة الفهري فكانت بينهم سجالا وصبر كلا الفريقين وتكاثروا وتواقفوا للحرب واسفرت عن قتلى منهما والجراح في اهل الشام اعم وخرج في اليوم الثامن وهو يوم الاربعاء علي رضي الله تعالى عنه بنفسه في الصحابة من البدريين وغيرهم من المهاجرين والانصار وربيعة وهمدان قال ابن عباس رايت في هذا اليوم عليا وعليه عمامة بيضاء وكأن عينيه سراجا سليط وهو يقف على طوائف الناس في مراتبهم يحثهم ويحرضهم حتى انتهى الي وأنا في كثيف من الناس فقال يا معشر المسلمين عموا الاصوات وأكملوا اللامة واستشعروا الخشية واقلقوا السيوف في الاجفان قبل السلة وألحظوا الشذر واطعنوا الهبر ونافحوا الصبا وصلوا السيوف بالخطاء والنبال بالرماح وطيبوا عن أنفسكم أنفسا فانكم بعين الله ومع ابن عم رسول الله عاودوا الكر واستقبحوا الفر فانه عار في الاعقاب ونار يوم الحساب ودونكم هذا السواد الاعظم والرواق المطنب فاضربوا ثبجه فان الشيطان راكب

صعيده معترض ذراعيه قد قدّم للوثبة يدا واخر للنكوص رجلا فصبرا جميلا حتى تنجلى عن وجه الحق وانتم الاعلون والله معكم ولن يتركم اعمالكم وتقدم على للحرب على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء وخرج معاوية فى عدد اهل الشام فانصرفوا عند المساء وكل غير ظافر وخرج فى اليوم التاسع على وهو يوم الخميس وخرج معاوية فاقتتلوا الى ضحوة من النهار وبرز أمام الناس عبيد الله بن عمر بن الخطاب فى اربعة آلاف من الحضرية معممين بشقق الحرير الاخضر متقدمين للموت يطالبوت بدم عثمان وابن عمر يقدمهم وهو يقول

انا عبيدالله ينميني عمر * خير قريش من مضى ومن غبر
غير نبي الله والشيخ الاغر * قد ابطات فى نصر عثمان مضر
والربعيون فلا أسقوا المطر

فناداه على ويحك يا ابن عمر علام تقاتلنى والله لو كان ابوك حيا ما قاتلنى قال أطلب بدم عثمان قال انت تطلب بدم عثمان والله يطلبك بدم الهرمزان وأمر على الاشتر النخعى بالخروج اليه فخرج الاشتر اليه وهو يقول

انى انا الاشتر معروف السير * انى انا الافعى العراقى الذكر
لست من الحى ربيع اومضر * لكننى من مذحج البيض الغرر

فانصرف عنه عبيدالله ولم يبارزه وكثرت القتلى يومئذ وقال عمار بن ياسر انى لأرى وجوه قوم لا يزالون يقاتلون حتى يرتاب المبطلون والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لكنا على الحق وكانوا على الباطل وتقدم عمار فقاتل ثم رجع الى موضعه فاستسقى فاتته امراة من نساء بنى شيبان من مصافهم بعس فيه لبن فدفعته اليه فقال الله اكبر الله اكبر اليوم القى الاحبة تحت الاسنة صدق الصادق وبذلك خبر الناطق وهو اليوم الذى وعدت فيه ثم قال أيها الناس هل من رائح الى الله تحت العوالى والذى نفسى بيده لنقاتلنكم على تأويله كما قاتلناكم على تنزيله وتقدم وهو يقول

نحن ضربناكم على تنزيله * فاليوم نضربكم على تاويله
ضربا يزيل الهام عن مقيله * ويذهل الخليل عن خليله
اويرجع الحق الى سبيله

فتوسط القوم واشتبكت عليه الاسنة فقتله ابو الهادية العاملى وابو حواء السكسكى واختلفا فى سلبه فاحتكما الى عبدالله بن عمرو بن العاص فقال لهما اخرجا عنى فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اوقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وبغت قريش بعمار مالهم ولعمار يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار وكان قتله عند المساء وله ثلاث وتسعون سنة وقبره بصفين وصلى عليه على عليه السلام ولم يغسله وكان يغير شيبه وقد تنوزع فى نسبه فمن الناس من الحقه ببنى مخزوم ومنهم من رأى انه من حلفائهم ومنهم من رأى غير ذلك وقد اتينا على خبره فى كتاب مزاهر الاخبار وطرائف الآثار عند ذكرنا الاشتراط الخمسين الذين بايعوا عليا على الموت وفى قتله يقول الحجاج بن غزية الانصارى ابياتا رثاه بها

يا للرجال لعين دمعها جارى * قد هاج حزنى ابو اليقظان عمار

اهوى اليه ابو حوا فوارسه * يدعو السكون وللجيشين اعصار
فاختل صدر أبي اليقظان معترضا * للرمح قد وجبت فينا له النار
الله عن جمعهم لاشك كان عفا * اتت بذلك آيات وآثار
من ينزع الله غلا من صدورهم * على الاسرة لم تمسسهم النار
قال النبي له تقتلك شرذمة * سيطت لحومهم بالبغي فجار
فاليوم يعرف اهل الشام أنهم * أصحاب تلك وفيها النار والعار

ولما صرع عمار تقدم سعيد بن قيس الهمدانى فى همدان وتقدم سعد بن عبادة الانصارى فى الانصار وربيعة وعدى بن حاتم فى طىء وسعيد بن قيس الهمدانى فى اول الناس فخلطوا الجمع بالجمع واشتد القتال وحطمت همدان اهل الشام حتى قذفتهم الى معاوية وقد كان معاوية صمد فيمن كان معه لسعيد بن قيس ومن معه من همدان وأمر على الاشتر ان يتقدم باللواء الى اهل حمص وغيرهم من اهل قنسرين فاكثر القتل فى اهل حمص وقنسرين بمن معه من القراء وأتى المرقال يومئذ بمن معه فلا يقوم له شئ وجعل يرقل كما يرقل الفحل فى قيده وعلى وراءه يقول يا أعور لاتكن جبانا تقدم والمرقال يقول

قد اكثر القوم وما أقلا * أعور يبغى أهله محلا
قد عالج الحياة حتى ملا * لابد ان يفل او يفلا
اسلهم بذى الكعوب سلا

ثم قصد هاشم بن عتبة المرقال لذى الكلاع وهو من حمير فحمل عليه صاحب لواء ذى الكلاع وكان رجلا من عذرة وهو يقول

اثبت فانى لست من فرعى مضر * نحن اليمانيون مافينا ضجر
كيف ترى وقع غلام من عذر * ينعى ابن عفان ويلحى من غدر
يا أعور العين رمى فيها العور * سيان عندى من سعى ومن أمر

فاختلفا طعنتين فطعنه هاشم المرقال فقتله وقتل بعده سبعة عشر رجلا وحمل هاشم المرقال وحمل ذو الكلاع ومع المرقال جماعة من أسلم قد آلوا ان لايرجعوا أو يفتحوا أو يقتلوا فاجتلد الناس فقتل هاشم المرقال وقتل ذو الكلاع جميعا فتناول ابن المرقال اللواء حين قتل ابوه فى وسط المعركة وكر فى العجاج وهو يقول

يا هاشم بن عتبة بن مالك * أعزز بشيخ من قريش هالك
يخبط الخيلين بالسنابك * ابشر بحور العين فى الارائك
والروح والريحان عند ذلك

ووقف على رضى الله عنه عند مصرع المرقال ومن صرع حوله من الاسلميين وغيرهم فدعا لهم وترحم عليهم وقال من ابيات

جزا الله خيرا عصبة أسلمية * صباح الوجوه صرعوا حول هاشم
يزيد وعبد الله بشر بن معبد * وسفيان وابنا هاشم ذى المكارم
وعروة لاينفد ثناه وذكره * اذا سل بالبيض الخفاف الصوارم

واستشهد

واستشهد فی ذلك الیوم صفوان وسعد ابنا حذیفة بن الیمان وقد كان حذیفة علیلا بالكوفة فی سنة ست وثلاثین فبلغه قتل عثمان وبیعة الناس لعلی فقال أخرجونی وادعوا الصلاة جامعة فوضع علی المنبر فحمد الله وأثنی علیه وصلی علی النبی وعلی آله ثم قال ایها الناس ان الناس قد بایعوا علیا فعلیكم بتقوی الله وانصروا علیا ووازروه فوالله انه لعلی الحق آخرا وأولا وانه لخیر من مضی بعد نبیكم ومن بقی الی یوم القیمة ثم اطبق یمینه علی یساره ثم قال اللهم اشهد أنی قد بایعت علیا وقال الحمد لله الذی أبقانی الی هذا الیوم وقال لابنیه صفوان وسعد احملانی وكونا معه فسیكون له حروب كثیرة فیهلك فیها خلق من الناس فاجتهدا ان تستشهدا معه فانه والله علی الحق ومن خالفه علی الباطل ومات حذیفة بعد هذا الیوم بسبعة ایام وقیل باربعین یوما واستشهد عبد الله بن الحارث النخعی اخو الاشتر واستشهد فیه عبد الله وعبد الرحمن ابنا بدیل بن ورقاء الخزاعی فی خلق من خزاعة وكان عبد الله فی میسرة علی وهو یرتجز ویقول

لم یبق الا الصبر والتوكل * واخذك الترس وسیف مصقل
ثم التمشی فی الرعیل الاول

فقتل ثم قتل عبد الرحمن اخوه بعده فیمن ذكرنا من خزاعة ولما رای معاویة القتل فی أهل الشام وكلب أهل العراق علیهم استدعی بالنعمان بن جبلة التنوخی وكان صاحب رایة قومه فی تنوخ ونهد وقال له لقد هممت أن أولی قومك من هو خیر منك مقدما وانصح منك دینا فقال له النعمان انا لو كنا ندعی الی جیش ممنوع لكان فی لكع بعد الاناة فكیف ونحن ندعوهم الی سیوف قاطعة وردینیة شاغرة وقوم ذی بصایر نافذة والله لقد نصحتك علی نفسی وآثرت ملكك علی دینی وتركت لهواك الرشد وانا أعرفه وحدت عن الحق وانا ابصره وما وفقت لرشد حین أقاتل عن ملكك ابن عم رسول الله صلی الله علیه وسلم وأول مؤمن به ومهاجر معه ولو اعطیناه ما اعطیناك لكان أرأف بالرعیة وأجزل فی العطیة ولكن قد بذلنا لك الامر ولا بد من اتمامه كان غیا اورشدا وحاشا ان یكون رشدا وسنقاتل عن تین الغوطة وزیتونها اذ أحرمنا أثمار الجنة وأنهارها وخرج الی قومه وصمد الی الحرب وكان عبید الله ابن عمر اذا خرج الی القتال قام الیه نساؤه فشددن علیه سلاحه ما خلا الشیبانیة بنت هانئ بن قبیصة فخرج فی هذا الیوم وأقبل علی الشیبانیة وقال لها انی قد عبأت الیوم لقومك وایم الله انی لارجو أن أربط بكل طنب من اطناب فسطاطی سیدا منهم فقالت ما أبغض الا ان تقاتلهم قال ولم قالت لانه لم یتوجه الیهم صندید الا أبادوه وأخاف ان یقتلوك وكانی بك قتیلا وقد اتیتهم أسألهم ان یهبوا الی جیفتك فرماها بقوس فشجها وقال لها ستعلمین بمن آتیك من زعماء قومك ثم توجه فحمل علیه حریث بن جابر الجعفی فطعنه فقتله وقیل ان الاشتر النخعی هو الذی قتله وقیل ان علیا ضربه فقطع ما علیه من الحدید حتی خالط سیفه حشوة جوفه وان علیا قال حین هرب فطلبه لیقید منه بالهرمزان لئن فاتنی فی هذا الیوم لا یفوتنی فی غیره وكلمن نساؤه معاویة فی جیفته فامر أن تاتین ربیعة فتبذلن فی جیفته عشرة الاف ففعلن ذلك فاستامرت ربیعة علیا فقال انما جیفته جیفة كلب لا یحل بیعها ولكن

قد اجبتم الى ذلك فاجعلوا جيفته لبنت هانى بن قبيصة الشيبانى زوجته فقالوا النسوة عبيد الله ان شئتن شددناه الى ذنب بغل ثم ضربناه حتى يدخل الى عسكر معاوية فصرخن وقلن هذا أشد علينا وأخبرن معاوية بذلك فقال لهن ايتوا الشيبانية فسلوها ان تكلمهم فى جيفته ففعلن واتت القوم وقالت انا بنت هانى بن قبيصة وهذا زوجى القاطع الظالم قد حذرته ما صار اليه فهبوا لى جيفته ففعلوا والقت اليهم بطرف خز فادرجوه فيه ودفعوه اليها وقد شد فى رجله الى طنب فسطاط من فساطيطهم ولما قتل عمار ومن ذكرنا فى هذا اليوم حرض على عليه السلام الناس وقال لربيعة انتم درعى ورمحى فانتدب له ما بين عشرة آلاف الى اكثر من ذلك من ربيعة وغيرهم قد جادوا بانفسهم لله عز وجل وعلى امامهم على البغلة الشهباء وهو يقول

من أى يومى من الموت أفر * أيوم لم يقدر أم يوم قدر

وحمل وحملوا معه حملة رجل واحد فلم يبق لاهل الشأم صف الا انتقض وأهمدوا كلما اتوا عليه حتى أتوا الى قبة معاوية وعلى لا يمر بفارس الا قده وهو يقول

أضربهم ولا ارى معاويه * الأخزر العين العظيم الهاويه
تهوى به فى النار أم هاويه

وقيل ان هذا الشعر للبديل بن ورقاء قاله فى ذلك اليوم ثم نادى على يا معاوية علام يقتل الناس بينى وبينك هلم احاكمك الى الله فاينا قتل صاحبه استقامت له الامور فقال له عمرو قد انصفك الرجل فقال له معاوية ما أنصفت وانك لتعلم انه لم يبارزه رجل قط الا قتله أو أسره فقال له عمرو وما تجمل بك الا مبارزته فقال له معاوية طمعت فيها بعدى وحقدها عليه وقد قيل فى بعض الروايات ان معاوية أقسم على عمرو لما اشار عليه بهذا ان يبرز الى على فلم يجد عمرو من ذلك بدا فبرز فلما التقيا عرفه على وشال السيف ليضربه به فكشف عمرو عن عورته وقال مكره أخوك لا بطل فحول على وجهه وقال قبحت ورجع عمرو الى مصافه وقد ذكر هشام بن محمد الكلبى عن الشرقى بن القطامى أن معاوية قال لعمرو بعد انقضاء الحرب هل غششتنى منذ نصحتنى قال لا قال بلى والله يوم أشرت على بمبارزة على وانت تعلم ما هو قال دعاك الى المبارزة فكنت من مبارزته على احدى الحسنيين اما ان تقتله فتكون قد قتلت قاتل الاقران وتزداد شرفا الى شرفك واما ان يقتلك فتكون قد استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا فقال معاوية يا عمرو والثانية اشر من الاولى وكان فى هذا اليوم من القتال ما لم يكن قبل ووجدت فى بعض النسخ من اخبار صفين ان هاشما المرقال لما وقع الى الارض وهو يجود بنفسه رفع راسه فاذا عبيد الله بن عمر مطروح الى قربه جريحا فجثا حتى دنا منه فلم يزل يعض على ثدييه حتى ثبتت فيه اسنانه لعدم السلاح والقوة لانه أصيب فوقه ميتا هو ورجل من بكر بن وايل قد زحف الى عبيد الله فخشأه وانصرف القوم الى مواضعهم وخرج كل فريق منهم يحملون من امكن من قتلاهم ومر معاوية فى خواص من اصحابه فى الموضع الذى كان ميمنته فنظر الى عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى معفرا بدمائه وقد كان على ميسرة على فحمل على ميمنة معاوية فاصيب على ما قدمنا انفا فاراد معاوية ان

يمثل به فقال عبد الله بن عامر وكان صديقا لابن بديل والله لاتركتك واياه فوهبه له فغطاه بعمامته فواراه فقال له معاوية قد والله واريت كبشا من كباش القوم وسيدا من سادات خزاعة غير مدافع لو ظفرت بنا خزاعة لاكلونا ولو أنا في جندل دون هذا الكبش وانشأ يقول متمثلا

اخو الحرب ان عضت به الحرب عضها * وان شمرت يوما به الحرب شمرا

كليث هزبر كان يحمى ذماره * رمته المنايا قصدها فتفطرا

ونظر على الى غسان فى مصافهم لايزولون فحرض اصحابه عليهم وقال ان هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعن يخرج منه النسيم وضرب يفلق الهام ويطفح الطعام وتسقط منه المعاصم والاكف وحتى تشدخ جباههم بعمد الحديد وتنتشر حواجبهم على الصدور والاذقان أين أهل الصبر وطلاب الاجر فثاب اليه عصابة من المسلمين من سائر الناس فدعا ابنه محمدا فدفع اليه الراية وقال امش بها نحو هذه الراية مشيا رويدا حتى اذا اشرعت فى صدورهم الرماح فامسك حتى يأتيك امرى ففعل واتاه على ومعه الحسن والحسين وشيوخ بدر وغيرهم من الصحابة وقد كردس الخيل فحملوا على غسان ومن يليها فقتلوا منها بشرا كثيرا وعادت الحرب فى آخر النهار كحالها فى أوله وحملت ميمنة معاوية وفيها عشرة آلاف من مذحج وعشرون الفا مقنعون فى الحديد على ميسرة على فاقتطعوا الف فارس فانتدب من اصحاب على عبد العزيز بن الحارث الجعفى وقال لعلى مرنى بامرك فقال شد الله ركبك سر حتى تنتهى الى اخواننا المحاط بهم وقل لهم يقول لكم على كبروا ثم احملوا ونحمل حتى نلتقى فحمل الجعفى فطعن فى عرضهم حتى انتهى اليهم فاخبرهم بمقالة على فكبروا ثم شدوا حتى التقوا بعلى وشدخوا سبعمائة من اهل الشام وقتل حوشب ذو ظليم وهو كبش من كباش اليمن فى اهل الشام وكان على راية هذيل بن سنان وغيرها من ربيعة الحصين بن المنذر بن الحارث ابن وعلة الذهلى وفيه يقول على فى هذا اليوم

لمن راية سوداء يخفق ظلها * اذا قلت قدمها حصين تقدما

فاحرم بالتقدم واختلط الناس وبطل النبل واستعملت السيوف وجنهم الليل وتنادوا بالشعار وتقصفت الرماح وتصادم القوم وكان يعتنق الفارس الفارس ويقعان جميعا الى الارض عن فرسيهما وكانت ليلة الجمعة وهى ليلة الهرير فكان جملة من قتل على بكفه فى يومه وليلته خمسمائة وثلاثة وعشرين رجلا أكثرهم فى اليوم وذلك انه كان اذا قتل رجلا كبر اذا ضرب ولم يكن يضرب الا قتل ذكر ذلك عنه من كان يليه فى حربه ولا يفارقه من ولده وغيرهم واصبح القوم على قتالهم وكسفت الشمس وارتفع القتام وتقطعت الالوية ولم يعرفوا مواقيت الصلاة وغدا الاشتر يرتجز وهو يقول

نحن قتلنا حوشبا * لما غدا قد أعلما

وذا الكلاع قبله * ومعبدا اذ قدما

ان تقتلوا منا ابا ال * يقظان شيخا مسلما

فقد قتلنا منكم * سبعين راسا مجرما

اضحوا بصفين وقد * لاقوا نكالا مؤلما

وكان الاشتر فى هذا اليوم وهو يوم الجمعة على ميمنة على وقد أشرف على الفتح ونادت مشيخة اهل الشام الله الله فى الحرمات والنساء والبنات وقال معاوية هلم مخبآتك يا ابن العاص فقد هلكنا وتذكر ولاية مصر فقال عمرو أيها الناس من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه فكثر فى الجيش رفع المصاحف وارتفعت الضجة ونادوا كتاب الله بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ومن لجهاد الروم ومن للترك ومن للكفار ورفع فى عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف وفى ذلك يقول النجاشى بن الحارث

فاصبح أهل الشام قد رفعوا القنا * عليها كتاب الله خير قران
ونادوا عليا يا ابن عم محمد * اما تتقى أن تهلك الثقلان

فلما رأى كثير من اهل العراق ذلك قالوا نجيب الى كتاب الله وننيب اليه وأحب القوم الموادعة وقيل لعلى قد اعطاك معاوية الحق دعاك الى كتاب الله فاقبل منه وكان اشدهم فى ذلك اليوم الاشعث بن قيس فقال على أيها الناس انه لم يكن من أمركم ما احب حتى قرحتكم الحرب وقد والله اخذت منكم وتركت وانى كنت امس اميرا فاصبحت اليوم مأمورا وقد أحببتم البقاء فقال الاشتر ان معاوية لا خلف له من رجاله ولك بحمد الله الخلف ولو كان له مثل رجالك لما كان له مثل صبرك ولا نصرك فاقدع الحديد واستعذ بالله وتكلم رؤساء اصحاب على بنحو من كلام الاشتر فقال الاشعث بن قيس انا لك اليوم على ما كنا عليه امس وليس ندرى ما يكون غدا وقد والله فل الحديد وكلت البصائر وتكلم معه غيره بكلام كثير فقال على ويحكم ما رفعوها الا انكم تعلمونها ولا يعملون بها وما رفعوها لكم الا خديعة ودهاء ومكيدة فقالوا له انه ما يسعنا ان ندعى الى كتاب الله فنأبى أن نقبله فقال ويحكم انما قاتلتهم ليدينوا بحكم الكتاب فقد عصوا الله فيما أمرهم به ونبذوا كتابه فامضوا على حقكم وقصدكم وخذوا فى قتال عدوكم فان معاوية وابن العاص وابن أبى معيط وحبيب بن مسلمة وابن النابغة وعدة غير هؤلاء ليسوا باصحاب دين ولا قرآن وانا اعرف بهم منكم صحبتهم أطفالا ورجالا فهم شر أطفال ورجال وجرى له مع القوم خطب طويل قد اتينا ببعضه وتهددوه ان يصنع به ما صنع بعثمان وقال الاشعث ان شئت اتيت معاوية فسألته ما يريد قال ذلك اليك فأته ان شئت فاتاه الاشعث فسأله فقال له معاوية نرجع نحن وانتم الى كتاب الله والى ما أمر به فى كتابه تبعثون منكم رجلا ترضونه وتختارونه ونبعث برجل ونأخذ عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما فى الكتاب ولا يخرجا عنه وننقاد جميعا الى ما اتفقا عليه من حكم الله فصوب الاشعث قوله وانصرف الى على فأخبره بذلك فقال أكثر الناس رضينا وقبلنا وسمعنا وأطعنا فاختار أهل الشام عمرا بن العاص وقال الاشعث ومن ارتد بعد ذلك الى رأى الخوارج رضينا نحن بأبى موسى الاشعرى فقال على قد عصيتمونى فى أول الامر فلا تعصونى الآن انى لا أرى ان اولى ابا موسى الاشعرى فقال الاشعث ومن معه لا نرضى الا بابى موسى الاشعرى قال ويحكم ليس بثقة قد فارقنى وخذل الناس وفعل كذا وكذا وذكر اشياء

فعلها ابو موسى ثم انه هرب شهورا حتى أمنته لكن هذا عبد الله بن عباس اوليه ذلك فقال الاشعث واصحابه والله لا يحكم فينا مضري قال علي فالاشتر قالوا وهل هاج هذا الامر الا الاشتر قال فاصنعوا الآن ما اردتم وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه فبعثوا الى أبي موسى وكتبوا له القضية وقيل لابي موسى ان الناس قد اصطلحوا قال الحمد لله وقد جعلوك حكما قال انا لله وانا اليه راجعون

(ذكر الحكمين وبدء التحكيم)

كان ابو موسى الاشعري يحدث قبل وقعة صفين ويقول ان الفتن لم تزل في بني اسرائيل ترفعهم وتخفضهم حتى يبعثوا الحكمين يحكمان بما لا يرضى به من اتبعهما فقال سويد بن علقمة اياك ان ادركت ذلك الزمان ان تكون أحد الحكمين قال أنا قال نعم انت فكان يخلع قميصه ويقول لا جعل الله لي اذا في السماء مصعدا ولا في الارض مقعدا فلقيه سويد بن علقمة بعد ذلك فقال يا ابا موسى اتذكر مقالتك قال سل ربك العافية وكان فيما كتب في الصحيفه ان يحيي الحكمان ما أحيا القرآن ولا يتبعان الهوى ولا يداهنان في شيء من ذلك فان فعلا فلا حكم لهما والمسلمون من حكمهما براء وقال علي للحكمين حين أكره على امرهما ورد الاشتر وكان قد أشرف في ذلك اليوم على الفتح فاخبره مخبر بما قالوا في علي وانه ان لم يرده سلم الى معاوية وفعل به ما فعل بابن عفان فانصرف الاشتر خوفا على علي على ان تحكما بما في كتاب الله وكتاب الله كله لي فان لم تحكما بما في كتاب الله فلا حكم لكما وصيروا الأجل الى شهر رمضان على اجتماع الحكمين في موضع بين الكوفة والشام وكان الوقت الذي كتبت فيه الصحيفة لايام بقين من صفر سنة سبع وثلاثين وقيل بعد هذا الشهر منها ومر الاشعث بالصحيفة يقرؤها على الناس فرحا مسرورا حتى انتهى الى مجلس لبني تميم فيه جماعة من زعمائهم منهم عروة بن الزبير التميمي وهو اخو بلال الخارجي فقرأها عليهم فجرى بين الاشعث وبين اناس منهم خطب طويل وان الاشعث كان بدء هذا الامر والمانع لهم من قتال عدوهم حتى يفيئوا الى امر الله وقال عروة بن أدية أتحكمون في دين الله وأمره ونهيه الرجال لا حكم الا الله فكان أول من قالها وحكم بها وقد تنوزع في ذلك وشد بسيفه على الاشعث فضم فرسه عن الضربة فوقعت في عجز الفرس ونجا الاشعث وكادت العصبية ان تقع بين النزارية واليمانية لولا اختلاف كلمتهم في الديانة والتحكيم وفي فعل عروة بن أدية بالاشعث يقول رجل من بني تميم في ابيات

عروا يا عرو كل فتنة قوم * سلفت انما تكون فتيه
ثم تنمى ويعظم الخطب فيها * فاحذرن غب ما أتيت عريه
اعلى الاشعث المعصب بالتا * ج حملت السلاح يا ابن أديه
انها فتنة كفتنة ذي الجمـ * ـل ايا عروة العصا والعصيه
فانظر اليوم ما يقول علي * واتبعه فذاك خير البريه

وقد تنوزع في مقدار من قتل من اهل الشام والعراق بصفين فذكر احمد بن الدورقي عن يحيى ابن معين ان عدة من قتل بها من الفريقين في مائة يوم وعشرة ايام مائة الف وعشرة الاف من الناس من اهل الشام تسعون الفا ومن اهل العراق عشرون الفا ونحن نذهب الى ان

عدد من حضر الحرب من اهل الشام بصفين اكثر مما قيل فى هذا الباب وهو خمسون ومائة الف مقاتل سوى الخدم والاتباع وعلى هذا يجب ان يكون مقدار القوم جميعا من قاتل منهم ومن لم يقاتل من الخدم وغيرهم ثلثمائة الف بل اكثر من ذلك لان أقل من فيهم معه واحد يخدمه وفيهم من معه الخمسة والعشرة من الخدم والاتباع واكثر من ذلك واهل العراق كانوا فى عشرين ومائة الف مقاتل دون الاتباع والخدم واما الهيثم بن عدى الطاءى وغيره مثل الشرقى ابن القطامى وابى مخنف لوط بن يحيى فذكروا ما قدمنا وهو ان جملة من قتل من الفريقين جميعا سبعون الفا من أهل الشام خمسة وأربعون ألفا ومن اهل العراق خمسة وعشرون الفا فيهم خمسة وعشرون بدريا وان العدد كان يقع بالقضيب والاحصاء للقتلى فى كل وقعة وتحصيل هذا يتفاوت لان فى قتلى الفريقين من يعرف ومن لا يعرف وفيهم من غرق وفيهم من قتل فى البر فاكلته السباع فلم يدركهم الاحصاء وغير ذلك مما يعسر ما وصفنا وسمعت امراة بصفين وقد قتل لها ثلاثة اولاد وهى تقول

أعينىّ جودا بدمع سرب * على فتية من خيار العرب
وما ضرّهم غير حين النفوس * باىّ امرئ من قريش غلب

ولما وقع التحكيم تباغض القوم جميعا يتبرأ الاخ من أخيه والابن من ابيه وأمر علىّ بالرحيل لعلمه باختلاف الكلمة وتفاوت الرأى وعدم النظام لامورهم وما لحقه من الخلاف منهم وكثرة التحكيم فى جيش اهل العراق وتضارب القوم بالمقارع ونعال السيوف وتسابوا ولام كلّ فريق منهم الآخر فى رأيه وسار علىّ يؤم الكوفة ولحق معاوية بدمشق من أرض الشام وفرق عساكره فلحق كل جند منهم ببلده ولما دخل علىّ رضى الله عنه الكوفة انحاز عنه اثنا عشر ألفا من القرّاء وغيرهم فلحقوا بحرورى قرية من قرى الكوفة وجعلوا عليهم شبيب ابن ربعى التميمى وعلى صلاتهم عبد الله بن الكواء اليشكرى من بكر بن وائل فخرج علىّ اليهم وكانت له معهم مناظرات فدخلوا جميعا الكوفة وانما سموا الحرورية لاجتماعهم فى هذه القرية وانحيازهم اليها وقد ذكر يحيى بن معين قال حدثنا وهب بن جابر بن حازم عن الصلت ابن بهرام قال لما قدم علىّ الكوفة جعلت الحرورية تناديه وهو على المنبر جزعت من البلية ورضيت بالقضية وقبلت الدنية لا حكم الا لله فيقول حكم الله انتظر فيكم فيقولون ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين فيقول علىّ فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون وفى سنة ثمان وثلاثين كان التقاء الحكمين بدومة الجندل وقيل بغيرها على ما قدمنا فى وصف التنازع فى ذلك وبعث علىّ بعبد الله بن العباس وشريح بن هانئ الهمدانى فى اربعمائة رجل فيهم ابو موسى الاشعرى وبعث معاوية بعمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن الصمة فى اربعمائة فلما تدانى القوم من الموضع الذى كان فيه الاجتماع قال ابن عباس لابى موسى ان عليا لم يرض بك حكما لفضل غيرك والمتقدمون عليك كثير وان الناس ابوا غيرك وانى لأظن ذلك لشرّ يراد بهم وقد ضم داهية العرب معك ان نسيت فلا تنس ان عليا بايعه الذين بايعوا ابا بكر وعمر وعثمان وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة وليس فى معاوية خصلة تقربه من الخلافة ووصى معاوية عمرا

حين فارقه وهو يريد الاجتماع بأبي موسى فقال يا أبا عبد الله ان اهل العراق قد اكرهوا عليا على ابي موسى وأنا وأهل الشأم راضون بك وقد ضم اليك رجل طويل اللسان قصير الرأي فأخذ الحد وطبق المفصل ولا تلقه برأيك كله. ووافاهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله ابن عمر وعبد الرحمن بن يغوث الزهري والمغيرة بن شعبة الثقفي وغيرهم وهؤلاء ممن قعد عن بيعة علي في آخرين من الناس وذلك في شهر رمضان فلما التقى ابو موسى وعمرو قال عمرو لابي موسى تكلم وقل خيرا فقال ابو موسى بل تكلم انت يا عمرو فقال عمرو ما كنت لأفعل وأقدم نفسي قبلك ولك حقوق كلها واجبة لسنك وصحبتك رسول الله صلى الله عليه وسلم وانت ضيف فحمد الله ابو موسى وأثنى عليه وذكر الحديث الذي حل بالاسلام والخلاف الواقع باهله ثم قال يا عمرو هلم الى أمر يجمع الله فيه الالفة ويلم الشعث ويصلح ذات البين فجزاه عمرو خيرا وقال ان للكلام أولا وآخرا ومتى تنازعنا الكلام خطبا لم يبلغ آخره حتى ننسى أوله فأجعل ما كان من كلام نتصادر عليه في كتاب يصير اليه امرنا قال فاكتب فدعا عمرو بصحيفة وكاتب وكان الكاتب غلاما لعمرو فتقدم اليه ليبدأ به أولا دون ابي موسى لما أراد من المكر به ثم قال له بحضرة الجماعة اكتب فانك شاهد علينا ولا تكتب شيأ يأمرك به احدنا حتى تستأمر الآخر فيه فاذا امرك فاكتب واذا نهاك فانته حتى يجتمع رأينا اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان فكتب وبدأ بعمرو فقال له عمرو لا ام لك اتقدمني قبله كأنك جاهل بحقه فبدأ باسم عبد الله بن قيس وكتب تقاضيا على انهما يشهدان ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ثم قال عمرو ونشهد ان ابا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عمل بكتاب الله وسنة رسول الله حتى قبضه الله اليه وقد ادى الحق الذي عليه قال ابو موسى اكتب ثم قال في عمر مثل ذلك ثم قال عمرو اكتب وان عثمان ولي هذا الامر بعد عمر على اجماع من المسلمين وشورى من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى منهم وانه كان مؤمنا فقال ابو موسى الاشعري ليس هذا مما قعدنا له قال عمرو والله لابد من ان يكون مؤمنا او كافرا قال ابو موسى اكتب قال عمرو فظالما قتل عثمان او مظلوما قال ابو موسى بل قتل مظلوما قال عمرو أفليس قد جعل الله لولي المظلوم سلطانا يطلب بدمه قال ابو موسى نعم قال عمرو فهل تعلم لعثمان وليا أولى من معاوية قال ابو موسى لا قال عمرو أفليس لمعاوية ان يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله او يعجز قال ابو موسى بلى قال عمرو للكاتب اكتب وامره ابو موسى فكتب قال عمرو فانا نقيم البينة أن عليا قتل عثمان قال ابو موسى هذا امر قد حدث في الاسلام وانما اجتمعنا لله فهلم الى أمر يصلح الله به امة محمد قال عمرو وما هو قال ابو موسى قد علمت ان أهل العراق لا يحبون معاوية أبدا وأن أهل الشام لا يحبون عليا ابدا فهل نخلعهما جميعا ونستخلف عبد الله بن عمر وكان عبد الله بن عمر على بيت أبي موسى قال عمرو أيفعل ذلك عبد الله بن عمر قال ابو موسى نعم اذا حمله الناس على ذلك فعل فعمد عمرو الى كل ما مال اليه ابو موسى فصوبه. وقال له هل لك في سعد قال له أبو موسى لا فعدد له عمرو جماعة وأبو موسى يأبى ذلك الا ابن عمر فاخذ عمرو الصحيفة وطواها وجعلها تحت قدمه بعد أن ختماها جميعا

وقال عمرو أرأيت ان رضى اهل العراق بعبد الله بن عمر وأبى أهل الشام أيقاتل أهل الشام قال أبو موسى لا قال عمرو فان رضى أهل الشام وأبى أهل العراق أيقاتل أهل العراق قال ابو موسى لا قال عمرو أما اذا رأيت الصلاح فى هذا الامر والخير للمسلمين فقم فاخطب الناس واخلع صاحبينا وتكلم باسم هذا الرجل الذى تستخلف فقال ابو موسى بل أنت قم فاخطب فأنت أحق بذلك قال عمرو ما احب ان اتقدمك وما قولى وقولك للناس الا قول واحد فقم راشدا فقام ابو موسى فحمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال ايها الناس انا قد نظرنا فى امرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الامن والصلاح ولم الشعث وحقن الدماء وجمع الالفة خلعنا عليا ومعاوية وقد خلعت عليا كما خلعت عمامتى هذه واهوى الى عمامته فخلعها واستخلفنا رجلا قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وصحب ابوه النبى صلى الله عليه وسلم فبرز فى سابقته وهو عبد الله بن عمر وأطراه ورغب الناس فيه ونزل فقام عمرو فحمد الله واثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ثم قال ايها الناس ان ابا موسى عبد الله بن قيس خلع عليا واخرجه من هذا الامر الذى يطلب وهو أعلم به ألا وانى خلعت عليا معه واثبت معاوية على وعليكم وان ابا موسى قد كتب فى الصحيفة ان عثمان قد قتل مظلوما شهيدا وان لوليه ان يطلب بدمه حيث كان وقد صحب معاوية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وصحب ابوه النبى صلى الله عليه وسلم وأطراه ورغب الناس فيه وقال هو الخليفة علينا وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان فقال ابو موسى كذب عمرو لم نستخلف معاوية ولكنا خلعنا معاوية وعليا معا فقال عمرو بل كذب عبد الله بن قيس قد خلع عليا ولم يخلع معاوية (قال المسعودى رحمه الله) ووجدت فى وجه آخر من الروايات انهما اتفقا على خلع على ومعاوية وانه يجعلا الامر بعد ذلك شورى يختار الناس رجلا يصلح لها فقدم عمرو ابا موسى فقال ابو موسى انى قد خلعت عليا ومعوية فاستقبلوا امركم وتنحى وقام عمرو من مكانه فقال ان هذا قد خلع صاحبه وانا اخلع صاحبه كما خلعه واثبت صاحبى معاوية فقال ابو موسى مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت انما مثلك كمثل الحمار يحمل اسفارا فقال له عمرو بل اياك يلعن الله كذبت وغدرت انما مثلك كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ثم وكز ابا موسى فالقاه لجنبه فلما راى ذلك شريح ابن هانئ قنع عمرا بالسوط وتحول ابو موسى فاستوى على راحلته ولحق بمكة ولم يعد الى الكوفة وقد كانت خطته واهله وولده بها وآلى ان لا ينظر الى وجه على ما بقى ومضى ابن عمر وسعد الى بيت المقدس وفى فعل الحكمين يقول ايمن بن خزيم بن فاتك الاسدى

لو كان للقوم رأى يعظمون به * عند الخطوب رموكم بابن عباس
لكن رموكم بوغد من ذوى يمن * لم يدر ما ضرب اخماس باسداس

وفى اختلاف الحكمين والحكمة يقول بعض من حضر ذلك

رضينا بحكم الله لا حكم غيره * وبالله ربا والنبى وبالذكر
وبالاصلع الهادى على اماما * رضينا بذاك الشيخ فى العسر واليسر
رضينا به حيا وميتا فانه * امام الهدى فى موقف النهى والامر

ولأبي موسى يقول ابن عباس

ابا موسى بليت وكنت شيخا * قريب العفو مخزون اللسان
وما عمرو صفاتك يا ابن قيس * فيا لله من شيخ يماني
فأمسيت العشية ذا اعتذار * ضعيف الركن منكوب العنان
تعض الكف من ندم وماذا * يرد عليك عضك للبنان

وقيل انه لم يكن بينهما غير ما كتبناه في الصحيفة واقرار أبي موسى بان عثمان قتل مظلوما وغير ذلك مما قدمنا وانهما لم يخطبا وذلك ان عمرا قال لابي موسى سم من شئت حتى انظر معك فسمى ابو موسى ابن عمر وغيره ثم قال لعمرو وقد سميت أنا فسم أنت قال نعم اسمي لك اقوى هذه الامة عليها وأسدها رأيا واعلمها بالسياسة معاوية بن أبي سفيان قال لا والله ما هو لذلك بأهل قال فآتيك بآخر ليس هو بدونه قال من هو قال ابو عبد الله عمرو بن العاص فلما قالها علم ابو موسى انه يلعب به فقال فعلتها لعنك الله فتسابا فلحق ابو موسى بمكة فلما انصرف ابو موسى انصرف عمرو بن العاص الى منزله ولم يات الى معاوية فارسل اليه معاوية يدعوه فقال انما كنت اجيئك اذا كانت لي اليك حاجة فاما اذا كانت الحاجة الينا فأنت أحق أن تأتينا فعلم معاوية ما قد وقع اليه فخذ الرأي وأعمل الحيلة وأمر معاوية بطعام كثير فصنع ثم دعا بخاصته ومواليه واهله فقال اني ساغدو الى هذا فاذا دعونه فادعوا مواليه وأهله فليجلسوا قبلكم فاذا شبع رجل وقام فليجلس رجل منكم مكانه فاذا خرجوا ولم يبق في البيت أحد فأغلقوا باب البيت واحذروا ان يدخل احد منهم الا أن آمركم وغدا اليه معاوية وعمرو جالس على فرشه فلم يقم له عنها ولا دعاه اليها فجاء معاوية وجلس على الارض واتكأ على الفرش وذلك ان عمرا كان يحدث نفسه انه قد ملك الامر واليه العهد يضعها في من يرى ويندب للخلافة من يشاء فجرى بينهما كلام كثير وكان مما قال له عمرو هذا الكتاب الذي بيني وبينه عليه خاتمي وخاتمه وقد أقر بان عثمان قتل مظلوما فأخرج عليا من هذا الامر وعرض على رجالا لم أرهم أهلا لها وهذا الامر الي استخلف من شئته قد أعطاني أهل الشام عهودهم ومواثيقهم فحادثه معاوية ساعة واخرجه عما كانوا عليه وضاحكه وداعبه ثم قال يا أبا عبد الله هل من غداء قال اما والله شئ يشبع من ترى فلا فقال معاوية هلم يا غلام غداءك فجيء بالطعام المستعد فوضع فقال يا أبا عبد الله ادع مواليك وأهلك فدعاهم ثم قال له عمرو وادع انت اصحابك قال نعم يأكل اصحابك ثم يجلس هؤلاء بعد فجعلوا كلما قام رجل من حاشية عمرو قعد موضعه رجل من حاشية معاوية حتى خرج اصحاب عمرو وجلس أصحاب معاوية فقام الذي وكله بغلق الباب فأغلق الباب فقال له عمرو فعلتها فقال اي والله بيني وبينك أمران اختر أيهما شئت البيعة لي أو أقتلك ليس والله غيرهما قال عمرو فأذن لغلامي وردان حتى اشاوره وأنظر رأيه قال لا تراه والله ولا يراك الا قتيلا أو على ما قلت لك قال فأولى اذا مصر قال هي لك ما عشت فاستوثق كل واحد منهما من صاحبه واحضر معاوية الخواص من اهل الشام ومنع أن يدخل معهم أحد من حاشية عمرو فقال لهم عمرو قد رأيت أن ابايع معاوية فلم أر احدا اقوى على هذا الامر منه فبايعه اهل الشام وانصرف الى

منزلة خليفة ولما بلغ عليا ما كان من أمر أبي موسى وعمرو قال اني كنت تقدمت اليكم في هذه الحكومة ونهيتكم عنها فأبيتم الا عصياني فكيف رأيتم عاقبة امركم اذ أبيتم علي والله اني لاعرف من حملكم على خلافي والترك لامري ولو أشاء أخذه لفعلت ولكن الله من ورائه يريد بذلك الاشعث بن قيس والله اعلم وكنت فيما أمرت به كما قال أخو بني خثعم

أمرتهم امري بمنعرج اللوى * فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد

من دعا الى هذه الخصومة فاقتلوه قتله الله ولو كان تحت عمامتي هذه الا ان هذين الرجلين الخاطئين اللذين اخترتموهما حكمين قد تركا حكم الله وحكما بهوى انفسهما بغير حجة ولا حق معروف فأماتا ما أحيى القرآن وأحييا ما أماته واختلف في حكمهما كلاهما ولم يرشدهما الله ولم يوفقهما فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين فتأهبوا للجهاد واستعدوا للمسير وأصبحوا في عساكرهم ان شاء الله تعالى (قال المسعودي) وقد اختلفت الفرق من اهل ملتنا في الحكمين وقالوا في ذلك أقاويل كثيرة وقد اتينا على ماذهبوا اليه في ذلك في كتاب المقالات وما قاله كل فريق منهم ومن أيد قوله من الخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم من فرق هذه الامة في كتابنا في المقالات في اصول الديانات وذكرنا في كتاب اخبار الزمان قول علي في مواقفه وخطبه وما قاله في ذلك وما اكره عليه وما بينه لهم بعد الحكومة وما تقدم الحكومة من تحذيره اياهم منها حين ألحوا في تحكيم أبي موسى الاشعري وعمرو وحيث قال الا ان القوم قد اختاروا لانفسهم اقرب الناس مما يحبون واخترتم لانفسكم أقرب الناس مما تكرهون انما عهدكم بعبد الله بن قيس بالامس وهو يقول الا انها فتنة فقطعوا فيها اوتاركم وكسروا قسيكم فان يك صادقا فقد اخطأ في مسيره غير مستكره عليه وان يك كاذبا فقد لزمته التهمة وهذا كلام أبي موسى في تخذيله الناس وتحريضه على الجلوس عن أمير المؤمنين علي في حروبه ومسيره الى الجمل وغيره ثم ما قاله في بعض مقاماته في مغاتبته لقريش وقد بلغه عن أناس منهم ممن قعد عن بيعته ونافق في خلافته كلام كثير فقال وقد زعمت قريش ان ابن ابي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحروب تربت ايديهم وهل فيهم اشد مراسا لها مني لقد نهضت فيها وما بلغت الثلثين وها انا ذا قد أربيت على نيف وستين ولكن لا رأي لمن لا يطاع (قال المسعودي) واذ قد تقدم ذكرنا الجمل من اخبار الجمل وصفين والحكمين فلنذكر الآن جوامع من اخبار يوم النهروان ونعقب ذلك بذكر مقتله عليه السلام وان كنا قد اتينا على مبسوط سائر ما تقدم لنا في هذا الكتاب وما تأخر فيما سلف من كتبنا والله اعلم

ذكر حروبه رضي الله عنه مع اهل النهروان وما لحق بهذا الباب من مقتل محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه والاشتر النخعي وغير ذلك

واجتمعت الخوارج في اربعة آلاف فبايعوا عبد الله بن وهب الراسبي ولحقوا بالمداين وقتلوا عبد الله بن خباب عامل علي عليها ذبحوه ذبحا وبقروا بطن امرأته وكانت حاملا وقتلوا غيرها من النساء وقد كان علي انفصل عن الكوفة في خمسة وثلاثين الفا واتاه من البصرة من قبل ابن عباس وكان عامله عليها عشرة الاف فيهم الاحنف بن قيس وحارثة ابن قدامة السعدي وذلك في سنة ثمان وثلاثين فنزل على الانبار والتأمت اليه العساكر فخطب الناس وحرضهم على

الجهاد

الجهاد وقال سيروا الى قتلة المهاجرين والانصار قد ما طالما سعوا فى إطفاء نور الله وحرضوا على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه الا أن رسول الله أمرني بقتال القاسطين وهم هؤلاء الذين سرنا اليهم والناكثين وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم والمارقين ولم نلقهم بعد فسيروا الى القاسطين فهم أهم علينا من الخوارج سيروا الى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين يتخذهم الناس اربابا ويتخذون عباد الله خولا وما لهم دولا فأبوا الا أن يبدؤا بالخوارج فسار على اليهم حتى اتى النهروان فبعث اليهم بالحرث بن مرة العبدي رسولا يدعوهم الى الرجوع فقتلوه وبعثوا الى على ان تبت من حكومتك وشهدت على نفسك بالكفر بايعناك وان أبيت فاعتزلنا حتى نختار لانفسنا اماما فانا منك براء فبعث اليهم على أن ابعثوا الى بقتلة اخواني فاقتلهم ثم أتارككم الى أن أفرغ من قتال أهل المغرب ولعل الله يقلب قلوبكم فبعثوا اليه كلنا قتلة أصحابك وكلنا مستحل لدمائهم مشتركون فى قتلهم واخبره الرسول وكان من يهود السواد أن القوم قد عبروا نهر طبرستان فى هذا الوقت وهذا النهر عليه قنطرة تعرف بقنطرة طبرستان بين حلوان و بغداد من بلاد خراسان فقال على والله ما عبروه ولا يقطعونه حتى نقتلهم بالرميلة دونه ثم تواترت عليه الاخبار بقطعهم لهذا النهر وعبورهم هذا الجسر وهو يأبى ذلك ويحلف انهم لم يعبروه وان مصارعهم دونه ثم قال سيروا الى القوم فوالله لا يفلت منهم الا عشرة ولا يقتل منكم عشرة فسار على فاشرف عليهم وقد عسكروا بالموضع المعروف بالرميلة على ما قال لاصحابه فلما أشرف عليهم قال الله اكبر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فتصاف القوم ووقف عليهم بنفسه فدعاهم الى الرجوع والتوبة فابوا ورموا أصحابه فقيل له قد رمونا فقال كفوا فكرروا القول عليه ثلاثا وهو يامرهم بالكف حتى أتى برجل قتيل متشحط بدمه فقال على الله اكبر الآن حل قتالهم احملوا على القوم فحمل رجل من الخوارج على اصحاب على فخرج فيهم وجعل يغشى كل ناحية ويقول

أضربهم ولو أرى عليا * ألبسته أبيض مشرفيا

فخرج اليه على رضى الله عنه وهو يقول

يا ايهذا المبتغى عليا * انى اراك جاهلا شقيا
قد كنت عن كفاحه غنيا * هلم فابرز هاهنا اليا

وحمل عليه على فقتله ثم خرج منهم آخر فحمل على الناس ففتك فيهم وجعل يكر عليهم وهو يقول

أضربهم ولو أرى أبا حسن * ألبسته بصارمى ثوب غبن

فخرج اليه على وهو يقول

يا أيهذا المبتغى ابا حسن * اليك فانظر اينا يلقى الغبن

وحمل عليه على وشكه بالرمح وترك الرمح فيه فانصرف على وهو يقول لقد رأيت اباحسن فرأيت ما تكره وحمل ابو أيوب الانصارى على زيد بن حصن فقتله وقتل عبد الله بن وهب الذى قتل هانئ بن حاطب الازدى وزياد بن حفصة وقتل حرقوص بن زهير السعدى وكان جملة من قتل من اصحاب على تسعة ولم يفلت من الخوارج الا عشرة وأتى على على القوم

وهم اربعة الاف فيهم المخدج ذو الثدية الا من ذكرنا من هؤلاء العشرة وامر على بطلب المخدج فطلبوه فلم يقدروا عليه فقام على وعليه اثر الحزن لفقد المخدج فانتهى الى قتلى بعضهم فوق بعض فقال أفرجوا فافرجوا يمينا وشمالا واستخرجوه فقال على رضى الله عنه الله اكبر ما كذبت على محمد وانه لناقص اليد ليس فيها عظم طرفها حلمة مثل ثدى المرأة عليها خمس شعرات أوسبع روسها معقفة ثم قال ايتونى به فنظر الى عضده فاذا لحم مجتمع على منكبه كثدى المرأة عليه شعرات سود اذا مدت اللحمة امتدت حتى تحاذى بطن يده الاخرى ثم تترك فتعود الى منكبه فثنى رجله ونزل وخر لله ساجدا ثم ركب ومر بهم وهم صرعى فقال لقد صرعكم من غركم قيل ومن غرهم قال الشيطان وانفس السوء فقال اصحابه قد قطع الله دابرهم الى آخر الدهر فقال كلا والذى نفسى بيده انهم لفى أصلاب الرجال وارحام النساء لا تخرج خارجة الا خرجت بعدها مثلها حتى تخرج خارجة بين الفرات ودجلة مع رجل يقال له الاشمط يخرج اليه رجل منا اهل البيت فيقتلهم ولا يخرج بعدها خارجة الى يوم القيامة وجمع على ما كان فى عسكر الخوارج فقسم السلاح والدواب بين المسلمين ورد المتاع والعبيد والاماء الى اهليهم ثم خطب الناس فقال ان الله قد أحسن اليكم وأعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا الى عدوكم فقالوا يا أمير المؤمنين قد كلت سيوفنا ونفدت نبالنا ونصلت اسنة رماحنا فدعنا نستعد باحسن عدتنا وكان الذى كلمه بهذا الاشعث بن قيس فعسكر على بالنخيلة فجعل اصحابه يتسللون ويلحقون باوطانهم فلم يبق معه الا نفر يسير ومضى الحرث بن راشد الناجى فى ثلاثمائة من الناس فارتدوا الى دين النصرانية وهم من ولد سامة بن لؤى عند أنفسهم وقد أبى ذلك كثير من الناس وذكروا أن سامه بن لؤى ما أعقب وقد حكى عن على فيهم ما قد ذكرنا فى كتابنا فى اخبار الزمان ولست ترى ساميا الا منحرفا عن على من ذلك ما ظهر عن على بن الجهم الشاعر السامى من التعصب والانحراف وقد اتينا على لمع من شعره واخباره فى الكتاب الاوسط ولقد بلغ من انحرافه ونصبه العداوة لعلى عليه السلام انه كان يلعن اباه فسئل عن ذلك وبم استحق اللعن منه فقال بتسميته اياى عليا فسرح عليهم على معقل بن قيس الرياحى فقتل الحرث ومن معه من المرتدين بسيف البحر وسبى عيالهم وذراريهم وذلك بساحل البحرين فنزل معقل بن قيس بعض كور الاهواز بسبى القوم وكان هنالك مصقلة بن هبيرة الشيبانى عاملا لعلى فصاح به النسوة امنن علينا فاشتراهم بثلثمائة الف واعتقهم وأدى من المال مائتى الف وهرب الى معاوية فقال على قبح الله مصقلة فعل فعل السيد وفر فرار العبد لو اقام أخذنا ما قدرنا على اخذه فان أعسر أنظرناه وان عجز لم نؤاخذه بشئ وانفذنا العتق وفى ذلك يقول مصقلة بن هبيرة من ابيات

تركت نساء الحى بكر بن وايل * واعتقت سيا من لؤى بن غالب

وفارقت خير الناس بعد محمد * لمال قليل لا محالة ذاهب

وفى ذلك يقول الآخر

ومصقلة الذى قد باع بيعا * ربيحا يوم ناجية ابن سام

ولمصقلة

والمصقلة افعال اتاها وحيل عملها قد ذكرناها وما قال في ذلك من الشعر في الكتاب الاوسط
وقال علي بن محمد بن جعفر العلوى فيمن انتمى الى سامة بن لؤى بن غالب بن محمد

أسامة منا فامابنوه * فأمرهم عندنا مظلم
اناس آتونا بانسابهم * خرافة مضطجع يحلم
وقلنا لهم مثل قول الوصى وكل أقاويله محكم
اذا ماسئلت فلم تدرما * تقول فقل ربنا أعلم

وفي سنة ثمان وثلاثين وجه معاوية عمرا بن العاص الى مصر في أربعة آلاف ومعه معاوية بن خديج وابو الاعور السلمى واستعمل عمرا عليها حياته ووفى له بما تقدم من ضمانه فالتقوا هم ومحمد بن أبي بكر وكان عامل علي عليها بالموضع المعروف بالمسناة فاقتتلوا فانهزم محمد لاسلام اصحابه اياه وتركهم له وصار الى موضع بمصر فاختفى فيه فاحيط بالدار فخرج اليهم محمد ومن معه من اصحابه فقاتلهم حتى قتل فاخذه معاوية بن خديج وعمرو بن العاص وغيرهما فجعلوه في جلد حمار وأضرموه بالنار وذلك بموضع في مصر يقال له كوم شريك وقيل انه فعل به ذلك وبه شيء من الحياة وبلغ معاوية قتل محمد واصحابه فاظهر الفرح والسرور وبلغ عليا قتل محمد وسرور معاوية فقال جزعنا عليه على قدر سرورهم فما جزعت على هالك منذ دخلت هذه الحرب جزعي عليه كان لي ربيبا وكنت اعده ولدا كان بي برا وكان ابن اخي فعلي مثل هذا نحزن وعند الله نحتسبه وولى علي الاشتر مصر وانفذه اليها في جيش فلما بلغ ذلك معاوية دس الى دهقان وكان بالعريش فأرغبه وقال اترك خراجك عشرين سنة فاحتل للاشتر بالسم في طعامه فلما نزل الاشتر العريش سأل الدهقان أى الطعام والشراب احب اليه قيل العسل فأهدى له عسلا وقال ان من امره وشانه كذا وكذا ووصفه للاشتر وكان الاشتر صائما فتناول منه شربة فما استقرت في جوفه حتى تلف وأتى من كان معه على الدهقان ومن كان معه وقيل كان ذلك بالقلزم والاول أثبت فبلغ ذلك عليا فقال لليدين وللفم وبلغ ذلك معاوية فقال ان لله جندا من العسل وقبض اصحابه عن علي في هذه السنة ثلاثة ارزاق على حسب ما كان يحمل اليه من المال من أعماله ثم ورد عليه مال من اصبهان فخطب الناس وقال اغدوا الى عطاء رابع فوالله ما انا لكم بخازن وكان في عطايه يأخذ كما يأخذ الواحد منهم ولم يكن بين علي ومعاوية من الحرب الا ما وصفنا بصفين وكان معاوية في بقية أعمال علي يبعث سرايا تغير وكذلك علي كان يبعث من يمنع سرايا معاوية من أذية الناس وقد أتينا على ذكر السرايا والغارات فيما سلف من كتبنا (قال المسعودى رحمه الله) وقد تكلم طوائف من الناس ممن سلف وخلف من أهل الاراء في الخوارج وغيرهم من فعل علي يوم الجمل وصفين وتباين حكمه فيهما وفيمن قتل من أهل صفين مقبلين ومدبرين واجهازه على جرحاهم ويوم الجمل لم يتبع موليا ولا اجهز على جريح ومن القى سلاحه أو دخل داره كان آمنا وما اجابهم به شيعة علي في تباين حكم علي في هذين اليومين لاختلاف حكمهما وهو أن اصحاب الجمل لما انكشفوا لم يكن لهم فئة يرجعون اليها وانما رجع القوم الى منازلهم غير محاربين ولا منابذين ولا لامره مخالفين فرضوا بالكف عنهم وكان الحكم فيهم رفع السيف اذلم يطلبوا عليه أعوانا وأهل صفين كانوا

يرجعون الى فئة مستعدة وامام منتصب يجمع لهم السلاح ويسنى لهم الاعطية ويقسم لهم الاموال ويجبر كسيرهم ويحمل راجلهم ويردهم فيرجعون الى الحرب وهم الى امامته منقادون ولرأيه متبعون ولغيره مخالفون ولامامته تاركون ولحقه جاحدون وبأنه يطلب ماليس له قايلون فاختلف الحكم لما وصفنا وتباين حكاهما لما ذكرنا ولكل فريق من السايل والمجيب كلام يطول ذكره ويتسع شرحه قد اتينا على استيعابه وماذكره كل فريق منهم فيما سلف من كتبنا فاغنى ذلك عن اعادته والله اعلم

ذكر مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه

وفي سنة اربعين اجتمع بمكة جماعة من الخوارج فتذاكروا الناس وما هم فيه من الحرب والفتنة وتعاهد ثلاثة منهم على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص وتواعدوا واتفقوا على ان لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذي يتوجه اليه حتى يقتله او يقتل دونه وهم عبد الرحمن ابن ملجم لعنه الله وكان من تجيب وكان عداده في مراد فنسب اليهم وحجاج بن عبد الله الصريمي ولقبه البرك وزادويه مولى بني العنبر فقال ابن ملجم انا اقتل عليا وقال البرك انا اقتل معاوية وقال زادويه انا اقتل عمرا بن العاص واتعدوا ان يكون ذلك ليلة سبع عشرة من شهر رمضان وقيل ليلة احدى وعشرين فخرج عبد الرحمن بن ملجم المرادي الى علي فلما قدم الكوفة أتى قطام بنت عمه وكان علي قتل أباها وأخاها يوم النهروان وكانت أجمل اهل زمانها فخطبها فقالت لا اتزوج حتى تسمي لي قال لا تسأليني شيأ الا اعطيته فقالت ثلاثة الاف وعبدا وقينه وقتل علي فقال ما سألت هو لك مهر الا قتل علي فلا اراك تدركينه قالت فالتمس غرة فان اصبته شفيت نفسي ونفعك العيش معي وان هلكت فما عند الله خير لك من الدنيا فقال والله ما جاء بي الى هذا المصر وقد كنت هاربا منه الا ذلك وقد اعطيتك ما سألت وخرج من عندها وهو يقول

ثلاثة الاف وعبد وقينة * وقتل علي بالحسام المصمم
فلا مهر أعلى من علي وان علا * ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم

فلقيه رجل من اشجع يقال له شبيب بن بجرة من الخوارج فقال له هل لك في شرف الدنيا والآخرة فقال وماذاك قال تساعدني على قتل علي قال ثكلتك أمك لقد جئت شيأ اذا قد عرفت عناءه في الاسلام وسابقته مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال ابن ملجم ويحك اما تعلم انه قد حكم الرجال في كتاب الله وقتل اخواننا المصلين فنقتله ببعض اخواننا فاقبل معه حتى دخل على قطام وهي في المسجد الاعظم وقد ضربت كلة لها وهي معتكفة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر رمضان فاعلمتهما ان مجاشع بن وردان بن علقمة قد انتدب لقتله معهما فدعت لهما بحرير فعصبتهما وأخذوا أسيافهم وقعدوا مقابلين لباب السدة التي يخرج منها علي للمسجد وكان علي يخرج كل غداة اول الاذان للصلاة وقد كان ابن ملجم مر بالاشعث وهو في المسجد فقال له فضحك الصبح فسمعها حجر بن عدي فقال قتلته يا اعور قتلك الله وخرج علي رضي الله عنه ينادي أيها الناس الصلاة فشد عليه ابن ملجم واصحابه وهم يقولون الحكم لله لا لك وضربه ابن ملجم على رأسه بالسيف في قرنه واما شبيب فوقعت

ضربته بعضادة الباب وأما ابن وردان فهرب وقال علي لا يفوتنكم الرجل وشد الناس على ابن ملجم يرمونه بالحصباء ويتناولونه ويصيحون فضرب ساقه رجل من همدان برجله وضرب المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وجهه فصرعه واقبل به الى الحسن ودخل شبيب بين الناس فنجا بنفسه وهرب حتى أتى رحله فدخل عليه عبد الله بن بجرة وهو احد بني ابيه فرآه ينزع الحرير عن صدره فسأله عن ذلك فخبره خبره فانصرف عبد الله الى رحله واقبل اليه بسيفه فضربه حتى قتله وقيل ان عليا لم ينم تلك الليلة وانه لم يزل يمشي بين الباب والحجرة وهو يقول والله ما كذبت ولا كذبت وانها الليلة التي وعدت فلما صرخ بط كان للصبيان صاح بهن بعض من في الدار فقال علي ويحك دعهن فانهن نوائح وقد ذكر طائفة من الناس ان عليا رضي الله عنه أوصى الى ابنيه الحسن والحسين لانهما شريكاه في آية التطهير وهذا قول كثير ممن ذهب الى القول بالنص ودخل عليه الناس يسألونه فقالوا يا أمير المؤمنين أرأيت ان فقدناك ولا نفقدك أنبايع الحسن قال لا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر ثم دعا الحسن والحسين فقال لهما اوصيكما بتقوى الله وحده ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ولا تأسفا على شيء منها قولا الحق وارحما اليتيم واعينا الضعيف وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا ولا تأخذكما في الله لومة لائم ثم نظر الى ابن الحنفية فقال هل سمعت ما أوصيت به أخويك قال نعم قال أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك وتزيين أمرهما ولا تقطعن أمرا دونهما ثم قال لهما أوصيكما به فانه سيفكما وابن أبيكما فاكرماه واعرفا حقه فقال له رجل من القوم ألا تعهد يا أمير المؤمنين قال لا ولكن اتركهم كما تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فماذا تقول لربك اذا أتيته قال أقول اللهم انك أبقيتني فيهم ما شئت أن تبقيني ثم قبضتني وتركتك فيهم فان شئت أفسدتهم وان شئت أصلحتهم ثم قال أما والله انها الليلة التي ضرب فيها يوشع بن نون ليلة سبع عشرة وقبض ليلة احدى وعشرين وبقي علي الجمعة والسبت وقبض ليلة الاحد ودفن بالرحبة عند مسجد الكوفة وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في أخباره تنازع الناس في موضع قبره وما قيل في ذلك وقبض وقد أتى عليه اثنتان وسبعون سنة وقيل اثنتان وستون وقد قدمنا تنازع الناس في مقدار سنه وكان كما قال الحسن والله لقد قبض فيكم الليلة رجل ما سبقه الاولون الا بفضل النبوة ولا يدركه الآخرون وان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبعثه المبعث فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه وكان الذي صلى عليه الحسن ابنه وكبر عليه سبعا وقيل غير ذلك ولم يترك صفراء ولا بيضاء الا سبعمائة درهم بقيت من اعطائه أراد أن يشتري بها خادما لاهله وقال بعضهم ترك لاهله مائتين وخمسين درهما ومصحفه وسيفه ولما أرادوا اقتل ابن ملجم لعنه الله قال عبد الله بن جعفر دعوني حتى أشفي نفسي منه فقطع يديه ورجليه وأحمى له مسمارا حتى اذا صار جمرة كحله به فقال سبحان الذي خلق الانسان انك لتكحل عمك بملمول مضاض ثم ان الناس أخذوه وادرجوه في بواري ثم طلوها بالنفط واشعلوا فيها النار فاحترق وفيه يقول عمران ابن حطان الرقاشي يمدحه في ضربته من شعر له طويل

يا ضربة من تقى ما أراد بها * الا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
انى لاذكره يوما فأحسبه * أوفى البرية عند الله ميزانا

فأجابه القاضى أبو الطيب طاهر بن عبد الله الشافعى

انى لابرأ مما أنت قائله * عن ابن ملجم الملعون بهتانا
يا ضربة من شقى ما أراد بها * الا ليهدم للاسلام أركانا
انى لاذكره يوما فألعنه * دينا وألعن عمرانا وحطانا
عليه ثم عليه الدهر متصلا * لعائن الله اسرارا واعلانا
فأنتما من كلاب النار جاء به * نص الشريعة برهانا وتبيانا

وزاد بعضهم على هذه الابيات بيتا آخر وهو

عليكما لعنة الجبار ما طلعت * شمس وما أوقدوا فى الكون نيرانا

معارضة لبيتى اللعين ابن حطان لعنه الله فى ابن ملجم أخزاه الله

قل لابن ملجم والاقدار غالبة * هدمت ويلك للاسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشى على قدم * وأول الناس اسلاما وايمانا
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما * سن الرسول لنا شرعا وتبيانا
صهر النبى ومولانا وناصره * أضحت مناقبه نورا وبرهانا
وكان منه على رغم الحسود له * مكان هارون من موسى بن عمرانا
وكان فى الحرب سيفا صارما ذكرا * ليثا اذا مالقى الاقران أقرانا
ذكرت قاتله والدمع منحدر * فقلت سبحان رب الناس سبحانا
انى لاحسبه ما كان من بشر * يخشى المعاد ولكن كان شيطانا
أشقى مراد اذا عدت قبائلها * وأخسر الناس عند الله ميزانا
كعاقر الناقة الاولى التى جلبت * على ثمود بأرض الحجر خسرانا
قد كان يخبرهم ان سوف يخضبها * قبل المنية ازمانا فأزمانا
فلا عفا الله عنه ما تحمله * ولا سقى قبر عمران بن حطانا
لقوله فى شقى ظل مجترما * ونال ما ناله ظلما وعدوانا
يا ضربة من تقى ما أراد بها * الا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
بل ضربة من غوى أورثته لظى * مخلدا قد أتى الرحمن غضبانا
كأنه لم يرد قصدا بضربته * الا ليصلى عذاب الخلد نيرانا

ولعمران بن حطان ولابيه حطان أخبار كثيرة قد أتينا على ذكرها فى كتابنا أخبار الزمان فى باب أخبار الخوارج من الازارقة والاباضية والحرية والصفرية والهجرية وغيرهم من فرق الخوارج الى سنة ثمان عشرة وثلثمائة وكان آخر من خرج منهم ربيعة المعروف بفروان فأدخل على المقتدر بالله بعث به ابن حمدان من هرموناء وقد كان خرج فى أيامه أيضا المعروف بأبى شعيب وقد رثى الناس أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه فى ذلك الوقت والى هذه الغاية وذكروا مقتله وممن رثاه فى ذلك الوقت أبو الاسود الدؤلى من أبيات

ألا ابلغ معاوية بن حرب * فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا * بخير الناس طرا أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا * وذللها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها * ومن قرأ المثاني والمبينا
اذا استقبلت وجه أبي حسين * رأيت النور فوق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت * بانك خيرهم حسبا ودينا

وانطلق البرك الصريمي الى معاوية فطعنه بخنجر في اليته وهو يصلي فأخذ وأوقف بين يديه فقال له ويلك وما أنت وما خبرك قال لا تقتلني وأخبره قال انا بايعنا في هذه الليلة علينا وعلى علي وعلى عمرو فان أردت فاحبسني عندك فان كانا قتلا والا خليت سبيلي فطلبت قتل علي ولك علي ان أقتله وأن آتيك حتى أضع يدي في يدك فقال بعض الناس قتله يومئذ وقال بعضهم حبسه حتى جاءه خبر قتل علي فأطلقه وانطلق زادويه عمرو بن بكر التميمي الى عمرو ابن العاص فوجد خارجة قاضي مصر جالسا على السرير يطعم الناس في مجلس عمرو وقيل بل صلى خارجة بالناس الغداة ذلك اليوم وتخلف عمرو عن الصلاة لعارض فضربه بالسيف فدخل عليه عمرو وبه رمق فقال له خارجة والله ما أراد غيرك فقال عمرو ولكن الله اراد خارجة وأوقف الرجل بين يدي عمرو فسأله عن خبره فقص عليه القصة وأخبره ان عليا ومعاوية قد قتلا في هذه الليلة فقال ان قتلا أولم يقتلا فلا بد من قتلك فبكى فقيل له اجزعا من الموت مع هذا الاقدام فقال لا والله ولكن غما ان يفوز صاحبي بقتل علي ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمرو فضرب عنقه وصلب وكان علي رضي الله عنه كثيرا ما يتمثل

تلكم قريش تمناني لتقتلني * فلا وربك ما بروا وما ظفروا
فان هلكت فرهن ذمتي لهم * بذات ودقين لا يعفو لها أثر

وكان يكثر من ذكر هذين البيتين

اشدد حيازيمك للموت * فان الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت * اذا حل بواديكا

وسمعا منه في الوقت الذي قتل فيه فانه قد خرج الى المسجد وقد عسر عليه فتح باب داره وكان من جذوع النخل فاقتلعه وجعله ناحية وانحل ازاره فشده وجعل ينشد هذين البيتين المتقدمين وقد كان معاوية دس اناسا الى الكوفة يشيعون موته وأكثر الناس القول في ذلك حتى بلغ عليا فقال في مجلسه قد أكثرتم من نعي معاوية والله ما مات ولا يموت حتى يملك ما تحت قدمي وانما أراد ابن اكلة الاكباد ان يعلم ذلك مني فبعث من يشيع ذلك فيكم ليعلم ويتيقن ما عندي فيه وما يكون من أمره في المستقبل من الزمان ومر في كلام كثير يذكر فيه أيام معاوية ومن تلاه من يزيد ومروان وبنيه وذكر الحجاج وما يسومهم من العذاب فارتفع الضجيج وكثر البكاء والشهيق فقام قائم من الناس فقال يا أمير المؤمنين لقد وصفت امورا عظيمة آلله ان ذلك كائن قال علي والله ان ذلك لكائن ما كذبت ولا كذبت فقال آخرون متى ذلك يا أمير المؤمنين قال اذا خضبت هذه من هذه ووضع احدى يديه على لحيته

والاخرى على رأسه فأكثر الناس من البكاء فقال لاتبكوا فى وقتكم هذا فستبكون بعدى طويلا فكاتب أكثر أهل الكوفة معاوية سرّا فى أمورهم واتخذوا عنده الايادى فوالله مامضت الأيام قلائل حتى كان ذلك وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب بعد ذكرنا لزهده ولمع من كلامه وجمل من اخباره أيضا أخبار معاوية بن أبى سفيان والله ولى التوفيق

ذكر لمع من كلامه واخباره وزهده رضوان الله عليه

لم يلبس عليه السلام فى أيامه ثوبا جديدا ولا اقتنى ضيعة ولا ربعا الا شيأ كان له بينبع مما تصدق به وحبسه والذى حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة تداول الناس ذلك عنه قولا وعملا (وقيل) له من خيار العباد قال الذين اذا أحسنوا استبشروا واذا أساؤا استغفروا واذا ابتلوا صبروا واذا غضبوا غفروا (وكان) يقول الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها الدنيا مسجد أحباء الله ومصلى ملائكة الله ومهبط وحيه ومتجر أوليائه اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهلها ومثلت لهم ببلائها البلاء وشوقت بسرورها الى السرور وراحت بفجيعة وابتكرت بعافية تحذيرا وترغيبا وتخويفا فذمها رجال غب الندامة وحمدها آخرون غب المكافأة ذكرتهم فذكروا تصاريفها وصدقتهم فصدقوا حديثها فيا أيها الذام للدنيا المغتر بغرورها متى استدامت لك الدنيا بل متى غرتك من نفسها أبمضاجع آبائك من البلى أم بمصارع امهاتك من الثرى كم قد عللت بكفك ومرضت بيدك من تبغى له الشفاء وتستوصف له الاطباء لم تنفعه بشفائك ولم تسعفه بطلبتك قد مثلت لك به الدنيا نفسك وبمصرعه مصرعك غداة لا ينفعك بكاؤك ولا يغنى عنك احباؤك ولا تسمع فى مدح الدنيا أحسن من هذا (ومما) حفظ من كلامه فى بعض مقاماته فى صفة الدنيا انه قال الا ان الدنيا قد ارتحلت مدبرة وان الآخرة قد دنت مقبلة ولهذه أبناء ولهذه أبناء فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا الا وكونوا من الزاهدين فى الدنيا والراغبين فى الآخرة ان الزاهدين فى الدنيا اتخذوا الارض بساطا والتراب فراشا والماء طيبا وقرضوا الدنيا تقريضا الا ومن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات ومن راقب الخير سارع فى الخيرات الا وان لله عبادا يرون أهل الجنة فى الجنة منعمين مخلدين قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة أنفسهم عفيفة وحاجتهم خفيفة صبروا اياما قليلة فصارت لهم العقبى راحة طويلة اما الليل فصافوا أقدامهم تجرى دموعهم على خدودهم يجأرون الى ربهم ويسعون فى فكاك رقابهم واما النهار فعلماء حكماء بررة اتقياء كأنهم القداح براهم الخوف والعبادة ينظر اليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض أم خولطوا فقد خالطهم أمر عظيم من ذكر النار ومن فيها (وقال لابنه الحسن) يا بنى استغن عن من شئت تكن نظيره وسل من شئت تكن

حقيره واعظ من شئت تكن أميره (ودخل) عليه رجل من أصحابه فقال كيف أصبحت يا أمير المؤمنين قال أصبحت ضعيفا مذنبا آكل رزقى وانتظر أجلى قال وما تقول فى الدنيا قال وما أقول فى دار أولها غم وآخرها موت من استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن حلالها حساب وحرامها عقاب قال فأى الخلق أنعم قال اجساد تحت التراب قد امنت العقاب وهى تنتظر الثواب (ودخل) ضرار بن حمزة وكان من خواص على على معاوية وافدا فقال له صف لى عليا قال اعفنى يا أمير المؤمنين قال معاوية لا بد من ذلك فقال اما اذا كان لا بد من ذلك فانه كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول فصلا ويحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يعجبه من الطعام ماخشن ومن اللباس ماقصر وكان والله يجيبنا اذا دعوناه ويعطينا اذا سألناه وكنا والله على تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة له ولا نبتديه لعظمه فى نفوسنا يبسم عن ثغر كاللؤلؤ المنظوم يعظم أهل الدين ويرحم المساكين ويطعم فى المسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة يكسو العريان وينصر اللهفان ويستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل وظلمته وكأنى به وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وهو فى محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين ويقول يادنيا غرى غيرى الى تعرضت أم الى تشوفت هيهات هيهات لا حان حينك قد ابتتك ثلاثا لا رجعة لى فيك عمرك قصير وعيشك حقير وخطرك يسير آه من قلة الزاد ووحشة الطريق فقال له معاوية زدنى شيأ من كلامه فقال ضرار كان يقول اعجب ما فى الانسان قلبه وله مواد من الحكمة واضداد من خلافها فان سنح له الرجاء اماله الطمع وان مال به الطمع اهلكه الحرص وان ملكه القنوط قتله الاسف وان عرض له الغضب اشتد به الغيظ وان أسعده الرضى نسى التحفظ وان أماله الخوف فضحه الجزع وان أفاد مالا اطغاه الغنى وان عضته فاقة فضحه الفقر وان اجهده الجوع اقعده الضعف وان افرط به الشبع كظته البطنة فكل تقصير به مضر وكل افراط له مفسد فقال له معاوية زدنى كلما وعيته من كلامه قال هيهات ان آتى على جميع ما سمعته منه ثم قال سمعته يوصى كميل بن زياد يا كميل ذب عن المؤمن فان ظهره حمى الله ونفسه كريمة على الله وظالمه خصم الله وأحذركم من ليس له ناصر الا الله قال وسمعته يقول ذات يوم ان هذه الدار اذا اقبلت على قوم أعارتهم محاسن غيرهم واذا ادبرت عنهم سلبتهم محاسن انفسهم قال وسمعته يقول بطر الغنى يمنع من عز الصبر قال وسمعته يقول ينبغى للمؤمن ان يكون نظره عبره وسكوته فكره وكلامه حكمه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ان قتل جعفر بن أبى طالب الطيار بمؤتة من ارض الشام لا يبعث بعلى فى وجهة من الوجوه الا يقول رب لا تذرنى فردا وانت خير الوارثين وحمل على يوم احد على كردوس من المشركين خشن فكشفهم فقال جبريل يا محمد ان هذه لهى المواساة فقال النبى صلى الله عليه وسلم ان عليا منى قال جبريل وانا منكم كذلك ذكره اسحاق بن ابراهيم وغيره ووقف على على سائل فقال للحسن قل لامك تدفع اليه درهما فقال انما عندنا ستة دراهم للدقيق فقال على لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده ثم امر للسائل بالستة الدراهم كلها فما برح على رضى الله عنه

حتى مر به رجل يقود بعيرا فاشتراه منه بمائة وأربعين درهما وانسأ أجله ثمانية اياما فلم يحل اجله حتى مر به رجل والبعير معقول فقال بكم هذا فقال بمائتى درهم فقال قد أخذته فوزن له الثمن فدفع علىّ منه مائة وأربعين درهما للذى ابتاعه منه ودخل بالستين الباقية على فاطمة عليها السلام فسألته من اين هى فقال هذه تصديق لما جاء به ابوك صلى الله عليه وسلم من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومر ابن عباس بقوم ينالون من علىّ ويسبونه فقال لقائده أدنى منهم فأدناه فقال ايكم الساب لله قالوا نعوذ بالله ان نسب الله فقال ايكم الساب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا نعوذ بالله ان نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أيكم الساب على بن أبى طالب قالوا اما هذه فنعم قال أشهد لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من سبنى فقد سب الله ومن سب عليا فقد سبنى فأطرقوا فلما ولى قال لقائده كيف رأيتهم فقال

نظروا اليك بأعين مزورّة * نظر التيوس الى شفار الجازر

فقال زدنى فداك أبى وأمى فقال

خزر العيون منكسى أذقانهم * نظر الذليل الى العزيز القاهر

قال زدنى فداك أبى وأمى قال ماعندى مزيد ولكن عندى

أحياؤهم تخزى على أمواتهم * والميتون فضيحة للغابر

وقد ذكر جماعة من أهل النقل عن أبى عبد الله جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن على بن الحسين بن على ان عليا قال فى صبيحة الليلة التى ضربه فيها عبد الرحمن بن ملجم بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم كل امرئ ملاقيه مايفر منه والاجل تساق النفس اليه والهرب منه موافاته كم اطردت الايام أبحثها عن مكنون هذا الامر فأبى الله عز وجل الا أخفاءه هيهات علم مكنون أما وصيتى فلا تشركوا به شيأ ومحمدا لاتضيعوا سنته أقيموا هذين العمودين حمل كل امرئ منكم مجهوده وخفف عن الجهلة رب رحيم ودين قويم وامام عليم كانى اعصار ودوى رياح تحت ظل غمامة اضمحل راكدها فخطها من الارض حيا وبقى من بعدى خبرها واسكنه بعد حركة كاظمة بعد نطق ليعظكم هدوءى وخفوت اطرافى انه أوعظ لكم من نطق البليغ ودعتكم وداع امرئ مرصد للتلاق وغدا ترون ويكشف عن ساق عليكم السلام الى يوم المرام كنت بالامس صاحبكم واليوم عظة لكم وغدا افارقكم ان افق فانا ولى دمى وان امت فالقيامة ميعادى والعفو اقرب للتقوى الاتحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم

ومن خطبه قبل هذا وتزهيده فى هذه الدنيا قوله فى بعض مقاماته وخطبه ان الدنيا قد ادبرت وآذنت بوداع وان الآخرة قد اشرفت واقبلت باطلاع وان المضمار اليوم والسباق غدا الا انكم فى ايام أمل وراءه اجل فمن اخلص فى ايام امله قبل حضور اجله فقد حسن عمله فاعملوا لله فى الرغبة كما تعملون فى الرهبة الا وانى لم ار كالجنة نام طالبها ولا كالنار نام هاربها الا وانه من لم ينفعه الحق يضره الباطل ومن لا يستقيم له الهدى يجر به الضلال وقد امرتم بالظعن ودللتم على الزاد فان اخوف ما اخاف عليكم اتباع الهوى وطول الامل وفضائل

علي ومقاماته ومناقبه ووصف زهده ونسكه اكثر من ان يأتي عليه كتابنا هذا أو غيره من الكتب أو يبلغه اسهاب مسهب أو اطناب مطنب وقد اتينا على جمل من اخباره وزهده وسيره وأنواع من كلامه وخطبه في كتابنا المترجم بكتاب حدائق الاذهان في اخبار آل محمد عليه الصلاة والسلام وفي كتاب مزاهر الاخبار وظرايف الآثار للصفوة النورية والذرية الزكية ابواب الرحمة وينابيع الحكمة (قال المسعودي) والاشياء التي استحق بها اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الفضل هي السبق الى الايمان والهجرة والنصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والقربى منه والقناعة وبذل النفس له والعلم بالكتاب والتنزيل والجهاد في سبيل الله والورع والزهد والقضاء والحكم والعفة والعلم وكل ذلك لعلي عليه السلام منه النصيب الاوفر والحظ الاكبر الى ما ينفرد به من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين آخى بين اصحابه انت اخي وهو صلى الله عليه وسلم لا ضد له ولا ند وقوله صلوات الله عليه انت مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي وقوله عليه الصلاة والسلام من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ثم دعاؤه عليه السلام وقد قدم اليه انس الطائر اللهم ادخل الي أحب خلقك اليك يأكل معي من هذا الطائر فدخل عليه علي الى آخر الحديث فهذا وغيره من فضائله وما اجتمع فيه من الخصال مما تفرق في غيره ولكل فضائل من تقدم وتاخر وقبض النبي صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم مخبر عن بواطنهم بموافقتها الظواهرهم بالايمان وبذلك نزل التنزيل وتولى بعضهم بعضا فلما قبض الرسول صلى الله عليه وسلم وارتفع الوحي حدثت امور تنازع الناس في صحتها ولا يقطع عليهم بها واليقين من امورهم ما تقدم وما روى مما كان في احداثهم بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم فغير متيقن بل هو ممكن ونحن نعتقد فيهم ما تقدم والله أعلم بما حدث والله ولي التوفيق

(ذكر خلافة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه)

ثم بويع الحسن بن علي بن أبي طالب بالكوفة بعد وفاة علي أبيه بيومين في شهر رمضان من سنة اربعين ووجه عماله الى السواد والجبل وقتل الحسن عبد الرحمن بن ملجم على حسب ما ذكرنا ودخل معاوية الكوفة بعد صلح الحسن بن علي لخمس بقين من شهر ربيع في سنة احدى وأربعين وكانت وفاة الحسن وهو يومئذ ابن خمس وخمسين سنة بالسم ودفن بالبقيع مع امه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ولي التوفيق

(ذكر لمع من اخباره وسيره رضي الله عنه)

حدثنا جعفر بن محمد عن ابيه عن جده علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال دخل الحسين على عمي الحسن بن علي لما سقي السم فقام لحاجة الانسان ثم رجع فقال لقد سقيت السم عدة مرار فما سقيت مثل هذه لقد لفظت طائفة من كبدي فرأيتني اقلبه بعود في يدي فقال له الحسين يا اخي من سقاك قال وما تريد بذلك فان كان الذي اظنه فالله حسيبه وان كان غيره فما احب ان يؤخذ بي بريء فلم يلبث بعد ذلك الا ثلاثا حتى توفي رضي الله عنه (وذكر) أن امرأته جعدة بنت الاشعث بن قيس الكندي سقته السم وقد كان معاوية دس اليها انك ان احتلت في قتل الحسن وجهت اليك بمائة الف درهم وزوجتك

يزيد فكان ذلك الذي بعثها على سمه فلما مات وفى لها معاوية بالمال وارسل اليها انا نحب حياة يزيد ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه (وذكر) ان الحسن قال عند موته لقد حاقت شربته وبلغ امنيته والله ما وفى بما وعد ولا صدق فيما قال وفى فعل جعدة يقول النجاشى الشاعر وكان من شيعة على فى شعر له طويل

جعدة بكيه ولا تسأمى * بعد بكاء المعول الثاكل
لم يسبل الستر على مثله * فى الارض من حاف ومن ناعل
كان اذا شبت له ناره * يرفعها بالسند الغاتل
كيما يراها بائس مرمل * وفرد قوم ليس بالآهل
يغلى بنىء اللحم حتى اذا * أنضجه لم يغل كل آكل
اعنى الذى اسلمنا هلكه * للزمن المستحرج الماحل

وفى ذلك يقول آخر من شيعة على رضى الله عنه

تاس فكم لك من سلوة * تفرج عنك غليل الحزن
بموت النبى وقتل الوصى * وقتل الحسين وسم الحسن

(قال المسعودى رحمه الله) ووجدت فى كتاب الاخبار لابى الحسن على بن محمد بن سليمان النوفلى عن صالح بن على بن عطية الاصم قال حدثنا عبد الرحمن بن العباس الهاشمى عن أبى عون صاحب الدولة عن محمد بن على بن عبد الله بن العباس عن أبيه عن جده عن العباس بن عبد المطلب قال كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ أقبل على بن أبى طالب فلما راه اسفر فى وجهه فقلت يارسول الله انك لتسفر فى وجه هذا الغلام فقال ياعم رسول الله والله لله اشد حبا له منى ولم يكن نبى الا وذريته الباقية بعده من صلبه وان ذريتى بعدى من صلب هذا انه اذا كان يوم القيامة دعى الناس باسمائهم واسماء امهاتهم سترا من الله عليهم الا هذا وشيعته فانهم يدعون باسمائهم وأسماء آبائهم لصحة ولادتهم ولما دفن الحسن رضى الله عنه وقف محمد بن الحنفية اخوه على قبره فقال لئن عزت حياتك لقد هدت وفاتك ولنعم الروح روح تضمنه كفنك ولنعم الكفن كفن تضمن بدنك وكيف لا تكون هكذا وانت عقبة الهدى وخلف أهل التقوى وخامس اصحاب الكساء غذتك بالتقوى اكف الحق وارضعتك ثدى الايمان وربيت فى حجر الاسلام فطبت حيا وميتا وان كانت انفسنا غير سخية بفراقك رحمك الله أبا محمد (ووجدت) فى وجه آخر من الروايات فى اخبار اهل البيت ان محمدا وقف على قبره فقال أبا محمد لئن طابت حياتك لقد فجع مماتك وكيف لا تكون كذلك وانت خامس اهل الكساء وابن محمد المصطفى وابن على المرتضى وابن فاطمة الزهراء وابن شجرة طوبى ثم انشأ يقول رضى الله عنه

أأدهن رأسى ام تطيب مجالسى * وخدك معفور وانت سليب
أأشرب ماء المزن من غير مائه * وقد ضمن الاحشاء منك لهيب
سأبكيك ما ناحت حمامة أيكة * وما اخضر فى دوح الحجاز قضيب
غريب واكناف الحجاز تحوطه * الا كل من تحت التراب غريب

(ووجدت) فى بعض كتب التواريخ فى اخبار الحسن ومعاوية ان بخلافة الحسن صح الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلافة بعدى ثلاثون سنة لأن أبابكر الصديق رضى الله عنه تقلدها سنتين وثلاثة اشهر وثمانية ايام وعمر رضى الله عنه عشر سنين واحدى عشر شهرا وثلاثة عشر يوما وعثمان رضى الله عنه احدى عشرة سنة واحدى عشر شهرا وثلاثة عشر يوما وعلى رضى الله عنه اربع سنين وتسعة اشهر ويوما والحسن رضى الله عنه ثمانية اشهر وعشرة ايام فذلك ثلاثون سنة (وحدث) محمد بن جرير الطبرى عن محمد بن حميد الرازى عن على بن مجاهد عن محمد بن اسحاق عن الفضل بن العباس بن ربيعة قال وفد عبدالله بن العباس على معاوية قال فوالله انى لفى المسجد اذ كبر معاوية فى الخضراء فكبر أهل الخضراء ثم كبر أهل المسجد بتكبير اهل الخضراء فخرجت فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف من خوخة لها فقالت سرك الله يا أمير المؤمنين ماهذا الذى بلغك فسررت به قال موت الحسن بن على فقالت انا لله وانا اليه راجعون ثم بكت وقالت مات سيد المسلمين وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال معاوية نعما والله مافعلت انه كان كذلك اهلا أن يبكى عليه ثم بلغ الخبر ابن عباس رضى الله عنهما فراح فدخل على معاوية قال علمت يا ابن عباس ان الحسن توفى قال ألذلك كبرت قال نعم قال والله ماموته بالذى يؤخر اجلك ولا حفرته بسادة حفرتك ولئن أصبنا به فقد أصبنا بسيد المرسلين وامام المتقين ورسول رب العالمين ثم بعد بسيد الاوصياء فجبر الله تلك المصيبة ورفع تلك العبرة فقال ويحك يا ابن عباس ما كلمتك الا وجدتك معدا (وفى نسخة) انه لما صالح الحسن معاوية كبر معاوية فى الخضراء وكبر أهل الخضراء ثم كبر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء فخرجت فاختة بنت قرظة من خوخة لها فقالت سرك الله يا أمير المؤمنين ماهذا الذى بلغك قال آتانى البشير بصلح الحسن وانقياده فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابنى هذا سيد أهل الجنة وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين فالحمد لله الذى جعل فئتى أحد الفئتين ولما صالح الحسن معاوية لما ناله من أهل الكوفة ومانزل به أشار عمرو بن العاص على معاوية وذلك بالكوفة أن يأمر الحسن فيقوم فيخطب الناس فكره ذلك معاوية وقال ماأريد أن يخطب قال عمرو ولكنى أريد أن يبدو عيه فى الناس بانه يتكلم فى امور لا يدرى ماهى ولم يزل به حتى أطاعه فخرج معاوية فخطب الناس وأمر رجلا أن ينادى بالحسن بن على فقام اليه فقال قم يا حسن فكلم الناس فتشهد فى بديهته ثم قال أما بعد أيها الناس فان الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا وان لهذا الامر مدة والدنيا دول قال الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل ان أدرى أقريب أم بعيد ماتوعدون انه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين ثم قال فى كلامه ذلك يا أهل الكوفة لم تذهب نفسى عنكم الا لثلاث خصال أذهلت مقتلكم لابى وسلبكم ثقلى وطعنكم فى بطنى وانى قد بايعت معاوية فاسمعوا له وأطيعوا وقد كان أهل الكوفة انتهبوا سرادق الحسن ورحله وطعنوا بالخنجر فى جوفه فلما تيقن مانزل به انقاد الى الصلح وقد كان على رضى الله عنه وكرم الله وجهه اعتل فأمر ابنه الحسن

رضى الله عنه أن يصلى بالناس يوم الجمعة فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال ان الله لم يبعث نبيا الا اختار له نفسا ورهطا وبيتا فو الذى بعث محمدا بالحق لا ينتقص من حقنا أهل البيت أحد الا نقصه الله من عمله مثله ولا يكون علينا دولة الا وتكون لنا العاقبة ولتعلمن نبأه بعد حين ومن خطب الحسن رضى الله عنه فى أيامه فى بعض مقاماته أنه قال نحن حزب الله المفلحون وعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم الاقربون واهل بيته الطاهرون الطيبون وأحد الثقلين الذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم والثانى كتاب الله فيه تفصيل كل شئ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والمعول عليه فى كل شئ لا يخطئنا تأويله بل نتيقن حقائقه فأطيعونا فاطاعتنا مفروضه اذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الامر مقرونه فان تنازعتم فى شئ فردوه الى الله والرسول ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم واحذركم الاصغاء لهتاف الشيطان انه لكم عدو مبين فتكونون كأوليائه الذين قال لهم لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال انى برىء منكم انى أرى ما لا ترون فتلقون للرماح ازرا وللسيوف جزرا وللعمد خطأ وللسهام غرضا ثم لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيرا والله أعلم

(ذكر خلافة معاوية بن أبى سفيان)

بويع معاوية فى شوال سنة احدى وأربعين ببيت المقدس فكانت أيامه تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وتوفى فى رجب سنة احدى وستين وله ثمانون سنة ودفن بدمشق بباب الصغير وقبره يزار فى هذا الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة وعليه بيت مبنى يفتح كل يوم اثنين وخميس

(ذكر لمع من أخباره وسيره ونوادر من بعض أفعاله)

وفى سنة ثلاث وخمسين قتل معاوية حجر بن عدى الكندى وهو أول من قتل صبرا فى الاسلام حمله زياد من الكوفة ومعه تسعة نفر من أصحابه من أهل الكوفة وأربعة من غيرها فلما صار على أميال من الكوفة يراد به دمشق أنشأت ابنته تقول ولا عقب له من غيرها

ترفع أيها القمر المنير * لعلك ان ترى حجرا يسير
يسير الى معاوية بن حرب * ليقتله كذا زعم الامير
ويصلبه على بابى دمشق * وتأكل من محاسنه النسور
تخيرت الخبائر بعد حجر * وطاب لها الخورنق والسدير
ألا يا حجر حجر بنى عدى * تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عليا * وشيخا فى دمشق له زئير
ألا ياليت حجرا مات موتا * ولم ينحر كما نحر البعير
فان تهلك فكل عميد قوم * الى هلك من الدنيا يصير

ولما صار الى مرج عذراء على اثنى عشر ميلا من دمشق تقدم البريد بأخبارهم الى معاوية

فبعث برجل أعور فلما أشرف على حجر وأصحابه قال رجل منهم ان صدق الزجر فانه سيقتل منا النصف وينجو الباقون فقيل له وكيف ذلك قال أماترون الرجل المقبل مصابا باحدى عينيه فلما وصل اليهم قال لحجر ان أمير المؤمنين أمرني بقتلك يارأس الضلال ومعدن الكفر والطغيان والمتولي لابي تراب وقتل أصحابك الا أن ترجعوا عن كفركم وتلعنوا صاحبكم وتبرأون منه فقال حجر وجماعة ممن كان معه ان الصبر على حد السيف لايسر علينا مما تدعونا اليه ثم القدوم على الله وعلى نبيه وعلى وصيه أحب الينا من دخول النار وأجاب نصف من كان معه الى البراءة من علي فلما قدم حجر ليقتل قال دعوني أصلي ركعتين فجعل يطول في صلاته فقيل له اجزعا من الموت فقال لا ولكني ماتطهرت للصلاة قط الا صليت وماصليت قط أخف من هذه وكيف لا أجزع واني لأرى قبرا محفورا وسيفا مشهورا وكفنا منشورا ثم قدم فنحر وألحق به من وافقه على قوله من أصحابه وقيل ان قتلهم كان في سنة خمسين وذكر ان عدي بن حاتم الطائي دخل على معاوية فقال له معاوية مافعلت الطرفات يعني أولاده قال قتلوا مع علي قال ما أنصفك علي قتل أولادك وبقاء أولاده فقال عدي ما أنصفت عليا اذ قتل وبقيت بعده فقال معاوية أما انه قد بقي قطرة من دم عثمان مايمحوها الا دم شريف من أشراف اليمن فقال عدي والله ان قلوبنا التي أبغضناك بها لفي صدورنا وان أسيافنا التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ولئن أدنيت الينا من الغدر فترا لندنين اليك من الشر شبرا وان جز الحلقوم وحشرجة الحيزوم لأهون علينا من أن تسمع المساءة في علي فسلم السيف يامعاوية لباعث السيف فقال معاوية هذه كلمات حكم فاكتبوها وأقبل على عدي محادثا له كأنه ماخاطبه بشئ (وذكر) ان معاوية بن أبي سفيان تنازع اليه عمرو بن عثمان بن عفان وأسامة ابن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أرض فقال عمرو لاسامة كأنك تنكرني فقال أسامة مايسرني نسبك بولائي فقام مروان بن الحكم فجلس الى جانب الحسن وقام عبد الله بن عامر فجلس الى جانب أسامة فقام سعيد بن العاص فجلس الى جانب مروان فقام الحسين فجلس الى جانب الحسن وقام عبد الله بن عامر فجلس الى جانب سعيد فقام عبد الله بن جعفر فجلس الى جانب الحسين وقام عبد الرحمن بن الحكم فجلس الى جانب ابن عامر فقام عبد الله بن العباس فجلس الى جانب ابن جعفر فلما رأى ذلك معاوية قال لاتعجلوا أنا كنت شاهدا اذ أقطعها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة فقام الهاشميون فخرجوا ظاهرين وأقبل الامويون عليه فقالوا الا كنت أصلحت بيننا قال دعوني فوالله ماذكرت عيونهم تحت المغافر بصفين الا لبس على عقلي وان الحرب أولها نجوى وأوسطها شكوى وآخرها بلوى وتمثل بأبيات امرئ القيس المتقدمة في هذا الكتاب في أخبار عمر رضي الله عنه وأولها

الحرب أول ماتكون فتية * تدعو بزينتها لكل جهول

ثم قال مافي القلوب يشب الحروب والامر الكبير يدفعه الامر الصغير وتمثل

قد يلحق الصغير بالجليل * وانما القرم من الافيل

وتمحق النخل من الغسيل

(قال المسعودى) ولما هم معاوية بالحاق زياد بأبى سفيان أبيه وذلك فى سنة أربعين شهد عنده زياد بن أسماء الحرمازى ومالك بن ربيعة السلولى والمنذر بن الزبير بن العوام ان أباسفيان أخبر انه ابنه وان أباسفيان قال لعلى عليه السلام حين ذكر زياد عند عمر بن الخطاب

أما والله لولا خوف شخص * يرانى ياعلى من الاعادى
لبين أمره صخر بن حرب * ولم يكن المجمجم عن زياد
ولكنى أخاف صروف كف * لها نقم ونفى عن بلادى
فقد طالت مجاولتى ثقيفا * وتركى فيهم ثمر الفؤاد

ثم زاده يقينا الى ذلك شهادة أبى مريم السلولى وكان أخبر الناس ببدء الامر وذلك انه جمع بين ابى سفيان وسمية أم زياد فى الجاهلية على زنى وكانت سمية من ذوات الرايات بالطائف تؤدى الضريبة الى الحارث بن كلدة وكانت تنزل بالموضع الذى ينزل فيه البغايا بالطائف خارجا عن الحضر فى محلة يقال لها حارة البغايا وكان سبب ادعاء معاوية فيما ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى أن عليا كان ولاه فارس حين أخرج منها سهل بن حنيف فضرب زياد بعضهم ببعض حتى غلب عليها ومازال يتنقل فى كورها حتى صلح أمر فارس ثم ولاه على اصطخر وكان معاوية يتهدده ثم أخذ بشر بن أرطاة عبيد الله وسلمان ولديه وكتب اليه يقسم ليقتلنهما ان لم يرجع ويدخل فى طاعة معاوية ويرده على عمله فقدم زياد على معاوية وكان المغيرة بن شعبة قال لزياد قبل قدومه على معاوية أرم الغرض الاقصى ودع عنك الفضول فان هذا الامر لايمد اليه أحد يدا الا الحسن بن على وقد بايع لمعاوية فخذها لنفسك قبل التوطين قال زياد فأشر على قال أرى أن تنقل أصلك الى أصله وتصل حبلك بحبله وتعير الناس منك اذنا صماء فقال زياد يا ابن شعبة أأغرس عودا فى غير منبته ولا مدرة فتحييه ولا عرق فيسقيه ثم ان زيادا عزم على قبول الدعوى وأخذ برأى ابن شعبة وأرسلت اليه جويرية بنت أبى سفيان عن أمر أخيها فأتاها فأذنت له وكشفت عن شعرها بين يديه وقالت أنت أخى أخبرنى بذلك أبو مريم ثم أخرجه معاوية الى المسجد وجمع الناس فقام أبو مريم السلولى فقال اشهدوا ان أباسفيان قدم علينا بالطائف وأنا خمار فى الجاهلية فقال أبغنى بغيا فأتيته وقلت لم أجد الا جارية الحارث بن كلدة سمية فقال ائتنى بها على دفرها وقذرها فقال له زياد مهلا يا أبا مريم انما بعثت شاهدا ولم تبعث شاتما فقال أبو مريم لو كنتم أعفيتمونى لكان أحب الى وانما شهدت بما عاينت ورأيت والله لقد أخذ بكم درعها وأغلقت الباب عليهما وقعدت دهشانا فلم ألبث أن خرج على يمسح جبينه فقلت مه يا أباسفيان فقال ما أصبت مثلها يا أبا مريم لولا استرخاء من ثدييها ودفر من فيها فقام زياد فقال أيها الناس هذا الشاهد قد ذكر ما سمعتم ولست أدرى حق ذلك من باطله وانما كان عبيد ابيا مبرورا أو وليا مشكورا والشهود أعلم بما قالوا فقام يونس بن عبيد أخو صفية بنت عبيد بن أسد بن علاج الثقفى

وكانت صفية مولاة سمية فقال يا معاوية قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولد للفراش وللعاهر الحجر وقضيت أنت ان الولد للعاهر وان الحجر للفراش مخالفة لكتاب الله تعالى وانصرافا عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادة أبي مريم على زنى أبي سفيان فقال معاوية والله يا يونس لتنتهين أو لأطيرن بك طيرة بطيئا وقوعها فقال يونس هل الا الى الله ثم أقع قال نعم وأستغفر الله فقال عبد الرحمن ابن أم الحكم في ذلك ويقال انه ليزيد بن مفرغ الحميري

ألا أبلغ معاوية بن حرب * مغلغلة عن الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عف * وترضى أن يقال أبوك زاني
فاشهد ان رحمك من زياد * كرحم الفيل من ولد الاتان

وفي زياد واخوته يقول خالد النجاري

ان زيادا ونافعا وأبا * بكرة عندي من أعجب العجب
ان رجالا ثلاثة خلقوا * من رحم انثى مخالفي النسب
ذا قرشي فيما يقول وذا * مولى وذا ابن عمه عربي

ولما قتل علي كرم الله وجهه كان في نفس معاوية من يوم صفين على هاشم بن عتبة بن أبي وقاص المرقال وولده عبد الله بن هاشم احن فلما استعمل معاوية زيادا على العراق كتب اليه أما بعد فانظر عبد الله بن هاشم بن عتبة فشد يده الى عنقه ثم ابعث به الي فحمله زياد من البصرة مقيدا مغلولا الى دمشق وقد كان زياد طرقه بالليل في منزله بالبصرة فادخل الى معاوية وعنده عمرو بن العاص فقال معاوية لعمرو بن العاص هل تعرف هذا قال لا قال هذا الذي يقول أبوه يوم صفين

اني شريت النفس لما اعتلا * وأكثر اللوم وما أقلا
أعور يبغي أهله محلا * قد عالج الحياة حتى ملا
لا بد أن يفل أو يفلا * أسلهم بذي الكعوب سلا
لاخير عندي في كريم ولى

فقال عمرو متمثلا

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى * وتبقى حزازات النفوس كما هيا

دونك يا أمير المؤمنين الضب الضب فاشخب أوداجه على أسباجه ولا ترده الى أهل العراق فانه لا يصبر على النفاق وهم أهل غدر وشقاق وحزب ابليس ليوم هيجانه وان له هوى سيؤديه ورأيا سيطغيه وبطانة ستقويه وجزاء سيئة سيئة مثلها فقال عبد الله يا عمرو ان اقتل فرجل اسلمه قومه وادركه يومه أفلا كان هذا منك اذ تحيد عن القتال ونحن ندعوك الى النزال وأنت تلوذ بشمال النطاف وعقائق الرصاف كالامة السوداء والنعجة القوداء لا تدفع يد لامس فقال عمرو أما والله لقد وقعت في لهاذم شذقم للاقران ذي لبد ولا أحسبك منفلتا من مخاليب أمير المؤمنين فقال عبد الله أما والله يا ابن العاص انك لبطر في الرخاء جبان عند اللقاء غشوم اذا وليت هياب اذا لقيت تهدر كما يهدر العود

المنكوس المقيد بين مجرى الشول لا يستعجل فى المدة ولا يرتجى فى الشدة أفلا كان هذا منك اذ غمرك أقوام لم يعنفوا اصغارا ولم يمزقوا كبارا لهم أيد شداد وألسنة حداد يدعمون العوج ويذهبون الحرج يكثرون القليل ويشفون الغليل ويعزون الذليل فقال عمرو أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تخفق أحشاؤه وتبق امعاؤه وتضطرب أصلاؤه كأنما انطبق عليه ضمد فقال عبد الله يا عمرو انا قد بلوناك ومقالتك فوجدنا لسانك كذوبا غادرا خلوت بأقوام لا يعرفونك وجند لا يسأمونك ولورمت المنطق فى غير أهل الشام لجحظ اليك عقلك ولتجلج لسانك ولاضطرب فخذاك اضطراب القعود الذى أثقله حمله فقال معاوية ايها عنكما وأمر باطلاق عبد الله فقال عمرو لمعاوية

أمرتك أمرا حازما فعصيتنى * وكان من التوفيق قتل ابن هاشم

أليس أبوه يا معاوية الذى * أعان عليا يوم حز الغلاصم

فلم ينثنى حتى جرت من دمائنا * بصفين أمثال البحور الخضارم

وهذا ابنه والمرء يشبه شيخه * ويوشك ان تقرع به سن نادم

فقال عبد الله يجيبه

معاوى ان المرء عمرا أبت له * ضغينة صدر غشها غير نائم

يرى لك قتلى يا ابن هند وانما * يرى ما يرى عمرو ملوك الاعاجم

على انهم لا يقتلون أسيرهم * اذا منعت منه عهود المسالم

وقد كان منا يوم صفين نفرة * عليك جناها هاشم وابن هاشم

قضى ما انقضى منها وليس الذى مضى * ولا ما جرى الا كأضغاث حالم

فان تعف عنى تعف عن ذى قرابة * وان ترقتلى تستحل محارمى

فقال معاوية

أرى العفو عن عليا قريش وسيلة * الى الله فى يوم العصيب القماطر

ولست أرى قتل العداة ابن هاشم * بادراك ثارى فى لؤى وعامر

بل العفو عنه بعدما بان جرمه * وزلت به احدى الجدود العواثر

فكان أبوه يوم صفين جمرة * علينا فأردته رماح نهابر

وحضر عبد الله بن هاشم ذات يوم مجلس معاوية فقال معاوية من يخبرنى عن الجود والنجدة والمروءة فقال عبد الله يا أمير المؤمنين أما الجود فابتذال المال والعطية قبل السؤال وأما النجدة فالجراءة على الاقدام والصبر عند ازورار الاقدام وأما المروءة فالصلاح فى الدين والاصلاح للمال والمحاماة عن الجار ولما صرف على رضى الله عنه قيس بن سعد بن عبادة عن مصر وجه مكانه محمد بن أبى بكر فلما وصل اليها كتب الى معاوية كتابا فيه من محمد بن أبى بكر الى الغاوى معاوية بن صخر أما بعد فان الله بعظمته وسلطانه خلق خلقه بلا عبث منه ولا ضعف فى قوته ولا حاجة به الى خلقهم لكنه خلقهم عبيدا وجعل منهم غويا ورشيدا وشقيا وسعيدا ثم اختار على علم واصطفى وانتخب منهم محمدا صلى الله عليه وسلم فانتخبه لعلمه واصطفاه لرسالته وائتمنه على وحيه وبعثه رسولا ومبشرا ونذيرا فكان أول من أجاب

وأناب وآمن وصدق وأسلم وسلم أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب صدقه بالغيب المكتوم وآثره على كل حميم ووقاه بنفسه كل هول وحارب حربه وسالم سلمه فلم يبرح مبتذلا لنفسه في ساعات الليل والنهار والخوف والجوع والخضوع حتى برز سابقا لا نظير له فيمن اتبعه ولا مقارب له في فعله وقد رأيتك تساميه وأنت أنت وهو هو أصدق الناس نية وأفضل الناس ذرية وخير الناس زوجة وأفضل الناس ابن عم أخوه الشاري بنفسه يوم مؤته وعمه سيد الشهداء يوم أحد وأبوه الذاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن حوزته وأنت اللعين ابن اللعين لم تزل أنت وأبوك تبغيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم الغوائل وتجهدان في اطفاء نور الله تجمعان على ذلك الجموع وتبذلان فيه المال وتؤلبان عليه القبائل على ذلك مات أبوك وعليه خلفته والشهيد عليك من تدني ويلجأ اليك من بقية الاحزاب ورؤساء النفاق والشاهد لعلي مع فضله المبين القديم أنصاره الذين معه الذين ذكرهم الله بفضلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والانصار وهم معه كتائب وعصائب يرون الحق في اتباعه والشقاء في خلافه فكيف يالك الويل تعدل نفسك بعلي وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ووصيه وأبو ولده أول الناس له اتباعا وأقربهم به عهدا يخبره بسره ويطلعه على أمره وأنت عدوه وابن عدوه فتمتع في دنياك ما استطعت بباطلك وليمددك ابن العاص في غوايتك فكأن أجلك قد انقضى وكيدك قد وهي ثم يتبين لك لمن تكون العاقبة العليا واعلم انك انما تكايد ربك الذي آمنك كيده ويئست من روحه فهو لك بالمرصاد وأنت منه في غرور والسلام على من اتبع الهدى (فكتب اليه معاوية) من معاوية بن صخر الى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر فيه ما الله أهله في عظمته وقدرته وسلطانه وما اصطفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله مع كلام كثير لك فيه تضعيف ولابيك فيه تعنيف ذكرت فيه فضل ابن أبي طالب وقديم سوابقه وقرابته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومواساته اياه في كل هول وخوف فكان احتجاجك علي وعيبك لي بفضل غيرك لا بفضلك فاحمد ربا صرف هذا الفضل عنك وجعله لغيرك فقد كنا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب وحقه لازما لنا مبرورا علينا فلما اختار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده وأتم له ما وعده وأظهر دعوته وأبلج حجته وقبضه الله اليه صلوات الله عليه كان أبوك وفاروقه أول من ابتزه حقه وخالفه على أمره على ذلك اتفقا واتسقا ثم انهما دعواه الى بيعتهما فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما فهما به الهموم وأرادا به العظيم ثم انه بايع لهما وسلم لهما وأقاما لا يشركانه في أمرهما ولا يطلعانه على سرهما حتى قبضهما الله ثم قام ثالثهما عثمان فهدى بهديهما وسار بسيرهما فعبته أنت وصاحبك حتى طمع فيه الاقاصي من أهل المعاصي فطلبتما له الغوائل وأظهرتما عداوتكما حتى بلغتما فيه مناكما فخذ حذرك يا ابن أبي بكر وقس شبرك بفترك يقصر عن أن توازي أو تساوي من يزن الجبال بحلمه لا يلين عن قسر قناته ولا يدركه ذو مقال أناته مهد مهاده وبنى لملكه وشاده فان يك ما نحن فيه صوابا فأبوك استبد به ونحن شركاؤه ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبي طالب ولسلمنا اليه ولكنا رأينا أباك فعل

ذلك به من قبلنا فأخذنا بمثله فعب أبا لبعابد اللك اودع ذلك والسلام على من أناب (ومما كتب به معاوية الى على) أما بعد فلو علمنا ان الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض وانا وان كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نرد به ما مضى ونصلح به ما بقى وقد كنت سألتك الشأم على ان لا تلزمنى لك طاعة وأنا أدعوك اليوم الى ما دعوتك اليه أمس فانك لا ترجو من البقاء الا ما ارجو ولا تخاف من القتال الا ما أخاف وقد والله رقت الاجناد وذهبت الرجال ونحن بنو عبد مناف وليس لبعضنا على بعض فضل يستذل به عزيز ويسترق به حر والسلام (فكتب اليه على كرم الله وجهه) من على بن أبى طالب الى معاوية بن أبى سفيان أما بعد فقد جاءنى كتابك تذكر فيه انك لو علمت ان الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض وأنا واياك نلتمس منها غاية لم نبلغها بعد فأما طلبك منى الشأم فانى لم أكن أعطيك اليوم ما منعتك أمس وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء فلست بأمضى على الشك منى على اليقين وليس أهل الشأم على الدنيا بأحرص من أهل العراق على الآخرة وأما قولك نحن بنو عبد مناف فكذلك نحن وليس أمية كهاشم ولا حرب كعبد المطلب ولا أبو سفيان كأبى طالب ولا الطليق كالمهاجر ولا المبطل كالمحق وفى أيدينا فضل النبوة التى قتلنا بها العزيز وبعنا بها الحر والسلام (وحدث) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى عن محمد بن حميد الرازى عن ابى مجاهد عن محمد بن اسحاق بن أبى نجيح قال لما حج معاوية طاف بالبيت ومعه سعد فلما فرغ انصرف معاوية الى دار الندوة فأجلسه معه على سريره ووقع معاوية فى على وشرع فى سبه فزحف سعد ثم قال أجلستنى معك على سريرك ثم شرعت فى سب على والله لأن يكون فى خصلة واحدة من خصال كانت لعلى أحب الى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس والله لأن أكون صهرا لرسول صلى الله عليه وسلم لى من الولد ما لعلى أحب الى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ما قاله يوم خيبر لاعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله ليس بفرار يفتح الله على يديه أحب الى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ما قال له فى غزوة تبوك ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبى بعدى أحب الى من أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس وأيم الله لا دخلت لك دارا ما بقيت ونهض (ووجدت) فى وجه آخر من الروايات وذلك فى كتاب على بن محمد بن سليمان النوفلى فى الاخبار عن ابن عائشة وغيره ان سعدا لما قال هذه المقالة لمعاوية ونهض ليقوم ضرط له معاوية وقال له اقعد حتى تسمع جواب ما قلت ما كنت عندى قط ألأم منك الآن فهلا نصرته ولم قعدت عن بيعته فانى لو سمعت من النبى صلى الله عليه وسلم مثل الذى سمعت فيه لكنت خادما لعلى ما عشت فقال سعد والله انى لاحق بموضعك منك فقال معاوية يأبى عليك بنو عذرة وكان سعد فيما يقال لرجل من بنى عذرة قال النوفلى وفى ذلك يقول السيد محمد الحميرى

سائل قريشا بها ان كنت ذا عمه * من كان أثبتها فى الدين أوتادا
من كان أقدمها سلما وأكثرها * علما وأطهرها أهلا وأولادا

من

من وحد الله اذ كانت مكذبة * تدعو مع الله أوثانا وأندادا
من كان يقدم في الهيجاء ان نكلوا * عنها وان بخلوا في أزمة جادا
من كان أعدلها حكما وأقسطها * حلما وأصدقها وعدا وايعادا
ان يصدقوك فلم يعدوا أبا حسن * ان أنت لم تلق للابرار حسادا
ان أنت لم تلق من تيم أخا صلف * ومن عدي لحق الله جحادا
أو من بني عامر أو من بني أسد * رهط العبيد ذوي جهل وأوغادا
أو رهط سعد وسعد كان قد علموا * عن مستقيم صراط الله صدادا
قوم تداعوا زنيما ثم سادهم * لولا خمول بني زهر لما سادا

وكان سعد واسامة بن زيد وعبد الله بن عمر ومحمد بن سلمة ممن قعد عن علي بن أبي طالب وابوا ان يبايعوه هم وغيرهم ممن ذكرنا من القعاد عن بيعته وذلك انهم قالوا انها فتنة ومنهم من قال لعلي اعطنا سيوفا نقاتل بها معك فاذا ضربنا بها المؤمنين لم تعمل فيهم ونبت عن أجسامهم واذا ضربنا بها الكافرين سرت في أبدانهم فاعرض عنهم علي وقال ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون (وذكر) ابو مخنف لوط بن يحيى وغيره من الاخباريين ان الامر لما أفضى الى معاوية اتاه أبو الطفيل الكناني فقال له كيف وجدك على خليلك أبي الحسن قال كوجد ام موسى على موسى وأشكو الى الله التقصير فقال معاوية كنت فيمن حضر قتل عثمان قال لا ولكني فيمن حضر فلم ينصره قال فما منعك من ذلك وقد كانت نصرته عليك واجبة قال منعني ما منعك اذ تربص به ريب المنون وأنت بالشام قال أو ما ترى طلبي بدمه نصرة له قال بلى ولكنك واياه كما قال الجعدي

لا ألفينك بعد الموت تندبني * وفي حياتي ما زودتني زادا

(ودخل) على معاوية ضرار بن الخطاب فقال له كيف حزنك على أبي الحسن قال حزن من ذبح ولدها على صدرها فما ترقأ عبرتها ولا يسكن حزنها (ومما جرى) بين معاوية وبين قيس ابن سعد بن عبادة حين كان عاملا على مصر فكتب اليه معاوية اما بعد فانك يهودي ابن يهودي وان ظفر أحب الفريقين اليك عزلك واستبدل بك وان ظفر ابغضهما اليك نكل بك وقتلك وقد كان ابوك اوتر قوسه ورمى غرضه فأكثر الحد واخطأ القصد فخذله قومه وادركه يومه ثم مات بحوران طريدا فكتب اليه قيس بن سعد اما بعد فانما انت وثني ابن وثني دخلت في الاسلام كرها وخرجت منه طوعا لم يقدم ايمانك ولم يحدث نفاقك وقد كان أبي أوتر قوسه ورمى غرضه فشعب به من لم يبلغ عقبه ولا شق غباره ونحن انصار الدين الذي منه خرجت واعداء الدين الذي فيه دخلت (ودخل) قيس بن سعد بعد وفاة علي ووقوع الصلح في جماعة من الانصار على معاوية فقال لهم معاوية يا معشر الانصار بم تطلبون ما قبلي فوالله لقد كنتم قليلا معي كثيرا علي ولفللتم حدي يوم صفين حتى رأيت المنايا تلظى في أسنتكم وهجوتموني في أسلافي بأشد من وقع الاسنة حتى اذا أقام الله ما حاولتم ميله قلتم ارع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فهيهات يابى الحقير الغدرة فقال قيس نطلب ما قبلك بالاسلام الكافي به الله لا بما غمت به اليك الاحزاب واما عداوتنا

لك فلو شئت كففتها عنك وأما هجاؤنا اياك فقول يزول باطله ويثبت حقه وأما استقامة الامر فعلى كره كان منا واما قتلنا حذلك يوم صفين فانا كنا مع رجل نرى طاعته لله طاعة واما وصية رسول الله بنا فمن آمن به رعاها بعده واما قولك يا بى الحقير الغدرة فليس دون الله يد تحجزك منا يا معاوية فقال معاوية يرفعوا حوائجكم وقد كان قيس بن سعد من الزهد والديانة والميل الى على بالموضع العظيم وبلغ من خوفه الله وطاعته اياه انه كان يصلى فلما أهوى للسجود اذا فى موضع سجوده ثعبان عظيم مطرق فمال عن الثعبان برأسه وسجد الى جانبه فتطوق الثعبان برقبته فلم يقصر من صلاته ولا نقص منها شيأ حتى فرغ ثم أخذ الثعبان فرمى به كذلك ذكر الحسن بن على بن عبد الله بن المغيرة عن معمر بن خلاد عن أبى الحسن على بن موسى الرضى وقال عمرو بن العاص لمعاوية ذات يوم قد أعيانى ان اعلم أجبان أنت ام شجاع لانى اراك تتقدم حتى أقول اراد القتال ثم تتأخر حتى أقول اراد الفرار فقال له معاوية والله ما اتقدم حتى ارى التقدم غنما ولا أتأخر حتى ارى التأخر حزما كما قال القطامى

شجاع اذا ما امكنتنى فرصة * والا تكن لى فرصة فجبان

(وذكر أبو مخنف) لوط بن يحيى عن أبى الاغر التميمى قال بينا انا واقف بصفين اذ مر العباس ابن ربيعة مغفرا بالسلاح وعيناه يبصان من تحت المغفر كأنهما شعلتا نار او عينا ارقم وبيده صفيحة له يمانية يقلبها والمنايا تلوح فى شفرتها وهو على فرس صعب فبينا هو يبعثه ويمنعه ويلين من عريكته اذ هتف به هاتف يقال له غرار بن ادهم من اهل الشام يا عباس هلم الى النزال قال فالنزول اذا فانه اياس من الحياة فنزل اليه الشامى وهو يقول

ان تركبوا فركوب الخيل عادتنا * أو تنزلون فانا معشر نزل

وثنى العباس وركه وهو يقول

الله يعلم انا لا نحبكم * ولا نلومكم ألا تحبونا

ثم عصر فضلات درعه فى حجزته ودفع فرسه الى غلام له اسود كانى والله انظر فلاذل شعره ثم زحف كل واحد منهما الى صاحبه وكف الفريقان أعنة الخيول ينظرون ما يكون من الرجلين فتكافحا بسيفيهما مليا نهارهما لا يصل واحد منهما الى صاحبه لكمال لامته الى ان لحظ العباس وهنا فى درع الشامى فاهوى اليه بيده وهتكه الى ثندوته ثم عاد لمجاولته وقد أفرج له مفتق الدرع فضربه العباس ضربة انتظم بها جوانح صدره فخر الشامى لوجهه فكبر الناس تكبيرة ارتجت لها الارض من تحتهم وانساب العباس فى الناس فاذا قايل يقول من وراءى قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين الآية فالتفت فاذا بعلى رضى الله عنه فقال يا ابن الاغر من المبارز لعدونا قلت ابن اخيكم العباس بن ربيعة قال وانه لهو العباس قلت نعم فقال يا عباس الم انهك وعبد الله بن عباس ان تخلا بمركز أو تبارزا أحدا قال ان ذلك كما قلت قال على فما عدا فيما بدا قال أفادعى الى البراز فلا اجيب قال طاعة امامك اولى بك من اجابة عدوك وتغيظ واستطار ثم تطامن وسكن ورفع يديه مبتهلا فقال اللهم اشكر للعباس

مقامه

مقامه واغفر ذنبه اللهم انى قد غفرت له فاغفرله وتاسف معاوية على غرار بن ادهم وقال
متى ينطف فحل بمثله أبطل دمه لاها الله ألا رجل يشرى نفسه يطلب بدم غرار فانتدب له
رجلان من لخم من أهل الباس ومن صناديد الشأم فقال اذهبا فأيكما قتل العباس فله مائة
اوقية من التبر ومثلها من اللجين وبعددهما من برود اليمن فأتياه فدعواه الى البراز وصاحا
بين الصفين يا عباس يا عباس ابرز الى الداعى فقال ان لى سيدا أريد أن أوامره فاتى عليا وهو
فى جناح الميمنة يحرض الناس فأخبره الخبر فقال على والله يود معاوية انه ما بقى من بنى هاشم
نافخ ضرمة الا طعن فى بطنه اطفاء لنور الله (ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون)
اما والله ليملكنكم منا رجال ورجال يسومونهم سوم الخسف حتى تعفو الآثار ثم قال يا عباس
ناقلنى سلاحك بسلاحى فناقله ووثب على فرس العباس وقصد اللخميين فلم يشكا أنه العباس
فقالا له أذن لك صاحبك فتحرج ان يقول نعم فقال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله
على نصرهم لقدير) وكان العباس اشبه الناس فى جسمه وركوبه بعلى فبرز له احدهما
فما أخطأه ثم برز له الآخر فالحقه بالاول ثم اقبل وهو يقول (الشهر الحرام بالشهر الحرام
والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) ثم قال يا عباس
خذ سلاحك وهات سلاحى فان عاد لك أحد فعد لى ونما الخبر الى معاوية فقال قبح الله اللجاج
انه لعقور ما ركبته قط الا خذلت فقال عمرو بن العاص المخذول والله اللخميان والمغرور
من غررته لا انت المخذول قال اسكت ايها الرجل فليس هذا من شأنك قال وان لم يكن رحم
الله اللخميين ولا اراه يفعل قال ذلك والله أضيق لحجتك واخسر لصفقتك قال قد علمت ذلك
ولولا مصر وولايتها لركبت المنجاة منها فانى اعلم أن على بن أبي طالب على الحق وانا على
ضده فقال معاوية مصر والله أعمتك ولولا مصر لالفيتك بصيرا ثم ضحك معاوية ضحكا ذهب
به كل مذهب قال مم تضحك يا أمير المؤمنين اضحك الله سنك قال أضحك من حضور ذهنك
يوم بارزت عليا وابدائك سوأتك اما والله يا عمرو لقد واقعت المنايا ورأيت الموت عيانا
ولو شاء لقتلك ولكن أبى ابن أبي طالب فى قتلك الا تكرما فقال عمرو أما والله انى لعن يمينك
حين دعاك الى البراز فاحولت عيناك وبدا سحرك وبدا منك ما أكره ذكره لك من نفسك
فاضحك اودع (وذكر أبو مخنف) لوط بن يحيى ان معاوية برز فى بعض ايام صفين امام
الناس وكر على ميسرة على وكان على فيما فى ذلك الوقت يعبى الناس فغير على لامته
وجواده وخرج بلامة بعض اصحابه وصمد له معاوية فلما تدانيا اتبعه معاوية فغمز برجليه على
جواده وعلى وراءه حتى فاته ودخل فى مصاف اهل الشام فاصاب على رجلا من مصافهم
دونه ثم رجع وهو يقول

يالهف نفسى فاتنى معاويه * فوق طمر كالعقاب الضاريه

وقدم عمرو بن العاص من مصر على معاوية فى بعض الايام فلما رآه معاوية قال

يموت الصالحون وانت حى * تخطاك المنايا لا تموت

فأجابه عمرو

فلست بميت مادمت حيا * ولست بميت حتى تموت

(وذكر) ان معاوية لما نظر الى عساكر أهل العراق وقد اشرفت واخذت الرجال مراتبها من الصفوف ونظر الى علي على فرس اشقر حاسر الرأس يرتب الصفوف كأنه يغرسهم في الارض غرسا فيثبتون كأنهم بنيان مرصوص قال لعمرو يا اباعبد الله اما تنظر الى ابن أبي طالب وما هو عليه فقال له عمرو من طلب عظيما خاطر بعظيم وقد كان معاوية في سنة اربعين بعث بشر بن ارطاة في ثلاثة الاف حتى قدم المدينة وعليها ابو ايوب الانصاري فتنحى وجاء بشر حتى صعد المنبر وتهدد اهل المدينة بالقتل فاجابوه الى بيعة معاوية وبلغ الخبر عليا فانفذ جارية بن قدامة السعدي في الفين ووهب بن مسعود في الفين ومضى بشر الى مكة ثم سار الى اليمن وكان عبد الله بن العباس بها فخرج عنها ولحق بعلي واستخلف عليها عبد الله بن عبد المدان الحارثي وخلف ابنيه عبد الرحمن وقثم عند امهما جويرية بنت قارظ الكنانية فقتلهما بشر وقتل معهما خالا لهما من ثقيف وقد كان بشر بن ارطاة العامري عامر بن لؤي ابن غالب قتل بالمدينة وبين المسجدين خلقا كثيرا من خزاعة وغيرهم وكذلك بالجرف قتل بها خلقا كثيرا من رجال همذان وقتل بصنعاء خلقا كثيرا من الابناء ولم يبلغه عن احد انه يمالئ عليا اويهواه الاقتله وثما اليه خبر جارية بن قدامة السعدي فهرب وظفر جارية بابن اخي بشر مع اربعين من أهل بيته فقتلهم وكانت جويرية ام ابني عبد الله بن العباس الذين قتلهما بشر تدور حول البيت ناشرة شعرها وهي من اجمل الناس وهي تقول ترثيهما

ها من أحس من ابني اللذين هما * كالدرتين تشظى عنهما الصدف
ها من أحس من ابني اللذين هما * سمعي وقلبي فعقلي اليوم مختطف
ها من أحس من ابني اللذين هما * مخ العظام فمخي اليوم مزدهف
نبئت بشرا وما صدقت ما زعموا * من قولهم ومن الافك الذي وصفوا
انحى على ودجي ابني مرهفة * مشحوذة وكذاك الاثم يقترف

(وذكر الواقدي) قال دخل عمرو بن العاص يوما على معاوية بعدما كبر ودق ومعه مولاه وردان فاخذا في الحديث وليس عندهما غير وردان فقال عمرو يا أمير المؤمنين مابقي مما تستلذه فقال اما النساء فلا أرب لي فيهن واما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهي بها جلدي فما ادري ايها ألين واما الطعام فقد اكلت من لينه وطيبه حتى ما ادري ايه اطيب واما الطيب فقد دخل خياشيمي منه حتى ما أدري ايه أطيب فما شيء الذ عندي من شراب بارد في يوم صائف ومن ان انظر الى بني وبني بني يدورون حولي فما بقي منك يا عمرو قال مال أغرسه فاصيب من ثمرته ومن غلته فالتفت معاوية الى وردان فقال مابقي منك يا وردان قال صنيعة كريمة سنية اعلقها في اعناق قوم ذوي فضل وأخطار لا يكافؤنني بها حتى القى الله تعالى وتكون لعقبي في أعقابهم بعدي فقال معاوية تبا لمجلسنا سائر اليوم ان هذا العبد غلبني وغلبك وفي سنة ثلاث وأربعين مات عمرو بن العاص بن وائل بن سهم بن سعيد بن سعد بمصر وله تسعون سنة وكانت ولايته مصر عشر سنين واربعة اشهر ولما حضرته الوفاة قال اللهم لا براءة لي فأعتذر ولا قوة لي فانتصر امرتنا فعصينا ونهيتنا فركبنا اللهم هذه يدي الى ذقني ثم قال خذوا لي في الارض خدا وسنوا على التراب سنا ثم وضع اصبعه في فيه حتى

مات

مات وصلى عليه ابنه عبد الله يوم الفطر فبدأ بالصلاة عليه قبل صلاة العيد ثم صلى بالناس بعد ذلك صلاة العيد وكان أبوه من المستهزئين وفيه نزلت ان شانئك هو الابتر (وولى معاوية) ابنه عبد الله بن عمرو ما كان لأبيه وخلف عمرو من العين ثلثمائة الف دينار وخمسة وعشرين الف دينار ومن الورق الفى الف درهم وضيعته المعروفة بالرهط قيمتها عشرة الاف الف درهم وفيه يقول ابن الزبير الاسدى الشاعر من ابيات

الم تران الدهر اخنت صروفه * على عمرو السهمى تجبى له مصر
فلم يغن عنه حزمه واحتياله * ولا جمعه لما اتيح له الدهر
وامسى مقيما بالعراء وضلت * مكايده عنه واموله الدثر

وفى سنة خمس وأربعين ولى معاوية زياد ابن ابيه البصرة واعمالها وقال لما دخلها

الا رب مسرور بما لا يسره * وآخر محزون بما لا يضره

وقد كان معاوية عزل فى هذه السنة شقران بن عوف العامرى وأمره أن يبلغ الطوانه فاصيب معه خلق من الناس فعم الناس الحزن بمن أصيب بارض الروم وبلغ معاوية أن يزيد ابنه لما بلغه خبرهم وهو على شرابه مع ندمائه قال

اهون على بما لاقت جموعهم * يوم الطوانه من حمى ومن شوم
اذا اتكأت على الانماط مرتفقا * بدير مران عندى ام كلثوم

فحلف عليه ليغزون واردف به شقران فسميت هذه الغزاة غزاة الرادفة وبلغ الناس فيها الى القسطنطينية وفيها مات أبو ايوب الانصارى ودفن هنالك على باب القسطنطينية واسم أبى أيوب خالد بن زيد وقد قيل ان أبا أيوب مات فى سنة احدى وخمسين غازيا مع يزيد وقد أتينا على خبر هذه الغزاة وما كان من يزيد فيها فى الكتاب الاوسط وفى سنة تسع وأربعين كان الطاعون بالكوفة فهرب منها المغيرة بن شعبة وكان واليها ثم عاد اليها فطعن فمات فمر أعرابى عليه وهو يدفن فقال

ارسم ديار للمغيرة تعرف * عليها دوانى الانس والجن تعزف
فان كنت قد لاقيت هامان بعدنا * وفرعون فاعلم أن ذا العرش منصف

(وذكر) أن المغيرة ركب الى هند بنت النعمان بن المنذر وهى فى دير لها فى الحيرة مترهبة وهو أمير الكوفة يومئذ وقد كانت هند عميت فلما جاء الدير استأذن عليها فأتتها جاريتها فقالت هذا المغيرة يستأذن عليك فقالت للجارية ألقى اليه أثاثا فالقت اليه وسادة من شعر فلما دخل قعد عليها وقال أنا المغيرة فقالت له قد عرفتك عامل المدرة فما جاء بك قال أتيتك خاطبا اليك نفسك قالت اما والصليب لو أردتنى لدين أو جمال ما رجعت الا بحاجتك ولكنى اخبرك الذى أردت ذلك له قال وما هو قالت اردت انك تتزوجنى حتى تقوم فى الموسم فى العرب فتقول تزوجت ابنة النعمان قال ذلك أردت ولكن اخبرينى ما كان أبوك يقول فى هذا الحى من ثقيف قالت كان ينسبهم من اياد وقد افتخر عنده رجلان من ثقيف احدهما من بنى سالم والآخر من بنى يسار فسألهما عن أنسابهما فانتسب احدهما الى هوازن والآخر الى اياد فقال أبى ما الحى معد على اياد فضل نخرجا وأبى يقول

ان ثقيفا لم تكن هوازنا * ولم تناسب عامرا ومازنا
الاحدينا وأثبتوا المحاسنا

فقال المغيرة اما نحن فمن هوازن وأبوك اعلم قال فاخبريني أي العرب كان أحب الى أبيك قالت أطوعهم له قال ومن اولئك قالت بكر بن وائل قال فأين بنو تميم قالت ما استعنتهم في طاعة قال فقيس قالت ما اقتربوا اليه بما يحب الا استعقبوه بما يكره قال فكيف أطاع فارس قالت كانت طاعتهم اياه فيما يهوى فانصرف المغيرة ولما هلك المغيرة ضم معوية الكوفة الى زياد فكان أول من جمع له ولاية العراقين البصرة والكوفة وفي سنة ثمان وأربعين قبض معاوية فدك من مروان بن الحكم وقد كان وهبها له قبل ذلك فاستردها وقد كان معاوية حج في سنة خمسين وأمر بحمل منبر النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة الى الشأم فلما حمل كسفت الشمس ورؤيت الكواكب بالنهار فجزع من ذلك واعظمه ورده الى موضعه وزاد فيه ست مراقي وفي سنة ثلاث وخمسين هلك زياد بن ابيه بالكوفة في شهر رمضان وكان يكنى أبا المغيرة وقد كان كتب الى معاوية أنه قد ضبط العراق بيمينه وشماله فارغة فجمع له الحجاز مع العراقين واتصلت ولايته باهل المدينة فاجتمع الصغير والكبير بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجوا الى الله ولاذوا بقبر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام لعلمهم بما هو عليه من الظلم والعسف فخرجت في كفه بثرة ثم حكها ثم سرت واسودت فصارت أكلة سوداء فهلك بذلك وهو ابن خمس وخمسين سنة وقيل اثنتين وخمسين ودفن بالثوية من أرض الكوفة وقد كان زياد جمع الناس بالكوفة بباب قصره يحرضهم على لعن علي فمن أبى ذلك عرضه على السيف فذكر عبد الرحمن بن السائب قال حضرت فصرت الى الرحبة ومعي جماعة من الانصار فرأيت شيأ في منامي وأنا جالس في الجماعة وقد خفقت وهو أني رأيت شيأ طويلا قد اقبل فقلت ما هذا فقال أنا النقاد ذو الرقبة بعثت الى صاحب هذا القصر فانتبهت فزعا فما كان الا مقدار ساعة حتى خرج خارج من القصر فقال انصرفوا فان الامير عنكم مشغول واذا به قد أصابه ما ذكرنا من البلاء وفي ذلك يقول عبد الله بن السائب من ابيات

ما كان منتهيا عما أراد بنا * حتى تأتى له النقاد ذو الرقبه
فاسقط الشق منه ضربة ثبتت * لما تناول ظلما صاحب الرحبه

يعني بصاحب الرحبة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد ذهب جماعة الى أن عليا دفن في القصر بالكوفة ويقال ان زيادا طعن في يده وانه شاور شريحا في قطعها فقال له لك رزق مقسوم وأجل معلوم واني اكره ان كانت لك مدة أن تعيش أجذ وان حم أجلك أن تلقى ربك مقطوع اليد فاذا سألك لم قطعتها قلت بغضا للقائك وفرارا من قضائك فلام الناس شريحا فقال انه استشارني والمستشار مؤتمن ولولا أمانة المشورة لوددت أن الله قطع يده يوما ورجله يوما وسائر جسده يوما وفي سنة تسع وخمسين وفد على معاوية وفد الامصار من العراق وغيرها فكان ممن وفد من اهل العراق الاحنف بن قيس في آخرين من وجوه الناس فقال معاوية للضحاك بن قيس اني جالس من غد للناس فأتكلم بما شاء الله فاذا فرغت

من كلامي فقل في يزيد الذي يحق عليك وادع الى بيعته فاني قد أمرت عبد الرحمن بن عثمان الثقفي وعبد الله بن عمارة الاشعري وثور بن معن السلمي ان يصدقوك في كلامك وان يجيبوك الى الذي دعوتهم اليه فلما كان من الغد قعد معاوية فاعلم الناس بما رأى من حسن رعية يزيد ابنه وهديه وان ذلك دعاه الى ان يوليه عهده ثم قام الضحاك بن قيس فأجابه الى ذلك وحض الناس على البيعة ليزيد وقال لمعاوية اعزم على ما أردت ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي وعبد الله بن عمارة الاشعري وثور بن معن فصدقوا قوله ثم قال معاوية اين الاحنف ابن قيس فقام الاحنف فقال ان الناس قد أمسوا في منكر زمان قد سلف ومعروف زمان يؤتنف ويزيد حبيب قريب فان توله عهدك فعن غير كبر مفن او مرض مضن وقد حلبت الدهور وجربت الامور فاعرف من تسند اليه عهدك ومن توله الامر من بعدك واعص رأي من يأمرك ولا يقدر لك ويشير عليك ولا ينظر لك فقام الضحاك بن قيس مغضبا فذكر أهل العراق بالشقاق والنفاق وقال اردد رأيهم في نحورهم وقام عبد الرحمن بن عثمان فتكلم بنحو كلام الضحاك ثم قام رجل من الازد فاشار الى معاوية وقال انت أمير المؤمنين فاذا مت فأمير المؤمنين يزيد فمن أبى هذا فهذا وأخذ بقائم سيفه فسله فقال له معاوية اقعد فأنت من اخطب الناس فكان معاوية أول من بايع ليزيد ابنه بولاية العهد وفي ذلك يقول عبد الله ابن هشام السلولي

فان تأتوا برملة او بهند * نبايعها اميرة مؤمنينا
اذا مامات كسرى قام كسرى * نعد ثلاثة متناسقينا
فيالهفا لوان لنا الوفا * ولكن لانعود كما عنينا
اذا لضربتمو حتى تعودوا * بمكة تلعقون بها السخينا
خشينا الغيظ حتى لوشربنا * دماء بني امية ماروينا
لقد ضاعت رعيتكم وانتم * تصيدون الارانب غافلينا

وأنفذت الكتب ببيعة يزيد الى الامصار وكتب معاوية الى مروان بن الحكم وكان على المدينة يعلمه باختياره يزيد ومبايعته اياه بولاية العهد ويأمره بمبايعته واخذ البيعة له على من قبله فلما قرأ مروان ذلك خرج مغضبا في اهل بيته واخواله من بني كنانة حتى أتى دمشق فنزلها ودخل على معاوية يمشي بين السماطين حتى اذا كان منه بقدر ما يسمعه صوته سلم وتكلم بكلام كثير يوبخ به معاوية منه اقم الامور يا ابن أبي سفيان واعدل عن تأميرك الصبيان واعلم ان لك من قومك نظراء وان لك على منا وانهم وزراء فقال له معاوية انت نظير أمير المؤمنين وعدته في كل شديدة وعضده والثاني بعد ولي عهده وجعله ولي عهد يزيد ورده الى المدينة ثم انه عزله عنها وولاها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ولم يف لمروان بما جعل له من ولاية عهد يزيد بن معاوية

(ذكر جمل من اخلاقه وسياسته وظرايف من عيون اخباره)

قد ذكرنا فيما تقدم جملا من اخباره وسيره فلنذكر الآن في هذا الباب جملا من اخلاقه وسياساته واخباره وغير ذلك مما لحق بهذا المعنى الى وفاته كان من اخلاق معاوية انه كان يأذن

في اليوم والليلة خمس مرات كان اذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ثم يدخل
فيؤتى بمصحفه فيقرأ جزأه ثم يدخل الى منزله فيأمر وينهى ثم يصلى اربع ركعات ثم يخرج الى
مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما
يريدون من يومهم الى العشى ثم يؤتى بالغداء الاصغر وهو فضلة عشائه من جدى بارد
أو فرخ أو ما يشبهه ثم يتحدث طويلا ثم يدخل منزله لما اراد ثم يخرج فيقول يا غلام أخرج
الكرسى فيخرج الى المسجد فيوضع فيسند ظهره الى المقصورة ويجلس على الكرسى
ويقوم الاحداث فيتقدم اليه الضعيف والاعرابى والصبى والمرأة ومن لا احد له فيقول
ظلمت فيقول أعزوه ويقول عدى على فيقول ابعثوا معه ويقول صنع بى فيقول انظروا فى
امره حتى اذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير ثم يقول ائذنوا للناس على قدر منازلهم
ولا يشغلنى أحد عن رد السلام فيقال كيف اصبح أمير المؤمنين اطال الله بقاءه فيقول
بنعمة من الله فاذا استووا جلوسا قال يا هؤلاء انما سميتم اشرافا لانكم شرفتم من دونكم
بهذا المجلس ارفعوا الينا حوائج من لا يصل الينا فيقوم الرجل فيقول استشهد فلان
فيقول افرضوا لولده ويقول آخر غاب فلان عن اهله فيقول تعاهدوهم أعطوهم اقضوا
حوائجهم اخدموهم ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه ويتقدم الرجل
فيقول له اجلس على المائدة فيجلس فيمد يده فيأكل لقمتين أو ثلاثا والكاتب يقرأ
كتابه فيأمر فيه بامر فيقال يا عبد الله أعقب فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتى على اصحاب
الحوائج كلهم وربما قدم عليه من اصحاب الحوائج اربعون أو نحوهم على قدر الغداء ثم يرفع
الغداء ويقال للناس أجيزوا فينصرفون فيدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى
بالظهر فيخرج فيصلى ثم يدخل فيصلى اربع ركعات ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة فان كان
الوقت وقت شتاء اتاهم بزاد الحاج من الاخبصة اليابسة والخشكانج والاقراص المعجونة
باللبن والسكر من دقيق السميذ والكعك المنضد والفواكه اليابسة وان كان وقت
صيف أتاهم بالفواكه الرطبة ويدخل اليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا اليه بقية
يومهم ويجلس الى العصر ثم يخرج فيصلى العصر ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع
حتى اذا كان فى آخر أوقات العصر خرج فجلس على سريره ويؤذن للناس على منازلهم
فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب ولا ينادى له باصحاب الحوائج ثم يرفع
العشاء وينادى بالمغرب فيخرج فيصليها ثم يصلى بعدها اربع ركعات يقرأ فى كل
ركعة خمسين آية يجهر تارة ويخافت اخرى ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى
بالعشاء الآخرة فيخرج فيصلى ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية
فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدرا من ليلتهم ويستمر الى ثلث الليل فى أخبار العرب
وايامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسائر ملوك الامم وحروبها ومكايدها وسياستها
لرعيتها وغير ذلك من أخبار الامم السالفة ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى
وغيرها من المآكل اللطيفة ثم يدخل فينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر
فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون وقد وكلوا

بحفظها

يحفظها وقرأتها فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الاخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ثم يخرج فيصلي الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم وقد كان تم بأخلاقه جماعة بعده مثل عبد الملك بن مروان وغيره فلم يدركوا حلمه ولا اتقانه للسياسة ولا التأني للامور ولا مداراته للناس على منازلهم ورفقه بهم على طبقاتهم وبلغ من احكامه للسياسة واتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه أن رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن صفين فتعلق به رجل من دمشق فقال هذه ناقتي أخذت مني بصفين فارتفع امرهما الى معاوية وأقام الدمشقي خمسين رجلا بينة يشهدون انها ناقته فقضى معاوية على الكوفي وامره بتسليم البعير اليه فقال الكوفي اصلحك الله انه جمل وليس بناقة فقال معاوية هذا حكم قد مضى ودس الى الكوفي بعد تفرقهم فاحضره وسأله عن ثمن بعيره فدفع اليه ضعفه وبره واحسن اليه وقال له ابلغ عليا أني اقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل ولقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الاربعاء وأعاروه رؤسهم عند القتال وحملوه بها وركنوا الى قول عمرو بن العاص ان عليا هو الذي قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته ثم ارتقى بهم الامر في طاعته الى أن جعلوا لعن علي سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير (قال المسعودي) وذكر بعض الاخبار بين انه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم من أبو تراب هذا الذي يلعنه الامام على المنبر قال اراه لصا من لصوص الفتن (وحكى الجاحظ) قال سمعت رجلا من العامة وهو حاج وقد ذكر له البيت يقول اذا اتيته من يكلمني منه وأنه اخبره صديق له انه قال له رجل منهم وقد سمعه يصلي على محمد صلى الله عليه وسلم ما تقول في محمد هذا أربنا هو (وذكر) ثمامة بن اشرس قال كنت مارا في السوق ببغداد فاذا انا برجل عليه الناس مجتمعون فنزلت عن بغلتي وقلت لشيء ما هذا الاجتماع ودخلت بين الناس واذا برجل يصف كحلا معه انه ينجح من كل داء يصيب العين فنظرت اليه فاذا عينه الواحدة برشاء والاخرى مأسوكة فقلت له يا هذا لو كان كذلك كما تقول نفع عينيك فقال لي اها هنا اشتكت عيناي انما اشتكتا بمصر فقال كلهم صدق وذكرانه ما انفلت من نعالهم الا بعد كد (وذكر) لي بعض اخواني ان رجلا من العامة بمدينة السلام رفع الى بعض الولاة الطالبين لاصحاب الكلام على جار له انه يتزندق فسأله الوالي عن مذهب الرجل فقال انه مرجئ قدري اباضي رافضي فلما نص عن ذلك قال انه يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي بن العاص فقال له الوالي ما ادري على أي شيء أحسدك على علمك بالمقالات أو على بصرك بالانساب (واخبرني) رجل من اخواننا من أهل العلم قال كنا نقعد نتناظر في أبي بكر وعمر وعلي ومعاوية ونذكر ما يذكره اهل العلم وكان قوم من العامة يأتون فيستمعون منا فقال لي ذات يوم بعضهم وكان من اعقلهم واكبرهم لحية كم تطنبون في علي ومعاوية وفلان وفلان فقلت له فما تقول انت في ذلك قال من تريد قلت علي ما تقول فيه قال أليس هو أبو فاطمة قلت ومن كانت فاطمة قال امرأة النبي عليه السلام بنت عائشة اخت معاوية قلت فما كانت قصة علي قال قتل في غزاة حنين مع النبي صلى الله عليه وسلم وقد كان عبد الله بن علي حين خرج في

طلب مروان الى الشام وكان من قصة مروان ومقتله ماقد ذكرونزل عبدالله بن علي الشام ووجه الى أبي العباس السفاح اشياخا من اهل الشام من ارباب النعم والرياسة فحلفوا لابي العباس السفاح انهم ماعلموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ولا اهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة فقال في ذلك ابراهيم بن المهاجر البجلي

أيها الناس اسمعوا أخبركم * عجبا زاد على كل العجب
عجبا من عبد شمس أنهم * فتحوا للناس ابواب الكذب
ورثوا احمد فيما زعموا * دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله مانعلمه * يحرز الميراث الامن قرب

وقد كان ببغداد رجل في ايام هارون الرشيد متطبب يطبب العامة بصفاته وكان دهريا يظهر أنه من اهل السنة والجماعة ويلعن اهل البدع ويعرف بالسني تنقاد اليه العامة فكان يجتمع اليه في كل يوم بشوارير الماء خلق من الناس فاذا اجتمعوا وثب قايما على قدميه فقال لهم معاشر المسلمين قلتم لاضار ولانافع الاالله فلاي شيء تسالوني عن مضاركم ومنافعكم الجأوا الى ربكم وتوكلوا على بارئكم حتى يكون فعلكم مثل قولكم فيقبل بعضهم على بعض فيقولون اى والله قد صدقنا فكم من مريض لم يعالج حتى مات ومنهم من كان يتركه حتى يسكن ثم يريه الماء فيصف له الدواء فيقول ايمانك ضعيف ولولا ذلك لتوكلت على الله كامرضك فهو يبريك فكان يقتل بقوله هذا خلقا كثيرا لتزهيده اياهم في معالجة مرضاهم ومن اخلاق العامة ان يسودوا غير السيد ويفضلوا غير الفاضل ويقولوا بعلم غير العالم وهم اتباع من سبق اليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول والفضل والنقصان ولا معرفة للحق من الباطل عندهم ثم انظر هل ترى اذا اعتبرت ماذكرنا ونظرت في مجالس العلماء هل تشاهدها الامشحونة بالخاصة من اولى التمييز والمروءة والحجى وتقصد العامة في احتشادها وجموعها فلا تراهم الدهر الامرقلين الى قائد دب وضارب بدف على سياسة قرد ومتشوقين الى اللهو واللعب أو مختلفين الى مشعبذ متمس مخرف أو مستمعين الى قاص كذاب أو مجتمعين حول مضروب أو وقوفا عند مصلوب ينعق بهم ويصاح بهم فلا يرتدعون لاينكرون منكرا ولا يعرفون معروفا ولا يبالون أن يلحقوا البار بالفاجر والمؤمن بالكافر وقد بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فيهم حيث يقول الناس اثنان عالم أو متعلم وماعدا ذلك همج رعاع لايعبأ الله بهم وكذلك ذكر عن علي وقد سئل عن العامة فقال همج رعاع اتباع كل ناعق لم يستضيؤا بنور العلم ولم يلجأوا الى ركن وثيق وأجمع الناس في تسميتهم على انهم غوغاء وهم الذين اذا اجتمعوا غلبوا واذا تفرقوا لم يعرفوا ثم تدبر تفرقهم في احوالهم ومذاهبهم فانظر الى اجماع ملئهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يدعو الخلق الى الله اثنتين وعشرين سنة وهو ينزل عليه الوحي ويمليه على اصحابه فيكتبونه ويدونونه ويلتقطونه لفظة لفظة وكان معاوية في هذه المدة بحيث علم الله ثم كتب له صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بشهور فاشادوا من ذكره ورفعوا من منزلته بأن جعلوه كاتبا للوحي وعظموه بهذه الكلمة واضافوه اليها وسلبوها عن غيره واسقطوا ذكر سواه واصل ذلك العادة والالف وماولدوا عليه ومانشأوا فيه فالغوا

وقت التحصيل والبلوغ وقد عملت العادة عملها وبلغت مبالغها وفى العادة قالت الشعراء وتكلم اهل الدراية والادباء قال الشاعر

لاتهى بعداذأ كرمتني * فشديدعادة منتزعة

وقال آخر معاتبا لصاحبه

ولكن فطام النفس اثقل محملا * من الصخرة الصماء حين ترومها

وقد قالت حكماء العرب العادة املك بالارب وقالت حكماء العجم العادة هى الطبيعة الثانية وقد صنف أبو عقال الكاتب كتابا فى اخلاق العوام يصف فيه اخلاقهم وشيمهم ومخاطباتهم وسماه بالملهى ولولا انى اكره التطويل والخروج عما قصدنا اليه فى هذا الكتاب من الايجاز لشرحت من نوادر العامة واخلاقها وطرائف افعالها عجايب ولذكرت مراتب الناس فى أخلاقهم وتصرفهم فى احوالهم (فلنرجع) الآن الى اخبار معاوية وسياسته وما أوسع الناس من اخلاقه وما افاض عليهم من بره وعطائه وشملهم من احسانه مما اجتذب به القلوب واستدعى به النفوس حتى آثروه على الأهل والقرابات من ذلك انه وفد عليه عقيل بن أبي طالب منتجعا وزائرا فرحب به معاوية وسر بوروده لاختياره اياه على اخيه واوسعه حلما واحتمالا فقال له يا ابا يزيد كيف تركت عليا فقال تركته على ما يحب الله ورسوله والفيتك على ما يكره الله ورسوله فقال معاوية لولا انك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك ابا يزيد جوابا تألم منه ثم احب معاوية ان يقطع كلامه مخافة ان يأتى بشئ يخفضه فوثب عن مجلسه وأمر له ان ينزل وحمل اليه مالا عظيما فلما كان من غد جلس وارسل اليه فأتاه فقال له يا ابا يزيد كيف تركت عليا اخاك قال تركته خيرا لنفسه منك وانت خير لى منه فقال له معاوية انت والله كما قال الشاعر

واذا عددت فخار آل محرق * فالمجد منهم فى بنى عتاب

محل المجد من بنى هاشم منوط فيك يا ابا يزيد ما تغيرك الايام والليالى فقال عقيل

اصبر لحرب انت جانيها * لابد أن تصلى بحاميها

وانت والله يا ابن أبي سفيان كما قال الآخر

واذا هوازن اقبلت بفخارها * يوما فخرتهم بآل مجاشع

بالحاملين على الموالى عزمهم * والضاربين الهام يوم القارع

ولكن أنت يا معاوية اذا افتخرت بنو امية فبمن تفخر فقال معاوية عزمت عليك ابا يزيد لما اسكت فانى لم اجلس لهذا وانما اردت ان اسألك عن اصحاب على فانك ذو معرفة بهم فقال له عقيل سل عما بدا لك فقال ميزلى اصحاب على وابدا بآل صوحان فانهم مخاريق الكلام قال أما صعصعة فعظيم الشان عضب اللسان قائد فرسان قاتل اقران يرتق ما فتق ويفتق ما رتق قليل النظير وأما زيد وعبد الله فانهما نهران جاريان يصب فيهما الخلجان ويغاث بهما البلدان رجلا جد لا لعب معه وأما بنو صوحان فكما قال الشاعر

اذا نزل العدو فان عندى * اسودا تخلس الاسد النفوسا

فاتصل كلام عقيل بصعصعة فكتب اليه بسم الله الرحمن الرحيم ذكر الله اكبر وبه يستفتح

المستفيحون وانتم مفاتيح الدنيا والآخرة اما بعد فقد بلغ مولاك كلامك لعدو الله وعدوه فحمدت الله على ذلك وسألته ان يفي بك الى الدرجة العليا والقضيب الاحمر والعمود الاسود فانه عمود من فارقه فارق الدين الازهر ولئن نزعت بك نفسك الى معاوية طلبا لماله انك لذو علم بجميع خصاله فاحذر ان تعلق بك ناره فيصدك عن الجنة فان الله قد رفع عنكم أهل البيت ماوضعه في غيركم فما كان من فضل أو احسان فبكم وصل الينا فأجل الله اقداركم وحمى اخطاركم وكتب آثاركم فان أقداركم مرضية واخطاركم محمية وآثاركم بدرية وانتم سلم الله الى خلقه ووسيلته الى طرقه ايدعليه ووجوه جلية وانتم كما قال الشاعر

فما كان من خير أتوه فانما * توارثه آباء آبائهم قبل

وهل ينبت الخطى الا وشيجه * وتغرس الا في منابتها النخل

(وحدث) أبو الهيثم عن أبي سفيان عمرو بن يزيد عن البراء بن يزيد عن محمد بن عبد الله ابن الحارث الطائي ثم احد بني عفان قال لما انصرف علي من الجمل قال لآذنه من بالباب من وجوه العرب قال محمد بن عمير بن عطارد التميمي والاحنف بن قيس وصعصعة بن صوحان العبدي في رجال سماهم فقال ايذن لهم فدخلوا فسلموا بالخلافة فقال لهم انتم وجوه العرب عندي ورؤساء اصحابي فأشيروا علي في امر هذا الغلام المترف يعني معاوية فافتنت بهم المشورة عليه فقال صعصعة ان معاوية ترفه الهوى وحببت اليه الدنيا فهانت عليه مصارع الرجال وابتاع آخرته بدنياهم فان تعمل فيه برأي ترشد وتصب ان شاء الله والتوفيق بالله وبرسوله وبك يا أمير المؤمنين الرأي ان ترسل اليه عينا من عيونك وثقة من ثقاتك بكتاب تدعوه الى بيعتك فان اجاب وانابكان له مالك وعليه ماعليك والاجاهدته وصبرت لقضاء الله حتى يأتيك اليقين فقال علي عزمت عليك يا صعصعة الاكتبت الكتاب بيدك وتوجهت به الى معاوية واجعل صدر الكتاب تحذيرا وتخويفا وعجزه استتابة واستنابة وليكن فاتحة الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي أمير المؤمنين الى معاوية سلام عليك اما بعد ثم اكتب ما اشرت به علي واجعل عنوان الكتاب الا الى الله تصير الامور قال اعفني من ذلك قال عزمت عليك لتفعلن قال أفعل فخرج بالكتاب وتجهز وسار حتى ورد دمشق فأتى باب معاوية فقال لآذنه استاذن لرسول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وبالباب اردفة من بني أمية فأخذته الايدي والنعال لقوله وهو يقول اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله وكثرت الجلبة واللغط فاتصل ذلك بمعاوية فوجه من يكشف الناس عنه فكشفوا ثم اذن لهم فدخلوا فقال لهم من هذا الرجل قالوا رجل من العرب يقال له صعصعة بن صوحان معه كتاب من علي فقال والله لقد بلغني امره هذا احد سهام علي وخطباء العرب ولقد كنت الى لقائه شيقا ايذن له يا غلام فدخل عليه فقال السلام عليك يا ابن أبي سفيان هذا كتاب أمير المؤمنين فقال معاوية أما انه لو كانت الرسل تقتل في جاهلية أو اسلام لقتلتك ثم اعترضه معاوية في الكلام واراد ان يستخرجه ليعرف قريحته اطبعا ام تكلفا فقال ممن الرجل فقال من نزار قال وما كان نزار قال كان اذا غزا نكس واذا لقي افترس واذا انصرف احترس قال فمن أي اولاده انت قال من ربيعة قال وما كان

ربيعة قال كان يطيل النجاد ويعول العباد ويضرب ببقاع الارض العماد قال فمن اى اولاده انت قال من جديلة قال وما كان جديلة قال كان في الحرب سيفا قاطعا وفي المكرمات غيثا نافعا وفي اللقاء لهبا ساطعا قال فمن أى أولاده أنت قال من عبد القيس قال وما كان عبد القيس قال كان حضرميا خصيبا أبيض وهابا لضيفه ما يجد ولا يسأل عما فقد كثير المرق طيب العرق يقوم للناس مقام الغيث من السماء قال ويحك يا ابن صوحان فما تركت لهذا الحي من قريش مجدا ولا فخرا قال بلى والله يا ابن أبي سفيان تركت لهم ما لا يصلح الا بهم ولهم تركت الابيض والاحمر والاصفر والاشقر والسرير والمنبر والملك الى المحشر وانى لا يكون ذلك كذلك وهم منار الله في الارض ونجومه في السماء ففرح معاوية وظن أن كلامه يشتمل على قريش كلها فقال صدقت يا ابن صوحان ان ذلك لكذلك فعرف صعصعة ما أراد فقال ليس لك ولا لقومك في ذلك اصدار ولا ايراد بعدتم عن انف المرعى وعلوتم عن عذب الماء قال فلم ذلك ويلك يا ابن صوحان قال الويل لاهل النار ذلك لبني هاشم قال قم فأخرجوه فقال صعصعة الصدق ينبئ عنك لا الوعيد من أراد المشاجرة قبل المحاورة فقال معاوية لشئ ما سوّده قومه وددت والله أني من صلبه ثم التفت الى بني أمية فقال هكذا فلتكن الرجال (وحدث) منصور بن وحشي عن أبي الفياض عبد الله بن محمد الهاشمي عن الوليد بن البختري العبسي عن الحارث بن مسمار البهراني قال حبس معاوية صعصعة بن صوحان العبدي وعبد الله بن الكوّاء اليشكري ورجالا من أصحاب علي مع رجال من قريش فدخل عليهم معاوية يوما فقال نشدتكم بالله الا ما قلتم حقا وصدقا أى الخلفاء رأيتموني فقال ابن الكوّاء لولا انك عزمت علينا ما قلنا لانك جبار عنيد لا تراقب الله في قتل الاخيار ولكنا نقول انك ما علمنا واسع الدنيا ضيق الآخرة قريب الثرى بعيد المرعى تجعل الظلمات نورا والنور ظلمات فقال معاوية ان الله أكرم هذا الامر بأهل الشام الذابين عن بيضته التاركين لمحارمه ولم يكونوا كامثال أهل العراق المنتهكين لمحارم الله والمحلين ما حرّم الله والمحرّمين ما أحل الله فقال عبد الله بن الكوّاء يا ابن أبي سفيان ان لكل كلام جوابا ونحن نخاف جبروتك فان كنت تطلق ألسنتنا ذببنا عن أهل العراق بألسنة حداد لا يأخذها في الله لومة لائم والا فانا صابرون حتى يحكم الله ويضعنا على فرجه قال والله لا يطلق لك لسان ثم تكلم صعصعة فقال تكلمت يا ابن أبي سفيان فابلغت ولم تقصر عما أردت وليس الامر على ما ذكرت اني يكون الخليفة من ملك الناس قهرا ودانهم كبرا واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرا أما والله مالك في يوم بدر مضرب ولا مرمى وما كنت فيه الا كما قال القائل (لا حلي ولا سيري) ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنفير ممن أجلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما أنت طليق ابن طليق أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنى تصلح الخلافة لطليق فقال معاوية لولا اني أرجع الى قول أبي طالب حيث يقول

قابلت جهلهم حلما ومغفرة * والعفو عن قدرة ضرب من الكرم

لقتلتكم (وحدث) أبو جعفر محمد بن حبيب قال أخبرنا أبو الهيثم يزيد بن رجاء الغنوي

قال أخبرنا الوليد بن البحترى عن أبيه عن أبى مزروع الكلبى قال دخل صعصعة بن صوحان على معاوية فقال له يا ابن صوحان أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها فأخبرنى عن أهل البصرة واياك والحمل على قوم لقوم قال البصرة واسطة العرب ومنتهى الشرف والسودد وهم أهل الخطط فى أول الدهر وآخره وقد دارت بهم سروات العرب كدوران الرحا على قطبها قال فأخبرنى عن أهل الكوفة قال قبة الاسلام وذروة الكلام ومصان ذوى الاعلام الا ان بها أجلافا تمنع ذوى الامر الطاعة وتخرجهم عن الجماعة وتلك أخلاق ذوى الهيئة والقناعة قال فاخبرنى عن أهل الحجاز قال أسرع الناس الى فتنة وأضعفهم عنها وأقلهم عناء فيها غير ان لهم ثباتا فى الدين وتمسكا بعروة اليقين يتبعون الائمة الابرار ويخلعون الفسقة الفجار فقال معاوية من البررة والفسقة فقال يا ابن أبى سفيان ترك الخداع من كشف القناع على وأصحابه من الائمة الابرار وأنت وأصحابك من اولئك ثم أحب معاوية أن يمضى صعصعة فى كلامه بعد ان بان فيه الغضب فقال أخبرنى عن القبسة الحمراء فى ديار مضر قال أسد مضر بسلاء بين غيلين اذا أرسلتها افترست واذا تركتها احترست فقال معاوية هنالك يا ابن صوحان العز الراسى فهل فى قومك مثل هذا قال هذا لاهله دونك يا ابن أبى سفيان ومن أحب قوما حشر معهم قال فاخبرنى عن ديار ربيعة ولا يستخفنك الجهل وسابقة الحمية بالتعصب لقومك قال والله ما أنا عنهم براض ولكنى أقول فيهم وعليهم هم والله أعلام الليل وأذناب فى الدين والميل لن تغلب رايتها اذا رشحت خوارج الدين برازخ اليقين من نصروه فلج ومن خذلوه زلج قال فاخبرنى عن مضر قال كنانة العرب ومعدن العز والحسب يقذف البحر بها أذيه والبر رديه ثم أمسك معاوية فقال له صعصعة سل يا معاوية والا أخبرتك بما تحيد عنه قال وماذاك يا ابن صوحان قال أهل الشام قال فاخبرنى عنهم قال أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم للخالق عصاة الجبار وخلفة الاشرار فعليهم الدمار ولهم سوء الدار فقال معاويه والله يا ابن صوحان انك لحامل مديك منذ أزمان الا ان حلم ابن أبى سفيان يرد عنك فقال صعصعة بل أمر الله وقدرته ان أمر الله كان قدرا مقدورا (حدث) أبو الهيثم قال حدثنى أبو البشر محمد بن بشر الغزارى عن ابراهيم بن عقيل البصرى قال قال معاوية يوما وعنده صعصعة وكان قدم عليه بكتاب على وعنده وجوه الناس الارض لله وأنا خليفة الله فما آخذ من مال الله فهولى وما تركت منه كان جائزا لى فقال صعصعة

تمنيك نفسك ما لا يكو ن جهلا معاوى لا تأثم

فقال معاوية يا صعصعة تعلمت الكلام قال العلم بالتعلم ومن لا يعلم يجهل قال معاوية ما أحوجك الى ان أذيقك وبال أمرك قال ليس ذلك بيدك ذلك بيد الذى لا يؤخر نفسا اذا جاء أجلها قال ومن يحول بينى وبينك قال الذى يحول بين المرء وقلبه قال معاوية اتسع بطنك للكلام كما اتسع بطن البعير للشعير قال اتسع بطن من لا يشبع ودعا عليه من لا يجمع (قال المسعودى) ولصعصعة بن صوحان أخبار حسان وكلام فى نهاية البلاغة والفصاحة والايضاح عن المعانى على ايجاز واختصار (ومن ذلك) خبره مع عبد

الله

الله بن العباس وهو ما حدث به المدائني عن زيد بن طليح الذهلي الشيباني قال أخبرني أبي عن مصقلة بن هبيرة الشيباني قال سمعت صعصعة بن صوحان وقد سأله ابن عباس ما السودد فيكم فقال اطعام الطعام ولين الكلام وبذل النوال وكف المرء نفسه عن السؤال والتودد للصغير والكبير وأن يكون الناس عندك شرعا قال فما المروءة قال اخوان اجتمعا فان لقيا قهرا وان كان حارسهما قليل وصاحبهما جليل لحاجات الى صيانة مع نزاهة وديانة قال فهل تحفظ فى ذلك شعرا قال نعم أما سمعت قول مرة ابن ذهل بن شيبان حيث يقول

ان السيادة والمروءة علقا * حيث السماء من السماك الاعزل
واذا تقابل مجريان لغاية * عثر الهجين وأسلمته الارجل
ويجي الصريح مع العتاق معودا * قرب الجياد فلم يخنه الافكل

فى أبيات فقال له ابن عباس لو أن رجلا ضرب آباط ابله مشرقا ومغربا لفائدة هذه الابيات ماعنفته انا منك يا ابن صوحان لعلى علم وحلم واستنباط ما قد عفا من أخبار العرب فمن الحليم فيكم قال من ملك غضبه فلم يفعل وسعى اليه بحق أو باطل فلم يقبل ووجد قاتل أبيه وأخيه فصفح ولم يقتل ذلك الحليم يا ابن عباس قال فهل تجد ذلك فيكم كثيرا قال ولا قليلا وانما وصفت لك أقواما لا تجدهم الا خاشعين راهبين لله مريدين ينيلون ولا ينالون فأما الآخرون فانهم سبق جهلهم حلمهم ولا يبالى أحدهم اذا ظفر ببغيته حين الحفيظة من كان بعد ان يدرك زعمه ويقضى بغيته ولو وتره أبوه لقتل أباه أو أخوه لقتل أخاه أما سمعت الى قول ريان بن عمرو بن ريان وذلك ان عمرا أباه قتله مالك بن كومة فاقام ريان زمانا ثم غزا مالكا فأتاه فى مائتى فارس صباحا وهو فى أربعين بيتا فقتله وقتل أصحابه وقتل عمه فيمن قتل ويقال بل كان أخاه وذلك انه كان جاورهم فقيل لريان فى ذلك قتلت صاحبنا فقال

فلو امى ثقفت بحيث كانوا * لبل ثيابها علق صبيب
ولو كانت أمية أخت عمرو * بهذا الماء ظل لها نحيب
شهرت السيف فى الادنين منى * ولم تعطف أواصرنا قلوب

فقال ابن عباس فمن الفارس فيكم حدثنى حديثا أسمعه منك فانك تضع الاشياء مواضعها يا ابن صوحان قال الفارس من قصر أجله فى نفسه وضغ على أمله بضرسه وكانت الحرب أهون عليه من أمسه ذلك الفارس اذا وقدت الحروب واشتدت بالانفس الكروب وتداعوا للنزال وتزاحفوا للقتال وتخالسوا المهج واقتحموا بالسيوف اللجج قال أحسنت والله يا ابن صوحان انك اسليل أقوام كرام خطباء فصحاء ما ورثت هذا عن كلالة زدنى قال نعم الفارس كثيرا الحذر مدير النظر يلتفت بقلبه ولا يدير خرزات صلبه قال أحسنت والله يا ابن صوحان الوصف فهل فى مثل هذه الصفة من شعر قال نعم لزهير بن جناب الكلبى يرثى ابنه عمرا حيث يقول

فارس تكلأ الصحابة منه * بحسام عمر ترا الجريق

لاتراه لدى الوغى فى مجال * يغفل الضرب لا ولا فى مضيق
من يراه يخاله فى الحرب يوما * انه أخرق مضل الطريق

فى أبيات فقال له ابن عباس فأين اخو الذمنك يا ابن صوحان صفهما لاعرف وزنكم قال أما زيد فكما قال أخو غنى

فتى لايبالى أن يكون بوجهه * اذا نال خلان الكرام شحوب
اذا ما تراآه الرجال تحفظوا * فلم ينطقوا العوراء وهو قريب
حليف الندى يدعو الندى فيجيبه * اليه ويدعوه الندى فيجيب
يبيت الندى يا أم عمرو ضجيعه * اذا لم يكن فى المنقيات حلوب
كأن بيوت الحى مالم يكن بها * بسابس ما يلفى بهن غريب

فى أبيات كان والله يا ابن عباس عظيم المروة شريف الاخوة جليل الخطر بعيد الأثر كيش العروه أليف البدوه سليم جوانح الصدر قليل وساوس الدهر ذاكرالله طرفى النهار وزلفا من الليل الجوع والشبع عنده سيان لاينافس فى الدنيا وأقل أصحابه من ينافس فيها يطيل السكوت ويحفظ الكلام وان نطق نطق بعقام يهرب منه الدعار الاشرار ويألفه الاحرار الاخيار فقال ابن عباس ماظنك برجل من أهل الجنة رحم الله زيدا فأين كان عبد الله منه قال كان عبد الله سيدا شجاعا مألفا مطاعا خيره وساع وشره دفاع قلبى النحيزة أحوذى الغريزة لاينهنهه منهنه عما أراده ولايركب من الامر الاعتاده سمام عدى وباذل قرى صعب المقاده جزل الرفاده أخو اخوان وفتى فتيان وهو كما قال البرجمى عامر بن سنان

سمام عدى بالنبل يقتل من رمى * وبالسيف والرمح الردينى مشغب
مهيب مفيد للنوال معوّد * بفعل الندى والمكرمات مجرّب

فى أبيات فقال له ابن عباس أنت يا ابن صوحان باقر علم العرب (ومن أخبار صعصعة) ماحدث به أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمى عن أبى الهيثم يزيد بن رجاء الغنوى قال وقف رجل من بنى فزارة على صعصعة فاسمعه كلاما (منه) بسطت لسانك يا ابن صوحان على الناس فتهيبوك أما لئن شئت لاكونن لك لصاقا فلا تنطق الا جددت لسانك بأذرب من ظبة السيف بعضب قوى ولسان على ثم لايكون لك فى ذلك حل ولا ترحال فقال صعصعة لوأجد غرضا سنك لرميت بل أرى شبحا ولا أخال مثالا الا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ أما لو كنت كفؤا لرميت حصائلك بأذرب من ذلق السنان ولرشقتك بنبال تردعك عن النضال ولخطمتك بخطام يحزم منك موضع الزمام فاتصل الكلام بابن عباس فاستضحك من الفزارى وقال أما لو كلف أخو فزارة نفسه نقل الصخور من جبال تهام الى الهضاب لكان أهون عليه من منازعة أخى عبد القيس خاب أبوه ما أجهله يستجهل أخا عبد القيس وقواه المريرة ثم تمثل

صبت عليه ولم تنصب من امم * ان الشقاء على الاشقين مصبوب

(وحدث) المبرد عن الرياشى عن ربيعة بن عبد الله النميرى قال أخبرنى رجل من الازد

قال نظرت الى أبى أيوب الانصارى فى يوم النهروان وقد علا عبد الله بن وهب الراسبى فضربه ضربة على كتفه فأبان يده وقال بؤ بها الى النار يا مارق فقال عبد الله ستعلم أينا اولى بها اصليا قال وأبيك انى لاعلم اذ أقبل صعصعة بن صوحان فوقف وقال أولى بها والله صليا من ضل فى الدنيا عميا وصار الى الآخرة شقيا أبعدك الله وانزحك أما والله لقد أنذرتك هذه الصرعة بالامس فأبيت الا نكوصا على عقبيك فذق يا مارق وبال أمرك وشرك ابا ايوب فى قتله ضربه ضربة بالسيف أبان بها رجله وأدركه باخرى فى بطنه وقال لقد صرت الى نار لا تطفأ ولا يبوخ سعيرها ثم احتزا راسه وأتيا به عليا فقالا هذا رأس الفاسق الناكث المارق عبد الله بن وهب فنظر اليه فقطب وقال شاه هذا الوجه حتى خيل الينا انه يبكى ثم قال قد كان اخو راسب حافظا لكتاب الله تاركا لحدود الله ثم قال لهما اطلبا لى ذا الثدية فطلب فلم يوجد فرجعا اليه وقالا ما اصبنا شيأ فقال والله لقد قتل فى يومه هذا وما كذبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبت عليه قوموا بجمعكم فاطلبوه فقامت جماعة من اصحابه فتفرقوا فى القتلى فأصابوه فى دهاس من الارض فوقه زهاء مائة قتيل فأخرجوه يجر برجله ثم اتى به على فقال اشهدوا أنه ذو الثدية وقد ذكرنا اخبار ذى الثدية فيما سلف من هذا الكتاب ولعلى فى ربيعة كلام كثير يمدحهم فيه ويرثيهم شعرا ومنثورا وقد كانوا أنصاره وأعوانه والركن المنيع من اركانه فمن بعض ذلك قوله يوم صفين

لمن راية سوداء يخفق ظلها * اذا قيل قدمها حصين تقدما
فيوردها فى الصف حتى يعلها * حياض المنايا تقطر الموت والدما
جزى الله قوما قاتلوا فى لقائه * لدى الموت قدما ما أعز وأكرما
واطيب اخبارا وأكرم شيمة * اذا كان اصوات الرجال تغمغما
ربيعة اعنى انهم اهل نجدة * وبأس اذا لاقوا خميسا عرمرما

(وذكر) المدائنى ان معاوية اسر جميل بن كعب الثعلبى وكان من سادات ربيعة وشيعة على وانصاره فلما وقف بين يديه قال الحمد لله الذى امكننى منك الست القائل يوم الجمل

اصبحت الامة فى امر عجب * والملك مجموع غدا لمن غلب
قد قلت قولا صادقا غير كذب * ان غدا تهلك أعلام العرب

قال لا تقل ذلك فانها مصيبة قال معاوية وأى نعمة اكبر من ان يكون الله قد اظفرنى برجل قد قتل فى ساعة واحدة عدة من حماة اصحابى اضربوا عنقه فقال اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلنى فيك ولا لانك ترضى قتلى ولكن قتلنى على حطام الدنيا فان فعل فافعل به ماهو أهله وان لم يفعل فافعل به ما انت أهله فقال معاوية قاتلك الله لقد سببت فابلغت فى السب ودعوت فبالغت فى الدعاء ثم أمر به فاطلق وتمثل معاوية بابيات للنعمان بن المنذر لم يقل النعمان غيرها فيما ذكر ابن الكلبى وهى

تعفو الملوك عن الجليل من الامور بفضلها
ولقد تعاقب فى اليسير وليس ذاك لجنابها
الا ليعرف فضلها * ويخاف شدة نكالها

(وذكر) لوط بن يحيي وابن دأب والهيثم بن عدى وغيرهم من نقلة الاخبار ان معاوية لما احتضر تمثل

هو الموت لامنجى من الموت والذى * تحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

ثم قال اللهم اقل العثرة واعف عن الزلة وجد بحلمك على جهل من لم يرج غيرك ولم يثق الا بك فانك واسع المغفرة وليس لذى خطيئة مهرب فبلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال لقد رغب الى من لا مرغوب اليه مثله وانى لارجو أن لا يعذبه الله (وذكر) محمد بن اسحاق وغيره من نقلة الآثار أن معاوية دخل الحمام فى بدء علته التى كانت وفاته فيها فرأى نحول جسمه فبكى لفنائه وما قد اشرف عليه من الدثور الواقع بالخليقة وقال متمثلا

ارى الليالى اسرعت فى نقضى * اخذن بعضى وتركن بعضى

حنين طولى وحنين عرضى * اقعدننى من بعد طول نهضى

ولما أزف امره وحان فراقه واشتدت علته وأيس من برئه انشأ يقول

فياليتنى لم أعن فى الملك ساعة * ولم أك فى اللذات اعشى النواظر

وكنت كذى طمرين عاش ببلغة * من الدهر حتى زار أهل المقابر

(قال المسعودى) ولمعاوية اخبار كثيرة مع على وغيره وقد أتينا على الغرر من أخباره وما كان فى ايامه فى كتابنا اخبار الزمان والاوسط وغيرهما من كتبنا مما افرد للآثار وهذا باب كبير والكلام فيه وفى غيره مما تقدم وتأخر فى هذا الكتاب كثير ومن ضمن الاختصار لم يجز له الاكثار وانما ذكر فى كل باب من هذا الكتاب طرفا من كل نوع من العلوم والاخبار وما انتخبناه من طرائف الآثار ليستدل الناظر فيه بما ذكرنا على المراد مما تركنا ذكره وقد تقدم وصفه وبسطه فيما سلف من كتبنا واذ قد تقدم ماذكرنا فلنذكر الآن جملا من فضل الصحابة وغيرهم عليهم السلام اذ كانوا حجة على من بعدهم وقدوة لمن تأخر عنهم وبالله التأييد

(ذكر الصحابة ومدحهم وعلى والعباس وفضلهما)

دخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قريش فلما سلم وجلس قال له معاوية انى اريد ان اسألك عن مسائل قال سل عما بدا لك قال ما تقول فى أبى بكر قال رحم الله ابا بكر كان والله للقرآن تاليا وعن المنكر ناهيا وبذنبه عارفا ومن الله خائفا وعن الشبهات زاجرا وبالمعروف آمرا وبالليل قائما وبالنهار صائما فاق اصحابه ورعا وكفافا وسادهم زهدا وعفافا فغضب الله على من بغضه وطعن عليه قال معاوية ايها يا ابن عباس فما تقول فى عمر بن الخطاب قال رحم الله أبا حفص عمر كان والله حليف الاسلام ومأوى الايتام ومنتهى الاحسان ومحل الايمان وكهف الضعفاء ومعقل الحنفاء قام بحق الله عز وجل صابرا محتسبا حتى أوضح الدين وفتح البلاد وامن العباد فاعقب الله على من ينقصه اللعنة الى يوم الدين قال فما تقول فى عثمان قال رحم الله ابا عمرو كان والله اكرم الحفدة وافضل البررة هجادا بالاسحار كثير الدموع عند ذكر النار نهاضا عند كل مكرمة سباقا الى كل منحة حييا ابيا وفيا صاحب جيش العسرة وختن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فاعقب الله على من

يلعنه لعنة اللاعنين الى يوم الدين قال فما تقول فى على قال رضى الله عن أبى الحسن كان والله علم الهدى وكهف التقى ومحل الحجى وبحر الندى وطود النهى وكهف العلى للورى داعيا الى المحجة العظمى متمسكا بالعروة الوثقى خير من آمن واتقى وافضل من تقمص وارتدى وابر من انتعل واسعى وافصح من تنفس وقرأ واكثر من شهد النجوى سوى الانبياء والنبى المصطفى صاحب القبلتين فهل يوازيه احد وأبو السبطين فهل يقارنه بشر وزوج خير النسوان فهل يفوقه قاطن بلد للأسود قتال وفى الحروب ختال لم ترعينى مثله ولن ترى فعلى من انتقصه لعنة الله والعباد الى يوم التناد قال ايها يا ابن عباس لقد اكثرت فى ابن عمك قال فما تقول فى ابيك العباس قال رحم الله العباس ابا الفضل كان صنو نبى الله صلى الله عليه وسلم وقرة عين صفى الله سيد الاعمام له اخلاق آبائه الاجواد واحلام اجداده الامجاد تباعدت الاسباب فى فضيلته صاحب البيت والسقاية والمشاعر والتلاوه ولم لا يكون كذلك وقد ساسه اكرم من دب فقال معاوية يا ابن عباس انا أعلم انك كلمانى اهل بيتك قال ولم لا اكون كذلك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام يا معاوية ان الله جل ثناؤه وتقدست اسماؤه خص محمدا صلى الله عليه وسلم بصحابة آثروه على الانفس والاموال وبذلوا النفوس دونه فى كل حال ووصفهم الله فى كتابه فقال رحماء بينهم الآية قاموا بمعالم الدين وناصحوا الاجتهاد للمسلمين حتى تهذبت طرقه وقويت اسبابه وظهرت آلاء الله واستقر دينه ووضحت اعلامه وأذل الله بهم الشرك وازال روحه ومحا دعائمه وصارت كلمة الله العليا وكلمة الذين كفروا السفلى فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية والارواح الطاهرة العالية فقد كانوا فى الحياة لله أولياء وكانوا بعد الموت احياء أصحاء رحلوا الى الآخرة قبل ان يصلوا اليها وخرجوا من الدنيا وهم بعد فيها فقطع عليه معاوية الكلام وقال ايها يا ابن عباس حديثا فى غير هذا

(ذكر ايام يزيد بن معاوية بن أبى سفيان)

وبويع يزيد بن معاوية فكانت ايامه ثلاث سنين وثمانية اشهر الا ثمانى ليال واخذ يزيد لابنه معاوية بن يزيد البيعة على الناس قبل موته ففى ذلك يقول عبد الله بن همام السلولى

تلقفها يزيد عن أبيه * فخذها يا معاوى عن يزيدا

فقد علقت بكم فتلقفوها * ولا ترموا بها الغرض البعيدا

وهلك يزيد بحوارين من ارض دمشق لسبع عشرة ليلة خلت من صفر سنة اربع وستين وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وفى ذلك يقول رجل من عنزة

يا أيها القبر بحوارينا * ضممت شر الناس اجمعينا

وقد رثاه الاخطل النصرانى فقال من قصيدة

لعمرى لقد دلى الى اللحد خالد * جنازة لا نكس الفؤاد ولا غمر

مقيم بحوارين ليس يريمها * سقته الغوادى من ثوى ومن قبر

فى أبيات

ذكر مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ومن قتل معه من أهل بيته وشيعته

ولما مات معاوية أرسل أهل الكوفة الى الحسين بن علي انا قد حبسنا انفسنا على بيعتك ونحن نموت دونك ولسنا نحضر جمعة ولا جماعة بسببك وطولب الحسين البيعة ليزيد بالمدينة فسام التأخير وخرج يتهادى بين مواليه ويقول

لا ذعرت السوّام في فلق الصبح مغيرا ولا دعيت يزيدا
يوم أعطى مخافة الموت ضيما والمنايا ترصدنني أن أحيدا

ولحق بمكة فأرسل بابن عمه مسلم بن عقيل الى الكوفة وقال له سر الى أهل الكوفة فان كان حقا ما كتبوا به عرفني حتى ألحق بك فخرج مسلم من مكة في النصف من شهر رمضان حتى قدم الكوفة لخمس خلون من شوال والامير عليها النعمان بن بشير الانصاري فنزل على رجل يقال له عوسجة مستترا فلما ذاع خبر قدومه بايعه من أهل الكوفة اثنا عشر ألف رجل وقيل ثمانية عشر ألفا فكتب بالخبر الى الحسين وسأله القدوم اليه فلما هم الحسين بالخروج الى العراق أتاه ابن عباس فقال له يا ابن عم قد بلغني انك تريد العراق وانهم أهل غدر وانما يدعونك للحرب فلا تعجل وان أبيت الا محاربة هذا الجبار وكرهت المقام بمكة فاشخص الى اليمن فانها في عزلة ولك فيها أنصار واخوان فأقم بها وبث دعاتك واكتب الى أهل الكوفة وانصارك بالعراق فيخرجوا أميرهم فان قووا على ذلك ونفوه عنها ولم يكن بها أحد يعاديك اتيتهم وما انا بغدرهم بآمن وان لم يفعلوا أقمت بمكانك الى ان يأتي الله بأمره فان فيها حصونا وشعابا فقال الحسين يا ابن عم اني لأعلم انك لي ناصح وعلي شفيق ولكن مسلم بن عقيل كتب الي باجتماع اهل المصر على بيعتي ونصرتي وقد أجمعت على المسير قال انهم من جربت وجربت وهم اصحاب ابيك واخيك وقتلتك غدا مع اميرهم انك لو قد خرجت فبلغ ابن زياد خروجك استنفرهم اليك وكان الذين كتبوا اليك اشد من عدوك فان عصيتني وابيت الا الخروج الى الكوفة فلا تخرجن نساءك وولدك معك فوالله اني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون اليه فكان الذي رد عليه لأن أقتل والله بمكان كذا أحب الي من أن أستحل بمكة فيئس ابن عباس منه وخرج من عنده فمر بعبد الله بن الزبير فقال قرت عينك يا ابن الزبير وانشد

يا لك من قبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري

هذا حسين يخرج الى العراق ويخليك والحجاز وبلغ ابن الزبير أنه يريد الخروج الى الكوفة وهو اثقل الناس عليه قد غمه مكانه بمكة لان الناس ما كانوا يعدلونه بالحسين فلم يكن شيء يؤتاه أحب اليه من شخوص الحسين عن مكة فاتاه فقال يا ابا عبد الله ما عندك فوالله لقد خفت الله في جهاد هؤلاء القوم على ظلمهم واستذلالهم الصالحين من عباد الله فقال حسين قد عزمت على اتيان الكوفة فقال وفقك الله اما لو ان لي مثل انصارك ما عدلت عنها ثم خاف ان يتهمه فقال ولو اقمت بمكانك فدعوتنا وأهل الحجاز الى بيعتك أجبناك وكنا اليك سراعا وكنت احق بذلك من يزيد وابي يزيد (ودخل) أبو بكر بن الحارث بن هشام على

الحسين فقال يا ابن عم ان الرحم يظائرني عليك ولا ادري كيف أنا في النصيحة لك فقال يا ابا بكر ما أنت ممن يستغش فقال أبو بكر كان ابوك أشد بأسا والناس له ارجى ومنه اسمع وعليه اجمع فسار الى معاوية والناس مجتمعون عليه الا أهل الشام وهو اعز منه فخذلوه وتثاقلوا عنه حرصا على الدنيا وضنا بها فجرعوه الغيظ وخالفوه حتى صار الى ماصار اليه من كرامة الله ورضوانه ثم صنعوا باخيك بعد ابيك ماصنعوا وقد شهدت ذلك كله ورأيته ثم انت تريد ان تسير الى الذين عدوا على ابيك واخيك تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ومن هو أعد منك وأقوى والناس منه اخوف وله أرجى فلو بلغهم مسيرك اليهم لاستطغوا الناس بالاموال وهم عبيد الدنيا فيقاتلك من قد وعدك ان ينصرك ويخذلك من أنت احب اليه ممن ينصره فاذكر الله في نفسك فقال الحسين جزاك الله خيرا يا ابن عم فقد اجهدك رأيك ومهما يقض الله يكن فقال وعند الله نحتسب اباعبد الله ثم دخل على الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي والي مكة وهو يقول

كم نرى ناصحا يقول فيعصى * وظنين المغيب يلفى نصيحا

فقال وماذاك فأخبره بما قال للحسين فقال نصحت له ورب الكعبة واتصل الخبر بيزيد فكتب الى عبيد الله بن زياد بتوليته الكوفة فخرج من البصرة مسرعا حتى قدم الكوفة على الظهر فدخلها في أهله وحشمه وعليه عمامة سوداء قد تلثم بها وهو راكب بغلة والناس يتوقعون قدوم الحسين فجعل ابن زياد يسلم على الناس فيقولون وعليك السلام يا ابن رسول الله قدمت خير مقدم حتى انتهى الى القصر وفيه النعمان بن بشير فتحصن فيه ثم اشرف عليه فقال يا ابن رسول الله مالي ولك وما حملك على قصد بلدي من بين البلدان فقال ابن زياد لقد طال نومك يا نعيم وحسر اللثام عن فيه فعرفه ففتح له وتنادى الناس ابن مرجانة وحصبوه بالحصباء ففاتهم ودخل القصر ولما اتصل خبر ابن زياد بمسلم تحول الى هانئ بن عروة المرادي ووضع ابن زياد الرصد على مسلم حتى علم بموضعه فوجه محمد بن الاشعث بن قيس الى هانئ فجاءه فسأله عن مسلم فانكره فاغلظ له ابن زياد القول فقال هانئ ان لزياد أبيك عندي بلاء حسنا وانا احب مكافأته به فهل لك في خير قال ابن زياد وما هو قال تشخص الى أهل الشام أنت وأهل بيتك سالمين باموالكم فانه قد جاء حق من هو أحق من حقك وحق صاحبك فقال ابن زياد أدنوه مني فأدنوه منه فضرب وجهه بقضيب كان في يده كسر انفه وشق حاجبه ونثر لحم وجنته وكسر القضيب على وجهه ورأسه وضرب هانئ بيده الى قائم سيف شرطي من تلك الشرط فجاذبه الرجل ومنعه السيف وصاح اصحاب هانئ بالباب قتل صاحبنا فخافهم ابن زياد وأمر بحبسه في بيت الى جانب مجلسه واخرج اليهم ابن زياد شريحا القاضي فشهد عندهم انه حي لم يقتل فانصرفوا ولما بلغ مسلما مافعل ابن زياد بهانئ امر مناديا فنادى يامنصور وكانت شعارهم فتنادى أهل الكوفة بها فاجتمع اليه في وقت واحد ثمانية عشر ألف رجل فسار الى ابن زياد فتحصن منه فحصره في القصر فلم يمس مسلم ومعه غير مائة رجل فلما نظر الى الناس يتفرقون عنه سار نحو ابواب كندة فما بلغ الباب الا ومعه منهم ثلاثة ثم خرج من الباب فاذا ليس معه منهم أحد فبقي

حائرا لا يدرى اين يذهب ولا يجد احدا يدله على الطريق فنزل عن فرسه ومشى متلددا فى أزقة الكوفة لا يدرى أين يتوجه حتى انتهى الى باب مولاة للاشعث بن قيس فاستسقاها ماء فسقته ثم سألته عن حاله فاعلمها بقضيته فرقت له وآوته وجاء ابنها فعلم بموضعه فلما أصبح غدا الى محمد بن الاشعث فاعلمه فمضى ابن الاشعث الى ابن زياد فاعلمه فقال انطلق فأتنى به ووجه معه عبد الله بن العباس السلمى فى سبعين رجلا فاقتحموا على مسلم الدار فثار عليهم بسيفه وشد عليهم فاخرجهم من الدار ثم حملوا عليه الثانية فشد عليهم وأخرجهم أيضا فلما راوا ذلك علوا ظهر البيوت فرموه بالحجارة وجعلوا يلهبون النار باطراف القصب ثم يلقونها عليه من فوق البيوت فلما راى ذلك قال أكلما أرى من الاحلاب لقتل مسلم بن عقيل يا نفس اخرجى الى الموت الذى ليس عنه محيص فخرج اليهم مصلتا سيفه الى السكة فقاتلهم واختلف هو وبكير بن حمران الاحمرى ضربتين فضرب بكير فم مسلم فقطع السيف شفته العليا وشرع فى السفلى وضربه مسلم ضربة منكرة فى رأسه ثم ضربه اخرى على حبل العاتق فكاد يصل الى جوفه وهو يرتجز ويقول

اقسم لا اقتل الا حرا * وان رأيت الموت شيأ مرا

كل امرئ يوما ملاق شرا * اخاف ان اكذب أو أغرا

فلما رأوا ذلك تقدم اليه محمد بن الاشعث فقال له فانك لا تكذب ولا تغر واعطاه الامان فامكنهم من نفسه وحملوه على بغلة وأتوا به ابن زياد وقد سلبه ابن الاشعث حين اعطاه الامان سيفه وسلاحه وفى ذلك يقول بعض الشعراء فى كلمة يهجو فيها ابن الاشعث

وتركت عمك ان تقاتل دونه * فشلا ولولا انت كان منيعا

وقتلت وافد آل بيت محمد * وسلبت اسيافاله ودروعا

فلما صار مسلم الى باب القصر نظر الى قلة مبردة فاستسقاهم منها فمنعهم مسلم ابن عمر الباهلى وهو أبو قتيبة بن مسلم ان يسقوه فوجه عمرو بن حريث فأتاه بماء فى قدح فلما رفعه الى فيه امتلأ القدح دما فصبه وملأه له الثانية فلما رفعه الى فيه سقطت ثناياه فيه وامتلأ دما فقال الحمد لله لو كان من الرزق المقسوم لشربته ثم أدخل الى ابن زياد فلما انقضى كلامه ومسلم يغلظ له فى الجواب امر به فاصعد الى اعلى القصر ثم دعا الاحمرى الذى ضربه مسلم فقال كن أنت الذى تضرب عنقه لتأخذ بثارك من ضربته فأصعدوه الى اعلى القصر فضرب بكير الاحمرى عنقه فاهوى رأسه الى الارض ثم اتبعوا رأسه جسده ثم امر بهانئ ابن عروة فاخرج الى السوق فضرب عنقه صبرا وهو يصيح يا آل مراد وهو شيخها وزعيمها وهو يومئذ يركب فى اربعة الاف دارع وثمانية الاف راجل واذا اجابتها احلافها من كندة وغيرها كان فى ثلاثين ألف دارع فلم يجد زعيمهم منهم أحدا فشلا وخذلانا فقال الشاعر وهو يرثى هانئ بن عروة ومسلم بن عقيل ويذكر ما نالهما

اذا كنت لا تدرين ما الموت فانظرى * الى هانئ فى السوق وابن عقيل

الى بطل قد هشم السيف وجهه * وآخر يهوى فى طمار قتيل

اصابهما امر الامير فاصبحا * احاديث من يسعى بكل سبيل

ترى جسدا قد غير الموت لونه * ونضح دم قد سال كل مسيل
ايترك اسماء المهايج آمنا * وقد طلبته مذحج بذحول
فتى هو احيي من فتاة حيية * واقطع من ذى شفرتين صقيل

ثم دعا ابن زياد بكير بن حمران الذى ضرب عنق مسلم فقال اقتلته قال نعم قال فما كان يقول وانتم تصعدون به لتقتلوه قال كان يكبر ويسبح الله ويهلل ويستغفر الله فلما ادنيناه لنضرب عنقه قال اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا وكذبونا ثم خذلونا وقتلونا فقلت الحمد لله الذى أقادنى منك وضربته ضربة لم تعمل شيأ فقال لى أوما يكفيك وفى خدش منى وفاء بدمك أيها العبد قال ابن زياد أوفخرا عند الموت قال وضربته الثانية فقتلته ثم اتبعنا رأسه جسده وكان ظهور مسلم بالكوفة يوم الثلاثاء لثمان ليال مضين من ذى الحجة سنة ستين وهو اليوم الذى ارتحل فيه الحسين من مكة الى الكوفة وقيل يوم الاربعاء يوم عرفة لتسع مضين من ذى الحجة سنة ستين ثم امر ابن زياد بجثة مسلم فصلبت وحمل رأسه الى دمشق وهذا أول قتيل صلبت جثته من بنى هاشم وأول رأس حمل من رؤسهم الى دمشق فلما بلغ الحسين القادسية لقيه الحارث بن يزيد التميمى فقال له أين تريد يا ابن رسول الله قال اريد هذا المصر فعرفه بقتل مسلم وما كان من خبره ثم قال ارجع فانى لم ادع خلفى خيرا ارجوه لك فهم بالرجوع فقال له اخو مسلم والله لانرجع حتى نصيب بثارنا أو نقتل كلنا فقال الحسين لاخير فى الحياة بعدكم ثم سار حتى لقى خيل عبيد الله بن زياد عليها عمرو بن سعد بن أبى وقاص فعدل الى كربلاء وهو فى مقدار خمسمائة فارس من أهل بيته واصحابه ونحو مائة راجل فلما كثرت العساكر على الحسين أيقن أنه لا محيص له فقال اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا ثم هم يقتلوننا فلم يزل يقاتل حتى قتل رضوان الله عليه وكان الذى تولى قتله رجل من مذحج واحتز رأسه وانطلق به الى ابن زياد وهو يرتجز

أنا قتلت الملك المحجبا * قتلت خير الناس اما وأبا
وخيرهم اذ ينسبون نسبا

فبعث به زياد الى يزيد بن معاوية ومعه الرأس فدخل الى يزيد وعنده أبو بردة الاسلمى فوضع الرأس بين يديه فأقبل ينكث بالقضيب ويقول

نفلق هاما من رجال أحبة * علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فقال له أبو بردة ارفع قضيبك فطال والله ما رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع فمه على فمه يلثمه وكان جميع من حضر مقتل الحسين من العساكر ومحاربيه وتولى قتله من أهل الكوفة خاصة لم يحضرهم شامى وكان جميع من قتل مع الحسين فى يوم عاشوراء بكربلاء سبعة وثمانين منهم ابنه على بن الحسين الاكبر وكان يرتجز ويقول

انا على بن الحسين بن على * نحن وبيت الله اولى بالنبى
تالله لا يحكم فينا ابن الدعى

وقتل من ولد اخيه الحسن بن على عبد الله بن الحسن والقاسم بن الحسن وأبو بكر بن الحسن

ومن اخوته العباس بن علي وعبد الله بن علي وجعفر بن علي وعثمان بن علي ومحمد بن علي وهو الاصغر ومن ولد جعفر بن أبي طالب محمد بن عبد الله بن جعفر وعون بن عبد الله ابن جعفر ومن ولد عقيل بن أبي طالب عبد الله بن عقيل وعبد الله بن مسلم بن عقيل وذلك لعشر خلون من المحرم سنة أربع وستين وقتل الحسين وهو ابن خمس وخمسين سنة وقيل ابن تسع وخمسين سنة وقيل غير ذلك ووجد بالحسين يوم قتل ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة ضرب زرعة بن شريك التميمي كفه اليسرى وطعنه سنان بن انس النخعي ثم نزل فاحتز رأسه وفي ذلك يقول الشاعر

وأي رزية عدلت حسينا * غداة تبيره كفا سنان

وقتل معه من الانصار أربعة وباقي من قتل معه من أصحابه على ماقدمنا من العدة من سائر العرب وفي ذلك يقول مسلم بن قتيبة مولى بني هاشم

عين جودي بعبرة وعويل * واندبي ان ندبت آل الرسول
وابن عم النبي غوثا اخاهم * ليس فيما ينوب بالمخذول
وسمي النبي غودر فيهم * قد علوه بصارم مصقول
واندبي كهلهم فليس اذا ما * عد في الخير كهلهم كالكهول
لعن الله حيث كان زيادا * وابنه والعجوز ذات البعول

وأمر عمرو بن سعد أصحابه أن يوطئوا خيلهم الحسين فانتدب لذلك اسحاق بن حياة الحضرمي في نفر معه فوطئوه بخيلهم ودفن أهل الغاضرية وهم قوم من بني عامر من بني أسد الحسين واصحابه بعد قتلهم بيوم وكان عدة من قتل من أصحاب سعد في حرب الحسين عليه السلام ثمانية وثمانين رجلا

(ذكر اسماء ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه)

الحسن والحسين ومحسن وام كلثوم الكبرى وزينب الكبرى امهم فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحمد وأمه خولة بنت اياس الحنفية وقيل ابنة جعفر بن قيس بن مسلمة الحنفي وعبد الله وأبو بكر امهما ليلى بنت مسعود النهشلي وعمر ورقيه امهما تغلبية ويحيى وامه اسماء بنت عميس الخثعمية وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أن جعفرا الطيار استشهد وخلف عليها عونا ومحمدا وعبد الله وأن عقب جعفر منها من عبد الله بن جعفر وان أبا بكر الصديق تزوجها بعده وخلف عليها محمدا ثم تزوجها علي فخلف عليها يحيى وانها ابنة العجوز الجرشية التي كانت اكرم الناس اصهارا وقد تقدم فيما سلف من هذا الكتاب تسمية أصهار العجوز الجرشية وأن أولهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعفر والعباس وعبد الله امهم ام البنين بنت حرام الوحيدية ورملة وام الحسن امهما ام سعد بنت عروة بن مسعود الثقفي وام كلثوم الصغرى وزينب وجمانة وميمونة وخديجة وفاطمة أم الكرام ونفيسة وأم سلمة وام أبيها وقد أتينا على أنساب آل أبي طالب ومن اعقب منهم ومصارعهم وغير ذلك من اخبارهم في كتابنا أخبار الزمان (والعقب) لعلي من خمسة الحسن والحسين ومحمد وعمر والعباس وقد استقصى انسابهم وأتي على

ذكر

ذكر من لا عقب له منهم ومن له العقب وأنساب غيرهم من قريش بني هاشم وغيرهم الزبير ابن بكار في كتابه في أنساب قريش وأحسن من هذا الكتاب في أنساب آل أبي طالب الكتاب الذي سمع من طاهر بن يحيى العلوي الحسيني بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم وقد صنف في أنساب آل أبي طالب كتب كثيرة منها كتاب العباس من ولد العباس بن علي وكتاب أبي علي الجعفري وكتاب المهلوي العلوي من ولد موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وفي قتيل الطف يقول سليمان بن قبة يرثيه على ما ذكره الزبير بن بكار في كتاب أنساب قريش من أبيات

فان قتيل الطف من آل هاشم * أذل رقابا من قريش فذلت
فان يتبعوه عائذ البيت يصبحوا * كعاد تعمت عن هداها فضلت
ألم تر ان الارض أضحت مريضة * لقتل حسين والبلاد اقشعرت
فلا يبعد الله الديار وأهلها * وان أصبحت منهم برغمي تخلت

* (ذكر لمع من أخبار يزيد وسيره ونوادر من بعض أفعاله) *

ولما أفضى الامر الى يزيد بن معاوية دخل منزله فلم يظهر للناس ثلاثا فاجتمع ببابه أشراف العرب ووفود البلدان وأمراء الاجناد لتعزيته بأبيه وتهنئته بالامر فلما كان في اليوم الرابع خرج شعثا أغبر فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان معاوية كان حبلا من حبال الله مده الله ما شاء ان يمده ثم قطعه حين شاء أن يقطعه وكان دون من قبله وخير من بعده ان يغفر الله له فهو أهله وان يعذبه فبذنبه وقد وليت الامر بعده ولست أعتذر من جهل ولا اشتغل بطلب علم فعلى رسلكم فان الله اذا أراد شيأ كان اذكروا الله واستغفروه ثم نزل ودخل منزله ثم أذن للناس فدخلوا عليه لا يدرون أيهنئونه أم يعزونه فقام عصام بن أبي صيفي فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته أصبحت قد رزئت خليفة الله واعطيت خلافة الله ومنحت هبة الله قضى معاوية نحبه فغفر الله له ذنبه واعطيت بعده الرياسة فاحتسب عند الله أعظم الرزيه واحمده على أفضل العطيه فقال يزيد ادن مني يا ابن أبي صيفي فدنا حتى جلس قريبا منه ثم قام عبد الله بن مازن فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين رزئت خير الاباء وسميت خير الاسماء ومنحت أفضل الاشياء فهنأك الله بالعطيه وأعانك على الرعيه فقد أصبحت قريش مفجوعة بعد سائسها مسرورة بما أحسن الله اليها من الخلافة بك والعقبى من بعده ثم أنشأ يقول

الله اعطاك التي لا فوقها * وقد أراد الملحدون عوقها
عنك فيأبى الله الا سوقها * اليك حتى قادوك طوقها

فقال له يزيد ادن مني يا ابن مازن فدنا منه حتى جلس قريبا منه ثم قام عبد الله بن همام فقال آجرك الله يا أمير المؤمنين على الرزيه وصبرك على المصيبة وبارك لك في العطيه ومنحك محبة الرعيه مضى معاوية لسبيله غفر الله له وأورده موارد السرور ووفقك اصالح السياسة أصبت بأعظم المصائب ومنحت أفضل الرغائب فاحتسب عند الله أعظم الرزيه واشكره على أفضل العطيه وأحمد لخالقك حمدا والله يمتعنا بك ويحفظك ويحفظ لك

وعابك وأنشأ يقول

اصبر يزيد فقد فارقت ذا مقة * واشكر حباء الذى بالملك أصفاكا
أصبحت لا رزء فى الاقوام نعلمه * كما رزئت ولا عقبى كعقباكا
أعطيت طاعة خلق الله كلهم * وأنت ترعاهم والله يرعاكا
وفى معاوية الباقى لنا خلف * اما نعيت ولا نسمع بمنعاكا

فقال له يزيد ادن منى يا ابن همام فدنا حتى جلس قريبا منه ثم قام الناس يعزونه ويهنئونه بالخلافة فلما ارتفع عن مجلسه أمر لكل واحد منهم بمال على مقداره فى نفسه ومحله فى قومه وزاد فى اعطائهم ورفع مراتبهم وقد أتينا فى كتابنا أخبار الزمان على ما كان من خبر يزيد وغيبته فى حال وفاة أبيه معاوية ومسيره من ناحية حمص حتى بلغه ما بأبيه من العلة ووروده على شنة العقاب من أرض دمشق فأغنى ذلك عن اعادة هذا الخبر فى هذا الكتاب وذكر عدة من الاخباريين وأهل السير أن عبد الملك بن مروان دخل على يزيد فقال أريضة لك الى جانب أرض لى ولى فيها سعة فأقطعنيها فقال يا عبد الملك انه لا يتعاظمنى كبير ولا أخدع عن صغير فاخبرنى عنها والا سألت غيرك فقال ما بالحجاز أعظم منها قدرا قال قد أقطعتك فشكره عبد الملك ودعا له فلما ولى قال يزيد ان الناس يزعمون ان هذا يصير خليفة فان صدقوا فقد صانعناه وان كذبوا فقد وصلناه وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب وجلس ذات يوم على شرابه وعن يمينه ابن زياد وذلك بعد قتل الحسين فأقبل على ساقيه فقال

اسقنى شربة تروى مشاشى * ثم صل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السر والامانة عندى * ولتسديد مغنمى وجهادى

ثم أمر المغنين فغنوا وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهى وأظهر الناس شرب الشراب وكان له قرد يكنى بأبى قيس يحضره مجلس منادمته ويطرح له متكأ وكان قردا خبيثا وكان يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذللت لذلك بسرج ولجام ويسابق بها الخيل يوم الحلبة فجاء فى بعض الايام سابقا فتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل وعلى أبى قيس قباء من الحرير الاحمر والاصفر مشمر وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق وعلى الاتان سرج من الحرير الاحمر منقوش ملمع بأنواع من الالوان فقال فى ذلك بعض شعراء الشأم فى ذلك اليوم

تمسك أبا قيس بفضل عنانها * فليس عليها ان سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذى سبقت به * جياد أمير المؤمنين أتان

وفى يزيد وتملكه وتجبره وانقياد الناس الى ملكه يقول الاحوص

ملك تدين له الملوك مبارك * كادت لهيبته الجبال تزول
تجبى له بلخ ودجلة كلها * وله الفرات وما سقى والنيل

وقيل ان الاحوص قال هذا فى معاوية بعد وفاته يرثيه ولما قتل الحسين بن على رضى الله

عنهما بكربلاء وحمل رأسه ابن زياد الى يزيد خرجت بنت عقيل بن أبي طالب في نساء من قومها حواسر لماقدورد عليهن من قتال السادات وهى تقول

ماذا تقولون ان قال النبي لكم * ماذا فعلتم وأنتم آخر الامم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدى * نصف أسارى ونصف ضرجوا بدم
ما كان هذا جزاءى إذ نصحت لكم * ان تخلفونى بشر فى ذوى رحمى

وفي فعل ابن زياد بالحسين يقول أبو الاسود الدؤلي من قصيدة

أقول وذاك من جزع ووجد * أزال الله ملك بنى زياد
وأبعدهم بما غدروا وخانوا * كما بعدت ثمود وقوم عاد

ولما شمل الناس جور يزيد وعماله وعمهم ظلمه وماظهر من فسقه من قتله ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنصاره وماظهر من شرب الخمور وسيره سيرة فرعون بل كان فرعون أعدل منه في رعيته وأنصف منه لخاصته وعامته أخرج أهل المدينة عامله عليهم وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وسائر بنى أمية وذلك عند تنسك ابن الزبير وتألهه واظهار الدعوة لنفسه وذلك في سنة ثلاث وستين وكان اخراجهم لماذكرنا من بنى أمية وعامل يزيد عن اذن ابن الزبير فاغتنمها مروان منهم اذلم يقبضوا عليهم ويحملوهم الى ابن الزبير فخذوا السير نحو الشأم ونمى فعل أهل المدينة ببنى أمية وعامل يزيد الى يزيد فسير اليهم بالجيوش من أهل الشام عليهم مسلم بن عقبة المزنى الذى أخاف المدينة ونهبها وقتل أهلها وبايعه أهلها على أنهم عبيد ليزيد وسماها نتنه وقد سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبة وقال من أخاف المدينة أخافه الله فسمى مسلم هذا لعنه الله بمجرم ومسرف لما كان من فعله ويقال ان يزيد حين جرد هذا الجيش وعرض عليه أنشأ يقول

أبلغ أبا بكر اذا الامر انبرى * وأشرف القوم على وادى القرى
أجمع السكران من قوم ترى

يريد بهذا القول عبد الله بن الزبير وكان عبد الله يكنى بأبى بكر وكان يسمى يزيد السكران الخمير وكتب الى ابن الزبير

أدعوا الهك فى السماء فانني * أدعو عليك رجال عك وأشعرا
كيف النجاة أبا خبيب منهم * فاحتل لنفسك قبل آتى العسكرا

ولما انتهى الجيش من المدينة الى الموضع المعروف بالحرة وعليهم مسرف خرج الى حربه أهلها عليهم عبد الله بن مطيع العدوى وعبد الله بن حنظلة الغسيل الانصارى وكانت وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الناس من بنى هاشم وسائر قريش والانصار وغيرهم من سائر الناس فممن قتل من آل أبي طالب اثنان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وجعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب ومن بنى هاشم من غير آل أبي طالب الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وحمزة بن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب والعباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب وبضع وتسعون رجلا من سائر قريش ومثلهم من الانصار واربعة آلاف من سائر الناس ممن أدركه الاحصاء دون من لم يعرف وبايع الناس على

انهم عبيد ليزيد ومن أبى ذلك أمره مسرف على السيف غير على بن الحسين بن على بن أبى طالب السجاد وعلى بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وفى وقعة الحرة يقول محمد ابن أسلم

فان تقتلونا يوم حرة واقم * فنحن على الاسلام أوّل من قتل
ونحن تركناكم ببدر أذلة * وأبنا بأسياف لنا منكم تفل

ونظر الناس الى على بن الحسين السجاد وقد لاذ بالقبر وهو يدعو فأتى به الى مسرف وهو مغتاظ عليه فتبرأ منه ومن آبائه فلما رآه وقد أشرف عليه ارتعد وقام له وأقعده الى جانبه وقال له سلنى حوائجك فلم يسأله فى أحد ممن قدم الى السيف الا شفعه فيه ثم انصرف عنه فقيل لعلى رأيناك تحرك شفتيك فما الذى قلت قال قلت اللهم رب السموات السبع وما أظللن والارضين السبع وما أقللن رب العرش العظيم رب محمد وآله الطاهرين أعوذ بك من شره وأدرأ بك فى نحره أسألك ان تؤتينى خيره وتكفينى شره وقيل لمسلم رأيناك تسب هذا الغلام وسلفه فلما أتى به اليك رفعت منزلته فقال ما كان ذلك لرأى منى لقد ملئ قلبى منه رعبا وأما على بن عبد الله فان أخواله من كندة منعوه منه واناس من ربيعة كانوا فى جيشه فقال على فى ذلك

أبا العباس قوم من لؤى * واخوالى الملوك بنو وليعه
هم منعوا اذماري يوم جاءت * كتائب مسرف وبنى اللكيعة
أرادنى التى لا عز فيها * فحالت دونه أيدى ربيعة

ولما نزل بأهل المدينة ما وصفنا من القتل والنهب والرق والسبى وغير ذلك مما عنه أعرضنا من مسرف خرج عنها يريد مكة فى جيوشه من أهل الشام ليوقع بابن الزبير وأهل مكة بأمر يزيد وذلك فى سنة أربع وستين فلما انتهى الى الموضع المعروف بقديد مات مسرف لعنه الله واستخلف على الجيش الحصين بن نمير فسار الحصين حتى أتى مكة وأحاط بها وعاذ ابن الزبير بالبيت الحرام وكان قد سمى نفسه العائذ بالبيت وشهر بهذا حتى ذكرته الشعراء فى اشعارها من ذلك ما قدمنا من قول سليمان بن قبة

فان تتبعوه عائذ البيت تصبحوا * كعاد تعمت عن هداها فضلت

ونصب الحصين فيمن معه من أهل الشام المجانيق والعرادات على مكة والمسجد من الجبال والفجاج وابن الزبير فى المسجد ومعه المختار بن أبى عبيد الثقفى داخلا فى جملته منضافا الى بيعته منقادا الى امامته على شرائط شرطها عليه لا يخالف له رأيا ولا يعصى له أمرا فتواردت أحجار المجانيق والعرادات على البيت ورمى مع الاحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحرقات وانهدمت الكعبة واحترقت البنية ووقعت صاعقة فأحرقت من أصحاب المجانيق أحد عشر رجلا وقيل أكثر من ذلك يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الاول من السنة المذكورة قبل وفاة يزيد بأحد عشر يوما واشتد الامر على أهل مكة وابن الزبير واتصل الاذى بالاحجار والنار والسيف ففى ذلك يقول أبو حرة المدينى

ابن

ابن غير بئس ما تولى * قد أحرق المقام والمصلى

وليزيد وغيره أخبار عجيبة ومثالب كثيرة من شرب الخمر وقتل ابن الرسول ولعن الوصي وهدم البيت واحراقه وسفك الدماء والفسق والفجور وغير ذلك مما قد ورد فيه الوعيد باليأس من غفرانه كوروده فيمن جحد توحيده وخالف رسله وقد أتينا على الغرر من ذلك فيما سلف من كتبنا والله ولي التوفيق

ذكر أيام معاوية بن يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم والمختار بن أبي عبيد الله وعبد الله بن الزبير ولمع من اخبارهم وسيرهم وبعض ما كان في ايامهم

(قال المسعودي) وملك معاوية بن يزيد بن معاوية بعد ابيه فكانت ايامه اربعين يوما الى أن مات وقيل شهرين وقيل غير ذلك وكان يكنى بأبي يزيد وكني حين ولي الخلافة بابي ليلى وكانت هذه الكنية للمستضعف من العرب وفيه يقول الشاعر

اني أرى فتنة هاجت مراجلها * والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

ولما حضرته الوفاة اجتمعت اليه بنو أمية فقالوا له اعهد الى من رأيت من أهل بيتك فقال والله ماذقت حلاوة خلافتكم فكيف اتقلد وزرها وتتحلون انتم حلاوتها واتعجل مرارتها اللهم اني بريء منها متخل عنها اللهم اني لا اجد نفرا كاهل الشورى فأجعلها اليهم ينصبون من يرونه أهلا لها فقالت له أمه ليت أني خرقة حيضة ولم أسمع منك هذا الكلام فقال لها وليتني يا أماه خرقة حيضة ولم أتقلد هذا الامر أتفوز بنو أمية بحلاوتها وأبوء بوزرها ومنعها أهلها كلا اني لبريء منها (وقد تنوزع) في سبب وفاته فنهم من رأى أنه سقي شربة ومنهم من رأى أنه مات حتف أنفه ومنهم من رأى انه طعن وقبض وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ودفن بدمشق وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ليكون الامر له من بعده فلما كبر الثانية طعن فسقط ميتا قبل تمام الصلاة فقدم عثمان بن عتبة بن أبي سفيان فقالوا نبايعك قال على ان لا أحارب ولا اباشر قتالا فابوا ذلك عليه فصار الى مكة ودخل في جملة ابن الزبير وزال الامر عن آل حرب فلم يكن فيهم من يرومها ولا يتشوف نحوها ولا يرتجي أحد منهم لها وبايع أهل العراق عبد الله بن الزبير فاستعمل على الكوفة عبد الله بن مطيع العدوي فقال المختار بن أبي عبيد الثقفي لابن الزبير اني لاعرف قوما لو أن لهم رجلا له رفق وعلم بما يأتي لاستخرج لك منهم جندا تغلب بهم أهل الشأم فقال من هم قال شيعة بني هاشم بالكوفة قال كن أنت ذلك الرجل فبعثه الى الكوفة فنزل ناحية منها وجعل يظهر البكاء على الطالبيين وشيعتهم ويظهر الحنين والجزع لهم ويحث على أخذ الثأر لهم والمطالبة بدمائهم فمالت الشيعة اليه وانضافوا الى جملته وسار الى قصر الامارة فاخرج مطيعا منه وغلب على الكوفة وابتنى لنفسه دارا واتخذ بستانا أنفق عليه أموالا عظيمة أخرجها من بيت المال وفرق الاموال على الناس بها تفرقة واسعة وكتب الى ابن الزبير يعلمه انه انما أخرج ابن مطيع عن الكوفة لعجزه عن القيام بها ويسوم ابن الزبير أن يحتسب له بما انفقه من بيت المال فأبى ابن الزبير ذلك عليه فخلع المختار طاعته وجحد بيعته وكتب المختار كتابا الى علي بن الحسين السجاد يريده على أن

يبايع له ويقول بامامته ويظهر دعوته وانفذ اليه مالا كثيرا فابى على أن يقبل ذلك وأجيبه عن كتابه وسبه على رؤس الملا فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم وأظهر كذبه وفجوره ودخوله على الناس باظهار الميل الى آل أبى طالب فلما يئس المختار من على بن الحسين كتب الى عمه محمد بن الحنفية يريده على مثل ذلك فأشار عليه على بن الحسين ان لا يجيبه الى شئ من ذلك فان الذى يحمله على ذلك اجتذابه لقلوب الناس بهم وتقربه اليهم بمحبتهم وباطنه مخالف لظاهره فى الميل اليهم والتولى لهم والبراءة من اعدائهم بل هو من اعدائهم لا من أوليائهم والواجب عليه ان يشهر امره ويظهر كذبه على حسب ما فعل هو واظهر من القول فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتى ابن الحنفية ابن عباس فأخبره بذلك فقال له ابن العباس لا تفعل فأنك لا تدرى ما أنت عليه من ابن الزبير فاطاع ابن عباس وسكت عن عيب المختار واشتد أمر المختار بالكوفة وكثر رجاله ومال الناس اليه وأقبل يدعو الناس على طبقاتهم ومقاديرهم فى انفسهم وعقولهم فنهم من يخاطبه بامامة محمد بن الحنفية ومنهم من يرفعه عن هذا فيخاطبه بان الملك يأتيه بالوحى ويخبره بالغيب وتتبع قتلة الحسين فقتلهم قتل عمرو بن سعد بن أبى وقاص الزهرى وهو الذى تولى حرب الحسين يوم كربلاء وقتله ومن معه فزاد ميل أهل الكوفة اليه ومحبتهم له واظهر ابن الزبير الزهد فى الدنيا والعبادة مع الحرص على الخلافة وقال انما بطنى شبر فما عسى ان يسع ذلك من الدنيا وأنا العائذ بالبيت والمستجير بالرب وكثرت اذيته لبنى هاشم مع شحه بالدنيا على سائر الناس ففى ذلك يقول أبو حرة مولى الزبير

ان الموالى أمست وهى عاتبة * على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا * أى الملوك على ما حولنا غلبا

وفيه يقول بعد مفارقته اياه

مازال فى سورة الاعراف يقرؤها * حتى فؤادى مثل الخز فى اللين
لو كان بطنك شبرا قد شبعت وقد * افضلت فضلا كثيرا للمساكين
ان امرأ كنت مولاه فضيعنى * يرجو الفلاح لعمرى حق مغبون

وفيه يقول أيضا

فما زال كما اعرضت فبلغن * كبير بنى العوام ان قيل من تعنى
تخبرنا لاقيت أنك عائذ * وتكثر قتلا بين زمزم والركن

وفيه يقول الضحاك بن فيروز الديلمى

تخبرنا أن سوف تكفيك قبضة * وبطنك شبر أو أقل من الشبر
وأنت اذا مانلت شيأ أقضمته * كما قضمت نار الغضى حطب السدر
فلو كنت تجزى أو تثيب بنعمة * قريبا لردتك العطوف على عمرو

وذلك أن يزيد بن معاوية كان قد ولى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان المدينة فسرح منها جيشا الى مكة لحرب ابن الزبير عليه عمرو بن الزبير اخوه وكان عمرو منحرفا عن عبد الله فلما تصاف القوم انهزم رجال عمرو وأسلموه فظفر به أخوه عبد الله فاقامه للناس بباب

المسجد الحرام مجرّدا ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات وحبس عبد الله بن الزبير الحسن بن محمد بن الحنفية فى الحبس المعروف بحبس عارم وهو حبس موحش مظلم واراد قتله فعمل الحيلة حتى تخلص من السجن وتعسف الطريق على الجبال حتى أتى منى وبها أبوه محمد بن الحنفية ففى ذلك يقول كثير

تخبر من لاقيت أنك عائذ * بل العائذ المظلوم فى سجن عارم

ومن ير هذا الشيخ بالخيف من منى * من الناس يعلم أنه غير ظالم

سمى نبى الله وابن وصيه * وفكاك اغلال وقاضى مغارم

وقد كان ابن الزبير عمد الى من بمكة من بنى هاشم فحصرهم فى الشعب وجمع لهم حطبا عظيما لو وقعت فيه شرارة من نار لم يسلم من الموت أحد وفى القوم محمد بن الحنفية وحدث النوفلى على بن سليمان عن فضيل بن عبد الوهاب الكوفى عن أبى عمران الرازى عن قطن بن خليفة عن الدبال بن حرملة قال كنت فى من استنفره أبو عبد الله الجدلى من الكوفة من قبل المختار فنفرنا معه فى أربعة آلاف فارس فقال أبو عبد الله هذه خيل عظيمة وأخاف أن يبلغ ابن الزبير الخبر فيعجل على بنى هاشم فيأتى عليهم فانتدبوا معى فانتدبنا معه فى ثمانمائة فارس جريدة خيل فما شعر ابن الزبير الا والرايات تخفق على رأسه قال فجئنا الى بنى هاشم فاذا هم فى الشعب فاستخرجناهم فقال لنا ابن الحنفية لا تقتلوا الا من قاتلكم فلما رأى ابن الزبير تمرنا له واقداما عليه لاذ بأستار الكعبة وقال انا عائذ الله (وحدث) النوفلى فى كتابه فى الاخبار عن ابن عائشة عن ابيه عن حماد بن سلمة قال كان عروة بن الزبير يعذر أخاه اذا جرى ذكر بنى هاشم وحصره اياهم فى الشعب وجمعه الحطب لتحريقهم ويقول انما اراد بذلك ارهابهم ليدخلوا فى طاعته كما أرهب بنو هاشم وجمع لهم الحطب لاحراقهم اذهم أبوا البيعة فيما سلف وهذا خبر لا يحتمل ذكره هنا وقد اتينا على ذكره فى كتابنا فى مناقب أهل البيت وأخبارهم المترجم بكتاب حدائق الاذهان وخطب ابن الزبير فقال قد بايعنى الناس ولم يتخلف الا هذا الغلام محمد بن الحنفية والموعد بينى وبينه أن تغرب الشمس ثم اضرم داره عليه نارا فدخل ابن العباس لابن الحنفية فقال يا ابن عم انى لا آمنه عليك فبايعه فقال سيمنعه عنى حجاب قوى فجعل ابن عباس ينظر الى الشمس ويفكر فى كلام ابن الحنفية وقد كادت الشمس ان تغرب فوافاهم أبو عبد الله الجدلى فيما ذكرنا من الخيل وقالوا لابن الحنفية ايذن لنا فيه فأبى وخرج الى ايلة فأقام بها سنين ثم قتل ابن الزبير كذلك حدث عمر بن حبة التميمى عن عطاء بن مسلم فيما أخبرنا به أبو الحسن المهرانى البصرى بمصر وأبو اسحاق الجوهرى بالبصرة وغيرهما وهؤلاء الذين وردوا الى ابن الحنفية هم الشيعة الكيسانية وهم القائلون بامامة محمد بن الحنفية وقد تنازعت الكيسانية بعد قولهم بامامة محمد ابن الحنفية فنهم من قطع بموته ومنهم من زعم انه لم يمت وانه حى فى جبال رضوى وقد تنازع كل فريق من هؤلاء أيضا وانما سموا بالكيسانية لاضافتهم الى المختار ابن أبى عبيد الثقفى وكان اسمه كيسان ويكنى اباعمرة أو هو غير المختار وقد اتينا على أقاويل فرق الكيسانية وغيرهم من فرق الشيعة وطوائف الامة فى كتابنا فى المقالات فى أصول

الديانات وذكرنا قول كل فريق منهم وما أيد به مذهبه وقول من ذكر منهم أن ابن الحنفية دخل الى شعب رضوى فى جماعة من اصحابه فلم يعرف لهم خبر الى هذه الغاية وقد ذكر جماعة من الاخباريين ان كثيرا الشاعر كان كيسانيا ويقول ان محمد بن الحنفية هو المهدى الذى يملؤها عدلا كما ملئت جورا وحكى الزبير بن بكار فى كتابه انساب قريش فى انساب آل أبى طالب وأخبارهم منه قال أخبرنى عمير قال قال كثير ابياتا له يذكر فيها ابن الحنفية رضى عنه وأولها

هو المهدى خبرناه كعب * اخو الاحبار فى الحقب الخوالى
أقر الله عينى اذ دعانى * امين الله يلطف فى السوال
وانى فى هواى على خيلا * وسائل عن بنى وكيف حالى

وفيه يقول أيضا كثير

الا ان الائمة من قريش * ولاة الحق اربعة سواء
على والثلاثة من بنيه * هم الاسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبر * وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى * يقود الخيل يتبعها اللواء
يغيب لا يرى فيهم زمانا * برضوى عنده عسل وماء

وفيه يقول السيد الحميرى وكان كيسانيا

الا قل للوصى فدتك نفسى * اطلت بذلك الجبل المقاما
اضر بمعشر والوك منا * وسموك الخليفة والاماما
وعادوا فيك أهل الارض طرا * مغيبك عنهم سبعين عاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت * ولا وارت له أرض عظاما
لقد أمسى بمردف شعب رضوى * تراجعه الملايكة الكلاما

وفيه يقول السيد أيضا

يا شعب رضوى ما لمن بك لا يرى * وبنا اليه من الصبابة أولق
حتى متى والى متى وكم المدى * يا ابن الرسول وانت حى ترزق

وللسيد فيه اشعار كثيرة لا يأتى عليها كتابنا هذا (وذكر) على بن محمد بن سليمان النوفلى فى كتابه الاخبار مما سمعناه من أبى العباس بن عمار قال حدثنا جعفر بن محمد النوفلى قال حدثنا اسماعيل الساحر وكان راوية السيد الحميرى قال ما مات السيد الا على قوله بالكيسانية وانكر قوله فى القصيدة التى أولها (تجعفرت باسم الله والله أكبر) قال أبو الحسن على بن محمد النوفلى عقيب هذا الخبر وليس يشبه هذا شعر السيد لان السيد مع فصاحته وجزالة قوله لا يقول تجعفرت باسم الله وذكر عمر بن شبة النميرى عن مشاور بن السائب أن ابن الزبير خطب أربعين يوما لا يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وقال لا يمنعنى أن أصلى عليه الا أن تشمخ رجال بآنافها وذكر سعيد بن جبير أن عبد الله بن عباس دخل على ابن الزبير فقال له ابن الزبير أنت الذى تؤنبنى وتبخلنى قال ابن عباس نعم سمعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول ليس المسلم الذى يشبع ويجوع جاره فقال ابن الزبير انى لاكتم بغضكم أهل هذا البيت منذ اربعين سنة وجرى بينهم خطب طويل فخرج ابن عباس من مكة خوفا على نفسه فنزل الطائف فتوفى هنالك ذكر هذا الخبر عمر بن شبة النميرى عن سويد بن سعيد يرفعه الى سعيد بن جبير فيما حدثنا به المهرانى بمصر والكلابى بالبصرة وغيرهما عن عمر ابن شبة وحدث النوفلى فى كتابه فى الاخبار عن الوليد بن هشام المخزومى قال خطب ابن الزبير فنال من على فبلغ ذلك ابنه محمد بن الحنفية حتى وضع له كرسى قدامه فعلاه وقال يامعشر قريش شاهت الوجوه أينتقص على وأنتم حضور ان عليا كان سهما صادقا أحد مرامى الله على أعدائه يقتلهم لكفرهم ويهوعهم مآ كلهم فثقل عليهم فرموه بصرفة الاباطيل وانا معشر له على نهج من أمره بنو الحسبة من الانصار فان تكن لنا الايام دولة تنثر عظامهم وتحسر عن أجسادهم والابدان يومئذ بالية وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فعاد ابن الزبير الى خطبته وقال عذرت بنى الفواطم يتكلمون فما بال بنى الحنفية فقال محمد يا ابن أم رومان ومالى لا أتكلم أليست فاطمة بنت محمد حليلة أبى وأم اخوتى أوليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدتى أوليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدة أبى أما والله لولا خديجة بنت خويلد ماتركت فى بنى أسد عظما الا هشمته وان نالتنى فيه المصائب صبرت (حدثنا) ابن عمار عن على بن محمد بن سليمان النوفلى قال حدثنى ابن عائشة والعتبى جميعا عن أبويهما وألفاظهما متقاربة قالا خطب ابن الزبير فقال مابال أقوام يفتون فى المتعة وينتقصون حوارى الرسول وأم المؤمنين عائشة مابالهم أعمى الله قلوبهم كما أعمى أبصارهم يعرض بابن عباس فقال ياغلام أصمدنى صمدة فقال يا ابن الزبير قد أنصف القارة من راماها

انا اذا مافئة نلقاها * نرد أولاها على أخراها

أما قولك فى المتعة فسل أمك تخبرك فان أول متعة سطع مجمرها لمجمر سطع بين أمك وأبيك يريد متعة الحج وأما قولك حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد لقيت اباك فى الزحف وأنا مع امام هدى فان يكن على ما أقول فقد كفر بقتالنا وان يكن على ماتقول فقد كفر بهربه عنا فانقطع ابن الزبير ودخل على أمه أسماء فأخبرها فقالت صدق (قال المسعودى) وفى هذا الخبر زيادات من ذكر البردة والعوسجة وقد أتينا على الخبر بتمامه وماقاله الناس فى متعة النساء ومتعة الحج وتنازعهم فى ذلك وماذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم من انه حرمها عام خيبر ولحوم الحمر الاهلية وماذكر فى حديث الربيع بن سبرة عن أبيه وقول عمر كانتا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو تقدمت بالنهى لفعلت بفاعل ذلك كذا وكذا وماروى عن جابر قال تمتعنا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافة أبى بكر وصدر من خلافة عمر وغير ذلك من أقاويلهم فى كتابنا المترجم بكتاب الاستبصار وفى كتاب الصفوة وفى كتابنا المترجم بالكتاب الواجب فى الفروض اللوازم وماقال الناس فى غسل الرجلين ومسحهما والمسح على الخفين وطلاق السنة وطلاق العدة وطلاق التعدى وغير ذلك وقد حدث النوفلى عن أبى عاصم عن ابن جريج قال حدثنى منصور بن شيبة عن صفية

بنت أبي عبيد عن أسماء بنت أبي بكر قالت لما قدمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع أمر من لم يكن معه هدي ان يحل قالت فأحللت فلبست ثيابي وتطيبت وجئت حتى جلست الى جنب الزبير فقال قومي عني فقلت ما تخاف أتخاف أن أثب عليك فهذا الذي أراد ابن عباس وقد ذكر هذا الحديث عن أبي عاصم غير النوفلي وقد تنازع الناس في ذلك فمنهم من رأى أنه عنى متعة النساء ومنهم من رأى انه أراد متعة الحج لان الزبير تزوج أسماء بكرا في الاسلام زوجه أبو بكر معلنا فكيف تكون متعة النساء ولما هلك يزيد بن معاوية ووليها معاوية بن يزيد نمى ذلك الى الحصين بن نمير ومن معه في الجيش من أهل الشام وهو على حرب ابن الزبير فهادنوا ابن الزبير ونزلوا مكة فلقي الحصين عبد الله في المسجد فقال له هل لك يا ابن الزبير أن أحملك الى الشام وأبايع لك بالخلافة فقال له عبد الله رافعا صوته أبعد قتل أهل الحرة لا والله حتى أقتل بكل رجل خمسة من أهل الشام فقال الحصين من زعم يا ابن الزبير انك داهية فهو أحمق أكلمك سرا وتكلمني علانية أدعوك أن أستخلفك فترفع الحرب وتزعم انك تقاتلنا فستعلم أينا المقتول وانصرف أهل الشام الى بلادهم مع الحصين فلما صاروا الى المدينة جعل أهلها يثقفون بهم ويتوعدونهم ويذكرون قتلاهم بالحرة فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وهيجها صعد روح بن زنباع الجذامي على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان في ذلك الجيش فقال يا أهل المدينة ما هذا الايعاد الذي توعدوننا والله ما دعوناكم الى كلب لمبايعة رجل منهم ولا الى رجل من بلقين ولا الى رجل من لخم أو جذام ولا غيرهم من العرب ولكن دعوناكم الى هذا الحي من قريش يعني بني أمية ثم الى طاعة يزيد بن معاوية وعلى طاعته قاتلناكم فاياي تتوعدون أما والله انا لابناء الطعن والطاعون وفضلات الموت والمنون فما شئتم ومضى القوم الى الشام وحمل الى ابن الزبير من صنعاء الفسيفساء التي كان بناها ابرهة الحبشي في كنيسته التي اتخذها هنالك ومعها ثلاث أساطين من رخام فيها وشي منقوش قد حشي النقش السندروس وأنواع الالوان من الاصباغ فمن رآه ظنه ذهبا وشرع ابن الزبير في بناء الكعبة وشهد عنده سبعون شيخا من قريش ان قريشا حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سعة البيت سبعة أذرع من أساس ابراهيم الخليل الذي أسسه هو واسماعيل عليهما السلام فبناه ابن الزبير وزاد فيه الاذرع المذكورة وجعل فيه الفسيفساء والاساطين وجعل له بابين بابا يدخل منه وبابا يخرج منه فلم يزل البيت على ذلك حتى قتل الحجاج عبد الله بن الزبير وكتب الى عبد الملك يعلمه بما زاده ابن الزبير في البيت فأمره عبد الملك بهدمه ورده الى ما كان عليه آنفا من بناء قريش وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم وان يجعل له بابا واحدا ففعل الحجاج ذلك واستوثق الامر لابن الزبير وأخذت له البيعة بالشام وخطب له على سائر منابر الاسلام الا منبر طبرية من بلاد الاردن فان حسان بن مالك بن بحدل أبى ان يبايع لابن الزبير وأرادها لخالد بن يزيد بن معاوية وكان القيم بأمر بيعة ابن الزبير بمكة عبد الله بن مطيع العدوي ففي ذلك يقول قضاعة الاسدي وكان بايع لابن الزبير ثم نكث

دعا ابن مطيع للبياع فجئته * الى بيعة قلبي لها غير آلف

فناولنى حسناء لما لمستها * بكفى ليست من أكف الخلائق

وهلك يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد وعبيد الله بن زياد على البصرة أمير فخطب الناس وأعلمهم بموتهما وان الامر شورى لم ينصب له أحد وقال لا أرض اليوم أوسع من أرضكم ولا عدد أكثر من عددكم ولا مال أكثر من مالكم فى بيت مالكم مائة ألف ألف درهم عطاء مقاتلتكم ستون ألفا وعطاؤهم وعطاء العيال ستون ألف ألف درهم فانظروا رجلا ترضونه يقوم بأمركم ويجاهد عدوكم وينصف مظلومكم من ظالمكم ويوزع بينكم أموالكم فقام اليه أشراف أهلها ومنهم الاحنف بن قيس التميمى وقيس بن الهيثم السلمى ومسمع بن مالك العبدى فقالوا ما نعلم ذلك الرجل غيرك أيها الامير وأنت أحق من قام على أمرنا حتى تجتمع الناس على خليفة فقال اما لو استعملتم غيرى لسمعت وأطعت وقد كان على الكوفة عمرو بن حريث الخزاعى عاملا لعبيد الله بن زياد فكتب اليه عبيد الله يعلمه بما دخل فيه أهل البصرة ويأمره أن يأمر أهل الكوفة بما دخل فيه أهل البصرة فقام يزيد بن رزيم الشيبانى فقال الحمد لله الذى أطلق اعياننا الا حاجة لنا فى بنى أمية ولا فى امارة ابن مرجانة وهى أم عبيد الله وأم أبيه زياد سمية على ما ذكرنا آنفا انما البيعة لاهل الحجز يعنى أهل الحجاز فخلع أهل الكوفة ولاية أمية وامارة ابن زياد وأرادوا ان ينصبوا لهم أميرا الى ان ينظروا فى أمرهم فقال جماعة عمرو بن سعد بن أبى وقاص يصلح لها فلما هموا بتأميره أقبل نساء من همدان وغيرهم من نساء كهلان والانصار وربيعة والنخع حتى دخلن المسجد الجامع صارخات باكيات معولات يندبن الحسين ويقلن أما رضى عمرو بن سعد بقتل الحسين حتى أراد أن يكون أميرا علينا على الكوفة فبكى الناس واعرضوا عن عمرو وكان المبرزون فى ذلك نساء همدان وقد كان على عليه السلام مائلا الى همدان موثرا لهم وهو القائل

فلو كنت بوابا على باب جنة * لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقال (عبيت همدان وعبوا خيرا) ولم يكن بصفين منهم أحد مع معاوية وأهل الشأم الا ناس كانوا بغوطة دمشق بقرية تعرف بعين برما مافيها منهم قوم الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ولما اتصل خبر أهل الكوفة بابن الزبير أنفذ اليهم عبد الله بن مطيع العدوى على ما قدمنا آنفا فتولى أمرهم حتى وجه المختار فى أثره ونظر مروان بن الحكم اطباق الناس على مبايعة ابن الزبير واجابتهم له فأراد أن يلحق به وينضاف الى جماعته فمنعه من ذلك عبيد الله بن زياد عند لحاقه بالشأم وقال له انك شيخ بنى عبد مناف فلا تعجل فصار مروان الى الجابية من أرض الحولان بين دمشق والاردن واستمال الضحاك بن قيس الفهرى الناس ورأسهم وانحاز عن مروان وأراد دمشق فسبقه اليها الاشدق عمرو بن سعيد بن العاص فدخلها وصار الضحاك الى حوران والبثنة وأظهر الدعوة لابن الزبير والتقى الاشدق ومروان فقال الاشدق لمروان هل لك فيما أقوله لك فهو خير لى ولك قال مروان وماهو قال ادعو الناس اليك وآخذها لك على أن تكون لى من بعدك فقال مروان لا بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية فرضى الاشدق بذلك ودعا الناس الى بيعة مروان فأجابوا

ومضى الاشدق الى حسان بن مالك بالاردن فارغبه فى بيعة مروان فجنح لها وبويع مروان ابن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ويكنى أبا عبد الملك وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان وذلك بالاردن وكان أول من بايعه أهلها وتمت بيعته وكان مروان أول من أخذها بالسيف كرها على ما قيل بغير رضى من عصبة من الناس بل كل تخوفه الاعداء يسيرا حولوه على وثوبه عليها وقد كان غيره ممن سلف أخذها بعدد واعوان الامر وان فانه أخذها على ما وصفنا وبايع مروان بعده لخالد بن يزيد ولعمرو بن سعيد الاشدق بعد خالد وكان مروان يلقب بخيط باطل وفى ذلك يقول عبد الرحمن بن الحكم

لحا الله قوما أمروا خيط باطل * على الناس يعطى ما يشاء ويمنع

واشترط حسان بن مالك وكان رئيس قحطان وسيدها بالشأم على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه يزيد وابنه معاوية بن يزيد منها ان يفرض لهم لالفى رجل ألفين ألفين وان مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه وعلى ان يكون لهم الامر والنهى وصدر المجلس وكل ما كان من حل وعقد فعن رأى منهم ومشورة فرضى مروان بذلك وانقاد اليه وقال له مالك ابن هبيرة اليشكرى انه ليست لك فى أعناقنا بيعة وليس نقاتل عن عرض دنيا فان تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك وان تكن الاخرى فوالله ما قريش عندنا الاسواء فأجابه مروان الى ما سأل وسار مروان نحو الضحاك بن قيس الفهرى وقد انحازت قيس وسائر مضر وغيرهم من نزار الى الضحاك ومعه أناس من قضاعة عليهم وائل بن عمرو العدوى وكانت معه راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لابيه وأظهر الضحاك ومن معه خلافة ابن الزبير والتقى مروان والضحاك ومن معهما بمرج راهط على أميال من دمشق فكانت بينهم الحروب سجالا وكثرت اليمانية عليهم وبواديها مع مروان فقتل الضحاك ابن قيس رئيس جيش ابن الزبير قتله رجل من تيم اللات وقتل معه نزار وأكثرهم من قيس مقتلة عظيمة لم ير مثلها قط وفى ذلك يقول مروان بن الحكم

لما رأيت الناس صاروا حزبا * والمال لا يؤخذ الا غصبا
دعوت غسانا لهم وكلبا * والسكسكين رجالا غلبا
والقين تمشى فى الحديد نكبا * والاعوجيات يشبن وثبا
يحملن سروات ودينا صلبا

وفى ذلك يقول أخوه عبد الرحمن بن الحكم

أرى أحاديث أهل المجد قد بلغت * أهل الفرات وأهل الفيض والنيل

وكان زفر بن الحارث العامرى ثم الكلابى مع الضحاك فلما أمعن السيف فى قومه ولى ومعه رجلان من بنى سليم فقص فرساهما وغشيتهما اليمانية من خيل مروان فقالا له انج بنفسك فانا مقتولان فولى راكضا ولحق الرجلان فقتلا وفى هذا اليوم يقول زفر ابن الحارث الكلابى من أبيات كثيرة

لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط * لمروان صدعا بيننا متنائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى * وتبقى حزازات النفوس كما هيا

أرى سلاحى لا أبالك اننى * أرى الحرب لا يزداد الا تماديا
اتذهب كلب لم تنلها رماحنا * وتترك قتلى راهط هى ماهيا
فلم يرد منى نبوة بعد هذه * فرادى وتركى صاحبى ورائيا
عشية اغدو فى الفريقين لا أرى * من القوم الا من على ولا ليا
ايذهب يوم واحد أن أسأته * بصالح أيامى وحسن بلائيا
ابعد ابن عمرو وابن معن تتابعا * ومقتل همام أمنى الامانيا

وتلاحق الناس ممن حضر الوقعة من أجنادهم بارض الشأم وكان النعمان بن بشير واليا على حمص قد خطب لابن الزبير ممالئا للضحاك فلما بلغه قتله وهزيمة الزبيرية خرج عن حمص هاربا فسار ليلته جمعاء متحيرا لا يدرى أين يأخذ فاتبعه خالد بن عدى الكلاعى فيمن خف معه من أهل حمص فلحقه وقتله وبعث برأسه الى مروان وانتهى زفر بن الحارث الكلابى فى هزيمته الى قرقيسياء فغلب عليها واستقام الشأم لمروان وبث فيه رجاله وعماله وسار مروان فى جنوده من الشأم الى أهل مصر فحاصرها وخندق عليها خندق مما يلى المقبرة وكانوا زبيرية عليهم لابن الزبير عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم وسيد الفسطاط يومئذ وزعيمها أبو رشدين كريب بن ابرهة بن الصباح فكان بينهم وبين مروان قتال يسير وتوافقوا على الصلح وقبل مروان اكدر بن الحمام صبرا وكان فارس مصر فقال أبو رشدين لمروان ان شئت والله أعدناها جذعة يعنى يوم الدار بالمدينة فقال مروان ما أشاء من ذلك شيأ وانصرف عنها وقد استعمل عليها ابنه عبد العزيز وقدم مروان الشأم فنزل الصبرة على سلين من طبرية من بلاد الاردن فاحضر حسان بن مالك وأرغبه وأرهبه فقام حسان فى الناس خطيبا ودعاهم الى بيعة عبد الملك بن مروان بعد مروان وبيعة عبد العزيز بن مروان بعد عبد الملك فلم يخالفه فى ذلك أحد وهلك مروان بدمشق فى هذه السنة وهى سنة خمس وستين وقد تنازع أهل التواريخ واصحاب السير ومن عنى بأخبارهم فى سبب وفاته فمنهم من رأى أنه مات مطعونا ومنهم من رأى أنه مات حتف أنفه ومنهم من رأى أن فاختة بنت أبى هاشم ابن عتبة ام خالد بن يزيد بن معاوية هى التى قتلته وذلك أن مروان حين أخذ البيعة لنفسه ولخالد بن يزيد بعده وعمرو بن سعيد بن خالد ثم بداله غير ذلك فجعلها لابنه عبد الملك بعده ثم لابنه عبد العزيز بن عبد الملك ودخل عليه خالد بن يزيد فكلمه وأغلظ له فغضب من ذلك وقال اتكلمنى يا ابن الرطبة وكان مروان قد تزوج بأمه فاختة ليذله بذلك ويضع منه فدخل خالد على امه فقبح لها تزوجها بمروان وشكى اليها ما نزل به منه فقالت لا يعيبك بعدها فمنهم من رأى انها وضعت على نفسه وسادة وقعدت فوقها مع جواريها حتى مات ومنهم من رأى انها أعدت له لبنا مسموما فلما دخل عليها ناولته اياه فشرب فلما استقر فى جوفه وقع يجود بنفسه وامسك لسانه فحضره عبد الملك وغيره من ولده فجعل مروان يشير الى ام خالد يخبرهم انها قتلته وأم خالد تقول بأبى أنت حتى عند النزع لم تشتغل عنى انه يوصيكم بى حتى هلك فكانت ايامه تسعة أشهر وأياما قلائل وقيل ثمانية أشهر وقيل غير ذلك مما سنورده عند ذكرنا للمدة التى هلكت فيها بنو أمية من الاعوام فيما يرد من هذا الكتاب

ان شاء الله تعالى وهلك مروان وهو ابن ثلاث وستين سنة وقد ذكر غير ذلك فى سنة وكان قصيرا أحمر ومولده لسنتين خلتا من الهجرة وهلك بعد أخذ البيعة لولده بثلاثة اشهر وقد ذكر ابن أبي خيثمة فى كتابه فى التاريخ أن النبى صلى الله عليه وسلم توفى ومروان ثمان سنين وكان لمروان عشرون اخا وثمانى أخوات وله من الولد أحد عشر ذكرا وثلاث بنات وهم عبد الملك وعبد العزيز وعبد الله وأبان وداود وعمرو وام عمرو وعبد الرحمن وأم عثمان وعمرو وام عمرو وبشر ومحمد ومعاوية وقد ذكرنا هؤلاء ومن اعقب منهم ومن لم يعقب وقد كان يزيد بن معاوية خلف من الولد أكثر مما خلف مروان وذلك أنه خلف معاوية وخالدا وعبد الله الاكبر وأبا سفيان وعبد الله الاصغر وعمرا وعاتكة وعبد الرحمن وعبد الله الذي لقبه الاصغر وعثمان وعتبة الاعور وأبا بكر ومحمدا ويزيد وام يزيد وام عبد الرحمن ورملة وصفية

(ذكر ايام عبد الملك بن مروان)

وبويع عبد الملك ابن مروان ليلة الاحد غرة شهر رمضان من سنة خمس وستين ثم بعث الحجاج ابن يوسف الى عبد الله بن الزبير ومن معه من الناس بمكة فقتل عبد الله يوم الثلاثاء لليال مضين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين وكانت ولاية ابن الزبير تسع سنين وعشر ليال وسنذكر مدة ابن الزبير بعد هذا الموضع من هذا الكتاب عند ذكرنا الجامع ملك بنى امية ثم هاجت فتنة ابن الاشعث فى شعبان من سنة اثنتين وثمانين ثم توفى عبد الملك بن مروان بدمشق يوم السبت لاربع عشرة مضت من شوال سنة ست وثمانين وكانت ولايته من منذ بويع الى ان توفى احدى وعشرين سنة وشهرا ونصفا وبقى بعد عبد الله بن الزبير واجتماع من اجتمع عليه من الناس ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر الا سبع ليال وسنذكر ما فعله من وقت استقامة من استقام له من الناس وقبض وهو ابن ست وستين سنة وقيل اكثر من ذلك وكان يحب الشعر والفخر والتقريظ والمدح وكان عماله على مثل مذهبه فالحجاج بالعراق والمهلب بخراسان وهشام بن اسماعيل بالمدينة وغيرهم بغيرها وكان الحجاج من اظلمهم واسفكهم للدماء وسنذكر فى هذا الكتاب جوامع من ذكره فيما يلى هذا الباب

(ذكر جمل من افعاله وسيره ولمع مما كان فى ايامه ونوادر من اخباره)

ولما أفضى الامر الى عبد الملك بن مروان تاقت نفسه الى محادثة الرجال والاشراف فى أخبار الناس فلم يجد من يصلح لمنادمته غير الشعبى فلما حمل اليه ونادمه قال له يا شعبى لا تساعدنى على ما قبح ولا ترد على الخطأ فى مجلسى ولا تكلفنى جواب التشميت والتهنئة ولا جواب السؤال والتعزية ودع عنك كيف اصبح الامير وكيف أمسى وكلمنى بقدر ما استطعمك واجعل بدل المدح لى صواب الاستماع منى واعلم أن صواب الاستماع أكثر من صواب القول واذا سمعتنى اتحدث فلا يفوتنك منه شئ وارنى فهمك من طرفك وسمعك ولا تجهد نفسك فى تطرية صوابى ولا تستدع بذلك الزيادة فى كلامى فان اسوأ الناس حالا من استكد الملوك بالباطل وان اسوأ الناس حالا منهم من استخف بحقهم وأعلم

يا شعبي أن أقل من هذا يذهب بسالف الاحسان ويسقط حق الحرمة فان الصمت في موضعه ربما كان ابلغ من المنطق في موضعه وعند اصابته وفرصته وقال عبد الملك للشعبي يوما من أين يهب الريح قال لا علم لي يا أمير المؤمنين قال عبد الملك اما مهب الشمال فمن مطلع بنات نعش وأما مهب الصبا فمن مطلع الشمس الى مطلع سهيل وأما الجنوب فمن مطلع سهيل الى مغرب الشمس وأما الدبور فمن مغرب الشمس الى مطلع بنات نعش وفي سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة وتلاقوا بالتلاوم والتنادم حين قتل الحسين فلم يغيثوه ورأوا انهم قد اخطأوا خطأ كبيرا بدعاء الحسين اياهم ولم يجيبوه ولمقتله الى جانبهم فلم ينصروه ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم الا قتل من قتله أو القتل فيه ففزعوا الى خمسة نفر منهم سليمان ابن صرد الخزاعي والمسيب بن محمد الفزاري وعبد الله بن سعد بن نفيل الازدي وعبد الله بن وال التميمي ورفاعة بن شداد البجلي فعسكروا بالنخيلة بعد أن كان لهم مع المختار ابن عبيد الثقفي خطب طويل بتثبيطه الناس عنهم ممن اراد الخروج معهم ففي ذلك يقول عبد الله بن الاحمر يحرض على الخروج والقتال من أبيات

صحوت وقد صحوا الصبي والعواديا * وقلت لأصحابي أجيبوا المناديا

وقولوا له اذ قام يدعو الى الهدى * وقبل الدعا لبيك لبيك داعيا

في شعر طويل يحث فيه على الخروج ويرثي الحسين ومن قتل معه ويلوم شيعته بتخلفهم عنه ويذكر أنهم قد تابوا الى الله وانابوا اليه من الكبائر التي ارتكبوها اذ لم ينصروه ويقول أيضا في هذا الشعر

الا وانع خير الناس جدا ووالدا * حسينا لاهل الدين أن كنت ناعيا

ليبك حسينا مرمل ذو خصاصة * عديم وأمام تشكى المواليا

فاضحى حسين للرماح دريئة * وغودر مسلوبا لدى الطف ثاويا

فياليتني اذ ذاك كنت شهدته * فضاربت عنه الشانئين الاعاديا

سقى الله قبرا ضمن المجد والتقى * بغربية الطف الغمام الغواديا

فيا أمة تاهت وضلت سفاهة * انيبوا فأرضوا الواحد المتعاليا

ثم ساروا يتقدمهم من سمينا من الرؤساء وعبد الله ابن الاحمر يقول

خرجن يلمعن بنا أرسالا * عوابسا تحملنا أبطالا

تريد أن نلقى بها الاقيالا * القاسطين الغدر الضلالا

وقد رفضنا الولد والاموالا * والخفرات البيض والحجالا

نرضى به ذا النعم المفضالا

فانتهوا الى قرقيسياء من شاطئ الفرات وبها زفر بن الحارث الكلابي فاخرج اليهم الانزال وساروا من قرقيسياء ليسبقوا الى عين الوردة وقد كان عبد الله بن زياد توجه من الشام الى حربهم في ثلاثين الفا وانفصل على مقدمته من الرقة خمسة أمراء منهم الحصين ابن نمير السلولي وشراحيل بن ذي الكلاع الحميري وادهم بن محرز الباهلي وربيعة بن المخارق الغنوي وجبلة بن عبد الله الخثعمي حتى اذا صاروا الى عين الوردة التقى الاقوام وقد كان

قبل ذلك لهم مناوشات فى الطلائع فاستشهد سليمان بن صرد الخزاعى بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة وابلى وحث وحرّض ورماه يزيد بن الحصين بن نمير بسهم فقتله فاخذ الراية المسيب بن محمد الفزارى وكان من وجوه اصحاب على رضى الله عنه وكرّ على القوم وهو يقول

قد علمت ميالة الذوائب * واضحة اللبات والترائب
أنى غداة الروع والمقانب * اشجع من ذى لبدة مواثب

فقاتل حتى قتل فاستقتل الترابيون وكسروا أجفان السيوف وسألت عليهم عساكر أهل الشأم كالسيل ينادون الجنة الجنة الى المتقية من أصحاب أبى تراب الجنة الجنة الى الترابية وأخذ راية الترابيين عبد الله بن سعيد بن نفيل وأتاهم اخوانهم يحثون السير خلفهم من أهل البصرة وأهل المدائن فى نحو من خمسمائة فارس عليهم المثنى بن مخرمة وسعيد بن حذيفة وهم يقولون اقلنا ربنا تفريطنا فقد تبنا فقيل لعبد الله بن سعيد بن نفيل وهو فى القتال ان اخواننا قد لحقوا من البصرة والمدائن فقال ذلك لو جاءوا ونحن أحياء فكان أول من استشهد فى ذلك الوقت ممن لحقهم من أهل المدائن كثير بن عمرو المدنى وطعن سعيد ابن سعيد الحنفى وعبد الله بن الخطل الطائى وقتل عبد الله بن سعيد بن نفيل فلما علم من بقى من الترابيين ان لا طاقة لهم بمن بازائهم من أهل الشأم انحازوا عنهم وارتحلوا وعليهم رفاعة بن شداد البجلى وتأخر ابو الحويرث العبدى فى حامية الناس وطلب منهم أهل الشأم المكافة والمتاركة لما رأوا من بأسهم وصبرهم مع قلتهم فلحق أهل الكوفة بمصرهم وأهل المدائن والبصرة ببلادهم وسمع الترابيون فى سيرهم ورجوعهم من عين الوردة قائلا يقول رافعا عقيرته

ياعين بكى ابن الصرد * بكى اذا الليل خمد
كان اذا الباس مكد * تخاله فيه أسد
مضى حميدا قد رشد * فى طاعة الاعلى الصمد

وقد ذكر أبو مخنف لوط بن يحيى وغيره من اصحاب التواريخ والسير من قتل من الترابيين مع سليمان ابن صرد الخزاعى على عين الوردة وأسماءهم فقالهم وحكى أبو مخنف فى كتابه فى اخبار الترابيين المترجم بعين الوردة قصيدة عزاها الى اعشى همدان طويلة يرثى بها أهل عين وردة من الترابيين ويصف مافعلوه منها

توجه من دون الثوية سائرا * الى ابن زياد فى الجموع الكتائب
فساروا وهم من بين ملتمس التقى * وآخر مما جرّ بالامس تائب
فلاقوا بعين الوردة الجيش ناصلا * عليهم فحيوهم ببيض قواضب
فجاءهم جمع من الشأم بعده * جموع كموج البحر من كل جانب
فما برحوا حتى ابيرت جموعهم * ولم ينج منهم ثم غير عصائب
وغودر أهل الصبر صرعى فاصبحوا * تعاورهم ريح الصبا والجنائب
واضحى الخزاعى الرئيس مجدلا * كان لم يقاتل مرة ويحارب

ورأس بنى سمح وفارس قومه * بجمعامع التيمى هادى الكتائب
وعمرو بن عمرو وابن بشر وخالد * وبكر وزيد والحليس بن غالب
أبوا غير ضرب يفلق الهام ضربه * وطعن باطراف الاسنة صائب
فيا خير جيش للعراق وأهله * سقيتم روايا كل أسحم ساكب
فلا تبعدن فرساننا وحماتنا * اذا البيض أبدت عن خدام الكواعب
فان تقتلوا فالقتل أكرم ميتة * وكل فتى يوما لاحدى النوائب
وما قتلوا حتى اصابوا عصابة * محلين نورا كالليوث الضوارب

وقيل ان وقعة الوردة كانت فى سنة ست وستين وفى أيام عبد الملك بن مروان توفى الحارث الاعور صاحب على عليه السلام وهو الذى دخل على على فقال يا أمير المؤمنين الا ترى الى الناس قد اقبلوا على هذه الاحاديث وتركوا كتاب الله قال وقد فعلوها قال نعم قال أما انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ستكون فتنة قلت فما المخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن اراد الهدى فى غيره اضله الله هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم والصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ عنه العقول ولا تلتبس به الالسن ولا تنقضى عجائبه ولا يعلم علم مثله هو الذى لما سمعته الجن قالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد من قال به صدق ومن زال عنه عدا ومن عمل به أجر ومن تمسك به هدى الى صراط مستقيم خذها اليك يا أعور (ولما كان) من وقعة عين الوردة ما قدمنا سار عبيد الله بن زياد فى عساكر الشأم يؤم العراق فلما انتهى الى الموصل وذلك فى سنة ست وستين التقى هو وابراهيم بن الاشتر النخعى وابراهيم على خيل العراق من قبل المختار بالجارد فكانت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها ابن مرجانة عبيد الله بن زياد والحصين ابن نمير وشرحبيل بن ذى الكلاع وابن حوشب ذى ظليم وعبد الله بن اياس السلمى أبو سدس وغالب الباهلى واشراف أهل الشأم وذلك أن عمير بن الحباب السلمى كان على ميمنة ابن زياد فى ذلك الجيش وكان فى نفسه ما فعل بقومه من مضر وغيرهم من نزار يوم مرج راهط فصاح يالثارات قيس يالمضر يالنزار فتراجعت نزار من مضر وربيعة على من كان معهم فى جيشهم من أهل الشأم من قحطان وقد كان عمير كاتب ابراهيم بن الاشتر سرا قبل ذلك والتقيا فتواطآ على ما ذكرنا وحمل ابراهيم بن الاشتر رأس ابن زياد وغيره الى المختار فبعث به المختار الى عبد الله بن الزبير بمكة وقد كان عبد الملك بن مروان سار فى جيوش أهل الشأم فنزل بطنان ينتظر ما يكون من ابن زياد فاتاه خبر مقتله ومقتل من كان معه وهزيمة الجيش بالليل وأتاه فى تلك الليلة مقتل جيش ابن دلجة وكان على جيش بالمدينة لحرب ابن الزبير ثم جاءه خبر دخول نابل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ومسير مصعب بن الزبير من المدينة الى فلسطين ثم جاءه مسير ملك الروم لاوى بن فاقط ونزوله المصيصة يريد الشأم ثم جاءه خبر دمشق وأن عبيدها وأوباشها ودعارها قد خرجوا على أهلها ونزلوا الجبل ثم اتاه أن من فى السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكابرة وأن خيل الاعراب أغارت

على حمص وبعلبك والبقاع وغير ذلك مما نمى اليه من القطعات فى تلك الليلة فلم ير عبد الملك فى ليلة قبلها أشد ضحكا ولا أحسن وجها ولا أبسط لسانا ولا أثبت جنانا منه تلك الليلة تجلدا وسياسة للملوك فترك اظهار الفشل وبعث بأموال وهدايا الى ملك الروم فشغله وهادنه وسار الى فلسطين وبها نابل بن قيس على جيش ابن الزبير فالتقوا باجنادين فقتل نابل بن قيس وعامة اصحابه وانهزم الباقون ونمى خبر قتله وهزيمة الجيش الى مصعب بن الزبير وهو فى الطريق فولى راجعا الى المدينة ففى ذلك يقول رجل من كلب من المروانية

قتلنا باجنادين سعدا ونابلا * قصاصا بما لاقى خنيس ومنذر

ورجع عبد الملك الى دمشق فنزلها وسار ابراهيم بن الاشتر فنزل نصيبين وتحصن منه أهل الجزيرة ثم استخلف على نصيبين ولحق بالمختار بالكوفة وفى سنة سبع وستين سار مصعب ابن الزبير من البصرة وقد كان اخوه عبد الله بن الزبير انفذه الى العراق والتقى بحروراء هو والمختار فكانت بينهم حروب عظيمة وقتل ذريع وانهزم المختار وقد قتل محمد بن الاشعث وابنان له ودخل قصر الامارة بالكوفة وتحصن فيه وكان يخرج كل يوم لمحاربة مصعب وأصحابه وأهل الكوفة وغيرهم والمختار معه خلق كثير من الشيعة قد سموا الحسينية من الكيسانية وغيرهم فخرج اليهم ذات يوم وهو على بغلة له شهباء فحمل عليه رجل من بنى حنيفة يقال له عبد الرحمن بن أسد فقتله واحتز راسه وتنادوا بقتله فقطعه أهل الكوفة واصحاب مصعب اعضاء وأبى مصعب أن يعطى الامان لمن بقى فى القصر من اصحابه فحاربوا الى أن اضر بهم الجهد ثم أمنهم وقتلهم بعد ذلك فكان ممن قتل مع مصعب عبد الله بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وله خبر مع المختار فى تخلصه منه ومضيه الى البصرة وخوفه على نفسه من مصعب الى أن خرج معه فى جيشه وقد اتينا على خبره وسائر ما أومأنا اليه فى كتابنا اخبار الزمان فكان جملة من ادركه الاحصاء ممن قتله مصعب مع المختار سبعة الاف رجل كل هؤلاء طالبوا بدم الحسين وقتلوا اعداءه فقتلهم وسماهم الحسينية وتتبع مصعب الشيعة بالقتل بالكوفة وغيرها وأتى بحرم المختار فدعاهن الى البراءة منه ففعلن الا حرمتين له احداهما بنت سمرة بن جندب الفزارى والثانية ابنة النعمان بن بشير الانصارى وقالتا كيف نتبرأ من رجل يقول ربى الله كان صائم نهاره قائم ليله قد بذل دمه لله ولرسوله فى طلب قتلة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم واهله وشيعته فامكنه الله منهم حتى شفى النفوس فكتب مصعب الى اخيه عبد الله يخبرهما وما قالتاه فكتب اليه ان رجعتا عما هما عليه وتبرأتا منه والا فاقتلهما فعرضهما مصعب على السيف فرجعت بنت سمرة ولعنته وتبرأت منه وقالت لو دعوتنى الى الكفر مع السيف لكفرت اشهد أن المختار كافر وأبت ابنة النعمان بن بشير وقالت شهادة أرزقها فاتركها كلا انها موتة ثم الجنة والقدوم على الرسول وأهل بيته والله لا يكون آتى مع ابن هند فأتبعه وأترك ابن أبى طالب اللهم اشهد أنى متبعة لنبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته ثم قدمها فقتلت صبرا ففى ذلك يقول الشاعر

ان من أعجب الاعاجيب عندى * قتل بيضاء حرة عطبول

قتلوها ظلما على غير جرم * ان لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا * وعلى الغانيات جر الذيول

ولم نتعرض فى هذا الكتاب لذكر المهلب وقتله لنافع وذلك فى سنة خمس وستين ونافع هو الذى تنسب اليه الازارقة من الخوارج اذ كنا اتينا فى كتابنا اخبار الزمان على ذكر حروب الخوارج مع المهلب وغيره ممن سلف وخلف وذكرنا شأن مرداس بن عمرو بن بلال التميمى وعطية بن الاسود الحنفى وأبى فديك وسودة الشيبانى ووقعة ابن الماجور الخارجى مع المهلب ومقتله وظفر المهلب بهم فى ذلك اليوم وخبر عبد ربه وأخبار خوارج اليمن كابى حمزة المختار بن عوف الازدى وبيهس الهيصمى مع ما تقدم من ذكرنا لفرق الخوارج فى كتابنا المقالات فى اصول الديانات من الاباضية وهم شراة عمان من الازد وغيرهم من الازارقة والنجدات والحرية والصفرية وغيرهم من فرق الخوارج وبلدانهم من الارض مثل بلاد سنجار وتل أعفر من بلاد ديار ربيعة والسن والبوازيج والحديقة مما يلى بلاد الموصل ثم من سكن من الاكراد بلاد اذربيجان وهم المعروفون بالشراة منهم واسلم المعروف بابن سادلويه وقد كان ملك على اعمال ابن أبى الساج من بلاد اذربيجان وأران والبيلقان وارمينية ومن سكن منهم بلاد سجستان وجبال هراة وهشتانه وبوشنج من بلاد خراسان ومن بلاد مكران على ساحل البحر بين بلاد السند وكرمان واكثرهم صفرية وحرية ومنهم ببلاد حمران اصطخر وصاهد بين كرمان وفارس ومنهم ببلاد تيهرت المغرب ومنهم ببلاد حضرموت وغيرها من بقاع الارض وفى سلطنة عبد الملك مات أبو العباس عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب فى سنة ثمان وستين وقيل فى سنة تسع وستين بالطائف وامه لبابة بنت الحارث بن حزن من ولد عامر بن صعصعة وله احدى وسبعون سنة وقيل انه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين وقد ذكر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس انه قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا ابن عشر سنين وصلى عليه محمد بن الحنفية وكان قد ذهب بصره لبكائه على على والحسن والحسين وكانت له وفرة طويلة يخضب شيبه بالحناء وهو الذى يقول

أن يأخذ الله من عينى نورهما * ففى لسانى وقلبى منهما نور
قلبى ذكى وعقلى غير مدخل * وفى فى صارم كالسيف مأثور

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم دعا له حين وضع له الماء للطهر فى بيت خالته ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم فقال اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل وقيل لابن عباس رضى الله عنه ما منع عليا رضى الله عنه أن يبعثك مكان أبى موسى يوم الحكمين فقال منعه من ذلك حائل القدر وقصر المدة ومحنة الابتلاء أما والله لو بعثنى مكانه لاعترضت مدارج نفسه ناقضا لما أبرم ومبرما لما نقض أسف اذا طار وأطير اذا أسف ولكن مضى قدر وبقى أسف ومع اليوم غد والآخرة خير للمتقين وكان لابن عباس من الولد على وهو أبو الخلفاء من بنى العباس والعباس ومحمد والفضل وعبد الرحمن وعبيد الله ولبابة وأمهم زرعة بنت مشرح الكندية فاما عبيد الله ومحمد والفضل فلا أعقاب لهم وفى سنة سبعين قتل عبد الملك بن مروان

عمر بن سعيد بن العاص الاشدق وهو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف وكان ذا شهامة وفصاحة وبلاغة واقدام وكان بينه وبين عبد الملك محادثات ومكاتبات وخطب طويل طلبا للملك وكان فيما كتب اليه عبد الملك انك لتطمع نفسك بالخلافة ولست لها بأهل فكتب اليه عمرو استدراج النعم اياك أفادك البغي ورائحة الغدرة أورثتك الغفلة زجرت عما وافقت عليه وندبت الى ما تركت سبيله ولو كان ضعف الاسباب يؤيس المطالب ما انتقل سلطان ولا ذل عزيز وعن قريب يتبين من صريع بغي وأسير غفلة وقد كان عبد الملك سار الى زفر بن الحارث الكلابي وهو بقرقيسيا وبلاد الرحبة وخلف عمر بن سعيد بدمشق فبلغه أن عمرا قد دعا الى بيعته بدمشق فكر راجعا اليها فامتنع عمرو فيها فناشده عبد الملك الرحم وقال له لا تفسد أهل بيتك وما هم عليه من اجتماع الكلمة وفيما صنعت قوة ارجع الى بيعتك فاني ساجعل لك العهد فرضي وصالح ودخل عبد الملك وعمرو متحيز منه في نحو خمسمائة يزولون معه حيث زال وقد تنازع أهل السير في كيفية قتل عبد الملك اياه فمنهم من رأى أن عبد الملك قال لحاجبه ويحك أتستطيع اذا دخل عمرو ان تغلق الباب قال نعم قال فافعل وكان عمرو رجلا عظيم الكبر لا يرى لاحد عليه فضلا ولا يلتفت وراءه اذا مشى الى أحد فلما فتح الحاجب الباب دخل عمرو فاغلق الحاجب الباب دون أصحابه ومضى عمرو لا يلتفت وهو يظن أن أصحابه قد دخلوا معه كما كانوا يدخلون فعاتبه عبد الملك طويلا وقد كان وصى صاحب حرسه أبا الزعيزعة بان يضرب عنقه فكلمه عبد الملك واغلظ له القول فقال يا عبد الملك اتستطيل علي كأنك ترى لك علي فضلا ان شئت والله نقضت العهد بيني وبينك ثم نصبت لك الحرب فقال عبد الملك قد شئت ذلك فقال وأنا قد فعلت فقال عبد الملك يا أبا الزعيزعة شأنك فالتفت عمرو الى اصحابه فلم يرهم في الدار فدنا من عبد الملك فقال مايدنيك مني قال لتمسني رحمك وكانت ام عمرو وعمة عبد الملك تحت الحكم بن أبي العاص بن وائل فضربه أبو الزعيزعة فقتله فقال له عبد الملك ارم برأسه الى اصحابه فلما رأوا رأسه تفرقوا ثم خرج عبد الملك فصعد المنبر وذكر عمرا فوقع فيه وذكر خلافه وشقاقه ونزل من المنبر وهو يقول

ادنيته مني لتسكن نفرة * فاصول صولة حازم مستمكن
غضبا وحماة لديني انه * ليس المسيء سبيله كالمحسن

وقيل ان عمرا خرج من منزله يريد عبد الملك فعثر بالبساط فقالت له امرأته نائلة بنت فريض ابن وكيع بن مسعود أنشدك الله أن لا تأتيه فقال دعيني عنك فوالله لو كنت نائما ما أيقظني وخرج وهو مكفر بالدرع فلما دخل على عبد الملك قام من هناك من بني أمية فقال عبد الملك وقد أخذت الابواب اني كنت حلفت ان ملكتك لاشدنك في جامعة فاتي بجامعة فوضعها في عنقه وشدها عليه فايقن عمرو أنه قاتله فقال أنشدك الله يا أمير المؤمنين فقال له عبد الملك يا أبا أمية مالك جئت في الدرع للقتال فأيقن عمرو بالشر فقال انشدك الله أن تخرجني الى الناس في الجامعة فقال له عبد الملك وتماكرني أيضا وأنا أمكر منك تريد أن اخرجك الى الناس فيمنعوك ويستنقذوك من يدي وخرج عبد الملك الى الصلاة وأمر أخاه عبد العزيز

وقد كان قدم من مصر في ذلك اليوم بقتله اذا خرج وقد قيل أمر ابنه الوليد بذلك فلما دنا منه عبد العزيز ناشده عمرو بالرحم فتركه فلما رجع عبد الملك من الصلاة ورآه حيا قال لعبد العزيز والله ما أردت قتله من أجلكم الا أن لا يحوز ها دونكم ثم أضجعه فقال له عمرو أغدرا يا ابن الزرقاء فذبحه ووافى اخو عمرو يحيى بن سعيد الى الباب بمن معه من رجاله ليكسره فخرج اليه الوليد ومواليه عبد الملك فاقتتلوا واختلف الوليد ويحيى فضربه يحيى بالسيف على اليته فانصرع وألقى رأس عمرو الى الناس فلما رأوه تفرقوا من بعد أن ألقى عليهم من أعلى الدار بدر الدنانير فاشتغلوا بها عن القتال وقال عبد الملك وأبيك لئن كانوا اقتلوا الوليد لقد اصابوا بثارهم وقد كان الوليد فقد حين ضرب وذلك أن ابراهيم بن عدى احتمله فادخله بيت القراطيس في المعمعة وأتى عبد الملك بيحيى بن سعيد واجتمعت الكلمة على عبد الملك وانقاد الناس اليه وقد قيل في مقتله غير ما ذكرنا وقد اتينا على ذلك في كتابنا أخبار الزمان وقد ذكرنا شعرا اخته فيه وكانت تحت الوليد بن عبد الملك فيما يرد من هذا الكتاب في أخبار المنصور اذ هو الموضع المستحق له دون هذا الموضع لما تغلغل بنا الكلام وتسلسل بنا القول نحوه واقام عبد الملك بدمشق بقية سنة سبعين وقد كان مصعب بن الزبير خرج حين صفا له العراق بعد قتل المختار وأصحابه حتى انتهى الى الموضع المعروف بباجميراء مما يلى الجزيرة يريد الشأم لحرب عبد الملك فبلغه مسير خالد بن عبد الله بن خالد بن اسيد من مكة الى البصرة في ولده وعدة من مواليه ناكثا لبيعة عبد الله بن الزبير فنزل بعض نواحى البصرة وأن قوما قد انضافوا اليه من ربيعة ومنهم عبد الله بن الوليد ومالك بن مسمع البكرى وصفوان بن الايهم التميمى وصعصعة بن معاوية عم الاحنف فكانت لهم بالبصرة حروب كانت آخرا على خالد بن عبد الله فخرج هاربا بنيه حتى لحقوا بعبد الملك وانصرف مصعب راجعا الى البصرة وذلك في سنة احدى وسبعين ثم عاد من العراق الى باجميرا ففى ذلك يقول الشاعر

أبيت يا مصعب الا السيرا * في كل يوم لك باجميرا

ونزل عبد الملك بن مروان على قرقيسياء فحاصر بها زفر بن الحارث العامرى الكلابى وكان يدعو الى ابن الزبير فنزل على امامته وبايعه وسار عبد الملك فنزل على نصيبين وفيها يزيد والحبيشى موليا الحارث في الفى فارس ممن بقى من أصحاب المختار يدعو الى امامة محمد بن الحنفية فحاصرهم فنزلوا على امامته وانضافوا الى جملته وخرج مصعب في أهل العراق وذلك في سنة اثنتين وسبعين يريد عبد الملك ودلف اليه عبد الملك في عساكر مصر والجزيرة والشأم فالتقوا بمسكن قرية من أرض العراق على شاطئ دجلة وعلى مقدمة عبد الملك الحجاج بن يوسف بن أبى عقيل الثقفى وقيل على ساقته وقد حمد أمره في قيامه بما أهل له فكاتب عبد الملك رؤساء أهل العراق ممن هو بعسكر مصعب وغيرهم وصار يرغبهم ويرهبهم فكان فيمن كتب اليه ابراهيم بن الاشتر النخعى فلما أتاه كتابه مع الجاسوس اعتقله في رحله وأتى مصعبا بالكتاب قبل أن يفضه ويعلم ما فيه فقال له مصعب أقرأته فقال اعوذ بالله أن أقرأه حتى يقراه الامير وآتى يوم القيامة غادرا قد نقضت بيعته وخلعت طاعته فلما تأمل مصعب ما فيه

وجده أماناله وولاية لما شاء من العراق وأقطاع غير ذلك ثم قال ابراهيم لمصعب هل أتاك أحد من اشراف العساكر بكتاب فقال مصعب لا فقال ابراهيم والله لقد كاتبهم وما كاتبني حتى كاتب غيري ولا امتنعوا من ايصالها اليك الا للرضى به والغدر بك فاطعني وابدأبهم فأمرهم على السيف أو استوثق منهم في الحديد والق هذا الرجل فأبى مصعب ذلك وتخيزما كان في عسكره من ربيعة لقتاله ابن زياد بن ظبيان البكري وكان من سادات ربيعة وزعماء بكر بن وائل وسار ابراهيم بن الاشتر على مقدمة مصعب في مشرعة الخيل فلقي خيل عبد الملك ومقدمته عليها اخوه محمد بن مروان وبلغ عبد الملك ورود ابراهيم ومنازلته محمدا أخاه فبعث الى محمد عزمت عليك أن لا تقاتل في هذا اليوم وقد كان مع عبد الملك منجم مقدم وقد أشار على عبد الملك أن لا تحارب له خيل في ذلك اليوم فانه منحوس وليكن حربه بعد ثلاث فانه ينصر فبعث اليه محمد وأنا أعزم على نفسي لاقاتلن ولا ألتفت الى زخاريف منجمك والمحالات من الكذب فقال عبد الملك للمنجم ولمن حضر الاترون ثم رفع طرفه الى السماء وقال اللهم ان مصعبا اصبح يدعو الى اخيه واصبحت ادعو لنفسي اللهم فانصر خيرنا للامة محمد صلى الله عليه وسلم فالتقى محمد بن مروان وابن الاشتر ومحمد يتجزو يقول

مثلي على مثلك أولى بالسلب * محجل الرجلين أعزب الذنب

فاقتتلوا حتى غشيهم المساء فقال عتاب ابن ورقاء التميمي وكان مع ابن الاشتر يا ابراهيم أن الناس قد جهدوا فمرهم بالانصراف حسدا له لاشرافه على الفتح فقال ابراهيم وكيف ينصرفون وعدوهم بازائهم فقال عتاب فمر الميمنة أن تنصرف فأبى ابراهيم ذلك فمضى اليهم عتاب فأمرهم بالانصراف فلما زالوا عن مصافهم أكبت ميسرة محمد عليهم واختلط الرجال وصمدت الفرسان لابراهيم واشتبكت عليه الاسنة فيرى منها اعدة رماح واسلمه من كان معه فاقتلع من سرجه ودار به الرجال وازدحموا عليه فقتل بعد أن أبلى ونكى فيهم وقد تنوزع في أخذ رأسه فمنهم من زعم أن ثابت ابن يزيد مولى الحصين ابن نمير الكندي هو الذي أخذ رأسه ومنهم من ذكر ان عبيد بن ميسرة مولى بني يشكر ثم من بني رفاعة هو الذي أخذ رأسه وأتى عبد الملك بجسد ابراهيم فالقى بين يديه فأخذه مولى الحصين بن نمير وأخذ حطبا وأحرقه بالنار وسار عبد الملك في صبيحة تلك الليلة من موضعه حتى نزل بدير الجاثليق من ارض السوداء واقبل عبيد الله بن زياد بن ظبيان وعكرمة بن أبي الى رايات ربيعة فأضافوها الى عسكر عبد الملك ودخلوا في طاعته ثم تصاف القوم فأفرد مصعب وتخلى عنه من كان معه من مضر واليمن وبقي في سبعة نفر منهم اسماعيل بن طلحة بن عبيد الله التميمي وابنه عيسى بن مصعب فقال لابنه عيسى يا بني اركب فانج فالحق بعمك بمكة فأخبره بما صنع بي أهل العراق ودعني فاني مقتول فقال له لا والله لا يتحدث بها قريش أني فررت عنك ولا أحدثهم عنك أبدا فقال له مصعب اما اذ أبيت فتقدم أمامي حتى احتسبك فتقدم عيسى فقاتل حتى قتل وسأل محمد بن مروان اخاه عبد الملك ان يؤمن مصعبا فاستشار عبد الملك من حضره فقال له علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب لا تؤمنه وقال خالد بن يزيد ابن معاوية بن أبي سفيان بل أمنه وارتفع الكلام بين علي وخالد حتى تسابا على مصافهما

فأمر عبد الملك أخاه محمدا أن يمضى الى مصعب فيؤمنه ويعطيه عنه ما اراد فمضى محمد ابن مروان وقال أمنك أمير المؤمنين على نفسك ومالك وكلما احدثت وأن تنزل أى البلاد شئت ولو اراد بك غير ذلك لانزل بك فأنشدك الله فى نفسك وأقبل رجل من أهل الشأم الى عيسى بن مصعب ليحتز رأسه فعطف عليه مصعب والرجل غافل فناداه أهل الشأم ويلك يافلان الاشدق أقبل نحولك ولحقه مصعب فقده وعرقب فرس مصعب وبقى راجلا فاقبل عليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فاختلفا ضربتين سبق مصعب بالضربة الى رأسه وكان مصعب قد أثخن بالجراح وضربه عبيد الله فقتله واحتز رأسه وأتى به عبد الملك فسجد عبد الملك وقبض عبيد الله بن زياد على قائم سيفه فاجتذبه من غمده حتى أتى على أكثره سلالي ضرب عبد الملك فى حال سجوده ثم ندم واسترجع فكان يقول بعد ذلك ذهب الفتك من الناس اذ هممت ولم أفعل فاكون قد قتلت عبد الملك ومصعبا ملكى العرب فى ساعة واحدة وقتل عبيد الله عند مجيئه برأس مصعب

نعاطى الملوك الحق ما قسطوا لنا * وليس علينا قتلهم بمحرم

وقال عبد الملك متى تغذو قريش مثل مصعب وكان قد قتل مصعب يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من جمادى الاولى سنة اثنتين وسبعين وأمر عبد الملك بمصعب وابنه عيسى فدفنا بدير الجاثليق ودعا عبد الملك أهل العراق الى بيعته فبايعوه وقد كان مسلم بن عمرو الباهلى من صنائع معاوية وابنه يزيد وكان فى ذلك اليوم فى جيش مصعب فأتى به عبد الملك وقد أخذ له منه الامان فقيل له أنت ميت لاترجو الحياة لما بك من الجراح فما تصنع بالامان قال ليسلم مالى ويأمن ولدى بعدى فلما وضع بين يدى عبد الملك قال قطع الله يد ضاربك كيف لم يجهز عليك أكفرت صنائع آل حرب معك فأمنه على ماله وولده ومات من ساعته وفى مصرع مصعب بدير الجاثليق من أرض العراق يقول عبد الله بن قيس الرقيات

لقد أورث المصرين عارا وذلة * قتيل بدير الجاثليق مقيم
فما نصحت لله بكر بن وائل * ولا صبرت عند اللقاء تميم
جزى الله بصريا بذاك ملامة * ولو فيهم أن اللئيم مليم

وفى ذلك يقول شاعر أهل الشأم من أبيات

لعمرى لقد أصحرت خيلنا * بأكناف دجلة للمصعب
يهزون كل طويل القنا * ة معتدل النصل والثعلب
اذا ما منافق أهل العرا * ق عوتب يوما فلم يعتب
دلفنا اليه لدى موقف * قليل التفقد للغيب

وقد كان مصعب ذا حسن وجمال وهيئة وكمال فى الصورة وفيه يقول ابن الرقيات من كلمة

انما مصعب شهاب من الله * تجلت عن وجهه الظلماء

وقد اتينا على أخبار مصعب وسكينة بنت الحسين زوجه وعائشة بنت طلحة وليلى من نسائه وغير ذلك من أخباره فى الكتاب الاوسط (وحدث) المقرى قال حدثنى سويد بن سعيد قال

حدثنا مروان بن معاوية الفزاري عن محمد بن عبد الرحمن عن أبي مسلم النخعي قال رأيت رأس الحسين جيء به فوضع في دار الامارة بالكوفة بين يدي عبيد الله بن زياد ثم رأيت رأس عبيد الله بن زياد قد جيء به فوضع في ذلك الموضع بين يدي مصعب بن الزبير ثم رأيت رأس مصعب بن الزبير قد جيء به فوضع في ذلك الموضع بين يدي عبد الملك وقد قيل في وجه آخر من الروايات فرأى عبد الملك مني اضطرابا فسألني فقلت يا أمير المؤمنين دخلت هذه الدار فرأيت رأس الحسين بين يدي ابن زياد في هذا الموضع ثم دخلتها فرأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار فيه ثم دخلتها فرأيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير وهذا رأس مصعب بين يديك فوقاك الله يا أمير المؤمنين قال فوثب عبد الملك بن مروان وأمر بهدم الطاق الذي على المجلس ذكر هذا الحديث عن الوليد بن خباب وغيره وسار عبد الملك من دير الجاثليق حتى نزل النخيلة بظاهر الكوفة فخرج اليه أهل الكوفة فبايعوه ووافى الناس بما كان وعدهم به في مكاتبته اياهم سرا وخلع وأجاز وأقطع ورتب الناس على قدر مراتبهم وعمهم ترغيبه وترهيبه وولى على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسد وعلى الكوفة بشر بن مروان اخاه وخلف معه جماعة من أهل الرأي والمشورة من أهل الشأم منهم روح ابن زنباع الجذامي وبعث بالحجاج بن يوسف لحرب ابن الزبير بمكة وسار في بقية أهل الشام الى دار مملكته دمشق وكان بشر بن مروان أديبا ظريفا يحب الشعر والسمر والسماع والمعاقرة وقد كان أخوه عبد الملك قال له أن روحا عمك الذي لا ينبغي أن تقطع أمرا دونه لصدقه وعفافه ومناصحته ومحبته لنا أهل البيت فاحتشم بشر منه وقال لندمائه أخاف ان انبسطنا أن يكتب روح الى أمير المؤمنين بذلك واني لأحب من الأنس والاجتماع ما يحبه مثلي فقال له بعض ندمائه من أهل العراق بحسن مساعدته ولطيف حيلته أنا أكفيك أمره حتى ينصرف الى أمير المؤمنين غير شاك ولا لائم فسر بشر ووعده الجائزة وحسن المكافأة ان هو تأتى له ما وعد به وكان روح شديد الغيرة وله جارية اذا خرج من منزله الى المسجد او غيره ختم بابه حتى يعود بعد ان يقفله فأخذ الفتى دواة وأتى منزل روح عشيا وخرج روح للصلاة فتوخى الفتى الى دخول الدهليز في حال خروج روح وكمن تحت الدرجة ولم يزل يحتال حتى توصل الى بيت روح فكتب على حائط في أقرب المواضع من مرقد روح

يا روح من لبنيات وأرملة * اذا نعاك لأهل المغرب الناعي
ان ابن مروان قد حانت منيته * فاحتل لنفسك يا روح بن زنباع
ولا يغرنك ابكار ومنعمة * واسمع هديت مقال الناصح الداعي

ورجع الى مكانه بالدهليز فبات فيه فلما أصبح روح خرج الى الصلاة فتبعه غلمانه والفتى متنكر في جملتهم مختلط بهم فلما عاد روح وافتتح باب حجرته تبين الكتابة وقرأها فراعه ذلك وانكره وقال ما هذا فوالله ما يدخل حجرتي انسي سواي ولا حظ لي في المقام ثم نهض الى بشر فقال يا ابن أخي أوصني بما أحببت من حاجة وسبب عند أمير المؤمنين قال أوتريد الشخوص يا عم قال نعم قال ولم هل أنكرت شيئا أو رأيت قبيحا لا يسعك المقام عليه قال لا والله بل جزاك الله عن نفسك وعن سلطانك خيرا ولكن أمر حدث ولا بد لي من

الانصراف

الانصراف الى أمير المؤمنين فاقسم عليه أن يخبره فقال له ان أمير المؤمنين قد مات اوهو ميت الى أيام قال ومن أين علمت ذلك فاخبره بخبر الكتابة وقال ليس يدخل حجرتي غيري وغير جاريتي فلانة وما كتب ذلك الا الجن أو الملائكة فقال له بشر أقم فاني أرجو أن لا يكون لهذا حقيقة فلم يثنه شئ وسار الى الشأم فاقبل بشر على الشراب والطرب فلما لقي روح عبد الملك انكر أمره وقال ما اقدمك الاالحادثة حدثت أو لامر كرهته فاثنى على بشر وحمد سيرته وقال لا بل لامر لا يمكنني ذكره حتى نخلو فقال عبد الملك لجلسائه انصرفوا وخلا بروح فأخبره بقصته وأنشده الابيات فضحك عبد الملك حتى استغرب وقال ثقلت على بشر واصحابه حتى احتالوا لك بما رأيت فلا ترع ولما اتصل قتل مصعب باخيه عبد الله أضرب عن ذكره حتى تحدث بذلك العبيد والاماء في سكك المدينة ومكة فصعد المنبر وجبينه يرشح فقال الحمد لله مالك الدنيا والآخرة يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شئ قدير الا انه لن يذل الله من كان الحق معه ولن يعز من كان اولياء الشيطان حزبه انه اتانا خبر من العراق أحزننا وأفرحنا قتل مصعب فاما الذى احزننا من ذلك فان لفراق الحميم لذعة يجدها حميمه عند المصيبة ثم يرعوى من بعد ذلك الى كريم الصبر وجميل العزاء وأما الذى أفرحنا فان القتل له شهادة ويجعل الله له ولنا في ذلك الخيرة أما والله انا لا نموت حتفا كميتة آل أبي العاص وانما نموت قعصا بالرماح وقتلا تحت ظلال السيوف ألا وان الدنيا عارية من الملك القهار الذى لا يزول سلطانه ولا يتبدل فان تقبل الدنيا على لا آخذها أخذ الاشر البطر وان تدبر عني لا ابكي عليها بكاء الحزين المهين فأتى الحجاج الطائف فاقام بها شهورا ثم زحف الى مكة فحاصر ابن الزبير بها وكتب الى عبد الملك انى قد ظفرت بابي قبيس فلما ورد كتابه على عبد الملك بحصار ابن الزبير بمكة والظفر بأبي قبيس كبر عبد الملك فكبر من في داره واتصل التكبير بمن في جامع دمشق فكبروا واتصل ذلك باهل الاسواق ثم سألوا عن الخبر فقيل لهم ان الحجاج حاصر ابن الزبير بمكة وظفر بأبي قبيس فقالوا لا نرضى حتى يحمله الينا مكبلا على رأسه برنس على جمل يمر بنا في الاسواق الترابي الملعون وكان حصار الحجاج لابن الزبير بمكة هلال ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين وفيها قتل مصعب ومنع ابن الزبير الحجاج أن يطوف بالبيت ووقف الحجاج بالناس محرما في درع ومغفر وهو من أبناء احدى وثلاثين سنة ونحر ابن الزبير بمكة ولم يخرج الى عرفة بسبب الحجاج فكانت مدة حصار الحجاج لابن الزبير بمكة خمسين ليلة ودخل ابن الزبير على امه اسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنه وقد بلغت مائة سنة لم تقع لها سن ولا ابيض لها شعر ولم ينكر لها عقل على حسب ما قدمنا من خبرها في هذا الكتاب فقال يا امه كيف تجدينك قالت انى لشاكية يا بني فقال لها ان في الموت راحة قالت لعلك تمنيه لي وما أحب أن اموت حتى يأتى على أحد طرفيك اما قتلت فأحتسبك واما ظفرت فقرت عيني بك وأوصى عبد الله بما يحتاج من امره وأمر نساءه اذا بلغن الواعية عليه أن يضمن من امه اسماء اليهن وكان عروة ابن الزبير على رأى عمه عبد الملك بن مروان وكان كتب عبد الملك بن مروان الى الحجاج يامره بتعاهد عروة وان لا يسوءه في نفسه وماله فخرج عروة الى الحجاج ورجع الى

أخيه فقال هذا خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد وعمرو بن عثمان بن عفان يعطيانك أمان عبد الملك على ما احدثت أنت ومن معك وأن تنزل أى البلاد شئت لك بذلك عهد الله وميثاقه وغير ذلك من الكلام فأبى عبد الله قبول ذلك وقالت له امه اسماء أى بنى لا تقبل خطة تخاف على نفسك منها مخافة القتل مت كريما واياك أن تؤسر او تعطى بيديك فقال يا امه انى اخاف أن يمثل بى بعد القتل فقالت يابنى وهل تتألم الشاة من السلخ بعد الذبح ودخلوا على ابن الزبير فى المسجد وقت الصلاة وقد الجأ الى البيت وهم ينادون يا ابن ذات النطاقين فقال ابن الزبير متمثلا

وعيرها الواشون أنى احبها * وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

ونظر الى طائفة منهم قد اقبلوا نحوه بالسيوف فقال لاصحابه من هؤلاء قالوا أهل مصر قال قتلة عثمان أمير المؤمنين ورب الكعبة فحمل عليهم فضرب رجلا منهم به أدمة فقده وقال صبرا يا ابن حام وتكاثر عليه الرجال من أهل الشأم ومصر فلم يزل يضرب فيهم حتى أخرجهم عن المسجد ورجع الى البيت وهو يقول

ولست بمبتاع الحياة بسبة * ولا ابتغى من رهبة الموت أسلما

فاستلم الحجر ثم تكاثروا عليه فحمل عليهم وهو يقول

قد سن اصحابك ضرب الاعناق * وقامت الحرب بنا على ساق

فأتاه حجر فصك جبينه فادماه وأوضحه فقال

ولسنا على الاعقاب تدمى كلومنا * ولكن على أقدامنا تقطر الدما

فكشفهم عن المسجد ورجع الى من بقى من أصحابه عند البيت فقال لهم ألقوا أغماد السيوف وليصن كل منكم سيفه كما يصون وجهه لا ينكسر سيف أحدكم فيقعد كالمرأة ولا يسأل رجل منكم ابن عبد الله من يسأل عنى فانى فى الرعيل الاول ثم أنشأ يقول

يارب ان جنود الشأم قد كثروا * وهتكوا من حجاب البيت أستارا

يارب انى ضعيف الركن مضطهد * فابعث الى جنودا منك أنصارا

وتكاثر أهل الشأم عليه الوفا من كل باب فحمل عليهم فشدخ بالحجارة فانصرع وأكب عليه موليان له وأحدهما يقول العبد يحمى ربه ويحتمى حتى قتلوا جميعا وتفرق من كان معه من أصحابه وأمر به الحجاج فصلب بمكة وكان مقتله يوم الثلاثاء لاربع عشرة ليلة خلت من جمادى الاولى سنة ثلاث وسبعين وكلمت اسماء امه الحجاج فى دفنه فأبى عليها فقالت للحجاج أشهد انى لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج من ثقيف كذاب ومبير فأما الكذاب فهو المختار وأما المبير فما أظنك الا هو وسنذكر لمعا من اخبار الحجاج فيما يرد من هذا الكتاب وان كنا قد اتينا على مبسوطها فيما تقدم من كتبنا وأقام الحجاج واليا على مكة والمدينة والحجاز واليمن واليمامة ثلاث سنين ثم جمع له العراق بعد موت بشر بن مروان بالبصرة ومات جابر بن عبد الله الانصارى فى أيام عبد الملك بالمدينة وذلك فى سنة ثمان وسبعين وقد ذهب بصره وهو ابن نيف وتسعين سنة وقد كان قدم الى معاوية بدمشق فلم يأذن له أياما فلما أذن له قال

يا معاوية أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من حجب ذا فاقة وحاجة حجبه الله يوم فاقته وحاجته فغضب معاوية وقال له لقد سمعته يقول انكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تردوا علىّ الحوض أفلا صبرت قال ذكرتنى ما نسيت وخرج فاستوى على راحلته ومضى فوجه اليه معاوية بستمائة دينار فردها وكتب اليه

وانى لاختار القنوع على الغنى * اذا اجتمعا والماء بالبارد المحض
وأقضى على نفسى اذا الامر نابنى * وفى الناس من يقضى عليه ولا يقضى
وألبس أثواب الحياء وقد أرى * مكان الغنى أن لا أهين له عرضى

وقال لرسوله قل له والله يا ابن آكلة الاكباد لا وجد فى صحيفتك حسنة انا سببها أبدا ومات محمد ابن الحنفية فى سنة احدى وثمانين فى أيامه بالمدينة ودفن بالبقيع وصلى عليه أبان بن عثمان بن عفان باذن ابنه أبى هاشم وكان محمد يكنى بأبى القاسم وقبض وهو ابن خمس وستين وقيل انه خرج الى الطائف هاربا من ابن الزبير فمات بها وقيل انه مات ببلاد أيلة وقد تنوزع فى موضع قبره وقد قدمنا قول الكيسانية ومن قال منهم انه بجبل رضوى وكان له من الولد الحسن وأبو هاشم والقاسم وابراهيم (حدثنا) نصر بن علىّ قال حدثنا أبو أحمد الزبيرى عن يونس بن أبى اسحاق قال حدثنا سهيل بن عبيد بن عمر الحابورى قال كتب ابن الحنفية الى عبد الملك ان الحجاج قد قدم بلدنا وقد خفته فأحب ان لا تجعل له علىّ سلطانا بيد ولا لسان فكتب عبد الملك الى الحجاج ان محمد بن علىّ كتب الىّ يستعفينى منك وقد أخرجت يدك عنه فلم أجعل لك عليه سلطانا بيد ولا لسان فلا تتعرض له فلقيه فى الطواف فعض على شفته ثم قال لم يأذن لى فيك أمير المؤمنين فقال له محمد ويحك أوما علمت أن لله تبارك وتعالى فى كل يوم وليلة ثلثمائة وستين لحظة أو قال نظرة لعله أن ينظر الىّ منها بنظرة أو قال بلحظة فيرحمنى فلا يجعل لك علىّ سلطانا بيد ولا لسان قال فكتب بها الحجاج الى عبد الملك فكتب بها عبد الملك الى ملك الروم وقد كان توعده فكتب اليه ملك الروم ليست هذه من سجيتك ولا من سجية آبائك ما قالها الا نبى أو رجل من أهل بيت نبى (وذكر) الشعبى قال انفذنى عبد الملك الى ملك الروم فلما وصلت اليه جعل لا يسألنى عن شئ الا أجبته وكانت الرسل لا تطيل الاقامة عنده فحبسنى أياما كثيرة حتى استحببت خروجى فلما اردت الانصراف قال لى من أهل بيت المملكة أنت قلت لا ولكنى رجل من العرب فى الجملة فهمس بشئ فدفعت الىّ رقعة وقيل لى اذا أديت الرسائل عند وصولك الى صاحبك أوصل اليه هذه الرقعة قال فأديت الرسائل عند وصولى الى عبد الملك ونسيت الرقعة فلما صرت فى بعض الدار اذ بدأت بالخروج تذكرتها فرجعت فاوصلتها اليه فلما قرأها قال لى أقال لك شيأ قبل أن يدفعها اليك قلت نعم قال لى من أهل بيت المملكة أنت قلت لا ولكنى رجل من العرب فى الجملة ثم خرجت من عنده فلما بلغت الباب رددت فلما مثلت بين يديه قال لى اتدرى ما فى الرقعة قلت لا قال أقرأها فلما قرأتها فاذا فيها عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره فقلت له والله لو علمت ما حملتها وانما قال هذا لانه لم يرك قال أفتدرى لم كتبها قلت لا قال حسدنى عليك واراد ان يغرينى بقتلك قال فتأدى ذلك الى

ملك الروم فقال ما اردت الا ما قال وذكر عند معاوية عبد الملك فقال هو آخذ بثلاث وتارك لثلاث آخذ بقلب الناس اذا حدث وبحسن الاستماع اذا حدث وبأيسر الامرين اذا خولف تارك للمماراة تارك للغيبة تارك لما يعتذر منه وقال عبد الملك لبعض جلسائه يوما أريد الخلوة بك فلما خلا به قال له عبد الملك بشرط ثلاث خصال لا تطرنفسي عندك فأنا أعلم بها منك ولا تغتب عندي أحدا فلست اسمع منك ولا تكذبني فلا رأي لمكذب قال أتأذن في الانصراف قال اذا شئت وذكر الهيثم وغيره من الاخباريين أن عبد الملك بلغه عن عامل من عماله أنه قبل الهدايا فأشخصه اليه فلما دخل عليه قال له أقبلت هدية منذ وليت قال يا أمير المؤمنين بلادك عامرة وخراجك موفور وعيتك على أفضل حال قال أجب فيما سألتك عنه اقبلت هدية منذ وليتك قال نعم قال ان كنت قبلت ولم تعوض انك للئيم وائن كنت أنت مهديها من غير مالك أو استكفيته مالم يكن مثله مستكفاه انك لخائن جائر وفيما أتيت أمر لا تخلو فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع وأمر بصرفه عن عمله (حدث) المنقري عن الضبي قال قال الوليد بن اسحاق قال قال ابن عباس كانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية وأمها أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر تحت عبد الملك بن مروان فغضبت عليه فطلب رضاها بكل شئ فأبت عليه وكانت أحب الناس اليه فشكا ذلك الى خاصته فقال له عمرو بن بلال رجل من بني أسد كان قد تزوج بنت زنباع الجذامي مالي عليك ان ارضيتها قال أحكمك فخرج وجلس ببابها يبكي فقالت خاصتها مالك أبا حفص قال فزعت الى ابنة عمي فاستأذنوا لي عليها فاذنت له وبينهما ستر فقال قد عرفت حالي مع أمراء المؤمنين معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك ولم يكن لي غير ابنين فعدا أحدهما على الآخر فقتله فقال أمير المؤمنين انا قاتل المتعدي قلت له انا ولي الدم وقد عفوت فأبى علي وقال ما أحب أن اعود رعيتي هذا وهو قاتله بالغداة فانشدك الله الا ما طلبته منه فقالت لا أكلمه قال ما أظنك تكسبين شيأ هو أفضل من احياء نفس ولم يزل خواصها وخدمها وحاشيتها حتى قالت علي بثيابي فلبست وكان بينها وبين عبد الملك باب وكانت قد ردمته فأمرت بفتحه ثم دخلت فاقبل الخصي يشتد فقال يا أمير المؤمنين هذه عاتكة قال ويلك ورأيتها قال نعم اذ طلعت وعبد الملك على سريره فسلمت فسكت فقالت أما والله لولا مكان عمرو بن بلال ما أتيتك آلله أن عدا أحد ابنيه على الآخر فقتله وهو ولي الدم وقد عفا أعزمت لتقتلنه قال اي والله وهو راغم فأخذت بيده فأعرض عنها فأخذت برجله فقبلتها فقال هو لك وتراضيا بعد أن نكبها ثلاثا وراح عبد الملك فجلس مجلسه للخاصة فدخل عمرو بن بلال فقال له يا أبا حفص ألطفت الحيلة في القيادة ولك الحكم فقال يا أمير المؤمنين ألف دينار ومزرعة بما فيها من الآلات والرقيق قال هي لك قال وفرائض لولدي وأهل بيتي قال وذلك كله وبلغ عاتكة الخبر فقالت ويلي على القواد انما خدعني وكتب عبد الملك الى الحجاج أن صف لي الفتنة فكتب اليه ان الفتنة ليست بالنجوى وتخص بالشكوى وتنتج بالخطب فكتب اليه انك قد أصبت وأحسنت الصفة فان أردت أن يستقيم لك من قبلك فخذهم بالجماعة وأعطهم عطاء الفرقة والصق بهم الحاجة (وحدثنا) المنقري قال حدثنا أبو الوليد الصباح بن الوليد قال حدثنا

ابورياش

ابو رياش عتبة بن نعامة عن مقلس بن سابق الدمشقى ثم السكسكى أن عبد الملك لما بلغه خلع ابن الاشعث صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان أهل العراق استعجلوا قدرى قبل انقضاء أجلى اللهم لا تسلطنا على من هو خير منا ولا تسلط علينا من نحن خير منه اللهم سلط سيف أهل الشام على أهل العراق حتى يبلغ رضاك فاذا بلغه فلا تجاوز سخطك وكتب عبد الملك الى الحجاج أنت سالم فلم يعرف ما أراد بذلك فكتب الى قتيبة يسأله عن ذلك وبعث الكتاب مع رسول فلما ورد الى قتيبة وناوله الكتاب ضرط الرسول فخجل واستحى فقر أقتيبة وأراد أن يقول له اقعد فقال أضرط قال قد فعلت فاستحى قتيبة وقال ما أردت الا أن أقول لك اقعد فغلطت فقال قد غلطت أنا وغلطت أنت قال قتيبة ولا سواء أغلط انا من فى وتغلط أنت من استك أعلم أمير المؤمنين أن سالما كان عبد الرجل وكان عنده أسيرا وكان يسعى به اليه كثيرا فقال

يديروننى عن سالم وأديرهم * وجلدة بين العين والانف سالم

فأراد عبد الملك انك عندى بمنزلة سالم فلما أتى الحجاج بالرسالة كتب له عهدا على خراسان وقد حكى نحو هذا الخبر عن رجل كان فى مجلس خالد بن عبد الله القسرى فضرط فلما حضر الغداء قام ذلك الرجل فقال له خالد اقعد فأبى فقال له أقسمت عليك لتضرطن قال قد ضرطت فخجل خالد واعتذر اليه وأمر له بمال وأهدى الى عبد الملك أترسة محلاة بالدر والياقوت فأعجبته وعنده جماعة من خاصته وأهل خلوته فقال لرجل من جلسائه اسمه خالد اغمز منها ترسا وأراد ان يمتحن صلابته فقام فغمزه فضرط فاستضحك عبد الملك فضحك جلساؤه فقال كم دية الضرطة فقال بعضهم أربعمائة درهم وقطيفة فأمر له بذلك فانشأ يقول رجل من القوم

أيضرط خالد من غمز ترس * ويحبوه الامير بها بدورا
فيالك ضرطة جلبت غناء * ويالك ضرطة أغنت فقيرا
يودّ الناس لو ضرطوا فنالوا * من المال الذى أعطى عشيرا
ولو نعلم بان الضرط يغنى * ضرطنا أصلح الله الاميرا

فقال عبد الملك أعطوه أربعة آلاف درهم ولا حاجة لنا فى ضراطك (وحدث) أحمد بن سعيد الدمشقى والطوسى وغيرهما فى كتاب الاخبار المعروف بالموقعيات عن الزبير بن بكار قال حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن يزيد بن عتبة بن أبى لهب قال حج عبد الملك فى بعض أعوامه فأمر للناس بالعطاء فخرجت بدرة مكتوب عليها من الصدقة فأبى أهل المدينة من قبولها وقالوا انما كان عطاؤنا من الفىء فقال عبد الملك وهو على المنبر يا معشر قريش مثلنا ومثلكم أن أخوين فى الجاهلية خرجا مسافرين فنزلا فى ظل شجرة تحت صفاة فلما دنا الرواح خرجت اليهما من تحت الصفاة حية تحمل دينارا فألقته اليهما فقالا ان هذا لمن كنز فأقاما عليها ثلاثة أيام كل يوم تخرج اليهما دينارا فقال أحدهما لصاحبه الى متى ننتظر هذه الحية ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه فنهاه أخوه وقال ما ندرى لعلك تعطب ولا تدرك المال فأبى عليه وأخذ فأسا معه ورصد الحية حتى خرجت فضربها ضربة جرحت

رأسها ولم تقتله فثارت الحية فقتلته ورجعت الى جحرها فقام أخوه فدفنه وأقام حتى اذا كان من الغد خرجت الحية معصوبا رأسها ليس معها شئ فقال لها يا هذه انى والله مارضيت ما أصابك ولقد نهيت أخى عن ذلك فهل لك ان نجعل الله بيننا أن لا تضريني ولا أضرك وترجعين الى ما كنت عليه قالت الحية لا قال ولم ذلك قالت انى لأعلم أن نفسك لا تطيب لى أبدا وأنت ترى قبر أخيك ونفسى لا تطيب لك أبدا وأنا أذكر هذه الشجة وأنشدهم شعر النابغة

فقالت أرى قبرا تراه مقابلى * وضربة فأس فوق رأسى فاغره

فيا معشر قريش وليكم عمر بن الخطاب فكان فظا غليظا مضيقا عليكم فسمعتم له وأطعتم ثم وليكم عثمان فكان سهلا فعدوتم عليه فقتلتموه وبعثنا عليكم مسلما يوم الحرة فقتلنا كم فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبدا وأنتم تذكرون يوم الحرة ونحن لا نحبكم أبدا ونحن نذكر قتل عثمان (وحدث) المدينى وابن دأب ان روح بن زنباع جليس عبد الملك رأى منه اعراضا وجفوة فقال للوليد بن عبد الملك أما ترى ما أنا فيه من أمير المؤمنين باعراضه عنى بوجهه حتى لقد فغرت السباع بأفواهها نحوى وأهوت بمخاليبها الى وجهى فقال له الوليد احتل له فى حديث تضحكه به كما احتال مرزبان نديم سابور بن ملك فارس قال روح وما كان من خبره مع الملك قال الوليد كان مرزبان هذا من سمار سابور فظهرت له من سابور جفوة فلما علم ذلك تعلم نباح الكلاب وعوى الذئاب ونهيق الحمير وزقاء الديوك وشحيج البغل وصهيل الخيل ومثل هذا ثم توصل الى موضع يقرب من مجلس خلوة الملك وفراشه وأخفى أثره فلما خلا الملك نبح نباح الكلاب فلم يشك الملك أنه كلب فقال الملك ما هذا فعوى عوى الذئاب فنزل الملك عن سريره فنهق نهيق الحمير فمضى الملك هاربا ومضى الغلمان يتبعون الصوت فكلما دنوا منه ترك ذلك الصوت وأحدث صوتا آخر من أصوات البهائم فأجمعوا عنه ثم اجتمعوا فاقتحموا عليه فأخرجوه فلما نظروا اليه قالوا للملك هذا مرزبان المضحك فضحك الملك ضحكا شديدا وقال له ويلك ما حملك على هذا قال ان الله مسخنى كلبا وحمارا وكل خلق لما غضبت على فأمر الملك بالخلع عليه ورده الى مرتبته التى كان فيها وتجدد للملك به سرور فقال روح للوليد اذا اطمأن المجلس بأمير المؤمنين فاسألنى عن عبد الله بن عمر هل كان يمزح أو يسمع مزاحا قال الوليد أفعل وكان ابن عمر صاحب سلامة لا يمزح ولا يعرف شيأ من المزاح فتقدم الوليد وسبقه بالدخول فتبعه روح فلما اطمأن بهما مجلس عبد الملك قال الوليد يا أبا زرعة هل كان ابن عمر يمزح أو يسمع المزاح قال روح حدثنى ابن أبى عتيق ان امرأته عاتكة بنت عبد الرحمن المخزومية هجته فقالت

ذهب الاله بما تعيش به * وثرت عيشك أيما قمر

أنفقت مالك غير محتشم * فى كل زانية وفى خمر

وكان ابن أبى عتيق صاحب غزل وفكاهة فأخذ هذين البيتين فى رقعة وخرج فاذا هو بابن عمر فقال يا أبا عبد الله انظر فى هذه الرقعة وأشر على برأيك فيها فلما قرأها عبد الله استرجع فقال له ما ترى فيمن هجانى بهذا الشعر قال أرى أن تعفو وتصفح قال والله يا أبا عبد الرحمن

لئن لقيته بناحية لا يكلمنه بكلام جيدا فأخذ ابن عمر بخذلة وزعدة وارتعد لونه وقال مالك غضب الله عليك قال ماهو الا ما قلت لك وافترقا فلما كان بعد أيام لقيه فأعرض عنه ابن عمر فقال يا أبا عبد الرحمن اني لقيت صاحب البيتين ونكته فصعق عبد الله بن عمر فلما رأى ماحل به دنا منه وقال له في أذنه انها امرأتي فقبل ما بين عينيه وضحك وقال أحسنت فزدها فضحك عبد الملك حتى فحص برجله وقال له قاتلك الله يا روح ما أطيب حديثك ومد يده اليه فقام اليه روح فأكب عليه وقبل أطرافه وقال يا أمير المؤمنين الذنب فأعتذر ام الملامة فاصبر وأرجو عاقبتها قال لا والله ماذا الشئ تكرهه ثم عاد الى أحسن حالاته (وقد حكى) مثل هذا عن عبد الملك بن مهاهل الهمذاني وكان سميرا لسليمان بن المنصور وكان سليمان قد جفاه فأتاه يوما في قائم الظهيرة واحتدام الهجير فاستأذن فقال له الحاجب ليس هذا بوقت اذن على الامير فقال أعلمه بمكاني فدخل فاستأذن له فقال له سليمان مره يسلم قائما ويخفف فخرج الحاجب فأذن له وأمره بالتخفيف فدخل فسلم قائما ثم قال أصلح الله الامير اني انصرفت بالامس الى نحو منزلي وقد أمسيت فبينا أنا في طريقي اذ أذن مؤذن فدنوت ثم صعدت الى مسجد مغلق فصعدت ثم صعدت ثم صعدت قال سليمان فبلغت السماء فكان ماذا قال فتقدم انسان اما كردي أو طمطاني فأم القوم بكلام ما أفهمه ولغة ما أعرفها فقال ويل لكل ومة رمأ مالا وعدّه قال يريد ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده فاذا خلفه سكران ما يعقل سكرا فلما سمع قراءته ضرب بيديه ورجليه وجعل يقول أيرعنكي درلبلكي في حرأم قارئك ومصليك فضحك سليمان حتى تمرغ على فراشه وقال ادن مني يا أبا محمد فأنت أطيب أمة محمد ثم دعا بخلعة وقال الزم الباب واغد في كل يوم وعاد الى أحسن حالاته عنده

* (ذكر جمل من أخبار الحجاج وخطبه وما كان منه في بعض أفعاله) *

كانت أم الحجاج عند الحارث بن كلدة فدخل عليها في السحر فوجدها تتخلل فبعث اليها بطلاقها فقالت لم بعثت الي بطلاقي ألشئ رابك مني قال نعم دخلت عليك السحر وأنت تتخللين فان كنت بادرت الغداء فأنت شرهة وان كنت بت والطعام بين اسنانك فأنت قذرة فقالت كل ذلك لم يكن لكني تخللت من شظايا السواك فتزوجها بعده يوسف ابن عقيل الثقفي أبو الحجاج فولدت له الحجاج بن يوسف مشوّها لا دبر له فنقب عن دبره وأبى ان يقبل ثدي أمه وغيرها فأعياهم أمره فيقال ان الشيطان تصوّر لهم في صورة الحارث ابن كلدة فقال ما خبركم فقالوا بني ولد ليوسف من الفارعة وكان اسمها وقد أبى ان يقبل ثدي أمه فقال اذبحوا جديا أسود وأولغوه دمه فاذا كان في اليوم الثاني فافعلوا به كذلك فاذا كان في اليوم الثالث فاذبحوا له تيسا أسود واولغوه دمه ثم اذبحوا له أسود سالخا فأولغوه دمه واطلوا به وجهه فانه يقبل الثدي في اليوم الرابع قال ففعلوا به ذلك فكان بعد لا يصبر عن سفك الدماء لما كان منه في بدء أمره هذا . وكان الحجاج يخبر عن نفسه ان أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب امور لا يقدم عليها غيره ولا سبق اليها سواه (حدثنا) أبو جعفر محمد بن سليمان بن داود البصري المنقري قال حدثني ابن

عائشة وغيره قال سمعت أبي يقول لما غلبت الخوارج على البصرة بعث اليهم عبد الملك جيشا فهزموه ثم بعث اليهم آخر فهزموه فقال من للبصرة والخوارج فقيل له ليس لهم الا المهلب بن أبي صفرة فبعث الى المهلب فقال على أن لى خراج ما أجليتهم عنه قال اذن تشركني في ملكي قال فثلثاه قال لا قال فنصفه والله لا أنقص منه شيأ على ان تمدني بالرجال فاذا أحللت فلا حق لك على فجعلوا يقولون ولى عبد الملك على العراق رجلا ضعيفا وجعل يقول بعثت المهلب حتى يحارب الخوارج فركب دجلة ثم كتب المهلب الى عبد الملك انه ليس عندى رجال أقاتل بهم فاما بعثت الى بالرجال وأما خليت بينهم وبين البصرة فخرج عبد الملك الى أصحابه فقال ويلكم من للعراق فسكت الناس وقام الحجاج فقال أنا لها قال اجلس ثم قال ويلكم من للعراق فصمتوا وقام الحجاج وقال أنا لها قال اجلس ثم قال ويلكم من للعراق فصمتوا وقام الحجاج الثالثة فقال والله أنا لها يا أمير المؤمنين قال أنت زنبورها فكتب اليه عهده فلما بلغ القادسية أمر الجيش أن يقيلوا وان يروحوا وراءه ودعا بجمل عليه قتب فجلس عليه بغير خشبة ولا وطاء وأخذ الكتاب بيده ولبس ثياب السفر وتعمم بعمامته حتى دخل الكوفة وحده فجعل ينادى الصلاة جامعة وما منهم رجل جالس في مجلسه الا ومعه العشرون والثلاثون وأكثر ذلك من أهله ومواليه وصعد المنبر متلثما متنكبا قوسه فجلس واضعا ابهامه على فيه فقال بعضهم لبعض قوموا حتى نحصبه قال له بعض أهل بيته أصلحك الله اكفف عن الرجل حتى نسمع ما يقول فمن قائل يقول حصر الرجل فما يقدر على الكلام ومن قائل يقول أعرابي ما أبصر حجته فلما غص المجلس بأهله حسر اللثام عن وجهه ثم قام ونحى العمامة عن رأسه فوالله ما حمد الله ولا أثنى عليه ولا صلى على نبيه وكان أول ما بدأهم به أن قال

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا * متى أضع العمامة تعرفوني

انى والله لأرى أبصارا طامحة وأعناقا متطاولة ورؤسا قد أينعت وحان قطافها وانى أنا صاحبها كأنى أنظر الى الدماء ترقرق بين العمام واللحى

هذا أوان الحرب فاشتدى زيم * قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعى ابل ولا غنم * ولا بجزار على ظهر وضم

وقال

قد لفها الليل بعصلبى * أروع خراج من الدوى
مهاجر ليس بأعرابي

وقال

قد شمرت عن ساقها فكدوا * وجدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر عربد * مثل ذراع البكر أو أشد

ان أمير المؤمنين نثر كنانته فوجدنى أمرها طعما واحدها سنانا وأقواها قدحا فان تستقيموا تستقم لكم الامور وان تأخذوا الى بنيات الطريق تجدونى لكل مرصد مرصدا والله لا أقيل لكم عثره ولا أقبل منكم عذره يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق

ومساوى الاخلاق والله ما أغمز تغماز التين ولا يقعقع لى بالشنان ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة والله لالحونكم لحو العود ولاعصبنكم عصب السلمة ولاضربنكم ضرب غراب الابل ولاقرعنكم قرع المروة يا أهل العراق طال ماسعيتم فى الضلالة وسلكتم سبيل الغواية وسننتم سنن السوء وتماديتم فى الجهالة ياعبيد العصا وأولاد الاماء أنا الحجاج ابن يوسف أنا والله لا أعد الا وفيت ولا أحلف الا بررت فاياكم وهذه الزرافات والجماعات وقال وقيل وما يكون وما هو كائن وما أنتم وذاك يا بنى اللكيعة لينظر الرجل فى أمر نفسه وليحذر أن يكون من فرائسى يا أهل العراق انما مثلكم كما قال الله عز وجل كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف الآية فأسرعوا واستقيموا واعتدلوا ولا تميلوا وشايعوا وبايعوا واصغوا واعلموا انه ليس منى الاكثار والاهذار ولا منكم الفرار والنفار انما هو انتضاء السيف ثم لا أغمده فى شتاء ولا صيف حتى يقيم الله لامير المؤمنين أودكم ويذل به صعبكم انى نظرت فوجدت الصدق مع البر ووجدت البر فى الجنة ووجدت الكذب مع الفجور ووجدت الفجور فى النار ألا أن أمير المؤمنين أمرنى باعطائكم واشخاصكم الى محاربة عدوكم مع المهلب وقد أمرتكم بذلك وأجلت لكم ثلاثا وأعطيت الله عهدا يؤاخذنى به ويستوفيه منى أن لا أجد أحدا من بعث المهلب بعدها الا ضربت عنقه وانتهبت ماله ياغلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقال الكاتب بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين الى من بالعراق من المؤمنين والمسلمين سلام عليكم فانى أحمد الله اليكم فقال الحجاج اسكت ياغلام ثم قال مغضبا يا أهل العراق والنفاق والشقاق ومساوى الاخلاق يا أهل الفرقة والضلال يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه السلام أما والله لئن بقيت لكم لالحونكم لحو العود ولأؤدبنكم أدبا سوى هذا الادب هذا ادب ابن سمية وهو صاحب شرطة كان بالعراق اقرأ ياغلام الكتاب فلما بلغ السلام قال أهل المسجد وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته ثم نزل وأمر للناس باعطائهم والمهلب يومئذ بمهرجان يقاتل الازارقة فلما كان اليوم الثالث جلس الحجاج بنفسه يعرض الناس فقربه عمير بن ضابئ البرجمى ثم أحد بنى الحدادية وكان من اشراف أهل الكوفة وكان من بعث المهلب فقال أصلح الله الامير انى شيخ كبير زمن عليل ضعيف ولى عدة أولاد فليختر الامير أيهم شاء مكانى أشدهم ظهرا وأكرمهم فرسا وأتمهم أداة قال الحجاج لا بأس بشاب مكان شيخ فلما ولى قال له عنبسة بن سعيد ومالك بن اسماء اصلح الله الامير أتعرف هذا قال لا قال هو عمير بن ضابئ التميمى الذى وثب على أمير المؤمنين عثمان وهو مقتول فكسر ضلعا من أضلاعه فقال انه كان حبس أبى شيخا كبيرا ضعيفا فلم يطاقه حتى مات فى سجنه فقال الحجاج أما أمير المؤمنين عثمان فتغزوه بنفسك وأما الازارقة فتبعث اليهم بالبدل أوليس أبوك الذى يقول

همت ولم أفعل وكدت وليتنى * فعلت وأوليت البكاء حلائله

أما والله أن فى قتلك أيها الشيخ لصلاح المصرين ثم أقبل يصعد بصره اليه ويعض على لحيته مرة ويسرحها أخرى ثم اقبل عليه فقال ياعمير سمعت مقالتى على المنبر فقال نعم قال والله انه لقبيح

يشكي أن يكون كذابا قم اليه يا غلام فاضرب عنقه ففعل فلما قتل ركب الناس كل صعب وذلول وخرجوا على وجوههم يريدون المهلب فازدحموا على الجسر حتى سقط بعض الناس في الفرات فأتاه صاحب الجسر فقال أصلح الله الامير قد سقط بعض الناس في الفرات قال ويحك ولم ذلك قال أهل هذا البعث ازدحموا على الجسر حتى ضاق بهم قال انطلق فاعقد لهم جسرين وخرج عبد الله بن الزبير الاسدى مذعورا حتى اذا كان عند الجامين لقيه رجل من قومه يقال له ابراهيم فقال له ما الخبر فقال ابن الزبير الشر الشر قتل عمير من بعث المهلب وأنشا يقول

اقول لابراهيم لما لقيته * ارى الامر أمسى مهلكا متصعبا
تجهز فاما أن تزور ابن ضابئ * عميرا واما ان تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما * ركوبك حيرانا من البلج أشهبا
فأضحى ولو كانت خراسان دونه * رآها مكان السوق أوهو أقربا
والا فا الحجاج مغمد سيفه * مدى الدهر حتى يترك الطفل أشيبا

وخرج الناس هربا الى السواد وأرسلوا الى أهاليهم أن زودونا ونحن بمكاننا وقال الحجاج لصاحب الجسر افتح ولا تحل بين أحد وبين الخروج ووجه العراض الى المهلب فاتت على المهلب عاشرة حتى ازدحموا عليه فقال من هذا الذى استعمل على العراق من هذا الذى ذكر الرجال فويل والله للعدو ان شاء الله تعالى وقد كان الحجاج استعمل عبد الرحمن بن محمد ابن الاشعث على سجستان وبست والرخج فحارب من هنالك من امم الترك وهم أنواع من الترك يقال لهم الطغرغر والخلج وحارب من يلى تلك البلاد من ملوك الهند مثل زنبيل وغيره وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب مراتب ملوك الهند وغيرهم من ملوك العالم وذكرنا مملكة كل واحد منهم والصقع الذى هو به وذوى السياسات منهم وبينا أن كل ملك يلى هذا الصقع من بلاد الهند يقال له زنبيل فخلع ابن الاشعث طاعة الحجاج وصار الى بلاد كرمان فشى بخلع عبد الملك وانقاد الى طاعته أهل الرى والجبال من ما بين الكوفة والبصرة وغيرهما وسار الحجاج الى البصرة وسار ابن الاشعث اليه فكانت له حروب عظيمة وفى عبد الرحمن بن الاشعث يقول

خلع الملوك وسار تحت لوائه * شجر العرى وعراعر الاقدام

وكتب الحجاج بن يوسف الى عبد الملك يعلمه بخبر ابن الاشعث فكتب اليه عبد الملك لعمرى لقد خلع طاعة الله بيمينه وسلطانه بشماله وخرج من الدين عريانا وانى لارجو أن يكون هلاكه وهلاك أهل بيته واستيصالهم فى ذلك على يد أمير المؤمنين وما جوابه عندى فى خلع الطاعة الاقول القائل

أناة وحلما وانتظارا بهم غدا * فما انا بالفانى ولا الضرع الغمر
أظن صروف الدهر بينى وبينكم ستحملكم منى على مركب وعر
ألم تعلموا أنى تخاف عزائمى * وان قناتى لاتلين على الكسر

ودخل ابن الاشعث الكوفة وكتب الحجاج كتابا الى عبد الملك يذكر فيه جيوش ابن الاشعث

وكثرتها

وكثرتها ويستنجد عبد الملك ويسأله الامداد وقال في كتابه واغوثاه يا ألله واغوثاه يا ألله واغوثاه يا ألله فأمده بالجيوش وكتب اليه بالبيك بالبيك يا لبيك يا لبيك فالتقى الحجاج وابن الاشعث بالموضع المعروف بدير الجماجم فكانت بينهم وقائع نيف وثمانون وقعة تفانى فيها خلق وذلك في سنة اثنتين وثمانين وكانت على ابن الاشعث فمضى حتى انتهى الى ملوك الهند ولم يزل الحجاج يحتال في قتله حتى قتل وأتى برأسه فعلا الحجاج منبر الكوفة فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ثم قال يا أهل العراق ان الشيطان استبطنكم فخالط اللحم منكم والعظم والاطراف والاعضاء وجرى منكم مجرى الدم وأفضى الى الاضلاع والامخاخ فحشى ماهناك شقاقا واختلافا ونفاقا ثم أربع فيه فعشش وباض فيه ففرخ واتخذتموه دليلا تتابعونه وقايدا تطاوعونه ومأمرا تستأمرونه السم اصحابي بالاهواز حين سعيتم بالغدر بي فاستجمعتم على وحيث ظننتم أن الله سيخذل دينه وخلافته وأقسم بالله أني لا أراكم بطارقي وأنتم تتسللون لواذا منهزمين سراعا مفترقين كل امرئ منكم على عنقه السيف رعبا وجبنا ويوم الزاوية وما يوم الزاوية بها كان فشلكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم وتوليكم على اكتافكم السيوف هاربين لا يسأل الرجل عن بنيه ولا يلوى امرؤ على اخيه حين عض لكم السلاح وقصفتكم الرماح ويوم دير الجماجم بها كانت الملاحم والمعارك العظائم.

ضرب يزيل الهام عن مقيله * ويذهل الخليل عن خليله

فما الذي ارجوه منكم يا أهل العراق ام ما الذي أتوقعه ولماذا استبقيكم ولأي شئ ادخركم ألفجرات بعد الغدوات أم للنزوة بعد النزوات وما الذي اراقب بكم وما الذي انتظر فيكم أن بعثتم الى ثغوركم جبنتم وأن امنتم أو خفتم نافقتم لا تجزون بحسنة ولا تشكرون نعمة يا أهل العراق هل استنبحكم نابح أو استشلاكم عاق أو استخفكم ناكث أو استنفركم عاص الا تابعتموه وبايعتموه وآويتموه وكنفتموه يا أهل العراق هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو دبى كاذب الا كنتم أنصاره واشياعه يا أهل العراق لم ينفعكم التجارب وتحفظكم المواعظ أو تعظكم الوقائع هل يجمع في صدوركم ما أوقع الله بكم عند مصادر الامور ومواردها يا أهل الشأم أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفى عنهن القذى ويبعدهن من المطر ويحفظهن من الذباب ويحميهن من سائر الدواب لا يخلص اليهن معه قذى ولا يفضى اليهن بذاء ولا يمسهن اذى يا أهل الشام أنتم العدة والعدد والجند والحرب ان حارب محارب أو جانب مجانب وما أنتم وأهل العراق الا كما قال نابغة بني جعدة

وأن تداعيكم حظهم * ولم ترزقوه ولم نكذب

كقول اليهود قتلنا المسيح * ولم يقتلوه ولم يصلب

في أبيات ولما أسرف الحجاج في قتل أسارى دير الجماجم وأعطى الاموال بلغ ذلك عبد الملك فكتب اليه أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء وتبذيرك في الاموال ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء في الخطا الدية وفي العمد القود وفي الاموال ردها الى مواضعها ثم العمل فيها برايه فانما أمير

المؤمنين امين الله وسيان عنده منع حق واعطاء باطل فان كنت أردت الناس له فما أغناهم عنك وان كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران لين وشدة فلا يؤنسنك الا الطاعة ولا يوحشنك الا المعصية وظن بامير المؤمنين كل شئ الا احتماله على الخطا واذا أعطاك الظفر على قوم فلا تقتلن جانحا ولا اسيرا وكتب فى أسفل كتابه

اذا أنت لم تطلب امورا كرهتها * وتطلب رضاى بالذى أنت طالبه
وتخشى الذى يخشاه مثلى هاربا * الى الله منه ضيع الدر حالبه
فان ترمنى غفلة قرشية * فيا ربما قد غص بالماء شاربه
وان ترمنى وثبة أموية * فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلا تلمنى والحوادث جمة * فانك تجزى بما أنت كاسبه
ولا تعد ما يأتيك منى وان تعد * يقوم بها يوما عليك نوادبه
ولا تدفعن للناس حقا علمته * ولا تعطين ماليس لله جانبه

وهى ابيات من جيد ما اخترناه من قول عبد الملك فلما قرأ الحجاج كتابه كتب أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفى فى الدماء وتبذيرى فى الاموال ولعمرى ما بلغت فى عقوبة أهل المعصية ماهم أهله وما قضيت حق أهل الطاعة بما استحقوه فان كان قتلى اولئك العصاة سرفا واعطاى أولئك المطيعين تبذيرا فليسوغنى أمير المؤمنين ما سلف وليحد لى فيه حدا انتهى اليه ان شاء الله تعالى ولا قوة الا بالله ووالله ما على من عقل ولا قود ما أصبت القوم خطأ فأفديهم ولا اعطيتهم الا لك ولا قتلت الا فيك وأما ما انا منتظره من أمريك فالينهما عدة واعظمهما محنة فقد عبأت للعدة الجلاد وللمحنة الصبر وكتب فى أسفل كتابه

اذا أنا لم أتبع رضاك وأتقى * أذاك فيومى لا تزول كواكبه
ومالامرئ بعد الخليفة جنة * تقيه من الامر الذى هو كاسبه
أسالم من سالمت من ذى قرابة * ومن لم تسالمه فانى محاربه
اذا قارف الحجاج منك خطيئة * فقامت عليه فى الصباح نوادبه
اذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه * وأقصى الذى تسرى الى عقاربه
فمن ذا الذى يرجو نوالى ويتقى * مصاولتى والدهر جم نوائبه
فقف بى على حد الرضى لا أجوزه * مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبه
والا فدعنى والامور فاننى * شفيق رفيق أحكمتنى تجاربه

وهى ابيات من جيد ما اخترناه من شعر الحجاج فلما انتهى كتابه الى عبد الملك قال خاف أبو محمد صولتى ولن أعود لشئ يكرهه (وحدث) حماد الراوية أن الحجاج سهر ليلة بالكوفة فقال لحرسى ائتنى بمحدث من المسجد فاعترض رجلا جسيما عظيما فقال اجب الامير فانطلق به حتى ادخله اليه فلم يسلم ولا نطق حتى قال له الحجاج ايه ما عندك فقال له الرجل ايه ما عندك فقال للحرسى أخرجه أخرج الله نفسك أمرتك أن تأتينى بمحدث فاتيتنى بمرعوب قد ذهب فؤاده فخرج الحجاج ومعه صرة دراهم الى المسجد فجعل يناول الناس فياخذونها حتى

انتهى

انتهى الى شيخ فأعطاه فنبذها فاعادها الحجاج فردّها ففعل ذلك الحجاج ثلاثا فقد نامنه الحجاج وقال انا الحجاج ودخل القصر وقال للعرسي الحقني به فدخل فسلم بلسان ذلق وقلب شديد فقال له الحجاج ممن الرجل فقال من بني شيبان قال ما اسمك قال سبرة بن الجعد قال ياسبرة هل قرأت القرآن قال جمعته في صدري وان عملت به فقد حفظته وان لم أعمل به فقد ضيعته قال فهل تفرض قال اني لأفرض الصلب وأعرف الاختلاف في الجد قال فهل تبصر الفقه قال اني لأبصر ما أقوم به أهلي وأرشد ذا العمى من قومي قال فهل تعرف النجوم قال اني لأعرف منازل القمر وما أهتدي به في السفر قال فهل تروي الشعر قال اني لأروي المثل والشاهد قال المثل قد عرفناه فما الشاهد قال اليوم يكون للعرب من أيامها عليه شاهد من الشعر فاني اروي ذلك الشاهد فاتخذه الحجاج سميرا فلم يك يطلب شيأ من الحديث الا وجد عنده منه علما وكان يرى رأي الخوارج من اصحاب قطري بن الفجاءة التميمي والفجاءة امه وكانت من بني شيبان وانما هو رجل من تميم وكان قطري يومئذ يحارب المهلب فبلغ قطريا مكان سبرة من الحجاج فكتب اليه بأبيات منها

لشتان ما بين ابن جعد وبيننا * اذا نحن رحنا في الحديد المظاهر
نجاهد فرسان المهلب كلنا * صبور على وقع السيوف البواتر
وراح يجر الخز عند أميره * أمير بتقوى ربه غير آمر
أبا الجعد أين العلم والحلم والنهى * وميراث آباء كرام العناصر
ألم تر أن الموت لا شك نازل * ولا بدّ من بعث الاولى في المقابر
حفاة عراة والتراب لديهم * فمن بين ذي ربح وآخر خاسر
فان الذي قد نلت يفنى وانما * حياتك في الدنيا كوقعة طائر
فراجع أبا جعد ولا تك مغضبا * على ظلمة أعشت جميع النواظر
وتب توبة تهدي اليك شهادة * فانك ذو ذنب ولست بكافر
وسر نحونا تلق الجهاد غنيمة * تفدك ابتياعا رابحا غير خاسر
هي الغاية القصوى الرغيب ثوابها * اذا نال في الدنيا الغنى كل تاجر

فلما قرأ كتابه بكى وركب فرسه وأخذ سلاحه ولحق بقطري وطلبه الحجاج فلم يقدر عليه ولم يرع الحجاج الا وكتاب قد بدر منه فيه شعر قطري الذي كان كتب به اليه وفي اسفل الكتاب الى الحجاج ابيات منها

فمن مبلغ الحجاج أن سميره * قلا كل دين غير دين الخوارج
رأى الناس الا من رأى مثل رأيه * ملاعين تراكين قصد المخارج
فاقبلت نحو الله بالله واثقا * وما كربتي غير الاله بفارج
الى عصبة أما النهار فانهم * هم الاسد أسد الغيل عند التهايج
وأما اذا ما الليل جن فانهم * قيام بأنواح النساء النواشج
ينادون للتحكيم تالله انهم * رأوا حكم عمرو كالرياح الهوائج
وحكم ابن قيس مثل ذلك فاعصموا * بحبل شديد المتن ليس بناهج

فطرح الحجاج هذا الكتاب الى عنبسة بن سعيد فقال هذا من سميرنا الشيباني وهو من الخوارج ولا نعلم به ولابي الجعد سيرة بن الجعد سمير الحجاج هذا اشعار كثيرة منها قوله من أبيات

عجبت لحالات البلاء وللدهر * وللحين يأتي المرء من حيث لا يدري
وللناس يأتون الضلالة بعدما * أتاهم من الرحمن نور من البدر
ولله لا يخفى عليه صنيعنا * حفيظ علينا في المقام وفي السفر
علا فوق عرش فوق سبع ودونه * سماء يرى الارواح من دونها تجرى

وقد قيل أن هذا الشعر لغيره من الخوارج ولاصناف الخوارج اخبار حسان من الأزارقة والاباضية وغيرهما قد أتينا على ذكرها في كتابنا أخبار الزمان والاوسط وذكرنا ما اتفقت عليه الخوارج واجتمعت عليه من الاصول من اكفارهم عثمان وعليا والخروج على الامام الجائر وتكفير من ركب الكبائر والبراءة من الحكمين أبي موسى عبد الله بن قيس الاشعري وعمرو بن العاص السهمي وحكمهما والبراءة ممن صوب حكمهما أو رضي به واكفار معاوية وناصريه ومقلديه ومحبيه فهذا ما اتفقت عليه الخوارج من الشراة والحرورية ثم اختلفوا بعد ذلك في مواضع العبارة عن التوحيد والوعد والوعيد والامامة وغير ذلك من آرائهم وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في باب ذكر الحكمين أن أول من حكم بصفين عروة بن أدية التميمي وقيل أن أول من حكم بصفين يزيد بن عاصم المحاربي وقيل ان أول من حكم رجل من بني سعد بن زيد مناة بن تميم وكان أول من شرى بصفين من المحكمة رجل من بني يشكر وكان من وجوه ربيعة ممن كان مع علي فانه حكم في ذلك اليوم قال لا حكم الا لله ولا طاعة لمن عصى الله وخرج عن الصف فحمل على أصحاب علي فقتل منهم رجلا ثم حمل على أصحاب معاوية فتحاموه ولم يقدر على قتل أحد منهم وكر على اصحاب علي فقتله رجل من همدان وقد أتى الهيثم بن عدي وأبو الحسن المدايني وأبو البختري القاضي وغيرهم على أخبار الخوارج واصنافهم فيما افردوه من كتبهم وذكر اصحاب المقالات في الآراء والديانات ما تنازعوا فيه من مذاهبهم وذلك في كتابنا في المقالات في اصول الديانات وذكرنا من خرج منهم من وقت التحكيم في عصر عصر الى آخر من خرج منهم بديار ربيعة على بني حمدان وذلك في سنة ثمان عشرة وثلثمائة وهو المعروف بعرون وخرج ببلاد كفر بيوني وورد الى نصيبين فكانت له مع أهلها حرب آسر فيها وقتل منهم خلق عظيم والمعروف بأبي شعيب خرج في بني مالك وغيرهم من ربيعة وقد كان أدخل على المقتدر بالله وقد كان بعد العشرين والثلثمائة للاباضية ببلاد عمان مما يلي بلاد بروى وغيرها حروب وتحكيم وخروج وامام نصبوه فقتل وقتل من كان معه وفي سنة سبع وسبعين كانت للحجاج حروب مع شبيب الخارجي وولى عنه الحجاج بعد قتل ذريع كان في أصحابه حتى أحصى عددهم بالقصب فدخل الكوفة وتحصن في دار الامارة ودخل شبيب وامه وزوجته غزالة الكوفة عند الصباح وقد كانت غزالة نذرت أن تدخل مسجد الكوفة فتصلي فيه ركعتين تقرأ فيهما سورة البقرة وآل عمران فاتوا الجامع في سبعين رجلا فصلوا به الغداة

وخرجت

وخرجت غزالة مما كانت أوجبته على نفسها فقال الناس بالكوفة فى تلك السنة

وفت الغزالة نذرها * يارب لا تغفر لها

وكانت الغزالة من الشجاعة والفروسية بالموضع العظيم وكذلك ام شبيب وقد كان عبد الملك حين بلغه خبر هرب الحجاج وتحصنه فى دار الامارة بالكوفة من شبيب بعث من الشأم بعساكر كثيرة عليها سفيان بن الابرد الكلبي لقتال شبيب فقدم على الحجاج بالكوفة فخرجوا الى شبيب فحاربوه فانهزم شبيب وقتلت الغزالة وامه ومضى شبيب فى فوارس من أصحابه واتبعه سفيان من أهل الشأم فلحقه بالاهواز فولى شبيب فلما حصل على جسر دجيل نفر به فرسه وعليه الحديد الثقيل من درع ومغفر فالقاه فى الماء فقال له بعض اصحابه أغرقا يا أمير المؤمنين قال ذلك تقدير العزيز العليم فالقاه دجيل ميتا بشطه فحمل على البريد الى الحجاج فامر الحجاج بشق بطنه واستخراج قلبه فاستخرج فاذا هو كالحجر اذا ضربت به الارض نبا عنها فشق فاذا فى داخله قلب صغير كالكرة فشق فاصيب علقة الدم فى داخله وفى سنة اثنتين وثمانين قتل الحجاج ابن القرية لخروجه مع ابن الاشعث وانشائه الكتب له ووضعه الصدور والخطب وكان ابن القرية من البلاغة والعلم والفصاحة بالموضع الموصوف وقد أتينا على خبر مقتله وما كان من كلامه مع الحجاج وقد كان قتله صبرا فى الكتاب الاوسط وأن قتله اياه كان بالسيف وقيل بل قدم اليه فضربه الحجاج بحربة فى نحره فأتى عليه وابن القرية القائل الناس ثلاثة عاقل وأحمق وفاجر فاما العاقل فان الدين شريعته والحلم طبيعته والرأى الحسن سجيته ان نطق أصاب وان كلم أجاب وان سمع العلم وعى وان سمع الفقه روى وأما الاحمق فان تكلم عجل وان حدث ذهل وان حمل على القبيح حمل وأما الفاجر فان استأمنته خانك وان صاحبته شانك وان استكتم لم يكتم وان علم لم يعلم وان حدث لم يصدق وان فقه لم يفقه (وذكر المداينى) أن الحجاج لم يكن يظهر لندمائه منه بشاشة ولا سماحة فى الخلاق الافى يوم دخلت عليه ليلى الاخيلية فقال لها بلغنى أنك مررت بقبر توبة بن الحمير وعدلت عنه فوالله ما وفيت له ولو كان هو بمكانك وأنت بمكانه ماعدل عنك قالت أصلح الله الامير لى عذر قال وما هو قالت سمعته وهو يقول

ولو أن ليلى الاخيلية سلمت * على ودونى جندل وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أوزقا * اليها صدى من جانب القبر صائح

وكان معى نسوة قد سمعن قوله فكرهت أن أكذبه فاستحسن الحجاج قولها وقضى حوائجها وانبسط فى محادثتها فلم ير منه بشاشة وأريحية داخلته مثل ذلك اليوم (وذكر) حماد الراوية غير هذا الوجه وهو أن زوج ليلى حلف عليها وقد اجتاز بقبر توبة ليلا أن تنزل وتأتى وتسلم عليه وتكذبه حيث يقول وذكر البيتين المتقدمين قال وأبت أن تفعل فاقسم عليها زوجها فنزلت حتى جاءت الى القبر ودموعها على صدرها كعزالى السحاب فقالت السلام عليك ياتوبة فلم تستتم النداء حتى انفرج القبر عن طائر كالحمامة البيضاء فضربت صدرها فوقعت ميتة فأخذوا فى جهازها وكفنها ودفنت الى جانب قبره وللعرب فيما ذكرنا كلام كثير على

حسب ماقدمنا فيما سلف من هذا الكتاب فى آرائهم ومذاهبهم فى الهام والصدى والصفر وقد كانت العرب تعقل الى جانب قبر الميت اذا دفن ناقة وتجعل عليه برذعة وخشبة يسمونها البلية وقد ضربوا بذلك أمثالهم وذكره خطباؤهم فى خطبهم فقالوا البلايا على الولايا وقد كان بعضهم يتطير بالسانح ويتيامن بالبارح وبعضهم يضاد هذا فيتطير بالبارح ويتيامن بالسانح فأهل نجد يتيامنون بالسانح وأهل التهايم بالضد من ذلك على حسب ماقدمنا من قول عبيد الراعى فيما سلف من هذا الكتاب (حدثنا) المنقرى قال حدثنا عبد العزيز بن الخطاب الكوفى قال حدثنا فضيل بن مرزوق قال لما غلب بشر بن أرطاة على اليمن وكان من قتله لابنى عبد الله بن العباس وأهل مكة والمدينة ما كان قام على بن أبى طالب رضى الله عنه خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال أن بشر بن أرطاة قد غلب على اليمن والله ما أرى هؤلاء القوم الا سيغلبون على ما فى أيديهم وما ذلك بحق فى أيديهم ولكن بطاعتهم واستقامتهم ومعصيتكم لى وتناصرهم وتخاذلكم واصلاح بلادهم وافساد بلادكم وتالله يا أهل الكوفة لوددت أنى صرفتكم صرف الدنانير العشرة بواحد ثم رفع يديه فقال اللهم انى قد مللتهم وملونى وسئمتهم وسئمونى فابدلنى بهم خيرا منهم وابدلهم بى شرا منى اللهم عجل عليهم بالغلام الثقفى الذيال الميال يأكل خضرتها ويلبس فرويها ويحكم فيها بحكم الجاهلية لا يقبل من محسنها ولا يتجاوز عن مسيئها قال وما كان ولد الحجاج يومئذ (حدثنا) الجوهرى عن سليمان بن أبى شيخ الواسطى عن محمد بن يزيد عن سفيان بن حسين قال سأل الحجاج الجوهرى ما النعمة قال الأمن فانى رأيت الخائف لا ينتفع بعيش قال زدنى قال الصحة فانى رأيت السقيم لا ينتفع بعيش قال زدنى قال الشباب فانى رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش قال زدنى قال الغنى فانى رأيت الفقير لا ينتفع بعيش قال زدنى قال لا أجد مزيدا (حدثنا) الجوهرى عن مسلم بن ابراهيم أبى عمرو الفراهيدى عن الصلت بن دينار قال مرض الحجاج فأرجف أهل الكوفة فلما تماثل من علته صعد المنبر وهو يتثنى على أعواده فقال أن أهل الشقاق والنفاق نفخ الشيطان فى مناخرهم فقالوا مات الحجاج ومات الحجاج فمه والله ما أرجو الخير كله الا بعد الموت وما رضى الله الخلود لاحد من خلقه فى الدنيا الا لأهونهم عليه ابليس والله لقد قال العبد الصالح سليمان بن داود رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى فكان ذلك ثم اضمحل فكأن لم يكن يا أيها الرجل وكلكم ذلك الرجل كأنى بكل حى ميت وبكل رطب يابس وقد نقل كل امرئ بثياب طهره الى حفرته فخدله فى الارض ثلاث اذرع طولا فى ذراعين عرضا فأكلت الارض لحمه ومصت من صديده ودمه وانقلب الحبيبان يقتسم أحدهما صاحبه حبيبه من ولده يقتسم حبيبته من ولده ماله أما الذين يعلمون فسيعلمون ما أقول والسلام (حدثنا) المنقرى عن مسلم بن ابراهيم أبى عمرو الفراهيدى عن الصلت بن دينار قال سمعت الحجاج يقول قال الله تعالى واتقوا الله ما استطعتم فهذه لله وفيها مثنوية وقال واسمعوا واطيعوا وهذه لعبد الله وخليفة الله ونجيب الله عبد الملك أما والله لو أمرت الناس أن يدخلوا فى هذا الشعب فدخلوا فى غيره لكانت دماؤهم لى حلالا لاعذيرى من أهل هذه الحمراء يلقى أحدهم الحجر

الى الارض وتقول الى أن يبلغها يكون فرج الله لا جعلهم كالرسم الداثر وكالأمس الغابر
عذيرى من عبد هذيل يقرأ القرآن كأنه رجز الأعراب أما والله لو ادركته لضربت عنقه
يعنى عبد الله بن مسعود عذيرى من سليمان بن داود يقول لربه رب اغفر لى وهب لى ملكا
لا ينبغى لاحد من بعدى كان والله فيما علمت عبدا حسودا بخيلا (وحدثنا) المنقرى عن عبيد
ابن أبي السرى عن محمد بن هشام بن السائب عن أبيه عن عبد الرحمن بن السائب قال قال
الحجاج يوما لعبد الله بن هانئ وهو رجل من أود حى من اليمن وكان شريفا فى قومه
وقد شهد مع الحجاج مشاهده كلها وشهد معه تحريق البيت وكان من أنصاره وشيعته والله
ما كافأناك بعد ثم أرسل الى اسماء بن خارجة وكان من فزارة أن زوج عبد الله بن هانئ
ابنتك فقال لا ولا كرامة فدعا له بالسياط فقال أنا أزوجه فزوجه ثم بعث الى سعيد بن قيس
الهمدانى رئيس اليمامة أن زوج عبد الله بن هانئ ابنتك قال ومن أود والله لا أزوجه ولا
كرامة قال هاتوا السيف قال دعنى حتى أشاور أهلى فشاورهم فقالوا زوجه لا يقتلك هذا
الفاسق فزوجه فقال له الحجاج يا عبد الله قد زوجتك بنت سيد فزارة وابنة سيد همدان
وعظيم كهلان وما أود هنالك فقال لا تقل اصلح الله الامير ذلك فان لنا مناقب ما هى لاحد
من العرب قال وما هذه المناقب قال ما سب أمير المؤمنين عثمان فى نادلنا قط قال هذه
والله منقبة قال وشهد منا صفين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلا وما شهد مع أبي تراب
منا الا رجل واحد كان والله ما علمته امرأ سوء قال وهذه والله منقبة قال وما منا أحد تزوج
امرأة تحب أبا تراب ولا تولاه قال وهذه والله منقبة قال وما منا امرأة الا نذرت أن قتل
الحسين أن تنحر عشر جزائر لها ففعلت قال وهذه والله منقبة قال وما منا رجل عرض عليه
من أبيه شتم أبي تراب ولعنه الا فعل وقال وازيدكم ابنيه الحسن والحسين وامهما قال وهذه
والله منقبة قال وما أحد من العرب له من الملاحة والصباحة مالنا وضحك وكان دميما شديد
الادمة مجدورا فى رأسه عجر مايل الشدق احول قبيح الوجه مايل الحولة (المنقرى)
عن جعفر بن عمرو الحرضى عن مجدى بن رجاء قال سمعت عمران بن مسلم بن أبي بكر الهذلى
يقول سمعت الشعبى يقول أتى بى الحجاج موثقا فلما دخلت عليه استقبلنى يزيد بن مسلم
فقال انا لله يا شعبى على ما بين دفتيك من العلم وليس بيوم شفاعة بؤ للامير بالشرك وبالنفاق
على نفسك فبالحرى أن تنجو منها فلما دخلت استقبلنى محمد بن الحجاج فقال لى مثل مقالة
يزيد فلما مثلت بين يدى الحجاج فقال وانت يا شعبى فيمن خرج علينا وكثر قلت نعم أصلح الله
الامير أحزن بنا المنزل وأجدب الجناب وضاق المسلك واكتحلنا السهاد واستحلسنا الخوف
ووقعنا فى فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء قال صدق والله ما بروا بخروجهم علينا
ولا قووا اذ فجروا أطلقوا عنه قال الشعبى ثم احتاج الى فريضة فقال ما تقول فى أخت وأم
وجد قلت اختلف فيها خمسة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله وزيد وعلى
وعثمان وابن عباس قال فما قال فيها ابن عباس فلقد كان معنا قلت جعل الجد ابا
واعطى الام الثلث ولم يعط الاخت شيأ قال فما قال فيها عبد الله قلت جعلها من ستة فاعطى
الاخت النصف وأعطى الام السدس وأعطى الجد الثلث قال فما قال فيها زيد قلت جعلها

تسعة فأعطى الام ثلاثة وأعطى الاخت سهمين وأعطى الجد أربعة قال فما قال فيها أمير المؤمنين عثمان قلت جعلها اثلاثا قال فما قال فيها أبو تراب قلت جعلها ستة أعطى الاخت النصف وأعطى الام الثلث وأعطى الجد السدس قال فضرب بيده على أنفه وقال انه المرء يرغب عن قوله (المنقرى) عن أبي عبد الرحمن العتبي عن أبيه قال أراد الحجاج الحج فخطب الناس وقال يا أهل العراق انى قد استعملت عليكم محمدا وبه الرغبة عنكم أما انكم لا تستأهلونه وقد أوصيته فيكم خلاف وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالانصار فانه أوصى أن يقبل عن محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وقد أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم أما انى اذا وليت عنكم انكم تقولون لا أحسن الله له الصحابة وما منعكم من تعجيله الا الفراق وانا أعجل لكم الجواب لا أحسن الله عليكم الخلافة ثم نزل (العتبي) عن عبد الغنى بن محمد بن جعفر عن الهيثم بن عدى عن أبي عبد الرحمن الكنانى عن ابن عباس الهمدانى عن عبيد بن أبي المخارق قال استعملني الحجاج على الفلوجة فقلت أها هنا دهقان يستعان برأيه فقالوا جميل بن صهيب فارسلت اليه فجاءنى شيخ كبير قد سقط حاجباه على عينيه فقال ازعجتني وانا شيخ كبير قلت أردت عونك وبركتك ومشورتك فامر بحاجبيه فرفعا بخرقه حرير وقال ما حاجتك قلت استعملني الحجاج على الفلوجة وهو ممن لا يؤمن شره فأشر على قال أيما أحب اليك رضى الحجاج أو رضى بيت المال أو رضى نفسك قلت ان أرضى كل هؤلاء وأخاف الحجاج فانه جبار عنيد قال فاحفظ عنى أربع خلال افتح بابك ولا يكن لك حاجب فيأتيك الرجل وهو على ثقة من لقائك وهو أجدر أن يخافك عمالك وأطل الجلوس لأهل عملك فانه قلما اطال عامل الجلوس الا هيب مكانه ولا تخاف حكمك بين الناس وليكن حكمك على الشريف والوضيع سواء فلا يطمع فيك أحد من أهل عملك ولا تقبل من أهل عملك هدية فان مهديها لا يرضى من ثوابها الا بأضعافها مع ما فى ذلك من المقالة القبيحة ثم اسلخ ما بين اقفيتهم الى عجوب اذنابهم فيرضوا عنك ولا يكون للحجاج عليك سبيل (المنقرى) عن يوسف بن موسى القطان عن جرير عن المغيرة عن الربيع بن خالد قال سمعت الحجاج يخطب على المنبر وهو يقول اخليفة أحدكم فى أهله أكرم عليه أم رسوله فى حاجته فقلت لله على أن لا أصلى خلفك ابدا ولئن رأيت قوما يجاهدونك لأقاتلنك معهم فقاتل فى دير الجماجم حتى قتل (المنقرى) عن العتبي عن أبيه أن الحجاج وجه الغضبان بن القبعثرى الى بلاد كرمان ليأتيه بخبر ابن الاشعث عند خلعه ففصل من عنده فلما صار ببلاد كرمان ضرب خباءه ونزل فاذا هو باعرابى قد اقبل عليه فقال السلام عليك فقال له الغضبان كلمة مقولة قال له الاعرابى من اين جئت قال من ورائى قال وأين تريد قال أمامى قال وعلام جئت قال على فرسى قال وفيم جئت قال فى ثيابى قال أتاذن لى أن أدن اليك قال وراءك أوسع لك قال والله ما اريد طعامك ولا شرابك قال لا تعرض بهما فوالله لا تذوقهما قال أوليس عندك الا ما أرى قال بلى هراوة من أرزن أضرب بها رأسك قال ان الرمضاء قد أحرقت قدمى قال بل عليهما يبردان قال فكيف ترى فرسى هذا قال أراه خيرا من شر منه وأرى آخر أفره منه قال قد علمت

هذا قال لو علمته ما سألتنى عنه فتركه الاعرابى وولى ثم دخل على عبد الرحمن بن الاشعث فقال ماوراءك يا غضبان قال الشر تغدّ بالحجاج قبل ان يتعشى بك ثم صعد المنبر فخطب بمعائب الحجاج والبراءة منه ودخل ابن الاشعث فى أمره فلم يلبث الا قليلا ثم أسر ابن الاشعث فأخذ الغضبان فيمن أسر فلما أدخل على الحجاج قال يا غضبان كيف رأيت بلاد كرمان قال أصلح الله الامير بلاد ماؤها وشل وثمرها دقل ولصها بطل والخيل بها اضعاف وان كثر الجند بها جاعوا وأن قلوا ضاعوا قال الست صاحب الكلمة الخبيثة تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك قال أصلح الله الامير ما نفعت من قيلت له ولا ضرّت من قيلت فيه قال لأقطعن يديك ورجليك من خلاف ثم لاصلبنك قال لا أرى الامير أصلحه الله يفعل ذلك فأمر به فقيد والقى فى السجن فاقام به حتى بنى الحجاج خضراء واسط فلما استتم بناؤها جلس فى صحنها وقال كيف ترون قبتى هذه قالوا ما بنى لخلق قبلك مثلها قال فان فيها مع ذلك عيبا فهل فيكم مخبرى به قالوا والله ما نرى بها عيبا فأمر باحضار الغضبان فأتى به يرسف فى قيوده فلما دخل عليه قال له الحجاج أراك يا غضبان سمينا قال أيها الامير القيد والرتعة ومن يكن ضيف الامير يسمن قال فكيف ترى قبتى هذه قال أرى قبة ما بنى لأحد مثلها الا أن بها عيبا فان أمننى الامير أخبرته به قال قل آمنا قال بنيت فى غير بلدك لغير ولدك لا تتمتع به ولا تنعم فالمال لا يتمتع فيه من طيب ولا لذة قال ردّوه فانه صاحب الكلمة الخبيثة قال أصلح الله الامير ان الحديد قد أكل لحمى وبرى عظمى فقال احملوه فلما استقل به الرجال قال الحمد لله الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين قال أنزلوه فلما استوى على الارض قال اللهم أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين قال جرّوه فلما جرّوه قال بسم الله مجراها ومرساها ان ربى لغفور رحيم قال أطلقوا عنه (المنترى) عن عبد الله ابن محمد بن حفص التميمى عن الحسين بن عيسى الحنفى قال لما هلك بشر بن مروان وولى الحجاج العراق بلغ ذلك أهل العراق فقام الغضبان بن القبعثرى الشيبانى بالمسجد الجامع بالكوفة خطيبا فحمد الله واثنى عليه ثم قال يا أهل العراق ويا أهل الكوفة ان عبد الملك قد ولى عليكم من لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم الظلوم الغشوم الحجاج ألا وان لكم من عبد الملك منزلة بما كان منكم من خذلان مصعب وقتله فاعترضوا هذا الخبيث فى الطريق فاقتلوه فأن ذلك لا يعد منكم خلعا فانه متى يعلوكم على متن منبركم وصدر سريركم وقاعة قصركم ثم قتلتموه عدّ خلعا فاطيعونى وتغدوا به قبل أن يتعشى بكم فقال له أهل الكوفة جبنت يا غضبان بل ننتظر سيرته فان رأينا منكرا غيرناه قال ستعلمون فلما قدم الحجاج الكوفة بلغته مقالته وأمر به فاقام فى حبسه ثلاث سنين حتى ورد على الحجاج كتاب من عبد الملك يأمره أن يبعث اليه بثلاثين جارية عشر من النجائب وعشر من قعد النكاح وعشرا من ذوات الاحلام فلما نظر الى الكتاب لم يدر ما وصفه من الجوارى فعرضه على أصحابه فلم يعرفوه فقال له بعضهم أصلح الله الامير ينبغى أن يعرف هذا من كان فى أوليته بدويا فله معرفة أهل البدو ثم غزا فله معرفة أهل الغزو ثم شرب الشراب فله بداء أهل الشراب قال وأين هذا قيل فى حبسك قال ومن هو قيل الغضبان الشيبانى فاحضر فلما مثل بين يديه قال أنت القائل لاهل الكوفة يتغدون بى قبل أن أتعشى بهم قال أصلح الله الامير ما نفعت من قالها

ولا ضرت من قبلت فيه قال ان أمير المؤمنين كتب الى كتابا لم أدر ما فيه فهل عندك شئ منه قال يقرأ علي فقرئ عليه فقال هذا بين قال وما هو قال أما النجيبة من النساء فالتي عظمت هامتها وطال عنقها وبعد ما بين منكبيها وثدييها واتسعت راحتها وثخنت ركبتها فهذه اذا جاءت بالولد جاءت به كالليث وأما قعد النكاح فهن ذوات الاعجاز منكسرات الثدى كثيرات اللحم يقرب بعضهن من بعض فاولئك يشفين القرم ويروين الظما آن وأما ذوات الاحلام فبنات خمس وثلاثين الى الاربعين فتلك التي تبسه كما تبس الحالب الناقة فتستخرجه من كل شعر وظفر وعرق قال الحجاج أخبرني بشر النساء قال أصلح الله الامير شرهن الصغيرة النقبة الجديدة الركبة السريعة الوثبة الواسطة في نساء الحي التي اذا غضبت غضب لها مائة واذا سمعت كلمة قالت لا والله لا أنتهي حتى أقرها قرارها التي في بطنها جارية ويتبعها جارية وفي حجرها جارية قال الحجاج على هذه لعنة الله ثم قال ويحك فأخبرني بخير النساء قال خيرهن القريبة القامة من السماء الكثيرة الأخذ من الارض الودود الولود التي في بطنها غلام وفي حجرها غلام ويتبعها غلام قال ويحك فأخبرني بشر الرجال قال شرهم السبوط الربوط المحمود في حرم الحي الذي اذا سقط لاحداهن دلو في بئر انحط عليه حتى يخرجه فهن يجزينه الخير او يقلن عافا الله فلانا قال على هذا لعنة الله فاخبرني بخير الرجال قال خيرهم الذي يقول فيه الشماخ التغلبي

فتى ليس بالراضي بأدنى معيشة * ولا في بيوت الحي بالمتولج
فتى يملأ الشيزى ويروى سنانه * ويضرب في رأس الكمي المدجج

فقال له حسبك كم حبسنا عطاءك قال ثلاث سنين فأمر له بها وخلى سبيله (المنقرى) عن محمد ابن السرى عن هشام بن محمد بن السائب عن أبي عبد الله النخعي قال لما فرغ الحجاج من دير الجماجم وقدم على عبد الملك ومعه أشراف أهل المصرين أدخلهم عليه فبيناهم عنده اذ تذاكروا البلدان فقال محمد بن عمير بن عطارد أصلح الله الامير أن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرها وعمقها وسفلت عن الشأم ووباءها وجاورها الفرات فعذب ماؤها وطاب ثمرها فقال خالد بن صفوان الاهتمي أصلح الله الامير نحن أوسع منهم برية واسرع منهم في السرية واكثر منهم قندا وعاجا وساجا وأسا ماؤنا صفو وخيرنا عفو لا يخرج من عندنا الا قايد وسائق وناعق فقال الحجاج اصلح الله امير المؤمنين اني بالبلدين خبير وقد وطئتهما جميعا فقال له قل فانت عندنا مصدق فقال أما البصرة فعجوز شمطاء ذفراء بخراء أوتيت من كل حلي وزينة وأما الكوفة فشابة حسناء جميلة لا حلي لها ولا زينة فقال عبد الملك فضلت الكوفة على البصرة (المنقرى) عن عمر بن الحباب الباهلي عن اسماعيل بن خالد قال سمعت الشعبي يقول سمعت الحجاج يقول بكلام ما سبقه اليه أحد سمعته يقول أما بعد فان الله عز وجل كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء فلا فناء لما كتب عليه البقاء ولا بقاء لما كتب عليه الفناء فلا يغرنكم شاهد الدنيا من غائب الآخرة فطول الامل يقصر الأجل (المنقرى) عن سهل بن تمام بن بزيع عن عباد بن حبيب بن المهلب عن أبيه قال لما قتل المهلب بن عبد ربه بن الصعتر بكرمان قال ائتوني برجل له بيان وعقل ومعرفة أوجهه

الى الحجاج برؤس من قتلنا فدلوه على بشر بن مالك الجرشي فلما دخل على الحجاج قال ما اسمك قال بشر بن مالك الجرشي قال كيف تركت المهلب قال تركته صالحا نال ما رجا وأمن ماخاف قال فكيف فاتكم قطري قال كادنا من حيث كدناه قال أفلا طلبتموه قال كان الحسد أهم علينا من القتل قال أصبتم قال فكيف كان بنو المهلب قال كانوا أعداء البيات حتى يأمنوا وأصحاب السرج حتى يردوا قال أجل فأيهم أفضل قال ذاك الى أبيهم أيهم شاء ان يستكفيه أمرا كفاه قال انى أرى لك عقلا فقل قال هم كالحلقة المستوية لا يدرى أين طرفها قال أين هم من أبيهم قال فضله عليهم كفضلهم على سائر الناس قال كيف كان الجند قال أرضاهم الحق وأشبعهم الفضل وكانوا مع وال يقاتل بهم مقاتلة الصعلوك ويسوسهم سياسة الملوك فله منهم بر الاولاد ولهم منه شفقة الوالد قال هل كنت هيأت ما أرى قال لا يعلم الغيب الا الله قال فالتفت الحجاج الى عنبسة فقال هذا الكلام المخلوق لا الكلام المصنوع (وأخذ الحجاج) جرير بن الخطفى فأراد قتله فمشى اليه قومه من مضر فقالوا أصلح الله الامير لسان مضر وشاعرها هبه لنا فوهبه لهم (وكانت هند) بنت اسماء زوج الحجاج ممن طالب به فقالت للحجاج أتأذن لجرير على يوما استنشده من وراء حجاب فقال لها نعم فأمرت بمجلس لها فهيئ فجلست فيه والحجاج معها ثم بعثت الى جرير فدخل عليها يسمع كلامها ولا يراها فقالت يا ابن الخطفى أنشدنى ما شببت به فى النساء فقال لها ما شببت بامرأة قط ولا خلق الله شيأ هو أبغض الى من النساء قالت يا عدو الله وأين قولك

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارجعى بسلام
تجرى السواك على أغر كأنه * برد تحدر من متون غمام
لو كنت صادقة بما حدثتنا * لوصلت ذاك فكان غير لمام
سرت الهموم فبتن غير نيام * وأخو الهموم يروم كل مرام

قال ما قلت هذا ولكنى أنا الذى أقول

لقد جرد الحجاج للحق سيفه * الا فاستقيموا لا يميلن مائل
وما يستوى داعى الضلالة والهدى * ولا حجة الخصمين حق وباطل

قالت دع عنك هذا فأين قولك

خليلى لا تستغزرا الدمع فى هند * أعيذ كما بالله أن تجدا وجدى
ظمئت الى شرب الشراب وحسنه * كذى قربة يرجو هداها وما يجدى

قال لها ما قلت هذا ولكنى أنا الذى أقول

ومن يامن الحجاج أما عقابه * فمر وأما عقده فوثيق
يسر لك البغضاء كل منافق * كما كل ذى بر عليك شفيق

قالت دع عنك هذا فأين قولك

يا عاذلى دعا الملامة واقصرا * طال الهوى وأطلتما التفنيدا
انى وجدت ولو أردت زيادة * فى الحب عندى ما وجدت مزيدا

فقال باطل أصلحك الله ولكنى انا الذى أقول

من سد مطلع النفاق عليهم * ام من يصول كصولة الحجاج
أم من يغار على النساء حفيظة * اذ لا يثقن بغيرة الازواج
هذا ابن يوسف فافهموا وتفهموا * برح الخفاء وليس حيث يفاجى
فارب تاكث يمين تركته * وخضاب لحيته دم الاوداج

فقال الحجاج يا عدو الله تحرض على النساء فقال لا والذى أكرمك أيها الامير ما فطنت لهذا البيت قبل ساعتى هذه وما علمت بمكانك فأولنى جعلنى الله فداك قال قد فعلت فأمرت له هند بجارية وكسوة وأوفده الحجاج على عبد الملك ولما انهزم ابن الاشعث بدير الجماجم حلف الحجاج أن لا يؤتى باسير الاضرب عنقه فأتى بأسرى كثيرة وكان أول من أتى به اعشى همدان الشاعر وهو أول من خلع عبد الملك والحجاج بين يدى ابن الاشعث بسجستان فقال له الحجاج ايه أنت القائل

من مبلغ الحجاج أنى قد جنيت عليه حربا
ووضعت فى كف امرء * جلد اذا ما الامر عبى
أنت الرئيس ابن الرئيس وأنت أعلى الناس كعبا
فابعث عطية بالخيو * ل يكبهن عليه كبا
وانهض هديت لعله * يجلى بك الرحمن كربا
نبئت أن بنى يو * سف خر من زلق فتبا

وهى أبيات وأنت القائل

شطت نوى من داره الايوان * ايوان كسرى من قوى الريحان
من عاشق أمسى بزالكسان * ان ثقيفا منهم الكذابان
كذابها الماضى وكذاب ثان * أمكن ربى من ثقيف همدان
يوما من الليل يسلى ما كان

وأنت القائل

وسألتما فى المجد أين محله * فالمجد بين محمد وسعيد
بين الاشج وبين قيس باذخ * بخ لوالده وللمولود

قال لا ولكنى الذى اقول

أبى الله الا أن يتمم نوره * ويطفئ نور الفاسقين فيخمدا
وينزل ذلا بالعراق وأهله * بما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما أحدثوا من بدعة وضلالة * من القول لم يصعد الى ذروة العدى

قال لسنا نحمدك على هذا القول انما قلته تأسفا على أن لا تكون ظفرت وظهرت وتحريضا لاصحابك وليس عن هذا اسألك أخبرنى عن قولك

امكن ربى من ثقيف همدان * يوما من الليل يسلى ما كان

فكيف ترى الله امكن ثقيفا من همدان ولم يمكن همدان من ثقيف وعن قولك

بين الاشج وبين قيس باذخ * بخ لوالده وللمولود

والله لا تبخبخ لأحد بعدها وأمر به فضربت عنقه ولم يزل يؤتى برجل رجل حتى أتى برجل من بنى عامر وكان من فرسان الجماجم مع ابن الاشعث فقال له والله لاقتلنك شر قتلة قال والله ما ذلك لك قال ولم قال لأن الله يقول فى كتابه العزيز فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها وأنت قد قتلت فأثخنت وأسرت فأثخنت فاما أن تمن علينا أو تفديناعشائرنا فقال له الحجاج أكفرت قال نعم وغيرت وبدلت قال خلوا سبيله ثم أتى برجل من ثقيف فقال له الحجاج أكفرت قال نعم قال الحجاج لكن هذا الذى خلفك لم يكفر وخلفه رجل من السكون قال السكونى أعن نفسى تخادعنى بل والله لو كان شئ أشد من الكفر لبؤت به فخلى سبيلهما فهذه جمل من أخبار عبد الملك والحجاج وقد اتينا على مبسوط هذه الاخبار مما لم نورده فى هذا الكتاب فى كتابينا أخبار الزمان والاوسط التالى له الذى كتابنا هذا تاليه وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب من أخبار الحجاج لمعا على حسب ما قدمنا من الشرط فيما سلف من هذا الكتاب وبالله العون والقوة

ذكر أيام الوليد بن عبد الملك

بويع الوليد بن عبد الملك بدمشق فى اليوم الذى توفى فيه عبد الملك وتوفى الوليد بدمشق للنصف من جمادى الآخرة من سنة ست وتسعين فكانت ولايته تسع سنين وثمانية اشهر وليلتين وهلك وهو ابن ثلاث وأربعين سنة وكان يكنى بأبى العباس

ذكر لمع من أخباره وسيره وما كان من الحجاج فى أيامه

كان الوليد جبارا عنيدا ظلوما غشوما وخلف من الولد أربعة عشر ذكرا منهم يزيد وعمرو ويسر العالم والعباس وكان يدعى فارس بنى مروان لشهامته فعدل الوليد بالامر عن ولده بعده اتباعا لوصية عبد الملك على حسب مارتبها وكان نقش خاتمه يا وليد انك ميت فكان كلما هم أن يجعل الامر فى ولده قلب الفص فقرأ انك ميت فيقول لا اله الا الله لا خالفت فيما أمر به انى لميت وفى سنة تسع وثمانين ابتدأ الوليد ببناء المسجد الجامع بدمشق ومسجد الرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فأنفق عليهما الاموال الجليلة وكان المتولى للنفقة على ذلك عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى وحكى عثمان بن مرة الخولانى قال لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وجد فى حائط المسجد لوح من حجارة فيه كتابة باليونانية فعرض على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدروا على قراءته فوجه به الى وهب بن منبه فقال هذا مكتوب فى أيام سليمان بن داود عليهما السلام فقرأه فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم يا ابن آدم لو عاينت ما بقى من يسير اجلك لزهدت فيما بقى من طول أملك وقصرت عن رغبتك وحيلك وانما تلقى ندمك اذا زلت بك قدمك واسلمك اهلك وانصرف عنك الحبيب وودعك القريب ثم صرت تدعى فلا تجيب فلا أنت الى أهلك عائد ولا فى عملك زائد فاغتنم الحياة قبل الموت والقوة قبل الفوت وقبل أن يؤخذ منك بالكظم ويحال بينك وبين العمل وكتب

زمن سليمان بن داود فأمر الوليد أن يكتب بالذهب على اللازورد فى حائط المسجد ربنا الله لانعبد الا الله أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين وهذا الكلام مكتوب بالذهب فى مسجد دمشق الى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ووفد الحجاج بن يوسف على الوليد فوجده فى بعض نزهه فاستقبله فلما رآه ترجل له وقبل يده وجعل يمشى وعليه درع وكنانة وقوس عربية فقال له الوليد اركب يا أبا محمد فقال دعنى يا أمير المؤمنين استكثر من الجهاد فان ابن الزبير وابن الاشعث شغلانى عنك فعزم عليه الوليد حتى ركب ودخل الوليد داره وتفضل فى غلالة ثم أذن للحجاج فدخل عليه فى حاله تلك واطال الجلوس عنده فبينما هو يحادثه اذ جاءت جارية فسارت الوليد ومضت ثم عادت فسارته ثم انصرفت فقال الوليد للحجاج أتدرى ما قالت هذه يا أبا محمد قال لا والله قال بعثتها الى ابنة عمى ام البنين بنت عبد العزيز تقول ما مجالستك لهذا الأعرابى المتسلح فى السلاح وأنت فى غلالة فأرسلت اليها انه الحجاج فراعها ذلك وقالت والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق فقال الحجاج يا أمير المؤمنين دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول فانما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة فلا تطلعهن على سرك ولا مكايدة عدوك ولا تطعهن فى غير أنفسهن ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن واياك ومشاورتهن فى الامور فان رأيهن الى أفن وعزمهن الى وهن واكفف عليهن من ابصارهن بحجبك ولا تملك الواحدة منهن من الامور ما يجاوز نفسها ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها ولا تطل الجلوس معهن فان ذلك أوفر لعقلك وابين لفضلك ثم نهض الحجاج فخرج ودخل الوليد على ام البنين فأخبرها بمقالة الحجاج فقالت يا أمير المؤمنين أحب أن تأمره غدا بالتسليم على فقال أفعل فلما غدا الحجاج على الوليد قال له يا أبا محمد سر الى أم البنين فسلم عليها فقال أعفنى من ذلك يا أمير المؤمنين فقال لا بد من ذلك فمضى الحجاج اليها فحجبته طويلا ثم أذنت له فاقرته قائما ولم تأذن له فى الجلوس ثم قالت ايه يا حجاج أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الاشعث أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ما ابتلاك برمى الكعبة ولا بقتل ابن ذات النطاقين وأول مولود ولد فى الاسلام وأما ابن الاشعث فقد والله والى عليك الهزائم حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك فأغاثك بأهل الشأم وأنت فى أضيق من القرن فأظلتك رماحهم وانجاك كفاحهم ولولا ذلك لكنت أذل من النقد وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه فان كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به عنك أمك فما أحقه بالاخذ عنك والقبول منك وان كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فانه غير قابل منك ولا مصغ الى نصيحتك قاتل الله الشاعر وقد نظر اليك وسنان غزالة الحرورية بين كتفيك حيث يقول

أسد على وفى الحروب نعامة * فزعاء تفزع من صفير الصافر
هلا برزت الى غزالة فى الوغى * بل كان قلبك فى جناحى طائر

أخرجنه عنى فدخل الى الوليد من فوره فقال يا أبا محمد ما كنت فيه فقال والله يا أمير المؤمنين ما سكتت حتى كان بطن الارض أحب الى من ظاهرها فضحك الوليد حتى فحص

برجله ثم قال يا أبا محمد انها بنت عبد العزيز ولام البنين هذه أخبار كثيرة فى الجود وغيره وقد اتينا على ذكرها فى غير هذا الكتاب وفى سنة خمس وتسعين قبض على بن الحسين بن على بن أبى طالب فى ملك الوليد ودفن بالمدينة فى بقيع الغرقد مع عمه الحسن بن على وهو ابن سبع وخمسين سنة ويقال انه قبض سنة أربع وتسعين وكان عقب الحسين من على بن الحسين وهو السجاد على ماذكرنا وذو الثفنات وزين العابدين (وذكر المدائنى) قال دخل الوليد على أبيه عبد الملك عند وفاته فجعل يبكى عليه وقال كيف اصبح أمير المؤمنين فقال عبد الملك

ومشتغل عنا يريد بنا الردى * ومستعبرات والعيون سواجع

اشار بالمصراع الاول الى الوليد ثم حول وجهه عنه وأشار بالمصراع الثانى الى نسائه وهن المستعبرات (وذكر العتبى) وغيره من الأخباريين أن عبد الملك لما سأله الوليد عن خبره وهو يجود بنفسه أنشأ يقول

كم عائد رجلا وليس يعوده * الا لينظر هل يراه يموت

وقيل ان عبد الملك نظر الى الوليد وهو يبكى عليه عند رأسه فقال يا هذا أحنين الحمامة اذا أنا مت فشمر واتزر والبس جلد نمر وضع سيفك على عاتقك فمن أبدى ذات نفسه لك فاضرب عنقه ومن سكت مات بدائه ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا فقال ان طويلك لقصير وان كثيرك لقليل وان كنا منك لفى غرور ثم أقبل على جميع ولده فقال أوصيكم بتقوى الله فانها عصمة باقية وجنة واقية فالتقوى خير زاد وافضل فى المعاد وهى أحصن كهف وليعطف الكبير منكم على الصغير وليعرف الصغير حق الكبير مع سلامة الصدور والأخذ بجميل الامور واياكم والبغى والتحاسد فبهما هلك الملوك الماضين وذووا العز المكين يا بنى اخوكم مسلمة نابكم الذى تفترون عنه ومجنكم الذى تستجنون به اصدروا عن رأيه واكرموا الحجاج فانه الذى وطأ لكم هذا الامر كونوا أولادا أبرارا وفى الحروب أحرارا وللمعروف منارا وعليكم السلام وسأله بعض شيوخ بنى امية وقد فرغ من وصية أولاده هذه كيف تجدك يا أمير المؤمنين قال كما قال الله عز وجل ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم الى قوله ما كنتم تزعمون فكان هذا آخر كلام سمع منه فلما قضى نحبه سجاه الوليد ثم صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال لم أر مثلها مصيبة ولا مثلها نعمة فقدت الخليفة وتقلدت الخلافة فانا لله وانا اليه راجعون على المصيبة والحمد لله رب العالمين على النعمة ثم دعا الناس الى بيعته فبايعوا ولم يختلف عليه أحد ومات فى أيام الوليد عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وذلك فى سنة سبع وثمانين وكان جوادا كريما وذكر أن سائلا وقف عليه فقال تصدق بما رزقك الله فانى نبئت أن عبيد الله بن العباس أعطى سائلا ألف درهم واعتذر اليه فقال وأين أنا من عبيد الله قال له أين أنت فى الحسب أو فى كثرة المال قال فيهما جميعا قال ان الحسب فى الرجل مروءته وحسن فعله فاذا فعلت ذلك كنت حسيبا فأعطاه الفى درهم واعتذر اليه فقال له السائل ان لم تكن عبيد الله فأنت خير منه وان كنت هو فأنت اليوم خير منك أمس فأعطاه الفا أيضا فقال

ابن كنت عبيد الله انك لا سمع أهل دهرك وما خالك الا من رهط فيهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسألك بالله أنت هو قال نعم قال والله ما أخطأت الا باعتراض الشك بين جوانحي والا فهذه الصورة الجميلة والهيئة المنيرة لا تكون الا في نبي أو عترة نبي وذكر أن معاوية وصله بخمسمائة ألف درهم ثم وجه له من يتعرف له خبره فانصرف اليه فاعلمه أنه قسمها في سمارة واخوانه حصصا بالسوية وأبقى لنفسه مثل نصيب أحدهم فقال معاوية ان ذلك ليسوءني ويسرني فأما الذي يسرني فان عبد مناف والده وأما الذي يسوءني فقرابته من أبي تراب (قال المسعودي) وقد قدمنا خبر مقتل ابني عبيد الله فيما سلف من هذا الكتاب وهما عبد الرحمن وقثم ومارثتهما به أمهما أم حكيم جويرية بنت قارظ بن خالد الكنانية وقد كان عبيد الله بن العباس دخل يوما على معاوية وعنده قاتلهما بشر بن أرطاة العامري فقال له عبيد الله أيها الشيخ أنت قاتل الصبيين قال نعم قال والله لوددت أن الارض انبتتني عندك يومئذ فقال له بشر فقد انبتتك الساعة فقال عبيد الله ألا سيف فقال بشر هاك سيفي فلما هوى عبيد الله الى السيف ليتناوله قبض معاوية ومن حضره على يد عبيد الله قبل أن يقبض على السيف ثم أقبل معاوية على بشر فقال أخزاك الله من شيخ قد كبرت وذهل عقلك تعمد الى رجل موتور من بني هاشم فتدفع اليه سيفك انك لغافل عن قلوب بني هاشم والله لو تمكن من السيف لبدأ بنا قبلك قال عبيد الله ذلك والله أردت (وكان علي عليه السلام) حين أتاه خبر قتل بشر لابني عبيد الله قثم وعبد الرحمن دعا على بشر فقال اللهم اسلبه دينه وعقله فخرف الشيخ حتى ذهل عقله واشتهر بالسيف فكان لا يفارقه فجعل له سيف من خشب وجعل في يديه زق منفوخ كلما تخرق ابدل فلم يزل يضرب ذلك الزق بذلك السيف حتى مات ذاهل العقل يلعب بخرئه وربما كان يتناول منه ثم يقبل على من يراه فيقول انظروا كيف يطعمني هذان الغلامان ابنا عبيد الله وكان ربما شدت يداه الى وراء منعا من ذلك فأنجى ذات يوم في مكانه ثم أهوى بفيه فتناول منه فبادروا الى منعه فقال أنتم تمنعوني وعبد الرحمن وقثم يطعماني ومات بشر في أيام الوليد ابن عبد الملك سنة ست وثمانين وفيها مات عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي وعتبة مهاجر وهو اخو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن مخزوم بن صبح بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار وكانت الرياسة في الجاهلية في صبح بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل وكان ولد عبد الله ابن عتبة عبيد الله من كبار أهل العلم ذكر ابن أبي خيثمة قال سمعت ابن الاصبهاني يقول قال سفيان قال الزهري كنت أظن اني نلت من العلم حتى جالست عبيد الله بن عبد الله فكأنما هو البحر وفي سنة أربع وتسعين قتل الحجاج سعيد بن جبير فذكر عون ابن أبي راشد العبدي قال لما ظفر الحجاج بسعيد بن جبير وأوصل اليه قال له ما اسمك قال اسمي سعيد بن جبير قال بل شقي بن كسير قال أبي كان أعلم باسمي منك قال لقد شقيت وشقي أبوك قال له الغيب انما يعلمه غيرك قال لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى قال لو علمت أن ذلك بيدك ما اتخذت الها غيرك قال فما قولك في الخلفاء قال لست عليهم بوكيل قال

فاختر اى قتلة تريد أن أقتلك قال بل اختر يا شقى لنفسك فوالله ما تقتلنى اليوم بقتلة الا قتلتك فى الآخرة بمثلها فأمر به الحجاج فأخرج ليقتل فلما ولى ضحك فأمر الحجاج برده وسأله عن ضحكه فقال عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عنك فأمر به فذبح فلما كب لوجهه قال أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن الحجاج غير مؤمن بالله ثم قال اللهم لا تسلط الحجاج على أحد يقتله من بعدى فذبح واحتز رأسه ولم يعش الحجاج بعده الا خمس عشرة ليلة حتى وقعت فى جوفه الأكلة فمات من ذلك ويروى انه كان يقول بعد قتل سعيد ياقوم مالى ولسعيد بن جبير كلما عزمت على النوم أخذ بحلقى واشتكى الوليد فبلغه عن اخيه سليمان تمنى لموته لماله من العهد بعده فكتب اليه الوليد يعتب عليه الذى بلغه وكتب فى كتابه هذه الأبيات

تمنى رجال أن أموت وان أمت * فتلك سبيل لست فيها بأوحد
لعل الذى يرجو فناءى ويدعى * به قبل موتى أن يكون هو الردى
فما موت من قد مات قبل بضائرى * ولا عيش من قد عاش بعدى بمخلد
فقل للذى يرجو خلاف الذى مضى * تزود لأخرى غيرها فكأن قد
منيته تجرى لوقت وحتفه * سيلحقه يوما على غير موعد

فاجابه سليمان فهمت ما قال أمير المؤمنين ووالله لئن كنت تمنيت ذلك لما يخطر بالبال انى لأول لاحق به ومنعى الى أهله فعلام أتمنى زوال مدة لا يلبث متمنيها الا بقدر ما تحل السفر بمنزل ثم يظعنون عنه وقد بلغ أمير المؤمنين ما لم يظهر من لفظى ولا يرى من لحظى ومتى سمع أمير المؤمنين من أهل النميمة ومن ليست له روية أوشك أن يسرع فى فساد النبات ويقطع بين ذوى الارحام والقرابات وكتب فى اسفل الكتاب

ومن لا يغمض عينه عن صديقه * وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتتبع جاهدا كل عثرة * يجدها ولم يسلم له الدهر صاحب

فكتب اليه الوليد ما أحسن ما اعتذرت به وحذوت عليه وأنت الصادق فى المقال والكامل فى الفعال وما شئ أشبه بك من اعتذارك ولا أبعد مما قيل فيك والسلام وكان الوليد متحننا على اخوته مراعيا لسائر ما أوصاه به عبد الملك وكان كثير الانشاد لأبيات قالها عبد الملك حين كتب وصيته منها

انفوا الضغائن عنكم وعليكم * عند المغيب وفى حضور المشهد
بصلاح ذات البين طول بقائكم * أن مد فى عمرى وان لم يمدد
فلمثل ريب الدهر ألف بينكم * بتواصل وترحم وتودد
حتى تلين جلودكم وقلوبكم * بمسود منكم وغير مسود
ان القداح اذا اجتمعن فرامها * بالكسر ذو حنق وبطش باليد
عزت فلم تكسر وان هى بددت * فالوهن والتكسير للمتبدد

وكان عبد الملك مواظبا على حث أولاده على اصطناع المعروف وبعثهم على مكارم الاخلاق وقال لهم يا بنى عبد الملك أحسابكم أحسابكم صونوها ببذل أموالكم فما يبالى رجل ما قيل

فيه من الهجو بعد قول الاعشى

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم * وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

وما يبالى قوم ما قيل فيهم من المدح بعد قول زهير

على مكثريهم حق من يعتريهم * وعند المقلين السماحة والبذل

حدث عبد الله بن اسحاق بن سلام عن محمد بن حبيب قال صعد الوليد المنبر فسمع صوت ناقوس فقال ما هذا قيل البيعة فأمر بهدمها وتولى بعض ذلك بيده فتتابع الناس يهدمون فكتب اليه الأخرم ملك الروم أن هذه البيعة قد أقرها من كان قبلك فأن يكونوا أصابوا فقد أخطأت وان تكن أصبت فقد أخطأوا فقال من يجيبه فقال الفرزدق يكتب اليه وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ومات الحجاج فى سنة خمس وتسعين وهو ابن أربع وخمسين سنة بواسط العراق وكان تأمره على الناس عشرين سنة وأحصى من قتله صبرا سوى من قتل فى عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرين الفا ومات وفى حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة منهن ستة عشر ألفا مجردة وكان يحبس النساء والرجال فى موضع واحد ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس فى الصيف ولا من المطر والبرد فى الشتاء وكان له غير ذلك من العذاب ما أتينا على وصفه فى الكتاب الاوسط وذكر انه ركب يوما يريد الجمعة فسمع ضجة فقال ما هذا فقيل له المحبوسون يضجون ويشكون ما هم فيه من البلاء فالتفت الى ناحيتهم وقال اخسأوا فيها ولا تكلمون فيقال أنه مات فى تلك الجمعة ولم يركب بعد تلك الركبة (قال المسعودى) ووجدت فى كتاب عنوان البلاغات مما اختير من كلام الحجاج قوله ماسلبت نعمة الا بكفرها ولا نمت الا بشكرها وقد كان الحجاج تزوج الى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب حين أملق عبد الله وافتقر وقد ذكرنا فى كتابنا أخبار الزمان الخبر فى ذلك وتهنئة ابن القرية الحجاج بذلك وقد كان عبد الله بن جعفر بن أبى طالب من الجود بالموضع المعروف ولما قل ماله سمع يوم الجمعة فى المسجد الجامع وهو يقول اللهم انك عودتنى عادة فعودتها عبادك فان قطعتها عنى فلا تبقنى فمات فى تلك الجمعة وذلك فى أيام عبد الملك بن مروان وصلى عليه أبان بن عثمان بمكة وقيل بالمدينة وهى السنة التى كان بها السيل الجاف الذى بلغ الركن وذهب بكثير من الحجاج وفى هذه السنة كان الطاعون العام بالعراق والشأم ومصر والجزيرة والحجاز وهى سنة ثمانين وقبض عبد الله بن جعفر وهو ابن سبع وستين وولد بالحبشة حين هاجر جعفر الى هنالك وقيل ان مولده كان فى السنة التى قبض فيها النبى صلى الله عليه وسلم وقيل غير ذلك وذكر المبرد والمداينى والعتبى وغيرهم من الاخباريين أن عبد الله عوتب على كثرة افضاله فقال ان الله تعالى عودنى أن يفضل على وعودته أن أفضل على عباده فاكره أن أقطع العادة عنهم فيقطع العادة عنى ووفد عبد الله على معاوية بدمشق فعلم به عمرو بن العاص قبل دخوله دمشق أخبره بذلك مولى له كان قد سار مع ابن جعفر من الحجاز فتقدمه بمرحلتين الى دمشق فدخل عمرو على معاوية وعنده جماعة من قريش من بنى هاشم وغيرهم منهم عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب فقال عمرو قد أتاكم رجل كثير الخلوات

بالتمنى والطرقات بالتغنى آخذ للسلف منقاد بالسرف فغضب عبدالله بن الحارث وقال لعمرو كذبت وأهل ذلك أنت ليس عبدالله كما ذكرت ولكنه لله ذكور ولبلائه شكور وللخنا نفور ماجد مهذب كريم سيد حليم ان ابتدأ أصاب وان سئل أجاب غير حصر ولا هياب ولا فحاش ولا سباب كالهزبر الضرغام الجرىء المقدام والسيف الصمصام والحسيب القمقام وليس كمن اختصم فيه من قريش شرارها فغلب عليه جزارها فاصبح ألأمها حسبا وأدناها منصبا يلوذ منها بذليل ويأوى الى قليل ليت شعرى بأى حسب تتناول أو بأى قدم تتعرض غير انك تعلو بغير اركانك وتتكلم بغير لسانك ولقد كان أبر فى الحكم وابين فى الفضل أن يكفك ابن أبى سفيان عن ولوعك بأعراض قريش وان يكعمك كعام الضبع فى وجارها فلست لأعراضها بوفى ولا لأحسابها بكفى وقد أتيح لك ضيغم شرس للاقران مختلس وللارواح مفترس فهم عمرو أن يتكلم فمنعه معاوية من ذلك وقال عبدالله ابن الحارث لا يبقى المرء الا على نفسه والله ان لسانى لحديد وان جوابى لعتيد وان قولى لسديد وان أنصارى لشهود فقام معاوية وتفرق القوم ولعبدالله بن جعفر بن أبى طالب أخبار حسان فى الجود والكرم وغير ذلك من المناقب وقد أتينا على مبسوط ذلك فى كتابنا أخبار الزمان والاوسط وانما كان تزوج الحجاج اليه يتذلل بذلك الى أبى طالب وكتب الحجاج الى عبدالملك يغلظ له أمر الخوارج مع قطرى فكتب اليه أما بعد فانى أحمد اليك السيف وأوصيك بما أوصى به البكرى زيدا فلم يفهم الحجاج ماعناه عبدالملك وقال من جاء بتفسير ما أوصى به البكرى زيدا فله عشرة آلاف درهم فورد رجل من الحجاز يتظلم من بعض عماله فقيل له أتعلم ما أوصى به البكرى زيدا قال نعم قال فأت الحجاج به ولك عشرة آلاف درهم فأتاه فاحضرت فقال أوصاه بأن قال

اقول لزيد لا تبر فانهم * يرون المنايا دون قتلك أو قتلى
فان وضعوا حربا فضعها وان أبوا * فشب وقود الحرب بالحطب الجزل
وان عضت الحرب الضروس بنابها * فعرضة حد السيف مثلك أو مثلى

فقال الحجاج صدق أمير المؤمنين وصدق البكرى وكتب الى المهلب ان أمير المؤمنين أوصانى بما أوصى به البكرى زيدا وأنا أوصيك به وبما أوصى به الحارث بن كعب بنيه فأتى المهلب بوصيته فاذا فيها يا بنى كونوا جميعا ولا تكونوا شتى فتفرقوا وبزوا قبل أن تبزوا فموت فى قوة وعز خير من ذل وعجز فقال المهلب صدق البكرى والحارث بن كعب وكتب عبدالملك الى الحجاج جنبنى دماء آل أبى طالب فانى رأيت الموت استوحش من آل حرب حين سفكوا دماءهم فكان الحجاج يتجنبها خوفا من زوال الملك عنهم لا خوفا من الخالق عز وجل ودخلت ليلى الاخيلية على الحجاج فقالت أصلح الله الامير اتيت لاخلاف النجوم وقلة الغيوم وكلب البرد وشدة الجهد قال فاخبرينى عن الارض قالت مقشعرة والفجاج مغبرة والمقتر مغل وذو الغنى مختل والبائس مقل والناس مسنتون رحمة الله يرجون قال أى النساء تختارين تنزلين عندها قالت سمهن لى قال عندى هند بنت المهلب وهند بنت اسماء بن خارجة فاختارتها فدخلت عليها فصبت حليها عليها حتى اثقلتها لاختيارها اياها ودخولها عليها دون

من سواها (حدثنا) المنقري قال حدثنا العتبي عن أبيه قال قدم على الحجاج ابن عم له من البادية فنظر اليه يولي الناس فقال له أيها الامير لم لا توليني بعض هذا الحضر فقال الحجاج هؤلاء يكتبون ويحسبون وأنت لا تحسب ولا تكتب فغضب الاعرابي وقال بلى اني والله لأحسب منهم حسبا واكتب منهم كتبا فقال له الحجاج فان كان كما تزعم فاقسم ثلاثة دراهم بين أربعة انفس فمازال يقول ثلاثة دراهم بين أربعة ثلاثة بين أربعة لكل واحد منهم درهم يبقى الرابع بلا شئ كم هم أيها الامير قال هم أربعة قال نعم أيها الامير قد وقفت على الحساب لكل واحد منهم درهم وانا أعطي الرابع منهم درهما من عندي وضرب بيده الى تكته فاستخرج منها درهما وقال أيكم الرابع فلاها الله ما رأيت كاليوم زورا مثل حساب هؤلاء الحضر بين فضحك الحجاج ومن معه فذهب بهم الضحك كل مذهب ثم قال الحجاج ان أهل أصبهان كسروا خراجهم ثلاث سنين كلما أتاهم وال عجزوه فلا رمينهم بيدوية بهذا وعجهيته فأخلق به أن يحب فكتب له عهده على أصبهان فلما خرج استقبله أهل أصبهان واستبشروا به واقبلوا عليه يقبلون يده ورجله وقد استغمروه وقالوا أعرابي بدوي مايكون منه فلما أكثروا عليه قال أعنوا على أنفسكم وتقبيلكم أطرافي وأخروا عني هذه الهيئات أما يشغلكم ما أخرجني له الامير فلما استقر في داره باصبهان جمع أهلها فقال مالكم تعصون ربكم وتغضبون أميركم وتنقصون خراجكم فقال قائلهم بجور من كان قبلك وظلم من ظلم قال فما الامر الذي فيه صلاحكم فقالوا تؤخرنا بالخراج ثمانية أشهر ونجمعه لك قال لكم عشرة وتأتوني بعشرة ضمناء يضمنون فأتوه بهم فلما توثق منهم أمهلهم فلما قرب الوقت رآهم غير مكترثين لما ندبوا من الأجل فقال لهم فلم ينتفع بقوله فلما طال به ذلك جمع الضمناء وقال لهم المال فقالوا اصابنا من الآفة ما نقص ذلك فلما رأى ذلك منهم آلى أن لا يفطر وكان في شهر رمضان حتى يجمع ماله أو يضرب أعناقهم ثم قدم أحدهم فضرب عنقه وكتب عليه فلان ابن فلان أدى ما عليه وجعل رأسه في بدرة وختم عليها ثم قدم الثاني ففعل به مثل ذلك فلما رأى القوم الرؤس تبذر وتجعل في الاكياس بدلا من البدر قالوا أيها الامير توقف علينا حتى تحضر لك المال ففعل فاحضروه في أسرع وقت فبلغ ذلك الحجاج فقال انا معاشر آل محمد يعني جده ولدنا نجيب فكيف رأيتم فراستي في الاعرابي ولم يزل عليها واليا حتى مات الحجاج وحبس الحجاج ابراهيم التيمي بواسط فلما دخل السجن وقف على مكان مشرف ونادى بأعلى صوته يا أهل بلاء الله في عافيته ويا أهل عافية الله في بلائه اصبروا فنادوه جميعا لبيك لبيك ومات في حبس الحجاج وانما كان الحجاج طلب ابراهيم النخعي فنجا ووقع ابراهيم التيمي (وحكى) عن الاعمش قال قلت لابراهيم النخعي أين كنت حين طلبك الحجاج فقال بحيث يقول الشاعر

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى * وصوت انسان فكدت أطير

حدثنا الدمشقي الاموي أحمد بن سعيد وغيره عن الزبير بن بكار عن محمد بن سلام الجمحي وحدثنا الفضل ابن الحباب الجمحي عن محمد بن سلام قال سأل الحجاج ابن القرية أي النساء

أحمد قال التى فى بطنها غلام وفى حجرها غلام ويسعى امامها مع الغلمان غلام قال فأى النساء شر قال الشديدة الاذى الكثيرة الشكوى المخالفة لما تهوى فقال أى النساء اعجب الى الملك قال الشقاء العطبول المنعاج الكسول التى لم يشنها قصر ولا طول قال فأى النساء ابغض الى الملك قال الرعينة القصيرة الباهق الشرثرية قال فأخبرنى عن أفضل النساء قال الغضة البضة التى اعلاها قضيب واسفلها كثيب اللعساء الورهاء التى لم تذهب طولا فى انحطاط ولا تلحق قصرا فى افراط الجعدة الغدائر الجشعة الظفائر الضخمة المآكم الطفلة البراجم اذا رأيت أناملها اشبهتها بالمدارى واذا قامت خلتها سارية من السوارى فتلك تهيج المشتاق وتحيى العاشق بالعناق (قال المسعودى) وللوليد بن عبد الملك أخبار حسان لما كان فى أيامه من الكوائن والحروب وكذلك الحجاج وقد أتينا على كثير من مبسوطها فى كتابينا أخبار الزمان والأوسط وانما نذكر فى هذا الكتاب مالم نورده فى ذينك الكتابين كما أن ماذكرناه فى الكتاب الاوسط لم نورده فى كتاب أخبار الزمان والله اعلم

ذكر أيام سليمان بن عبد الملك

بويع سليمان بن عبد الملك بدمشق فى اليوم الذى كانت فيه وفاة الوليد وذلك يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين من الهجرة وتوفى سليمان بمرج دابق من أعمال جبل قنسرين يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين فكانت ولايته سنتين وثمانية أشهر وخمس ليال وهلك وهو ابن تسع وثلاثين سنة وعهد الى عمر بن عبد العزيز وقيل ان وفاة سليمان كانت يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين وان ولايته سنتان وتسعة أشهر وثمانية عشر يوما على حسب ماوجدنا من تباين مافى كتب التواريخ والسير وسنذكر جمل أيامهم فى باب نفرده فيما يرد من هذا الكتاب وقد تنوزع فى مقدار سن سليمان فذكر بعضهم انه قبض وهو ابن خمس وأربعين ومنهم من زعم انه كان ابن ثلاث وخمسين وقد قدمنا قول من قال انه قبض وهو ابن تسع وثلاثين ووجدت أكثر شيوخ بنى مروان من ولده وولد غيره بدمشق وغيرها يذهبون الى انه كان ابن تسع وثلاثين والله أعلم

ذكر لمع من أخبار وسيره

لما أفضى الامر الى سليمان صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال الحمد لله الذى ماشاء صنع وماشاء أعطى وماشاء منع وماشاء رفع وماشاء وضع أيها الناس ان الدنيا غرور وباطل وزينة وتقلب باهلها تضحك باكيها وتبكى ضاحكها وتخيف آمنها وتؤمن خائفها وتثرى فقيرها وتفقر مثريها ميالة بأهلها عباد الله اتخذوا كتاب الله اماما وارضوا به حكما واجعلوه لكم هاديا ودليلا فانه ناسخ ماقبله ولا ينسخه مابعده واعلموا عباد الله أنه ينفى عنكم كيد الشيطان ومطامعه كما يجلو ضوء الشمس الصبح اذا أسفر وادبار الليل اذا عسعس ثم نزل واذن للناس بالدخول عليه وأقر عمال من كان قبله على أعمالهم وأقر خالد بن عبد الله القسرى على مكة وقد كان خالد أحدث بمكة أحداثا منها أنه أدار

الصفوف حول الكعبة وقد كان قبل ذلك صفوف الناس فى الصلاة بخلاف ذلك وبلغه قول الشاعر

يا حبذا الموسم من موقف * وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللاتى تزاحمنا * عند استلام الحجر الاسود

فقال خالد أما انهن لا يزاحمنك بعدها ابدا ثم أمر بالتفريق بين الرجال والنساء فى الطواف وكان سليمان صاحب أكل كثير يجوز المقدار وكان يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشى وفى أيامه عمل الوشى الجيد باليمن والكوفة والاسكندرية ولبس الناس جميعا الوشى جبابا واردية وسراويل وعمائم وقلانس وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته الا فى الوشى وكذلك عماله وأصحابه ومن فى داره وكان لباسه فى ركوبه وجلوسه وعلى المنبر وكان لا يدخل عليه أحد من خدامه الا فى الوشى حتى الطباخ فانه كان يدخل اليه فى صدرة وشى وعلى رأسه طويلة وشى وأمر أن يكفن فى الوشى المثقلة وكان شبعه فى كل يوم من الطعام مائة رطل بالعراقى وكان ربما أتاه الطباخون بالسفافيذ التى فيها الدجاج المشوية وعليه الوشى المثقلة فلنهمه وحرصه على الأكل يدخل يده فى كمه حتى يقبض على الدجاجة وهى حارة فيفصلها وذكر الاصمعى قال ذكرت للرشيد نهم سليمان وتناوله الفراريج بكمه من السفافيذ فقال قاتلك الله فما أعلمك بأخبارهم انه عرضت على جباب بنى أمية فنظرت الى جباب سليمان واذا كل جبة منها فى كمها أثر دهن فلم أدر ما ذلك حتى حدثتنى بالحديث ثم قال على بجباب سليمان فأتى بها فنظرنا فاذا تلك الآثار فيها ظاهرة فكسانى منها جبة فكان الاصمعى ربما يخرج أحيانا فيها فيقول هذه جبة سليمان التى كسانيها الرشيد وذكر أن سليمان خرج من الحمام ذات يوم وقد اشتد جوعه فاستعجل الطعام ولم يكن فرغ منه فأمر أن يقدم ما لحق من الشواء فقدم اليه عشرون خروفا فأكل أجوافها كلها مع أربعين رقاقة ثم قرب بعد ذلك الطعام فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل شيئا وحكى أنه كان يتخذ سلال الحلوى ويجعل ذلك حول مرقده فكان اذا قام من نومه يمد يده فلا تقع الا على سلة يأكل منها (حدث) المنقرى عن العتبى عن اسحاق بن ابراهيم بن الصباح بن مروان وكان مولى لبنى امية من أرض البلقاء من اعمال دمشق وكان حافظا لأخبار بنى أمية قال لبس سليمان يوم الجمعة فى ولايته لباسا شهر به وتعطر ودعا بتخت فيه عمائم وبيده مرآة فلم يزل يعتم بواحدة بعد أخرى حتى رضى منها بواحدة فأرخى من سدولها وأخذ بيده مخصرة وعلا المنبر ناظرا فى عطفيه وجمع جمعه وخطب خطبته التى أرادها فأعجبه نفسه فقال انا الملك الشاب السيد المهاب الكريم الوهاب فتمثلت له جارية من بعض جواريه كان يتحظاها فقال لها كيف ترين أمير المؤمنين قالت اراه منى النفس وقرة العين لولا ما قال الشاعر قال وما قال الشاعر قالت قال

انت نعم المتاع لو كنت تبقى * غير أن لا بقاء للانسان
انت من لا يريبنا منك شئ * علم الله غير انك فانى
ليس فيما بدا لنا منك عيب * يا سليمان غير انك فان

فدمعت

فدمعت عيناه وخرج على الناس باكيا فلما فرغ من خطبته وصلاته دعا بالجارية فقال لها مادعاك الى ماقلت لأمير المؤمنين قالت والله مارأيت أمير المؤمنين اليوم ولا دخلت عليه فأكبره ذلك ودعا بقيمة جواريه فصدقتها فى قولها فراع ذلك سليمان ولم ينتفع بنفسه ولم يمكث بعد ذلك الامدة حتى توفى وكان سليمان يقول قد أكلنا الطيب ولبسنا اللين وركبنا الفاره ولم يبق لذة الاصديق أطرح معه فيما بينى وبينه مؤنة التحفظ ودخل عليه يزيد بن أبى مسلم كاتب الحجاج والمستولى عليه وهو مكبل بالحديد فلما رآه ازدراه فقال مارأيت كاليوم قط لعن الله رجلا آجرك رسنه وحكمك فى أمره فقال له يزيد لاتفعل ياأمير المؤمنين فانك رأيتنى والامر عنى مدبر وعليك مقبل ولو رأيتنى والامر مقبل على لاستعظمت منى مااستصغرت ولاستجللت منى مااستحقرت قال صدقت فاجلس لاأم لك فلما استقربه المجلس قال له سليمان عزمت عليك لتخبرنى عن الحجاج ماظنك به أتراه يهوى بعد فى جهنم ام قد استقر فيها قال ياأمير المؤمنين لاتقل هذا فى الحجاج فقد بذل لكم نصحه وأحقن دونكم دمه وأمن وليكم واخاف عدوكم وانه يوم القيامة لعن يمين أبيك عبد الملك ويسار أخيك الوليد فاجعله حيث شئت فصاح سليمان اخرج عنى الى لعنة الله ثم التفت الى جلسائه فقال قبحه الله ماكان أحسن ترتيبه لنفسه ولصاحبه ولقد أحسن المكافأة أطلقوا سبيله (ودخل) عليه أبو حازم الاعرج فقال ياأباحازم مالنا نكره الموت قال لانكم عمرتم دنياكم وأخربتم آخرتكم فانتم تكرهون النقلة من العمران الى الخراب قال فأخبرنى كيف القدوم على الله قال أما المحسن فكالغائب يأتى أهله مسرورا وأما المسيء فكالعبد الآبق يأتى مولاه محزونا قال فأى الاعمال أفضل قال أداء الفرائض مع اجتناب المحارم قال فأى القول أعدل قال كلمة حق عند من تخاف وترجو قال فأى الناس أعقل قال من عمل بطاعة الله قال فأى الناس أجهل قال من باع آخرته بدنيا غيره قال عظنى وأوجز قال ياأمير المؤمنين نزه ربك وعظمه بحيث أن يراك تجتنب مانهاك عنه أو يفقدك من حيث أمرك به فبكى سليمان بكاء شديدا فقال له بعض جلسائه أسرفت ويحك على أمير المؤمنين فقال له أبو حازم اسكت فان الله عزوجل أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه ثم خرج فلما صار الى منزله بعث اليه سليمان بمال فرده وقال للرسول قل له والله ياأمير المؤمنين ما ارضاه لك فكيف ارضاه لنفسى وذكر اسحاق ابن ابراهيم الموصلى قال حدثنى الاصمعى عن شيخ من المهالبة قال دخل اعرابى على سليمان فقال له ياأمير المؤمنين انى أريد أن أكلمك بكلام فافهمه فقال له سليمان انا نجود بسعة الاحتمال على من لانرجو نصحه ولانأمن غشه وأرجو أن تكون الناصح جيبا المأمون غيبا فهات قال ياأمير المؤمنين أما اذا أمنت بادرة غضبك فسأطلق لسانى بما خرست به الالسن من عظمتك تأدية لحق الله وحق أمانتك ياأمير المؤمنين انه قد تكنفك رجال أساءوا الاحسان لانفسهم ابتاعوا دنياهم بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك حرب للآخرة سلم للدنيا فلا تأمنهم على ماأمنك الله عليه فانهم لم يألوا الامانة تضييع وللامة خسف وعسف وأنت مسئول عما اجترموا وليسوا مسئولين عما اجترمت

ولا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فان اعظم الناس عيبا بائع آخرته بدنيا غيره فقال له سليمان أما أنت يا اعرابي فقد سللت لسانك وهو أقطع من سيفك فقال أجل يا أمير المؤمنين لك لا عليك فقال سليمان أما وأبيك يا اعرابي لا تزال العرب بسلطاننا الاكناف العز متبوئة ولا تزال أيام دولتنا بكل خير مقبلة ولين ساسكم ولاة غيرنا ليحمدن منا ما أصبحتم تذمون فقال الاعرابي أما اذا رجع الامر الى ولد العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم وصنو أبيه ووارث ماجعله الله له أهلا فلا فتغافل سليمان كأن لم يسمع شيأ وخرج الاعرابي فكان آخر العهد به هذا الخبر اخبرني به بعض شيوخ ولد العباس بمدينة السلام مدينة أبي جعفر المنصور وهو ابن بريهة المنصوري عن أبيه عن علي بن جعفر النوفلي عن أبيه وذلك في سنة ثلثمائة وذكر معاوية بن أبي سفيان في مجلس سليمان فصلى على روحه وأرواح من سلف من آبائه وقال كان والله هزله جدا وجده علما والله ماروى مثل معاوية كان والله غضبه حلما وحلمه حكما وقيل ان هذا الكلام لعبد الملك وكتب سليمان الى خالد بن عبد الله القسري وهو على العراق في رجل استجار به من قريش وكان هرب من خالد ان لا يعرض له فأتاه بالكتاب فلم يفضه حتى ضربه مائة سوط ثم قرأه فقال هذه نقمة اراد الله أن ينتقم بها منك لتركي قراءة الكتاب ولو كنت قرأته لانفذت مافيه فخرج القرشي راجعا الى سليمان فسأله الفرزدق وأناس ممن كان بالباب عما صنع خالد فأخبرهم فقال الفرزدق في ذلك

سلوا خالد الا قدس الله خالدا * متى وليت قسر قريشا تدينها
أقبل رسول الله أم بعد عهده * فاضحت قريش قد أغث سمينها
رجونا هداه لا هدى الله سعيه * وما أمه بالام يهدى جنينها

فلما بلغ سليمان ذلك وجه الى خالد من ضربه مائة سوط فقال الفرزدق في ذلك من أبيات

لعمري لقد صبت على ظهر خالد * شآبيب ليست من سحاب ولا قطر
اتضرب في العصيان من ليس عاصيا * وتعصى أمير المؤمنين أخا قسر
فلولا يزيد بن المهلب حلقت * بكفك فتخاء الى الفرخ في الوكر
لعمري لقد سار ابن سيبة سيرة * أرتك نجوم الليل مظهرة تجرى
فخذ بيديك الخزى حقا فانما * جزيت قصاصا بالمرجرجة السمر

وقال سليمان لعمر بن عبد العزيز يوما وقد أعجبه سلطانه كيف ترى ما نحن فيه قال سرور لولا أنه غرور وحياة لولا أنه موت وملك لولا أنه هالك وحسن لولا أنه حزن ونعيم لولا أنه عذاب اليم فبكى سليمان من كلامه وكان سليمان بخلاف الوليد وعلى الضد منه في الفصاحة والبلاغة وقد كان الوليد أفسد في أرض لعبد الله بن يزيد بن معاوية فشكا ذلك أخوه خالد ابن يزيد الى عبد الملك فقال ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها الآية فقال له خالد واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها الآية فقال عبد الملك أفي عبد الله يتكلم وبالامس دخل علي فغير في لسانه ولحن في كلامه فقال أفعلى الوليد يقول قال أن كان الوليد يلحن فسليمان أخوه قال خالد وان كان عبد الله لحانا فأخوه خالد فقال الوليد اتتكلم ولست في العير ولا في النفير قال خالد ألم تسمع ما يقول أمير المؤمنين أنا والله ابن العير والنفير

ولو قلت جبيلات وغنيمات والطائف قلنا صدقت ازاد بذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفى الحكم بن أبي العاص الى الطائف فصار راعيا حتى رده عثمان وغضب سليمان على خالد القسرى فلما دخل عليه قال يا أمير المؤمنين أن القدرة تذهب الحفيظة وانك تجل عن العقوبة فان تعف فأهل لذلك أنت وان تعاقب فأهل ذلك أنا فعفى عنه وذم رجل فى مجلس سليمان الكلام فقال سليمان انه من تكلم فأحسن قدر على أن يصمت فيحسن ووقف سليمان على قبر ولده أيوب وبه كان يكنى فقال اللهم انى أرجوك له وأخافك عليه فحقق رجاءى وأمن خوفى (قال المسعودى) ولما دفن سليمان سمع بعض كتابه وهو يقول أبيا تا منها

وماسالم عما قليل بسالم * وان كثرت أحراسه وكتائبه
ومن يك ذا بأس شديد ومنعة * فعما قليل يهجر الباب حاجبه
ويصبح بعد الحجب للناس مقصيا * رهينة بيت لم تستر جوانبه
فما كان الا الدفن حتى تفرقت * الى غيره أحراسه ومواكبه
وأصبح مسرورا به كل كاشح * وأسلمه أحبابه وأقاربه
فنفسك أكسبها السعادة جاهدا * فكل امرئ رهن بما هو كاسبه

(قال المسعودى) ولسليمان أخبار حسان لما كان فى مدة ملكه من الكوائن وقد أتينا على مبسوط ذلك فى كتابنا أخبار الزمان والأوسط وانما نذكر فى هذا الكتاب لمعا طلبا للايجاز وميلا الى الاختصار وبالله التوفيق

(ذكر خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم)

واستخلف عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين وهو اليوم الذى مات فيه سليمان وتوفى بدير سمعان من أعمال حمص مما يلى بلاد قنسرين يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة احدى ومائة فكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام وقبض وهو ابن تسع وثلاثين سنة وقبره مشهور فى هذا الموضع الى هذه الغاية معظم يغشاه كثير من الناس من الحاضرة والبادية لم يتعرض لنبشه فيما سلف من الزمان كما تعرض لقبور غيره من بنى أمية وأمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقيل انه قبض وهو ابن أربعين سنة وقيل ابن احدى وأربعين سنة وقد تنوزع أيضا فى مقدار مدته فى الخلافة وقد أتينا على المحصل من ذلك فى باب مقدار المدة من الزمان وما ملكت فيه بنو أمية من الاعوام فيما يرد من هذا الكتاب

(ذكر لمع من أخباره وسيره وزهده)

لم تكن خلافة عمر فى عهد تقدم وكان السبب فيها أن سليمان لما حضرته الوفاة بمرج دابق دعا رجاء بن حياة ومحمد بن شهاب الزهرى ومكحولا وغيرهم من العلماء ممن كان فى عسكره غازيا ونافرا فكتب وصيته وأشهدهم عليها وقال اذا أنا مت فأذنوا بالصلاة جامعة ثم اقرأوا هذا الكتاب على الناس فلما فرغ من دفنه نودى الصلاة جامعة فاجتمع الناس وحضر بنو مروان فاشرأبوا للخلافة وتشوفوا نحوها فقام الزهرى فقال أيها الناس

أرضيتم من سماه أمير المؤمنين سليمان فى وصيته فقالوا نعم فقرأ الكتاب فاذا اسم عمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك فقام مكحول فقال أين عمر وكان عمر فى أواخر الناس فاسترجع حين دعى باسمه مرتين أو ثلاثا فأتوه قوم فأخذوا بيده وعضديه فأقاموه وذهبوا به الى المنبر فصعد وجلس على المرقاة الثانية وللمنبر خمس مراقى فكان أول من بايعه من الناس يزيد بن عبد الملك وقام سعيد وهشام فانصرفا ولم يبايعا وبايع الناس جميعا ثم بايع سعيد وهشام بعد ذلك بيومين وكان عمر فى نهاية النسك والتواضع فصرف عمال من كان قبله من بنى أمية واستعمل أصلح من قدر عليه فسلك عماله طريقته وترك لعن على عليه السلام على المنابر وجعل مكانه ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم وقيل بل جعل مكان ذلك ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى الآية وقيل بل جعلهما جميعا فاستعمل الناس ذلك فى الخطبة الى هذه الغاية ولما استخلف عمر ودخل عليه سالم السدى وكان من خاصته فقال له عمر أسرك ما وليت أم ساءك فقال سرنى للناس وساءنى لك قال انى أخاف ان أكون أوبقت نفسى قال ما أحسن حالك ان كنت تخاف انى أخاف عليك أن لا تخاف قال عظنى قال أبونا آدم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة وكتب طاوس الى عمر ان أردت ان يكون عملك خيرا كله فاستعمل أهل الخير فقال عمر كفى بها موعظة ولما أفضى اليه الأمر كان أول خطبة خطب الناس بها أن قال أيها الناس انما نحن من أصول قد مضت فروعها فما بقاء فرع بعد أصله وانما الناس فى هذه الدنيا أعراض تنتضل فيهم المنايا وهم فيها نصب المصائب مع كل جرعة شرق وفى كل أكلة غصص لا ينالون نعمة الا بفراق اخرى ولا يعمر معمر منكم يوما من عمره الا بهدم آخر من أجله وكتب الى عامله بالمدينة أن اقسم فى ولد على بن أبى طالب عشرة آلاف دينار فكتب اليه ان عليا قد ولد له فى عدة قبائل من قريش ففى أى ولده فكتب اليه لو كتبت اليك فى شاة تذبحها لكتبت الى سوداء أو بيضاء اذا أتاك كتابى هذا فاقسم فى ولد على من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة الاف دينار فطال ما تخطتهم حقوقهم والسلام (وخطب) فى بعض مقاماته فقال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه أيها الناس انه لا كتاب بعد القرآن ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم الا وانى لست بقاض ولكنى منفذ الا وانى لست بمبتدع ولكنى متبع ان الرجل الهارب من الامام الظالم هو العاصى الا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق (وبعث) عمر وفدا الى ملك الروم فى أمر من مصالح المسلمين وحق يدعوه اليه فلما دخلوا اذا ترجمان يفسر عليه وهو جالس على سرير ملكه والتاج على رأسه والبطارقة عن يمينه وشماله والناس على مراتبهم بين يديه فأدى اليه ما قصدوا له فتلقاهم بجميل وأجابهم بأحسن الجواب وانصرفوا عنه فى ذلك اليوم فلما كان فى غداة غد أتاهم رسوله فدخلوا عليه فاذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاج عن رأسه وقد تغيرت صفاته التى شاهدوه عليها كأنه فى مصيبة فقال هل تدرون لماذا دعوتكم قالوا لا قال ان صاحب مصلحتى التى تلى العرب جاءنى كتابه فى هذا الوقت أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات فما ملكوا أنفسهم أن بكوا فقال

لا تبكوا له وابكوا لأنفسكم ما بدا لكم فانه خرج الى خير مما خلف قد كان يخاف أن يدع
طاعة لله فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافة الآخرة لقد بلغني من بره وفضله
وصدقه مالو كان أحد بعد عيسى يحيي الموتى لظننت أنه يحيي الموتى ولقد كانت تأتيني
أخباره باطنا وظاهرا فلا اجد أمره مع ربه الا واحدا بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه
ولم أعجب لهذا الراهب الذي قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته ولكني عجبت من
هذا الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها حتى صار مثل الراهب ان أهل الخير لا يبقون
مع أهل الشر الا قليلا (وكتب عمر) الى أبي حازم المدني الاعرج أن أوصني وأوجز فكتب
اليه كأنك يا أمير المؤمنين بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل والسلام ووقع الى عامل من عماله
قد كثر شاكوك وقل شاكروك فاما عدلت وأما اعتزلت والسلام وذكر المدائني قال كان
يشترى لعمر قبل خلافته الحلة بألف دينار فاذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها فلما أتته الخلافة
كان يشترى له قميص بعشرة دراهم فاذا لبسه استلانه وخرج مع جماعة من أصحابه فمر بالمقبرة
فقال لهم قفوا حتى آتى قبور الاحبة فأسلم عليهم فلما توسطها وقف فسلم وتكلم وانصرف
الى أصحابه فقال ألا تسألوني ماذا قلت لهم وما قيل لي فقالوا وماذا قلت يا أمير المؤمنين وما
قيل لك قال مررت بقبور الاحبة فسلمت فلم يردوا ودعوت فلم يجيبوا فبينا أنا كذلك اذ
نوديت يا عمر أتعرفني انا الذي غيرت محاسن وجوههم ومزقت الاكفان عن جلودهم
وقطعت أيديهم وأبنت اكفهم من سواعدهم ثم بكى حتى كادت نفسه أن تطفأ فوالله ما مضى
بعد ذلك الا أيام حتى لحق بهم (وذكر المدائني) قال كتب مطرف الى عمر اما بعد فان الدنيا
دار عقوبة لها يجمع من لا عقل له وبها يغتر من لا علم له فكن بها كالمداوي جرحه واصبر
على شدة الدواء لما تخاف من عاقبة الداء (وذكر بعض الاخباريين) أن عمر في عنفوان
حداثته جنى عليه عبد له أسود جناية فبطحه وهم ليضربه فقال له العبد يا مولاي لم تضربني
قال لانك جنيت كذا وكذا قال فهل جنيت انت جناية قط غضب بها عليك مولاك قال
عمر نعم قال فهل عجل عليك العقوبة قال اللهم لا قال العبد فلم تعجل على ولم يعجل عليك فقال
له قم فأنت حر لوجه الله وكان ذلك سبب توبته وكان عمر يكثر هذا الكلام في دعائه فيقول
يا حليما لا يعجل على من عصاه (وذكر جماعة من الاخباريين) أن عمر لما ولى الخلافة وفد
عليه وفود العرب ووفد عليه وفد الحجاز فاختار الوفد غلاما منهم فقدموه عليهم ليبدأ
بالكلام فلما ابتدأ الغلام بالكلام وهو أصغر القوم سنا قال عمر مهلا يا غلام ليتكلم
من هو أسن منك فقال مهلا يا أمير المؤمنين انما المرء بأصغريه لسانه وقلبه فاذا منح الله العبد
لسانا لافظا وقلبا حافظا فقد استجاد له الحلية يا أمير المؤمنين ولو كان التقدم بالسن
لكان في هذه الامة من هو أسن منك قال تكلم يا غلام قال نعم يا أمير المؤمنين نحن وفود
التهنئة لا وفود المرزئة قدمنا اليك من بلدنا نحمد الله الذي من بك علينا لم يخرجنا اليك
رغبة ولا رهبة أما الرغبة فقد أتانا منك الى بلدنا وأما الرهبة فقد أمننا الله بعدلك من
جورك فقال عظنا يا غلام وأوجز قال نعم يا أمير المؤمنين ان أناسا من الناس غرهم حلم الله
عنهم وطول أملهم وحسن ثناء الناس عليهم فلا يغرنك حلم الله عنك وطول املك وحسن

ثناء الناس عليك فنزل قدمك فنظر عمر فى سن الغلام فاذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة فأنشأ عمر رحمه الله يقول

تعلم فليس المرء يولد عالما * وليس أخو علم كمن هو جاهل
وان كبير القوم لا علم عنده * صغير اذا التفت عليه المحافل

وقد كان رجل من أهل العراق أتى المدينة فى طلب جارية وصفت له قارئة قوالة فسأل عنها فوجدها عند قاضى المدينة فأتاه وسأله أن يعرضها عليه فقال يا عبد الله لقد أبعدت الشقة فى طلب هذه الجارية فما رغبتك فيها لما رأى من شدة اعجابه بها قال انها تغنى فتجيد فقال القاضى ما علمت بهذا فالح عليه فى عرضها فعرضت بحضرة مولاها القاضى فقال لها الفتى هات فغنت

الى خالد حتى أنخن بخالد * فنعم الفتى يرجى ونعم المؤمل

ففرح القاضى بجاريته وسر بغنائها وغشيه من الطرب أمر عظيم حتى اقعدها على فخذه وقال هات شيأ بأبى أنت فغنت

أروح الى القصاص كل عشية * أرجى ثواب الله فى عدد الخطا

فزاد الطرب على القاضى ولم يدر ما يصنع فأخذ نعله فعلقها فى أذنه وجثا على ركبتيه وجعل يأخذ بطرف أذنه والنعل معلقة فيها ويقول أهدونى الى البيت الحرام فانى بدنة حتى أدمى أذنه فلما أمسكت أقبل على الفتى فقال يا حبيبى انصرف قد كنا فيها راغبين قبل أن نعلم أنها تقول فنحن الآن فيها أرغب فانصرف الفتى وبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز فقال قاتله الله لقد استرقه الطرب وأمر بصرفه عن عمله فلما صرف قال نساؤه طوالق لو سمعها عمر لقال اركبونى فانى مطية فبلغ ذلك عمر فأشخصه وأشخص الجارية فلما دخلا على عمر قال له أعد ما قلت قال نعم فأعاد ما قال فقال للجارية قولى فغنت

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والجدود العواثر

فما فرغت من هذا الشعر حتى طرب عمر طربا بينا وأقبل يستعيدها الأبيات وقد بلت دموعه لحيته ثم أقبل على القاضى فقال قد قاربت فى يمينك ارجع الى عملك راشدا (حدثنا) الطوسى والاموى الدمشقى وغيرهما عن الزبير بن بكار عن عبد الله بن أحمد المدينى قال كان بالمدينة فتى من بنى أمية من ولد عثمان وكان ظريفا يختلف الى قينة لبعض قريش وكانت الجارية تحبه ولا يعلم ويحبها ولا تعلم ولم تكن محبة القوم إذ ذاك لريبة ولا فاحشة فأراد يوما أن يبلو ذلك فقال لبعض من عنده امض بنا اليها فانطلقوا وفاهم وجوه أهل المدينة من قريش والانصار وغيرهما وما كان فيهم فتى يجد بها وجده ولا تجد بأحد منهم وجدها بالأموى فلما أخذ الناس مواضعهم قال لها الفتى أتحسنين أن تقولين

أحبكم حبا بكل جوارحى * فهل عندكم علم بما لكم عندى
أتجزون بالود المضاعف مثله * فان كريما من يجزى الود بالود

قالت نعم وأحسن أحسن منه وقالت

للذى ودّنا المودة بالضعـ * ـف وفضل البادى به لا يجازى
لو بدا ما بنا لكم ملأ الار * ض واقطار شأمها والحجازا

قال فعجب الفتى من حذقها مع حسن جوابها وجودة حفظها فازداد كلفا بها وقال

انت عذر الفتى اذا هتك الستـ * ـر وان كان يوسف المعصوما

فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز فاشتراها بعشر حدائق ووهبها له بما يصلحها فأقامت عنده حولا ثم ماتت فرثاها وقضى فى حالة تلك فدفنا معا وكان من مرثيته لها قوله

قد تمنيت جنة الخلد للخلـ * ـد فادخلتها بلا استئهال
ثم أخرجت اذ تطمعت بالنعـ * ـمة منها والموت أحمد حال

وقال اشعب الطامع هذا سيد شهيد الهوى اشحروا على قبره سبعين بدنة (وقال) أبو حازم الاعرج المدنى أما صحب الله يبلغ هذا وقد كان خرج فى أيام عمر سودب الخارجى وقوى أمره فيمن خرج معه من المحكمة من ربيعة وغيرها فحدث عباد بن عباد المهلبى عن محمد ابن الزبير الحنظلى قال أرسلنى عمر اليهم وأرسل معى عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وكان خروجهم بالجزيرة وكتب عمر معنا اليهم كتابا فأتيناهم فأبلغناهم كتابه ورسالته فبعثوا معنا رجلين منهم أحدهما من بنى شيبان والآخر فيه حبشة وهو أحدهما لسانا وعارضة فقدمنا بهما على عمر بن عبد العزيز وهو بخناصرة فصعدنا اليه الى غرفة هو فيها ومعه ابنه عبد الملك وكاتبه مزاحم فذكرنا مكانهما فقال فتشوهما لا يكون معهما حديد ففعلنا فلما دخلا قالا السلام عليك ثم جلسا فقال لهما عمر أخبرانى ما الذى أخرجكم مخرجكم هذا وما نقمتم علينا فتكلم الذى فيه حبشة فقال والله ما نقمنا عليك فى سيرتك وانك لتجرئ بالعدل والاحسان ولكن بيننا وبينك أمران أنت اعطيتناه فنحن منك وأنت منا وان منعتناه فلست منا ولسنا منك فقال عمر وما هو قال رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها المظالم وسلكت غير سبيلهم فان زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وتبرأ منهم فهذا الذى يجمع بيننا وبينك أو يفرق فتكلم عمر فقال انى قد علمت انكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لدنيا ولكن أردتم الآخرة وأخطأتم طريقها وانى سائلكم عن أمور فبالله لتصدقننى عنها أرأيتما أبا بكر وعمر أليسا من أسلافكم ومن تتولونهما وتشهدون لهما بالنجاة قالا بلى قال فهل علمتم أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدت العرب قاتلهم فسفك الدماء وأخذ الاموال وسبى الذرارى قالا نعم قال فهل علمتم أن عمر حين قام بعد أبى بكر رد تلك السبايا الى أصحابها قالا نعم قال فهل برئ عمر من أبى بكر قالا لا قال أفرأيتم أهل النهروان أليسوا من أسلافكم ومن تتولون وتشهدون لهم بالنجاة قالا بلى قال فهل علمتم أن أهل الكوفة حين خرجوا اليهم كفوا أيديهم فلم يسفكوا دما ولم يخيفوا آمنا ولم يأخذوا مالا قالا نعم قال فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا اليهم مع الشيبانى وعبد الله بن وهب الراسبى وأصحابه استعرضوا الناس يقتلونهم ولقوا عبد الله بن خباب ابن الارث صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلوه وقتلوا جاريته ثم صبحوا حيا من أحياء العرب فاستعرضوهم فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يلقون الصبيان

فى قدور الأقط وهى تفور قالا قد كان ذلك قال فهل تبرأ أهل البصرة من أهل الكوفة وأهل الكوفة من أهل البصرة قالا لا قال فهل تبرأون أنتم من احدى الطائفتين قالا لا قال أرأيتم الدين واحدا أم اثنين قالا بل واحدا قال فهل يسعكم فيه شئ يعجز عنى قالا لا قال فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر وتولى أحدهما صاحبه وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة وتولى بعضهم بعضا وقد اختلفوا فى أعظم الاشياء فى الدماء والفروج والأموال ولا يسعنى فيما زعمتم الا لعن أهل بيتى والتبرؤ منهم أرأيتم لعن أهل الذنوب فريضة مفروضة لابد منها فان كانت كذلك فأخبرنى أيها المتكلم متى عهدك بلعن فرعون قال ما أذكر متى لعنته قال ويحك لم لا تلعن فرعون وهو اخبث الخلق ويسعنى فيما زعمت لعن أهل بيتى والتبرؤ منهم ويحك انكم قوم جهال ثم أردتم أمرا فأخطأتموه فأنتم تردون على الناس ماقبله منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويامن عندكم من خاف عنده ويخاف عندكم من أمن عنده قالا ما نحن كذلك قال عمر بل سوف تقرون بذلك الآن هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الى الناس وهم عبدة أوثان فدعاهم الى خلع الأوثان وشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فمن فعل ذلك حقن دمه وأحرز ماله ووجبت حرمته وكانت له أسوة المسلمين قالا نعم قال أفلستم انتم تلقون من يخلع الأوثان ويشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فتستحلون دمه وماله وتلقون من ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وسائر الاديان فيأمن عندكم وتحرمون دمه قال الحبشى ما سمعت كاليوم قط حجة أبين وأقرب مأخذا من حجتك أما أنا فأشهد أنك على الحق وأنا برىء ممن برئ منك فقال عمر للشيبانى فانت ماتقول قال ما أحسن ماقلت وأبين ما وصفت ولكنى لا أفتات على المسلمين بأمر حتى أعرض قولك عليهم فأنظر ما حجتهم قال فأنت أعلم فانصرف وأقام الحبشى فأمر له عمر بعطائه فمكث خمسة عشر يوما ثم مات ولحق الشيبانى بأصحابه فقتل معهم بعد موت عمر رحمه الله تعالى ولعمر مع الخوارج أخبار غير ماذكرنا ومراسلات ومناظرات وكذلك لمن سلف من بنى أمية وغيرهم من ولاة الامصار وقد أتينا على ذكرها وذكر كل من سمته الخوارج بأمير المؤمنين وخاطبته بالامامة من الأزارقة والأباضية والجرية والنجدات والخليفة والصفرية وغيرهم من أنواع الحرورية وذكرنا مواضعهم من الارض فى هذا الوقت مثل من سكن منهم بلاد شهرزور وسجستان وجواة اصطخر من بلاد فارس وبلاد كرمان وأذربيجان وبلاد مكران وجبال عمان وهراة من بلاد خراسان والجزيرة وتاهرت السفلى وغيرها من بقاع الارض فى كتابينا أخبار الزمان والاوسط وما ذكرنا من الرد عليهم فى التحكيم وغير ذلك فى كتابنا المترجم بكتاب الانتصار المحكم لفرق الخوارج وفى كتاب الاستبصار وقد ذكر جماعة من شعرائهم من سلف من أئمتهم من ذلك قول مصقلة ابن عتبان الشيبانى وكان من غلبة الخوارج

وأبلغ أمير المؤمنين رسالة * وذو النصح ان لم يرع منك قريب
فانك ان لاترض بكر بن وائل * يكن لك يوم بالعراق عصيب
فان يك منهم كان مروان وابنه * وعمرو ومنكم هاشم وحبيب

فمنا سويد والبطين وقعنب * ومنا أمير المؤمنين شبيب
غزالة ذات البدر منا جيدة * لها في سهام المسلمين نصيب
ولا صلح ما دامت منابر أرضنا * يقوم عليها من ثقيف خطيب

وكذلك ذكرنا أخبار أم شبيب وما كانت عليه من الاجتهاد في ديانة المحكمة وفيها يقول الشاعر

أم شبيب ولدت شبيبا * هل تلد الذئبة الا ذيبا

وأخبار علمائهم كاليمان وله كتب مصنفة في مذاهبهم وعبد الله بن يزيد الاباضي وأبي مالك الحضرمي وقعنب وغير هؤلاء من علمائهم وقد كان اليمان بن رباب من غلبة علماء الخوارج وأخوه علي بن رباب من غلبة علماء الرافضة هذا مقدم في أصحابه وهذا مقدم في أصحابه يجتمعان في كل سنة ثلاثة أيام يتناظران فيها ثم يفترقان ولا يسلم أحدهما على الآخر ولا يخاطبه وكذلك كان جعفر بن المبشر من علماء المعتزلة وحذاقها وزهادها وأخوه حسن بن المبشر من علماء أصحاب الحديث ورؤساء الحشوية بالضد من أخيه جعفر وطالت بينهما المناظرة والمباغضة والتباين وكل واحد منهما لا يخاطب الآخر الى أن لحق بخالقه وجعفر ابن المبشر وجعفر بن حرب من علماء البغداديين من المعتزلة وكان عبد الله بن يزيد الاباضي بالكوفة تختلف اليه أصحابه يأخذون منه وكان خرازا شريكا لهشام بن الحكم وكان هشام مقدما في القول بالجسم والقول بالامامة على مذهب القطعية يختلف اليه أصحابه من الرافضة يأخذون عنه وكلاهما في حانوت واحد على ما ذكرنا من التضاد في المذهب من التشري والرفض لم يجر بينهما مسابة ولا خروج عما يوجبه العلم وقضية العقل وموجب الشرع وأحكام النظر والسير وذكر ان عبد الله بن يزيد الاباضي قال لهشام بن الحكم في بعض الأيام تعلم ما بيننا من المودة ودوام الشركة وقد أحببت أن تنكحني ابنتك فاطمة فقال له هشام انها مؤمنة فأمسك عبد الله ولم يعاوده في شئ من ذلك الى أن فرق الموت بينهما وكان من أمر هشام مع الرشيد وابن برمك ما اتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا وذكر عن عمر بن عبيد انه كان يقول أخذ عمر بن عبد العزيز الخلافة بغير حقها ولا باستحقاق ثم استحقها بالعدل حين أخذها وفي وفاة عمر رضي الله تعالى عنه يقول الفرزدق من أبيات يرثيه بها

اقول لما نعى الناعون لي عمرا * لقد نعيتم قوام الحق والدين
قد غيب الرامسون اليوم اذ رمسوا * بدير سمعان قسطاس الموازين
لم يلهه عمره عين يفجرها * ولا النخيل ولا ركض البراذين

ولعمر رحمة الله عليه خطب وأخبار حسان غير ما ذكرنا في هذا الكتاب في الزهد وغيره وقد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا والحمد لله رب العالمين

ذكر أيام يزيد بن عبد الملك بن مروان

وملك يزيد بن عبد الملك في اليوم الذي توفي فيه عمر بن عبد العزيز وهو يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة احدى ومائة ويكنى أبا خالد وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي

سفيان وتوفي يزيد بن عبد الملك باربد من أرض البلقاء من أعمال دمشق يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة وهو ابن سبع وثلاثين سنة فكانت ولايته أربع سنين وشهرا ويومين

(ذكر لمع من أخباره وسيره وما كان في أيامه)

كان الغالب على يزيد بن عبد الملك حب جارية يقال لها سلامة القس وكانت لسهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري فاشتراها يزيد بثلاثة آلاف دينار فأعجب بها وغلبت على أمره وفيها يقول عبد الله بن قيس الرقيات

لقد فتن الدنيا وسلامة القسا * فلم يترك اللقس عقلا ولا نفسا

فاحتالت ام سعيد العثمانية جدته بشراء جارية يقال لها حبابة قد كان في نفس يزيد بن عبد الملك قديما منها شيء فغلبت عليه ووهب سلامة لام سعيد فعذله مسلمة بن عبد الملك لما عم الناس من الظلم والجور باحتجابه واقباله على الشرب واللهو وقال انما مات عمر أمس وكان من عدله ما قد علمت فينبغي ان تظهر للناس العدل وترفض هذا اللهو فقد اقتدى بك عمالك في سائر أفعالك وسيرتك فارتدع عما كان عليه وأظهر الاقلاع والندم وأقام على ذلك مدة مديدة فغلظ ذلك على حبابة فبعثت الى الأحوص الشاعر ومعبد المغني انظرا اما أتما صانعان فقال الأحوص في أبيات له

الا لا تلمه اليوم أن يتبلدا * فقد غلب المحزون أن يتجلدا

اذا كنت لا تعشق ولم تدر ما الهوى * فكن حجرا من يابس الصلد جلمدا

فما العيش الا ما تلذ وتشتهي * وان لام فيه ذو الشنان وفندا

وغناه معبد وأخذته حبابة فلما دخل عليها يزيد قالت يا أمير المؤمنين اسمع مني صوتا واحدا ثم افعل ما بدا لك وغنته فلما فرغت منه جعل يردد قولها

فما العيش الا ما تلذ وتشتهي * وان لام فيه ذو الشنان وفندا

وعاد بعد ذلك الى لهوه وقصفه ورفض ما كان عليه وذكر اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال حدثني ابن سلام قال ذكر يزيد قول الشاعر

صفحنا عن بني ذهل * وقلنا القوم اخوان

عسى الأيام أن يرجعن * قوما كالذي كانوا

فلما صرح الشر * فأمسى وهو عريان

مشينا مشية الليث * غدا والليث غضبان

بضرب فيه توهين * وتخضيع واقران

وطعن كفم الزق * وهي والزق ملآن

وفي الشر نجاة حين * لا ينجيك احسان

وهو شعر قديم يقال انه للفند في حرب البسوس فقال لحبابة غنيني به بحياتي فقالت يا أمير المؤمنين هذا شعر لا أعرف أحدا يغني به الا الأحول المكي فقال نعم قد كنت سمعت ابن عائشة يعمل فيه ويترك قالت انما أخذه عن فلان ابن أبي لهب وكان حسن الاداء فوجه

يزيد الى صاحب مكة اذا أتاك كتابي هذا فادفع الى فلان ابن أبي لهب ألف دينار لنفقة طريقه واحمله على ما شاء من دواب البريد ففعل فلما قدم عليه قال غني بشعر الفند فغناه فأجاد وأحسن وقال أعده فأعاده فأجاد وأحسن واطرب يزيد فقال له عمن أخذت هذا الغناء فقال يا أمير المؤمنين أخذته عن أبي وأخذه أبي عن أبيه فقال لو لم ترث الا هذا الصوت لكان أبو لهب قد ورثكم خيرا كثيرا فقال يا أمير المؤمنين ان أبا لهب مات كافرا مؤذيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قد أعلم ما تقول ولكني دخلتني له رقة اذ كان مجيد الغناء ووصله وكساه ورده الى بلده مكرما وكان في عهد عمر الى يزيد اذا أمكنتك القدرة بالعزة فاذكر قدرة الله عليك وقيل ان هذا الكلام كتب به عمر الى بعض عماله وفيه زيادة على ما ذكره الزبير بن بكار وهي اذا أمكنتك القدرة من ظلم العباد فاذكر قدرة الله عليك بما يأتي عليهم واعلم أنك لا تأتي عليهم أمرا الا كان زائلا عنهم باقيا عليك وأن الله يأخذ للمظلوم من الظالم ومهما ظلمت من أحد فلا تظلمن من لا ينتصر عليك الا بالله تعالى واعتلت حبابة فأقام يزيد أياما لا يظهر للناس ثم ماتت فأقام أياما لا يدفنها جزعا عليها حتى جيفت فقيل ان الناس يتحدثون بجزعك وان الخلافة تجل عن ذلك فدفنها وأقام على قبرها فقال

فان تسل عنك النفس أو تدع الهوى * فباليأس تسلو النفس لا بالتجلد

ثم أقام بعدها أياما قلائل ومات حدث أبو عبد الله محمد بن ابراهيم عن أبيه عن اسحاق الموصلي عن أبي الحويرث الثقفي قال لما ماتت حبابة حزن عليها يزيد بن عبد الملك حزنا شديدا وضم اليه جويرية كانت تحدثها فكانت تخدمه فتمثلت الجارية يوما

كفى حزنا للهائم الصب أن يرى * منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى حتى كاد أن يموت ولم تزل تلك الجويرية معه يتذكر بها حبابة حتى مات وكان يزيد ذات يوم في مجلسه وقد غنته حبابة وسلامة فطرب طربا شديدا ثم قال أريد أن أطير فقالت له حبابة يا مولاي فعلى من تدع الامة وتدعنا وكان أبو حمزة الخارجي اذا ذكر بني مروان وعابهم ذكر يزيد بن عبد الملك فقال أقعد حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره ثم قال أريد أن اطير فطار الى لعنة الله وأليم عذابه (قال المسعودي) وقد كان يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة هرب من سجن عمر بن عبد العزيز حين أثقل وذلك في سنة احدى ومائة وصار الى البصرة وعليها عدي بن أرطاة الفزاري فأخذه يزيد بن المهلب فاوثقه ثم خرج يريد الكوفة مخالفا على يزيد بن عبد الملك وحشدت له الأزد وأحلافها وانحاز اليه أهله وخاصته وعظم أمره واشتدت شوكته فبعث اليه أخاه مسلمة بن عبد الملك وابن اخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك في جيش عظيم فلما شارفاه رأى يزيد بن المهلب في عسكره اضطرابا فقال ما هذا الاضطراب قيل جاء مسلمة والعباس فوالله ما مسلمة الا جرادة صفراء وما العباس الا بسطوس ابن بسطوس وما أهل الشأم الا طغام قد حشدوا ما بين فلاح وزراع ودباغ وسفلة فأعيروني اكفكم ساعة تصفعون بها خراطيمهم فما هي الا غدوة وروحة حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين علي بفرسي فأتي بفرس أبلق فركب غير متسلح فالتقى الجيشان فاقتتلوا

قتالا شديدا وولى أصحاب يزيد عنه فقتل يزيد فى المعركة وصبر اخوته أنفسهم فقتلوا جميعا ففى ذلك يقول الشاعر

كل القبائل بايعوك على الذى * تدعو اليه طائعين وساروا
حتى اذا حضر الوغى وجعلتهم * نصب الأسنة أسلوك وطاروا
ان يقتلوك فان قتلك لم يكن * عارا عليك وبعض قتل عار

فلما ورد الخبر على يزيد بن عبد الملك استبشر وأخذ الشعراء جميعا يهجون آل المهلب الا كثير فانه امتنع من ذلك فقال له يزيد حركتك الرحم يا أبا صخر لأنهم يمانيون ففى ذلك يقول جرير يهجو آل المهلب

يارب قوم وقوم حاسدين لكم * مافيهم بدل منكم ولا خلف
آل المهلب جز الله دابرهم * امسوا رمادا فلا أصل ولا طرف
مانالت الأزد من دعوى مضلهم * الا المعاجم والاعناق تختطف
والازد قد جعلوا المتوف قائدهم * فقتلتهم جنود الله وانتسفوا

وهى طويلة وفى ذلك يقول جرير أيضا ليزيد من كلمة

لقد تركت فلا نعدمك اذ كفروا * آل المهلب عظما غير مجبور
يا ابن المهلب ان الناس قد علموا * أن الخلافة للشم المغاوير

وبعث يزيد هلال بن أحوز المازنى فى طلب آل المهلب وأمره أن لا يلقى منهم من بلغ الحلم الاضرب عنقه فاتبعهم حتى قندابيل من أرض السند وأتى هلال بغلامين من آل المهلب فقال لاحدهما أدركت قال نعم ومد عنقه فكان الآخر أشفق عليه فعض شفته لئلا يظهر جزعا فضرب عنقه وأثخن القتل فى آل المهلب حتى كاد أن يفنيهم فذكر ان آل المهلب مكثوا بعد ايقاع هلال بهم عشرين سنة يولد فيهم الذكور فلا يموت منهم أحد وفى مدح هلال ابن أحوز وما فعل يقول جرير

اقول لها من ليلة ليس طولها * كطول الليالى ليت صبحك نورا
أخاف على نفسى ابن أحوز انه * جلا كل هم فى النفوس فأسفرا
جعلت لقبر بالحساب ومالك * وقبر عدى بالمقابر اقبرا
فلم يبق منهم راية تعرفونها * ولم يبق من آل المهلب عسكرا

وهى أبيات وقد كان يزيد بن عبد الملك حين ولى عمر بن هبيرة الفزارى العراق وأضاف اليه خراسان واستقام أمره هنالك بعث ابن هبيرة الى الحسن بن أبى الحسن البصرى وعامر ابن شرحبيل الشعبى ومحمد بن سيرين وذلك فى سنة ثلاث ومائة فقال اللهم ان يزيد بن عبد الملك خليفة الله استخلفه على عباده وأخذ ميثاقهم بطاعته وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة وقد ولانى ماترون يكتب الى بالامر من أمره فانفذه وأقلده ما يقلده من ذلك فما ترون فقال ابن سيرين والشعبى قولا فيه تقية فقال عمر ما تقول يا حسن فقال الحسن يا ابن هبيرة خف الله فى يزيد ولا تخف يزيد فى الله ان الله يمنعك من يزيد وان يزيد لا يمنعك من الله وأوشك أن يبعث اليك ملكا فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك

الى ضيق قبرك ثم لا ينجيك الا عملك يا ابن هبيرة انى احذرك أن تعصى الله فانما جعل الله هذا السلطان ناصر الدين الله وعباده فلا تتركن دين الله وعباده بسلطان الله فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وحكى فى هذا الخبر أن ابن هبيرة أجازهم وأضعف جائزة الحسن فقال الشعبى سفسفنا فسفسف لنا وذكر أن يزيد بن عبد الملك بلغه أن أخاه هشام بن عبد الملك ينتقصه ويتمنى موته ويعيب عليه لهوه بالقينات فكتب اليه يزيد أما بعد فقد بلغنى استثقالك حياتى واستبطاؤك موتى ولعمرى انك بعدى لواهى الجناح أجذم الكف وما استوجبت منك ما بلغنى عنك فأجابه هشام أما بعد فان أمير المؤمنين متى فرغ سمعه لقول أهل الشنآن وأعداء النعم يوشك أن يقدح ذلك فى فساد ذات البين وتقطع الارحام وأمير المؤمنين بفضله وما جعله الله اهلا له أولى أن يتعمد ذنوب أهل الذنوب فأما أنا فمعاذ الله أن أستثقل حياتك أو أستبطئ وفاتك فكتب اليه نحن مغتفرون ما كان منك ومكذبون ما بلغنا عنك فاحفظ وصية عبد الملك ايانا وقوله لنا فى ترك التباغى والتخاذل وما أمر به وحض عليه من صلاح ذات البين واجتماع الاهواء فهو خير لك وأملك بك وانى لا كتب اليك وأعلم انك كما قال الاول

وانى على اشياء منك تريبنى * قديما لذو صفح على ذاك مجمل

ستقطع فى الدنيا اذا ما قطعتنى * يمينك فانظر أى كف تبدل

وان أنت لم تنصف أخاك وجدته * على طرف الهجران ان كان يعقل

فلما أتى الكتاب هشاما ارتحل اليه فلم يزل فى جواره مخافة أهل البغى والسعاية حتى مات يزيد وممن مات فى أيام يزيد بن عبد الملك عطاء بن يسار مولى ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ويكنى أبا محمد وهو ابن أربع وثمانين سنة وذلك فى سنة ثلاث ومائة وفيها مات مجاهد ابن جبير مولى قيس بن السائب المخزومى ويكنى أبا الحجاج وهو ابن أربع وثمانين سنة وجابر ابن زيد مولى الازد من أهل البصرة ويكنى أبا الشعثاء ويزيد بن الاصم من أهل الرقة وهو ابن أخت ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ويحيى بن وثاب الاسدى مولى بنى كنانة كان وأبو بردة بن أبى موسى الاشعرى واسمه عامر كوفى وفى سنة أربع ومائة مات وهب بن منبه ويقال مات سنة عشرة ومائة وفى سنة أربع ومائة هذه أيضا مات طاوس وفى سنة خمس ومائة مات عبد الله بن جبير مولى العباس بن عبد المطلب ويقال انه مولى مولى العباس وقيل ان طاوس بن كيسان ويكنى أبا عبد الرحمن مولى بحير الحميرى مات بمكة سنة ست ومائة وصلى عليه هشام بن عبد الملك وفى سنة سبع ومائة مات سليمان بن يسار مولى ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم وهو اخو عطاء بن يسار ويكنى أبا أيوب وهو ابن ثلاث وسبعين سنة بالمدينة وقيل انه مات فى سنة مائة وفى سنة ثمان ومائة مات القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ومات الحسن بن أبى الحسن البصرى ويكنى أبا سعيد فى سنة عشر ومائة واسم أبيه يسار مولى لامرأة من الانصار مات وله تسع وثمانون سنة وقيل تسعون سنة وكان اكبر من محمد بن سيرين ومات محمد بعده بمائة ليلة فى هذه السنة وهو ابن احدى وثمانين سنة وقيل ابن ثمانين وكان اولاد سيرين خمسة اخوة محمد وسعيد ويحيى وخالد وأنس

ابن سيرين وسيرين مولى أنس بن مالك والحسنة قد رووا السنن ونقلت عنهم ووجدت أصحاب التواريخ متباينين ومختلفين غير متفقين فى وفاة وهب بن منبه ويكنى أبا عبد الله فمنهم من ذكر وفاته على حسب ما قدمنا فى هذا الباب ومنهم من رأى أنه مات سنة عشر ومائة بصنعاء وكان من الابناء وهو ابن تسعين سنة وفى سنة خمس عشرة ومائة مات الحكم بن عتبة الكندى وقيل انه مات فيها عطاء بن أبى رباح وفى سنة ثلاث وعشرين ومائة مات أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهرى وذكر الواقدى أنه مات سنة أربع وعشرين ومائة وليزيد بن عبد الملك أخبار حسان ولما كان فى أيامه من الكوائن والأحداث وقد اتينا على مبسوط ذلك فى كتابينا أخبار الزمان والأوسط وانما ذكرنا وفاة من سمينا من أهل العلم ونقلة الآثار وحملة الأخبار ليكون ذلك زيادة فى فائدة الكتاب وتكون فوائده عامة اذ كان الناس فى أغراضهم متباينين وفيما يتيممونه من مأخذ العلم مختلفين فنهم طالب خبر ومقلد لأثر ومنهم ذو بحث ونظر ومنهم صاحب حديث ومنقر عن علل ومراع لوفاة مثل من ذكرنا فجعلنا فيه لكل ذى رأى نصيبا وبالله التوفيق

(ذكر أيام هشام بن عبد الملك بن مروان)

وبويع هشام بن عبد الملك فى اليوم الذى توفى فيه أخوه يزيد بن عبد الملك وهو يوم الجمعة لخمس بقين من شوال سنة خمس ومائة وقبض يزيد وله يومئذ ثمان وثلاثون سنة وقيل أربعون وتوفى هشام بن عبد الملك بالرصافة من أرض قنسرين يوم الاربعاء لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة فكانت ولايته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر واحدى عشرة ليلة

(ذكر لمع من أخباره وسيره)

وكان هشام أحول خشنا فظا غليظا يجمع الأموال ويعمر الارض ويستجيد الخيل وأقام الحلبة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس ولم يعرف ذلك فى جاهلية ولا اسلام لاحد من الناس وقد ذكرت الشعراء ما اجتمع له من الخيل واستجاد الكسى والفرش وعدد الحرب ولامتها واصطنع الرجال وقوى الثغور واتخذ القنى والبرك بطريق مكة وغير ذلك من الآثار التى اتى عليها داود بن على فى صدر الدولة العباسية وفى أيامه عمل الخز والقطف الخز فسلك الناس جميعا فى أيامه مذهبه ومنعوا ما فى أيديهم فقل الافضال وانقطع الرفد ولم ير زمان أصعب من زمانه وفى أيامه استشهد زيد بن على بن الحسين بن على كرم الله وجهه وذلك فى سنة احدى وعشرين ومائة وقيل فى سنة اثنتين وعشرين ومائة وقد كان زيد بن على شاور أخاه أبا جعفر بن على بن الحسين بن على فأشار عليه بأن لا يركن الى أهل الكوفة اذ كانوا أهل غدر ومكر وقال له بها قتل جدك على وبها طعن عمك الحسن وبها قتل أبوك الحسين وفيها وفى اعمالها شتمنا أهل البيت واخبره بما كان عنده من العلم فى مدة ملك بنى مروان وما يتعقبهم من الدولة العباسية فأبى الا ما عزم عليه من المطالبة بالحق فقال له انى أخاف عليك يا أخى أن تكون غدا المصلوب بكناسة الكوفة وودعه أبو جعفر وأعلمه

انهما

انهما لا يلتقيان وقد كان زيد دخل على هشام بالرصافة فلما مثل بين يديه لم ير موضعا يجلس فيه فجلس حيث انتهى به مجلسه وقال يا أمير المؤمنين ليس أحد يكبر عن تقوى الله ولا يصغر دون تقوى الله فقال هشام اسكت لا ام لك أنت الذى تنازعك نفسك فى الخلافة وأنت ابن أمة قال يا أمير المؤمنين ان لك جوابا ان أحببت اجبتك به وان أحببت أمسكت عنه فقال بل أجب قال ان الامهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات وقد كانت أم اسماعيل أمة لأم اسحاق صلى الله عليهما وسلم فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبيا وجعله للعرب أبا فأخرج من صلبه خير البشر محمدا صلى الله عليه وسلم فتقول لى هذا وانا ابن فاطمة وابن على وقام وهو يقول

شرده الخوف وأزرى به * كذاك من يكره حر الجلاد
منخرق الكفين يشكو الجوى * تنكبه أطراف مرو حداد
قد كان فى الموت له راحة * والموت حتم فى رقاب العباد
ان يحدث الله له دولة * يترك آثار العدا كالرماد

فمضى عليها الى الكوفة وخرج عنها ومعه القراء والاشراف فحاربه يوسف بن عمر الثقفى فلما قامت الحرب انهزم أصحاب زيد وبقى فى جماعة يسيرة فقاتلهم اشد قتال وهو يقول متمثلا

أذل الحياة وعز الممات * وكلا أراه طعاما وبيلا
فان كان لابد من واحد * فسيرى الى الموت سيرا جميلا

وحال المساء بين الفريقين فراح زيد مثخنا بالجراح وقد أصابه سهم فى جبهته فطلبوا من ينزع النصل فأتى بحجام من بعض القرى فاستكتموه أمره فاستخرج النصل فمات من ساعته فدفنوه فى ساقية ماء وجعلوا على قبره التراب والحشيش وأجرى الماء على ذلك وحضر الحجام مواراته فعرف الموضع فلما أصبح مضى الى يوسف متنصحا فدله على موضع قبره فاستخرجه يوسف وبعث برأسه الى هشام فكتب اليه هشام أن اصلبه عريانا فصلبه يوسف كذلك ففى ذلك يقول بعض شعراء بنى أمية يخاطب آل أبى طالب وشيعتهم من أبيات

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة * ولم أر مهديا على الجذع يصلب

وبنى تحت خشبته عمودا ثم كتب هشام الى يوسف باحراقه وذروه فى الرياح (قال المسعودى) وحكى الهيثم بن عدى الطائى عن عمرو بن هانئ قال خرجت مع عبد الله بن على لنبش قبور بنى أمية فى أيام أبى العباس السفاح فانتهينا الى قبر هشام فاستخرجناه صحيحا ما فقدنا منه الا خرمة أنفه فضرب به عبد الله بن على ثمانين سوطا ثم أحرقه واستخرجنا سليمان من أرض دابق فلم نجد منه شيأ الا صلبه وأضلاعه ورأسه فأحرقناه وفعلنا ذلك بغيرهما من بنى أمية وكانت قبورهم بقنسرين ثم انتهينا الى دمشق فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك فما وجدنا فى قبره قليلا ولا كثيرا واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا الا شؤون رأسه ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فما وجدنا فيه الا عظما واحدا ووجدنا مع لحده خطا أسود كأنما خط بالرماد فى الطول فى لحده ثم اتبعنا قبورهم فى جميع البلدان فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم واعاذ كرنا هذا الخبر فى هذا الموضع لقتل هشام زيد بن على وما نال هشاما من

المثلة بما فعل بسلفه من الاحراق كفعله بزيد بن علي وقد ذكر أبو بكر بن عياش وجماعة أن زيدا امكث مصلوبا خمسين شهرا عريانا فلم يرله أحد عورة سترا من الله له وذلك بالكناسة بالكوفة فلما كان في أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك وظهر ابنه يحيى بن زيد بخراسان كتب الوليد الى عامله بالكوفة أن أحرق زيدا بخشبته ففعل به ذلك وأذرى في الرياح على شاطئ الفرات وقد أتينا في كتابنا المقالات في اصول الديانات على السبب الذي من أجله سميت الزيدية بهذا الاسم وان ذلك بخروجهم مع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم هذا وقد قيل غير ذلك مما قد اتينا عليه فيما سلف من كتبنا والخلاف في الزيدية والامامية والفرق بين هذين المذهبين وكذلك غيرهم من فرق الشيعة وغيرهم كأبي عيسى محمد بن هارون الوراق وغيره فقلنا ان الزيدية كانت في عصرهم ثمانية فرق أولها الفرقة المعروفة بالجارودية وهم أصحاب أبي الجارود زياد بن المنذر العبدي وذهبوا الى أن الامامة مقصورة في ولد الحسن والحسين دون غيرهما ثم الفرقة الثانية المعروفة بالمرئية ثم الفرقة الثالثة المعروفة بالأبرقية ثم الفرقة الرابعة المعروفة باليعقوبية وهم أصحاب يعقوب بن علي الكوفي ثم الفرقة الخامسة المعروفة بالعقبية ثم الفرقة السادسة المعروفة بالابترية وهم أصحاب كثير الأبتر والحسن بن صالح بن حي ثم الفرقة السابعة المعروفة بالجريرية وهم أصحاب سليمان بن جرير ثم الفرقة الثامنة المعروفة باليمانية وهم أصحاب محمد بن اليمان الكوفي وقد زاد هؤلاء في المذهب وفرعوا مذاهب على ما سلف من أصولهم وكذلك فرق أهل الامامة فكانوا على ذكر من سلف من أصحاب الكتب ثلاثا وثلاثين فرقة وقد ذكرنا تنازع القطعية بعد مضي الحسن بن علي بن محمد بن علي ابن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وما قالت الكيسانية وما تباينت فيه وغيرها من سائر طوائف الشيعة وهم ثلاث وسبعون فرقة دون ما تباينوا فيه من التفريع وتنازعوا فيه من التاويل والغلاة أيضا ثمان فرق المحمدية منهم أربع والمعتزلة أربع وهم العلوية ولولا أن كتابنا هذا كتاب خبر لبسطنا من مذاهبهم ووصفنا من آرائهم ما تقدم قبلنا وحدث في وقتنا هذا وما قالوه من دلائل ظهور المنتظر الموعود بظهوره وما ذهب اليه كل فريق منهم في ذلك من أصحاب الدور والسروة والتشريق وغيرهم من أهل الامامة وعرض هشام يوما الجند بحمص فمر به رجل من أهل حمص وهو على فرس نفور فقال له هشام ما حملك على أن تربط فرسا نفورا فقال الحمصي لا والرحمن الرحيم يا أمير المؤمنين ما هو بنفور ولكنه أبصر حولتك فظن أنها عين غزوان البيطار فقال له هشام تنح فعليك وعلى فرسك لعنة الله وكان غزوان البيطار نصرانيا ببلاد حمص كأنه هشام في حولته وكشفته وبينما هشام ذات يوم جالسا خاليا وعنده الابرش الكلبي اذ طلعت وصيفة لهشام عليها حلة فقال للابرش مازحها فقال لها هبي لي حلتك فقالت له لأنت أطمع من أشعب فقال لها هشام ومن أشعب فقالت كان مضحكا بالمدينة وحدثته بعض أحاديثه فضحك هشام وقال اكتبوا الى ابراهيم بن هشام وكان عامله على المدينة في حمله الينا فلما ختم الكتاب أطرق هشام طويلا ثم قال يا أبرش هشام يكتب الى بلد

رسول

رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحمل اليه مصحف لاها الله ثم تمثل

اذا أنت طاوعت الهوى قادك الهوى * الى بعض مافيه عليك مقال

وأوقف الكتاب وذكر أن هشاما أهدى له رجل طائرين فأعجب بهما فقال له الرجل جائزتي يا أمير المؤمنين قال وما جائزة طائرين قال له ماشئت قال خذ أحدهما فقصد الرجل لأحسنهما فأخذه فقال له هشام وتختار أيضا قال نعم والله أختار فقال دعه وأمر له بدريهمات ودخل هشام بستانا له ومعه ندماؤه فطافوا به وبه من كل الثمار فجعلوا يا كلون ويقولون بارك الله لامير المؤمنين فقال وكيف يبارك لي فيه وأنتم تأكلونه ثم قال ادع قيمه فدعا به فقال له اقلع شجره واغرس فيه زيتونا حتى لا يأكل منه أحد شيأ وكتب اليه ابنه سليمان ان بغلتي قد عجزت فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر لي بدابة فكتب اليه أمير المؤمنين قد فهم كتابك وماذكرت من ضعف دابتك وقد ظن أن ذلك من قلة تعاهدك لعلفها وضياع العلف فقم عليها بنفسك ولعل أمير المؤمنين يرى رأيه في حملانك ونظر هشام الى رجل على برذون طخاري فقال من أين لك هذا قال حملني عليه الجنيد بن عبد الرحمن قال وقد كثرت الطخارية حتى ركبها العامة لقدمات عبد الملك وفي مربطه برذون واحد طخاري فتنافس فيه ولده حتى ظن من فاته أن الخلافة فاتته قال الرجل فحسدني اياه وقد كان اخوه مسلمة مازحه قبل أن يلي الامر فقال له ياهشام اتؤمل الخلافة وأنت جبان بخيل فقال والله اني عليم حليم (وذكر الهيثم بن عدي والمدائني وغيرهما) أن السواس من بني أمية ثلاثة معاوية وعبد الملك وهشام وختمت أبواب السياسة وحسن السيرة وأن المنصور كان في أكثر أموره وتدبيره وسياسته متبعا لهشام في أفعاله لكثرة كشفه عن أخبار هشام وسيره وقد أتينا على غرر أخباره وسيره وسياساته وماحفظ من أشعاره وخطبه وما كان في أيامه في كتابنا أخبار الزمان والاوسط وكذلك ذكرنا بدء الكلام الذي أثار تصنيف الكتاب المعروف بكتاب الواحدة في مناقب العرب ومثالبها مفردة لايشاركها فيها غيرها وما اضيف الى كل حي من العرب من قحطان وغيرهم من نزار وماجرى في مجلس هشام في أوقات مختلفة بين الابرش الكلبي والعباس بن الوليد بن عبد الملك وخالد بن سلمة المخزومي والنضر بن مريم الحميري وما أورده الحميري من مناقب قومه من نزار بن معد بن عدنان وماذكره كل واحد منهم من المثالب فيما عدا قومه وبان عن عشيرته ورهطه وقد قيل ان هذا الكتاب الفه أبو عبيدة معمر بن المثنى مولى آل تيم بن مرة بن كعب بن لؤي على لسان من ذكرنا وعزاه الى من وصفنا أو غيره من الشعوبية

(ذكر أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان)

وبويع الوليد بن يزيد في اليوم الذي توفي فيه هشام وهو يوم الاربعاء لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ثم قتل بالبحراء يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة فكانت ولايته سنة وشهرين واثنين وعشرين يوما وقتل وهو ابن أربعين سنة والموضع الذي قتل فيه دفن فيه وهي قرية من قرى دمشق تعرف بالبحراء على ماذكرنا وقد أتينا على خبر مقتله في كتابنا الاوسط

(ذكر لمع من أخباره وسيره)

ظهر في أيام الوليد بن يزيد يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام بالجوزجان من بلاد خراسان منكرا للظلم وما عم الناس من الجور فسير اليه نصر بن يسار وسلم ابن أحوز المازني فقتل يحيى في المعركة بقرية يقال لها أرغونة ودفن هنالك وقبره مشهور مزور الى هذه الغاية وليحيى وقائع كثيرة وقتل في المعركة بسهم أصابه في صدغه فولى أصحابه عنه يومئذ واحتز رأسه فحمل الى الوليد وصلب جسده بالجوزجان فلم يزل مصلوبا الى أن خرج ابو مسلم صاحب الدولة العباسية فقتل ابو مسلم سلم بن أحوز وأنزل جثة يحيى فصلى عليها ودفنت هنالك وأظهر أهل خراسان النياحة على يحيى بن زيد سبعة أيام في سائر أعمالها في حال أمنهم على أنفسهم من سلطان بني امية ولم يولد في تلك السنة بخراسان مولود الا وسمي يحيى أو زيد لما داخل أهل خراسان من الجزع والحزن عليه وكان ظهور يحيى في آخر سنة خمس وعشرين وقيل أول سنة ست وعشرين ومائة وقد أتينا على أخباره وما كان من حروبه في الكتاب الأوسط وفي غيره مما سلف من كتبنا فأغنى ذلك عن اعادته وكان يحيى يوم قتل يكثر من التمثل بشعر الخنساء

نهين النفوس وهون النفو * س يوم الكريهة أوفى لها

وكان الوليد بن يزيد صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء وهو أول من حمل المغنين من البلدان اليه وجالس الملهين وأظهر الشرب والملاهي والعزف وفي أيامه كان ابن سريج المغني ومعبد والغريض وابن عائشة وابن محرز وطويس ودحمان وغلبت عليه شهوة الغناء في أيامه وعلى الخاص والعام واتخذ القيان وكان متهتكا ماجنا خليعا وطرب الوليد للملتين خلتا من ملكه وأرق فأنشأ يقول

طال ليلي وبت أسقي السلافه * وأتاني نعي من بالرصافه
وأتاني ببردة وقضيب * وأتاني بخاتم للخلافه

ومن مجونه قوله عند وفاة هشام وقد أتاه البشير بذلك وسلم عليه بالخلافه

اني سمعت خليلي * نحو الرصافة رنه
أقبلت أسحب ذيلي * أقول ما حالهنه
اذا بنات هشام * يندبن والدهنه
يدعون ويلا وعولا * والويل حل بهنه
انا المخنث حقا * ان لم انيكهنه

وقيل للوليد مابقي من لذاتك قال محادثة الاخوان في الليالي القمر على الكثبان العفر وبلغ الوليد عن شراعة بن الزيدبود حسن عشرة وحلاوة مجالسة فبعث في احضاره فلما دخل اليه قال اني مابعثت اليك لاسألك عن كتاب ولا سنة قال ولست من أهلها قال انما أسألك عن القهوة قال سل عن أي ذلك شئت يا أمير المؤمنين قال ما تقول في الشراب قال عن أيه تسأل قال ما تقول في الماء قال يشاركني فيه البغل والحمار قال فنبيذ الزبيب قال خمار وأذى قال فنبيذ التمر قال ضراط كله قال فالخمر قال شقيقة روحي وأليفة نفسي

قال فما تقول فى السماع قال يبعث مع التأنى على ذكر الاشجان ويجدد الاهو على مواقع الاحزان ويؤنس الخل الوحيد ويسر العاشق الفريد ويرد على القلوب ويثير من خواطر الضمائر خطرة ليست من الملاهى لغيره يسرع ترقيها فى أجزاء الجسد فتهيج النفس وتقوى الحس قال فأى المجالس أحب اليك قال ما رأيت فيه السماء من غير أن ينالنى فيه أذى قال فما تقول فى الطعام قال ليس لصاحب الطعام اختيار ما وجده أكله فاتخذه الوليد نديما ومن مليح قوله فى الشراب من أبيات

وصفراء فى الكأس كالزعفران * سباها لنا التجر من عسقلان
تريك القذاة وعرض الاناء * سترلها دون مس البنان
لها حبب كلما صفقت * تراها كلمعة برق يمانى

ومن مجونه أيضا على شرابه قوله لساقيه

اسقنى يا يزيد بالقرقاره * قد طربنا وحنت الزماره
اسقنى اسقنى فان ذنوبى * قد أحاطت فما لها كفاره

وأخبرنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى القاضى عن محمد بن سلام الجمحى قال حدثنى رجل من شيوخ أهل الشأم عن أبيه قال كنت سميرا للوليد بن يزيد فرأيت ابن عائشة القرشى عنده وقد قال له غننى فغناه

انى رأيت صبيحة النحر * حورا نعين عزيمة الصبر
مثل الكواكب فى مطالعها * عند العشاء أطفن بالبدر
وخرجت أبغى الاجر محتسبا * فرجعت موقورا من الوزر

فقال له الوليد أحسنت والله يا أمير المؤمنين أعد بحق عبد شمس فأعاد فقال أحسنت والله بحق أمية أعد فأعاد فجعل يتخطى من أب الى أب ويأمره بالاعادة حتى بلغ نفسه فقال أعد بحياتى فأعاد فقام الى ابن عائشة فأكب عليه ولم يبق عضوا من أعضائه الاقبله وأهوى الى أيره فجعل ابن عائشة يضم ذكره بين فخذيه فقال الوليد والله لا زلت حتى أقبله فقبل رأسه وقال واطرباه واطرباه ونزع ثيابه فالقاها على ابن عائشة وبقى مجردا الى أن أتوه بثياب غيرها ودعا له بالف دينار فدفعت اليه وحمله على بغلة وقال اركبها على بساطى وانصرف فقد تركتنى على أحر من جمر الغضى (قال المسعودى) وقد كان ابن عائشة غنى بهذا الشعر يزيد بن عبد الملك أباه فأطربه وقيل انه الحد وكفر فى طربه وكان فيما قال لساقيه اسقنا بالسماء الرابعة فكأن الوليد بن يزيد قد ورث الطرب فى هذا الشعر عن أبيه والشعر لرجل من قريش والغناء لابن سريج وقيل لمالك على حسب ما فى كتب الاغانى من الخلاف فى ذلك مما ذكره اسحاق بن ابراهيم الموصلى فى كتابه فى الاغانى وابراهيم بن المهدى المعروف بابن شكلة فى كتابه فى الاغانى أيضا وغيرهما ممن صنف فى هذا المعنى والوليد يدعى خليع بنى مروان وقرأ ذات يوم واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد فدعا بالمصحف فنصبه غرضا للنشاب وأقبل يرميه وهو يقول

أتوعد كل جبار عنيد * فها أنا ذاك جبار عنيد

اذا ماجئت ربك يوم حشر * فقل يارب خرقني الوليد

وذكر محمد بن يزيد المبرد أن الوليد ألحد في شعر له ذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم وأن الوحي لم يأته عن ربه كذب أخزاه الله ومن ذلك في الشعر

تلعب بالخلافة هاشمي * بلا وحي أتاه ولا كتاب

فقل لله يمنعني طعامي * وقل لله يمنعني شرابي

فلم يمهل بعد قوله الا أياما حتى قتل وأم الوليد بن يزيد أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفية ويكنى أبا العباس وقد كان حمل اليه جفنة من البلور وقيل من الحجر المعروف باليشب وقد ذهب جماعة من الفلاسفة الى أن من شرب فيه الخمر لا يسكر وقد ذكرنا خاصية ذلك في كتاب القضايا والتجارب وأن من وضع تحت رأسه منه قطعة أو كان فص خاتمه منه لم ير الا رؤيا حسنة فأمر الوليد فملئت خمرا وطلع القمر وهو يشرب وندماؤه معه فقال أين القمر الليلة فقال بعضهم في البرج الفلاني فقال له آخر منهم بل هو في الجفنة وقد كان القمر تبين في شعاع الجوهر وصورته في ذلك الشراب فقال الوليد والله ما تعديت ما في نفسي وطرب طربا شديدا وقال لاصطحبن هفت هفته وهذا كلام فارسي تفسيره لاصطحبن سبعة أسابيع فدخل عليه بعض حجابه فقال يا أمير المؤمنين ان بالباب جمعا من وفود العرب وغيرهم من قريش والخلافة تجل عن هذه المنزلة وتبعد عن هذه الحال فقال اسقوه فأبى فوضع في فمه قمع وجعلوا يسقونه حتى خر ما يعقل سكرا وقد كان أبوه أراد أن يعهد اليه فلاستصغاره لسنه عهد الى أخيه هشام ثم الى الوليد من بعده وكان الوليد مغرى بالخيل وحبها وجمعها واقامة الحلبة وكان السندي فرسه جواد زمانه وكان يسابق به في أيام هشام وكان يقصر عن فرس هشام المعروف بالزائد وربما ضامه وربما جاء مصليا وهاك مراتب السوابق من الخيل اذا أجريت فأولها السابق ثم المصلي وذلك أن رأسه عند صلا السابق ثم الثالث والرابع وكذلك الى التاسع والعاشر السكيت مسدد وما جاء بعد ذلك لم يعتد به والفسكل الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل وأجرى الوليد الخيل بالرصافة وأقام الحلبة وهي يومئذ ألف قارح ووقف بها ينتظر الزائد ومعه سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص وكان له فيها جواد يقال له المصباح فلما طلعت الخيل قال الوليد

خيلي ورب الكعبة المحرمه * سبقن أفراس الرجال اللومه

كما سبقناهم وحزنا المكرمه

فاقبل فرس ابن الوليد ويقال له الوضاح أمام الخيل فلما دنا صرع فارسه واقبل المصباح فرس سعيد يتلوه وعليه فارسه وهو فيما يرى سعيد بعد سابقا فقال سعيد

نحن سبقنا اليوم خيل اللومه * وصرف الله الينا المكرمه

كذاك كنا في الدهور المقدمه * أهل العلا والرتب المعظمه

فضحك الوليد لما سمعه وخشى أن تسبق فرس سعيد فركض فرسه حتى ساوى الوضاح فقذف بنفسه عليه ودخل سابقا فكان الوليد أول من فعل ذلك وسنه في الحلبة ثم تلاه في الفعل كذلك المهدي في أيام المنصور والهادي في أيام المهدي ثم عرضت على الوليد

الخيل فى الحلبة الثانية فمر به فرس لسعيد فقال لا نسابقك أبا عنبسة وأنت القائل
نحن سبقنا اليوم خيل اللومه فقال سعيد ليس كذا قلت يا أمير المؤمنين وانما قلت
نحن سبقنا اليوم خيلا لومه فضحك الوليد وضمه الى نفسه وقال لا عدمت قريش أخا
مثلك وللوليد بن يزيد أخبار حسان فى جمعه الخيول فى الحلبة فانه اجتمع له فى الحلبة ألف
قارح وجمع بين الفرس المعروف بالزائد والفرس المعروف بالسندى وكانا ناقد برزا فى
الجرى على خيول زمانهما وقد ذكر ذلك جماعة من الأخباريين وأصحاب التواريخ مثل ابن
عفير والاصمعى وأبى عبيدة وجعفر بن سليمان وقد أتينا على الغرر من أخباره فى أخبار الخيل
وأخبار الحلبات وخبر الفرس المعروف بالزائد والسندى واشقر مروان وغير ذلك من
أخبار من سلف من الامويين ومن تأخر فى كتابنا المترجم بالأوسط وانما الغرض من هذا
الكتاب ايراد جوامع تاريخهم ولمع من أخبارهم وسيرهم وكذلك أتينا على ذكر ما يستحب
من معرفة خلق الخيل وصفاتها من سائر أعضائها وعيوبها وخلقها والشاب منها والهرم
ووصف ألوانها ودوائرها وما يستحسن من ذلك ومقادير أعمارها ومنتهى بقائها وتنازع
الناس فى اعداد هذه الدوائر والمحمودة منها والمذمومة ومن رأى انها ثمانى عشرة أو أقل
من ذلك أو أكثر على حسب ما أدرك من طرق العادات بها والتجارب ووصف السوابق من
الخيل وغير ذلك مما تكلم الناس به فى شأنها وأعرافها فيما سلف من كتبنا وفى أيام
الوليد بن يزيد كانت وفاة أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وقد تنوزع
فى ذلك فمن الناس من رأى أن وفاته كانت فى أيام هشام وذلك سنة عشرة ومائة ومن
الناس من رأى انه مات فى أيام يزيد بن عبد الملك وهو ابن سبع وخمسين سنة بالمدينة ودفن
بالبقيع مع أبيه على بن الحسين وغيره من سلفه عليهم السلام مما سنورد ذكرهم فيما يرد
من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى والله ولى التوفيق

(ذكر أيام يزيد وابراهيم ابنى الوليد بن عبد الملك بن مروان)

ولى يزيد بن الوليد بدمشق ليلة الجمعة لسبع بقين من جمادى الآخرة فبايعه الناس بعد
قتل الوليد بن يزيد وتوفى يزيد بن الوليد بدمشق يوم الأحد هلال ذى الحجة سنة ست
وعشرين ومائة فكانت ولايته من مقتل الوليد بن يزيد الى ان مات خمسة أشهر وليلتين وقد
كان ابراهيم بن الوليد أخوه قام بالامر من بعده فبايعه الناس بدمشق أربعة أشهر وقيل
شهرين ثم خلع وكانت أيامه عجيبة الشأن من كثرة الهرج والاختلاط واختلاف الكلمة
وسقوط الهيبة وفيه يقول بعض أهل ذلك العصر

نبايع ابراهيم فى كل جمعة * ألا ان أمرا أنت واليه ضائع

ودفن يزيد بن الوليد بدمشق بين باب الجابية وباب الصغير وهو ابن سبع وثلاثين سنة ويقال
ابن ست وأربعين سنة

(ذكر لمع مما كان فى أيامهما)

كان يزيد بن الوليد أحول وكان يلقب بيزيد الناقص ولم يكن ناقصا فى جسمه ولا عقله وانما

نقص بعض الجند من ارزاقهم فقالوا يزيد الناقص وكان يذهب الى قول المعتزلة وما يذهبون اليه فى الأصول الخمسة من التوحيد والعدل والوعد والوعيد والأسماء والأحكام وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتفسير قولهم فيما ذهبوا اليه من الباب الاول وهو باب التوحيد هو ما اجتمعت عليه المعتزلة من البصريين والبغداديين وغيرهم وان كانوا فى غير ذلك من فروعهم متباينين من أن الله عزوجل لا كالأشياء وانه ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر بل هو الخالق للجسم والعرض والعنصر والجزء والجوهر وأن شيأ من الحواس لا يدركه فى الدنيا ولا فى الآخرة وأنه لا يحصره المكان ولا تحويه الأقطار بل هو الذى لم يزل ولا زمان ولا مكان ولا نهاية ولا حد وأنه الخالق للاشياء المبدع لها لا من شئ وأنه القديم وأن ما سواه محدث (وأما القول بالعدل) وهو الاصل الثانى فهو أن الله لا يحب الفساد ولا يخلق أفعال العباد بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التى جعلها الله لهم وركبها فيهم وأنه لم يأمر الا بما أراد ولم ينه الا عما كره وانه ولى كل حسنة أمر بها برئ من كل سيئة نهى عنها لم يكلفهم ما لا يطيقونه ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه وأن أحدا لا يقدر على قبض ولا بسط الا بقدرة الله التى أعطاهم اياها وهو المالك لها دونهم يفنيها اذا شاء ويبقيها اذا شاء ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ومنعهم اضطرارا عن معصيته ولكان على ذلك قادرا غير أنه لا يفعل اذ كان فى ذلك رفع للمحنة وازالة للبلوى (وأما القول بالوعيد) وهو الاصل الثالث فهو أن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر الا بالتوبة وأنه لصادق فى وعده ووعيده لا مبدل لكلماته (وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين) وهو الأصل الرابع فهو أن الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر بل يسمى فاسقا على حسب ما ورد التوقيف بتسميته وأجمع أهل الصلاة على فسوقه (قال المسعودى) وبهذا الباب سميت المعتزلة وهو الاعتزال وهو الموصوف بالاسماء والاحكام مع ما تقدم من الوعيد فى الفاسق من الخلود فى النار (وأما القول بوجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر) وهو الأصل الخامس فهو أن ما ذكر على سائر المؤمنين واجب على حسب استطاعتهم فى ذلك بالسيف فما دونه وان كان كالجهاد ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق فهذا ما اجتمعت عليه المعتزلة ومن اعتقد ما ذكرنا من هذه الأصول الخمسة كان معتزليا فان اعتقد الأكثر أو الأقل لم يستحق اسم الاعتزال فلا يستحقه الا باعتقاد هذه الاصول الخمسة وقد تنوزع فيما عدا ذلك من فروعهم وقد أتينا على سائر قولهم فى أصولهم وفروعهم وأقاويلهم وأقاويل غيرهم من فرق الأمة من الخوارج والمرجئة والرافضة والزيدية والحشوية وغيرهم فى كتابنا المقالات فى أصول الديانات وافردنا بذلك كتابنا المترجم بكتاب الابانة اجتبيناه لا نفسنا وذكرنا فيه الفرق بين المعتزلة وأهل الامامة وما بان به كل فريق منهم عن الآخر اذ كانت المعتزلة وغيرها من الطوائف تذهب الى أن الامامة اختيار من الأمة وذلك أن الله عزوجل لم ينص على رجل بعينه وأن اختيار ذلك مفوض الى الأمة تختار رجلا منها ينفذ فيها أحكامه سواء كان قرشيا أو غيره من أهل ملة الاسلام وأهل العدالة والايمان ولم يراعوا فى ذلك النسب ولا غيره وواجب على أهل كل عصر

أن يفعلوا ذلك والذى ذهب الى أن الامامة قد تجوز فى قريش وغيرهم من الناس هو المعتزلة بأسرها وجماعة من الزيدية مثل الحسن بن صالح ابن حيى ومن قال بقوله على حسب ماقدمنا من ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب فى أخبار هشام ويوافق من ذكرنا على هذا القول جميع الخوارج من الاباضية وغيرهم الا النجدات من فرق الخوارج فزعموا أن الامامة غير واجب نصبها ووافقهم على هذا القول أناس من المعتزلة ممن تقدم وتأخر الا أنهم قالوا ان عدلت الامة ولم يكن فيها فاسق لم يحتج الى امام وذهب من قال بهذا القول الى دلائل ذكروها منها قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو أن سالما حىّ ماداخلنى فيه الظنون وذلك حين فوض الأمر الى أهل الشورى قالوا وسالم مولى امرأة من الانصار فلو لم يعلم عمر أن الامامة جائزة فى سائر المؤمنين لم يطلق هذا القول ولم يتأسف على موت سالم مولى أبى حذيفة قالوا وقد صح بذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم أخبار كثيرة منها قوله اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع وقد قال الله عز وجل ان أكرمكم عند الله أتقاكم وذهب أبو حنيفة وأكثر المرجئة وأكثر الزيدية من الجارودية وغيرها وسائر فرق الشيعة والرافضة والراوندية الى أن الامامة لاتجوز الا فى قريش لقول النبى صلى الله عليه وسلم الامامة فى قريش وقوله عليه السلام قدموا قريشا ولا تقدموها ولما احتج المهاجرون به على الانصار يوم سقيفة بنى ساعدة من أن الامامة فى قريش لأنهم اذا ولوا عدلوا ولرجوع كثير من الانصار الى ذلك ولما انفرد به أهل الامامة من أن الامامة لاتكون الا نصا من الله ورسوله على عين الامام واسمه واشتهاره كذلك وفى سائر الأعصار لاتخلو الناس من حجة الله فيهم ظاهرا أو باطنا على حسب استعماله التقية والخوف على نفسه واستدلوا بالنص على أن الامامة فى قريش وبدلايل كثيرة من العقول وجوامع من النصوص فى وجوبها وفى النص عليهم وفى عصمتهم من ذلك قوله عز وجل مخبرا عن ابراهيم انى جاعلك للناس اماما ومسئلة ابراهيم بقوله ومن ذريتى واجابة الله له بأنه لا ينال عهدى الظالمين قالوا ففيما تلونا دلائل على أن الامامة نص من الله ولو كان نصبها الى الناس ما كان لمسئلة ابراهيم ربه وجها ولما كان الله قد أعلمه أنه اختاره وقوله لا ينال عهدى الظالمين دلالة على أن عهده ينال من ليس بظالم ووصف هؤلاء الامام فقالوا ان الامام فى نفسه (أن يكون معصوما من الذنوب) لأنه ان لم يكن معصوما لم يؤمن أن يدخل فيما يدخل فيه غيره من الذنوب فيحتاج أن يقام عليه الحد كما يقيمه هو على غيره فيحتاج الامام الى امام الى غير نهاية ولم يؤمن عليه أيضا أن يكون فى الباطن فاسقا فاجرا كافرا (وأن يكون أعلم الخليقة) لأنه ان لم يكن عالما لم يؤمن عليه أن يقلب شرائع الله وأحكامه فيقطع من يجب عليه الحد ويحد من يجب عليه القطع ويضع الأحكام فى غير المواضع التى وضعها الله (وأن يكون أشجع الخلق) لأنهم يرجعون اليه فى الحرب فان جبن وهرب يكون قد باء بغضب من الله (وأن يكون أسخى الخلق) لأنه خازن المسلمين وأمينهم فان لم يكن سخيا تاقت نفسه الى أموالهم وشرهت الى ما فى أيديهم وفى ذلك الوعيد بالنار وذكروا خصالا كثيرة ينال بها أعلى درجات الفضل لا يشاركه فيها أحد وأن

ذلك كله وجد في على بن أبي طالب وولده رضي الله عنهم في السبق الى الايمان والهجرة والقرابة والحكم بالعدل والجهاد في سبيل الله والورع والزهد وأن الله قد أخبر عن بواطنهم وموافقتها لظواهرهم بقوله عز وجل ووصفه لهم فيما صنعوه من الاطعام للمسكين واليتيم والاسير وأن ذلك لوجهه خالصا لا أنهم أبدوه بالسنتهم فقط وأخبر عن أمرهم في المنقلب وحسن المؤدل في المحشر ثم في أخباره عز وجل عما أذهب عنهم من الرجس وفعل بهم من التطهير وفي غير ذلك مما أوردوه دلايل لما قالوه وأن عليا نص على ابنه الحسن ثم الحسين والحسين على على بن الحسين وكذلك من بعده الى صاحب الوقت الثاني عشر على حسب ما ذكرنا وسمينا في غير هذا الموضع من هذا الكتاب ولاهل الامامة من فرق الشيعة في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة كلام كثير في الغيبة واستعمال التقية وما يذكرونه من أبواب الائمة والأوصياء لا يسعنا ايراده في هذا الكتاب اذ كان كتاب خبر واغا تغلغل بنا الكلام الى ايراد لمع من هذه المذاهب والآراء وكذلك ما عليه غير أهل الامامة من أصحاب دين الهجرة والمشورة وما يراعونه من الظهور وقد أتينا على جميع ذلك فيما سلف من كتبنا وما وصفنا فيها من الأقاويل في الظاهر والباطن والسائر والدائر والوافر وغير ذلك من أمورهم وأسرارهم (قال المسعودي) وكان خروج يزيد بن الوليد بدمشق مع سابقة من المعتزلة وغيرهم من أهل داريا والمزة من غوطة دمشق على الوليد ابن يزيد لما ظهر من فسقه وشمل الناس من جوره فكان خبر مقتل الوليد ما قد ذكرناه فيما سلف من كتبنا مفصلا وذكرناه في هذا الكتاب مجملا وكان يزيد بن الوليد أول من ولى هذا الأمر وأمه أم ولد وكانت أمه سارية بنت فيروز وهو الذي يقول في ذلك

انا ابن كسرى وأبي مروان * وقيصر جدى وجدى خاقان

وكان يكنى بأبي خالد وام أخيه ابراهيم أم ولد تدعى بريرة والمعتزلة تفضل في الديانة يزيد بن الوليد على عمر بن عبد العزيز لما ذكرناه من الديانة وفي سنة سبع وعشرين ومائة أقبل مروان بن محمد بن مروان من الجزيرة فدخل دمشق وخرج ابراهيم بن الوليد هاربا من دمشق ثم ظفر به مروان فقتله وصلبه وقتل من مالأه ووالاه وقتل عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد القسرى وبدا أمر بني امية يؤول الى ضعف وذكر العصى عن الخليل ابن ابراهيم السبيعى قال سمعت ابن الحى يقول قال لى العلاء بن بنت ذى الكلاع انه كان موانسا لسليمان بن عبد الملك لا يكاد يفارقه وكان أمر المسودة بخراسان والمشرق قد بان ودنا من الجبل وقرب من العراق واشتد ارجاف الناس ونطق العدو وبما أحب في بني أمية وأوليائهم قال العلاء فاني لمع سليمان وهو يشرب حذاء رصافة أبيه وذلك في آخر أيام يزيد الناقص وعنده حكم الوادى وهو يغنيه بشعر العرجى

ان الحبيب تروحت أجماله * أصلا فدمعك دائم اسباله

أفنى الحياة فقد بكيت بعولة * لو كان ينفع باكيا اعواله

ياحبذا تلك الحمول وحبذا * شخص هناك وحبذا أمثاله

فما جاد بما شاء فشرب سليمان بالرطل وشربنا معه حتى توسدنا أيدينا فلم أنتبه الا بتحريك

سليمان اباى فقمت اليه مسرعا فقلت ماشان الامير فقال لى على رسلك رأيت كأنى فى مسجد دمشق وكأن رجلا فى يده خنجر وعليه تاج أرى بصيص مافيه من جوهر وهو رافع صوته بهذه الابيات

أبنى امية قد دنا تشتيتكم * وذهاب ملككم وأن لا يرجع
وينال صفوته عدوّ ظالم * للمحسنين اليه ثمة يفجع
بعد الممات بكل ذكر صالح * ياويله من قبح ماقد يصنع

فقلت بل لا يكون ذلك وعجبت من حفظه ولم يكن من أصحاب ذلك فوجم ساعة ثم قال ياحبرى بعيد ماياتى به الزمان قريب قال فما اجتمعنا على شراب بعد ذلك ودخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائة وكان من أمر المسودة ومروان بن محمد الجعدى ما كان وذكر المقرى قال سئل بعض شيوخ بنى أمية ومحصليها عقيب زوال الملك عنهم الى بنى العباس ما كان سبب زوال ملككم قال انا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا فظلمنا رعيتنا فيئسوا من انصافنا وتمنوا الراحة منا وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا واستدعاهم أعادينا فتظافروا معهم على حربنا وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا .

(ذكر السبب فى العصبية بين النزارية واليمانية)

ذكر أبو الحسن على بن محمد بن سليمان النوفلى قال حدثنى أبى قال لما قال الكميت بن زيد الأسدى من أسد مضر بن نزار الهاشميات قدم البصرة فأتى الفرزدق فقال ياأبا فراس انا ابن أخيك قال ومن أنت فانتسب له فقال صدقت فما حاجتك قال نفث على لسانى وأنت شيخ مضر وشاعرها وأحببت أن أعرض عليك ماقلت فان كان حسنا أمرتنى باذاعته وان كان غير ذلك أمرتنى بستره وسترته على فقال ياابن اخى أحسب شعرك على قدر عقلك فهات ماقلت راشدا فأنشده

طربت وماشوقا الى البيض أطرب * ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب

قال بلى فالعب فقال

ولم يلهنى دار ولا رسم منزل * ولم يتطربنى بنان مخضب

قال فما يطربك اذا قال

وما انا ممن يزجر الطير همه * أصاح غراب أو تعرض ثعلب

قال فما أنت ويحك والى من تسمو فقال

وما السانحات البارحات عشية * أمر سليم القرن أم مر أعضب

قال أما هذا فقد أحسنت فيه فقال

ولكن الى أهل الفضائل والنهى * وخير بنى حواء والخير يطلب

قال من هم ويحك قال

الى النفر البيض الذين بحبهم * الى الله فيما نابني أتقرب

قال أرحني ويحك من هؤلاء قال

بني هاشم رهط النبي فانني * بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

قال لله درك يا بني أصبت فأحسنت اذ عدلت عن الزعانف والأوباش اذا لا يصرد سهمك ولا يكذب قولك ثم مت فيها فقال له أظهر ثم أظهر وكد الأعداء فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقي فحينئذ قدم المدينة فأتى أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم فأذن له ليلا وأنشده فلما بلغ من الميمية قوله

وقتيل بالطف غودر منهم * بين غوغاء أمة وطغام

بكى أبو جعفر ثم قال يا كميت لو كان عندنا مال لأعطيناك ولكن لك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت لا زلت مؤيدا بروح القدس ما ذببت عنا أهل البيت فخرج من عنده فأتى عبد الله بن الحسن بن علي فأنشده فقال يا أبا المستهل ان لي ضيعة أعطيت فيها أربعة آلاف دينار وهذا كتابها وقد أشهدت لك بذلك شهودا وناوله اياه فقال بأبي أنت وأمي اني كنت أقول الشعر في غيركم أريد بذلك الدنيا والمال ولا والله ما قلت فيكم الا لله وما كنت لآخذ على شيء جعلته لله مالا ولا ثمنا فألح عبد الله عليه وأبى من اعفائه فأخذ الكميت الكتاب ومضى فمكث أياما ثم جاء الى عبد الله فقال بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله ان لي حاجة قال وما هي وكل حاجة لك مقضية قال كائنة ما كانت قال نعم قال هذا الكتاب تقبله وترتجع الضيعة ووضع الكتاب بين يديه فقبله عبد الله ونهض عبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فأخذ ثوبا جلدا فدفعه الى أربعة من غلمانه ثم جعل يدخل دور بني هاشم ويقول يا بني هاشم هذا الكميت قال فيكم الشعر حين صمت الناس عن فضلكم وعرض دمه لبني أمية فأثيبوه بما قدرتم فيطرح الرجل في الثوب ما قدر عليه من دنانير ودراهم وأعلم النساء بذلك فكانت المرأة تبعث ما أمكنها حتى انها لتخلع الحلي عن جسدها فاجتمع من الدنانير والدراهم ما قيمته مائة ألف درهم فجاء بها الى الكميت فقال يا أبا المستهل أتيناك بجهد المقل ونحن في دولة عدونا وقد جمعنا هذا المال وفيه حلي النساء كما ترى فاستعن به على دهرك فقال بأبي أنت وأمي قد أكثرتم وأطبتم وما أردت بمدحي اياكم الا الله ورسوله ولم آك لآخذ لذلك ثمنا من الدنيا فاردده الى أهله فجهد به عبد الله أن يقبله بكل حيلة فأبى فقال ان أبيت ان تقبل فاني رأيت ان تقول شيأ تغضب به بين الناس لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما يحب فابتدأ الكميت وقال قصيدته التي يذكر فيها مناقب قومه من مضر بن نزار بن معد وربيعة بن نزار واياد وأنمار أبني نزار ويكثر فيها من تفضيلهم ويطنب في وصفهم وأنهم أفضل من قحطان فغضب بها بين اليمانية والنزارية فيما ذكرناه وهي قصيدته التي أولها

الا حييت عنا يا مدينا * وهل ناس تقول مسلمينا

الى أن انتهى الى قوله تصريحا وتعريضا باليمن فيما كان من أمر الحبشة وغيرهم فيها وهو قوله

لنا قمر السماء وكل نجم * تشير اليه أيدى المهتدينا
وجدت الله اذ سمى نزارا * وأسكنهم بمكة قاطنينا
لنا جعل المكارم خالصات * وللناس القفا ولنا الجبينا
وما ضربت هجائن من نزار * فوالج من فحول الأعجمينا
وما حملوا الحمير على عتاق * مطهرة فيلفوا مبلغينا
وما وجدت بنات بنى نزار * حلائل أسودين وأحمرينا

وقد نقض دعبل بن على الخزاعى هذه القصيدة على الكميت وغيرها وذكر مناقب اليمن وفضائلها من ملوكها وغيرها وصرح وعرض بغيرهم كما فعل الكميت وذلك فى قصيدته التى أولها

افيقى من ملامك ياظعينا * كفاك اللوم مر الاربعينا
الم تحزنك أحداث الليالى * يشيبن الذوائب والقرونا
أحيى الغر من سروات قومى * لقد حييت عنا يامدينا
فان يك آل اسرائيل منكم * وكنتم بالأعاجم فاخرينا
فلا تنس الخنازير اللواتى * مسخن مع القرود الخاسئينا
بأيلة والخليج لهم رسوم * وآثار قدمن وما محينا
وما طلب الكميت طلاب وتر * ولكنا لنصرتنا هجينا
لقد علمت نزار أن قومى * الى نصر النبوة فاخرينا

وهى طويلة وفى قول الكميت فى النزارية واليمانية وافتخرت نزار على اليمن وافتخرت اليمن على نزار وأدلى كل فريق بماله من المناقب وتحزبت الناس وثارت العصبية فى البدو والحضر فنتج بذلك أمر مروان بن محمد الجعدى وتعصبه لقومه من نزار على اليمن وانحراف اليمن عنه الى الدعوة العباسية وتغلغل الأمر الى انتقال الدولة عن بنى أمية الى بنى هاشم ثم ما تلا ذلك من قصة معن بن زائدة باليمن وقتله أهلها تعصبا لقومه من ربيعة وغيرها من نزار وقطعه الحلف الذى كان بين اليمن وربيعة فى القدم وفعل عقبة بن سالم بعمان والبحرين وقتله عبد القيس وغيرهم من ربيعة كيادا لمعن وتعصبا من عقبة بن سالم لقومه من قحطان وغير ذلك مما تقدم وتأخر مما كان بين نزار وقحطان

(ذكر أيام مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وهو الجعدى)

بويع مروان بن محمد بن مروان بدمشق يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وعشرين ومائة وقيل انه دعا الى نفسه بمدينة حران من ديار مضر وبويع له بها وأمه أم ولد يقال لها ريا وقيل طرونة كانت لمصعب بن الزبير فصارت بعد مقتله لمحمد بن مروان أبيه وكان مروان يكنى أبا عبد الملك واجتمع أهل الشأم على بيعته الا سليمان بن هشام بن عبد الملك وغيره من بنى أمية فكانت أيامه منذ بويع بمدينة دمشق من أرض الشام الى مقتله خمس سنين وعشرة أيام وقيل خمس سنين وثلاثة أشهر وكان مقتله فى أول سنة اثنتين وثلاثين ومائة ومنهم من رأى أن ذلك كان فى المحرم ومنهم من رأى

أنه كان في صفر وقيل غير ذلك مما تنازع فيه أهل التواريخ والسير على حسب تنازعهم في مقدار ملكه فنهم من ذهب الى ان مدته خمس سنين وثلاثة أشهر ومنهم من قال خمسا وشهرين وعشرة أيام ومنهم من قال خمسا وعشرة أيام وكان مقتله ببوصير قرية من قرى الفيوم بصعيد مصر وقد تنوزع في مقدار سنه كتنازعهم في مقدار ملكه فنهم من زعم أنه قتل وهو ابن سبعين سنة ومنهم من قال ابن تسع وستين ومنهم من قال اثنين وستين ومنهم من قال ثمان وخمسين وانما ذكرهذا الخلاف من قولهم لئلا يظن ظان أنا قد أغفلنا ماذكروه أو تركنا شيأ مما وصفوه مما اليه قصدنا في كتابينا أخبار الزمان والأوسط وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب جملا من كيفية مقتله وأخباره وجوامع من سيره وحروبه وما كان من أمر الدولتين في ذلك من الماضية وهي الأموية والمستقبلة في ذلك الزمان وهي العباسية مع افرادنا بابا نذكر فيه جوامع تاريخ ملك الامويين وهو الباب المترجم بذكر مقدار المدة من الزمان وماملكت فيه بنو أمية من الأعوام ثم نعقب ذلك بلمع من أخبار الدولة العباسية وأخبار أبي مسلم وخلافة ابي العباس السفاح ومن تلا عصره من خلفاء بني العباس الى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة من خلافة ابي اسحاق المتقي لله ابراهيم ابن المقتدر بالله ان شاء الله تعالى والله ولي التوفيق

(ذكر مقدار المدة من الزمان وماملكت فيه بنو أمية من الأعوام)

كان جميع ملك بني أمية الى أن بويع أبو العباس السفاح ألف شهر كاملة لاتزيد ولا تنقص لانهم ملكوا تسعين سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما (قال المسعودي) والناس متباينون في تواريخ أيامهم والمعول على مانورده وهو الصحيح عند أهل البحث ومن عنى بأخبار هذا العالم وهو أن (معاوية) بن أبي سفيان ملك عشرين سنة (ويزيد) بن معاوية ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما (ومعاوية) بن يزيد شهرا واحدى عشر يوما (ومروان) بن الحكم ثمانية أشهر وخمسة أيام (وعبد الملك) بن مروان احدى وعشرين سنة وشهرا وعشرين يوما (والوليد) بن عبد الملك تسع سنين وثمانية أشهر ويومين (وسليمان) بن عبد الملك سنتين وستة أشهر وخمسة عشر يوما (وعمر) بن عبد العزيز رضي الله عنه سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام (ويزيد) بن عبد الملك أربع سنين وثلاثة عشر يوما (وهشام) بن عبد الملك تسعة عشر سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام (والوليد) ابن يزيد بن عبد الملك سنة وثلاثة اشهر (ويزيد) بن الوليد بن عبد الملك شهرين وعشرة أيام وأسقطنا أيام ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك كما أسقطنا أيام ابراهيم بن المهدي أن يعتد في الخلفاء العباسيين (ومروان) بن محمد بن مروان خمس سنين وشهرين وعشرة أيام الى أن بويع السفاح فتكون الجملة تسعون سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما يضاف الى ذلك الثمانية أشهر التي كان مروان يقاتل فيها بني العباس الى أن قتل فيصير ملكهم احدى وتسعين سنة وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوما يوضع من ذلك أيام الحسن بن علي وهي خمسة أشهر وعشرة أيام ويوضع أيام عبد الله بن الزبير الى الوقت الذي قتل فيه وهي سبع سنين وعشرة أشهر وثلاثة أيام فيصير الباقي بعد ذلك ثلاثا وثمانين سنة

واربعة

وأربعة أشهر يكون ذلك ألف شهر سواء وقد ذكر قوم أن تأويل قوله عز وجل "ليلة القدر خير من ألف شهر" ما ذكرناه من أيامهم وقد روي عن ابن عباس انه قال والله ليملكن بنو العباس ضعف ما ملكته بنو أمية باليوم يومين وبالشهر شهرين وبالسنة سنتين وبالخليفة خليفتين (قال المسعودي) فملك بنو العباس في سنة اثنتين وثلاثين ومائة وانقضى ملك بني أمية فلبني العباس من وقت ملكهم الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة مائتا سنة وذلك أن أبا العباس السفاح بويع له بالخلافة في ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة وانتهينا في تصنيفنا من هذا الكتاب الى هذا الموضع في شهر ربيع الاول من سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة في خلافة أبي اسحاق المتقي لله والله أعلم بما يكون من أمرهم فيما يأتي به الزمان المستقبل بعد هذا الوقت من الايام وقد أتينا بحمد الله فيما سلف من كتابينا أخبار الزمان والأوسط على الغرر من أخبارهم والنوادر من أسمائهم والطرائف مما كان في أيامهم وعهودهم ووصاياهم ومكاتباتهم وأخبار الحوادث والخوارج في أيامهم من الأزارقة والأباضية وغيرهم ومن ظهر من الطالبين طالبا بحق أو آمرا بمعروف أو ناهيا عن منكر فقتل في أيامهم وكذلك من تلاهم من بني العباس الى خلافة المتقي لله من سنتنا هذه وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وما ذكرنا في هذا الكتاب من جوامع التاريخ قد يخالف ما تقدم بسطه باليوم أو العشرة أو الشهر عند ذكرنا لدولة كل واحد منهم وأيامه وهذا هو المعول عليه من تاريخهم وسنيهم والمفصل من مدتهم والله أعلم ومنه التوفيق

(ذكر الدولة العباسية ولمع من أخبار مروان ومقتله وجوامع من حروبه وسيره)

قد قدمنا في الكتاب الاوسط ما ذكرته الراوندية وهم شيعة ولد العباس بن عبد المطلب من أهل خراسان وغيرهم من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وأن أحق الناس بالامامة بعده العباس بن عبد المطلب لأنه عمه ووارثه وعصبته لقول الله عز وجل "وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله" وأن الناس اغتصبوه حقه وظلموه أمره الى أن رده الله اليهم وتبرأوا من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وأجازوا بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه باجازته لها وذلك لقوله يا ابن أخي هلم الى أن أبايعك فلا يختلف عليك اثنان ولقول داود بن علي على منبر الكوفة يوم بويع لأبي العباس يا أهل الكوفة لم يقم فيكم امام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا علي بن أبي طالب وهذا القائم فيكم يعني أبا العباس السفاح وقد صنف هؤلاء كتبا في هذا المعنى الذي ادعوه هي متداولة في أيدي أهلها ومنتحليها منها كتاب صنفه عمرو بن بحر الجاحظ وهو المترجم بكتاب امامة ولد العباس يحتج فيه لهذا المذهب ويذكر فعل أبي بكر في فدك وغيرها وقصته مع فاطمة رضي الله عنها ومطالبتها بارثها من أبيها صلى الله عليه وسلم واستشهادها ببعلها وابنيها وأم أيمن وما جرى بينها وبين أبي بكر من المخاطبة وما كثر بينهم من المنازعة وما قالت وما قيل لها عن أبيها عليه السلام من انه قال نحن معاشر الانبياء لا نرث ولا نورث وما احتجت به من قوله عز وجل "وورث سليمان داود" على أن النبوة لا تورث فلم يبق الا التوارث وغير ذلك من الخطاب ولم

يصنف الجاحظ هذا الكتاب ولا استقصى فيه الحجاج للراوندية وهم شيعة ولد العباس لأنه لم يكن مذهبه ولا كان يعتقده لكن فعل ذلك تماجنا وتطربا وقد صنف أيضا كتابا استقصى فيه الحجاج عند نفسه وأيده بالبراهين وعضده بالأدلة فيما تصور من عقله ترجمه بكتاب العثمانية يحل فيه عند نفسه فضائل علي عليه السلام ومناقبه ويحتج فيه لغيره طلبا لاماتة الحق ومضادة لأهله والله متم نوره ولو كره الكافرون ثم لم يرض بهذا الكتاب المترجم بكتاب العثمانية حتى أعقبه بتصنيف كتاب آخر في امامة المروانية وأقوال شيعتهم ورايته مترجما بكتاب أمير المؤمنين معاوية بن ابي سفيان في الانتصار له من علي بن أبي طالب رضي الله عنه وشيعته الرافضة يذكر فيه رجال المروانية ويؤيد فيه امامة بني أمية وغيرهم ثم صنف كتابا آخر ترجمه بكتاب مسائل العثمانية يذكر فيه مافاته ونقضه عند نفسه من فضائل أمير المؤمنين علي ومناقبه فيما ذكرنا وقد نقضت عليه ماذكرنا من كتبه ككتاب العثمانية وغيره وقد نقضها جماعة من متكلمي الشيعة كأبي عيسى الوراق والحسن بن موسى النخعي وغيرهما من الشيعة ممن ذكر ذلك في كتبه في الامامة مجتمعا ومفترقا وقد نقض على الجاحظ كتاب العثمانية أيضا رجل من شيوخ المعتزلة البغداديين ورؤسائهم وأهل الزهد والديانة منهم ممن يذهب الى تفضيل علي والقول بامامة المفضول وهو أبو جعفر محمد بن عبد الله الاسكاف وكانت وفاته سنة أربعين ومائتين وفيها مات أحمد بن حنبل وسنذكر وفاة الجاحظ فيما يرد من هذا الكتاب ووفاة غيره من المعتزلة وأن كنا قد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا والذي ذهب اليه من تأخر من الراوندية وانتقل وتحير عن جملة الكيسانية القائلة بامامة محمد بن الحنفية وهم الحربانية أصحاب أبي مسلم عبد الرحمن بن محمد صاحب الدولة العباسية وكان يلقب بحربان أن محمد بن الحنفية هو الامام بعد علي بن أبي طالب وأن محمدا أوصى الى ابنه أبي هاشم وأن أبا هاشم أوصى الى علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وأن علي بن عبد الله أوصى الى ابنه محمد بن علي وأن محمدا أوصى الى ابنه ابراهيم الامام المقتول بحران وأن ابراهيم أوصى الى أخيه أبي العباس بن عبد الله بن الحارثية المقتول وقد تنوزع في أمر أبي مسلم فمن الناس من رأى انه كان من العرب ومنهم من رأى انه كان عبدا فأعتق وكان من أهل البرس والجامعين من قرية يقال لها خرطينة واليها تضاف الثياب البرسية المعروفة بالخرطينية وتلك من أعمال الكوفة وسوادها وكان قهرمانا لادريس بن ابراهيم العجلي ثم آل أمره وغت به الأقدار الى أن اتصل بمحمد بن علي ثم بابراهيم بن محمد الامام فانفذه ابراهيم الى خراسان وأمر أهل الدعوة بطاعته والانقياد الى أمره ورأيه فقوى أمره وظهر سلطانه وأظهر السواد وصار زينة في اللباس والأعلام والبنود وكان أول من سود من أهل خراسان وأهل بساند وأظهر ذلك فيهم أسيد بن عبد الله ثم نمى ذلك في الاكثر من المدن والكور بخراسان وقوى أمر أبي مسلم وضعف أمر نصر ابن سيار صاحب مروان بن محمد الجعدي على بلاد خراسان وكانت له مع أبي مسلم حروب أكثر فيها أبو مسلم الحيل والمكائد من تفريقه بين اليمانية والنزارية بخراسان وغير ذلك مما احتال به على عدوه وقد كان لنصر بن سيار حروب كثيرة مع الكرماني الى أن قتل أتينا

على

على ذكرها فى كتابينا أخبار الزمان والأوسط وذكر نبذ من أخبار الكرمانى جديع بن على وما كان بينه وبين سالم بن أحوز صاحب نصر بن سيار وما كان من أمر خالد بن برمك وقحطبة بن شبيب وغيرهما من الدعاة والمقيمين بخراسان للدعوة العباسية كسليمان بن كثير وأبى داود خالد بن ابراهيم ونظرائهم وما كان من شعارهم عند اظهار الدعوة وندائهم بين الحروب يا محمد يا منصور والسبب الذى له ومن اجله اظهروا استعمال السواد دون سائر الألوان وطالت مكاتبة نصر بن سيار مروان واعلامه بما هو فيه واظهار أمر العباسية وتزايده فى كل وقت فكان فيما كتب به اليه اعلامه بحال أبى مسلم وحال من معه وأنه كشف عن أمره وبحث عن حاله فوجده يدعو الى ابراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس وضمن كتابه أبياتا من الشعر وهى

اري بين الرماد وميض جمر * ويوشك أن يكون له ضرام
فان النار بالعودين تذكى * وان الحرب أولها الكلام
فان لم تطفئوها تجن حربا * مشمرة يشيب لها الغلام
أقول من التعجب ليت شعرى * أأيقاظ أمية أم نيام
فان يك قومنا أضحوا نياما * فقل قوموا فقد حان القيام
ففرّى عن رحالك ثم قولى * على الاسلام والعرب السلام

فلما ورد الكتاب على مروان وجده مشتغلا بحروب الخوارج بالجزيرة وغيرها وما كان من خبره فى حروبه مع الضحاك بن قيس الحرورى حتى قتله مروان بعد وقائع كثيرة بين كفرتوثى ورأس العين وكان الضحاك خرج من بلاد شهرزور ونصبت الخوارج بعد قتل الضحاك عليها الخيرى الشيبانى فلما قتل الخيرى ولت الخوارج عليها أبا الذلفاء شيبان الشيبانى وما كان من حروب مروان مع نعيم بن ثابت الجذامى وكان خرج عليه ببلاد طبرية والأردن من بلاد الشأم حتى قتله مروان وذلك فى سنة ثمان وعشرين ومائة فلم يدر مروان كيف يصنع فى أمر نصر بن سيار وخراسان وانجازه لما هو فيه من الحروب والفتن فكتب اليه مروان مجيبا عن كتابه ان الشاهد يرى ما لا يراه الغائب فاحسم الثؤلول قبلك فلما ورد الكتاب على نصر قال لخواص أصحابه أما صاحبكم فقد أعلمكم أن لا نصر عنده وأقام مروان اكثر أيامه لا يدنو من النساء الى أن قتل وبرزت له جارية من جواريه فقال لها والله لا دنوت منك ولا حللت لك عقدة وخراسان ترجف وتضطرم بنصر ابن سيار وأبو مجرم قد أخذ منه بالمخنق وكان مع ما هو فيه يديم قراءة سير الملوك وأخبارها فى حروبها من الفرس وغيرها من ملوك الامم وعذله بعض أوليائه ممن كان يأنس اليه فى ترك النساء والطيب وغير ذلك من اللذات فقال له مروان يمنعنى منهن ما منع أمير المؤمنين عبد الملك فقال له الرجل وما ذاك يا أمير المؤمنين قال حمل صاحب افريقية اليه جارية ذات بهاء وكمال تامة المحاسن شهية للمتأمل فلما وقفت بين يديه تأمل حسنها وبيده كتاب ورد من الحجاج وهو بدير الجاجم مواقعا لابن الاشعث فرمى بالكتاب عن يده وقال لها أنت والله منية النفس فقالت الجارية ما يمنعك يا أمير المؤمنين اذ كنت بهذا الوصف قال

يعني والله منك بيت قاله الاخطل

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم * دون النساء ولو باتت باطهار

أ ألتذ بالعيش وابن الاشعث مصاف لابي محمد وقد هلكت زعماء العرب لاحفظ الله اذا ائم أمر بصيانتها فلما قتل ابن الاشعث كانت أول جارية خلا بها ولما يئس نصر بن سيار من انجاد مروان كتب الى يزيد بن عمرو بن هبيرة الفزاري عامل مروان على العراق يستمده ويسأله النصرة على عدوه وضمن كتابه أبياتا من الشعر وهي

ابلغ يزيد وخير القول أصدقه * وقد تبينت أن لا خير في الكذب

بأن أرض خراسان رأيت بها * بيضا لو أفرخ قد حدثت بالعجب

فراخ عامين الا أنها كبرت * لما يطرن وقد سربلن بالزغب

فان يطرن ولم يحتل لهن بها * يلهبن نيران حرب أيما لهب

فلم يجبه يزيد بن عمرو عن كتابه وتشاغل بدفع فتن العراق ودخلت خوارج اليمن مكة والمدينة وعليهم أبو حمزة المختار بن عوف الازدي وبلج بن عقبة الازدي وهما فيمن معهما يدعون الى عبد الله بن يحيي الكندي وكان قد سمى نفسه بطالب الحق وخوطب بأمير المؤمنين وكان أباضي المذهب من رؤساء الخوارج وذلك في سنة تسع وعشرين ومائة وفي سنة ثلاثين ومائة جهز مروان بن محمد جيشا مع عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي فالتقى الخوارج بوادي القرى فقتل بلج وفر أبو حمزة واكثر من كان معه من الخوارج وسار عبد الملك في جيش مروان من أهل الشأم يريد اليمن وخرج عبد الله بن يحيي الكندي الخارجي من صنعاء فالتقوا بناحية الطائف وأرض جرش فكانت بينهم حرب عظيمة قتل فيها عبد الله بن يحيي وأكثر من كان معه من الاباضية ولحق بقية الخوارج ببلاد حضرموت فأكثرها أباضية الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ولا فرق بينهم وبين من بعمان من الخوارج في هذا الوقت وسار عبد الملك في جيش مروان فنزل صنعاء وذلك في سنة ثلاثين ومائة وقد كان سليمان بن هشام بن عبد الملك اتصل بالخوارج بالجزيرة خوفا من مروان واحتوى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر على بلاد اصطخر وغيرها من أرض فارس الى أن دفع عنها وصار الى خراسان فقبض عليه أبو مسلم وقد ذكرنا من يقول بامامته وينقاد الى دعوته في كتابنا المقالات في اصول الديانات في باب تفرق الشيعة ومذاهبهم وقوي أمر أبي مسلم وغلب على اكثر خراسان وضعف نصر بن سيار من عدم النجدة فخرج عن خراسان حتى أتى الري وخرج عنها فنزل ساوة بين بلاد همدان والري فمات بها كمدا وكان نصر بن سيار لما صار بين الري وخراسان كتب كتابا الى مروان يذكر فيه خروجه عن خراسان وأن هذا الامر الذي ازعجه سينمو حتى يملأ البلاد وضمن ذلك ابياتا من الشعر وهي

انا وما نكتم من أمرنا * كالثور اذ قرب للناخع

أو كالتي يحسبها أهلها * عذراء بكرا وهي في التاسع

كنا نرفيها فقد مزقت * واتسع الخرق على الراقع

كالثوب اذ أنهج فيه البلى * أعيى على ذى الحيلة الصانع

فلم يستتم مروان قراءة هذا الكتاب حتى مثل أصحابه بين يديه ممن كان قد وكل بالطرق رسولا من خراسان من أبي مسلم الى ابراهيم بن محمد الامام يخبره فيه خبره وما آل اليه أمره فلما تأمل مروان كتاب أبي مسلم قال للرسول لا ترع كم دفع لك صاحبك قال كذا وكذا قال فهذه عشرة آلاف درهم لك وانما دفع اليك شيأ يسيرا وامض بهذا الكتاب الى ابراهيم ولا تعلمه بشئ مما جرى وخذ جوابه فائتني به ففعل الرسول ذلك فتأمل مروان جواب ابراهيم الى أبي مسلم بخطه يأمره فيه بالجد والاجتهاد والحيلة على عدوه وغير ذلك من أمره ونهيه فاحتبس مروان الرسول وكتب الى الوليد بن معاوية بن عبد الملك وهو على دمشق يأمره أن يكتب الى عامل البلقاء فيسير الى القرية المعروفة بالكداد والحميمة ليأخذ ابراهيم بن محمد فيشده وثاقا ويبعث به اليه في خيل كثيفة فوجه الوليد الى عامل البلقاء وهو جالس في مسجد القرية فأخذ وهو ملتف وحمل الى الوليد فحمله الى مروان فحبسه في السجن شهرين وقد كان جرى بين ابراهيم ومروان خطب طويل حين سأل ابراهيم وانكر كلما ذكره له مروان من أمر أبي مسلم فقال له مروان يا منافق أليس هذا كتابك الى أبي مسلم جوابا عن كتابه اليك وأخرج اليه الرسول وقال أتعرف هذا فلما رأى ذلك ابراهيم أمسك وعلم أنه أتى من مأمنه واشتد أمر أبي مسلم وكان في الحبس مع ابراهيم جماعة من بني هاشم وبني أمية فمن بني أمية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن مروان والعباس ابن الوليد بن عبد الملك بن مروان وكان مروان قد خافهما على نفسه وخشي أن يخرجا عليه ومن بني هاشم عيسى بن علي وعبد الله بن علي وعيسى بن موسى فذكر أبو عبيدة الثعلبي وكان معهم في الحبس أنه هجم عليهم في الحبس وذلك بحران جماعة من موالي مروان من العجم وغيرهم فدخلوا البيت الذى كان فيه ابراهيم والعباس وعبد الله فاقاموا عندهم ساعة ثم خرجوا وأغلق باب البيت فلما أصبحنا دخلنا عليهم فوجدناهم قد أتى عليهم ومعهم غلامان صغيران من خدمهم كالموتى فلما رأونا أنسوا بنا فسألناهم الخبر فقالا أما العباس وعبد الله فجعل على وجوههما مخاد وقعد فوقهما فاضطربا ثم بردا وأما ابراهيم فانهم جعلوا رأسه في جراب كان معهم فيه نورة مسحوقة فاضطرب ساعة ثم خمد وكان في الكتاب الذى قرأه مروان من ابراهيم الى أبي مسلم أبيات من الرجز بعد خطب طويل منها

دونك أمرا قد بدت أشراطه * ان السبيل واضح صراطه

لم يبق الا السيف واختراطه

وقد ذكر في كيفية قتل ابراهيم الامام من الوجوه غير ما ذكرنا وقد أتينا على جميع ما قيل في ذلك في الكتاب الأوسط وكذلك ما كان من قحطبة وابن هبيرة على الفرات وغرق قحطبة فيه ودخول ابنه الحسن بن قحطبة الكوفة وسار مروان حتى نزل على الزاب الصغير وعقد عليه الجسر وأتاه عبد الله بن علي في عساكر أهل خراسان وقوادهم وذلك لليلتين خلتا من جمادى الآخرة من سنة اثنتين وثلاثين ومائة فالتقى مروان وعبد الله بن علي وقد

كردس مروان خيله كراديس الفا والفين فكانت على مروان فانهزم وقتل وغرق من أصحابه خلق عظيم فكان فيمن غرق فى الزاب من بنى أمية ذلك اليوم ثلاثمائة رجل دون من غرق من سائر الناس وكان فيمن غرق فى الزاب فى ذلك اليوم من بنى أمية ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع وهو أخو يزيد الناقص وقد قيل فى رواية أخرى ان مروان كان قد قتل ابراهيم بن الوليد قبل هذا الوقت وصلبه وكانت هزيمة مروان من الزاب فى يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة ومضى مروان فى هزيمته حتى أتى الموصل فمنعه أهلها من الدخول اليها واظهروا السواد لما رأوه من تولية الأمر عنه وأتى حران وكانت داره وكان مقامه بها وقد كان أهل حران قاتلهم الله تعالى حين ازيل لعن أبى تراب يعنى على بن أبى طالب رضى الله عنه عن المنابر يوم الجمعة امتنعوا من ازالته وقالوا لا صلاة الا بلعن أبى تراب وأقاموا على ذلك سنة حتى كان من أمر المشرق وظهور المسودة ما كان وامتنع مروان من ذلك لانحراف الناس عنهم وخرج مروان فى أهله وسائر بنى أمية عن حران وعبر الفرات ونزل عبد الله ابن على على باب حران فهدم قصر مروان وقد كان انفق عليه عشرة آلاف درهم واحتوى على خزائن مروان وأمواله وسار مروان فيمن معه من خواصه وعياله حتى انتهى الى نهر أبى فطرس من بلاد فلسطين والأردن فنزل عليه وسار عبد الله بن على حتى نزل دمشق فحاصرها وفيها يومئذ الوليد بن معاويه بن عبد الملك فى خمسين ألف مقاتل فوقعت بينهم العصبية فى فضل اليمن على نزار ونزار على اليمن فقتل الوليد بن معاوية وقد قيل ان أصحاب عبد الله بن على قتلوه وأتى عبد الله بن على يزيد بن معاويه بن عبد الملك بن مروان وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك بن مروان فحملهما الى أبى العباس السفاح فقتلهما وصلبهما بالحيرة وقتل عبد الله بن على بدمشق خلقا كثيرا ولحق مروان بمصر ونزل عبد الله ابن على على نهر أبى فطرس فقتل من بنى أمية هناك بضعا وثمانين رجلا وذلك فى يوم الاربعاء للنصف من ذى القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومائة وقتل بالبلقاء سليمان بن يزيد ابن عبد الملك وحمل رأسه الى ابى عبد الله بن على ورحل صالح بن على فى طلب مروان ومعه أبو عون عبد الملك بن يزيد وعامر بن اسماعيل المذحجى فلحقوه بمصر وقد نزل بوصير فبايتوه وهجموا على عسكره وضربوا بالطبول وكبروا ونادوا يا لثارات ابراهيم فظن من فى عسكر مروان أن قد أحاط بهم سائر المسودة فقتل مروان وقد اختلف فى كيفية قتله فى المعركة فى تلك الليلة وكان قتله ليلة الأحد لثلاث بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة ولما قتل عامر بن اسماعيل مروان واراد الكنيسة التى فيها بنات مروان ونساؤه اذا بخادم لمروان شاهر السيف يحاول الدخول عليهن فأخذوا الخادم فسئل عن أمره فقال أمرنى مروان اذا هو قتل أن أضرب رقاب بناته ونسائه فلا تقتلونى فانكم والله أن قتلتمونى لتفقدن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له انظر ما تقول قال أن كذبت فاقتلونى هلموا فاتبعونى ففعلوا فأخرجهم من القرية الى موضع رمل فقال اكشفوا هنا فكشفوا فاذا البرد والقضيب ومخصر قد دفنها مروان لئلا تصير الى

بنى هاشم فوجه بها عامر بن اسماعيل الى عبد الله بن على فوجه بها عبد الله الى أبى العباس السفاح فتداولت ذلك خلفاء بنى العباس الى أيام المقتدر فيقال أن البرد كان عليه فى يوم مقتله ولست أدرى أكل ذلك باق مع المتقى لله الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة فى نزوله الرقة أم قد ضيع ذلك ثم وجه عامر بنات مروان وجواريه والأسارى الى صالح بن على فلما دخلن عليه تكلمت ابنة مروان الكبرى فقالت يا عم أمير المؤمنين حفظ الله لك فى الدنيا والآخرة نحن بناتك وبنات أخيك فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا قال اذا لا نستبقى منكم احدا رجلا ولا امرأة ألم يقتل أبوك بالأمس ابن أخى ابراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس الامام فى محبسه بحران ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن على بن الحسين بن على وصلبه فى كناسة الكوفة وقتل امرأة زيد بالحيرة على يدى يوسف بن عمرو الثقفى ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان ألم يقتل عبيد الله بن زياد الدعى مسلم بن عقيل بن أبى طالب بالكوفة ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن على على يدى عمر بن سعد مع من قتل بين يديه من أهل بيته ألم يخرج بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا حتى وردبهم على يزيد بن معاوية وقبل مقدمهم بعث اليه برأس الحسين بن على قد نصب دماغه على رأس رمح يطاف به كور الشام ومدائنها حتى قدموا به على يزيد بدمشق كأنما بعث اليه برأس رجل من أهل الشرك ثم أوقف حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف السبى يتصفحهن جنود أهل الشام الجفاة الطغام ويطلبون منه أن يهب لهم حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم استخفافا بحقه صلى الله عليه وسلم وجراءة على الله عز وجل وكفرا لانعمه فما الذى استبقيتم منا أهل البيت لو عدلتم فيه علينا قالت يا عم أمير المؤمنين وليسعنا عفوكم اذا قال أما العفو فنعم قد وسعكم فان أحببت زوجتك من الفضل بن صالح بن على وزوجت اختك من أخيه عبد الله بن صالح فقالت يا عم أمير المؤمنين وأى أوان عرس هذا بل تلحقنا بحران قال فاذا أفعل ذلك بكم ان شاء الله فالحقن بحران فعلت أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان وشققن جيوبهن وأعولن بالصياح والنحيب حتى ارتج العسكر بالبكاء منهن على مروان. فكان ملك مروان الى أن بويع أبو العباس السفاح خمس سنين وشهرين وعشرة أيام على حسب ما قدمنا فى هذا الكتاب من التنازع فى مدة أيامه ومن وقت أن بويع أبو العباس السفاح الى أن قتل ببوصير ثمانية أشهر فكانت مدة أيامه الى أن قتل خمس سنين وعشرة اشهر وعشرة أيام وقد قدمنا ما تنازعوا فيه من مقدار سنه وغير ذلك من أخباره وقد أتينا على مبسوط أخباره فيما سلف من كتبنا وكان كاتبه (عبد الحميد) بن يحيى بن سعد صاحب الرسائل والبلاغات وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات فى فصول الكتب واستعمل الناس ذلك بعده وذكر أن مروان قال لكاتبه عبد الحميد حين أيقن بزوال ملكه قد احتجت أن تصير مع عدوى وتظهر الغدر بى فان اعجابهم بأدبك وحاجتهم الى كتابتك تدعوهم الى حسن الظن بك فان استطعت أن تنفعنى فى حياتى والا لم تعجز عن حفظ حرمى بعد وفاتى فقال له عبد الحميد ان الذى اشرت به على أنفع الامرين لك واقبحهما بى وما عندى

الا الصبر حتى يفتح الله أو أقتل معك وقال

أسر وفاء ثم أظهر غدرة * فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره

وقد أتينا على خبر أبى الورد ومقتله وخبر بشر بن عبد الله الواحدى ومقتله فى كتابنا الاوسط فاغنى ذلك عن ذكره وذكر اسماعيل بن عبد الله القشيرى قال دعانى مروان وقد وافى على الهزيمة الى حران فقال يا أبا هاشم وما كان يكنينى قبلها قد ترى ما جاء من الأمر وأنت الموثوق به ولا مخبأ بعد بوس فما الرأى فقلت يا أمير المؤمنين على م أجمعت قال على أن ارتحل بموالى ومن تبعنى من الناس حتى أقطع الدرب وأميل الى مدينة من مدن الروم فانزلها واكاتب صاحبها واستوثق منه فقد فعل ذلك جماعة من ملوك الأعاجم وليس هذا عارا بالملوك فلا يزال يأتينى الخائف والهارب والطامع فيكثر من معى ولا أزال على ذلك حتى يكشف الله أمرى وينصرنى على عدوى فلما رأيت ما أجمع عليه وكان الرأى ورأيت آثاره من قومى من قحطان وتلاه عندهم فقلت أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الرأى تحكم أهل الشرك فى بناتك وحرمك وهم الروم ولا وفاء لهم ولا تدرى ما تأتى به الأيام وأنت ان حدث عليك حادث بارض النصرانية ولا يحدث عليك الاخير ضاع من بعدك ولكن اقطع الفرات ثم استنفر الشأم جندا جندا فانك فى كنف وعزة ولك فى كل جند صنائع يسيرون معك حتى تأتى مصر فانها أكثر أرض الله مالا وخيلا ورجالا ثم الشام أمامك وافريقية خلفك فان رأيت ما تحب انصرفت الى الشام وان كانت الأخرى مضيت الى افريقية قال صدقت واستخير الله فقطع الفرات والله ما قطعه معه من قيس الا رجلان ابن جندة السلمى وكان أخاه من الرضاعة والكوثر بن الأسود الغنوى ولم ينفع مروان تعصبه مع النزارية شيأ بل غدروا به وخذلوه فلما أجتاز ببلاد قنسرين والحاضر اوقعت تنوخ القاطنة بقنسرين بساقته ووثب به أهل حمص وسار الى دمشق فوثب به الحارث ابن عبد الرحمن الحرشى ثم أتى الأردن فوثب به هاشم بن عمر العنسى والمذحجيون جميعا ثم مر بفلسطين فوثب الحكيم بن صنعان بن روح بن زنباع لما رأوا من ادبار الأمر عنه وعلم مروان أن اسماعيل بن عبد الله القشيرى قد غشه فى الرأى ولم يمحضه النصيحة وأنه فرط فى مشورته اياه اذ شاور رجلا من قحطان موتورا متعصبا من قومه على أضدادهم من نزار وأن الرأى الذى هم بفعله من قطع الدرب ونزول بعض حصون الروم ومكاتبة ملكها الى أن يرتئى فى أمره كان أولى وذكر المدائنى والعتبى وغيرهما أن مروان حين نزل على الزاب جرد من رجاله من اختاره من سائر جيشه من أهل الشأم والجزيرة وغيرهم مائة ألف فارس فلما كان يوم الوقعة وأشرف عبد الله بن على فى المسودة وفى أوائلهم البنود السود يحملها الرجال على الجمال البخت وقد جعلت أقتابها من خشب الصفصاف والغرب قال مروان لمن قرب منه أما ترون رماحهم كأنها النخل غلظا أما ترون الى أعلامهم فوق هذه الابل كأنها قطع من الغمام سود فبينا هو كذلك اذ طار من أرجة هنالك قطعة من الغرابيب سود فاجتمعت على أول رايات عبد الله بن على واتصل سوادها بسواد تلك الرايات والبنود ومروان ينظر فتطير من ذلك فقال أما ترون السواد قد أتصل بالسواد

وكان

وكان الغرابيب كالسحب سودا ثم نظر الى أصحابه المحاربين وقد استشعروا الجزع والفشل فقال انها العدة وما تنفع العدة اذا انقضت المدة ولمروان على الزاب أخبار غير هذه قد أتينا على ذكرها في كتابنا أخبار الزمان والأوسط فاغنى ذلك عن اعادة ذكرها والله ولي التوفيق

(ذكر خلافة أبي العباس عبد الله بن محمد السفاح)

بويع أبو العباس السفاح وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة وقيل في النصف من شهر جمادى الآخرة من هذه السنة وأمه رائطة بنت عبد الله ابن عبد المدان الحارثية وركب الى المسجد الجامع في يوم الجمعة فخطب على المنبر قائما وكانت بنو أمية تخطب قعودا فضج الناس وقالوا أحييت السنة يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ومات بالانبار في مدينته التي بناها وذلك في يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وقيل ابن تسع وعشرين سنة وكانت أمه تحت عبد الملك بن مروان فكان له منها الحجاج بن عبد الملك فلما توفي عبد الملك تزوجها محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فولدت منه عبد الله بن محمد السفاح وعبيد الله وداود وميمونة

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه)

ولما حبس ابراهيم الامام بحران وعلم أن لا نجاة له من مروان أثبت وصيته وجعلها الى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد وأوصاه بالقيام بالدولة والجد والحركة وأن لا يكون له بعده بالحميمة لبث ولا عرجة حتى يتوجه الى الكوفة فان هذا الأمر صائر اليه لا محالة وأنه بذلك أتتهم الرواية وأظهره على أمر الدعاة بخراسان والنقباء ورسم له بذلك رسما أوصاه فيه أن يعمل عليه ولا يتعداه ودفع الوصية بجميع ذلك الى سابق الخوارزمي مولاه وأمره ان حدث به حدث من مروان في ليل أو نهار ان يركب أسرع سابق في السير فلما حدث ركب وسار حتى أتى الحميمة فدفع الوصية الى أبي العباس ونعاه اليه فأمره أبو العباس بستر الوصية وان ينعاه ثم أظهر أبو العباس من أهل بيته على أمره ودعا الى موازرته ومكاشفته أخاه أبا جعفر عبد الله بن محمد وعيسى بن موسى بن محمد بن أخيه وعبد الله بن علي عمه وتوجه أبو العباس الى الكوفة مهرعا وهؤلاء معه في غيرهم ممن خف من أهل بيته فلقيتهم أعرابية على بعض مياه العرب في طريقهم الى الكوفة وقد تقدم أبو العباس وأخوه أبو جعفر وعمه عبد الله بن علي فيمن كان معهم الى الماء فقالت الأعرابية تالله ما رأيت وجوها مثل هذه ما بين خليفة وخليفة وخارجي فقال لها أبو جعفر المنصور كيف قلت يا أمة الله قالت والله ليلين هذا واشارت الى السفاح ولتخلفنه أنت وليخرجن عليك هذا واشارت الى عبد الله بن علي فلما انتهوا الى دومة الجندل لقيهم داود بن علي وموسى ابن داود وهما منصرفان من العراق الى الحميمة من أرض الشراة فسأله داود عن مسيره

فاخبره بسببه وأعلمه بحركة أهل خراسان لهم مع أبي مسلم وانه يريد الوثوب بالكوفة فقال له داود يا أبا العباس تثب بالكوفة ومروان شيخ بني امية وزعيمهم في أهل الشام والجزيرة مطل على أهل العراق وابن هبيرة شيخ العرب وحلية العرب بالعراق فقال أبو العباس يا عماه من أحب الحياة ذل وتمثل بقول الاعشى

فما ميتة ان متها غير عاجز * بعار اذا ما غالت النفس غولها

فالتفت داود الى ابنه موسى فقال أي بني صدق عمك ارجع بنا معه نعش اعزاء أو نموت كراما فعطفا ركابهما معه وسار أبو العباس حتى دخل الكوفة وقد كان أبو سلمة حفص بن سليمان حين بلغه مقتل ابراهيم الامام أضمر الرجوع عما كان عليه من الدعوة العباسية الى آل أبي طالب وقدم أبو العباس الكوفة فيمن ذكرنا من أهل بيته سرا والمسودة مع أبي سلمة بالكوفة فانزلهم جميعا دار الوليد بن سعد في بني أود حي من اليمن وقد ذكرنا مناقب أود وفضايلها فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار الحجاج وبراءتهم من علي والطاهرين من ذريته ولم أر الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثمائة فيما درت من الارض وتغربت من الممالك رجلا من أود الا وجدته اذا استبطنت ما عنده ناصبيا متوليا لآل مروان وحزبهم وأخفى أبو سلمة أمر أبي العباس ومن معه ووكل بهم وكان قد وصل أبو العباس الكوفة في صفر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة وفيها اجرى البريد بالكتب لولد العباس وقد كان أبو سلمة لما قتل ابراهيم الامام خاف انتقاض الأمر وفساده عليه فبعث بمحمد بن عبد الرحمن بن أسلم مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب معه كتابين على نسخة واحدة الى أبي عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب والى أبي محمد عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين يدعو كل واحد منهم الى الشخوص اليه ليصرف الدعوة اليه ويجتهد في بيعة أهل خراسان له وقال للرسول العجل العجل فلا تكونن كوافد عاد فقدم محمد بن عبد الرحمن المدينة على أبي عبد الله جعفر بن محمد فلقيه ليلا فلما وصل اليه أعلمه انه رسول أبي سلمة ودفع اليه كتابه فقال له أبو عبد الله وما أنا وأبو سلمة وأبو سلمة شيعة لغيري قال له اني رسول فتقرأ كتابه وتجيبه بما رأيت فدعا أبو عبد الله بسراج ثم أخذ كتاب أبي سلمة فوضعه على السراج حتى احترق وقال للرسول عرف صاحبك بما رأيت ثم أنشأ يقول متمثلا بقول الكميت ابن زيد

أيا موقدا نارا لغيرك ضوءها * ويا حاطبا في غير حبلك تحطب

فخرج الرسول من عنده وأتى عبد الله بن الحسن فدفع اليه الكتاب فقبله وقرأه وابتهج فلما كان غد ذلك اليوم الذي وصل اليه فيه الكتاب ركب عبد الله حمارا حتى أتى منزل أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق فلما رآه أبو عبد الله اكبر مجيئه وكان ابو عبد الله أسن من عبد الله فقال له يا أبا محمد أمر ما أتى بك قال نعم هو أجل من أن يوصف فقال وما هو يا أبا محمد قال هذا كتاب أبي سلمة يدعوني الى ما أقبله وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان فقال له أبو عبد الله يا أبا محمد ومتى كان أهل خراسان شيعة لك أنت بعثت أبا مسلم الى خراسان

وأنت أمرته بلبس السواد وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وجهت فيهم وهل تعرف منهم أحدا فنازعه عبد الله بن الحسن الكلام الى أن قال انما يريد القوم ابني محمدا لأنه مهدي هذه الامة فقال أبو عبد الله جعفر والله ما هو مهدي هذه الامة ولئن شهر سيفه ليقتلن فنازعه عبد الله القول حتى قال له والله ما يمنعك من ذلك الا الحسد فقال أبو عبد الله والله ما هذا الا نصح مني لك ولقد كتب الى أبو سلمة بمثل ما كتب به اليك فلم يجد رسوله عندي ما وجد عندك ولقد أحرقت كتابه من قبل أن أقرأه فانصرف عبد الله من عند جعفر مغضبا ولم ينصرف رسول أبي سلمة اليه الى أن بويع للسفاح بالخلافة وذلك أن أبا حميد الطوسي دخل ذات يوم من العسكر الى الكوفة فلقي سابقا الخوارزمي في سوق الكناسة فقال له سابق قال سابق فسأله عن ابراهيم الامام فقال قتله مروان في الحبس وكان مروان يومئذ بحران فقال أبو حميد فالى من الوصية قال الى أخيه أبي العباس قال وأين هو قال معك بالكوفة هو وأخوه وجماعة من عمومته وأهل بيته قال مذ متى هم هنا قال من شهرين قال فتمضي بنا اليهم قال غدا بيني وبينك الموعد في هذا الموضع وأراد سابق أن يستأذن أبا العباس في ذلك فانصرف الى أبي العباس فأخبره فلامه اذ لم يأت به معه اليهم ومضى أبو حميد فأخبر جماعة من قواد خراسان في عساكر أبي سلمة بذلك منهم الجهم وموسى بن كعب وكان زعيمهم وغدا سابق الى الموضع فلقي أبا حميد فمضيا حتى دخلا على أبي العباس ومن معه فقال أيكم الامام فأشار داود بن علي الى أبي العباس وقال هذا خليفتكم فأكب على أطرافه يقبلها وسلم عليه بالخلافة وأبو سلمة لا يعلم بذلك فبايعه ودخلوا الى الكوفة في أحسن زي وضربوا له مصافا وقدمت الخيول فركب أبو العباس ومن معه حتى أتوا قصر الامارة وذلك في يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب تنازع الناس في أي شهر بويع من هذه السنة ثم دخل المسجد الجامع من دار الامارة فحمد الله وأثنى عليه وذكر تعظيم الرب ومنته وفضل النبي صلى الله عليه وسلم وقاد الولاية والوراثة حتى انتهت اليه ووعد الناس خيرا ثم سكت فتكلم عمه داود بن علي وهو على المنبر دون أبي العباس فقال انه والله ما كان بينكم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم خليفة الا علي وأمير المؤمنين هذا الذي خلفي ثم نزلا وخرج أبو العباس الى عسكر أبي سلمة فنزل في حجرته واستخلف على الكوفة وأرضها عمه داود بن علي وبعث بعمه عبد الله بن علي الى أبي عون عبد الملك بن يزيد فسار اسعا الى مروان فكان من أمرهم ما قد منا ذكره من التقائهم على الزاب وهزيمة مروان بن محمد واتصل بأبي العباس السفاح ما كان من عامر بن اسماعيل وقتله لمروان ببوصير وقيل ان ابن عم لعامر يقال له نافع بن عبد الملك كان قتله في تلك الليلة في المعركة وهو لا يعرفه وأن عامرا لما احتز رأس مروان واحتوى على عسكره دخل الكنيسة التي كان فيها مروان فقعد على فرشه وأكل من طعامه فخرجت اليه ابنة مروان الكبرى وتعرف بأم مروان وكانت أسنهن فقالت يا عامر ان دهرا أنزل مروان عن فرشه حتى أقعدك عليها فأكلت من طعامه واحتويت

على أمره وحكمت في مملكته لقادر ان يغير ما بك وبلغ السفاح فعله وكلامها فاغتاظ من ذلك وكتب اليه ويلك أما كان لك في أدب الله عز وجل ما يزجرك عن أن تأكل من طعام مروان وتقعد على مهاده وتتمكن من وساده أما والله لولا أن أمير المؤمنين تأول ما فعلت على غير اعتقاد منك لذلك ولا شهوة لمسك من غضبه وأليم أدبه ما يكون لك زاجرا ولغيرك واعظا فاذا أتاك كتاب أمير المؤمنين فتقرب الى الله بصدقة تطفئ بها غضبه وصلاة تظهر بها الاستكانة وصم ثلاثة أيام ومر جميع أصحابك أن يصوموا مثل صيامك ولما أتى أبو العباس برأس مروان ووضع بين يديه سجد فأطال ثم رفع رأسه فقال الحمد لله الذي لم يبق ثاري قبلك وقبل رهطك الحمد لله الذي أظفرني بك وأظهرني عليك ثم قال ما أبالي متى طرقني الموت قد قتلت بالحسين وبني أبيه من بني أمية مائتين وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي وقتلت مروان بأخي ابراهيم وتمثل

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم * ولا دماؤهم للغيظ ترويني

ثم حول وجهه الى القبلة فأطال السجود ثم جلس وقد أسفر وجهه وتمثل بقول العباس ابن عبد المطلب من أبيات له

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت * قواطع في أيماننا تقطر الدما
تورثن من أشياخ صدق تقربوا * بهن الى يوم الوغى فتقدما
اذا خالطت هام الرجال تركنها * كبيض نعام في الوغى متحطما

وقالت الشعراء في أمر مروان فأكثرت (وذكر) أبو الخطاب عن أبي جعدة بن هبيرة المخزومي وكان أحد وزراء مروان وسماره وقد كان لما ظهر أمر أبي العباس انضاف الى جملته وصار في عداد أصحابه وخواصه الذين اتخذهم أنه كان في ذلك اليوم حاضرا لمجلس أبي العباس ورأس مروان بين يديه وهو يومئذ بالحيرة وأن أبا العباس التفت الى أصحابه فقال أيكم يعرف هذا قال أبو جعدة فقلت أنا أعرفه هذا رأس أبي عبد الملك مروان بن محمد خليفتنا بالأمس رضي الله عنه قال فحدقت الي الشيعة فأخذتني بأبصارها فقال لي أبو العباس في أي سنة كان مولده قلت سنة ست وسبعين فقام وقد تغير لونه غيظا علي وتفرق الناس من المجلس وانصرفت وأنا نادم على ما كان مني وتكلم الناس في ذلك وتحدثوا به فقلت زلة والله لا تستقال ولا تنساها القوم ابدا فأتيت منزلي فلم أزل باقي يومي أعهد وأوصي فلما كان الليل اغتسلت وتهيأت للصلاة وكان أبو العباس قد اهتم بأمر بعث فيه ليلا فلم أزل ساهرا حتى أصبحت فلما أصبحت ركبت بغلتي واستعرضت بقلبي الى من اقصد في أمري فلم اجد أحدا أولى من سليمان بن خالد مولى بني زهرة وكان له من أبي العباس منزلة عظيمة وكان من شيعة القوم فأتيته فقلت أذكرني أمير المؤمنين البارحة فقال نعم جرى ذلك فقال هو ابن اختنا وفي لصاحبه ونحن ان أوليناه خيرا كان لنا أشكر فشكرت ذلك له وجزيته خيرا ودعوت له وانصرفت فلم أزل آتي أبا العباس على ما كنت عليه لا أرى الا خيرا ونمي الكلام الذي كان في مجلس أبي العباس حين أتى برأس مروان فبلغ أبا جعفر وعبد الله بن علي فكتب عبد الله بن علي الى أبي العباس يعلمه بما بلغه من كلامي

وأنه ليس هذا يحتمل وكتب أبو جعفر يخبره بما بلغه من ذلك ويقول هو ابن اختنا ونحن أولى باصطناعه واتخاذ المعروف عنده وبلغنى ما كان منهم فأمسكت وضرب الدهر ضربانه فبينا أنا ذات يوم عند أبى العباس بعد حين وقد تزايدت حالى عنده وأحظانى فنهض الناس ونهضت فقال لى أبو العباس يا ابن هبيرة اجلس فجلست ونهض ليدخل فقمت لقيامه فقال اجلس فرفع الستر ودخل وثبت فى مجلسى فأقام مليا ثم رفع الستر فخرج فى ثوبى وشى رداء وجبة فما رأيت أحسن منه ولا مما عليه قط فلما رفع الستر نهضت فقال اجلس فجلست فقال يا ابن هبيرة انى ذاكر لك أمرا فلا يخرجن من رأسك الى أحد من الناس ثم قال قد علمت ما جعلنا من هذا الأمر وولاية العهد ان قتل مروان وعبد الله ابن على عمى هو الذى قتله لان ذلك كان بجيشه وبأصحابه وأخى ابو جعفر مع فضله وعلمه وايثاره لأمر الله كيف يسوغ اخراجه عنه قال فأطال فى مديح أبى جعفر فقلت أصلح الله الأمير لا أشير عليك ولكنى أحدثك حديثا تعتبره فقال هاته فقلت كنا مع مسلمة بن عبد الملك عام الخليج بالقسطنطينية اذ ورد عليه كتاب عمر بن عبد العزيز ينعى سليمان ومصير الأمر اليه فبعث الى فدخلت عليه فرمى بالكتاب الى فقرأته ثم اندفع يبكى فقلت أصلح الله الأمير لا تبك على أخيك ولكن ابك على خروج الخلافة من ولد ابيك الى ولد عمك فبكى حتى اخضلت لحيته قال فلما فرغت من حديثى قال لى أبو العباس حسبك قد فهمت عنك ثم قال اذا شئت فانهض فما مضيت غير بعيد حتى قال لى يا ابن هبيرة فالتفت راجعا فقال لى امض أما انك قد كافأت هذا وأدركت بثارك من هذا قال فما ادرى من أى الأمرين أعجب أمن فطنته أم من ذكره لما كان وأبو جعدة ابن هبيرة هذا هو من ولد جعدة ابن هبيرة المخزومى من فاختة أم هانئ بنت أبى طالب وعلى وجعفر وعقيل اخواله وقد قدمنا خبره فيما سلف من هذا الكتاب (قال المسعودى) ووجدت فى أخبار المدائنى عن محمد بن الأسود قال بينا عبد الله بن على يساير اخاه داود بن على ومعهما عبد الله بن الحسن بن الحسن فقال داود لعبد الله لم لا تأمر بنيك بالظهور فقال عبد الله هيهات لم يان لهما بعد فالتفت اليه عبد الله بن على فقال كأنك تحسب أن ابنيك هما قاتلا مروان فقال أن ذلك كذلك فقال عبد الله هيهات وتمثل

سيكفيك المقالة مستميت * خفيف اللحم من أولاد حام

انا والله قاتله وقيل لعبد الله بن على أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز يذكر انه قرأ فى بعض الكتب عين بن عين بن عين وقد أمل أن يكون هو فقال عبد الله بن على انا والله ذلك ولى عليه فضل ثلاثة أعين انا عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم وهو عمرو بن عبد مناف فلما اضاف مروان عبد الله بن على أقبل مروان على رجل الى جنبه فقال من الرجل الذى كان يخاصم عندك عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الأقنى الحديد البصر الحسن الوجه فقلت يرزق الله البيان من يشاء قال أنه لهو قلت نعم قال من ولد العباس بن عبد المطلب هو قلت أجل فقال مروان انا لله وانا اليه راجعون ويحك انى ظننت أن الذى يحاربنى من ولد أبى طالب وهذا الرجل من ولد العباس واسمه عبد الله

أتدرى لم صيرت الأمر بعدى لابن عبيد الله بعد عبد الله ومحمدا أكبر من عبد الله لانا خبرنا أن الأمر صاير بعدى الى عبد الله وعبد الله فنظرت فاذا عبيد الله أقرب الى عبد الله من محمد فوليته دونه قال وبعث مروان بعد أن حدث صاحبه بهذا الحديث الى عبد الله ابن علي فى خفية أن الأمر يا ابن عم صاير اليك فاتق الله فى الحرم قال فبعث اليه عبد الله أن الحق لنا فى دمك والحق علينا فى حرمك وذكر مصعب الزبيرى قال كانت أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومى عند عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك فهلك عنها ثم كانت عند هشام فهلك عنها فبيناهى ذات يوم اذ مر بها أبو العباس السفاح وكان جميلا وسيما فسألت عنه فنسب لها فارسلت له مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها وقالت لها قولى له هذه سبعمائة دينار أوجه بها اليك وكان معها مال عظيم وجوهر وحشم فأتته المولاة فعرضت عليه ذلك فقال أنا مملق لا مال عندى فدفعت اليه المال فأنعم لها وأقبل الى أخيها فسأله التزويج فزوجه اياها فأصدقها خمسمائة دينار وأهدى مائتى دينار ودخل عليها من ليلته واذا هى على منصة فصعد عليها فاذا كل عضو منها مكلل بالجوهر فلم يصل اليها فدعت بعض جواريها فنزلت وغيرت لبسها ولبست ثيابا مصبغة وفرشت له فراشا على الارض دون ذلك فلم يصل اليها فقالت لا يضرك هذا كذلك كان يصيبهم مثل ما اصابك فلم تزل به حتى وصل اليها من ليلته وحظيت عنده وحلف أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى فولدت منه محمدا وريطة وغلبت عليه غلبة شديدة حتى ما كان يقطع أمرا الا بمشورتها وبأمرها حتى أفضت الخلافة اليه فلم يكن يدنو الى النساء غيرها لا الى حرة ولا الى أمة ووفى لها بما حلف أن لا يغيرها فلما كان ذات يوم فى خلافته خلا به خالد بن صفوان فقال يا أمير المؤمنين انى فكرت فى أمرك وسعة ملكك وقد ملكت نفسك امرأة واحدة فان مرضت مرضت وان غابت غبت وحرمت نفسك التلذذ باستطراف الجوارى ومعرفة أخبار حالاتهن والتمتع بما تشتهى منهن فان منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء وان منهن الفضة البيضاء والعتيقة الادماء والدقيقة السمراء والبربرية العجزاء من مولدات المدينة تفتن بمحادثتها وتلذ بخلوتها وأين أمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر الى ما عندهن وحسن الحديث منهن ولو رأيت يا أمير المؤمنين الطويلة البيضاء والسمراء اللعساء والصفراء العجزاء والمولدات من البصريات والكوفيات ذات الالسن العذبة والقدود المهفهفة والاوساط المخصرة والاصداغ المزرفنة والعيون المكحلة والثدى المحققة وحسن زيهن وزينتهن وشكلهن لرأيت شيأ حسنا وجعل خالد يجيد فى الوصف ويجد فى الاطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه فلما فرغ كلامه قال له أبو العباس ويحك يا خالد ما صك مسامعى والله قط كلام أحسن مما سمعته منك فأعد على كلامك فقد وقع منى موقعا فأعاد عليه خالد أحسن مما ابتدأه ثم انصرف وبقى أبو العباس مفكرا فيما سمع منه فدخلت عليه أم سلمة امرأته فلما رأته مفكرا مغموما قالت انى لانكرك يا أمير المؤمنين فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر فارتعت له قال لم يكن من ذلك شئ قالت فما قصتك فجعل ينزوى عنها فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد له فقالت فما قلت لابن الفاعلة قال لها سبحان الله

يصحبني وتشتمينه فخرجت من عنده مغضبة وأرسلت الى خالد من الجارية ومعهم المكاركوبات وأمرتهم أن لا يتركوا منه عضوا صحيحا قال خالد فانصرفت الى منزلي وانا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين واعجابه بما ألقيته اليه ولم أشك أن صلته ستأتيني فلم ألبث حتى صار الى أولئك الجارية وانا قاعد على باب داري فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوي أيقنت بالجائزة والصلة حتى وقفوا على فسألوا عني فقلت ها انا ذا خالد فسبق الى أحدهم بهراوة كانت معه فلما أهوى بها الى وثبت فدخلت منزلي وأغلقت الباب على واستترت ومكثت أياما على تلك الحال لا أخرج من منزلي ووقع في خلدي أني أوتيت من قبل أم سلمة وطلبني أبو العباس طلبا شديدا فلم أشعر ذات يوم الا بقوم قد هجموا على وقالوا أجب أمير المؤمنين فأيقنت بالموت فركبت وليس على لحم ولا دم فلم أصل الى الدار فأومأ الى بالجلوس ونظرت فاذا خلف ظهري باب عليه ستور قد أرخيت وحركة خلفها فقال يا خالد لم أرك منذ ثلاث قلت كنت عليلا يا أمير المؤمنين قال ويحك انك وصفت لي في آخر دخلة من أمر النساء والجواري مالم يخرق مسامعي قط كلام أحسن منه فأعده على قلت نعم يا أمير المؤمنين أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة الا كان في جهد فقال ويحك لم يكن هذا في الحديث قلت بلى والله يا أمير المؤمنين وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافي القدر يغلي عليهن قال أبو العباس برئت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت سمعت هذا منك في حديثك قال وأخبرتك أن الأربعة من النساء شر صحيح لصاحبهن يشيبنه ويهرمنه ويسقمنه قال ويلك والله ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت قال خالد بلى والله قال ويلك وتكذبني قال وتريد أن تقتلني يا أمير المؤمنين قال مر في حديثك قال وأخبرتك أن أبكار الجواري رجال ولكن لا خصى لهن قال خالد فسمعت الضحك من وراء الستر قلت نعم وأخبرتك أيضا أن بني مخزوم ريحانة قريش وأنت عندك ريحانة من الرياحين وأنت تطمح بعينك الى حرائر النساء وغيرهن من الاماء قال خالد فقيل لي من وراء الستر صدقت والله يا عماه وبررت بهذا حدثت أمير المؤمنين ولكنه بدل وغير ونطق عن لسانك فقال له أبو العباس مالك قاتلك الله وأخزاك وفعل بك وفعل قال فتركته وخرجت وقد أيقنت بالحياة قال خالد فما شعرت الا برسل أم سلمة قد صاروا الى ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت وبرذون وغلام ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل أبي العباس السفاح وكان كثيرا ما يقول انما العجب ممن يترك أن يزداد علما ويختار أن يزداد جهلا فقال له أبو بكر الهذلي ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين قال يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ويدخل الى امرأة أو جارية فلا يزال يسمع سخفا ويروى نقصا فقال له الهذلي لذلك فضلكم الله على العالمين وجعل منكم خاتم النبيين (ودخل) عليه أبو نخيلة الشاعر فسلم عليه وانتسب له وقال عبدك يا أمير المؤمنين وشاعرك أفتأذن لي في انشادك فقال له لعنك الله الست القائل في مسلمة بن عبد الملك بن مروان

أمسلم اني يا ابن كل خليفة * ويا فارس الهيجا ويا جبل الارض

شكرتك ان الشكر حبل من التقى * وما كل من أوليته نعمة يقضى
وأحييت لى ذكرى وما كان خاملا * ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

قال فأنا يا أمير المؤمنين الذى أقول

لما رأينا استمسكت يداكا * كنا أناسا نرهب الملاكا
ونركب الاعجاز والاوراكا * من كل شئ ما خلا الاشراكا
فكلما قد قلت فى سواكا * زور وقد كفر هذا ذاكا
انا انتظرنا قبلها أباكا * ثم انتظرنا بعدها أخاكا
ثم انتظرناك لها اياكا * فكنت أنت للرجاء ذاكا

قال فرضى عنه ووصله وأجازه (وكان) أبو العباس اذا حضر طعامه أبسط ما يكون وجها فكان ابراهيم بن مخرمة الكندى اذا اراد أن يسأله حاجة أخرها حتى يحضر طعامه ثم يسأله فقال له يوما يا ابراهيم ما دعاك الى أن تشغلنى عن طعامى بحوائجك قال يدعونى الى ذلك التماس النجح لما أسأل قال أبو العباس انك لحقيق بالسودد لحسن هذه الفطنة (وكان) اذا تعادى رجلان من أصحابه وبطانته لم يسمع من أحدهما فى الآخر شيئا ولم يقبله وان كان القائل عدلا فى شهادته واذا اصطلح الرجلان لم يقبل شهادة واحد منهما لصاحبه ولا عليه ويقول أن الضغينة القديمة تولد العداوة المحضة وتحمل على اظهار المسالمة وتحتها الأفعى التى اذا تمكنت لم تبق (وكان) فى أول أيامه يظهر لندمائه ثم احتجب عنهم وذلك لسنة خلت من ملكه لأمر قد ذكرناه فيما سلف من هذا الكتاب فى سيرة أردشير بن بابك وأيامه (وكان) يطرب من وراء الستر ويصيح بالمطرب له من المغنين أحسنت والله فأعد هذا الصوت (وكان) لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا مطربيه الا بصلة من مال أو كسوة ويقول لا يكون سرورنا معجلا ومكافاة من سرنا وأطربنا مؤجلا وقد سبقه الى هذا الفعل ملك من الملوك التى للفرس وهو بهرام جور (وحضره) أبو بكر الهذلى ذات يوم والسفاح مقبل عليه يحادثه بحديث لأنوشروان فى بعض حروبه بالمشرق مع بعض ملوك الامم فعصفت الريح فأذرت ترابا وقطعا من الآجر من أعلى السطح الى المجلس فجزع من حضر المجلس لوقوع ذلك وارتاع له والهذلى شاخص نحو أبى العباس لم يتغير كما تغير غيره فقال له أبو العباس لله أنت يا أبا بكر لم أر كاليوم أما راعك ما راعنا ولا أحسست بما ورد علينا فقال يا أمير المؤمنين ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وانما للرجل قلب واحد فلما غمره السرور بفائدة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال والله عز وجل اذا انفرد بكرامة أحد وأحب أن يبقى له ذكرها جعل تلك الكرامة على لسان نبى أو خليفة وهذه كرامة خصصت بها فمال اليها ذهنى وشغل بها فكرى فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها ولا وجمت لها الا بما يلزمنى فى نفسى لامير المؤمنين أعزه الله تعالى فقال له السفاح لئن بقيت لك لارفعن منك وضعا لا تطيف به السباع ولا يحط عليه العقاب وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب وصية عبد الملك للشعبى فى فضل الانصات للملوك (وقد حكى) عن عبد الله ابن عباس المتوف أنه قال لم تتقرب العامة الى الملوك بمثل الطاعة ولا العبيد بمثل الخدمة

ولا البطانة بمثل حسن الاستماع (وقد حكى) عن روح بن زنباع الجزامي أنه كان يقول اذا أردت أن يمكنك الملك من أذنه فأمكن أذنك من الاصغاء الى حديثه ولا يتعتب الرجل عندى اذا كان يصغى الى حديثى ولا يقدح ما قيل فيه فى قلبى لما تقدم له من حسن الاستماع عندى (وقد حكى) عن معاوية أنه كان يقول يغلب الملك حتى يركب لشيئين بالحلم عند سورته والاصغاء الى حديثه (ووجدت) فى سير الملوك من الاعاجم أن شيرويه بن ابرويز بيناهو فى منتزهاته بأرض العراق وكان لا يسايره أحد من الناس مبتدئا وأهل المراتب العالية خلف ظهره على مراتبهم فان التفت يمينا دنا منه صاحب الجيش وان التفت شمالا دنا منه الموبذات فأمره باحضار من أراد مسايرته فالتفت فى مسيره هذا يمينا فدنا منه صاحب الجيش فقال أين شداد بن جرعة فأحضر فسايره فقال له شيرويه أفكرت فى حديث حدثنا به أردشير بن بابك حين واقع ملك الخزر فحدثني به ان كنت تحفظه وكان شداد قد سمع هذا الحديث من أنوشروان وعرف المكيدة وكيف كان أردشير أوقعها بملك الخزر فاستجمع عليه شداد وأوهمه أنه لا يعرفه فحدثه شيرويه بالحديث فأصغى اليه الرجل بجوارحه كلها وكان مسيره على شاطئ نهر فترك الرجل لاقباله على شيرويه النظر الى موطئ حافر دابته فزلت احدى قوائم الدابة فمالت بالرجل الى اليمين فوقع فى الماء ونفرت الدابة فابتدرها حاشية الملك وغلمانه فأمالوها عن الرجل وجذلوه فحملوه على أيديهم حتى أخرجوه فاغتم لذلك ونزل عن دابته وبسط له هنالك حتى تغدى فى موضعه ودعا بثياب من خاص كسوته فالقيت على شداد وأكل معه وقال له غفلت عن النظر الى موضع حافر دابتك فقال أيها الملك ان الله اذا أنعم على عبد نعمة قابلها بمحنة وعارضها ببلية وعلى قدر النعم تكون المحن وان الله أنعم على بنعمتين عظيمتين هما اقبال الملك على بوجهه من بين هذا السواد الأعظم وهذه الفائدة وهى تدبير هذه الحرب حتى حدثنى بها عن أردشير حتى انى لو دخلت الى حيث تطلع الشمس أو تغرب لكنت راجحا فلما اجتمعت نعمتان جليلتان فى وقت واحد قابلتهما هذه المحنة ولولا أساورة هذا الملك ويمن جده لكنت معرض هلكة وعلى ذلك فلو غرقت حتى ذهبت عن جديد الارض لكان قد أبقى لى الملك ذكر الخلد ما بقى الضياء والظلام فسر الملك بذلك وقال ما ظننتك بهذا المقدار الذى أنت فيه فحشا فاه جوهرا ودرا رائعا ثمينا واستبطنه حتى غلب على أكثر أمره (وانما ذكرنا) هذا الخبر من أخبار من سلف من ملوك الفرس ليعلم أن ابا بكر الهذلى ثم لم يبتدئ بحال لم يسبقه اليها غيره ويتقدمه بها سواه وأحسن المواقع من الملوك الاستماع منها والأخذ عنها وقد كانت حكماء اليونانيين تقول ان الواجب على من أقبل عليه ملك أو ذو رياسة بحديث أن يصرف كله الى ذلك وان كان يعرف الحديث الذى يسمعه من الملك كأنه لم يسمعه قط ويظهر السرور من الملك والاستبشار بحديثه وان فى ذلك أمرين أحدهما ما يظهر من حسن أدبه فانه يعطى الملك حقه بحسن الاستماع لحديثه والاستغراب له كأنه لم يسمعه واظهار السرور والاستفادة منه فالنفس الى الفوائد من الملوك والحديث عنهم أشهى وأقرب منها الى فوائد السوقة وما أشبهها (وقد ذكر) جماعة من الأخبار يين كابن داب وغيره نحو هذا المعنى عن معاوية

قوله شداد بن جرعة الخ الذى فى القاموس شداد بن قيس ابن هانئ بن جرعة فالعله مشهور بجده كتبه مصححه

ابن أبي سفيان ويزيد ابن سمرة الرهاوي وهو أن ابن سمرة كان يسامر ذات يوم معاوية وكان آنسا به والى حديثه تائقا ومعاوية مقبل عليه يحدثه عن (بزغان) يوم كان لبني مخزوم وغيرهم من قريش كان فيه حرب عظيمة فني فيها خلق من الناس وذلك قبل الاسلام وقيل ان ذلك كان قبل الهجرة وكان لأبي سفيان فيها مكرمة وسابقة في الرياسة وهو أنه لما أشرف الفريقان على الفناء علا على نشز من الأرض ثم صاح بالفريقين واشار بكمه وانصرف الفريقان جميعا انقيادا الى أمره وكان معاوية معجبا بهذا الحديث فبينما هو يحدثه به ويزيد بن سمرة مقبل عليه وقد استخفهما لذة المحدث والمستمع اذ صك جبين يزيد بن سمرة حجر عابر فأدماه فجعلت الدماء تسيل على وجهه ولحيته وثوبه وغير ذلك ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع فقال له معاوية لله أنت يا ابن سمرة أما ترى ما نزل بك قال وما ذاك يا أمير المؤمنين قال هذا دم يسيل على ثوبك فقال أعتق ما املك ان لم يكن حديث أمير المؤمنين الهاني حتى غمر فكري وغطى على قلبي فما شعرت بشيء مما حدث حتى نبهني عليه أمير المؤمنين فقال معاوية لقد ظلمك من جعلك في الف من العطاء وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين والجماهير ممن حضر معنا بصفين ثم أمر له وهو في مسيره بخمسمائة ألف درهم وزاده في اعطائه الفا من الدراهم وجعله بين جلده وثوبه (وقد قال) بعض أهل المعرفة والأدب من مصنفي الكتب في هذا المعنى وغيره فيما حكيناه عن معاوية وابن سمرة لئن كان ابن سمرة خدع معاوية في هذا ومعاوية ممن لا يخادع فما مثله الا كما قال الاول (من ينك العير ينك نياكا) وان كان بلغ من بلادة ابن سمرة وقلة حسه ما وصف به نفسه فما كان جديرا بخمسمائة ألف صلة وزيادة ألف في عطائه وما أظن ذلك خفي عن معاوية (قال المسعودي) وقد قالت الحكماء في هذا واكثرت وأمرت بحسن الاستماع واطنبت فقالوا لا تحسن المحادثة الا بحسن الفهم وقالوا تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام وحسن الاستماع هو امهال المحدث حتى ينقضي حديثه (ومن أدب الحديث وواجباته أن لا يقتضب اقتضابا ولا يهجم عليه وأن يتوصل الى اجرائه بما يشاكله ويستنسب له ما يحسن أن يجري في غرضه حتى يكون بعض المفاوضة متعلقا ببعض على حسب ما قالوا في المثل ان الحديث ذو شجون يريدون بذلك تشعبه وتفرعه عن أصل واحد الى وجوه من المعاني كثيرة اذ كان العيش كله في الجليس الممتع وقال رجل والله ما أمل الحديث فقال السامع انما يمل العتيق لا الحديث وقد أكثرت الشعراء من الاغراق في هذا المعنى ومن ذلك قول العباس بن علي الرومي

وسئمت كل مآربي * فكأن اطيبها خبيث
الا الحديث فانه * مثل اسمه أبدا حديث

وأحسن ما قيل في هذا المعنى قول ابراهيم بن العباس

ان الزمان وما يبين بمفرقي * صرف الغواية فانصرفت كريما
وضجرت الا من لقاء محدث * حسن الحديث يزيدني تعليما

وقد ذكر بعض المحدثين من أهل الأدب ان من الادب عدم اطالة الحديث من النديم

وان

وان أحلى الحديث وأحسنه موقعاً أن تجتنب منه الأحاديث الطوال دون المعاني المغلقة الالفاظ الحشوية التي ينقضي باقتصاصها زمان المجالس وتتعلق بها النفوس وتحتسى على أواخرها الكوس وأن ذلك بمجالس القصاص أشبه منه بمجالس الخواص (وقد ذكر) هذا المعنى فاجاد فيه عبد الله بن المعتز بالله ووصف ذلك بين أصحاب الشراب على المعاقرة فقال

بين أقداحهم حديث قصير * هو سحر وما عداه كلام
وكأن السقاة بين الندامى * ألفات بين السطور قيام

وهذه طريقة من ذهب في هذا المعنى الى استماع الملح وكان أول من وقع عليه اسم الوزارة في دولة بني العباس أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال الهمداني مولى لسبيع وكان في نفس أبي العباس منه شيء لانه كان حاول في رد الأمر عنهم الى غيرهم فكتب أبو مسلم الى السفاح يشير عليه بقتله ويقول له قد أحل الله لك دمه لانه قد نكث وغير وبدل فقال السفاح ما كنت لافتتح دولتي بقتل رجل من شيعتي لاسيما مثل أبي سلمة وهو صاحب هذه الدعوة وقد عرض نفسه وبذل مهجته وأنفق ماله وناصح امامه وجاهد عدوه وكلمه أبو جعدة أخوه وداود ابن علي عمه في ذلك وقد كان أبو مسلم كتب اليهما يسألهما أن يشيرا على السفاح بقتله فقال أبو العباس ما كنت لأفسد كثير احسانه وعظيم بلائه وصالح أيامه بزلة كانت منه وهي خطرة من خطرات الشيطان وغفلة من غفلات الانسان فقالا له فينبغي يا أمير المؤمنين أن تحترس منه فانا لا نأمنه عليك فقال كلا اني لآمنه في ليلي ونهاري وسري وجهري ووحدتي وجماعتي فلما اتصل هذا القول من أبي العباس بأبي مسلم أكبره وأعظمه وخاف من ناحية أبي سلمة أن يقصده بالمكروه فوجه بجماعة من ثقات أصحابه في اعمال الحيلة في قتل أبي سلمة وقد كان أبو العباس يأنس بأبي سلمة ويسمر عنده وكان أبو سلمة فكها ممتعا أديبا عالما بالسياسة والتدبير فيقال أن أبا سلمة انصرف ليلة من عند السفاح من مدينته بالانبار وليس معه أحد فوثب عليه أصحاب أبي مسلم فقتلوه فلما اتصل خبره بالسفاح أنشأ يقول

الى النار فليذهب ومن كان مثله * على أي شيء فاتنا منه نأسف

وكان أبو مسلم يقال له أمين آل محمد وأبو سلمة حفص بن سليمان يدعى وزير آل محمد فلما قتل غيلة على ما ذكرنا قال في ذلك الشاعر من أبيات

ان المساءة قد تسر وربما * كان السرور بما كرهت جديرا
ان الوزير وزير آل محمد * أودى فمن يشناك كان وزيرا

وقد أتينا على خبر مقتله وكيفية أمره في الكتاب الأوسط (وكان) السفاح يعجبه المحادثة ومفاخرات العرب من نزار واليمن والمذاكرة بذلك ولخالد بن صفوان وصدر من قحطان أخبار حسان ومفاخرات ومذاكرات ومنادمات ومسامرات مع السفاح مشهورة فاغنى ذلك عن ذكرها (ومما ذكر من أخباره) واستفاض من أسماره ما ذكره البهلول بن العباس عن الهيثم بن عدي الطائي عن يزيد الرقاشي قال كان السفاح يعجبه مسامرة الرجال واني

خنازير الحشوش فقتلوها * فان دماءهم لكم حلال

قال لا والله ما انا من ثقيف قالت فمن أنت قال رجل من عبس قالت أتعرف الذى يقول

اذا عبسية ولدت غلاما * فبشرها بلؤم مستفاد

قال لا والله ما انا من عبس قالت فمن أنت قال رجل من ثعلبة قالت اتعرف الذى يقول

وثعلبة بن قيس شر قوم * والأمهم واغدرهم بجار

قال لا والله ما انا منهم قالت فمن أنت قال رجل من بنى مرة قالت أتعرف الذى يقول

اذا مرية خضبت يداها * فزوجها ولا تامن زناها

قال لا والله ما أنا من بنى مرة قالت فمن أنت قال رجل من بنى ضبة قالت أتعرف الذى يقول

لقد زرقت عيناك يا ابن معكبر * كما كل ضبى من اللؤم ازرق

قال لا والله ما أنا من بنى ضبة قالت فمن أنت قال رجل من بجيلة قالت أتعرف الذى يقول

سألنا عن بجيلة حين حلت * لتخبر اين قر بها القرار

فما تدرى بجيلة أين تدعى * اقحطان أبوها أم نزار

فقد وقعت بجيلة بين بين * وقد خلعت كما خلع العذار

قال لا والله ما أنا من بجيلة قالت فمن أنت ويحك قال رجل من بنى الازد قالت أتعرف الذى يقول

اذا أزدية ولدت غلاما * فبشرها بملاح مجيد

قال لا والله ما أنا من الازد قالت فمن أنت ويلك أما تستحى قل الحق قال انا رجل من خزاعة قالت أتعرف الذى يقول

اذا افتخرت خزاعة فى كريم * وجدنا فخرها شرب الخمور

وباعت كعبة الرحمن جهرا * بزق بئس مفتخر الفخور

قال لا والله ما أنا من خزاعة قالت فمن أنت قال رجل من سليح قالت أتعرف الذى يقول

أما السليح شتت الله أمرها * تبدلت بايديها وتعى أيورها

قال لا والله ما أنا من سليح قالت فمن أنت قال رجل من لقيط قال أتعرف الذى يقول

لعمرك ما البحار ولا الفيافى * باوسع من فقاح بنى لقيط

لقيط شر من ركب المطايا * واندل من يدب على البسيط

الا لعن الاله بنى لقيط * بقايا سبة من قوم لوط

قال لا والله ما أنا من لقيط قالت فمن أنت قال رجل من كنده قالت أتعرف الذى يقول

اذا ما افتخر الكندى ذو البهجة والطره * فبالنسج وبالخف وبالسدل وبالحفره

فدع كندة للنسج فاعلى فخرها عره * قال لا والله ما انا من كندة قالت فمن أنت قال رجل من خثعم قالت أتعرف الذى يقول

وخثعم لو صفرت بها صفيرا * لطارت فى البلاد مع الجراد

قال لا والله ما أنا من خثعم قالت فمن أنت قال رجل من طى قالت اتعرف الذى يقول

وما طيّ الا ابط تجمعت * فقالت طيا نا كلة فاستمرت
ولو أن حرقوصا يمد جناحه * على جبلى طيّ اذا الاستظلت

قال لا والله ما أنا من طى قالت فمن أنت قال رجل من مزينة قالت أتعرف الذى يقول

وهل مزينة الا من قبيلة * لا يرتجى كرم فيها ولا دين

قال لا والله ما أنا من مزينة قالت فمن أنت قال رجل من النخع قالت أتعرف الذى يقول

اذا النخع اللئام غدوا جميعا * تاذى الناس من وفر الزحام
وما يسموا الى مجد كريم * وما هم فى الصميم من الكرام

قال لا والله ما أنا من النخع قالت فمن أنت قال رجل من اود قالت أتعرف الذى يقول

اذا نزلت بأود فى ديارهم * فاعلم بأنك منهم لست بالناجى
لا تركنن الى كهل ولا حدث * فليس فى القوم الا كل عفاج

قال لا والله ما أنا من أود قالت فمن أنت قال انا رجل من لخم قالت أتعرف الذى يقول

اذا ما انتمى قوم لفخر قديمهم * تباعد فخر القوم من لخم اجمعا

قال لا والله ما أنا من لخم قالت فمن أنت قال أنا رجل من جذام قالت أتعرف الذى يقول

اذا كأس المدام ادير يوما * لمكرمة تنحى عن جذام

قال لا والله ما أنا من جذام قالت فمن أنت ويلك أما تستحيى أكثرت من الكذب قال انا رجل من تنوخ وهو الحق قالت أتعرف الذى يقول

اذا تنوخ قطعت منهلا * فى طلب الغارات والثار
آبت بخزى من الاله العلى * وشهرة فى الاهل والجار

قال لا والله ما أنا من تنوخ قالت فمن أنت تكلتك امك قال أنا من حمير قالت أتعرف الذى يقول

نبئت حمير تهجونى فقلت لهم * ما كنت احسبهم كانوا ولا خلقوا
لان حميرقوم لا نصاب لهم * كالعود بالقاع لا ماء ولا ورق
لا يكثرون وأن طالت حياتهم * ولو يبول عليهم ثعلب غرقوا

قال لا والله ما أنا من حمير قالت فمن أنت قال انا رجل من نخاتر قالت اتعرف الذى يقول .

ولو مر مار بارض نخاتر * لماتوا واضحوا فى التراب رميا

قال لا والله ما أنا من نخاتر قالت فمن أنت قال رجل من قشير قالت أتعرف الذى يقول

بنى قشير قتلت سيدكم * فاليوم لا فدية ولا قود

قال لا والله ما أنا من قشير قالت فمن أنت قال رجل من بنى امية قالت أتعرف الذى يقول

وهى من أمية بنيانها * فهان على الله فقدانها .
وكانت أمية فيما مضى * جرى على الله سلطانها
فلا آل حرب اطاعوا الرسو * ل ولم يتق الله مروانها

قال لا والله ما أنا من بنى امية قالت فمن أنت قال رجل من بنى هاشم قالت اتعرف الذى يقول

بني هاشم عودوا الى نخلاتكم * فقد صار هذا التمر صاعا بدرهم
فان قلتمو رهط النبي محمد * فان النصارى رهط عيسى بن مريم

قال لا والله ما أنا من بني هاشم قالت فمن أنت قال رجل من همدان قالت أتعرف الذي يقول

اذا همدان دارت يوم حرب * رحاها فوق هامات الرجال
رأيتهم يحثون المطايا * سراعا هاربين من القتال

قال لا والله ما أنا من همدان قالت فمن أنت قال رجل من قضاعة قالت أتعرف الذي يقول

لا يفخرن قضاعي بأسرته * فليس من يمن محضا ولا مضر
مذبذبين فلا قحطان والدهم * ولا نزار فخلوهم الى سقر

قال لا والله ما أنا من قضاعة قالت فمن أنت قال رجل من شيبان قالت أتعرف الذي يقول

شيبان قوم لهم عديد * فكلهم مقرف لئيم
مافيهم ماجد حسيب * ولا نجيب ولا كريم

قال لا والله ما أنا من شيبان قالت فمن أنت قال رجل من بني نمير قالت أتعرف الذي يقول

فغض الطرف انك من نمير * فلا كعبا بلغت ولا كلابا
فلو وضعت فقاح بني نمير * على خبث الحديد اذا الذابا

قال لا والله ما أنا من نمير قالت فمن أنت قال انا رجل من تغلب قالت أتعرف الذي يقول

لا تطلبن خؤلة من تغلب * فالزنج اكرم منهم اخوالا
والتغلبي اذا تنحنح للقرى * حك استه وتمثل الامثالا

قال لا والله ما أنا من تغلب قالت فمن أنت قال رجل من مجاشع قالت أتعرف الذي يقول

تبكي المصيبة من بنات مجاشع * ولها اذا سمعت نهيق حمار

قال لا والله ما أنا من مجاشع قالت فمن أنت قال رجل من كلب قالت أتعرف الذي يقول

فلا تقربا كلبا ولا باب دارها * فما يطمع الساري يرى ضوء نارها

قال لا والله ما أنا من كلب قالت فمن أنت قال انا رجل من تيم قالت أتعرف الذي يقول

تيمه

قال لا والله ما أنا من تيم قالت فمن أنت قال رجل من جرم قالت أتعرف الذي يقول

تمنى سويق الكرم جرم * وما جرم وماذاك السويق
فما شربوه لما كان خلا * ولا غالوا به في يوم سوق
فلما انزل التحريم فيها * اذا الجرمي منها لا يفيق

قال لا والله ما أنا من جرم قالت فمن أنت قال رجل من سليم قالت أتعرف الذي يقول

اذا ما سليم جئتها لغدائها * رجعت كما قد جئت غرثان جائعا

قال لا والله ما أنا من سليم قالت فمن أنت قال رجل من الموالي قالت اتعرف الذي يقول

الا من اراد الفحش واللؤم والخنا * فعند الموالي الجد والطرفان

قال اخطأت نسبي ورب الكعبة انا رجل من الحور قالت أتعرف الذى يقول

لابارك الله ربى فيكم ابدا * يامعشر الحوران الحور فى النار

قال لا والله ما أنا من الحور قالت فمن أنت قال رجل من أولاد حام قالت أتعرف الذى يقول

فلا تنكحن أولاد حام فانهم * مشاويه خلق الله حاشا ابن اكوع

قال لا والله ما أنا من ولد حام لكنى من ولد الشيطان الرجيم قالت فلعنك الله ولعن أباك الشيطان معك افتعرف الذى يقول

الا ياعباد الله هذا عدوكم * وهذا عدو الله ابليس فاقتلوا

فقال لها هذا مقام العائذ بك قالت قم يارجل خاسئا مذموما واذا نزلت بقوم فلا تنشدهم شعرا حتى تعرف من هم ولا تتعرض للمباحث عن مساوى الناس فلكل قوم اساءة واحسان الا رسول رب العالمين ومن اختاره الله على عباده وعصمه من عدوه وأنت كما قال جرير للفرزدق

وكنت اذا حللت بدار قوم * رحلت بخزية وتركت عارا

فقال لها والله لا انشدت بيت شعر ابدا (فقال السفاح) لئن كنت قلت هذا الخبر ونظمت فيمن ذكرت هذه الاشعار فلقد أحسنت وأنت سيد الكاذبين وان كان الخبر صدقا وكنت فيما ذكرته محقا فان هذه الجارية العامرية لمن احضر الناس جوابا وابصرهم بمثالب الناس (قال المسعودى) وللسفاح أخبار غير هذه واسمار حسان قد أتينا على مبسوطها فى أخبار الزمان والاوسط

ذكر خلافة أبى جعفر المنصور

وبويع أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وهو بطريق مكة أخذ له البيعة عمه عيسى بن على ثم لعيسى بن موسى من بعده يوم الاحد لاثنتى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة والمنصور يومئذ ابن احدى وأربعين سنة وكان مولده فى ذى الحجة سنة خمس وتسعين وكانت امه أم ولد يقال لها سلامة بربرية وكانت وفاته يوم السبت لست خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة فكانت ولايته اثنتين وعشرين سنة الا تسعة أيام وهو حاج عند وصوله الى مكة فى الموضع المعروف ببستان بنى عامر من جادة العراق ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة ودفن بمكة مكشوف الوجه لانه كان محرما وقيل انه مات بالبطحاء عند بئر ميمون ودفن بالحجون وهو ابن خمس وستين سنة والله أعلم

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان فى أيامه)

ذكر عن سلامة أم المنصور أنها قالت رأيت لما حملت بأبى جعفر كان أسدا خرج من قبلى فاقعى وزأر وضرب بذنبه فاقبلت اليه الأسد من كل ناحية فكلما انتهى اليه أسد منها سجد له (حدث) على بن محمد المدائنى أن المنصور قال صحبت رجلا ضريرا الى الشأم وكان يريد

مروان بن محمد بشعر قاله فيه قال فسألته أن ينشدني فانشدني

ليت شعري أفاح رائحة المسـ * ـك وما ان احال بالخيف انسي
حين غابت بنو أمية عنه * والبهاليل من بني عبد شمس
خطباء على المنابر فرسا * ن عليها وقالة غير خرس
لا يعابون قائلين وان قا * لوا اصابوا ولم يقولوا ابلبس
وحلوم اذا الحلوم استخفت * ووجوه مثل الدنانير ملس

قال المنصور فوالله ما فرغ من شعره حتى ظننت أن العمى ادركني وكان والله ممتع الحديث حسن الصحبة قال وحججت سنة احدى وأربعين ومائة فنزلت على الحاجز في جبلي زرود في الرمل امشي لنذر كان علي فاذا انا بالضرير فأومأت الى من كان معي تأخروا فتأخروا ودنوت منه فأخذت بيده فسلمت عليه فقال من أنت جعلني الله فداك ما اثبتك معرفة قلت رفيقك الى الشأم في أيام بني أمية وأنت متوجه الى مروان فسلم علي وتنفس وانشأ يقول

آمت نساء بني أمية منهم * وبناتهم بمضيعة أيتام
نامت جدودهم واسقط نجمهم * والنجم يسقط والجدود نيام
خلت المنابر والاسرة منهم * فعليهم حتى الممات سلام

فقلت له كم كان مروان اعطاك فقال اغناني فلا اسأل أحدا بعده فقلت كم فقال أربعة آلاف دينار وخلع وحملان قلت وأين ذاك قال بالبصرة قلت اثبتني معرفة فقال أما معرفة الصحبة فقد لعمري وأما معرفة النسب فلا فقلت أنا أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين فوقع عليه الانكاء وقال يا أمير المؤمنين اعذر فان ابن عمك محمدا صلى الله عليه وسلم قال جبلت النفوس على حب من أحسن اليها وبغض من اساء اليها قال أبو جعفر فهممت والله به ثم تذكرت الحرمة والصحبة فقلت للمسيب اطلقه ثم بدالي في مسامرته رأي فأمرت بطلبه فكان البيداء بادنه (وحدث الربيع) قال اجتمع عند المنصور عيسى بن علي وعيسى ابن موسى ومحمد بن علي وصالح بن علي وقثم بن العباس ومحمد بن جعفر ومحمد بن ابراهيم فذكروا خلفاء بني أمية وسيرهم وتدبيرهم والسبب الذي به سلبوا عزهم فقال المنصور أما عبد الملك فكان جبار الايبالي ما صنع وأما سليمان فكان همته بطنه وفرجه وأما عمر فكان اعور بين عميان وكان رجل القوم هشام ولم تزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويحفظونه ويصرفون ما وهب الله لهم منه مع كسبهم معالي الامور ورفضهم ادانيها حتى افضى الأمر الى ابنائهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جل وعز جهلا منهم باستدراجه وأمنا منهم لمكره مع اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العز وألبسهم الذل ونفى عنهم النعمة فقال صالح بن علي يا أمير المؤمنين ان عبد الله بن مروان لما دخل أرض النوبة هاربا فيمن اتبعه سأل ملك النوبة عن حالهم وشأنهم فركب الى عبد الله ليسأله عن شئ من أمورهم والسبب الذي به زالت النعمة عنهم وكلمه بكلام سقط عني حفظه ثم أشخصه عن بلده فان رأى أمير المؤمنين أن يدعو به ليحدثه أمره فعل

فأمر المنصور باحضاره فى مجلسه فلما مثل بين يديه قال له يا عبد الله قص على قصتك وقصة ملك النوبة قال يا أمير المؤمنين قدمت الى النوبة فأقمت بها ثلاثا فأتانى ملكها فقعد على الارض وقد اعددت له فراشا فقلت له ما منعك من القعود على فراشنا فقال لانى ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله عز وجل اذ رفعه الله ثم قال لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم فى كتابكم فقلت اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا قال فلم تطؤن الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم فى كتابكم فقلت فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم قال فلم تلبسون الديباج والحرير والذهب وهو محرم عليكم فى كتابكم ودينكم فقلت ذهب منا الملك فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا فاطرق الى الارض يقلب يده مرة وينكت فى الارض اخرى ويقول عبيدنا واتباعنا واعاجم دخلوا علينا فى ديننا ثم رفع رأسه فقال ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله وركبتم ما عنه نهيتم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها فيكم وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدى فينالنى معكم وانما الضيافة ثلاث فتزود ما احتجت اليه وارحل عن أرضى ففعلت فتعجب المنصور واطرق مليا فرق له وهم باطلاقه فاعلمه عيسى ابن على أن فى عنقه بيعة له فاعاده الى الحبس (قال المسعودى) ولعشر سنين خلت من خلافة المنصور توفى أبو عبد الله محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم سنة ثمان وأربعين ومائة ودفن بالبقيع مع أبيه وجده وله خمس وستون سنة وقيل أنه سم وعلى قبورهم فى هذا الموضع من البقيع رخامة عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله مبيد الامم ومحيى الرمم هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين وقبر الحسن بن على بن أبى طالب وعلى ابن الحسين بن على بن أبى طالب ومحمد بن على وجعفر بن محمد رضى الله عنهم واستوزر أبو جعفر المنصور ابن عطية الباهلى ثم استوزر أبا ايوب المورياني الجوزى وكان له بأبى جعفر اسباب منها أنه كان يكتب لسليمان بن حبيب بن المهلب وقد كان سليمان ضرب المنصور بالسوط فى أيام الامويين واراد هتكه فخلصه كاتبه أبو أيوب من يده فكانت سببه به فلما استوزره اتهم بأشياء منها احتجار الاموال وسوء النية فكان على الايقاع به وتطاول ذلك فكان كلما دخل عليه ظن انه سيوقع به ثم يخرج سالما فقيل انه كان معه دهن قد عمل فيه شئ من السحر يطلبه على حاجبيه اذا اراد الدخول على المنصور فسار فى العامة دهن أبى أيوب لما ذكرنا ثم أوقع به واستكتب ابان بن صدقة الى أن مات وذكر لابى جعفر تدبير هشام فى حرب كانت له فبعث الى رجل كان ينزل رصافة هشام يسأله عن تلك الحرب فقدم عليه رجل فقال له أنت صاحب هشام فقال نعم يا أمير المؤمنين قال فأخبرنى كيف فعل فى حرب دبرها فى سنة كذا وكذا قال فعل رضى الله عنه فيها كذا وكذا وفعل رحمه الله كذا وكذا فاغاظ ذلك المنصور فقال له قم عليك غضب الله تطأ بساطى وتترحم على عدوى فقام الشيخ وهو يقول ان لعدوك قلادة فى عنقى ومنة فى رقبتى لا ينزعها الا غاسلى فأمر المنصور برده وقال كيف قلت قال انه كفانى الطلب وصان وجهى عن السؤال فلم

أقف على باب عربي ولا عجمي منذ رأيته افلا يجب لي أن اذكره الاجيز وأتبعه بثناءى فقال بلى لله امّ نهضت عنك اشهد انك نهيض حرة وغراس كريم ثم استمع منه وأمر له بجائزة فقال يا أمير المؤمنين ما آخذها لحاجة وماهو الا أن اتبجح بحبائك واتشرف بصلتك فأخذ الصلة فقال له المنصور مت اذا شئت لله أنت لولم يكن لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجدا وقال لجلسائه بعد خروجه عنه في مثل هذا تحسن الصنيعة ويوضع المعروف ويجاد بالمصون وأنى في عسكرنا مثله ودخل معن بن زائدة على المنصور فلما نظر اليه قال هيه يا معن تعطى مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله

معن بن زائدة الذى زيدت به * شرفا على شرف بنو شيبان

فقال كلا يا أمير المؤمنين انما اعطيته على قوله

مازلت يوم الهاشمية معلنا * بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاءه * من وقع كل مهند وسنان

فقال احسنت يا معن وكان معن من أصحاب عمر بن هبيرة وكان مستترا حتى كان يوم الهاشمية وقد كان سعت فيه عدة من أهل خراسان فانه حضر وهو معتم متلثم فلما نظر الى القوم قد وثبوا على المنصور تقدم ثم جعل يضربهم بالسيف قدامه فلما افرجوا وتفرقوا عنه قال من أنت فحسر عن وجهه وقال انا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة فلما انصرف المنصور آمنه وحباه واكرمه وكساه ورتبه وذكر أن ابن عياش المتوف ذكر أن المنصور كان جالسا في مجلسه المبنى على طاق باب خراسان من مدينته التي بناها واضافها الى اسمه وسماها مدينة المنصور مشرفا على دجلة وكان قد بنى على كل باب من أبواب المدينة في الاعلى من طاقه المعقود مجلسا يشرف منه على ما يليه من البلاد من ذلك الوجه وكانت أربعة أبواب شوارع مخرقة وطاقات معقودة وهي باقية الى وقتنا هذا الذى هو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة فأول أبوابها باب خراسان وكان يسمى باب الدولة لاقبال الدولة العباسية من خراسان ثم باب الشام وهو تلقاء الشام ثم باب الكوفة وهو تلقاء الكوفة ثم باب البصرة وهو تلقاء البصرة وقد أتينا على كيفية خبر بناء هذه المدينة واختيار المنصور لهذه البقعة بين دجلة والفرات ودجيل والصراة وهذه انهار تأخذ من الفرات وأخبار بغداد وعلة تسميتها بهذا الاسم وماقاله الناس في ذلك وخبر القبة الخضراء وسقوطها في هذا العصر وقصة قبة الحجاج الخضراء التي كان الحجاج بناها بواسط العراق وبناؤها الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة في كتابنا الاوسط الذى كتابنا هذا تال له فبينما المنصور جالس في هذا المجلس من اعالى باب خراسان اذ جاءهم سهم عائر حتى سقط بين يديه فذعر المنصور منه ذعرا شديدا ثم أخذه فجعل يقلبه فاذا مكتوب عليه بين الريشتين

اتطمع في الحياة الى التنادى * وتحسب أن مالك من نفاد

ستسئل عن ذنوبك والخطايا * وتسئل بعد ذاك عن العباد

ثم قرأ عند الريشة الاخرى

احسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها * وعند صفو الليالي يحدث الكدر

ثم قرأ عند الريشة الاخرى

هي المقادير تجري في اعنتها * فاصبر فليس لها صبر على حال
يوما تريك خسيس القوم ترفعه * الى السماء ويوما تخفض العالي

واذا على جانب السهم مكتوب همدان منها رجل مظلوم في حبسك فبعث من فوره بعدة من خاصته ففتشوا الحبوس والمطابق فوجدوا شيخا في بنية من الحبس فيه سراج يسرج على بابه بارية مسبلة واذا الشيخ موثق بالحديد متوجه نحو القبلة يردد هذه الآية وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون فسألوه عن بلده فقال همدان فحمل ووضع بين يدي المنصور فسأله عن حاله فأخبره انه رجل من ابناء مدينة همدان وارباب نعمها وان واليك علينا دخل بلدنا ولي ضيعة في بلدنا تساوي ألف ألف درهم فاراد أخذها مني فامتنعت فكبلني في الحديد وحملني وكتب اليك اني عاص فطرحت في هذا المكان فقال منذ كم قال منذ أربعة اعوام فأمر بفك الحديد عنه والاحسان اليه والاطلاق له وانزله أحسن منزل وردّه اليه فقال له يا شيخ قد رددنا عليك ضيعتك بخراجها ما عشت وعشنا وأما مدينتك همدان فقد وليناك عليها وأما الوالي فقد حكمناك فيه وجعلنا أمره اليك فجزاه خيرا ودعا له بالبقاء وقال يا أمير المؤمنين أما الضيعة فقد قبلتها وأما الولاية فلا أصلح لها وأما واليك فقد عفوت عنه فأمر له المنصور بمال جزيل وبر واسع واستحله وحمله الى بلده مكرما بعد أن صرف الوالي وعاقبه على ما جنى من انحرافه عن سنة العدل وواضحة الحق وسأل الشيخ مكاتبته في مهماته وأخبار بلده واعلامه بما يكون من ولاته على البريد ثم انشأ المنصور يقول

من يصحب الدهر لا يأمن تصرفه * يوما وللدهر احلاء وامرار
لكل شيء وان دامت سلامته * اذا انتهى فلا بد اقصار

وقال المنصور يوما لسالم بن قتيبة ما ترى في أمر أبي مسلم قال لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فقال حسبك يا ابن قتيبة لقد اودعتها اذنا واعية وذكر ابن داب وغيره عن عيسى بن علي قال مازال المنصور يشاورنا في جميع أموره حتى امتدحه ابراهيم بن هرمة فقال في قصيدة له

اذا ما اراد الأمر ناجى ضميره * فناجى ضميرا غير مختلف العقل
ولم يشرك الادنين في سر أمره * اذا انتقضت بالاصبعين قوى الحبل

ولما اراد المنصور قتل أبي مسلم سقط بين الاستبداد برأيه والمشورة فيه فارّقه ذلك فقال

تقسمني امران لم افتجهما * بحزم ولم يعرك قواي الكراكر
وما شاور الاحشاء مثل دفينة * من الهم ردتها عليك المصادر
وقد علمت ابناء عدنان انني * على مثلها مقدامة متجاسر

وقد كان عبد الله بن علي خالف على المنصور ودعا الى نفسه من كان معه من أهل الشام

وزعم أن السفاح جعل الخلافة من بعده لمن انتدب لقتل مروان فلما بلغ المنصور ذلك من فعل عبد الله كتب اليه

سأجعل نفسي منك حيث جعلتها * وللدهر أيام لهن عواقب

ثم بعث اليه بأبي مسلم فكانت له معه حروب كثيرة ببلاد نصيبين المعروفة بدير الاعور وصبر الفريقان شهورا على حربها واحتفروا الخنادق ثم انهزم عبد الله بن علي فيمن كان معه وصار في نفر من خواصه الى البصرة وعليها اخوه سليمان بن علي عم المنصور فظفر أبو مسلم بما كان في عسكر عبد الله فبعث اليه المنصور بيقطين بن موسى لقبض الخزائن فلما دخل يقطين على أبي مسلم قال السلام عليك أيها الامير قال لا سلم الله عليك يا ابن اللخنا أوتمن على الدماء ولا اوتمن على الاموال فقال له ما بدا هذا منك أيها الامير قال ارسلك صاحبك لقبض ما في يدي من الخزائن فقال له امرأته طالق ثلاثا ان كان أمير المؤمنين وجهني اليك لغير تهنئتك بالظفر فاعتنقه أبو مسلم واجلسه الى جانبه فلما انصرف قال لاصحابه والله اني لاعلم انه قد طلق زوجته ولكنه وفى لصاحبه وسار أبو مسلم من الجزيرة وقد اجمع على خلاف المنصور واجتاز على طريق خراسان متنكبا للعراق يريد خراسان وسار المنصور من الانبار يريد المداين فنزل برومية المداين التي بناها كسرى وقد قدمنا ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب وكتب الى أبي مسلم اني قد اردت مذاكرتك بأشياء لم يحملها الكتاب فأقبل فان مقامك عندنا قليل فقرا الكتاب ومضى على حاله فسرح اليه المنصور جرير بن يزيد ابن جرير بن عبد الله البجلي وكان واحد أهل زمانه وداهية عصره وكانت المعرفة بينه وبين أبي مسلم قديمة بخراسان فأتاه فقال أيها الامير ضربت الناس عن عرض لاهل هذا البيت ثم تنصرف على هذه الحالة ما آمن أن يعيبك من هنالك ومن هاهنا وأن يقال طلب بثار قوم ثم نقض بيعتهم فيخالفك من يأمن مخالفته اياك وأن الامر لم يبلغ عند خليفتك ما تكره ولا ارى أن تنصرف على هذه الحال فأراد أن يجيب الى الرجوع فقال له مالك ابن الهيثم لا تفعل فقال لمالك ويلك لقد بليت بابليس وما بليت بمثل هذا قط يعني الجريري فلم يزل به حتى اقبل به على المنصور وكان أبو مسلم يجد خبره في الكتب السالفة ونعته وانه يقتل بالروم وكان يكثر من قول ذلك وانه يقتل بالروم على حسب ما وجد في الملاحم وأنه يميت دولة ويحيي اخرى فلما دخل على المنصور وقد تلقاه الناس رحب به وقال له كدت أن تمضي قبل أن اقضي عليك بما تريد قال فقد أتيت يا أمير المؤمنين فأمر بأمرك فأمره بالانصراف الى منزله وانتظر فيه الفرص والغوائل فركب أبو مسلم الى المنصور مرارا وقد اظهر له التجني فسار أبو مسلم الى عيسى بن موسى وكان له فيه رأي جميل فسأله الركوب معه الى المنصور ليعزله بحضرته فأمره أن يتقدمه الى المنصور فانه بالاثر فتقدم أبو مسلم الى مضرب المنصور وهو على دجلة برومية المدائن فدخل وجلس تحت الشراع وقيل الرواق فأخبر أن المنصور يتوضأ للصلاة وكان المنصور قد تقدم الى صاحب حرسه عثمان في عدة فيهم شبيب بن رواح المروزي وأبو حنيفة حرب بن قيس وأمرهم أن يقوموا خلف السرير الذي وراء أبي مسلم وأمرهم أنه اذا عاتبه وظهر صوته لا يظهروا فاذا صفق بيد

على يد فليظهروا وليضربوا عنقه وما ادركوا منه بسيوفهم وجلس المنصور فقام أبو مسلم من موضعه ودخل فسلم عليه فرد عليه واذن له بالجلوس وحادثه ساعة ثم اقبل يعاتبه ويقول فعلت وفعلت فقال أبو مسلم ليس يقال هذا لي بعد بلائي وما كان مني فقال له يا ابن الخبيثة وانما فعلت ذلك بجدنا وحظوظنا ولو كان مكانك امة سوداء لاجزت الست الكاتب الي تبدأ بنفسك والكاتب الي تخطب آسية بنت علي وتزعم انك ابن سليط بن عبد الله بن العباس لقد ارتقيت لا ام لك مرتقى صعبا فأخذ أبو مسلم بيده يعركها ويقبلها ويعتذر اليه فقال المنصور وهو آخر ما كلمه به قتلني الله ان لم أقتلك وذكر قتله لسليمان بن كثير ثم صفق باحدى يديه على الاخرى فخرج اليه القوم فبدره عثمان بن نهيك فضربه ضربة خفيفة بالسيف قطعت نجاد سيف أبي مسلم وضربه شبيب بن رواح فقطع رجله واعتوروه بالسيوف فخلطت اجزاءه وأتى عليه والمنصور يصيح اضربوا قطع الله أيديكم وقد كان أبو مسلم على أول ضربة قال استبقني يا أمير المؤمنين لعدوك قال لا ابقاني الله ابدا ان ابقيتك وأي عدو أعدى لي منك وكان قتله في شعبان سنة ست وثلاثين ومائة وفيها كانت بيعة المنصور وهزيمة عبد الله بن علي وادرج أبو مسلم في بساط ودخل عيسى بن موسى فقال يا أمير المؤمنين أين أبو مسلم فقال قد كان هاهنا آنفا فقال يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعته ونصيحته ورأى ابراهيم الامام فيه فقال له المنصور يا أنوك خلق الله ما اعلم في الارض عدوا اعدى لك منه هاهو ذا في بساط فقال عيسى انا لله وانا اليه راجعون (ودخل عليه جعفر بن حنظلة فقال له المنصور ماتقول في أمر أبي مسلم فقال يا أمير المؤمنين ان كنت أخذت من رأسه شعرة فاقتل ثم اقتل ثم اقتل فقال المنصور وفقك الله هاهو في البساط فلما نظر اليه قتيلا قال يا أمير المؤمنين عد هذا اليوم أول خلافتك وقد كان السفاح هم بقتله برأي المنصور ثم رجع عن قتله واقبل المنصور على من حضره وأبو مسلم بين يديه طريحا فقال

زعمت أن الدين لا ينقضي * فاستوف بالكيل أبا مجرم

اشرب بكاس كنت تسقي بها * امر في الحلق من العلقم

ودعا المنصور بنصر بن مالك وكان على شرطة أبي مسلم فقال استشارك أبو مسلم بالمسير الي فنهيته قال نعم قال ولم قال سمعت اخاك ابراهيم الامام يحدث عن أبيه قال لا يزال المرء يزداد في عقله اذا محض النصيحة لمن شاوره فكنت له كذلك وانا الان لك كذلك واضطرب أصحاب أبي مسلم ففرقت فيهم الاموال وعلموا بقتله فامسكوا رغبة ورهبة وخطب المنصور الناس بعد قتله أبا مسلم فقال أيها الناس لا تخرجوا عن انس الطاعة الى وحشة المعصية ولا تسروا غش الائمة فان من أسر غش امامه اظهر الله سريرته في فلتات لسانه وسقطات افعاله وابداها الله لامامه الذي بادر باعزاز دينه به واعلاء حقه بفلجه انا لم نبخسكم حقوقكم ولم نبخس الدين حقه عليكم انه من نازعنا هذا القميص أوطأناه ما في هذا الغمد وان أبا مسلم بايعنا وبايع لنا على انه من نكث بيعتنا فقد اباح دمه لنا ثم نكث بنا هو فحكمنا عليه لانفسنا حكمه على غيره لنا ولم تمنعنا رعاية الحق له من أقامة الحق عليه ولما نمى قتل أبي مسلم الى

خراسان

خراسان وغيرها من الجبال اضطربت الجرمية وهي الطائفة التي تدعى بالمسلمية القائلون بأبي مسلم وامامته وقد تنازعوا في ذلك بعد وفاته فمنهم من رأى انه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيملأها عدلا وفرقة قطعت بموته وقالت بامامة ابنته فاطمة وهؤلاء يدعون الفاطمية واكثر الجرمية في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة الكوركية والنورساغية وهاتان الفرقتان اعظم الجرمية ومنهم كان بابك الجرمي الذي خرج على المأمون والمعتصم بالمداثن من أرض الران وأذربيجان وسنأتي على خبره وخبر مقتله في أخبار المعتصم فيما يرد من هذا الكتاب ان شاء الله واكثر الجرمية ببلاد خراسان والري واصبهان واذربيجان وكرخ أبي دلف والبرج الموضع المعروف بالدو والدرسجان ثم ببلاد الصروان والصيرة وادلوجان من بلاد ماسبذان وغيرها من تلك الامصار واكثر هؤلاء في القرى والضياع ويسكون لهم عند انفسهم شأن وظهور يراعونه وينتظرونه في المستقبل من الزمان ويعرفون هؤلاء بخراسان وغيرها بالباطنية وقد اتينا على مذاهبهم وذكر فرقهم في كتابنا في المقالات فاجتمعت الجرمية حين علمت بقتل أبي مسلم فسارت في عسكر عظيم من بلاد خراسان الى الري فغلب عليها وعلى حرمس وما يليها وقبض على ما كان بالري من خزائن أبي مسلم فكبر جمع بستقاد عن حوله من أهل الجبال وطبرستان ولما اتصل خبر مسيره بالمنصور سرح اليه جهور بن مروان العجلي في عشرة آلاف رجل وتلاه بالعساكر فالتقوا بين همدان والري على طرف المفازة فاقتتلوا قتالا شديدا وصبر الفريقان جميعا فقتل بستقاد وولى أصحابه فقتل منهم ستون الفا وسبي منهم سبايا وذرارى كثيرة وكان بين خروجه الى مقتله سبعون ليلة وذلك في سنة ست وثلاثين ومائة بعد قتل أبي مسلم باشهر وفي سنة خمس وأربعين كان ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم بالمدينة وكان قد بويع له في الامصار وكان يدعى بالنفس الزكية لزهده ونسكه وكان مستخفيا من المنصور ولم يظهر حتى قبض المنصور على أبيه عبد الله بن الحسن وعمومته وكثير من أهله وعدتهم ولما ظهر محمد بن عبد الله بالمدينة دعا المنصور أبا مسلم العقيلي وكان شيخا ذا رأى وتجربة فقال له أشر علي في خارجي خرج علي قال صف لي الرجل قال رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا علم وزهد وورع قال فمن تبعه قال ولد علي وولد جعفر وعقيل وولد عمر بن الخطاب وولد الزبير وسائر قريش وأولاد الانصار قال له صف لي البلد الذي قام به قال بلد ليس به زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة ففكر ساعة ثم قال اشحن يا أمير المؤمنين البصرة بالرجال فقال المنصور في نفسه قد خرف الرجل أسأله عن خارجي خرج بالمدينة يقول لي اشحن البصرة بالرجال فقال له انصرف يا شيخ ثم لم يكن الا يسير حتى ورد الخبر أن ابراهيم قد ظهر بالبصرة فقال المنصور علي بالعقيلي فلما دخل عليه ادناه ثم قال له اني كنت قد شاورتك في خارجي خرج بالمدينة فاشرت علي أن اشحن البصرة أوكان عندك من البصرة علم قال لا ولكن ذكرت لي خروج رجل اذا خرج مثله لم يتخلف عنه أحد ثم ذكرت لي البلد الذي هو فيه فاذا هو ضيق لا يحتمل الجيوش فقلت انه رجل سيطلب غير موضعه ففكرت في مصر فوجدتها مضبوطة والشام والكوفة كذلك وفكرت في البصرة فخفت عليها منه فأشرت

بشجنها فقال له المنصور أحسنت وقد خرج بها أخوه فما الرأى فى صاحب المدينة قال ترميه بمثله اذا قال انا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا وانا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المنصور لعيسى بن موسى اما أن تخرج اليه واقيم انا امدك بالجيوش واما أن تكفينى ما خلف وراءى واخرج انا اليه فقال عيسى بل أقيك بنفسى يا أمير المؤمنين واكون الذى يخرج اليه فاخرجه اليه من الكوفة فى أربعة آلاف فارس والفى راجل واتبعه محمد بن قحطبة فى جيش كثيف فقاتلوا محمدا بالمدينة حتى قتل وهو ابن خمس وأربعين سنة ولما اتصل بابراهيم قتل اخيه محمد بن عبد الله وهو بالبصرة صعد المنبر فنعاه وتمثل

أبا المنازل يا خير الفوارس من * يفجع بمثلك فى الدنيا فقد فجعا
الله يعلم انى لو خشيتهم * وأوجس القلب من خوف لهم فزعا
لم يقتلوه ولم اسلم أخى لهم * حتى نموت جميعا أو نعيش معا

وقد كان تفرق اخوة محمد وولده فى البلدان يدعون الى امامته فكان فيمن توجه ابنه على ابن محمد الى مصر فقتل بها وسار عبد الله الى خراسان فهرب لما طلب الى السند فقتل هنالك وسار ابنه الحسن الى اليمن فحبس فمات فى الحبس وسار أخوه موسى الى الجزيرة ومضى أخوه يحيى الى الرى وطبرستان فكان من خبر الرشيد ما سنورده فيما يرد من هذا الكتاب ومضى أخوه ادريس بن عبد الله الى المغرب فأجابه خلق من الناس وبعث المنصور من اغتاله فيما احتوى عليه من مدن المغرب وقام ولده ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن مقامه فعرف البلد بهم فقيل بلد ادريس بن ادريس وقد أتينا على خبرهم عند ذكرنا الخبر عبد الله صاحب المغرب وبنائه المدينة المعروفة بالمهدية وخبر أبى القاسم وانتقالهم من مدينة سلمية من أرض حمص الى المغرب فى الكتاب الاوسط ومضى ابراهيم أخوه الى البصرة وظهر بها فأجابه أهل فارس والاهواز وغيرهما من الامصار فى عساكر كثيرة من الزيدية وجماعة ممن يذهب الى قول البغداديين من المعتزلة وغيرهم ومعه عيسى بن زيد بن الحسين بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم فسير اليه المنصور عيسى بن موسى وسعيد ابن مسلم فى العساكر فحارب حتى قتل فى الموضع المعروف بباخمرى وذلك على ستة عشر فرسخا من الكوفة من أرض الطف وهو الموضع الذى ذكرته الشعراء ممن رثى ابراهيم فمن ذكر ذلك دعبل بن على فى قصيدة أولها

مدارس آيات خلت من تلاوة * ومنزل وحى مقفر العرصات

ومنها قوله فيهم

قبور بكوفان واخرى بطيبة * واخرى بفخ نالها صلوات
واخرى بارض الجوزجان محلها * وقبر بباخمرى لدى القربات

وقتل معه من الزيدية من شيعته أربعمائة رجل وقيل خمسمائة وروى بعض الاخباريين عن حماد التركى قال كان المنصور نازلا فى دير على شاطئ دجلة فى الموضع الذى يسمى اليوم الخلد من مدينة السلام اذ أتى الربيع فى وقت الهاجرة والمنصور فى البيت الذى هو فيه وحماد قاعد على الباب فقال يا حماد افتح الباب فقلت الساعة هجع أمير المؤمنين فقال افتح ثكلتك

امك قال فسمع المنصور كلامه فنهض يفتح الباب بيده وتناول منه الخريطة فقرأ ما فيها من الكتب وتلا هذه الآية والقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما أوقدوا نار العرب اطفأها الله ويسعون فى الارض فسادا والله لا يحب المفسدين ثم أمر باحضار الناس والقواد والموالى وأهل بيته وأصحابه وأمر حمادا التركى باسراج الخيل وأمر ابن مجالد بالتقدم ثم خرج فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال

مالى اكفكف عن سعد ويشتمنى * وان شمت بنى سعد لقد سكنوا

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم * لبئست الخصلتان الجهل والجبن

أما والله لقد عجزوا عن أمر قمنا له فما شكروا ولا حمدوا الكافى ولقد مهدوا فاستوعروا وغبطوا فغمطوا فماذا تحاول منى اسقى رنقا على كدر كلا والله لأن اموت معززا أحب الى من أن احيا مستذلا ولئن لم يرض العفو منى ليطلبن ما لا يوجد عندى والسعيد من وعظ بغيره ثم نزل فقال ياغلام قدم فركب من فوره الى معسكره وقال اللهم لا تكلنا الى خلقك فنضيع ولا الى أنفسنا فنعجز وذكر أن المنصور رهبت له عجة من مخ وسكر فاستطابها فقال اراد ابراهيم يحرمنى هذا واشباهه (وذكر) أن المنصور قال يوما لجلسائه بعد قتل محمد وابراهيم تالله ما رأيت رجلا انصح من الحجاج لبنى مروان فقام المسيب بن زهرة الضبى فقال يا أمير المؤمنين ما سبقنا الحجاج بأمر تخلفنا عنه والله ما خلق الله على جديد الارض خلقا اعز علينا من نبينا صلى الله عليه وسلم وقد أمرتنا بقتل أولاده فاطعناك وفعلنا ذلك فهل نصحناك ام لا قال له المنصور اجلس لا جلست وقد ذكرنا أنه كان قبض على عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على رضى الله عنه وكثير من أهل بيته وذلك فى سنة أربع وأربعين ومائة فى منصرفه من الحج فحملوا من المدينة الى الربذة من جادة العراق وكان ممن حمل مع عبد الله بن الحسن ابراهيم ابن الحسن بن الحسن وأبو بكر بن الحسن بن الحسن وعلى الخير واخوه العباس وعبد الله بن الحسن بن الحسن والحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخو عبد الله بن الحسن بن الحسن لامه فاطمة ابنة الحسين بن على وجدتهما فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فجرد المنصور بالربذة محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان فضربه ألف سوط وسأله عن ابنى أخيه محمد وابراهيم فانكر أن يعرف مكانهما فسألت جدته العثمانى فى ذلك الوقت وارتحل المنصور عن الربذة وهو فى قبة وأوهن القوم بالجهد فحملوا على المحامل المكشفة فمر بهم المنصور فى قبته على الجماره فصاح به عبد الله بن الحسن يا ابا جعفر ما هكذا فعلنا بكم يوم بدر فصيرهم الى الكوفة وحبسوا فى سرداب تحت الارض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل وخلى منهم سليمان وعبد الله ابنا داود بن الحسن بن الحسن وموسى بن عبد الله بن الحسن والحسن بن جعفر وحبس الآخرين ممن ذكرنا حتى ماتوا وذلك على شاطئ الفرات بالقرب من قنطرة الكوفة ومواضعهم بالكوفة تزار فى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وكان قد هدم عليهم الموضع وكانوا يتوضؤن فى مواضعهم فاشتدت عليهم الرائحة فاحتال بعض مواليهم حتى ادخل اليهم شيأ من

الغالية فكانوا يدفعون بشمها تلك الروائح المنتنة وكان الورم فى اقدامهم فلا يزال يرتفع حتى يبلغ الفؤاد فيموت صاحبه وذكرانهم لما حبسوا فى هذا الموضع اشكل عليهم أوقات الصلاة فجزؤا القرآن خمسة اجزاء فكانوا يصلون الصلاة على فراغ كل واحد منهم من حزبه وكان عدد من بقى منهم خمسة فمات اسماعيل بن الحسن فترك عندهم فجيف فصعق داود بن الحسن فمات وأتى برأس ابراهيم بن عبد الله فوجه به المنصور مع الربيع اليهم فوضع الرأس بين أيديهم وعبد الله يصلى فقال له ادريس أخوه اسرع فى صلاتك يا أبا محمد فالتفت اليه وأخذ الرأس فوضعه فى حجره وقال له أهلا وسهلا يا أبا القاسم والله لقد كنت من الذين قال الله عز وجل فيهم الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل الى آخر الآية فقال له الربيع كيف أبو القاسم فى نفسه قال كما قال الشاعر

فتى كان يحميه من الذل سيفه * ويكفيه ان يأتى الذنوب اجتنابها

ثم التفت الى الربيع فقال قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا أيام والملتقى القيامة قال الربيع فما رأيت المنصور قط أشد انكسارا منه فى الوقت الذى بلغته فيه الرسالة فأخذ هذا المعنى العباس بن الاحنف فقال

فان تلحظى حالى وحالك مرة * بنظرة عين عن هوى النفس تحجب

ترى كل يوم بين بؤس عيشتى * تمر بيوم من نعيمك تحسب

(قال المسعودى) ولما أخذ المنصور عبد الله بن الحسن وأهل بيته صعد المنبر بالهاشمية فحمد الله واثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيرا منا ان ولد ابن أبى طالب تركناهم والذى لا اله الا هو والخلافة فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير فقام فيها على بن أبى طالب رضى الله عنه فما افلح وحكم الحكمين فاختلفت عليه الامة وافترقت الكلمة ثم وثب عليه شيعته وانصاره وثقاته فقتلوه ثم قام بعده الحسن بن على رضى الله عنه فوالله ما كان برجل عرضت عليه الاموال فقبلها ودس اليه معاوية انى اجعلك ولى عهدى فخلعه وانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه واقبل على النساء يتزوج اليوم واحدة ويطلق غدا اخرى فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه ثم قام من بعده الحسين بن على رضى الله عنه فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والاغراق فى الفتن اهل هذه المدرة السوء وأشار الى الكوفة فوالله ماهى بحرب فاحاربها ولا هى بسلم فاسالمها فرق الله بينى وبينها فخذلوه وابرؤا أنفسهم منه فاسلموه حتى قتل ثم قام بعده زيد بن على فخدعه أهل الكوفة وغروه فلما اظهروه واخرجوه اسلموه وقد كان أبى محمد بن على ناشده الله فى الخروج وقال له لا تقبل اقاويل أهل الكوفة فانا نجد فى علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكناسة واخشى أن تكون ذلك المصلوب وناشده الله بذلك عمى داود وحذره رحمه الله غدر اهل الكوفة فلم يقبل وتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة ثم وثب بنو أمية علينا فاماتوا اشرفنا وأذهبوا عزنا والله ما كان لهم عندنا ترة يطلبونها وما كان ذلك كله الا فيهم وبسبب خروجهم فنفونا عن البلاد

فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالسراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا فاحيا الله شرفنا وعزنا بكم واظهر لنا حقنا وأصار الينا ميراثنا من نبينا صلى الله عليه وسلم فقر الحق في قراره واظهر الله مناره واعز انصاره وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فلما استقرت الامور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل وثبوا علينا حسدا منهم وبغيا لهم بما فضلنا الله به عليهم واكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيه وجبنا من بني امية وجراءة علينا انى والله يا أهل خراسان ما اتيت ما أتيت من هذا الأمر من جهالة ولقد كنت يبلغني عنهم بعض السقم ولقد كنت سميت لهم رجالا فقلت قم أنت يا فلان فخذ معك من المال كذا وكذا وقم أنت يا فلان فخذ معك من المال كذا وكذا وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجوا حتى أتوا المدينة فدسوا اذلك المال فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير الا بايعهم لي فاستحللت به دماءهم وحكمت عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علي ثم قرأ في درج المنبر وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل باشياعهم من قبل انهم كانوا في شك مريب (قال المسعودي) وقال المنصور للربيع يوما اذكر حاجتك قال يا أمير المؤمنين حاجتي أن تحب الفضل فقال له ويحك ان المحبة انما تقع باسباب قال يا أمير المؤمنين قد أمكنك الله من ايقاع السبب قال وما ذاك قال تفضل عليه فانك اذا فعلت ذلك أحبك واذا احبك أحببته واذا احببته كبر عندك صغير احسانه وصغر عندك كبير اساءته وكانت ذنوبه كذنوب الصبيان وصاحبه اليك الشفيع العريان وقال المنصور يوما للربيع ويحك يا ربيع ما اطيب الدنيا لولا الموت قال له ماطابت الا بالموت قال وكيف ذلك قال لولا الموت لم تقعد هاهنا قال صدقت (وذكر) اسحق بن الفضل قال بينا انا على باب المنصور اذ أتى عمرو ابن عبيد فنزل عن حماره وجلس فخرج اليه الربيع فقال قم أبا عثمان بأبي أنت وأمي فلما دخل على أبي جعفر أمر أن تفرش له لبود بقربه واجلسه اليه بعد ما سلم ثم قال يا أبا عثمان عظني بموعظة فوعظه بمواعظ فلما اراد النهوض قال أمرنا لك بعشرة آلاف قال لا حاجة لي فيها قال أبو جعفر والله لتأخذنها قال لا والله لا آخذها وكان المهدي حاضرا فقال يحلف أمير المؤمنين وتحلف فالتفت عمرو الى أبي جعفر فقال من هذا الفتى قال هذا محمد ابني وهو المهدي وهو ولي عهدي قال أما والله لقد البسته لباسا ما هو من لباس الابرار ولقد سميته باسم ما استحقه عملا ولقد مهدت له امتع ما يكون عنه ثم اقبل عمرو على المهدي فقال نعم يا ابن أخي اذا حلف أبوك أحنثه عمك لان اباك اقوى على الكفارات من عمك فقال له المنصور هل لك من حاجة يا أبا عثمان قال نعم قال ما هي قال ان لا تبعث الي حتى آتيك قال اذا لا تلتقي قال هي حاجتي فمضى واتبعه المنصور بطرفه ثم قال

كلكم يمشي رويد * كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد

يود خل عمرو بن عبيد على المنصور بعد ما بايع للمهدي فقال له يا أبا عثمان هذا ابن أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين فقال له عمرو يا أمير المؤمنين اراك قد وطدت له الامور وهي تصير اليه وأنت عنه مسؤل فاستعبر المنصور وقال له عظني يا عمرو قال يا أمير المؤمنين ان الله أعطاك الدنيا

بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها وأن هذا الذي في يديك لو بقي في يد غيرك لم يصل اليك فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده وانشد

يا ايهذا الذي قد غره الامل * ودون ما يامل التنغيص والاجل
الا ترى انما الدنيا وزينتها * كمنزل الركب حلوا ثمت ارتحلوا
حتوفها رصد وعيشها نكد * وصفوها كدر وملكها دول
تظل تقرع بالروعات ساكنها * فما يسوغ له لين ولا جدل
كأنه للمنايا والردى غرض * تظل فيه بنات الدهر تنتضل
والنفس هاربة والموت يرصدها * وكل عثرة رجل عندها زلل
والمرء يسعى لما يبقى لوارثه * والقبر وارث ما يسعى له الرجل

ومات عمرو بن عبيد في أيام المنصور سنة أربع وأربعين ومائة ويكنى أبا عثمان وهو عمرو بن عبيد بن رباب مولى بني تميم وكان جده رباب من سبي كابل من رجال السند وكان شيخ المعتزلة ومفتيها وله خطب ورسائل وفي سنة احدى وأربعين ومائة شخص المنصور الى بيت المقدس فصلى فيه لنذر كان عليه وانصرف وفي سنة ست وأربعين ومائة مات هشام بن عروة وهو ابن خمس وثمانين وكان اذا أسمعه رجل كلاما قال انا ارفع نفسي ثم نازع ابن الحسين بن علي فأسرع اليه هشام فقال له علي اني ادعك الى ما كنت تدعو اليه وفي سنة خمسين ومائة مات أبو حنيفة النعمان بن ثابت مولى تيم اللات من بكر بن وائل في أيام المنصور ببغداد توفي وهو ساجد في صلاته وهو ابن تسعين سنة وفي سنة سبع وخمسين مات الاوزاعي ويكنى أبا عمرو عبد الرحمن بن عمرو من أهل الشام وانما كان منزله فيهم اعني الاوزاع ولم يكن منهم وذلك بدمشق في آخر أيام المنصور وله تسعون سنة وفي سنة ست وخمسين ومائة مات سوار ابن عبد الله القاضي وفي سنة أربع وخمسين ومائة مات أبو عمرو بن العلاء في أيام المنصور وطال حبس عبد الله بن علي بأمر المنصور وأقام في محبسه تسع سنين فلما اراد المنصور الحج في سنة تسع وأربعين ومائة حوله من عنده الى عيسى بن موسى وأمره بقتله وأن لا يعلم بذلك أحدا فاستشار عيسى بن موسى بن شبرمة فقال له لا تفعل فأبى أن يقتله واظهر لابي جعفر أنه قتله وشاع ذلك فكلم بنو علي عيسى بن موسى في عبد الله بن علي فقال قد قتلته فرجعوا الى أبي جعفر فقالوا زعم عيسى انه قد قتله فاظهر أبو جعفر الغضب على عيسى وقال يقتل عمي والله لاقتلنه وكان أبو جعفر احب أن يكون عيسى قتله فيقتله به فيستريح منهما جميعا قال فدعا به فقال لم قتلت عمي قال أنت أمرتني بقتله قال لم آمرك بذلك فقال هذا كتابك الي فيه قال لم اكتبه فلما رأى الجد من المنصور وتخوف على نفسه قال هو عندي لم اقتله قال ادفعه الى أبي الازهر المهلب بن أبي عيسى فلم يزل عنده محبوسا ثم أمره بقتله فدخل عليه ومعه جارية له فبدأ بعبد الله فخنقه حتى مات ثم مده على الفراش ثم أخذ الجارية ليخنقها فقالت يا عبد الله قتلة غير هذه فكان أبو الازهر يقول ما رحمت أحدا اقتله غيرها فصرفت وجهي عنها وأمرت بها فخنقت ووضعتها معه على الفراش وادخلت يدها

تحت جنبه ويده تحت جنبها كالمعتنقين ثم أمرت بالبيت فهدم عليهما ثم احضرنا القاضي ابن علام وغيره فنظروا الى عبد الله والجارية معتنقين على تلك الحال ثم أمر به فدفن في مقبر أبي سويد بباب الشام من بغداد في الجانب الغربي (قال المسعودي) وذكر عبد الله ابن عياش المنتوف قال قال المنصور يوما ونحن عنده اتعرفون جبارا أول اسمه عين قتل جبارا أول اسمه عين وجبارا أول اسمه عين وجبارا أول اسمه عين قال قلت نعم يا أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن ابن محمد بن الاشعث فقال المنصور افتعرفون خليفة أول اسمه عين قتل جبارا أول اسمه عين وجبارا أول اسمه عين وجبارا أول اسمه عين قلت نعم أنت يا أمير المؤمنين قتلت عبد الرحمن بن مسلم وعبد الجبار بن عبد الرحمن وعمك عبد الله بن علي سقط عليه البيت قال فما ذنبي ان كان سقط عليه البيت قلت لا ذنب لك فتبسم ثم قال هل تحفظ الابيات التي قالتها زوجة الوليد أخت عمرو بن سعيد وهي حاسرة تنشد .

أيا عين جودي بالدموع على عمرو * عشية أوتينا الخلافة بالقهر
غدرتم بعمرو يا بني خيط باطل * وكلكم يبني البيوت على غدر
وما كان عمرو عاجزا غير أنه * اتته المنايا بغتة وهو لا يدري
كأن بني مروان اذ يقتلونه * خشاش من الطير اجتمعن على صقر
لحى الله دنيا تعقب الذل أهلها * وتهتك ما بين القرابة من ستر
الا يا لقومي للوفاء وللغدر * وللمغلقين الباب قسرا على عمرو
فرحنا وراح الشامتون عشية * كأن على اعناقهم فلق الصخر

قال ابن عياش فقال المنصور فما الابيات التي بعث بها عمرو الى عبد الملك بن مروان قال قلت نعم يا أمير المؤمنين كتب اليه

يريد ابن مروان امورا اظنها * ستحملني على مركب صعب
لينقض عهدا كان مروان شده * وادرك فيه بالقطيعة والكرب
فقدمته قبلي وقد كنت قبله * ولولا انقيادي كان كرب من الكرب
وكان الذي اعطيت مروان هفوة * عنفت بها رأيا وخطبا من الخطب
فان تنفذوا الأمر الذي كان بيننا * فنحن جميعا بالسهولة والرحب
وان يعطها عبد العزيز ظلامة * فاولى بها منا ومنه بنو حرب

وكان مولد المنصور في السنة التي مات فيها الحجاج بن يوسف وهي سنة خمس وتسعين وكان يقول ولدت في ذي الحجة واعذرت في ذي الحجة ووليت الخلافة في ذي الحجة واحسب الأمر يكون في ذي الحجة فكان كما ذكر (وحدث) الفضل بن الربيع قال كنت مع المنصور في السفر الذي مات فيه فنزل منزلا من المنازل فبعث لي وهو في قبة ووجهه الى الحائط فقال لي الم انهك أن تدع العامة يدخلوا هذه المنازل فيكتبوا فيها ما لا خير فيه قلت وما هو يا أمير المؤمنين قال أما ترى على الحائط مكتوبا

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت * سنوك وأمر الله لا بد نازل

أباجعفر هل كاهن أو منجم * يرد قضا الله ام أنت جاهل

قال فقلت والله ماأرى على الحائط شيأ وانه لنقى ابيض قال الله قلت الله قال انها والله اذا نفسى نعيت الى الرحيل بادر بى الى حرم ربى وامنه هاربا من ذنوبى واسرافى على نفسى فرحلنا وقد ثقل حتى اذا بلغنا بئر ميمون قلت له هذه بئر ميمون وقد دخلت الحرم فتوفى بها وكان من الحزم وصواب الرأى وحسن السياسة على ما يتجاوز كل وصف وكان يعطى الجزيل والخطير ما كان عطاؤه حزما ويمنع الحقير اليسير ما كان اعطاؤه تضييعا وكان كما قال زياد لوان عندى ألف بعير وعندى بعير اجرب لقمت عليه قيام من لا يملك غيره وخلف ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار وكان مع هذا يضن بماله ويتطرق فيما لا ينظر فيه العوام ووافق صاحب مطبخه على أن له الرؤس والاكارع والجلود وعليه الحطب والتوابل ومن كرمه أنه وصل عمومته وهم عشرة فى يوم واحد بعشرة آلاف درهم واسماؤهم عبد الله ابن على وعبد الصمد بن على واسمعيل بن على وعيسى بن على وداود بن على وصالح بن على وسليمان بن على واسحق بن على ومحمد بن على ويحيى بن على وكان يعمل فى بناء مدينة بغداد التى بناها وعرفت به فى كل يوم خمسون ألف رجل وكان له من الولد المهدى وجعفر وامهما أم موسى الحميرية وتوفى جعفر فى حياة أبيه المنصور وسليمان وعيسى ويعقوب وجعفر الاصغر من كردية وصالح الملقب بالمسكين وبنت تسمى عالية (قال المسعودى) وللمنصور أخبار حسان مع الربيع وعبد الله بن عياش وجعفر بن محمد وعمرو بن عبيد وغيرهم ولهم خطب ومواعظ وسير وسياسات فى الملك قد أتينا على اكثرها فى كتابنا أخبار الزمان وانما نذكر فى هذا الكتاب لمعا تدلك على ما سبق فى كتبنا والله سبحانه وتعالى اعلم

ذكر خلافة المهدى محمد بن عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس ويكنى أبا عبد الله وامه أم موسى بنت منصور بن عبد الله بن سهم بن ابى سرح من ولد ذى رعين من ملوك حمير

أخذ له البيعة بمكة الربيع مولاه يوم السبت لست خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة وأتاه ببيعته منارة مولاه فاقام يومين بعد ذلك ثم خطب الناس وبويع بيعة العامة وكان مولده سنة سبع وعشرين ومائة وخرج من مدينة السلام فى سنة سبع وستين ومائة يريد بلاد قرماسين من بلاد الدينور وقد وصف له طيب ماسبذان وادبوحان فعدل الى الموضع المعروف بارود الدان فمات بقرية يقال لها رزين ليلة الخميس لسبع بقين من المحرم سنة سبع وستين ومائة فكانت خلافته عشر سنين وشهرا وخمسة عشر يوما وقبض وله ثلاث وأربعون سنة وصلى عليه هارون الرشيد وكان موسى الهادى غائبا بجرجان وقيل انه مات مسموما فى قطائف اكلها ولبست حسنة وغيرها من حشمه المسوح والسواد جزعا عليه فقال فى ذلك أبو العتاهية

وحسن فى الوشى فاصبحن عليهن المسوح

كل نطاح وأن عا * ش له يوما نطوح

لست بالباقى ولو * عمرت ما عمر نوح

فعلى نفسك نح * ان كنت لا بد تنوح

(ونذكر)

(ونذكر جملا من أخباره واعماما كان فى أيامه)

ذكر الفضل بن الربيع قال دخل شريك على المهدى يوما فقال له لابد أن تجيبنى الى خصلة من ثلاث قال وما هن يا أمير المؤمنين قال اما أن تلى القضا أو تحدث ولدى وتعلمهم أو تأكل اكلة ففكر ثم قال الاكلة اخفهن على نفسى فاحتبسه وقدم الى الطباخ أن تصلح له الوانا من المخ المعقود بالسكر الطبرزذ والعسل فلما فرغ من غذائه قال له القيم على المطبخ يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الاكلة ابدا قال الفضل بن الربيع فحدثهم والله شريك بعد ذلك وعلم أولادهم وولى القضاء لهم ولقد كتب بارزاقه الى الجهبذ فضايقه فى النقص فقال له الجهبذ انك لم تبع برا قال له شريك بلى والله لقد بعت اكبر من البر لقد بعت دينى وقال الفضل بن الربيع خرج المهدى متنزها ومعه عمرو بن ربيع مولاه وكان شاعرا فانقطع عن العسكر والناس فى الصيد وأصاب المهدى جوع شديد فقال لعمرو ويحك الا انسانا عنده ما نأكل فما زال عمرو يطوف الى أن وجد صاحب مبقلة والى جانبها كوخ له فقعدا اليه فقال له هل عندك شئ يؤكل قال نعم رقاق من خبز شعير وزيت وهذا البقل والكراث فقال له المهدى ان كان عندك زيت فقد اكملت قال نعم عندى فضلة منه فقدم اليهما ذلك فأكلا اكلا كثيرا وامعن المهدى حتى لم يبق فيه فضل فقال لعمرو قل شعرا وصف ما نحن فيه فقال عمرو

ان من يطعم الزيت بالزيت * وخبز الشعير بالكراث
لحقيق بصفعة أو بثنتين * لسوء الصنيع أو بثلاث

فقال المهدى بئس والله ما قلت ولكن أحسن من ذلك

لحقيق ببدرة أو بثنتين * لحسن الصنيع أو بثلاث

ووافى العسكر ولحقته الخزائن والخدم والموكب فأمر لصاحب المبقلة بثلاث بدر دراهم قال وعاربه فرسه مرة اخرى وقد خرج للصيد فدفع الى خباء اعرابى وهو جائع فقال يا اعرابى هل عندك قرى فانى ضيفك قال اراك جسيما عمما فان احتملت قربنا لك ما يحضرنا قال هات ما عندك فأخرج له فضلة نبيذ فى ركوة فشرب الاعرابى واحدا وسقاه فلما شرب قال له المهدى اتدرى من أنا قال لا والله قال أنا من خدم الخاصه قال بارك الله فى موضعك وحياك من كنت ثم شرب الاعرابى قدحا وسقاه فلما شرب قال يا اعرابى اتدرى من أنا قال نعم ذكرت انك من خدم الخاصة قال لست كذلك قال فمن أنت قال أنا أحد قواد المهدى قال رحب دارك وطاب مزارك ثم شرب الاعرابى قدحا وسقاه فلما شرب الثالث قال يا اعرابى اتدرى من أنا قال نعم زعمت انك أحد قواد المهدى قال فلست كذلك قال فمن أنت قال أنا أمير المؤمنين فأخذ الاعرابى ركوته فوكاها فقال له المهدى اسقنا قال لا والله لا تشرب منها جرعة فما فوقها قال ولم قال سقيتك قدحا فزعمت انك من خدم الخاصة فاحتملناها لك ثم سقيناك آخر فزعمت انك أحد قواد المهدى ثم سقيناك الثالث فزعمت انك أمير المؤمنين ولا والله ما آمن أن اسقيك الرابع فتقول انك رسول الله فضحك المهدى وأحاطت به الخيل فنزل اليه ابناء الملوك والاشراف فطار رقاب الاعرابى فلم يكن له همة الا النجا فقال له

المهدى لا باس عليك وأمر له بصلة وكسوة وبزة وآلة فقال اشهد انك صادق ولو ادعت
الرابعة والخامسة لخرجت منها فضحك المهدى منه حتى كاد أن يقع عن فرسه حين ذكر الرابعة
والخامسة وجعل له رزقا وألحقه بخواصه وكان وزيره أبو عبد الله معاوية بن عبد الله
الاشعرى وهو جد محمد بن عبد الوهاب وكان كاتبه قبل الخلافة فقتل المهدى ابنا لابى
عبد الله على الزندقة فاستوحش كل واحد منهما من صاحبه وعاش أبو عبد الله الى سنة
سبعين ومائة ثم اختص المهدى يعقوب بن داود السلمى وخرج كتابه على الدواوين ان أمير
المؤمنين قد آخاه وكان يصل اليه فى كل وقت دون الناس كلهم ثم اتهمه بشئ من أمر
الطالبيين فهم بقتله ثم حبسه الى أيام الرشيد فاطلقه الرشيد وقد قيل فى أمره انه كان يرى
الامامة فى الاكبر من ولد العباس وأن غير المهدى من عمومته كان احق بها منه وكان
المهدى محببا الى الخاص والعام لانه افتتح أمره بالنظر فى المظالم والكف عن القتل وأمن
الخائف وانصاف المظلوم وبسط يده فى الاعطاء فاذهب جميع ما خلفه المنصور وهو ستمائة
ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار سوى ما جباه فى أيامه فلما تفرغت بيوت
الاموال آتى أبو حارثة النهدى خازن بيوت امواله فرمى بالمفاتيح بين يديه وقال ما معنى
مفاتيح لبيوت فرغ ففرق المهدى عشرين خادما فى جباية الاموال فوردت الاموال بعد
أيام قلائل فتشاغل أبو حارثة عن الدخول على المهدى ثلاثة أيام فلما دخل عليه قال
ما اخرك فقال الشغل بتصحيح الاموال فقال أنت اعرابى احمق كنت تظن أن الاموال
لا تاتينا اذا احتجنا اليها قال أبو حارثة ان الحادثة اذا حدثت لم تنتظرك حتى توجه فى
استخراج الاموال وحملها وقيل انه فرق فى عشرة أيام من صلب ماله عشرة آلاف
درهم فعند ذلك قام شبة بن عقال على رأسه خطيبا فقال وللمهدى اشباه فمنها القمر الزاهر
والربيع الباكر والاسد الخادر والبحر الزاخر فاما القمر الزاهر فاشبه منه حسنه وبهاءه
وأما الربيع الباكر فاشبه منه طيبه وهواه وأما الاسد الخادر فاشبه منه غرته ومضاه
وأما البحر الزاخر فاشبه منه جوده وسخاه وكانت الخيزران ام الهادى والرشيد فى دارها
المعروفة باساس وعندها امهات أولاد الخلفا وغيرهن من بنات بنى هاشم وهى على بساط
ارمنى وهى على نمارق ارمنية وزينب بنت سليمان بن على اعلاهن مرتبة فبيناهى كذلك
اذ دخل خادم لها فقال بالباب امرأة ذات حسن وجمال فى اطمار رثة تأبى أن تخبر باسمها
وشأنها غيركم وتروم الدخول عليكم وقد كان المهدى تقدم الى الخيزران بأن تلزم زينب
بنت سليمان بن على وقال لها اقتبسى من آدابها وخذى من اخلاقها فانها عجوز لنا
قد ادركت أوائلنا فقالت الخيزران للخادم ائذن لها فدخلت امرأة ذات بهاء وجمال فى
اطمار رثة فتكلمت فاوضحت عن بيان على لسان فقالوا لها من أنت قالت أنا مزنة امرأة
مروان بن محمد وقد أصارنى الدهر الى ما ترين ووالله ما الاطمار الرثة التى على الا عارية وانكم
لما غلبتمونا على هذا الامر وصار لكم دوننا لم نامن مخالطة العامة على ما نحن فيه
من الضرر على بادرة البنات بل موضع الشرف فقصدناكم لنكون فى جنابكم على أية حالة
كانت حتى تأتى دعوة من له الدعوة فاغرورقت عينا الخيزران ونظرت اليها زينب بنت

سليمان

سليمان بن على فقالت لاخفف الله عنك يا مزينة اتذكرين وقد دخلت اليك بحران وأنت على هذا البساط بعينه فكلمتك فى جثة ابراهيم الامام فانتهرتينى وأمرت باخراجى وقلت ماللنساء والدخول على الرجال فى آرائهم فوالله لقد كان مروان ارعى للحق منك لقد دخلت اليه فحلف أنه ماقتله وهو كاذب وخيرنى بين أن يدفنه أو يدفع الى جثته وعرض على مالا فلم اقبله فقالت مزينة والله ماظننت هذه الحالة ادتنى الى ماترينه الا بالفعال الذى كان منى وكأنك استحسنتيه فحرضت الخيزران على فعل مثله انما كان يجب أن تحضيها على فعل الخير وترك المقابلة بالشر لتحرز بذلك نعمها وتصون بها دينها ثم قالت لزينب يا بنت عم كيف رأيت صنيع الله بنا فى العقوق فاحببت التأسى بنا ثم ولت باكية فغمزت الخيزران بعض جواريها فعدلت بها الى بعض المقاصير وأمرت بتغيير حالها والاحسان اليها فلما دخل المهدى عليها وقد انصرفت زينب وكان من شأنه الاجتماع مع خواص حرمه فى كل عشية قصت الخيزران عليه قصتها وما أمرت به من تغيير حالها فدعا بالجارية التى ردتها فقال لها لما رددتيها الى المقصورة ما الذى سمعتيها تقول قالت لحقتها فى الممر الفلانى وهى تبكى فى خروجها وتنسيه وهى تقرأ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ثم قال للخيزران والله والله لولم تفعلى بها مافعلت ما كلمتك ابدا وبكى بكاء كثيرا وقال اللهم انى اعوذ بك من زوال النعمة وانكر فعل زينب وقال لولا انها اكبر نسائنا لحلفت ان لا اكلمها ثم بعث اليها بعض الجوارى الى مقصورتها التى اخليت لها وقال للجارية اقرئى عليها السلام وقولى لها يا بنت عم ان أخواتك قد اجتمعن عندى ولولا انى ابن عمك لجئناك فلما سمعت الرسالة علمت مراد المهدى وقد حضرت زينب بنت سليمان فجاءت مزينة تسحب اذيالها فأمرها بالجلوس ورحب بها ورفع منزلتها فوق منزلة زينب بنت سليمان بن على ثم تفاوضوا أخبار اسلافهم وأيام الناس والدولة وتنقلها فما تركت لاحد فى المجلس كلاما فقال لها المهدى يا بنت عم والله لولا انى لا احب أن اجعل لقوم أنت منهم فى أمرنا شيأ لتزوجتك ولكن لاشئ اصون لك من حجابى وكونك مع اخواتك فى قصرى لك مالهن وعليك ماعليهن الى ان يأتيك أمر من له الأمر فيما حكم به على الخلق ثم اقطعها مثل مالهن من الاقطاع وأخدمها واجازها فأقامت فى قصره الى أن قضى المهدى وأيام الهادى وصدرا من أيام الرشيد وماتت فى خلافته لايفرق بينها وبين نساء بنى هاشم فلما قبضت جزع الرشيد والخدم جزعا شديدا وحدثنا الرياشى عن الاصمعى قال دخل عبد الله بن عمرو بن عتبة على المهدى يعزيه بالمنصور فقال آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله وبارك الله له فيما خلفه فلا مصيبة اعظم من امام والد ولاعقبى أجل من خلافة الله على أولياء الله فاقبل يا أمير المؤمنين العطية واحتسب عند الله أفضل الرزية ولما كثر تشبيب أبى العتاهية بعتبة جارية الخيزران شكت الى مولاتها مايلحقها من الشناعة فدخل المهدى وهى تبكى بين يدى الخيزران فسألها عن خبرها فاخبرته فأمر باحضار أبى العتاهية فادخل اليه فلما وقف بين يديه قال أنت القائل فى عتبة

الله بيني وبين مولاتي * ابدت لي الصد والملامات

ومتى وصلتك حتى تشكو صدها عنك قال يا أمير المؤمنين فأنا الذي اقول

يا ناق حثى بنا ولا تهني * نفسك فيما ترين راحات

حتى تجيئي بنا الى ملك * توجه الله بالمهابات

يقول للريح كلما عصفت * هل لك يا ريح في مباراتي

عليه تاجان فوق مفرقه * تاج جمال وتاج اخبات

قال فنكس رأسه ونكت بالقضيب ثم رفع رأسه فقال أنت القائل

الا ما لسيدتي ما لها * ادلت باجمل ادلالها

وجارية من جواري الملوك * قد اسكن الحسن سربالها

ثم سأله عن اشياء فافحم أبو العتاهية فأمر المهدي بجلده نحوا من خمسين واخرج مجلودا فلقيته عتبة وهو على تلك الحال فقال

بخ بخ يا عتب من مثلكم * قد قتل المهدي فيكم قتيلا

فتغرغرت عيناها وفاض دمعها وصادفت المهدي عند الخيزران فقال ما لعتبة تبكي قالوا له رأت أبا العتاهية مجلودا وقال لها كيت وكيت فأمر له بخمسين ألف درهم ففرقها أبو العتاهية على من بالباب فكتب صاحب الخبر بذلك فوجه اليه ما حملك على أن اكرمتك بكرامة فقسمتها فقال ما كنت لآكل ثمن من احببت فوجه اليه بخمسين ألفا اخرى وحلف عليه أن لا يفرقها فأخذها وانصرف قال المبرد اهدى أبو العتاهية الى المهدي في يوم نوروز برنية صينية فيها ثوب ممسك فيه سطران مكتوبان عليه بالغالية

نفسي بشيء من الدنيا معلقة * الله والقائم المهدي يكفيها

اني لأيأس منها ثم يطمعني * فيها احتقارك للدنيا وما فيها

فهم أن يدفع اليه عتبة فقالت له يا أمير المؤمنين مع حرمتي وخدمتي تدفعني الى بائع جرار يكتسب بالشعر فبعث اليه أما عتبة فلا سبيل لك اليها وقد أمرنا لك بملء البرنية مالا فخرجت عتبة وهو يناظر الكتاب ويقول انما أمر لي بدنانير وهم يقولون بدراهم فقالت أما لو كنت عاشقا لعتبة لما اشتغلت بتمييز العين من الورق وكان أبو العتاهية بائع جرار وكان اقدر الناس على وزن الكلام وكان حلو الالفاظ حتى أنه يتكلم بالشعر قد جعله شعرا ونثرا واجتمع أبو نواس وجماعة فدعا أحدهم بماء فشرب ثم قال * عذب الماء وطابا * ثم قال اهم اجيزوا فلم يحضر أحدهم ما يجانسه في سهولته وقرب مأخذه حتى جاء أبو العتاهية فقال فيم أنتم فاعلموه وانشدوه القسم فقال * حبذا الماء شرابا * ومن مختار شعره في عتبة

بالله يا حلوة العينين زوريني * قبل الممات والا فاستزيريني

هذان أمران فاختاري احبهما * اليك أو لا فداعي الموت يدعوني

أن شئت موتا فانت الدهر مالكة * روحي وان شئت أن احيا فاحييني

يا عتب ما أنت الا بدعة خلقت * من غير طين وخلق الناس من طين

اني لأعجب من حب يقربني * ممن يباعدني عنه ويقصيني

لو

لو كان ينصفنى مما كلفت به * اذا رضيت وكان النصف يرضينى
يا أهل ودى انى قد لطفت بكم * فى الحب جهدى ولكن لا تبالونى
الحمد لله قد كنا نظنكم * من ارحم الناس طرا بالمساكين
أما الكثير فلا ارجوه منك ولو * اطمعتنى فى قليل كان يكفينى

ومن مختار شعره فيها قوله

الا يا عتب يا قمر الرصافه * ويا ذات الملاحة والنظافه
رزقت مودتى ورزقت عطفى * ولم ارزق فديتك منك رافه
وصرت من الهوى دنفا سقيما * صريعا كالصريع من السلافه
اظل اذا رأيتك مستكينا * كأنك قد بعثت على آفه

وحدث المبرد محمد بن يزيد أن ريطة ابنة أبى العباس السفاح وجهت الى عبد الله بن مالك الخزاعى فى شراء رقيق للعتق وأمرت جاريتها عتبة وكانت لها ثم صحبت الخيزران بعدها أن تحضر ذلك فانها الجالسة اذ جاء أبو العتاهية فى زى متنسك فقال جعلنى الله فداك شيخ ضعيف كبير لا يقوى على الخدمة فان رأيت اعزك الله بشراى وعتقى فعلت مأجورة فاقبلت على عبد الله فقالت انى لارى هيئة جميلة وضعفا ظاهرا ولسانا فصيحا ورجلا بليغا فاشتره وأعتقه فقال نعم فقال أبو العتاهية اتأذنين لى اصلحك الله فى تقبيل يدك فاذنت له فقبل يدها وانصرف فضحك عبد الله بن مالك وقال اتدرين من هذا قالت لا قال هذا أبو العتاهية وانما احتال عليك حتى قبل يدك فلو لم يكن لابى العتاهية سوى هذه الابيات التى أبان فيها عن صدق الاخاء ومحض الوفاء وهى

ان أخاك الصدق من كان معك * ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب الزمان صدعك * شتت شمل نفسه كى يجمعك

وهذه الصفة فى عصرنا معدومة ومستحيل وجودها ومتعذر كونها (وروى) ابن عياش أن المنصور كان قد ضم الشرقى بن القطامى الى المهدى حين خلفه بالرى وأمره أن يأخذ بحفظ أيام العرب ومكارم الاخلاق ودراسة الاخبار وقراءة الاشعار فقال له المهدى ذات ليلة يا شرقى أرح قلبى بشئ يلهيه قال نعم اصلح الله الامير ذكروا أنه كان فى ملوك الحيرة ملك يقال كان له نديمان قد نزلا من قلبه منزلة مكينة وكانا لا يفارقانه فى لهوه ومنامه ويقظته وكان لا يقطع امرا دونهما ولا يصدر الا عن رأيهما فغبر بذلك دهرا طويلا فبينا هو ذات ليلة فى شربه ولهوه اذ غلب عليه الشراب فازال عقله فدعا بسيفه وانتضاه وشد عليهما فقتلهما وغلبته عيناه فنام فلما اصبح سأل عنهما فاخبر بما كان منه فأكب على الارض عاضا لها تاسفا عليهما وجزعا لفراقهما وامتنع من الطعام والشراب ثم حلف لا يشرب شرابا يزعج قلبه ما عاش وواراهما وبنى على قبريهما قبة وسماهما الغريين وسن أن لا يمر بهما أحد من الملوك فمن دونه الا سجد لهما وكان اذا سن الملك سنة توارثوها وأحيوا ذكرها ولم يميتوها وجعلوها عليهم حكما واجبا وفرضا لازما وأوصى بها الآباء أعقابهم فغبر الناس بذلك دهرا طويلا لا يمر أحد من صغير ولا كبير الا سجد لهما فصار ذلك سنة لازمة كالشريعة

والفريضة وحكم فيمن ابى أن يسجد لهما بالقتل بعد أن يحكم له بخصلتين يجاب اليهما كائنا ما كان قال فمر يوما قصار معه كارة ثياب وفيها مدقته فقال الموكلون بالغريين للقصار اسجد فأبى أن يفعل فقالوا له انك مقتول أن لم تفعل فأبى فرفعوه الى الملك وأخبروه بقصته فقال ما منعك أن تسجد قال سجدت ولكن كذبوا على قال الباطل قلت فاحتكم فى خصلتين فانك مجاب اليهما وانى قاتلك قال لابد من قتلى بقول هؤلاء قال لابد من ذلك قال فانى احتكم ان اضرب رقبة الملك بمدقتى هذه قال له الملك يا جاهل لو حكمت على أن اجرى على من تخلف وراءك ما يغنيهم كان اصلح لهم قال ما احكم الا بضربة لرقبة الملك فقال الملك لوزرائه ماترون فيما حكم به هذا الجاهل قال نرى ان هذه سنة وأنت اعلم بما فى نقض السنن من العار والنار وعظم الاثم وأيضا انك متى نقضت سنة نقضت اخرى ثم يكون ذلك لمن بعدك كما كان لك فتبطل السنن قال فأرغبوا الى القصار ان يحكم بما شاء ويعفينى من هذه فانى اجيبه الى ماشاء ولو بلغ حكمه شطر ملكى فرغبوا اليه فقال ما احكم الا بضربة فى عنق الملك قال فلما رأى الملك ذلك وما عزم عليه القصار قعد له مقعدا عاما وأحضر القصار فأبدى مدقته وضرب بها عنق الملك فأوهنه وخر مغشيا عليه فأقام لما به سنة وبلغت به العلة الى ان كان يسقى الماء بالقطن فلما افاق وتكلم واكل وشرب واستقل سأل عن القصار فقيل انه محبوس فأمر باحضاره فحضر فقال لقد بقيت لك خصلة فاحكم بها فانى قاتلك لامحالة اقامة للسنة قال القصار فاذا كان لابد من قتلى فانى احكم ان اضرب الجانب الآخر من رقبة الملك مرة اخرى فلما سمع الملك ذلك خر على وجهه من الجزع وقال ذهبت والله نفسى اذا ثم قال للقصار ويلك دع عنك مالا ينفعك فانه لم ينفعك منه ما مضى واحكم بغيره وأنفذه لك كائنا ما كان قال ما ارى حتى الاضربة اخرى فقال الملك لوزرائه ماترون قالوا تمت على السنة قال ويلكم ان ضرب الجانب الآخر ماشربت الماء البارد ابدا لانى اعلم ما قد نالنى قالوا فما عندنا حيلة فلما رأى ما قد اشرف عليه قال للقصار أخبرنى الم اكن قد سمعتك تقول يوم أتى بك الموكلون بالغريين انك قد سجدت وانهم كذبوا عليك قال قد كنت قلت ذلك فلم اصدق قال فكنت سجدت قال نعم فوثب من مجلسه وقبل رأسه وقال اشهد انك صادق وانهم كذبوا عليك وقد وليتك موضعهم وجعلت اليك بأسهم وأمرهم فضحك المهدى حتى فحص برجليه وقال أحسنت ووصله قال الهيثم بن عدى كنت فى مجلس المهدى فأتاه الحاجب فقال ابن أبى حفصة بالباب فقال لا تاذن له فانه منافق كذاب فكلمه الحسن بن أبى عطية فيه فادخله فقال له المهدى يا فاسق ألست القائل فى معن

جبل تلوذ به نزاركلها * صعب الذرى متمنع الاركان

قال بل أنا الذى اقول فيك يا أمير المؤمنين

يا ابن الذى ورث النبى محمدا * دون الاقارب من ذوى الارحام

وانشده الابيات كلها فرضى عنه وأجازه وقال القعقاع بن حكيم كنت عند المهدى وأتى سفيان الثورى فلما دخل عليه سلم تسليم العامة ولم يسلم تسليم الخلافة والربيع قائم على رأسه متكى على سيفه فاقبل المهدى بوجه طلق وقال له يا سفيان تفر منا ها هنا وها هنا

وتظن انالو اردنا لك بسوء لم نقدر عليك فقد قدرنا عليك الآن انما نخشى ان نحكم فيك بهوانا قال سفيان ان تحكم فى يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل فقال له الربيع يا أمير المؤمنين ألهذا الجاهل ان يستقبلك بمثل هذا ائذن لى ان اضرب عنقه فقال له اسكت ويلك ما يريد هذا وامثاله الا ان نقتلهم فنشقى بسعادتهم اكتبوا بعهده على قضاء الكوفة على أن لا يعترض عليه فى حكم فكتب عهده ودفعه اليه فأخذه وخرج ورمى به فى الدجلة وهرب فطلب فى كل بلد فلم يوجد وقال على بن يقطين كنا مع المهدى بماسبذان فقال لى يوما اصبحت جائعا فأتنى بأرغفة ولحم بارد ففعلت فأكل ثم دخل النهر ونام وكنا نحن فى الرواق فانتبهنا لبكائه فبادرنا اليه مسرعين فقال أما رأيتم ما رأيت قلنا ما رأينا شيأ قال وقف على رجل لو كان فى ألف رجل ما خفى على صوته فقال

كأنى بهذا القصر قد باد أهله * وأوحش منه ربعه ومنازله

وصار عميد القوم من بعد بهجة * وملك الى قبر عليه جنادله

فلم يبق الا ذكره وحديثه * تنادى عليه معولات حلائله

قال على فما أتت على المهدى بعد رؤياه الا عشرة أيام حتى توفى (قال المسعودى) وكانت وفاة زفر بن الهذيل الفقيه صاحب أبى حنيفة النعمان بن ثابت سنة ثمان وخمسين ومائة وفيها كانت بيعة المهدى كما قدمناه ومات سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى بالبصرة وكان من تميم وهو ابن ثلاث وستين سنة ويكنى اباعبد الله فى أيام المهدى وذلك فى سنة احدى وستين ومائة ومات ابن أبى ذيب وهو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة ويكنى أبا الحرث بالكوفة سنة تسع وخمسين ومائة وذلك فى أيام المهدى وفى سنة ستين ومائة مات شعبة بن الحجاج ويكنى ابابسطام وهو مولى لبنى شقرة من الازد وفيها توفى عبد الرحمن بن عبد الله المسعودى وفى سنة ست وستين ومائة مات حماد بن مسلمة فى أيام المهدى (قال المسعودى) وللمهدى أخبار حسان ولما كان فى أيامه من الكوائن والحروب وغيرها قد أتينا على مبسوطه فى الكتاب الاوسط وكذلك من مات فى سلطانه من الفقهاء وأصحاب الحديث وغيرهم وبالله التوفيق

(ذكر خلافة موسى الهادى)

وبويع موسى بن محمد الهادى لسبع بقين من المحرم وهو ابن أربع وعشرين سنة وثلاثة اشهر صبيحة الثلاثا التى كانت فيها وفاة والده المهدى وذلك فى سنة تسع وستين ومائة وتوفى بعيساباذ نحو مدينة السلام سنة سبعين ومائة لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الاول من هذه السنة وكانت خلافته سنة وثلاثة اشهر وكان يكنى أبا جعفر وامه الخيزران بنت عطاء ام ولد حرشية وهى أم الرشيد واتته البيعة وهو ببلاد طبرستان وجرجان فى حرب كانت هنالك فركب البريد وقد أخذ له أخوه هارون البيعة وفى ذلك يقول بعض الشعراء

لما أتت خير بنى هاشم * خلافة الله بجرجان

شمر للحرب سرابيله * برأى لا غمر ولا وان

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه)

كان موسى قاسي القلب شرس الاخلاق صعب المرام كثير الادب محباله وكان شديدا شجاعا جوادا سخيا حدث يوسف بن ابراهيم الكاتب وكان صاحب المهدي عن ابراهيم أنه كان واقفا بين يديه وهو على حمار له ببستانه المعروف ببغداد اذ قيل له قد ظفر برجل من الخوارج فأمر بادخاله فلما قرب منه الخارجي أخذ سيفا من بعض الحرس فاقبل يريد موسى فتنحيت وكل من معي عنه وانه لواقف على حماره ما يتحلحل فلما ان قرب منه الخارجي صاح موسى اضربا عنقه وليس وراءه أحد فأوهمه فالتفت الخارجي لينظر وجمع موسى نفسه ثم ظهر عليه فصرعه فأخذ السيف من يده فضرب عنقه قال فكان خوفنا منه اكثر من الخارجي فوالله ما انكر علينا تنحينا ولا عذلنا على ذلك ولم يركب حمارا بعد ذلك اليوم ولا فارقه سيفه وكان عيسى بن داب يجالسه وكان من أهل الحجاز وكان اكثر أهل عصره ادبا وعلما ومعرفة بأخبار الناس وأيامهم وكان الهادي يدعو له متكأ ولم يكن غيره يطمع منه في ذلك وكان يقول له يا عيسى ما استطلت بك يوما ولا ليلة ولا غبت عني الا ظننت اني لا ارى غيرك (وذكر) عيسى بن داب أنه رفع الى الهادي ان رجلا من بلاد المنصورة من بلاد السند من اشرافهم وأهل الرياسة فيهم من آل المهلب بن أبي صفرة ربى غلاما سنديا أو هنديا وان الغلام هوى مولاته فراودها عن نفسها فاجابته فدخل مولاه فوجدها معه فجب ذكر الغلام وخصاه ثم عالجه الى ان برئ فاقام مدة وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل والآخر يافع فغاب الرجل عن منزله وقد أخذ السندي الصبيين فصعد بهما الى أعالي سور الدار الى ان دخل مولاه فاذا هو بابنيه مع الغلام على السور فقال يا فلان عرضت ابني للهلاك فقال دع ذا عنك والله لو لم تجب نفسك بحضرتي لأرمين بهما فقال له الله الله في وفي ابني قال دع عنك هذا فوالله ماهي الا نفسي واني لاسمح بها من شربة ماء واهوى ليرمي بهما فاسرع مولاه فأخذ مدية فجب نفسه فلما رأى الغلام انه قد فعل رمى بالصبيين فتقطعا وقال ذاك الذي فعلت لفعلك بي وقتل هذين زيادة فأمر الهادي بقتل الغلام وتعذيبه بأفظع ما يمكن من العذاب وأمر باخراج كل سندي في مملكته فرخص السند في أيامه حتى كانوا يتداولون بالثمن اليسير وكان الهادي قد استوزر الربيع وضم اليه ما كان لعمر بن بزيع من الزمام ثم ولى عمر بن بزيع الوزارة وديوان الرسائل وافرد الربيع بالزمام فمات الربيع في هذه السنة وقيل ان الهادي سقاه شربة لاجل جارية كان قد وهبها له المهدي كانت قبل ذلك للربيع وقيل غير ذلك وظهر في أيامه الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وهو المقتول بفخ وذلك على ستة اميال من مكة يوم التروية وكان على الجيش الذي حاربه جماعة من بني هاشم منهم سلمان بن أبي جعفر ومحمد بن سلمان بن علي وموسى بن علي والعباس بن محمد بن علي في أربعة آلاف فارس فقتل الحسين واكثر من كان معه واقاموا ثلاثة أيام لم يواروا حتى اكلتهم السباع والطير وكان معه سلمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي فاسر في هذا اليوم وضربت رقبته بمكة صبرا وقتل معه عبد الله بن اسحاق بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي واسر

الحسن

الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على وضرب عنقه صبرا وأخذ لعبد الله ابن الحسن بن على والحسين بن على الامان فحبسا عند جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك وقتلا بعد ذلك فسخط الهادى على موسى بن عيسى لقتل الحسين بن على بن الحسن بن الحسن وترك المصير به اليه ليحكم فيه بما يرى وقبض أموال موسى واظهر الذين أتوا بالرأس الاستبشار فبكى الهادى وزجرهم وقال اتيتمونى مستبشرين كانكم اتيتمونى برأس رجل من الترك أو الديلم انه رأس رجل من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ان اقل جزائكم عندى لا اثيبكم شيأ وفى الحسين بن على صاحب فخ يقول بعض شعراء ذلك العصر من ابيات

فلابكين على الحسين بعولة وعلى الحسن

وعلى ابن عاتكة الذى * اثووه ليس له كفن

تركوا بفخ غدوة * فى غير منزلة الوطن

كانوا كراما قتلوا * لا طائشين ولا جبن

غسلوا المذلة عنهم * غسل الثياب من الدرن

هدى العباد بجدهم * فلهم على الناس المنن

وكان الهادى كثير الطاعة لامه الخيزران مجيبا لها فيما تسأل من الحوائج للناس فكانت المواكب لا تخلو من بابها ففى ذلك يقول أبو المعافى

يا خيزران هناك ثم هنالك * ان العباد يسوسهم ابنالك

فكلمته ذات يوم فى أمر فلم يجد الى اجابتها فيه سبيلا فاعتل عليها بعلة فقالت لا بد من اجابتى قال لا افعل قالت فانى قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك فغضب الهادى وقال ويل لابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها لا قضيتها لك قالت اذا والله لا اسالك حاجة ابدا قال اذا والله لا ابالى وقامت مغضبة فقال مكانك فاستوعبى كلامى والله والا نفيت من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن بلغنى انه وقف ببابك أحد من قوادى أو من خاصتى أو من خدمى لاضربن عنقه ولاقبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك ماهذه المواكب التى تغدو الى بابك كل يوم أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك اياك ثم اياك ان تفتحى فاك فى حاجة لمسلم ولا ذمى فانصرفت وما تعقل ما تطأ فلم تنطق بحلو ولا مر بعدها (وذكر ابن دأب) قال دعانى الهادى فى وقت من الليل لم تجر العادة انه يدعونى فى مثله فدخلت اليه فاذا هو جالس فى بيت صغير شتوى وقدامه جزء صغير ينظر فيه فقال لى يا عيسى قلت لبيك يا أمير المؤمنين قال انى ارقت فى هذه الليلة وتداعت الى الخواطر واشتملت على الهموم وهاج لى ما جرت اليه بنو أمية من بنى حرب وبنى مروان فى سفك دمائنا فقلت يا أمير المؤمنين هذا عبد الله بن على قد قتل منهم على نهر أبى فطرس فلانا وفلانا حتى اتيت على تسمية من قتل منهم وهذا عبد الصمد بن على قد قتل منهم بالحجاز فى وقت واحد نحو ما قتل عبد الله بن على وهو القائل لسفك دمائهم

ولقد شفى نفسى وابرأ سقمها * أخذى بثارى من بنى مروان

ومن آل حرب ليت شيخى شاهد * سفكى دماء بنى أبى سفيان

قال ابن دأب فسر والله الهادي وظهرت منه اريحية فقال ياعيسى داود بن علي "هو القائل ماذكرت بالحجاز ولقد اذكرتنيهما حتى كاني ماسمعتهما قلت يا أمير المؤمنين وقد قيل انهما لعبد الله بن علي" قالهما على نهر أبي فطرس قال قد قيل ذلك قال ابن دأب ثم تغلغل بنا الكلام والحديث الى أخبار مصر وعيوبها وفضائلها وأخبار نيلها فقال لي الهادي فضائلها اكثر قلت يا أمير المؤمنين هذه دعوى المصريين لها بغير برهان أوردوه والبينة على الدعوى وأهل العراق يابون هذه الدعوى ويذكرون ان عيوبها اكثر من فضائلها قال مثل ماذا قلت يا أمير المؤمنين من عيوبها انها لا تمطر واذا امطرت كرهوا وابتهلوا الى الله بالدعا قال الله عز وجل "وهو الذي يرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته" فهذه رحمة مجالة لهذا الخلق وهم لها كارهون وهي لهم ضارة غير موافقة لا يزكو عليها زرعهم ولا تخصب عليها ارضهم ومن عيوبها الريح التي يسمونها المريسية وذلك أن أهل مصر يسمون اعالي الصعيد الى بلاد النوبة مريس فاذا هبت الريح المريسية وهي الجنوبية ثلاثة عشر يوما اشترى أهل مصر الاكفان والحنوط وايقنوا بالوباء القاتل والبلاء الشامل ثم من عيوبها اختلاف هوائها لانهم في يوم واحد يغيرون ملابسهم مرارا كثيرة فيلبسون القميص مرة والمبطنات اخرى والحشو مرة وذلك لاختلاف جواهر الساعات بها ولتباين مهاب الهواء فيها في سائر فصول السنة من الليل والنهار وهي تمير ولا تمتار فاذا أجدبوا هلكوا وأما نيلها فكفاك الذي هو عليه من الخلاف لجميع الانهار من الصغار والكبار وليس بالفرات ولا الدجلة ولا نهر بلخ ولا سيحان ولا جيحان شيء من التماسيح وهي في نيل مصر ضارة بلا منفعة ومفسدة غير مصلحة وفي ذلك يقول الشاعر

اظهرت للنيل هجرانا ومقلية * اذ قيل لي انما التمساح في النيل
فمن رأى النيل رأي العين من كثب * فما ارى النيل الا في النواقيل

قال ويحك ما النواقيل التي ترى النيل فيها قلت القلال والكيزان يسمونها بهذا الاسم قال وما مراد الشاعر فيما وصف قال لانه لا يتمتع بالماء الا في الانية لخوف مباشرة الماء في النيل من التمساح لانه يختطف الناس وسائر الحيوان قال ان هذا النهر قد منع هذا النوع من الحيوان مصالح الناس منه ولقد كنت متشوقا الى النظر اليها فاقد زهدتني بوصفك لها قال ابن دأب ثم سألني الهادي عن مدينة دنقلة وهي دار مملكة النوبة كم المسافة بينها وبين اسوان قلت قد قيل أربعون يوما على شاطئ النيل عمائر متصلة قال ابن دأب ثم قال الهادي أيها يا ابن دأب دع عنك ذكر المغرب وأخباره وهلم بنا الى ذكر فضائل البصرة والكوفة وما زادت به كل واحدة منهما على الاخرى قال قلت ذكر عن عبد الملك بن عمير انه قال قدم علينا الاحنف بن قيس الكوفة مع مصعب بن الزبير فما رأيت شيخا قبيحا الا ورأيت في وجه الاحنف منه شبها كان صعل الرأس احجن العين اعصف الاذن باخق العين ناتئ الوجه مائل الشدق متراكب الاسنان خفيف العارضين احنف الرجل ولكنه كان اذا تكلم جلى عن نفسه فجعل يفاخرنا ذات يوم بالبصرة ونفاخره بالكوفة فقلنا الكوفة اغذى وأمرأ وافسح واطيب فقال له رجل والله ما اشبه الكوفة الا بشابة صبيحة الوجه

كريمة الحسب ولا مال لها فاذا ذكرت حاجتها فكف عنها طالبها وما اشبه البصرة الا بعجوز ذات عوارض موسرة فاذا ذكرت يسارها وذكرت عوارضها فكف عنها طالبها فقال الاحنف أما البصرة فان اسفلها قصب وأوسطها خشب واعلاها رطب نحن اكثر ساجا وعاجا وديباجا ونحن اكثر قندا ونقدا والله ما آتى البصرة الا طائعا ولا اخرج منها الا كارها قال فقام اليه شاب من بكر بن وايل فقال يا ابا بحر بم بلغت في الناس ما بلغت فوالله ما أنت بأجلهم ولا بأشرفهم ولا بأشجعهم قال يا ابن أخي بخلاف ما أنت فيه قال وماذا قال بتركي ما لا يعنيني كما عناك من أمري ما لا ينبغي ان يعنيك (قال المسعودي) ولابن دأب مع الهادي أخبار حسان يطول ذكرها ويتسع علينا شرحها ولا يتأتى لنا ايراد ذلك في هذا الكتاب لاشتراطنا فيه على انفسنا الاختصار والايجاز بحذف الاسانيد وترك اعادة الالفاظ ولاهل البصرة وأهل الكوفة ومن شرب من دجلة مناظرات كثيرة في مياههم ومنافعها ومضارها فمنها ما عاب به أهل الكوفة أهل البصرة فقالوا ماؤكم كدر زهك زفر فقال لهم أهل البصرة من أين يأتي ماؤنا الكدر وماء البحر صاف وماء البطيحة طاف وهما يمتزجان وسط بلادنا قال الكوفيون من طباع الماء العذب الصافي اذا خالط ماء البحر صارا جميعا الى الكدورة وقد يروق الانسان ماء أربعين ليلة فان جعل منه شيأ في قارورة أزبد وتكدر وقد افتخر أهل الكوفة بمائهم الذي هو الفرات على ماء دجلة وهو ماء البصرة فقالوا ماؤنا اعذب المياه واغذاها وهو اصح للاجسام من ماء دجلة والفرات خير من النيل فأما دجلة فان ماءها يقطع شهوة الرجال ويذهب بصهيل الخيل ولا يذهب بصهيلها الا مع ذهاب نشاطها ونقصان قواها وان لم يتقدم النازلون عليها اصابهم نحول في عظامهم ويبس في جلودهم وسائر من نزل من العرب على دجلة لا يكادون يسقون خيولهم منها ويسقونها من الآبار والركاء لاختلاف مياهها واختلاف انواعها ليست بماء واحد لمصب الانهار كالزابين وغيرهما وسيل المشروب غير المأكول لان اختلاف المآكل غير ضار واختلاف الاشربة كالخمر والنبيذ وغيره من الانبذة اذا شربه الانسان كان ضارا واذا كان فضيلة مائنا على دجلة فما ظنك بفضيلته على ماء البصرة وهو يختلط بماء البحر ومن الماء المستنقع في اصول القصب والهروي وقد قال الله هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج والفرات اعذب المياه عذوبة وانما اشتق الفرات لكل ماء عذب من ماء الكوفة وقد طعن أيضا أهل الكوفة على أهل البصرة فقالوا البصرة اسرع الارض خرابا واخبثها ترابا وابعدها من السماء واسرعها غرقا وقد اجاب أهل البصرة أهل الكوفة عما سألوا عنه وعابوهم به وكذلك من شرب من دجلة وعابوا أهل الكوفة وذكروا عيوبها وما يؤثر عن سكانها من الشح على المأكول والمشروب والغدر وقلة الوفاء وقد أتينا على وصف ذلك في كتابنا أخبار الزمان وكذلك أتينا على خواص الارض والمياه وفصول السنة وانقسام الاقاليم وما لحق بهذه المعاني فيما سلف من كتبنا على الشرح والايضاح وذكرنا في هذا الكتاب من جميع ذلك لمعا فلنرجع الآن الى أخبار الهادي وندل على هذا السائح وقد كان الهادي اراد ان يخلع اخاه الرشيد من ولاية العهد ويجعلها لابنه جعفر

ابن موسى وحبس يحيى بن خالد البرمكي واراد قتله فقال له يحيى وكان القيم بأمر الرشيد يا أمير المؤمنين ارأيت ان كان ما أسأل الله ان يعيذنا منه وان لا يبلغناه وينسأ في اجل أمير المؤمنين ايظن أن الناس يسلمون لجعفر بن أمير المؤمنين الأمر ولم يبلغ الحنث ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم قال ما اظن ذلك قال فتأمن ان يسمو اليها جلة أهل بيتك فتخرج من ولدابيك الى غيرهم فتكون قد حملت الناس على النكث وهونت عليهم أيمانهم ولو تركت بيعة أخيك على حالها وبويع لجعفر بعده كان آكد فاذا بلغ مبلغ الرجال سألت اخاك ان يقدمه على نفسه قال نبهتني والله على أمر لم اكن انتبهت له ثم عزم بعد ذلك على خلعه رضي ام كره وأمر بالتضييق عليه في الاكثر من اموره فأشار عليه يحيى ان يستأذنه في الخروج الى الصيد وان يطيل التشاغل بذلك فان مدة موسى قصيرة على ما أوجبته قضية المولد واستأذنه الرشيد فاذن له فسار الى شاطئ الفرات من بلاد الانبار وهيت وتوسط البر مما يلي السماوة وكتب الهادي اليه يأمره بالقدوم فأكثر الرشيد التعلل وبسط الهادي لسانه في شتمه وسنح للهادي الخروج نحو بلاد الحديثة فمرض هنالك وانصرف وقد ثقل في العلة فلم يحسر أحد من الناس على الدخول عليه الا صغار الخدم ثم اشار اليهم ان يحضروا الخيزران أمه فصارت عند رأسه فقال لها انا هالك في هذه الليلة وفيها يلي أخي هارون وأنت تعلمين ماقضى فيه أصل مولدي بالري وقد كنت أمرتك باشياء ونهيتك عن اخرى مما اوجبته سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك ولم اكن بك عاقا بل كنت لك صائنا وبرا واصلا ثم قضى قابضا على يدها واضعا لها على صدره وكان مولده بالري وكذلك مولد الرشيد فكانت تلك الليلة فيها وفاة الهادي وولاية الرشيد ومولد المأمون ويقال ان الهادي أوقف بين يديه رجلا من أولياء الدولة ذا أجرام كثيرة فجعل الهادي يذكره ذنوبه فقال له الرجل يا أمير المؤمنين اعتذاري مما تقرعني به رد عليك واقراري بما ذكرت يوجب ذنبا ولكني اقول

فان كنت ترجو في العقوبة راحة * فلا تزهدن عند المعافاة في الاجر

فأطلقه ووصله (وحدث) عدة من الاخباريين من ذوي المعرفة بأخبار الدولة ان موسى قال لهارون اخيه كأني بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا وتؤمل ما أنت عنه بعيد ومن دون ذلك خرط القتاد فقال له هارون يا أمير المؤمنين من تكبر وضع ومن تواضع رفع ومن ظلم خذل وان أوصل الأمر الي وصلت من قطعت وبررت من حرمت وصيرت أولادك اعلى من أولادي وزوجتهم بناتي وقضيت بذلك حق الامام المهدي فانجلى عن موسى الغضب وبان السرور في وجهه وقال ذلك الظن بك يا ابا جعفر ادن مني فقام هارون فقبل يده ثم ذهب ليعود الى مجلسه فقال موسى والشيخ الجليل والملك النبيل لا جلست الا معي في صدر المجلس ثم قال يا خزاني احمل اليه الساعة ألف ألف دينار فاذا فتح الخراج فاحمل اليه نصفه فلما اراد هارون الانصراف قدمت دابته الى البساط قال عمرو الرومي فسألت الرشيد عن الرؤيا فقال قال المهدي رأيت في منامي كأني دفعت الى موسى قضيبا والى هارون قضيبا فأما قضيب موسى فأورق اعلاه قليلا وأما قضيب هارون فأورق من أوله الى آخره فقص الرؤيا على

الحكيم بن اسحاق الصيمري وكان يعبرها فقال له يملكان جميعا فاما موسى فتقل أيامه وأما هارون فيبلغ اخر ماعاش خليفة وتكون أيامه أحسن الايام ودهره أحسن الدهور قال عمرو الرومى فلما افضت الخلافة الى هارون زوج حمدونه ابنته من جعفر بن موسى وفاطمة من اسماعيل ووفى له ماوعده (وحدث) عبد الله بن الضحاك عن الهيثم بن عدى قال وهب المهدى لموسى الهادى سيف عمرو بن معدى كرب الصمصامة فدعا به موسى بعدما ولى الخلافة فوضعه بين يديه ودعا بمكتل وقال لحاجبه ائذن للشعراء فلما دخلوا أمرهم ان يقولوا فى السيف فبدأهم ابن يامين البصرى فقال

حاز صمصامة الزبيدى عمرو * من جميع الانام موسى الامين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا * خير ما أغمدت عليه الجفون
أوقدت فوقه الصواعق نارا * ثم شابت فيه الذعاف المنون
واذا ما شهرته تبهر الشمس * ضياء فلم تكد تستبين
وكأن الفرند والجوهر الجا * رى فى صفحتيه ماء معين
ما يبالى اذا الضريبة خانت * أشمال نيطت به ام يمين

وهى ابيات كثيرة فقال له الهادى لك السيف والمكتل فخذهما ففرق المكتل على الشعراء وقال دخلتم معى وحرمتم من اجلى وفى السيف عوض ثم بعث اليه الهادى فاشترى منه السيف بخمسين الفا وللهادى أخبار حسان وان كانت أيامه قصرت وقد اتينا على ذكرها فى كتابينا أخبار الزمان والاوسط وبالله التأييد

(ذكر خلافة هارون الرشيد)

وبويع هارون الرشيد ابن المهدى يوم الجمعة صبيحة الليلة التى مات فيها الهادى بمدينة السلام وذلك لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ربيع الاول سنة سبعين ومائة ومات بطوس بقرية يقال لها ساباذ يوم السبت لاربع ليال خلون من جمادى الاخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة فكانت ولايته ثلاثا وعشرين سنة وستة اشهر وقيل ثلاثا وعشرين سنة وشهرين وولى الخلافة وهو ابن أحدى وعشرين سنة ومات وهو ابن أربع وأربعين سنة وأربعة اشهر

(ذكر جمل من أخباره وسيره)

ولما افضت الخلافة الى الرشيد دعا بيحيى بن خالد فقال له يا ابت انت اجلستنى فى هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك وقد قلدتك الأمر ودفع خاتمه اليه ففى ذلك يقول الموصلى

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولى هارون اشرق نورها
بيمن امين الله هارون ذى الندى * فهارون واليها ويحيى وزيرها

وماتت ريطة بنت أبى العباس السفاح لشهور خلت من أيام الرشيد وقيل فى آخر أيام الهادى وماتت الخيزران أم الهادى والرشيد فى سنة ثلاث وسبعين ومائة ومشى الرشيد أمام جنازتها وكانت غلة الخيزران مائة ألف ألف وستين ألف ألف درهم وفيها مات محمد بن سليمان وقبض الرشيد امواله بالبصرة وغيرها فكان مبلغها نيفا وخمسين ألف ألف درهم

سوى الضياع والدور والمستغلات وكان محمد بن سليمان يغل كل يوم مائة ألف درهم (وحكى) ان محمد بن سليمان ركب يوما بالبصرة وسوار القاضي يسايره فى جنازة ابنة عم له فاعترضه مجنون كان بالبصرة يعرف برأس النعجة فقال له يا محمد أمن العدل ان تكون غلتك فى كل يوم مائة ألف درهم وانا اطلب نصف درهم فلا اقدر عليه ثم التفت الى سوار فقال ان كان هذا عدلا فانا اكفر به فاسرع اليه غلمان محمد فكفهم عنه وامر له بمائة درهم فلما انصرف محمد وسوار معه اعترضه رأس النعجة فقال لقد كرم الله منصبك وشرف أبوتك وحسن وجهك وعظم قدرك وارجوان يكون ذلك لخير يريده الله بك ولا أن يجمع الله لك الدارين فدنا منه سوار فقال يا خبيث ما كان هذا قولك فى البداءة فقال له سألتك بحق الله وبحق الأمير الا ما اخبرتنى فى أى سورة هذه الآية فان اعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون قال فى براءة قال صدقت فبرئ الله ورسوله منك فضحك محمد بن سليمان حتى كاد يسقط عن دابته ولما بنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة على بعض الانهار دخل اليه عبد الصمد بن شبيب بن شبة فقال له محمد كيف ترى بناءى قال بنيت اجل بناء باطيب فناء وأوسع فضاء وارق هواء على أحسن ماء بين صرارى وحسان وظباء فقال محمد بناء كلامك أحسن من بنائنا وقيل ان صاحب الكلام والبانى للقصر هو عيسى بن جعفر على ما حدث به محمد بن زكريا الغلابى عن الفضل بن عبد الرحمن بن شبيب بن شبة وفى هذا القصر يقول ابن أبى عتبة

زر وادى القصر نعم القصر والوادى * لابد من زورة من غير ميعاد
زره فليس له شبه يقاربه * من منزل حاضر ان شئت أو باد
ترقى قراقيره والعيس واقفة * والضب والنون والملاح والحادى

وفى سنة خمس وسبعين ومائة مات الليث بن سعد المصرى اليمنى ويكنى أبا الحرث وهو ابن اثنتين وثمانين سنة وكان قد حج سنة ثلاث عشرة ومائة وسمع من نافع وفى سنة خمس وسبعين ومائة مات شريك بن عبد الله بن سنان النخعى القاضى وكان يكنى أبا عبد الله وهو ابن اثنتين وثمانين سنة وكان مولده بخارى وليس بشريك بن عبد الله بن أبى انمر الليثى لان ابن انمر مات فى سنة أربعين ومائة وانما ذكرنا ذلك لانهما يتشابهان فى الاباء والامهات وبينهما تسع وثلاثون سنة وكان شريك بن عبد الله النخعى تولى القضاء بالكوفة أيام المهدى ثم عزله موسى الهادى وكان شريك مع فهمه وعلمه ذكيا فطنا وكان جرى بينه وبين مصعب بن عبد الله كلام بحضرة المهدى فقال له مصعب أنت تنتقص أبا بكر وعمر فقال والله ما أنتقص جدك وهو دونهما وذكر معاوية عند شريك بالحلم فقال ليس بحليم من سفه الحق وقاتل على بن أبى طالب وشم من شريك رائحة النبيذ فقال له أصحاب الحديث لو كانت هذه الرائحة منا لاستحيينا فقال لانكم أهل الريبة ومات فى أيام الرشيد أبو عبد الله مالك ابن انس بن أبى عامر الاصبحى وهو ابن تسعين سنة وحمل به ثلاث سنين وذلك فى ربيع الاول وقيل انه صلى عليه ابن أبى ذيب على ما ذكر من التنازع فى وفاة ابن أبى ذيب وذكر الواقدى ان مالكا كان يأتى المسجد ويشهد الصلوات والجمع والجنائز ويعود المرضى ويقضى الحقوق

ثم

ثم ترك ذلك كله ثم قيل له فيه فقال ليس كل انسان يقدران يتكلم بعذره وسعى به الى جعفر ابن سليمان وقيل له انه لا يرى أيمان بيعتكم شيأ فضربه بالسياط ومدّ لذلك حتى انخلع كتفاه وفى السنة التى مات فيها مالك كانت وفاة حماد بن زيد وهى سنة تسع وسبعين ومائة وفى سنة احدى وستين ومائة مات عبد الله بن المبارك المروزى الفقيه بهيت بعد منصرفه من طرسوس وفى سنة اثنتين وثمانين ومائة مات أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم القاضى وهو ابن تسع وستين سنة وهو رجل من الانصار وولى القضاء سنة ست وستين ومائة فى أيام خروج الهادى الى جرجان واقام على القضاء الى ان مات خمس عشرة سنة (قال المسعودى) وقد كانت أم جعفر كتبت مسئلة الى أبى يوسف تستفتيه فيها فأفتاها بما وافق مرادها على حسب ما أوجبته الشريعة عنده وأدّاه اجتهاده اليه فبعثت اليه بحق فضة فيه حقاق فى كل حق لون من الطيب وجام ذهب فيه دراهم وجام فضة فيه دنانير وغلمان وتخوت من ثياب وحمار وبغل فقال له بعض من حضره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها فقال أبو يوسف تأولت الخبر على ظاهره والاستحسان قد منع من امضائه ذلك اذ كان هدايا الناس التمر واللبن لا فى هذا الوقت وهدايا الناس اليوم العين والورق وغيره وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (وذكر الفضل بن الربيع) قال صار الى عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير فقال ان موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على قد ارادنى على البيعة له فجمع الرشيد بينهما فقال الزبيرى لموسى سعيتم علينا واردتم نقض دولتنا فالتفت اليه موسى فقال ومن انتم فغلب الرشيد الضحك حتى رفع رأسه الى السقف حتى لا يظهر منه ثم قال موسى يا أمير المؤمنين هذا الذى ترى المشنع على خروج والله مع اخى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على على جدك المنصور وهو القائل من ابيات

قوموا ببيعتكم ننهض بطاعتنا * ان الخلافة فيكم يا بنى حسن

فى شعر طويل وليس سعايته يا أمير المؤمنين حبالك ولا مراعاة لدولتك ولكن بغضا لنا جميعا أهل البيت ولو وجد من ينتصر به علينا جميعا لكان معه وقد قال باطلا وأنا مستحلفه فان حلف أنى قلت ذلك فدمى لأمير المؤمنين حلال فقال الرشيد احلف له يا عبد الله فلما اراده موسى على اليمين تلكأ وامتنع فقال له الفضل لم تمتنع وقد زعمت آنفا انه قال لك ما ذكرته قال عبد الله فانى احلف له قال موسى قل تقلدت الحول والقوة دون حول الله وقوته الى حولى وقوتى ان لم يكن ما حكيته عنى حقا فحلف له فقال موسى الله اكبر حدثنى أبى عن جدى عن ابيه عن جده على عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ما حلف احد بهذه اليمين وهو كاذب الا عجل الله له العقوبة قبل ثلاث والله ما كذبت ولا كذبت وها أنا يا أمير المؤمنين بين يديك وفى قبضتك فتقدم بالتوكيل فان مضت ثلاثة أيام ولم يحدث على عبد الله ابن مصعب حادث فدمى لأمير المؤمنين حلال فقال الرشيد للفضل خذ بيد موسى فليكن عندك حتى انظر فى أمره قال الفضل فوالله ما صليت العصر من ذلك اليوم حتى سمعت الصراخ من دار عبد الله بن مصعب فأمرت من يتعرف خبره فعرفت انه اصابه الجذام

وانه قد تورّم واسودّ فصرت اليه فوالله ما كدت اعرفه لانه قد صار كالزق العظيم ثم اسودّ حتى صار كالفحم فصرت الى الرشيد فعرّفته خبره فما انقضى كلامى حتى أتى خبر وفاته فبادرت بالخروج وأمرت بتعجيل أمره والفراغ منه وتوليت الصلاة عليه فلما دلوه فى حفرته لم يستقر فيها حتى انخسفت به وخرجت منه رائحة مفرطة النتن فرأيت احمال شوك تمر فى الطريق فقلت علىّ بألواح ساج فطرحت على موضع قبره ثم طرح التراب عليها وانصرفت الى الرشيد فعرفته الخبر فأكثر التعجب من ذلك وأمر بتخلية موسى بن عبد الله رضى الله عنه وان اعطيه ألف دينار واحضر الرشيد موسى فقال له لم عدلت عن اليمين المتعارفة بين الناس قال لانا روينا عن جدنا على رضى الله عنه انه قال من حلف بيمين مجد الله فيها استحى الله من تعجيل عقوبته ومامن أحد حلف بيمين كاذبة نازع الله فيها حوله وقوته الاعجل الله له العقوبة قبل ثلاث وقيل ان صاحب هذا الخبر هو يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علىّ أخو موسى بن عبد الله رضوان الله عليهم وكان يحيى قد سار الى الديلم مستجيرا فباعه صاحب الديلم من عامل الرشيد بمائة ألف درهم فقتل اه وقد روى من وجه آخر على وجه حسب تباين النسخ وطرق الرواية فى ذلك فى كتب الانساب والتواريخ ان يحيى القى فى بركة فيها سباع قد جوعت فامسكت عن اكله ولاذت بناحيته وهابت الدنو منه فبنى عليه ركن بالجص والحجر وهو حى وقد كان محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ كرم الله وجهه سار الى مصر فطلب فدخل المغرب واتصل ببلاد تاهرت السفلى واجتمع اليه خلق من الناس فظهر فيهم بعدل وحسن استقامة فمات هنالك مسموما وقد أتينا على كيفية خبره وماكان من أمره فى كتاب حدائق الاذهان فى أخبار أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وتفرقهم فى البلدان وفى سنة ثمان وثمانين ومائة حج الرشيد وهى آخر حجة حجها فذكر عن أبى بكر بن عياش وكان من علية أهل العلم انه قال وقد اجتاز الرشيد بالكوفة فى حال منصرفه من هذه الحجة لا يعود الى هذه الطريق ولا خليفة من بنى العباس بعده ابدا فقيل له أضرب من الغيب قال نعم قيل بوحى قال نعم قيل اليك قال لا الى محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك خبر عنه عليه السلام المقتول فى هذا الموضع وأشار الى الموضع الذى قتل فيه بالكوفة رضى الله عنه وفى سنة تسع وثمانين ومائة وذلك فى أيام الرشيد مات على ابن حمزة الكسائى صاحب القراآت ويكنى أبا الحسن وكان قد شخص مع الرشيد الى الرى فمات بها وكذلك مات محمد بن الحسن الشيبانى القاضى ويكنى ابا عبد الله ودفن بالرى وهو مع الرشيد وتطير من وفاة محمد بن الحسن لرؤيا كان رآها فى نومه اه وفى هذه السنة كانت وفاة يحيى بن برمك بن خالد وفى سنة ثمان وثمانين ومائة كان سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح ابن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب فحدث غوث بن المذرع عن الرياشى قال سمعت الاصمعى يقول كنت عند الرشيد وأتى بعبد الملك بن صالح يرفل فى قيوده فلما نظر اليه قال هيه ياعبد الله كأنى انظر الى شؤبوبها قد همع وعارضها قد لمع وكانى بالوليد قد اقلع عن براجم بلا معاصم ورؤس بلا غلاصم مهلا مهلا بنى هاشم والله واللهِ سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر وألقت اليكم الامور ازمتها فخذوا حذركم منى قبل حلول

داهية خبوط باليد والرجل فقال له عبد الملك أفذا اتكلم أو تو أما فقال بل تو أما قال فاتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وراقبه فى رعاياك التى استرعاك قد سهلت لك والله الوعور وجمعت على خوفك ورجائك الصدور وكنت كما قال أخو كعب بن كلاب

ومقام ضيق فرجته * بلسان اوبيان أو جدل
لو يقوم الفيل أو فياله * زل عن مثل مقامى أو رحل

قال فاراد يحيى بن خالد البرمكى ان يضع من مقام عبد الملك عند الرشيد فقال له ياعبد الملك بلغنى انك حقود فقال أصلح الله الوزير ان يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندى انهما لباقيان فى قلبى فالتفت الرشيد الى الاصمعى فقال يا اصمعى حررها فوالله ما احتج أحد للحقد بمثل ما احتج به عبد الملك ثم أمر به فرد الى محبسه ثم التفت الى الاصمعى فقال والله يا اصمعى لقد نظرت الى موضع السيف من عنقه مرارا يمنعنى من ذلك ابقاءى على قومى فى مثله (حدث) يوسف بن ابراهيم بن المهدى قال حدثنى سليمان الخادم الخراسانى مولى الرشيد انه كان واقفا على رأس الرشيد بالحيرة وهو يتغدى اذ دخل عليه عون العبادى وكان صاحب الحيرة وفى يده صحفة فيها سمكة منعوتة السمن فوضعها بين يديه ومعه محبس قد اتخذ لها فحاول الرشيد اكل شئ منها فمنعه جبريل بن بختيشوع واشار جبريل الى صاحب المائدة ان يشيلها عن المائدة ويعزلها له ففطن له الرشيد فلما رفعت المائدة وغسل الرشيد يده وخرج جبريل أمرنى الرشيد باتباعه وان اكبسه فى منزله وهو يأكل فأرجع اليه بخبره ففعلت ما أمرنى وأحسب ان أمرى لم يخف على جبريل فيما تبينت من تحرزه وانه صار الى موضع من دار عون ودعا بالطعام فاحضر له وفيه السمكة فدعا باقداح ثلاث فجعل فى واحد منها قطعة من السمك وصب عليها من خمر طبريان (وهى قرية بين الكوفة والقادسية ذات كروم واشجار ونخل ورياض تخرقها الانهار من كل البقاع من الفرات شرابها موصوف بالجودة كوصف القطربلى) نصبه على السمكة وقال هذا اكل جبريل وجعل فى قدح آخر قطعة منها وصب عليها ماء بثلج شديد البرودة وقال هذا أكل امير المؤمنين اعزه الله ان لم يخلط السمك بغيره وجعل فى القدح الثالث قطعا من اللحم من الوان مختلفة من شواء ومن حلوى ومن بوارد وبقول ومن سائر ماقدم اليه من الالوان من كل واحد منها بجزء ايسيرا مثل اللقمة واللقمتين وصب عليها ماء بثلج وقال هذا أكل أمير المؤمنين ان خلط السمك بغيره ودفع الثلاثة الاقداح الى صاحب المائدة وقال احتفظ بها الى ان ينتبه أمير المؤمنين اعزه الله ثم اقبل جبريل على السمكة فاكل منها حتى تضلع وكان كلما عطش دعا بقدح من الخمر الصرف فشربه ثم قام فلما انتبه الرشيد من نومه سألنى عما عندى من خبر جبريل وهل اكل من السمكة شيأ ام لم يأكل فأخبرته بالخبر فأمر باحضار الاقداح الثلاثة فوجد ما فى القدح الاول وهو الذى ذكر جبريل انه اكله وصب عليه الخمر الصرف قد تفتت وانماع واختلط ووجد ما فى القدح الثانى الذى قال جبريل انه أكل أمير المؤمنين وصب عليه الماء بالثلج قد ربا وصار على الضعف مما كان ونظر الى القدح الثالث الذى قال جبريل وهذا أكل أمير المؤمنين ان خلط السمك بغيره قد تغيرت رائحته وحدثت له سهوكة كاد الرشيد ان يتقايأ حين

قرب منه فأمر بحمل خمسة آلاف دينار الى جبريل وقال من يلومنى على صحبة هذا الرجل الذى يدبرنى بهذا التدبير فاوصلت اليه المال (وذكر) عبد الله بن مالك الخزاعى وكان على دار الرشيد وشرطته قال اتانى رسول الرشيد فى وقت ما جاءنى فيه قط فانتزعنى من موضعى ومنعنى من تغيير ثيابى فراعنى ذلك فلما صرت الى الدار سبقنى الخادم فعرف الرشيد خبرى فاذن لى فى الدخول فدخلت فوجدته قاعدا على فراشه فسلمت فسكت ساعة فطار عقلى وتضاعف الجزع ثم قال لى يا عبد الله أتدرى لم طلبتك فى هذا الوقت قلت لا والله يا أمير المؤمنين قال انى رأيت الساعة فى منامى كأن حبشيا قد اتانى ومعه حربة فقال ان لم تخل عن موسى بن جعفر الساعة والا نحرتك بهذه الحربة فاذهب فخل عنه فقلت يا أمير المؤمنين أطلق موسى بن جعفر ثلاثا قال نعم امض الساعة حتى تطلق موسى بن جعفر وأعطه ثلاثين ألف درهم وقل له ان احببت المقام قبلنا فلك عندى ما تحب وان أحببت المضى الى المدينة فالاذن فى ذلك اليك قال فمضيت الى الحبس لاخرجه فلما رآنى موسى وثب الىّ قائما وظن انى قد أمرت فيه بمكروه فقلت لا تخف قد أمرنى أمير المؤمنين باطلاقك وان ادفع اليك ثلاثين ألف درهم وهو يقول لك ان احببت المقام قبلنا فلك ما تحب وان احببت الانصراف فالأمر فى ذلك مطلق اليك واعطيته الثلاثين ألف درهم وخليت سبيله وقلت له لقد رأيت من أمرك عجبا قال فانى أخبرك بينما انا نائم اذ اتانى النبى صلى الله عليه وسلم فقال موسى حبست مظلوما فقل هذه الكلمات فانك لا تبيت هذه الليلة فى الحبس فقلت بأبى وامى ما اقول فقال قل يا سامع كل صوت ويا سابق الفوت ويا كاسى العظام لحما ومنشرها بعد الموت اسألك باسمائك الحسنى وباسمك الاعظم الاكبر المخزون المكنون الذى لم يطلع عليه أحد من المخلوقين يا حليما ذا أناة لا يقوى على أناته يا ذا المعروف الذى لا ينقطع ابدا ولا يحصى عددا فرج عنى فكان ما ترى (وذكر) حماد بن اسحاق بن ابراهيم الموصلى قال قال ابراهيم بن المهدى حججت مع الرشيد فبينا نحن فى الطريق وقد انفردت اسير وحدى وانا على دابتى اذ حملتنى عيناى فسلكت بى الدابة غير الطريق فانتبهت وانا على غير الجادة فاشتد بى الحر فعطشت عطشا شديدا فارتفع لى خباء فقصدته فاذا بقبة وبجنبها بئر ماء بقرب مزرعة وذلك بين مكة والمدينة ولم اربها انسيا فاطلعت فى القبة فاذا انا بأسود نائم فأحس بى ففتح عينيه كأنهما اجانتى دم فاستوى جالسا واذا هو عظيم الصورة فقلت يا أسود اسقنى من هذا الماء فقال يا اسود اسقنى من هذا الماء محاكيا لى وقال ان كنت عطشانا فانزل واشرب وكان تحتى برذون خبيث نفور فخشيت ان انزل عنه فينفر فضربت رأس البرذون وما نفعنى الغناء قط الا فى ذلك اليوم وذلك انى رفعت عقيرتى وانا اغنى

كفنونى ان مت فى درع اروى * واستقوا لى من بئر عروة ماء

فلها مربع بجنب اجاج * ومصيف بالقصر قصر قباء

فرفع الاسود رأسه الىّ وقال ايما أحب اليك ان اسقيك ماء وحده أو ماء وسويقا قلت الماء والسويق فأخرج قعبا له فصب السويق فى القدح فسقانى واقبل يضرب بيده على رأسه وصدره ويقول واحر صدراه وانارات اللهب فى فؤادى يا مولاى زدنى وانا ازيدك وشربت

السويق ثم قال لى يامولاى ان بينك وبين الطريق اميالا ولست اشك انك تعطش لكن املأ قربتى هذه واحملها قدامك فقلت افعل قال فلا قربته وسار قدامى وهو يحجل فى مشيته غير خارج عن الايقاع فاذا امسكت لاستريح اقبل على فقال يامولاى عطشت فأغنيه النصب الى ان أوقفنى على الجادة ثم قال لى سر رعاك الله ولا سلبك ما كساك من هذه النعم بكلام عجمى معناه هذا الدعاء فلحقت بالقافلة والرشيد قد فقدنى وقد بث البخت والخيل فى البريطلبونى فسر بى حين رآنى فاتيته فقصصت عليه الامر فقال على بالاسود فما كان الاهنيهة حتى مثل بين يديه فقال له ويلك ماحر صدرك فقال يامولاى ميمونة قال ومن ميمونة قال حبشية قال ومن حبشية قال بنت بلال يامولاى فأمر من يستفهمه فاذا الاسود عبد لبنى جعفر الطيار واذا السوداء التى يهواها لقوم من ولد الحسن بن على فأمر الرشيد بابتياعها له فأبى مواليها أن يقبلوا لها ثمنا ووهبوها للرشيد فاشترى الاسود وأعتقه وزوجه منها ووهب له من ماله بالمدينة حديقتين وثلثمائة دينار (ودخل ابن السماك) على الرشيد وبين يديه حمامة تلتقط حبا فقال له صفها وأوجز فقال كأنما تنظر من ياقوتتين وتلتقط بدرتين وتطأ على عقيقتين وأنشدونا لبعضهم

هتفت هاتفة اذنها الف بين
ذات طوق مثل عطف النون اقنى الطرفين
وتراها ناظرة تحولك من ياقوتتين
ترجع الانفاس من ثقبين كاللؤلؤتين
وترى مثل البساتين لها قادمتين
ولها لحيان كالمدغين من عرعرتين
ولها ساقان حمراوان مثل الوردتين
سحبت فوق جناحيها الهابرنوستين
وهى طاوسية اللون بيان المنكبين
تحت ظل من ظلال الايك صافى الكتفين
فقدت الفافناحت من تباريح وبين
فهى تبكيه بلا دمع جود المقلتين
وهى لاتصبغ عيناها كما تصبغ عين

(ودخل) معن بن زائدة على الرشيد وقد كان وجد عليه فمشى فقارب الخطو فقال له هارون كبرت والله يامعن قال فى طاعتك يا أمير المؤمنين قال وان فيك على ذلك لبقية قال هى لك يا أمير المؤمنين قال وانك لجلد قال على أعدائك يا أمير المؤمنين فرضى عنه وولاه قال وعرض كلامه هذا على عبد الرحمن بن زيد زاهد أهل البصرة قال ويح هذا ماترك لربه شيأ وقال الرشيد يوما لمعن بن زائدة انى قد أعددتك لأمر كبير فقال يا أمير المؤمنين ان الله قد أعد لك منى قلبا معقودا بنصيحتك ويدا مبسوطة بطاعتك وسيفا مشحوذا على عدوك فان شئت فقل وقيل ان هذا الجواب من كلام يزيد بن مزيد (وقال الكسائى) دخلت على الرشيد

فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام فقال اقعد فلم ازل عنده حتى خف عامة من كان في مجلسه ولم يبق الا خاصته فقال لي يا علي ألا تحب ان ترى محمدا وعبد الله قلت ما أشوقني اليهما يا أمير المؤمنين وأسرني بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما فأمر باحضارهما فلم البث ان أقبلا ككوكبي افق يزينهما هدوء ووقار وقد غضا ابصارهما وقاربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس فسلما على ابيهما بالخلافة ودعوا له بأحسن الدعاء فأمرهما بالدنو منه فصير محمدا عن يمينه وعبد الله عن يساره ثم أمرني ان استقرئهما واسألهما ففعلت فما سألتهما عن شيء الا احسنا الجواب فيه والخروج منه فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه ثم قال لي يا علي كيف ترى مذهبهما وجوابهما فقلت يا أمير المؤمنين كما قال الشاعر

اري قرمي مجد وفرعي خلافة * يزينهما عرف كريم ومحتد

يا أمير المؤمنين هما فرع زكا اصله وطاب مغرسه وتمكنت في الثرى عروقه وعذبت مشاربه أبوهما أغر نافذ الامر واسع العلم عظيم الحلم يحكمان بحكمه ويستضيئان بنوره وينطقان بلسانه ويتقلبان في سعادته فأمتع الله أمير المؤمنين بهما وانس جميع الامة ببقائه وبقائهما فما رأيت احدا من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة اذرب ألسنا ولا أحسن ألفاظا ولا اشد اقتدارا على تأدية ما حفظا منهما ودعوت لهما دعاء كثيرا وأمن الرشيد على دعاءي ثم ضمهما اليه وجمع يده عليهما فلم يبسطها حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ثم أمرهما بالخروج فلما خرجا اقبل علي فقال كانك بهما وقد حم القضاء ونزلت مقادير السماء وبلغ الكتاب اجله قد تشتت كلمتهما واختلف أمرهما وظهر تعاديهما ثم لم يبرح ذلك بهما حتى يسفك الدماء وتقتل القتلى وتهتك ستور النساء ويتمنى كثير من الاحياء انهم في عداد الموتى قلت أيكون ذلك يا أمير المؤمنين لامر رؤي في أصل مولدهما أو لاثر وقع لامير المؤمنين في مولدهما فقال لا والله الا بأثر واجب حملته العلماء عن الاوصياء عن الانبياء وقال الاحمر النحوي بعث الي الرشيد لتأديب ولده محمد الامين فلما دخلت قال يا أحمر ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعتك عليه واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين اقرئه القرآن وعرفه الاثار وروه الاشعار وعلمه السنن وبصره مواقع الكلام وبدئه وامنعه الضحك الا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا اليه ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها من غير ان تخرق بك فتميت ذهنه ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة (ويقال) ان العماني الشاعر قام بحضرة الرشيد فلم يزل يحرض محمدا ويحضه على تجديد العهد له فلما فرغ من كلامه قال له ابشر يا عماني بولاية العهد له فقال اي والله يا أمير المؤمنين سرور العشب بالغيث والمرأة النزور بالولد والمريض المدنف بالبرء لانه نسيج وحده وحامي مجده وشبيه جده قال فما تقول في عبد الله قال مرعى ولا كالسعدان فتبسم الرشيد وقال قاتله الله ما اعرفه بمواضع الرغبة أما والله اني لاعرف في عبد الله

حزم المنصور ونسك المهدي وعز نفس الهادي والله لو شاء الله ان انسبه الى الرابعة لنسبته اليها (قال الاصمعي) بينما انا اساير الرشيد ذات ليلة اذ رأيته قد قلق قلقا شديدا فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكي ثم انشأ يقول

قلد أمور عباد الله ذا ثقة * موحد الرأي لا نكس ولا برم
واترك مقالة اقوام ذوي خطل * لا يفهمون اذا ما معشر فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمرا عظيما ثم قال لمروان الخادم علي بيحيى فما لبث أن اتاه فقال يا أبا الفضل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات في غير وصية والاسلام جذع والايمان جديد وكلمة العرب مجتمعة قد آمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل فما لبث أن ارتدت عامة العرب على أبي بكر وكان من خبره ما قد علمت وأن أبا بكر صير الأمر الى عمر فسلمت الامة له ورضيت بخلافته ثم صيرها عمر شورى فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت الى غير أهلها وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره الى من ارضى سيرته وأحمد طريقته وأثق بحسن سياسته وآمن ضعفه ووهنه وهو عبد الله وبنو هاشم مائلون الى محمد بأهوائهم وفيه ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته والتبذير لما حوته يده ومشاركة النساء والاماء في رأيه وعبد الله المرضي الطريقة الاصيل الرأي الموثوق به في الامر العظيم فان ملت الى عبد الله اسخطت بني هاشم وان افردت محمدا بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية فأشر علي في هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها فانك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر فقال يا أمير المؤمنين ان كل زلة مستقالة وكل رأي يتلافى خلا هذا العهد فان الخطأ فيه غير مأمون والزلة فيه لا تستدرك وللنظر فيه مجلس غير هذا فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة فأمرني بالتنحي فقمت وقعدت ناحية بحيث اسمع كلامهما فما زالا في مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل وافترقا على ان عقد الأمر لعبد الله بعد محمد (ودخلت) أم جعفر على الرشيد فقالت ما انصفت ابنك محمدا حيث وليته العراق واعريته من العدد والقواد وصيرت ذلك الى عبد الله دونه فقال لها وما أنت وتمييز الاعمال وأخبار الرجال اني وليت ابنك السلم وعبد الله الحرب وصاحب الحرب احوج الى الرجال من المسالم ومع هذا فانا نتخوف ابنك على عبد الله ولا نتخوف عبد الله على ابنك ان بويع وفي سنة ست وثمانين ومائة خرج الرشيد حاجا ومعه ولياعهده الامين والمأمون وكتب الشرطين بينهما وعلقهما في الكعبة (وحكي) عن ابراهيم الحجبي ان الكتاب لما رفع ليعلق بالكعبة وقع فقلت في نفسي وقع قبل ان يرتفع ان هذا الأمر سريع انتقاضه قبل تمامه (وحكي) عن سعيد بن عامر البصري قال حججت في هذه السنة وقد استعظم الناس أمر الشرط والايمان في الكعبة فرأيت رجلا من هذيل يقود بعيره وهو يقول

وبيعة قد نكثت أيمانها * وفتنة قد سعرت نيرانها

فقلت له ويحك ما تقول قال اقول ان السيوف استسل والفتنة ستقع والتنازع في الملك سيظهر قلت وكيف ترى ذلك قال أما ترى البعير واقفا والرجلان يتنازعان والغرابان قد وقعا على الدم والتطخابه والله لا يكون آخر هذا الأمر الا محاربة وشر (ويروى)

ان الامين لما حلف للرشيد بما حلف له به وأراد الخروج من الكعبة رده جعفر بن يحيى وقال له فان غدرت بأخيك خذلك الله حتى فعل ذلك ثلاثا كلها يحلف له وبهذا السبب اضطغنت أم جعفر على جعفر بن يحيى فكانت أحد من حرض الرشيد على أمره وبغيته على ما نزل به (قال المسعودى) وفى سنة سبع وثمانين ومائة بايع الرشيد لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون فاذا افضت الخلافة الى المأمون كان أمره اليه ان شاء ان يقره اقره وان شاء ان يخلعه خلعه وفى هذه السنة وهى سنة سبع وثمانين ومائة توفى الفضيل بن عياض ويكنى أبا على وكان مولده بخراسان وقدم الكوفة وسمع من المنصور بن المعتمر وغيره ثم تعبد وانتقل الى مكة فأقام بها الى ان مات (حدث) سفيان بن عيينة قال دعانا الرشيد فدخلنا عليه ودخل الفضيل آخرنا مقنعا رأسه بردائه فقال لى يا سفيان أيهم أمير المؤمنين فقلت هذا وأومأت الى الرشيد فقال أنت يا حسن الوجه الذى أمر هذه الامة فى يدك وعنقك لقد تقلدت أمرا عظيما فبكى الرشيد ثم أتى كل رجل منا ببدرة فكل قبلها الا الفضيل فقال له الرشيد يا ابا على ان لم تستحلها فأعطها ازا دين واشبع بها جائعا واكس بها عريانا فاستعفاه منها فلما خرجنا قلت له يا أبا على اخطأت ألا أخذتها وصرفتها فى أبواب البر فأخذ بلحيتى ثم قال يا ابا محمد أنت فقيه البلد وتغلط مثل هذا الغلط لو طابت لاولئك لطابت لى (وقبض موسى) بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ببغداد مسموما لخمس عشرة سنة خلت من ملك الرشيد سنة ست وثمانين ومائة وهو ابن أربع وخمسين سنة وقد ذكرنا فى رسالة بيان أسماء الائمة القطعية من الشيعة اسماءهم واسماء امهاتهم ومواضع قبورهم ومقادير أعمارهم وكم عاش كل واحد منهم مع ابيه ومن ادرك اجداده عليهم السلام ولكلثوم العتابى فى الرشيد من ابيات

امام له كف يضم بنانها * عصا الدين ممنوع من البر عودها

وعين محيط بالبرية طرفها * سواء عليه قربها وبعيدها

وأسمع يقظانا يبيت مناجيا * له فى الحشا مستودعات يكيدها

(حدث) غوث بن المزرع قال حدثنى خالد عن عمرو بن بحر الجاحظ قال كان كلثوم العتابى يضع من قدر أبى نواس فقال له راوية أبى نواس يوما كيف تضع من قدر أبى نواس وهو الذى يقول

اذا نحن اثنينا عليك بصالح * فأنت الذى نثنى وفوق الذى نثنى

وان جرت الالفاظ يوما بمدحة * لغيرك انسانا فأنت الذى نعنى

قال العتابى هذا سرقة قال ممن قال من أبى الهذيل الجمحى حيث يقول

واذا يقال لبعضهم نعم الفتى * فابن المغيرة ذلك النعم

عقم النساء فلا يجئن بمثله * ان النساء بمثله عقم

قال لقد أحسن فى قوله

فتمشت فى مفاصلهم * كتمشى البرء فى السقم

قال سرقة أيضا قال له ممن قال من سوسة الفقعسى حيث يقول

اذا ما سقيم حل عنها وكاءها * تصعد فيه برؤها وتصوبا
وان خالطت منه الحشا خلت أنه * على سالف الايام لم يبق موهبا

قال فقد أحسن فى قوله

وماخلقت الالبذل اكفهم * واقدامهم الالاعواد منبر

قال وقد سرقه أيضا قال ممن قال من مروان بن أبى حفصة حيث يقول

وماخلقت الالبذل اكفهم * وألسنهم الالتحبير منطق
فيوما يبارون الرياح سماحة * ويوما لبذ الخاطب المتشدق

قال فسكت الراوية ولو أتى بشعره كله لقال له سرقه (وحدث) أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب قال كان أبو العتاهية قد اكثر مسئلة الرشيد فى عتبة فوعده بتزويجها وأنه يسألها فى ذلك فان اجابت جهزها وأعطاه مالا عظيما ثم ان الرشيد سنح له شغل استمر به فحجب أبو العتاهية عن الوصول اليه فدفع الى مسرور الكبير ثلاث مراوح فدخل بها على الرشيد وهو يتبسم وكانت مجتمعة فقرأ على واحدة منهن مكتوبا

واقد تنسمت الرياح لحاجتى * فاذا لها من راحتيه شميم

فقال أحسن الخبيث واذا على الثانية

اعلقت نفسى من رجائك ماله * عنق يحث اليك بى ورسيم

فقال قد اجاد واذا على الثالثة

ولربما استأسيت ثم اقول لا * ان الذى ضمن النجاح كريم

فقال قاتله الله ما أحسن ما قال ثم دعا به وقال ضمنت لك يا أبا العتاهية وفى غد نقضى حاجتك ان شاء الله وبعث الى عتبة أن لى اليك حاجة فانتظرينى الليلة فى منزلك فأكبرت ذلك وأعظمته وصارت اليه تستعفيه فحلف ان لا يذكرها حاجته الا فى منزلها فلما كان الليل سار اليها ومعه جماعة من خواص خدمه فقال لها لست اذكر حاجتى أو تضمنين قضاءها قالت انا امتك وأمرك نافذ فى ما خلا أمر أبى العتاهية فانى حلفت لابيك رضى الله عنه بكل يمين يحلف بها بر وفاجر وبالمشى الى بيت الله الحرام حافية كلما انقضت عنى حجة وجبت على أخرى لا اقتصر على الكفارة وكلما افدت شيأ تصدقت به الا ما اصلى فيه وبكت بين يديه فرق لها ورحمها وانصرف عنها وغدا عليه أبو العتاهية فقال له الرشيد والله ما قصرت فى أمرك ومسرور وحسين ورشيد وغيرهم شهود لى بذلك وشرح له الخبر قال أبو العتاهية فلما أخبرنى بذلك مكثت مليا لا ادرى أين انا قائم او قاعد وقلت الآن يئست منها اذردتك وعلمت انها لا تجيب أحدا بعدك فلبس أبو العتاهية الصوف وقال فى ذلك من ابيات

قطعت منها حبائل الآمال * وحططت عن ظهر المطى رحالى
ووجدت برد اليأس بين جوانحى * فغنيت عن حل وعن ترحال

(وذكر) أنه لما اتصل بالرشيد قول أبى العتاهية

الا ان ظبيا للخليفة صادنى * ومالى عن ظبى الخليفة من عذر

غضب الرشيد وقال أتسخر منا فعبث وأمر بحبسه فدفعه الى تجاب صاحب عقوبته وكان

فظاغليظا فقال أبو العتاهية

تجاب لا تجل على * فليس ذا من رائه
ما خلت هذا فى محا * يل ضوء برق سمائه

وكان من اشعاره فى الحبس بعد ما طال مكثه

انما أنت رحمة وسلامه * زادك الله غبطة وكرامه
قيل لى قد رضيت عنى فمن لى * ان ارى لى على رضاك علامه

فقال الرشيد لله ابوه لو رأيته ما حبسته وانما سمعت نفسى بحبسه لانه كان غائبا عنى وأمر باطلاقه وأبو العتاهية الذى يقول

نراع لذكر الموت ساعة وقته * ونغتر بالدنيا فنلهو ونلعب
ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها * وما كنت فيه فهو شئ محبب

وهو الذى يقول أيضا

حتوفها رصد وعيشها رنق * وكدرها نكد وملكها دول

وقال

المرء فى تأخير مدته * كالثوب يبلى بعد جدته
عجبا لمنتبه يضيع ما * يحتاج فيه ليوم رقدته

وقال

لا تأمن الدنيا على غدرها * كم غدرت قبل بأمثالكا
اجمع الناس على ذمها * وما ارى منهم لها تاركا

وقال

انما أنت مستعير ما سوى * ف ترده والمعار يرد
كيف يهوى امرؤ لذاذة أيا * م عليه الانفاس فيها تعد

وقال

حياتك انفاس تعد فكلما * مضى نفس منها نقصت به جزءا

وقال

ألا يا موت لم ار منك بدا * اتيت بما تحيف ولا تحابى
كانك قد هجمت على مشيبى * كما هجم المشيب على شبابى

وقال

نسيت الموت فيما قد نسيت * كانى لم ار أحدا يموت
أليس الموت غاية كل حى * فمالى لا ابادر ما يفوت

وقال

وعظتك احداث صمت * وبكتك ساكنة خفت
وتكلمت عن اعظم * تبلى وعن صور سبت
وأرتك قبرك فى القبو * ر وأنت حى لم تمت

وقال

وقال

ومشيد دار ليسكن ظلها * سكن القبور وداره لم يسكن

(حدث) اسحق بن ابراهيم الموصلي قال بينا انا ذات ليلة عند الرشيد أغنيه اذ طرب لغنائى وقال لا تبرح ولم ازل اغنيه حتى نام فأمسكت ووضعت العود من حجرى وجلست مكانى فاذا شاب حسن القد عليه مقطعات خز وهيئة جميلة فدخل وسلم وجلس فجعلت اعجب من دخوله فى ذلك الوقت الى ذلك الموضع بغير استئذان ثم قلت فى نفسى عسى بعض ولد الرشيد ممن لا نعرفه ولم نره فضرب بيده على العود فأخذه ووضعه فى حجره وجسه فرأيت انه جس أحسن خلق الله ثم اصلحه اصلاحا ما ادرى ما هو ثم ضرب ضربا ما سمعت اذنى صوتا اجود منه ثم اندفع يغنى

الا علانى قبل ان تتفرقا * وهات اسقنى صرفا شرابا مروقا

فقد كاد ضوء الصبح ان يفضح الدجا * وكاد قميص الليل ان يتمزقا

ثم وضع العود من حجره وقال يا عاض بظر أمه اذا اغنيت فغن هكذا ثم خرج فقمت على اثره فقلت للحاجب من الفتى الذى خرج الساعة فقال ما دخل هنا أحد ولا خرج فقمت متعجبا ورجعت الى مجلسى وانتبه الرشيد فقال ما شأنك فحدثته بالقصة فبقى متعجبا وقال لقد صادفت شيطانا ثم قال أعد على الصوت فأعدته فطرب طربا شديدا وأمر لى بجائزة وانصرفت (وحدث) ابراهيم الموصلى قال جمع الرشيد ذات يوم المغنين فلم يبق أحد من الرؤساء الا حضر وكنت فيهم وحضر معنا مسكين المدنى ويعرف بأبى صدقة وكان يوقع بالقضيب مطبوعا حاذقا طيب العشرة مليح البادره فاقترح الرشيد وقد عمل فيه النبيذ صوتا فأمر صاحب الستارة ابن جامع ان يغنيه ففعل فلم يطرب عليه ثم فعل مثل ذلك بجماعة ممن حضر فلم يحرك منه أحد فقال صاحب الستارة لمسكين المدنى يأمرك أمير المؤمنين ان كنت تحسن هذا الصوت فغنه قال ابراهيم فاندفع فغناه فأمسكنا جميعا متعجبين من جراءته مثله على الغناء بحضرتنا فى صوت قد قصرنا فيه عن مراد الخليفة قال ابراهيم فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول يا مسكين أعده فأعاده بقوة ونشاط فقال أحسنت وأجملت ورفعت الستارة بيننا وبينه قال مسكين يا أمير المؤمنين ان لهذا الصوت خبرا قال وما هو قال كنت عبدا خياطا لبعض آل الزبير وكان لمولاى على ضريبة ادفع اليه كل يوم درهمين فاذا دفعت ضريبتى تصرفت فى حوائجى فخطت يوما قميصا لبعض الطالبين فدفع الى درهمين وتغديت وسقانى اقداحا فخرجت وانا جذلان فلقيتنى سوداء على رقبتها جرة وهى تغنى هذا الصوت فأذهلنى عن كل مهم وأنسانى كل حاجة فقلت بصاحب هذا القبر والمنبر الا ألقيت على هذا الصوت فقالت وحق صاحب هذا القبر والمنبر لا ألقيته عليك الا بدرهمين فأخرجت الدرهمين فدفعتهما اليها فأنزلت الجرة عن عاتقها واندفعت فما زالت تردده حتى كانه مكتوب فى صدرى ثم انصرفت الى مولاى فقال لى هلم خراجك فقلت كان وكان فقال يا ابن اللخناء وبطحنى وضربنى وحلق لحيتى ورأسى فبت يا أمير المؤمنين من اسوء خلق الله حالا وأنسيت الصوت مما نالنى فلما أصبحت غدوت نحو الموضع الذى لقيتها فيه وبقيت

متحيرا لا اعرف اسمها ولا منزلها اذ نظرت بها مقبلة فأنسيت كل ما نالنى وملت اليها فقالت أنسيت الصوت ورب الكعبة فقلت الأمر كما ذكرت وعرّفتها ما مرّ بى من حلق الرأس واللحية فقالت وحق القبر ومن فيه لا فعلت الا بدرهمين فأخرجت جلمى ورهنته على درهمين فدفعتهما اليها فأنزلت الجرة عن رأسها واندفعت فيه ثم قالت كأنى بك مكان الاربعة دراهم أربعة آلاف دينار ثم انصرفت الى مولاى وجلا فقال هلم خراجك فلويت لسانى فقال يا ابن اللخناء ألم يكفك ما مرّ عليك بالامس فقلت انى اعترفك انى اشتريت بخراجى امس واليوم هذا الصوت واندفعت اغنيه فقال لى ويحك معك مثل هذا الصوت ولم تعلمنى امرأته طالق لو كنت قلته امس لأعتقتك فضحك الرشيد وقال ويلك ما ادرى أيما أحسن حديثك ام غناؤك وقد أمرت لك بما ذكرته السوداء فقبضه وانصرف والشعر

قف بالمنازل ساعة فتأمل * فلسوف احمل للبلى فى محمل

وأجرى الرشيد الخيل يوما بالرقة فلما ارسلت صار الى مجلسه فى صدر الميدان حيث توافى اليه الخيل فوقف عن فرسه وكان فى أوائلها سوابق من خيله يقدمها فرسان فى عنان واحد لا يتقدم احدهما صاحبه فتأملها فقال فرسى والله ثم تأمل الآخرة فقال فرس ابنى المأمون قال فجاآ يحتكان أمام الخيل وكان فرسه السابق وفرس المأمون ثانية فسر بذلك ثم جاء الخيل بعد ذلك فلما انقضى المجلس وهم بالانصراف قال الاصمعى وكان حاضرا للفضل بن الربيع يا ابا العباس هذا يوم من الايام فأحب ان توصلنى الى أمير المؤمنين وقام الفضل فقال يا أمير المؤمنين هذا الاصمعى يذكر شيأ من أمر الفرسين يزيد الله به امير المؤمنين سرورا قال هاته فلما دنا قال ما عندك يا اصمعى قال يا أمير المؤمنين كنت وابنك اليوم والفرسين كما قالت الخنساء

جارى اباه فاقبلا وهما * يتنازعان كقاذف الحضر
وهما كأنهما وقد برزا * صقران قد حطا على وكر
برزت صفيحة وجه والده * ومضى على غلوائه يجرى
اولى فأولى ان يقاربه * لولا جلال السن والكبر

(حدث) ابراهيم بن المهدى قال استزرت الرشيد بالرقة فزارنى وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد فلما وضعت البوارد رأى فيما قرب اليه منها جام قريض سمك فاستصغر القطع وقال لم صغر طباخك تقطيع السمك فقلت يا أمير المؤمنين هذه ألسنة السمك قال فيشبه ان يكون فى هذا الجام مائة لسان فقال مراقب خادمه يا أمير المؤمنين فيها اكثر من مائة وخمسين فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك فأخبره انه قام بأكثر من ألف درهم فرفع الرشيد يده وحلف ان لا يطعم شيأ دون أن يحضره مراقب ألف درهم فلما حضر المال أمر أن يتصدق به وقال ارجو أن يكون كفارة لسرفك فى انفاقك على جام سمك ألف درهم ثم ناول الجام بعض خدمه وقال أول سائل تراه فادفعه اليه قال ابراهيم وكان شراء الجام على الرشيد بمائتين وسبعين دينارا فغمزت بعض خدمى للخروج مع الخادم ليبتاع الجام ممن يصير اليه وفطن الرشيد فقال له يا غلام اذا دفعته الى سائل فقل له يقول لك أمير

المؤمنين

المؤمنين احذر أن تبيعه بأقل من مائتي دينار فانه خير منها ففعل الخادم ذلك فوالله ما امكن الخادم ان يخاصمه من السائل الا بمائتي دينار * وقال ابراهيم بن المهدي كنت انا والرشيد على ظهر حراقة وهو يريد نحو الموصل والملاّدون يمدون والشطرنج بين ايدينا فلما فرغنا قال لي الرشيد يا ابراهيم ما أحسن الاسماء قلت اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فما الثاني بعده قلت اسم هارون اسم أمير المؤمنين قال فما أسمجها قلت ابراهيم فزأرني وقال ويلك ابراهيم خليل الرحمن جل وعز قلت بشؤم هذا الاسم لقي ما لقي من نمرود قال وابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لاجرم لما سمي بهذا الاسم لم يعش قال فابراهيم الامام قلت بحرفة اسمه قتله مروان الجعدي في جراب النورة وأزيدك يا أمير المؤمنين ابراهيم بن الوليد خلع وابراهيم بن عبد الله بن الحسن قتل ولم اجد أحدا اسمي بهذا الاسم الا رأيته مقتولا أو مضروبا أو مطرودا فما انقضى كلامي حتى سمعت ملاحا على بعض الحراقات يهتف بأعلى صوته يا ابراهيم يا عاض كذا وكذا من امه مدّ فالتفت الى الرشيد فضحك حتى فحص برجله قال وكنت يوما عنده فاذا رسول عبد الله معه اطباق خيزران عليها مناديل ومعها كتاب فجعل الرشيد يقرأ الكتاب ويقول برّه الله ووصله ثم قال هذا عبد الله بن صالح ثم كشف المنديل فاذا بعضها فوق بعض في أحدها فستق وفي الآخر بندق الى غير ذلك من الفاكهة فقلت يا أمير المؤمنين ما في هذا البرّ ما يستحق به هذا الدعاء الا ان يكون في الكتاب شيء قد خفي عليّ فنبذه الي فاذا فيه دخلت يا أمير المؤمنين بستانا لي في داري عمرته بنعمتك وقد أينعت فواكهه فأخذت من كل شيء وصيرته في اطباق قضبان ووجهته الى أمير المؤمنين ليصل اليّ من بركة دعائه ما وصل اليّ من نوافل برّه قلت ولا والله ما في هذا أيضا ما يستحق به هذا فقال يا صبي أما ترى كيف كنى بالقضبان عن الخيزران اعظاما لاسم امنا رحمها الله تعالى ووقف رجل من بني امية في طريق الرشيد ومعه كتاب فيه

يا امين الله اني قائل * قول ذي لب وصدق وحسب
لكم الفضل علينا ولنا * بكم الفضل على كل العرب
عبد شمس كان يتلو هاشما * وهما بعد لأم ولأب
فصل الارحام منا انما * عبد شمس عم عبد المطلب

فأمر له لكل بيت بألف دينار وقال لو زدتنا لزدناك ودخل عبد الملك بن صالح على الرشيد فقال له الحاجب ان أمير المؤمنين قد أصيب في هذه الليلة بولد وولد له ولد فعزوهن فلما مثل قال يا أمير المؤمنين سرك الله فيما ساءك وجعل هذه لهذه ثوابا للصابر وجزاء للشاكر ولما اشتدت علته وصار الى طوس سنة ثلاث وتسعين ومائة هوّن عليه الاطباء علته فأرسل الى طبيب فارسي كان هنالك فأراه ماءه مع قوارير شتى فلما انتهى الى قارورته قال عرّفوا صاحب هذا الماء انه هالك فليوص فانه لا برء له من هذه العلة فبكى الرشيد وجعل يردد هذين البيتين

ان الطبيب بطبه ودوائه * لا يستطيع دفاع محذور أتى
ما للطبيب يموت بالداء الذي * كان يبرى مثله فيما مضى

واشتد ضعفه وأرجف الناس بموته فدعا بحمار ليركبه فلما صار عليه سقطت فخذاه فلم يثبت

على السرج فقال أنزلوني صدق المرجفون ثم دعا بأكفان فاختار منها ما اراد وأمر بحفر قبر فلما اطلع فيه قال ما اغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه ثم دعا بأخى رافع فقال ازعجتمونى حتى تجشمت هذه الاسفار مع علتى وضعفى وكان رافع ممن خرج عليه قال لاقتلنك قتلة ما قتل مثلها أحد قبلك ثم أمر ففصل عضوا عضوا واستأمن رافع بعد ذلك على المأمون وقد ذكرنا خبره فى غير هذا الكتاب ثم دعا من كان بعسكره من بنى هاشم فقال ان كل مخلوق ميت وكل جديد بال وقد نزل بى ما ترون وأنا أوصيكم بثلاث الحفظ لاماناتكم والنصيحة لائمتكم واجتماع كلمتكم وانظروا محمدا وعبد الله فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه وقبحوا له بغيه ونكثه وأقطع فى ذلك اليوم اموالا وضياعا قال الرياشى قال الاصمعى دخلت على الرشيد وهو ينظر فى كتاب ودموعه تحدر على خديه فظللت قائما حتى سكن وحانت منه التفاتة فقال اجلس يا اصمعى ارأيت ما كان قلت نعم يا أمير المؤمنين قال أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا ورمى بقرطاس فاذا فيه شعر لابى العتاهية بخط جليل وهو

هل أنت معتبر بمن خليت * منه غداة مضى دساكره

وبمن اذل الموت مصرعه * فتبرأت منه عشائره

وبمن خلت منه اسرته * وبمن خلت منه منابره

أين الملوك وأين غيرهم * صاروا مصيرا أنت صائره

يا مؤثر الدنيا بلذته * والمستعد لمن يفاخره

نل ما بدا لك ان تنال من الـ * ـدنيا فان الموت آخره

ثم قال الرشيد كانى والله اخاطب بذلك دون الناس فلم يلبث بعد ذلك الا يسيرا حتى مات (قال المسعودى) قد ذكرنا جملا من أخبار الرشيد والله ولى التوفيق

(فلنذكر الآن جملا من أخبار البرامكة)

لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده فى جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله لا يحيى فى رأيه ولا الفضل فى جوده ولا جعفر بن يحيى فى كتابته وفصاحته ولا محمد بن يحيى فى رأيه وهمته ولا موسى بن يحيى فى شجاعته وفيمن ذكرنا يقول الشاعر

أولاد يحيى بن خالد وهم * أربعة سيد ومتبوع

الخير فيهم اذا سألت بهم * مفرق فيهم ومجموع

ولما افضت الخلافة الى الرشيد استوزر البرامكة فاحتازوا الاموال دونه حتى كان يحتاج الى اليسير من المال فلا يقدر عليه وكان ايقاعه بهم فى سنة سبع وثمانين ومائة واختلف فى سبب ذلك فقيل احتيازا الاموال وأنهم اطلقوا رجلا من آل أبى طالب كان فى أيديهم وقيل غير ذلك والله اعلم (ويحكى) انه ورد على الرشيد يوما كتاب صاحب البريد بخراسان ويحيى بن خالد بين يديه يذكر فيه ان الفضل بن يحيى تشاغل بالصيد واللذات عن النظر فى امور الرعية فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى وقال له يا أبة اقرأ هذا الكتاب واكتب اليه كتابا يردعه عن مثل هذا فمد يده الى دواة الرشيد وكتب الى الفضل على ظهر كتاب الرشيد حفظك الله يا بنى وأمتع بك قد انتهى الى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة

اللذات عن النظر فى امور الرعية ما انكره فعاودما هو أرين بك فانه من عاد الى ما يزينه لم يعرفه أهل دهره الا به والسلام وكتب فى اسفله هذه الابيات

انصب نهارا فى طلاب العلا * واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى اذا الليل بدا مقبلا * واستترت فيه وجوه العيوب
فبادر الليل بما تشتهى * فانما الليل نهار الاريب
كم من فتى تحسبه ناسكا * يستقبل الليل بأمر عجيب
ألقى عليه الليل استاره * فبات فى لهو وعيش خصيب
ولذة الاحمق مكشوفة * يسعى بها كل عدو رقيب

والرشيد ينظر الى ما يكتب فلما فرغ قال ابلغت يا أبه فلما ورد الكتاب على الفضل لم يفارق المسجد نهارا الى ان انصرف عن عمله قال اسحاق كنت عند الرشيد يوما واحضر البرامكة الشراب وأحضر يحيى بن خالد جارية فغنت

ارقت حتى كانى اعشق الارقا * وذبت حتى كان السقم لى خلقا
وفاض دمعى على قلبى فاغرقه * يا من رأى غرقا فى الماء محترقا

فقال الرشيد لمن هذا فقيل لخالد بن يزيد الكاتب قال خالد فاحضرت وقيل للجارية أعيدى فاعادت فقال ان هذا فقلت لى يا أمير المؤمنين فبينا نحن كذلك اذ اقبلت وصيفة معها تفاحة عليها مكتوب بغالية

سرورك ألهاك عن موعدى * فصيرت تفاحتى تذكره

فأخذ الرشيد تفاحة وكتب عليها بغالية

تقاضيت وعدى ولم انسه * فتفاحتى هذه معذره

ثم قال يا خالد قل فى هذا شيأ فقال

تفاحة خرجت بالدر من فيها * اشهى الى من الدنيا وما فيها
بيضاء من حمرة غلت بغالية * كانما قطفت من خد مهديها

(حدث الجاحظ) عن انس بن أبى شيخ قال ركب جعفر بن يحيى ذات يوم وأمر خادما له ان يحمل ألف دينار وقال سأجعل طريقى على الاصمعى فاذا احدثنى فرأيتنى ضحكت فاجعلها بين يديه ونزل جعفر عند الاصمعى فجعل يحدثه بكل اعجوبة ونادرة تطرب وتضحك فلم يضحك وخرج من عنده فقال له انس رأيت منك عجبا أمرت بألف دينار للاصمعى وقد حركك بكل مضحكة وليس من عادتك ان ترد الى بيت مالك ما قد خرج عنه فقال له ويحك انه قد وصل اليه من أموالنا مائة ألف درهم قبل هذه المرة فرأيت فى داره حبا مكسورا وعليه دراعة خلق ومقعدا وسخا وكل شئ عنده رثا وأنا ارى ان لسان النعمة انطق من لسانه وأن ظهور الصنيعة امدح وأهجى من مدحه وهجائه فعلى أى وجه اعطيه اذا كانت الصنيعة لم تظهر عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه وفى الرشيد وجعفر يقول الشاعر

اضاف الى بيعته بيعة * فقام بها جعفر وحده
بنو برمك اسسوا ملكه * وشدوا اواخيه عقده

وكان يحيى بن خالد ذا بحث ونظر وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الاسلام وغيرهم من أهل النحل فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده قد أكثرتم الكلام فى الكمون والظهور والقدم والحدوث والاثبات والنفى والحركة والسكون والمماسة والمباينة والوجود والعدم والجر والطفرة والاجسام والاعراض والتعديل والتجريح والكمية والكيفية والمضاف والامامة انص هى ام اختيار وسائر ما توردونه من الكلام فى الاصول والفروع فقولوا الآن فى العشق على غير منازعة وليورد كل واحد منكم ماسنح له فيه وخطر بباله فقال على بن هيثم أيها الوزير العشق ثمر المشاكلة وهو دليل على تمازج الروحين وهو من بحر اللطافة ورقة الصنيعة وصفاء الجوهر والزيادة فيه نقصان من الجسد وقال أبو مالك الحضرمى وهو خارجى المذهب أيها الوزير العشق نفث السحر وهو أخفى وأحر من الجمر ولا يكون الا بازدواج الطبعين وامتزاج الشكلين وله نفوذ فى القلب كنفوذ صيب المزن فى خلال الرمل تنقاد له العقول وتستكين له الآراء وقال أبو الهذيل وهو مغربى أيها الوزير العشق يختم على النواظر ويطبع على الافئدة مرتعه فى الاجساد ومسرعه فى الاكباد وصاحبه منصرف الظنون متغير الاوهام لا يصفو له موجود ولا يسلم له موعود تسرع اليه النوائب وهو جرعة من نقيع الموت وبقية من حياض الثكل غير أنه من اريحية تكون فى الطبع وطلاوة توجد فى الشمائل وصاحبه جواد لا يصغو الى داعية المنع ولا يسنح به نازع العذل وقال النظام ابراهيم بن يسار المعتزلى العشق ارق من الشراب وأدب من الشباب وهو من طينة عطرة عجنت فى اناء الحلى حلو المجتنى ما اقتصد فاذا افرط عاد أصلا قاتلا وفسادا معضلا لا يطمع فى اصلاحه له سحابة غزيرة على القلوب فتعشب شغفا وتثمر كلفا وصريعه دائم اللوعة ضيق المتنفس مشارف الزمن طويل الفكر اذا جنه الليل ارق واذا وضحه النهار قلق صومه البلوى وافطاره الشكوى ثم قال الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومن يليهم حتى طال الكلام فى العشق بالفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب وفيما مر دليل عليه (قال المسعودى) تنازع الناس فى ابتداء وقوع الهوى وكيفيته وهل ذلك من نظر وسماع واختيار واضطرار وماعلة وقوعه بعد أن لم يكن وزواله بعد كونه وهل ذلك فعل النفس الناطقة أو الجسم وطباعه فقال بقراط هو امتزاج النفسين كما لو امتزج الماء بماء مثله عسر تخليصه بحيلة من الاحتيال والنفس ألطف من الماء وارق مسلكا فمن اجل ذلك لا تزيله الليالى ولا تخلقه الدهور دق عن الاوهام مسلكه وخفى عن الابصار موضعه غير أن ابتداء حركته من القلب ثم تسير الى سائر الاعضاء فتظهر الرعدة فى الاطراف والصفرة فى الالوان والحلجة فى الكلام والضعف فى الرأى حتى ينسب صاحبه الى النقص وذهب بعض الاطباء الى ان العشق طمع يتولد فى القلب وتجتمع اليه مواد الحكمة فاذا قوى زاد بصاحبه الاهتياج واللجاج والفكر والامانى ويبس الدماغ وذلك ان التمادى فى الطمع للدم محرق فاذا احترق استحال الى السوداء فاذا قويت جلبت الفكر فتستعلى الحرارة وتلتهب الصفراء ثم تستحيل الصفراء سوداء وتصير مادة لها فتقوى طباع السوداء فتختلط الكيموسات فحينئذ يشتد ما به فيموت أو يقتل نفسه وربما شهق فتخفى

روحه أربعا وعشرين ساعة فيظن انه مات فيصير حيا وربما تنفس الصعداء فتخفى روحه في تامور قلبه وينضم القلب ولا ينفرج حتى يموت وربما ارتاح وتشوق ونظر الى من يحب فجأة وقد يرى العاشق اذا سمع ذكر من يحب كيف يموت دمه ويحول لونه وقال بعضهم ان الله خلق كل روح مدورة على هيئة الكرة وجزأها انصافا وجعل كل نصف جسد فكل جسد لقى قسيمه وهو ذلك النصف من الكرة كان بينهما عشق المناسبة القديمة وقال نبينا صلى الله عليه وسلم الارواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وذهب قوم الى ما تعتقده العرب في ذلك ومنه قول جميل في بثينة

تعلق روحى روحها قبل خلقها * ومن قبل ما كنا نطافا وفى المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا * وليس وان متنا بمنتقض العهد
ولكنه باق على كل حالة * وزائرنا في ظلمة القبر واللحد

وقال جالينوس المحبة تقع بين العاقلين لتشاكلهما في العقل ولا تقع بين الاحمقين وان كانا شكلين في الحمق لان العقل يجرى على ترتيب فهما يجريان فيه على طريق واحدة والاحمق لا يجرى على ترتيب ولا يجوز أن يتفق فيه اثنان ولا يختلفان وقسم بعض العرب الهوى فقال

ثلاثة أحباب فحب علاقة * وحب تملاق وحب هو القتل

وقال الصوفية ببغداد ان الله عز وجل انما امتحن الناس بالهوى لياخذوا أنفسهم بطاعة من يهوونه ليشق عليهم سخطه ويسرهم رضاه فيستدلوا بذلك على قدر طاعة الله اذ كان لا مثل له ولا نظير فاذا أوجبوا على أنفسهم طاعة سواه كان تعالى احرى أن يتبع رضاه وللباطنية المتصوفة في هذا كلام كثير وقال افلاطون ما ادرى ما الهوى غير أنه جنون والهوى لا محمود ولا مذموم وكتب بعض الكتاب الى اخ له انى صادفت منك جوهر نفسى فأنا غير محمود على الانقياد اليك لان النفس يتبع بعضها بعضا وللناس ممن خلف وسلف من الفلاسفة والفلكيين والاسلاميين وغيرهم كلام كثير في العشق قد أتينا على ذلك في كتابنا أخبار الزمان من الامم الماضية والاجيال الخالية والممالك الدائرة وانما خرجنا عما بنا فيه آنفا من أخبار البرامكة عند ذكرنا العشق فتغلغل بنا الكلام الى ايراد لمع مما قيل في ذلك فلنرجع الآن الى ما كنا فيه من أخبارهم واتساق أيامهم وانتظامها لهم بالسعود ثم انعكاسها الى النحوس ذكر ذو معرفة بأخبار البرامكة انه لما بلغ جعفر بن يحيى بن خالد ابن برمك ويحيى بن خالد والفضل وغيرهم من آل برمك ما بلغوا في الملك وتناهوا في الرياسة واستقامت لهم الامور حتى قيل ان أيامهم عروس وسرور دائم لا يزول قال الرشيد لجعفر بن يحيى ويحك يا جعفر ليس في الارض طلعة أنا بها آنس ولا اليها اميل وأنا بها اشد استمتاعا وانساً منى برؤيتك وان للعباسة اختى منى موقعا ليس بدون ذلك وقد نظرت في أمرى معكما فوجدتنى لا اصبر عنك ولا عنها ورأيتنى ناقص الحظ والسرور منك يوم اكون معها وكذلك حكمى في يوم كونى معك دونها وقد رأيت شيأ يجتمع لى به السرور وتتكانف لى به اللذة والانس فقال وفقك الله يا أمير المؤمنين وعزم لك على الرشد في امورك كلها قال له الرشيد

قد زوجتكها لتزويجها لك به مجالستها والنظر اليها والاجتماع بها في مجلس انا معكما فيه فزوجه الرشيد بعد امتناع كان من جعفر اليه في ذلك وأبى فاشهد له من حضره من خدمه وخاصة مواليه وأخذ الرشيد عليه عهد الله ومواثيقه وغلظ ايمانه انه لا يخلو بها ولا يجلس معها ولا يظله واياها سقف بيت الا وأمير المؤمنين الرشيد ثالثهما فحلف له جعفر على ذلك ورضي به وألزمه نفسه وكانوا يجتمعون على هذه الحالة التي وصفنا وجعفر في ذلك صارف بصره عنها مزور بوجهه هيبة لامير المؤمنين ووفاء بعهده وايمانه ومواثيقه على ما وافقه الرشيد عليه وعلقته العباسة وأضمرت الاحتيال عليه وكتبت اليه رقعة فزال رسومها وتهددها وعادت فعاد بمثل ذلك فلما استحكم اليأس عليها قصدت لامه ولم تكن بالحازمة فاستمالتها بالهدايا من نفيس الجواهر والالطاف وما اشبه ذلك من كثرة المال وألطاف الملوك حتى اذا ظنت انها لها في الطاعة كالامة وفي النصيحة والاشفاق كالوالدة ألقت اليها طرفا من الامر الذي تريده وأعلمتها ما لها في ذلك من جزيل العاقبة وما لها من الفخر والشرف بمصاهرة أمير المؤمنين وأوهمتها ان هذا الأمر اذا وقع كان به امان لها ولولدها من زوال النعمة وسقوط مرتبته فاستجابت لها أم جعفر ووعدتها اعمال الحيلة في ذلك وأنها تلطف لها حتى تجمع بينهما فأقبلت على جعفر يوما فقالت له يا بني قد وصفت لي وصيفة في بعض القصور من تربية الملوك قد بلغت في الادب والمعرفة والظرف والحلاوة مع الجمال الرائع والقد البارع والخصال المحمودة ما لم ير مثله وقد عزمت على اشترائها لك وقد قرب الأمر بيني وبين مالكها فاستقبل كلامها بالقبول وعلقت قلبه وتطلعت اليها نفسه وجعلت تمطله حتى اشتد شوقه وقويت شهوته وهو في ذلك يلح عليها فلما علمت انه قد عجز عن الصبر واشتد به القلق قالت له انا مهديتها اليك ليلة كذا وكذا وبعثت الى العباسة فأعلمتها بذلك فتأهبت وسارت اليها تلك الليلة وانصرف جعفر من عند الرشيد وقد بقي في نفسه من الشراب فضلة لما عزم عليه فدخل منزله وسأل عن الجارية فخبر بمكانها فأدخلت على فتى سكران لم يكن بصورتها عالما ولا على خلقها واقفا فقام اليها فواقعها فلما قضى اليها حاجته قالت له كيف رأيت حيل بنات الملوك قال وأي بنات الملوك تعنين وهو يرى انها من بعض بنات الملوك فقالت انا مولاتك العباسة بنت المهدي فوثب فزعا قد زال عنه سكره وفارقه عقله فأقبل عليها وقال لقد بعتني بالثمن الرخيص وحملتني على المركب الوعر وانظري ما يؤول اليه حالي وانصرفت مشتملة منه على حمل ثم ولدت غلاما فوكلت به خادما من خدمها يقال له رياش وحاضنة تسمى برة فلما خافت ظهور الخبر وانتشاره وجهت الصبي والخادم والحاضنة الى مكة وأمرتهما بتربيته وطالت مدة جعفر وغلب هو وأبوه واخوته على أمر المملكة وكانت زبيدة من الرشيد بالمنزلة التي لا يتقدمها أحد من نظرائها وكان يحيى بن خالد لا يزال يتفقد أمر حرم الرشيد ويمنعهن من خدمة الخدم فشكت زبيدة الى الرشيد فقال ليحيى بن خالد يا أبت ما بال أم جعفر تشكوك فقال يا أمير المؤمنين امتهم انا في حرمك وتدبير منزلك عندك فقال لا والله فقال لا تقبل قولها قال الرشيد فلست اعاود فازداد يحيى لها منعا وعليها في ذلك غلظة وكان يأمر بقفل أبواب الحرم بالليل

ويمضي بالمفاتيح الى منزله فبلغ ذلك من أم جعفر كل مبلغ فدخلت ذات يوم على الرشيد فقالت يا أمير المؤمنين ما يحمل يحيى على ما لا تزال تفعل من منعه اياى من خدمي ووضعه اياى في غير موضعي فقال لها الرشيد يحيى عندى غير متهم في حرمي فقالت ان كان كذلك لحفظ ابنه مما ارتكبه فقال وماذاك نخبرته وقصت عليه قصة العباسة مع جعفر فسقط في يده وقال لها هل لك على ذلك من دليل وشاهد قالت وأى دليل ادل من الولد قالت وقد كان ههنا فلما خافت ظهور أمره وجهته الى مكة فقال لها فيعلم هذا أحد غيرك قالت ما في قصرك جارية الا وقد علمت به فأمسك على ذلك وطوى عليه كشحا وأظهر أنه يريد الحج نخرج هو وجعفر بن يحيى وكتبت العباسة الى الخادم والحاضنة ان يخرجا بالصبي الى اليمن فلما صار الرشيد الى مكة وكل من يثق به بالفحص والبحث عن أمره فوجد الأمر صحيحا فلما قضى حجه ورجع اضمر في البرامكة على ازالة نعمهم فأقام ببغداد مدة ثم خرج الى الانبار فلما كان في اليوم الذى عزم فيه على قتل جعفر دعا بالسندى بن شاهك فأمره بالمضى الى مدينة السلام والتوكيل بدور البرامكة ودور كتابهم وقراباتهم وان يجعل ذلك سرا من حيث لا يكلم أحدا حتى يصل الى بغداد ثم يفضى بذلك لمن يثق به من أهله وأعوانه فامتثل السندى ذلك وقعد الرشيد وجعفر عنده في موضع يعرف في الانبار بالقمر فأقاما يومهما بأحسن هيئة وأطيب عيش فلما انصرف جعفر من عنده خرج الرشيد حتى ركب مشيعا له ثم رجع فمضى جعفر الى منزله وفيه فضلة الشراب ودعا بابي بكار الاعمى الطنبورى وابن أبي نجيح كاتبه ومدت ستارة وجلس جواريه خلفها يضربن ويغنين وابن بكار يغنيه

ما تريد الناس منا * ما تنام الناس عنا
انما همتهم ان * يظهروا ما قد دفنا

وأمر الرشيد من ساعته ياسر خادمه المعروف بوخلة فقال له انى اندبك لأمر لم ار محمدا ولا القاسم له أهلا ولا موضعا ورأيتك به مستقلا ناهضا فحقق ظنى واحذر أن تخالفنى فقال يا أمير المؤمنين لو أمرتنى ان ادخل السيف في بطني واخرجه من ظهرى بين يديك لفعلت فمر بامرك فانى والله مسرع فقال ألست تعرف جعفر بن يحيى البرمكى قال يا امير المؤمنين وهل اعرف سواه أو ينكر مثل جعفر قال الم تر تشييعى اياه عند خروجه قال بلى قال فامض الساعة اليه فأتنى برأسه على أى حالة تجده عليها فارتج على ياسر الكلام وأخذته رعدة ووقف لا يحير جوابا فقال يا ياسر ألم اتقدم اليك بترك الخلاف على قال بلى يا أمير المؤمنين ولكن الخطب اجل من ذلك والأمر الذى ندبنى اليه أمير المؤمنين وددت لو أنى كنت مت قبل ان يجرى على يدى منه شئ فقال دع عنك هذا وامض لما قد أمرتك فمضى ياسر حتى دخل على جعفر وهو على حال لهوه فقال له ان أمير المؤمنين قد أمرنى فيك بكيت وكيت فقال جعفر ان أمير المؤمنين يمازحنى بأصناف من المزاح فاحسب ان هذا جنس منه فقال والله ما افتقدت من عقله شيأ ولا ظننته شرب خمرا في يومه مع ما رأيت من عبارته قال له فان لى عليك حقوقا لم تجد لها مكافأة وقتا من الاوقات الا هذا الوقت قال

تجدني الى ذلك سريعا الا فيما خالف أمير المؤمنين قال فارجع اليه فاعلمه انك قد نفذت ما أمرك به فان اصبح نادما كانت حياتي على يديك جارية وكانت لك عندي نعمة مجددة وان اصبح على مثل هذا الرأي نفذت ما أمرت به في غد قال ليس الى ذلك سبيل قال فأصير معك الى مضرب أمير المؤمنين حتى اقف بحيث أسمع كلامه ومراجعته اياك فاذا ابديت عذرا ولم يقنع الا بمصيرك اليه برأسي خرجت فأخذت رأسي من قرب قال له أما هذا فنعم فصارا جميعا الى مضرب الرشيد فدخل اليه ياسر فقال قد أخذت رأسه يا أمير المؤمنين وها هو ذا بالحضرة فقال له ائتني به والا والله قتلتك قبله فخرج فقال أسمعت الكلام قال نعم فشأنك وما امرت به فاخرج جعفر من كمه منديلا صغيرا فعصب به عينيه ومد رقبته فضربها وأدخل رأسه الى الرشيد فلما رأى الرأس بين يديه أقبل عليه وجعل يذكره بذنوبه ثم قال يا ياسر ائتني بفلان وفلان فلما أتى بهم قال لهم اضربوا عنق ياسر فاني لا اقدر أنظر الى قاتل جعفر وقال الاصمعي وجه الى الرشيد في تلك الليلة فلما دخلت اليه قال يا اصمعي قد قلت شعرا فاسمعه قلت نعم يا أمير المؤمنين فأنشد

لو ان جعفر هاب اسباب الردى * لنجا بمهجته طمر ملجم

ولكان من حذر المنون بحيث لا * يسمو اليه به الغراب القشعم

لكنه لما تقرب وقته * لم يدفع الحدثان عنه منجم

قال الاصمعي ورجعت الى منزلي فلم اصر اليه حتى تحدث الناس بقتل جعفر وأصيب على باب قصر علي بن عيسى بن ماهان بخراسان في صبيحة الليلة التي قتل فيها جعفر وأوقع بالبرامكة مكتوب بقلم جليل

ان المساكين بنو برمك * صبت عليهم غير الدهر

ان لنا في أمرهم عبرة * فليعتبر ساكن ذا القصر

(قال المسعودي) وكان مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم النضرة الحسنة من استخلاف هارون الرشيد الى ان قتل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك سبع عشرة سنة وسبعة اشهر وخمسة عشر يوما وقد رثتهم الشعراء فمن ذلك قول علي بن أبي معاذ

يا أيها المغتر بالدهر * والدهر ذو صرف وذو غدر

لا تأمن الدهر وصولاته * وكن من الدهر على حذر

ان كنت ذا جهل بتصريفه * فانظر الى المصلوب بالجسر

فان فيه عبرة فاعتبر * ياذا الحجى والعقل والفكر

وخذ من الدنيا معاشيها * واجر مع الدهر كما يجري

كان وزير القائم المرتضى * وذا الحجى والفضل والذكر

وكانت الدنيا بأقطارها * اليه في البر وفي البحر

يشيد الملك بآرائه * وكان فيه نافذ الامر

فبينما جعفر في ملكه * عشية الجمعة بالقصر

يطير في الدنيا بأجناحه * بأهل طول الخلد والعمر

اذ عثر الدهر به عثرة * ياويلنا من عثرة الدهر
وزلت النعل به زلة * كانت له قاصمة الظهر
فغودر البائس فى ليلة السبت قبيلا مطلع الفجر
وأصبح الفضل بن يحيى وقد * احيط بالشيخ ومايدرى
وجىء بالشيخ وأولاده * يحيى معا فى الغل والاسر
والبرمكيين وأتباعهم * من كان فى الآفاق والمصر
كأنما كانوا على موعد * كموعد الناس الى الحشر
وأصبحوا للناس احدوثة * سبحان ذى السلطان والامر

وقال

الى أن أرحنا واستراحت ركابنا * وأمسك من يجدى ومن كان يجتدى
فقل للمطايا قد أمنت من السرى * وطى الفيافى فدفدا بعد فدفد
ودونك سيفا برمكيا مهندا * اصيب بسيف هاشمى مهند

وقال فيهم سلم الخاسر

خوت انجم الجدوى وشلت يد الندى * وغاضت بحار الجود بعد البرامك
هوت انجم كانت لابناء برمك * بها يعرف الهادى طويل المسالك

وقال فيهم صالح الاعرابى

لقد خان هذا الدهر أبناء برمك * وأى ملوك لم تخنها دهورها
ألم يك يحيى والى الارض كلها * فأضحى كمن وارته منها قبورها

وقال فيهم أبو حزرة الاعرابى وقيل أبو نواس

مارمى الدهر آل برمك لما * ان رمى ملكهم بامر بديع
ان دهرا لم يرع حقا ليحيى * غير راع حقا لآل الربيع

وقال

يابنى برمك واها لكم * ولأيامكم المقبله

وقال اشجع فيهم

ولى عن الدنيا بنو برمك * فلو نوالى الناس مازادا
كأنما أيامهم كلها * كانت لاهل الارض اعيادا

وقال منصور اليمنى

ابدت بنى برمك لدنيا * تبكى عليهم بكل واد
كانت بهم برهة عروسا * فأضحت الارض فى حداد

وقال دعبل

ألم تر صرف الدهر فى آل برمك * وفى ابن نهيك والقرون التى تخلو

وقال اشجع فيهم أيضا

قد سار دهر بنى برمك * ولم يدع فيهم لنا القيا

كانوا أولى الخير وهم أهله * فارتفع الخير عن الدنيا

وقال الفضل بن يحيى وهو وأبوه فى السجن

الى الله فيما نابنا نرفع الشكوى * ففى يده كشف المضرة والبلوى

خرجنا من الدنيا ونحن من اهلها * فلا نحن فى الاموات فيها ولا الاحيا

اذا جاءنا السجان يوما لحاجة * عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

وكان الرشيد كثيرا ما ينشد بعد نكبة البرامكة

ان سهامنا اذا وقعت * لتعقد ما فعلوا بها رتبه

واذا ابدت للنمل اجنحة * حتى يطير فقد دنا عطبه

وقال محمد بن عبد الرحمن الهاشمى دخلت على والدتى يوم نحر فوجدتها وعندها برزة متكلمة فقالت لى اتعرف هذه قلت لا قالت هذه عبادة أم جعفر بن يحيى فأقبلت عليها بوجهى أحدثها واعظمها ثم قلت لها يا أمّاه ما اعجب ما رأيت فقالت يا بنى لقد أتى على عيد مثل هذا وأنا على رأسى أربعمائة وصيفة وانى اعدّ ابنى عاقا ولقد أتى على هذا العيد وما اتمنى سوى جلد شاتين أفترش أحدهما وألتحف الآخر قال فدفعت اليها خمسمائة درهم فكادت تموت فرحا بها ولم تزل تختلف الينا حتى فرّق الموت بيننا *(وحكى) عن بعض عمومة الرشيد أنه صار الى يحيى عند تغير الرشيد له قبل الايقاع بهم فقال له ان أمير المؤمنين قد أحب جمع الاموال وقد كثر ولده عليك وعلى أصحابك فلو نظرت الى ضياعهم وأموالهم فجعلتها لامير المؤمنين وتقربت بها رجوت ان يكون لك السلامة وان يرجع لك أمير المؤمنين فقال له يحيى والله لأن تزول النعمة عنى أحب الىّ من ان ازيلها عن قوم كنت سببها اليهم (وذكر) الخليل بن الهيثم وكان قد وكله الرشيد بيحيى والفضل فى الحبس قال أتانى مسرور الخادم ومعه جماعة من الخدم ومع خادم منهم منديل ملفوف فسبق الى نفسى ان الرشيد قد تعطف عليهم فوجه اليهم بلطف فقال لى مسرور أخرج الفضل بن يحيى فلما مثل بين يديه قال ان أمير المؤمنين يقول لك انى قد أمرتك ان تصدقنى عن اموالكم فزعمت انك قد فعلت وقد صح عندى انك أبقيت لك أموالا وقد أمرت مسرورا ان لم تطلعه عليها ان يضربك مائتى سوط فقال له الفضل فعلت والله يا أبا هاشم فقال له مسرور يا أبا العباس ارى لك ان لا تؤثر مالك على مهجتك فانى لا آمن ان انفذ ما امرت به فيك ان آتى على نفسك فرفع الفضل رأسه الى السماء وقال له يا أبا هاشم ما كذبت أمير المؤمنين ولو كانت الدنيا لى وخيرت بين الخروج منها وبين ان اقرع مقرعة لاخترت الخروج منها وأمير المؤمنين يعلم وأنت تعلم انا كنا نصون اعراضنا بأموالنا وكيف صرنا اليوم نصون اموالنا منكم بأنفسنا فان كنت أمرت بشئ فامض له فأمر بالمنديل فنفض فسقط منه اسواط باثمارها فضرب مائتى سوط وتولى ضربه أولئك الخدم فضربوه اشد الضرب الذى يكون بغير معرفة فكادوا يأتون على نفسه فخفنا عليه الموت فقال الخليل بن الهيثم لوكيله المعروف بابن يحيى ان هنا رجلا قد كان فى الحبس وهو بصير بالعلاج لمثل هذا أو شبهه فسر اليه واسأله ان يعالجه قال فانسب اليه ذلك قال لعلك تريد أن تعالج الفضل بن يحيى فقد بلغنى ما صنع به

فقلت أياه اريد قال فامض بنا اليه حتى اعالجه فلما رآه قال أحسبه ضربه خمسين سوطا قال انه ضرب مائتي سوط قال ما أظن الا أن هذا اثر خمسين سوطا ولكن يحتاج ان ينام على بارية وأدوس صدره ساعة فأخذ بيده فجذبه حتى أقامه وقد خرج الفضل ثم جاء به فألقاه على البارية وجعل يدوس صدره ثم جذبه حتى اقامه على البارية فتعلق بها من لحم ظهره شئ كثير ثم جعل يختلف اليه ويعالجه الى ان نظر يوما اليه فخر ساجدا فقلت مالك فقال يا أبا يحيى قد برئ أبو العباس ادن مني حتى ترى قال فدنوت منه فأراني في ظهره لحما نابتا ثم قال أتحفظ قولي هذا أثر خمسين سوطا قلت نعم قال والله لو ضربت ألف سوط ما كان أثرها بأشد من ذلك الأثر وانما قلت ذلك لكي تقوى نفسه فيعينني على علاجه فلما خرج الرجل قال لي الفضل يا أبا يحيى قد احتجت عشرة آلاف درهم فصر الى المعروف بالسناني وأعلمه حاجتي اليها قال فأتيته بالرسالة فأمر بحملها اليه فقال يا أبا يحيى أحب ان تمضي بها الى هذا الرجل وتعتذر اليه وتسأله قبول ما وجهت به قال فمضيت اليه فوجدته قاعدا على حصير وطنبور له معلق ودساتيج فيها نبيذ وأداة رثة فقال ما حاجتك يا أبا يحيى فأقبلت اعتذر عن الفضل وأذكر ضيق الأمر عليه وأعلمه بما وجه به اليه فامتعض من ذلك حتى افزعني وقال عشرة آلاف درهم فجهدت كل الجهد أن يقبلها فأبى فصرت الى الفضل فأعلمته فقال لي استقلها والله ثم قال لي الفضل أحب أن تعود الى السناني ثانية وتعلمه انى احتجت الى عشرة آلاف درهم اخرى فاذا دفعها اليك فسر بالكل الى الرجل قال فقبضت من السناني عشرة آلاف اخرى ورجعت الى الرجل ومعي المال وعرفته الخبر فأبى ان يقبل شيأ منه فقال انا اعالج فتى من الابناء بعدا اذهب عني فوالله لو كانت عشرون ألف دينار ما قبلتها فرجعت الى الفضل وأخبرته الخبر فقال لي يا أبا يحيى حدثني بأحسن ما رأيت أو بلغك من افعالنا قال فجعلت احدثه فقال لي دع عنك هذا فوالله ان ما فعله هذا الرجل أحسن من كل ما فعلناه في أيامنا كلها * وقتل جعفر بن يحيى وهو ابن خمس وأربعين سنة ومات يحيى بالرقة في سنة تسع وثمانين ومائة على ما قدمنا (قال المسعودي) وللبرامكة أخبار حسان وسير وقد قدمنا ذكرها فيما سلف من كتبنا في ذكر أخبار ملوك الروم بعد ظهور الاسلام وما كان بينه وبين يعفور فيما تقدم من هذا الكتاب وللبرامكة أخبار حسان وما كان منهم من الافضال بالمعروف واصطناع المكارم وغير ذلك من عجائب أخبارهم وسيرهم وما مدحتهم الشعراء به ومراثيهم وقد أتينا على جميع ذلك في كتابنا أخبار الزمان والكتاب الاوسط وانما نورد في هذا الكتاب لمعا من الاخبار لم يتقدم لها ايراد في غيره من كتبنا وكذلك ذكر بدء أخبارهم قبل ظهور الاسلام وكونهم على بيت النوبهار وهو بيت النار ببلخ المقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب وعلة تسمية برمك وخبر برمك الاكبر مع ملوك الترك وخبرهم بعد ظهور الاسلام وما كان منهم في أيام بني امية كهشام بن عبد الملك وغيره وما كان منهم في أيام المنصور وا كتفينا بما ذكرناه في هذا الكتاب من التلويحات من أخبارهم واللمع من آثارهم

(ذكر خلافة محمد الامين)

وبويع محمد بن هارون في اليوم الذي مات فيه هارون الرشيد وهو يوم السبت لاربع ليال خلون من جمادى الاولى بطوس سنة ثلاث وتسعين ومائة وتقدم ببيعته رجا الخادم وكان القيم ببيعته الفضل بن الربيع وكان محمد يكنى بأبي موسى وأمه زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر وكان مولده بالرصافة وقتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وثلاثة عشر يوما ودفنت جثته ببغداد وحمل رأسه الى خراسان وكانت خلافته أربع سنين وستة اشهر وكان اصغر من المأمون بستة اشهر وكانت أيامه من خلعه الى مقتله سنة ونصفا وثلاثة عشر يوما حبس فيها يومين

(وذكر جملا من أخباره وسيره ولمعا مما كان في أيامه)

قبض الرشيد والمأمون بمرو وبعث صالح بن الرشيد رجا الخادم مولى محمد الامين الى محمد فاتاه بالخبر في اثني عشر يوما الى مدينة السلام يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة (وذكر) العتبي وغيره ان زبيدة رأت في المنام ليلة علقت بمحمد كأن ثلاث نسوة دخلن عليها وهي بمجلس فقعد اثنتان عن يمينها وواحدة عن يسارها فدنت احداهن فجعلت يدها على بطن أم جعفر ثم قالت ملك عظيم البذل ثقيل الحمل نكد الأمر ثم فعلت الثانية كما فعلت الاولى وقالت ملك ناقص الجد مفلول الحد ممذوق الود تجوز أحكامه وتخونه أيامه ثم فعلت الثالثة كما فعلت الثانية وقالت قصاف عظيم الايلاف كثير الخلاف قليل الانصاف قالت فاستيقظت وأنا فزعة فلما كان في الليلة التي وضعت فيها محمدا دخلن علي وأنا نائمة كما كن دخلن فقعدن عند رأسي ونظرن في وجهي ثم قالت أحداهن شجرة نضرة وريحانة حسنة وروضة زاهرة ثم قالت الثانية عين غدقة قليل لبثها سريع فناؤها عجل ذهابها وقالت الثالثة عدو لنفسه ضعيف في بطشه سريع الى غشه مزال عن عرشه فاستيقظت وأنا فزعة بذلك وأخبرت بذلك بعض قهارمتي فقالت بعض مايطرق النائم وعبث من عبث التوابع فلما تم فصاله أخذت مرقدي ومحمد أمامي في مهده اذ بهن قد وقفن على رأسي وأقبلن على ولدي محمد فقالت احداهن ملك جبار متلاف مهذار بعيد الآثار سريع العثار ثم قالت الثانية ناطق مخصوم ومحارب مهزوم وراغب محروم وشقي مهموم وقالت الثالثة احفروا قبره ثم شقوا لحده وقدموا اكفانه وأعدوا جهازه فان موته خير من حياته قالت فاستيقظت وأنا مضطربة وجلة وسألت مفسري الاحلام والمنجمين فكل يخبرني بسعادته وحياته وطول عمره وقلبي يأبى ذلك ثم زجرت نفسي وقلت وهل يدفع القدر أو يقدر أحد أن يدفع عن احبابه الاجل (ومات أبو بكر بن عياش) الكوفي وهو ابن ثمان وتسعين سنة بعد موت الرشيد بثماني عشرة ليلة ولما هم محمد بخلع المأمون شاور عبد الله بن حازم فقال له انشدك الله يا أمير المؤمنين ان لا تكون أول الخلفاء نكث عهده ونقض ميثاقه واستخف بيمينه فقال اسكت لله أبوك فعبد الملك بن صالح كان افضل منك رأيا حيث يقول لا يجتمع فحلان في أجمة وجمع القواد وشاورهم فاتبعوه في مراده الى ان بلغ الى هرثمة بن حازم فقال يا أمير المؤمنين لن ينصحك من كذبك ولن يغشك من صدقك ولا تجرئ القواد على الخلع فيخلعوك ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك فان الغادر مخذول

والناكث مغلولا ودخل على بن عيسى بن ماهان فتبسم محمد وقال تمكن شيخ هذه الدعوة وباب هذه الدولة لا يخالف امامه ولا يوهن طاعته ثم رفعه الى موضع ما رفعه اليه فيما مضى وكان على بن عيسى أول من أجاب الى خلع المأمون فسيره فى جيش عظيم نحو المأمون فلما قرب من الرى قيل له ان طاهر بن الحسين مقيم بها وقد كان يظن ان طاهرا لا يثبت له فقال ما طاهر الا شوكة من اغصانى وشرارة من نارى وما مثل طاهر يؤمر على جيش وما بينه وبين الامين الان تقع عينه على سوادكم فان السخال لا تقوى على نطاح الكباش والثعالب لا تقدر على لقاء الاسد فقال له ابنه ابعث طلائع وارتد موضعا لعسكرك فقال ليس طاهر يستعد له بالمكايد والتحفظ ان حال طاهر يؤدى الى أمرين اما ان يتحصن بالرى فيثب به أهلها أو يكفونا مؤنته أو يخليها ويدبر راجعا لو قد قربت خيولنا منه فقال له ابنه ان الشرارة ربما صارت ضراما فقال ان طاهرا ليس قرنا فى هذا الموضع وانما يحترس الرجال من اقرانها وسار على بن عيسى وبث عساكره من الرى وتبين ما عليه طاهر من الجد وأهبة الحرب وضم الاطراف فعدل الى رستاق من رساتيق الرى متياسرا عن الطريق فنزل وانبسطت عساكره وأقبل طاهر فى نحو من أربعة آلاف فارس فاشرف على عساكر على بن عيسى وتبين كثرتها وعدة ما فيها فعلم ان لا طاقة له بذلك الجيش فقال لخواصه ومن معه نجعلها خارجية وكردس خيله كراديس وصمد فى نحو القلب فى سبعمائة من الخوارزمية وغيرهم من فرسان خراسان وخرج اليه من القلب العباس بن الليث مولى العهد وكان فارسا فقصده طاهر وضم يديه على سيفه فاتى عليه وكان على على برذون كيت ارجل وتمالأ على رأسه الرجال وتنازعوا فى خاتمه ورأسه فذبحه رجل يعرف بطاهر بن الراجى وقبض آخر على خصلة من شعر لحيته وآخر على خاتمه وكان سبب هزيمة الجيش ضربة طاهر بيديه جميعا للعباس بن الليث وبذلك سمى طاهر ذا اليمينين لجمعه يديه على السيف (وذكر) أحمد بن هشام وكان من وجوه القواد قال جئت الى مضرب طاهر وقد توهم انى قتلت فى المعركة ومعى رأس على فقال البشرى هذه خصلة من رأس على مع غلامى فى المخلاة فطرحه قدامه ثم أتى بجثته وقد شدت يداه ورجلاه كما يفعل بالدواب اذا ماتت فأمر به طاهر فالقى فى بئر وكتب الى ذى الرياستين فكان فى الكتاب اطال الله بقاءك وكبت اعداءك كتابى اليك ورأس على بن عيسى بين يدى وخاتمه فى اصبعى والحمد لله رب العالمين فسر المأمون بذلك وسلم عليه فى ذلك الوقت بالخلافة وقد كانت أم جعفر لا تعلق من الرشيد فشاور بعض مجالسيه من الحكماء وشكا ذلك اليه فاشار عليه بان يغيرها فان ابراهيم الخليل عليه السلام كانت عنده سارة فلم تكن تعلق منه فلما وهبت له هاجر علقت منه باسماعيل فغارت سارة عند ذلك فعلقت باسحاق فاشترى الرشيد أم المأمون فاستخلاها فعلقت بالمأمون فغارت أم جعفر عند ذلك فعلقت بمحمد وقد قدمنا التنازع فى ذلك أعنى قصص ابراهيم واسماعيل واسحاق وقول من ذهب الى ان اسحاق هو المأمور بذبحه ومن قال بل اسماعيل وما ذكر كل فريق منهم وقد تناظر فى ذلك السلف والخلف فمن ذلك ما جرى بين عبد الله بن عباس وبين مولاه عكرمة وقد قال عكرمة من المأمور بذبحه فقال اسماعيل واحتج بقول الله عز وجل ومن وراء اسحق يعقوب

الا ترى انه بشر ابراهيم بولادة اسحاق فكيف يأمره بذبحه فقال له عكرمة انا أوأخذك ان الذبيح اسحاق من القرآن واحتج بقول الله عز وجل "وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على ابويك من قبل ابراهيم واسحق فنعمته على ابراهيم أن نجاه من النار ونعمته على اسحق أن فداه بالذبح وكانت وفاة عكرمة مولى ابن العباس سنة خمس ومائة ويكنى أباعبد الله مات في اليوم الذي مات فيه كثير عزة فقال الناس مات عظيم الفقهاء وكبير الشعراء وفيها كانت وفاة الشعبي (وحدث) ابراهيم بن المهدي قال بعث الى الامين وهو محاصر فصرت اليه فاذا هو جالس في طارمة خشبها من عود وصندل عشرة في عشرة واذا سليمان بن أبي جعفر المنصور معه في الطارمة وهي قبة كان اتخذها فراشا مبطنا بانواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الاحمر وغير ذلك من أنواع الابريسم فسلمت فاذا قدامه قدح بلور محروز فيه شراب ينفذ مقداره خمسة ارطال وبين يدي سليمان قدح مثله فجلست بازاء سليمان فأتيت بقدح كالاول والثاني قال فقال انما بعثت اليكما لما بلغني قدوم طاهر بن الحسين الى النهروان وما قد صنع في أمرنا من المكروه وقابلنا به من الاساءة فدعوتكما لافرج بكما وبحديثكما فاقبلنا نحدثه ونؤنسه حتى سلا عما كان يجده وفرح ودعا بجارية من خواص جواريه تسمى ضعفا قال فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال فقال لها غنينا فوضعت العود في حجرها وغنت

كليب لعمري كان اكثر ناصرا * واكثر جرما منك ضرج بالدم

فتطير من قولها ثم قال لها اسكتي قبحك الله ثم عاد الى ما كان عليه من الغم والاقطاب فاقبلنا نحادثه ونبسطه الى ان سلا وضحك ثم اقبل عليها وقال هات ما عندك فغنت

هم قتلوه كي يكونوا مكانه * كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

فأسكتها وزأرها وعاد الى الحالة الاولى فسليناه حتى عاد الى الضحك فاقبل عليها الثالثة فقال غني فغنت

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * انيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالي والجدود العواثر

وقيل بل انها غنت

أما ورب السكون والحرك * ان المنايا كثيرة الشرك

فقال لها قومي عني فعل الله بك وصنع بك فقامت فعثرت بالقدح الذي كان بين يديه فكسرته فانهرق الشراب وكانت ليلة قمراء ونحن على شاطئ دجلة في قصره المعروف بالخلد فسمعنا قائلا يقول قضي الأمر الذي فيه تستفتيان قال ابن المهدي فقمت وقد وثب فسمعت منشدا من ناحية القصر ينشد هذين البيتين

لا تعجبن من العجب * قد جاء ما يقضي العجب
قد جاء أمر فادح * فيه لذي عجب عجب

قال فما قمنا معه بعدها الى ان قتل وكان الامين مولعا بام ولده فطم وهي أم موسى الذي كان سماه الناطق بالحق واراد خلع المأمون والعقد له من بعده فهلكت ام موسى فطم فجزع عليها

جزعا شديدا فلما اتصل الخبر بام جعفر زبيدة قالت احملونى الى أمير المؤمنين فحملت اليه فاستقبلها وقال ياسيدتى ماتت فطم فقالت

نفسى فداؤك لا يذهب بك اللهف * ففى بقائك مما قد مضى خلف
عوضت موسى فهانت كل مرزية * مابعد موسى على مفقودة اسف

(وذكر) ابراهيم بن المهدى قال استاذنت على الامين يوما وقد اشتد الحصار عليه من كل وجه فابوا ان ياذنوا لى بالدخول عليه الى ان كاثرت ودخلت فاذا هو قد تطلع الى دجله بالشباك وكان فى وسط قصره بركة عظيمة لها مخترق الى الماء فى دجلة وفى المخترق شباك حديد فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم والغلمان قد انتشروا الى تفتيش الماء وهو كالواله فقال لى وقد ثنيت بالسلام وكررت لا تؤذونى فقرطتى قد ذهبت فى البركة الى دجلة والمقرطة سمكة كانت قد صيدت له وهى صغيرة فقرطها حلقتين من ذهب فيهما حبتا در قال فخرجت وانا مؤيس من فلاحه وقلت لو ارتدع من وقت لكان هذا الوقت وكان محمد فى نهاية الشدة والقوة والبطش والبها والجمال الا أنه كان عاجز الرأى ضعيف التدبير غير مفكر فى أمره (وحكى) انه اصطبح يوما وقد كان خرج أصحاب اللبابيد والحراب على البغال وهم الذين كانوا يصطادون السباع الى سبع كان بلغهم خبره بناحية كوثى والقصر فاحتالوا فى السبع الى أن أتوا به فى قفص من خشب على جمل بختى فحط بباب القصر وأدخل فنزل فى صحن القصر والامين مصطبح فقال خلوا عنه وشيلوا باب القفص فقيل له يا أمير المؤمنين انه سبع هائل اسود وحش فقال خلوا عنه فشالوا باب القفص فخرج سبع اسود له شعر عظيم مثل الثور فزأر وضرب بذنبه الى الارض فتهارب الناس وغلقت الابواب فى وجهه وبقى الامين وحده جالسا موضعه غير مكترث بالاسد فقصده الاسد حتى دنا منه فضرب الامين بيده الى مرفقة ارمنية فامتنع منه بها ومد السبع يده اليه فجذبها الامين وقبض على اصل اذنيه وغمزه ثم هزه ودفع به الى خلف فوقع السبع ميتا على مؤخره وبادر الناس الامين فاذا اصابعه ومفاصل يديه قد زالت عن مواضعها فأتى بجبر فرد عظام أصابعه الى مواضعها وجلس كأنه لم يعمل شيأ فشقوا بطن الاسد فاذا مرارته انشقت عن كبده (وحكى) ان المنصور) جلس ذات يوم ودخل اليه بنوهاشم من أهله فقال لهم وهو مستبشر أما علمتم ان محمدا المهدى ولد البارحة له ولد ذكر وقد سميناه موسى فلما سمع القوم ذلك وجموا وكأنما سفى فى وجوههم الرماد ولم يحيروا جوابا فنظر اليهم المنصور فقال لهم هذا موضع دعاء وتهنئة وأراكم قد سكتم ثم استرجع فقال كأنى بكم لما أخبرتكم بتسميتى اياه موسى اغتممتم به لان المولود المسمى بموسى بن محمد هو الذى على رأسه تختلف الكلمة وتنتهب الخزائن ويضطرب الملك ويقتل أبوه وهو المخلوع من الخلافة ليس هو ذاك ولا هذا زمانه والله ان جد هذا المولود يعنى هارون الرشيد لم يولد بعد قال فدعوا له وهنوه وهنوا المهدى وكان هذا موسى الهادى أخا الرشيد وكان العهد الذى كتبه الرشيد بين الامين والمامون وأودعه الكعبة ان الغادر منهما خارج من الامر ايهما غدر بصاحبه والخلافة للمغدور به (وذكر ياسر) انه لما احيط بمحمد دخلت أم جعفر باكية فقال لها امه انه ليس بجزع النساء

وهلعهن عقدت التيجان والخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع ووراء ذلك ورا. ويقال ان محمدا اقصف عند طاهر فبينا طاهر في بستانه اذ ورد كتاب من محمد بخطه فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم اعلم انه ما قام لنا مذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه الا السيف فانظر لنفسك أودع قال فلم يزل والله يتبين موقع الكتاب من طاهر فلما رجع الى خراسان اخرجه الى خاصته وقال اهم والله ما هذا كتاب مضعوف ولكنه كتاب مخذول ولم يكن فيمن سلف من الخلفاء الى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة من أبوه وأمه من بني هاشم الاعلى بن أبي طالب كرم الله وجهه ومحمد ابن زبيدة وفي محمد ابن زبيدة يقول أبو الهذيل

ملك أبوه وامه من نبعة * منها سراج الامة الوهاج
شربت بمكة من ذرى بطحائها * ماء النبوة ليس فيه مزاج

وفي سنة سبع وتسعين ومائة كان ابتداؤه بالغدر بالمأمون وفي سنة سبع وتسعين ومائة مات بالرقة عبد الملك بن صالح بن علي في أيام الامين وكان عبد الملك افصح ولد العباس في عصره ويقال ان الرشيد لما أجتاز ببلاد منبج من أرض الشام نظر الى قصر مشيد وبستان مغتم بالاشجار كثير الثمار فقال لمن هذا القصر قال لك ولي بك يا أمير المؤمنين قال فكيف بناء القصر قال دون منازلك وفوق منازل الناس قال فكيف مدينتك قال عذبة الماء باردة الهواء صلبة الموطا قليلة الادواء قال كيف ليلها قال سحر كله وقال له يا أبا عبد الرحمن ما أحسن بلادكم قال فكيف لا يكون كذلك وهي تربة حمراء وسنبلة صفراء وشجرة خضراء فيافي فسيح وجبال وصيح بين قيصوم وشيح فالتفت الرشيد الى الفضل بن الربيع فقال ضرب السياط اهون علي من هذا الكلام ولما سمى محمد ابنه الناطق بالحق وأخذ له العهد على الناس الفضل بن الربيع وزفر وموسى يومئذ لا ينطق بامر ولا يعرف حسنا ولا يعقل قبيحا ولا يخلو من الحاجة الى من يخدمه في ليله ونهاره ويقظته وقيامه وقعوده واحضنه علي بن عيسى بن هامان قال في ذلك رجل اعمى من أهل بغداد يعرف بعلي بن أبي طالب

اضاع الخلافة غش الوزير * وفعل الامام ورأى المشير
وما ذاك الا طريقا غرور * وشر المسالك طرق الغرور
فعال الخليفة اعجوبة * واعجب منه فعال الوزير
واعجب من ذا وذا أننا * نبايع للطفل فينا الصغير
ومن ليس يحسن مسح أنفه * ومن لم يخل من متنه حجر ظير
وما ذاك الا باغ وغاو * يريدان نقض الكتاب المنير
وهذان لولا انقلاب الزمان * في العير هذان أم في النفير
ولكنها فتن كالجبال * ترفع فيها بضع الحقير

ولما قتل طاهر بن الحسين علي بن عيسى بن ماهان سار فنزل حلوان وذلك على خمسة أيام من مدينة السلام فتعجب الناس من أمره وادبار أصحاب الامين وهزيمتهم في كل حال وايقنوا بقتله وظهور المامون واسقط في يدي الفضل بن الربيع وأصحابه فقال الشاعر

عجبت لمعشر يرجون نجحا * لأمر ماتتم به الامور

وكيف يتم ما عقدوا وراموا * وأس بنائهم منه الفجور
أهاب الى الضلال بهم غوى * وشيطان مواعده غرور
يصيب بهم ويلعب كل لعب * كما لعبت بشاربها الخمور
وكادوا الحق والمأمون غدرا * وليس بمفلح أبدا غرور
هو العدل النجيب البر فينا * تضمن حبه منا الصدور
وعاقبة الامور له يقينا * به شهد الشريعة والزبور
فملك أربعين لها وفاء * يتم به الاهلة والشهور
فكيدوا أجمعين بكل كيد * وكيدكم له فيه السرور

وبلغ محمدا تجمع قواده عند ما ظهر من أمر طاهر وشاورهم وقال أحضروا الى عنا كم كما أحضرت خراسان لعبد الله عناها وكانت كما قال اعشى ربيعة

ثم ماهابوا ولكن قدموا * كبش غارات اذا لاقى نطح

أما والله لقد حدثت بحديث الامم السالفة وقرأت كتب حروبها وقصص من اقام دولها فما رأيت في حديثهم حديثا لرجل منهم وأبي كهذا الرجل في اقدامه وسياسته وقد قصدني واجترأ على وعلى الهامة العظيمة من الجند وجمع القواد وساسة الحروب فهاتوا ما عندكم فقالوا يقي الله أمير المؤمنين ويكفيه كما كفى الخلفاء قبله بغي من بغى عليهم ولما انهزم جيش محمد بين يدي طاهر ولم يقم له قائمة منهم قال سليمان بن أبي جعفر لعن الله الغدار ماذا جلب على الامة بغدره وسوء رأيه وأبعد الله نسبه أهل الفضل لاسرع ما انتصر الله للمأمون بكبش المشرق وفي ذلك يقول الشاعر

تبا لذي الايام والمتزندق * ماذا دعاه الى العظيم الموثق
والغدر بالبر الزكي أخي التقى * والسائس المأمون غير الاخرق
زين الخلافة والامامة والنهى * أهل السماحة والندى المتدفق
ان تغدروا جهلا بوارث أحمد * ووصي كل مسدد وموفق
فالله للمأمون خير موازر * والماجد القمقام كبش المشرق

ولما احيط بمحمد من الجانب الشرقي والغربي وكان هرثمة بن اعين نازلا مما يلي النهروان بالقرب من باب خراسان وثلاثة أبوابه وطاهر من الجانب الغربي مما يلي الناشرية وباب المحول والكناس جمع قواده فقال الحمد لله الذي يضع من يشاء بقدرته ويرفع والحمد لله الذي يعطي بقدرته من يشاء ويمنع والحمد لله الذي يقبض ويبسط واليه المصير أحمده على نوائب الزمان وخذلان الاعوان وتشتت الحال وكسوف البال وصلى الله على رسوله وآله وسلم وقال اني لأفارقكم بقلب موجع ونفس حزينة وحسرة عظيمة اني محتال لنفسي فأسأل الله ان يلطف بي بمعونته ثم كتب الى طاهر أما بعد فانك نصحت فنصحت وحاربت فنصرت وقد يغلب الغالب ويخذل المفلح وقد رأيت الصلاح في معاونة أخي والخروج اليه من هذا السلطان اذ كان أولى به وأحق فأعطني الامان على نفسي وولدي وأمي وجدتي وحاشيتي وانصاري واخواني أخرج اليه وهذا الأمر الى أخي فان رأى الوفاء لي بأمانك

والا كان اولى وأحق قال فلما قرأ طاهر الكتاب قال الآن ضيق خناقه وهيض جناحه وانهزم فساقه لا والذى نفسى بيده حتى يضع يده فى يدى وينزل على حكمى فعند ذلك كتب الى هرثمة يسأله النزول على حكم امانه وقد كان المخلوع جهز جماعة من رجاله من الابناء وغيرهم ممن استأمن اليه لدفع المأمونية عنده فمالوا نحو هرثمة وكان طاهر يمدّ هرثمة بالرجال ولم يلق هرثمة مع ذلك كثير كيد فلما مال من ذكرنا الى حرب هرثمة وعلى الجيش بشر وبشر الازدمان وانفض الجمع وكان طاهر قد نزل فى البستان المعروف بباب الكناس بالطاهرى ففى ذلك يقول بعض العيارين من أهل بغداد ومن أهل السجون

انا من طاهر يوم * عظيم الشأن والخطب
علينا فيه بالانجاد * عن هرثمة الكلب
رمنا لأبى الطيب * يوم صادق الكرب
أتاه كل كرّار * ولص كان ذا نقب
وعريان على جنبيه * آثار من الضرب
اذا ما حل من شرق * أتيناه من الغرب

وضاق الأمر بمحمد الامين ففرق فى قوّاده المحدثين دون غيرهم خمسمائة ألف درهم وقارورة غالية ولم يعط قدماء أصحابه شيأ فأتت طاهرا عيونه وجواسيسه بذلك فراسلهم وكاتبهم ووعدهم ومناهم وأغرى الاصاغر بالقادة حتى غضبوا لذلك وسعوا على الامين وقال بعضهم

قل لامين الناس فى نفسه * ماشتت الجند سوى الغاليه
وطاهر نفسى فدا طاهر * برسله والعدّة الكافيه
اضحى زمان الملك فى كفه * مقابلا للفئة الباغيه
قد جاءك الليث بسيدانه * مستكلبا فى أسد ضاريه
فاهرب فلا مهرب من مثله * حقا الى النار أو الهاويه

وانتقل طاهر من الناشرية فنزل بباب الانبار وحاصر أهل بغداد وغادى القتال وراوحه حتى تواكل الفريقان وخربت الديار وعفت الآثار وغلت الاسعار. وذلك فى سنة ست وتسعين ومائة وقاتل الاخ اخاه والابن اباه هؤلاء محمدية وهؤلاء مامونية وهدمت المنازل وأحرقت الديار وانتهبت الاموال فقال الاعمى فى ذلك

تقطعت الارحام بين العشائر * وأسلمهم أهل التقى والبصائر
فذاك انتقام الله من خلقه بهم * لما اجترموه من ركوب الكبائر
فلا نحن اظهرنا من الذنب توبة * ولا نحن اصلحنا فساد السرائر
ولا نستمع من واعظ ومذكر * فينجع فينا وعظ ناه وآمر
فابك على الاسلام لما تقطعت * رجاه ورجى خيرها كل كافر
فأصبح بعض الناس يقتل بعضهم * فمن بين مقهور عزيز وقاهر
وصار رئيس القوم يحمل نفسه * وصار رئيسا فيهم كل شاطر

فلا

ولا فاجر للبر يحفظ حرمة * ولا يستطيع البر دفعا لفاجر
تراهم كامثال الذئاب رأت دما * فأمته لاتلوى على زجر زاجر
وأصبح فساق القبائل بينهم * تسل على اقرانها بالخناجر
فابك لقتلى من صديق ومن اخ * كريم ومن جار شفيق مجاور
ووالدة تبكى بحزن على ابنها * فيبكى لها من رحمة كل طائر
وذات خليل اصبحت وهى ايم * وتبكى عليه بالدموع البوادر
تقول له قدكنت عزاوناصرا * فغيب عنى اليوم عزى وناصرى
وابك لاحراق وهدم منازل * وقتل وانهاب اللهى والذخائر
وابراز ربات الخدور حواسرا * خرجن بلا خمر ولا بمآزر
تراها حيارى ليس تعرف مذهبا * نوافر أمثال الظباء النوافر
كان لم تكن بغداد أحسن منظرا * وملهى رأته عين لاه وناظر
بلى هكذا كانت فأذهب حسنها * وبدد منها الشمل حكم المقادر
وحل بهم ماحل بالناس قبلهم * فأضحوا احاديثا لباد وحاضر
ابغداد يادار الملوك ومجتبى * صروف المنايا مستقر المنابر
ويا جنة الدنيا ويامطلب الغنى * ومستنبط الاموال عند الضرائر
أبينى لنا أين الذين عهدتهم * يحلون فى روض من العيش زاهر
وأين ملوك فى المواكب تغتدى * تشبه حسنا بالنجوم الزواهر
وأين القضاة الحاكمون برأيهم * لورد أمور مشكلات الاوامر
أوالقائلون الناطقون بحكمة * ورصف كلام من خطيب وشاعر
وأين مراح للملوك عهدتها * مزخرفة فيها صنوف الجواهر
ترش بماء المسك والورد أرضها * يفوح بها من بعد ريح المجامر
وروح الندامى فيه كل عشية * الى كل فياض كريم العناصر
ولهو وقيان تستجيب لنغمها * اذا هو لباها حنين المزامر
فما الملك العز من آل هاشم * وأشياعهم فيها اكتفوا بالمغادر
يروحون فى سلطانهم وكأنهم * يروحون فى سلطان بعض العشائر
يجادل عما نالهم كبراؤهم * فنالتهم وبالكره أيدى الاصاغر
فأقسم لو أن الملوك تناصروا * لزلت لها خوفا رقاب الجبابر

وبعث هرثمة بن اعين ابن زهير بن المسيب الضبى من الجانب الشرقى فنزل الماطر مما يلى كلواذا وعشى مافى السفن من اموال التجار الواردة من البصرة وواسط ونصب على بغداد المنجنيقات ونزل فى رقة كلواذا والجزيرة فتأذى الناس به وصمد نحوه خلق من العيارين وأهل السجون وكانوا يقاتلون عراة فى أوساطهم السامين والميازر وقد اتخذوا الرؤسهم دواخل من الخوص وسموها الخود ودرقا من الخوص والبوارى قد قيرت وحشيت بالحصا والرمل على كل عشرة عريف وعلى كل عشرة عرفاء نقيب وعلى كل عشرة

نقباء قائد وعلى كل عشرة قواد أمير ولكل ذى مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده فالعريف له أناس مركبهم غير ما ذكرنا من المقاتلة وكذلك النقيب والقائد والأمير وناس عراة قد جعل فى أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر ومقاود قد اتخذت ولجم من مكانس ومذاب فيأتى العريف وقد ارکب واحدا وقدامه عشرة من المقاتلة على رؤسهم خود ودرق البوارى ويأتى النقيب والقائد والأمير كذلك فتقف النظارة ينظرون الى حربهم مع أصحاب الخيول المعدة والجواشن والدروع والتجافيف والرماح والدرق التبتية فهؤلاء عراة وهؤلاء على ما ذكرنا فكانت للعراة على زهير وأتاه المدد من هرثمة فانهزمت العراة ورمت بهم خيولهم وتحاصروا جميعا وأخذهم السيف فقتل منهم خلق وقتل من النظارة خلق فقال فى ذلك بعضهم وذكر رمى زهير بالمنجنيق

لا تقرب المنجنيق والحجرا * وقد رأيت القتيل اذ قبرا
باكر كى لا يفوته خبر * ولا قبيل وخلف الخبرا
ياصاحب المنجنيق ما فعلت * كفاك لم تبقيا ولم تذرا
كان دراه سوى الذى أمرا * هيهات ان يغلب الهوى القدرا

فلما ضاق الأمر بالأمين فى ارزاق الجند ضرب آنية الذهب والفضة سرا وأعطى رجاله وتحيز الى طاهر أهل الارباضيات مما يلى باب الانبار وباب حرب وباب قطربل فصارت الحرب فى وسط الجانب الغربى وعملت المنجنيقات بين الفريقين وكثر الحرق والهدم ببغداد فى الكرخ وغيره من الجانبين حتى درست محاسنها واشتد الأمر وتنقل الناس من موضع الى موضع وعم الخوف فقال الشاعر

من ذا أصابك يا بغداد بالعين * ألم تكونى زمانا قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان قربهم * وكان مسكنهم زينا من الزين
صاح الزمان بهم بالبين فانقرضوا * ماذا لقيت بهم من لوعة البين
أستودع الله قوما ما ذكرتهم * الا تحدر ماء الدمع من عينى
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم * والبين يصدع ما بين الفريقين

ولم تزل الحرب بين الفريقين أربعة عشر شهرا وضاقت بغداد بأهلها وتعطلت المساجد وتركت الصلاة ونزل بها ما لم ينزل بها قط مثله مذ بناها المنصور وقد كان لأهل بغداد فى أيام حرب المستعين والمعتز حرب نحو هذا من حروب العيارين ويسير الى الحرب فى خمسين ألف عراة ولم ينزل بأهل بغداد شر من هذا الحرب حرب المأمون والمخلوع وقد استعظم أهل بغداد ما نزل بهم فى هذا الوقت فى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة من خروج أبى اسحاق المتقى عنهم وما كان قبل الوقت من البزيديين ويورون التركى وما دفعوا اليه من الوحشة بخروج أبى محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان الملقب بناصر الدولة وأخيه على بن عبد الله عليهم لبعد العهد بما حل بالمنازل بها وطول السنين وغيبة ذلك عنهم وبعدهم وتقدم مثل أولئك العيارين الذين كانوا فى ذلك العصر واشتد الأمر بين المامونية والعراة وغيرهم من أصحاب المخلوع وحصر محمد فى قصره من الجانب الغربى فكان بينهم فى بعض

الايام مواقعة تفانى فيها خلق كثير من الفريقين فقال فى ذلك حسين الخليع

امين الله ثق بالله * تعط الصبر والنصره
كل الامر الى الله * كلاك الله ذو القدره
رأيت الحرب احيانا * علينا ولنا مره

وكانت وقعه اخرى عظيمة بشارع دار الرقيق هلك فيها خلق كثير وكثر القتل فى الطرق والشوارع ينادى هذا يا المأمون والآخر يا المخلوع ويقتل بعضهم بعضا وانتهب الدار فكان الفوز لمن نجا بنفسه من رجل وامرأة فما يسلم معه الى عسكر طاهر فيأمن على نفسه وفى ذلك يقول الشاعر

بكت عينى على بغداد لما * فقدت غضاضة العيش الانيق
تبدلنا هموما من سرور * ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتنا من الحساد عين * فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم احرقوا بالنار قسرا * ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادى يا صباحى * وقائلة تنادى يا شقيقى
وحوراء المدامع ذات دل * مضمخة المجاسد بالخلوق
تنادى بالشفيق فلا شفيق * وقد فقد الشفيق مع الرفيق
وقوم اخرجوا من ظل دنيا * متاعهم يباع بكل سوق
ومغترب بعيد الدار ملقى * بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعا * فما يدرون من أى الفريق
فلا ولد يقيم على أبيه * وقد هرب الصديق عن الصديق
ومهما أنس من شئ تولى * فانى ذاكر دار الرقيق

وسأل قائد من قواد خراسان طاهرا أن يجعل له الحرب فى يوم ما له فيه ففعل طاهر له ذلك فخرج القائد وقد حقرهم وقال ما يبلغ من كيد هؤلاء ولا سلاح معهم مع ذوى البأس والنجدة والسلاح والعدة فبصر به بعض العراة وقد راماه مدة طويلة حتى فنيت سهام القائد وظن ان العريان فنيت حجارته فرماه بحجر بقيت فى المخلاة وقد حمل عليه القائد فأخطأ عينه وثناه بحجر آخر فكاد يصرع القائد عن فرسه ووقعت البيضة عن رأسه فكر راجعا وهو يقول يا أبا طاهر ليس هؤلاء بناس هؤلاء شياطين ففى ذلك يقول أبو يعقوب الخريمى

الكرخ اسواقه معطلة * يستن عيارها وعابرها
خرجت الحرب بين اسواقهم * اسود غيل علت قساورها

وقال على الاعمى

خرجت هذه الحروب رجالا * لا لقحطانها ولا لنزار
معشر فى جواشن الحصر يعدو * ن الى الحرب كالليوث الضوارى
ليس يدرون ما الفرار اذا ما الابطال عاروا من القنا للفرار
واحد منهم يشد على ألـ * ـفين عريان ماله من ازار

ويقول الفتى اذا طعن الطعنة * خذها من الفتى العيار

وتوالت الحرب وطاهر في قوة واقبال وأصحاب المخلوع في نقص وادبار وأصحاب طاهر يهدمون ويأخذون بعض الدور وينهبون المتاع فقال رجل من المحمدية

لنا كل يوم ثلمة لا نسدها * يزيدون فيما يطلبون وننقص
اذا هدموا دارا أخذنا سقوفها * ونحن لاخرى مثلها نتربص
يثيرون بالطبل القنيص وأن بدا * لهم وجه صيد من قريب تقنصوا
وقد افسدوا شرق البلاد وغربها * علينا فما ندرى الى أين نشخص
اذا حضروا قالوا بما يبصرونه * وان لم يروا شيأ قبيحا تخرصوا
وقد رخصت قراؤنا فى قتالهم * وما قتل المقتول الا المرخص

ولما نظر طاهر الى صبر أصحاب المخلوع على هذه الحال الصعبة قطع عنهم مواد الاقوات وغيرها من البصرة وواسط وغيرهما من الطرق فكان الخبز فى حد المأمونية عشرين رطلا بدرهم وفى حد المحمدية رطل بدرهم وضاقت النفوس وأيسوا من الفرج واشتد الجوع وسر من سار الى حيز طاهر وأسف من بقى مع المخلوع وتقدم طاهر فى سائر أصحابه من مواضع كثيرة وقصد باب الكناس فاشتد القتال وتبادرت الروس وعمل السيف والنار وصبر الفريقان وكان القتل فى أصحاب طاهر وفنى من العراة خلق وكان ذلك فى يوم الاحد ففى ذلك يقول الاعمى

وقعة يوم الاحد * كانت حديد الابد
كم جسد ابصرته * ملقى وكم من جسد
وناظر كانت له * منية بالرصد
أتاه سهم عائر * فشق جوف الكبد
وآخر ملتهب * مثل التهاب الاسد
وقائل قد قتلوا * الفا ولما يزد
وقائل اكثر بل * مالهم من عدد
قلت لمطعون وفيه * طعنة لم تسد
من أنت يا ويلك يا * مسكين من محمد
فقال لا من نسب * دان ولا من بلد
ولا انا للغى قا * تلت ولا للرشد
ولا لشئ عاجل * يصير منه فى يد

ولما ضاق بمحمد الحال واشتد الحصار أمر قائدا من قواده يقال له ذريح ان يتبع أصحاب الاموال والودائع والذخائر من أهل الملة وغيرهم وقرن معه آخر يعرف بالهرش فكانا يهجمان على الناس ويأخذان بالظنة فاجتبى بذلك السبب اموالا كثيرة فهرب الناس بعلة الحج وفر الاغنياء من ذريح والهرش ففى ذلك يقول على الاعمى

اظهروا الحج وما يبغونه * بل من الهرش يريدون الهرب

كم اناس اصبحوا فى غبطة * ركض الليل عليهم بالعطب

من شعر له طويل ولما عم البلاء أهل الستر اجتمع التجار بالكرخ على مكاتبة طاهر انهم ممنوعون منه ومن الخروج اليه ومغلوب على اموالهم وان العراة والباعة هم الافة فقال بعضهم ان كاتبتم طاهرا لم تامنوا صولة المخلوع بذلك فدعوهم فان الله مهلكهم وقال قائلهم

دعوا أهل الطريق فعن قريب * تناهم مخاليب الهصور

فتهتك حجب اكباد شداد * وشيكا ما يصير الى القبور

فان الله مهلكهم جميعا * لاسباب التمرد والفجور

وثارت العراة ذات يوم فى نحو مائة ألف بالرماح والقصب والطرادات القراطيس على رؤسها ونفخوا فى القصب وقرون البقر وغيرهم من المحمدية وزحفوا من مواضع كثيرة نحو المأمونية فبعث اليهم طاهر بعدة قواد وأمراء من وجوه كثيرة واشتد الجلاد وكثر القتل وكانت للعراة على المأمونية الى الظهر وكان يوم الاثنين ثم ثارت المأمونية على العراة من أصحاب محمد ففرق منهم وقتل واحرق نحو عشرة آلاف ففى ذلك يقول الاعمى

بالامير الطاهر بن الحسين * صبحونا صبيحة الاثنين

جمعوا جمعهم بليل فثار اليهم * كل صلب القناة والساعدين

ياقتيل العراة ملقى على الشط * تطاه الخيول فى الجانبين

ما الذى كان فى يديك اذا ما * اصطلح الناس أية الخلتين

أوزيرا من قائد بل بعيد * أنت من زين موضع الفرقدين

كم بصير غدا بعينين كى ينـ * ـظر ما حالهم فراح بعين

واشتد الأمر بمحمد المخلوع فباع ما فى خزائنه سرا وفرق ذلك ارزاقا فيمن معه ولم يبق معه ما يعطيهم عند مطالبتهم اياه وضيق عليه طاهر وكان نازلا بباب الانبار فى بستان هنالك فقال محمد وددت ان الله قتل الفريقين جميعا فما منهم الا عدو من معى ومن على اما هؤلاء فيريدون مالى وأما أولئك فيريدون نفسى وقال

تفرقوا أودعونى * يامعشر الاعوان

فكلكم ذو وجوه * كثيرة الالوان

وما ارى غير افك * وترهات الامانى

ولست املك شيأ * فسائلوا الخوانى

فالويل فيما دهانى * من نازل البستان

يعنى طاهر بن الحسين ولما اشتد الأمر عليه ونزل هرثمة بن اعين بالجانب الشرقى وطاهر بالجانب الغربى وبقى محمد فى مدينة أبى جعفر شاور من حضر من خواصه فى النجاة بنفسه فكل أدلى برأى واشار بوجه فقال قائل منهم تكاتب ابن الحسين وتحلف له انك مفوض أمرك اليه لعله أن يجيبك الى ماتريد منه فقال ثكلتك امك لقد اخطات الرأى فى طلبى المشورة منك أما رأيت آثار رجل لايؤول الى عذر وهل كان المأمون لو اجتهد لنفسه

وتولى الامر برأيه بالغا عشر ما بلغه له طاهر ولقد دسست وتحصت عن رأيه فما رأيته يطلب تأثيل المكارم وبعد الصيت والوفاء فكيف اطمع فى استدلاله بالاموال وفى غدره والاعتماد فى عقله ولو قد أجاب الى طاعتى وانصرف الى ثم ناصبنى جميع الترك والديلم ما اهتممت بمناصبتهم ولكنت كما قال أبو الاسود الدؤلى فى الازد عند اجارتها زياد ابن أبيه

فلما رآهم يطلبون وزيره * وساروا اليه بعد طول تمادى
أتى الازد اذ خاف الذى لابقاءلها * عليه وكان الرأى رأى زياد
فقالوا له أهلا وسهلا ومرحبا * أصبت فكاشف من أردت وعاد
فاصبح لايخشى من الناس كلهم * عدوا ولو مالوا بقوة عاد

والله لوددت انه أجاب الى ذلك فأبحته خزائنى وفوضت اليه ملكى ورضيت بالمعاش تحت يديه ولا اظننى مفلته ولو كانت ألف نفس فقال السندى صدقت يا أمير المؤمنين ولوانك أبوه الحسين بن مصعب ما استقال فقال محمد وكيف لنا بالخلاص الى هرثمة ولات حين مناص وراسل هرثمة ومال الى جنبته فوعده هرثمة بكل ما أحب وانه يمنعه ممن يريد قتله وبلغ ذلك طاهرا فاشتد عليه وزاد غيظه وحنقه ووعده هرثمة ان يأتيه فى حراقة الى مشرعة باب خراسان فيصير به الى عسكره ومن أحب فلما هم محمد بالخروج فى تلك الليلة وهى ليلة الخميس لخمس ليال بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة دخل اليه الصعاليك من أصحابه وهم فتيان الابناء والجند فقالوا له يا أمير المؤمنين ليس معك من ينصحك ونحن سبعة آلاف رجل مقاتلة وفى اصطبلك سبعة آلاف فرس ونفتح بعض أبواب المدينة وتخرج فى هذه الليلة فما يقدم علينا أحد الى ان نصير الى بلد الجزيرة وديار ربيعة فنجبى الاموال ونجمع الرجال ونتوسط الشام وندخل مصر ويكثر الجيش والمال وتعود الدولة مقبلة جديدة فقال هذا والله الرأى فعزم على ذلك وهم به وجنح اليه وكان لطاهر فى جوف دار الامين غلمان وخدم من خاصة الامين يبعثون اليه بالاخبار ساعة فساعة فخرج الخبر الى طاهر من وقته فخاف طاهر وعلم انه الرأى ان فعله فبعث الى سليمان بن أبى جعفر والى ابن نهيك والسندى بن شاهك وكانوا مع الامين ان لم تزيلوه عن هذا الرأى لاتخر بن ضياعكم وأزيل نعمكم وأتلف نفوسكم فدخلوا على الامين فى ليلتهم فازالوه عن ذلك الرأى وأتاه هرثمة فى الحراقة الى باب خراسان ودعا الامين بفرس يقال له الزهيرى أغر محجل أدهم محذوف ودعا الامين بابنيه موسى وعبد الله فعانقهما وشمهما وبكى وقال الله خليفتى عليكم فلست ادرى ألتقى معكما بعدها أولا وعليه ثياب بيض وطيلسان اسود وقدامه شمعة حتى أتى باب خراسان الى المشرعة والحراقة قائمة فنزل ودخل الحراقة فقبل هرثمة بين عينيه وقد كان طاهر نمى اليه خروجه فبعث بالرجال من الهروية وغيرهم والملاحين فى الزوارق وعلى الشط فدفعت الحراقة ولم يكن مع هرثمة عدة من رجاله فأتى أصحاب طاهر عراة فغاصوا تحت الحراقة فانقلبت بمن فيها فلم يكن لهرثمة شاغل الا بخشاشة نفسه فتعلق بزورق وصعد اليه من الماء ومضى الى عسكره الى الجانب الشرقى وشق محمد ثيابه عن نفسه وسبح

فوقع نحو العراة الى عسكر قرين الديرانى غلام طاهر فأخذه بعض السواس خين شم منه رائحة المسك والطيب فاستأذن فيه طاهرا فأتاه الاذن فى الطريق وقد حمل الى طاهر فقتل فى الطريق وهو يصيح انا لله وانا اليه راجعون انا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخو المأمون والسيوف تأخذه حتى برد وأخذوا رأسه وكانت ليلة الاحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة (وذكر) أحمد بن سلام وقد كان مع الامين فى الحراقة حين اصيب فسبح فقبض عليه بعض أصحاب طاهر واراد قتله فأرغبه فى عشرة آلاف درهم وانه يحملها اليه فى صبيحة تلك الليلة قال فادخلت بيتا مظلما فبينا انا كذلك اذ دخل على رجل عريان عليه سراويل وعمامة متلثما بها وعلى كتفه خرقة فجعلوه معى وتقدموا الى من فى حفظنا فلما استقر فى البيت حسر العمامة عن وجهه فاذا هو محمد فاستعبرت واسترجعت فيما بينى وبين نفسى وجعل ينظر الى ثم قال أيهم أنت قلت انا مولاك ياسيدى فقال وأى الموالى أنت قلت أحمد بن سلام قال وأعرفك بغير هذا كنت تأتينى بالرقة قلت نعم ثم قال يا أحمد قلت لبيك ياسيدى قال ادن منى وضمنى اليك فانى أجد وحشة شديدة قال فضممته الى فاذا قلبه يخفق خفقانا شديدا ثم قال أخبرنى عن أخى المأمون أحى هو قلت له فهذا القتال عمن اذن قال قبحهم الله ثم قال ذكروا انه مات قلت قبح الله وزراءك فهم أوردوك هذا المورد فقال لى يا أحمد ليس هذا موضع عتاب فلا تقل فى وزرائى الاخير اما هم ذنب ولست باول من طلب أمرا فلم يقدر عليه قلت البس ازارك هذا وارم بهذه الخرقة التى عليك فقال يا أحمد من كان حاله مثل حالى فهذه له كثير ثم قال لى يا أحمد ما اشك انهم سيحملونى الى أخى أفترى أخى قاتلى قلت كلا ان الرحم ستعطفه عليك فقال لى هيهات الملك عقيم لا رحم له فقلت له ان أمان هرثمة أمان أخيك قال فلقنته الاستغفار وذكر الله فبينا نحن كذلك اذ فتح باب البيت فدخل علينا رجل عليه سلاح فاطلع فى وجه محمد مستثبتا له فلما اثبته معرفة خرج وأغلق الباب واذا هو محمد الطاهرى قال فعلمت ان الرجل مقتول وقد كان بقى على من صلاتى الوتر فخفت أن اقتل معه ولم أوتر فقمت لاوتر فقال لى يا أحمد لا تبعد منى وصل بقربى فانى اجد وحشة شديدة فدنوت منه فلم نلبث حتى سمعنا حركة الخيل ودق باب الدار ففتح الباب فاذا قوم من العجم بأيديهم السيوف مصلتة فلما أحس بهم محمد قام قائما وقال انا لله وانا اليه راجعون ذهبت والله نفسى فى سبيل الله أما من حيلة أما من مغيث وجاؤا حتى قاموا على باب البيت الذى نحن فيه وجعل بعضهم يقول تقدم ويدفع بعضهم بعضا فأخذ محمد بيده وسادة وجعل يقول انا ابن عم رسول الله انا ابن هارون الرشيد انا أخو المأمون الله الله فى دمى فدخل عليه رجل منهم مولى لطاهر فضربه ضربة فى مقدم رأسه وضرب محمد وجهه بالوسادة التى كانت فى يده واتكأ عليه ليأخذ السيف من يده فصاح بالفارسية قتلنى الرجل فدخل منهم جماعة فنخسه أحدهم بسيفه فى خاصرته وكبوه فذبحوه من قفاه وأخذوا رأسه ومضوا به الى طاهر وقد قيل فى كيفية قتله غير هذا وقد اتينا على التنازع فى ذلك فى الكتاب الاوسط وأتى بخادمه كوثر فنصب على باب من ابواب بغداد يعرف بباب الحديد نحو قطربل فى الجانب الغربى الى الظهر ودفنت جثته فى بعض

تلك البساتين ولما وضع رأس الامين بين يدى طاهر قال اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير وحمل الرأس الى خراسان الى المأمون فى منديل والقطن عليه والاطلية فاسترجع المأمون وبكى واشتد تأسفه عليه فقال له الفضل بن سهل الحمد لله يا أمير المؤمنين على هذه النعمة الجليلة فان محمدا كان يتمنى ان يراك بحيث رأيته فأمر المأمون بنصب الرأس فى صحن الدار على خشبة وأعطى الجند وأمر كل من قبض رزقه ان يلعنه فكان الرجل يقبض ويلعن الرأس فقبض بعض العجم عطاءه فقيل له العن هذا الرأس فقال لعن الله هذا ولعن والديه وأدخلهم فى كذا وكذا من امهاتهم فقيل له لعنت أمير المؤمنين وذلك بحيث يسمعه المأمون منه وتغافل وأمر بحط الرأس وترك ذلك المخلوع وطيب الرأس وجعله فى سفط ورده الى العراق مع جثته ورحم الله أهل بغداد وخلصهم مما كانوا فيه من الحصار والجزع والقتل ورثاه الشعراء وقالت زبيدة أم جعفر

أودى بالفين من لم يترك الناسا * فامنح فوادك عن مقتولك الباسا
لما رأيت المنايا قد قصدن له * اصبن منه سواد القلب والراسا
فبت مشتكيا ارعى النجوم له * اخال سنته فى الليل قرطاسا
والموت كان به والهم قارنه * حتى سقاه التى أودى بها الكاسا
رزيته حين باهيت الرجال به * وقد بنيت به للدهر آساسا
فليس من مات مردودا لنا ابدا * حتى يرد علينا قبله ناسا

ورثته زوجته لبابة ابنة على بن المهدى ولم يكن دخل بها فقالت

أبكيك لا للنعيم والانس * بل للمعالى والسيف والترس
ابكى على سيد فجعت به * ارملنى قبل ليلة العرس
يا مالكا بالعراق مطرحا * خانته اشراطه مع الحرس

ولما قتل محمد دخل الى زبيدة بعض خدمها فقال ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمد فقالت ويلك وما اصنع فقال تخرجين فتطلبين بثاره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان فقالت اخسأ لا أم لك ما للنساء وطلب الثار ومنازلة الابطال ثم أمرت بثيابها فسودت ولبست مسحا من شعر ودعت بدواة وقرطاس وكتبت الى المامون

لخير امام قام من خير عنصر * وأفضل راق فوق اعواد منبر
ووارث علم الاولين وفخرهم * وللملك المأمون من أم جعفر
كتبت وعينى تستهل دموعها * اليك ابن عمى مع جفونى ومحجرى
اصبت بادنى الناس منك قرابة * ومن زال عن كبدى فقل تصبرى
أتى طاهر لا طهر الله طاهرا * وما طاهر فى فعله بمطهر
فأبرزنى مكشوفة الوجه حاسرا * وانهب اموالى وأخرب ادورى
يعز على هارون ما قد لقيته * وما نالنى من ناقص الخلق أعور
فان كان ما اسدى لأمر أمرته * صبرت لأمر من قدير مقدر

فلما قرأ المأمون شعرها بكى ثم قال اللهم انى اقول كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه لما بلغه قتل عثمان والله ما أمرت ولا رضيت اللهم جلل قلب طاهر حزنا (قال المسعودى) وللمخلوع أخبار وسير غير ماذكرنا قد أتينا عليها فى كتابنا فى أخبار الزمان وفى الكتاب الاوسط والله سبحانه ولى التوفيق

(ذكر خلافة المأمون)

وبويع المأمون عبد الله بن هارون وكنيته أبو جعفر وامه باذغيسية واسمها مراجل وقيل كنيته أبو العباس وهو ابن ثمانى وعشرين سنة وشهرين وتوفى بالبذندون على عين العشيرة وهى عين يخرج منها النهر المعروف بالبديدون وقيل ان اسمها بالرومية أيضا رقة وحمل الى طرسوس فدفن بها على يسار المسجد سنة ثمانى عشرة ومائتين وهو ابن تسع وأربعين سنة فكانت خلافته احدى وعشرين سنة منها أربعة عشر شهرا كان يحارب أخاه محمد بن زبيدة على ماذكرنا وقيل سنتان وخمسة اشهر وكان أهل خراسان فى تلك الحروب يسلمون عليه بالخلافة ويدعى له على المنابر فى الامصار والحرمين والكور والسهل والجبل مما حواه طاهر وغلب عليه ويسلم على محمد بالخلافة من كان ببغداد خاصة لاغيرها

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان فى أيامه)

وغلب على المأمون الفضل بن سهل حتى ضايقه فى جارية اراد شراءها فقتله وادعى قوم ان المأمون دس عليه من قتله ثم سلم عليه الوزراء بعد ذلك منهم أحمد بن خالد الاحول وعمرو بن مسعدة وابو عبادة وكل هؤلاء سلم عليهم برسم الوزارة ومات عمرو بن مسعدة سنة سبع عشرة ومائتين فعرض لماله ولم يعرض لمال وزير غيره وغلب على المأمون آخرا الفضل بن مروان ومحمد بن يزداذ وفى خلافته قبض على بن موسى الرضا مسموما بطوس ودفن هنالك وهجا المأمون ابراهيم بن المهدى المعروف بابن شكلة عمه وكان المأمون يظهر التشيع وابن شكلة التسنن فقال المأمون

اذا المرجى سرك ان تراه * يموت لحينه من قبل موته
فجدد عنده ذكرى على * وصل على النبى وآل بيته

فاجابه ابراهيم رادا عليه

اذا الشيعى جمجم فى مقال * فسرك ان يبوح بذات نفسه
فصل على النبى وصاحبيه * وزيريه وجاريه برمسه

ولابراهيم بن المهدى مع المأمون أخبار حسان هى موجودة فى كتاب الاخبار لابراهيم بن المهدى (ودخل) أبو دلف القاسم بن عيسى العجلى على المأمون فقال له يا قاسم ما أحسن ابياتك فى صفة الحرب ولاذ نك بها وزهدك فى المغنيات قال يا أمير المؤمنين أى ابيات هى قال قولك

لسل السيوف وشق الصفوف * ونقض التراب وضرب القال

قال ثم ماذا يا قاسم قال

ولبس العجاجة والخافقات * تريك المنايا بروس القال
وقد كشفت عن سناها هناك * كأن عليهم شروق الطفل
خروس نطوق اذا استنطقت * جهول يطيش على من جهل
اذا خطبت أخذت مهرها * وزير الساقط بين القلل
الذ وأشهى من المسمعات * وشرب المدامة فى يوم طل
انا ابن الحمام وترب الصفاح * وترب المنون وترب الاجل

ثم قال يا أمير المؤمنين هذه لذتى مع اعدائك وقوتى مع أوليائك ويدى معك وأين استلذ مستلذ شيأ من يد المعاقرة ملت الى المقادمة والمحاربة قال يا قاسم اذا كان هذا النمط من الاشعار شانك واللذة لذتك فاذا تركت للوسنان مما خلفت واظهرت له من قليل ما استرت قال يا أمير المؤمنين وأى اشعارى قال حيث تقول

أيها الراقد المؤرق عينى * نم هنيئا لك الرقاد اللذيذ
علم الله ان قلبى مما * قد جنت وجنتاك فيه وقيذ

قال يا أمير المؤمنين سهرة بعد سهرة غلبت وذلك متقدم وهذا طن متأخر قال يا قاسم ما أحسن ما قال صاحب هذين البيتين

أذم لك الايام فى ذات بيننا * وما لليالى فى الذى بيننا عذر
اذا لم يكن بين المحبين زورة * سوى ذكر شئ قد مضى درس الفكر

فقال أبو دلف ما أحسن ما قال يا أمير المؤمنين هذا السيد الهاشمى والملك العباسى قال وكيف اذنك الفطنة ولم تداخلك الظنة حتى تحققت الى صاحبهما ولم يداخلك الشك فيهما قال يا أمير المؤمنين انما الشعر بساط صوف فمن خلط الشعر بنقى الصوف ظهر رونقه عند التصنيف ونار ضوءه عند التاليف وكان المأمون يقول يغتفر كل شئ الا القدح فى الملك وافشاء السر والتعريض للحرم وقال المأمون أخر الحرب ما استطعت فان لم تجد منها بدا فاجعلها فى آخر النهار وذكر انه من كلام انوشروان وكان المأمون يقول اعيت الحيلة فى الامر اذا اقبل ان يدبر واذا أدبر أن يقبل ولما تأتى الملك للمأمون قال هذا جسيم لولا انه عديم وهذا ملك لولا ان بعده هلك وهذا سرور لولا انه غرور وهذا يوم لو كان يوثق بعده وكان المأمون يقول البشر منظر مونق وخلق مشرق وزارع للقلوب ومحل مألوف وفضل منتشر وثناء بسط وتحف الاحرار وذرع رحيب وأول الحسنات وذريعة الى الجاه وأحمد للشيم وباب لرضى العامة ومفتاح لمحبة القلوب وكان المأمون يقول سادة الناس فى الدنيا الاسخياء وفى الآخرة الانبياء وان الرزق الواسع لمن لا يسع منه بمنزلة طعام على هراب النحل لو كان طريقنا ما سلكته ولو كان قميصا ما لبسته (وحضر) المأمون املاكا لبعض أهل بيته فسأله من حضر ان يخطب فقال الحمد لله المحمود الله والصلاة على المصطفى رسول الله وخير ما عمل به كتاب الله قال الله تعالى وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم ولمائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم ولو لم يكن فى المناكحة آية محكمة ولا سنة متبعة الا ما جعل الله وذلك من تأليف البعيد والقريب لسارع اليه

الموفق المصيب وبادر اليه العاقل النجيب وفلان من قد عرفتموه فى نسب لم تجهلوه خطب اليكم فتاتكم فلانة وبذل من الصداق كذا وكذا فشفعوا شافعنا وانكحوا خاطبنا وقولوا خيرا تحمدوا عليه وتوجروا واقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم (وذكر) ثمامة بن اشرس قال كنا يوما عند المأمون فدخل يحيى بن اكثم وكان قد ثقل عليه موضعى منه فتذاكرنا اشياء من الفقه فقال يحيى فى مسئلة دارت هذا قول عمر بن الخطاب وعبد الله ابن مسعود وابن عمر وجابر قلت أخطأوا كلهم واغفلوا اوجه الدلالة فاستعظم من ذلك وأكبره وقال يا أمير المؤمنين ان هذا يخطئ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم فقال المأمون سبحان الله اكذا يا ثمامة قلت يا أمير المؤمنين ان هذا لا يبالى ما قال ولا ما شنع به ثم اقبلت عليه فقلت ألست تزعم ان الحق فى واحد عند الله عز وجل قال نعم قلت فزعمت ان تسعة اخطأوا وأصاب العاشر وقلت انا اخطأ العاشر فما انكرت قال فنظر المأمون الى وتبسم وقال لم يعلم أبو محمد انك تجيب هذا الجواب قال يحيى وكيف ذلك قلت ألست تقول ان الحق فى واحد قال بلى قلت فهل يخلى الله عز وجل هذا الحق من قائل يقول به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا قلت أفليس من يخالفه ولم يقل به فقد أخطأ عندك الحق قال نعم قلت وقد دخلت فيما عبت وقلت بما انكرت وبه شنعت وانا أوضح دلالة منك لانى خطأتهم فى الظاهر وكل مصيب عند الله الحق وأنما خطأتهم عند الخلاف وأدتنى الدلالة الى قول بعضهم فخطأت من خالفنى وأنت خطأت من خالفك فى الظاهر وعند الله عز وجل (وقدم) وفد الكوفة الى بغداد فوقفوا للمأمون فاعرض عنهم فقال شيخ منهم يا أمير المؤمنين يدك احق يد بتقبيل لعلوها فى المكارم وبعدها من المآثم وأنت يوسفى العفو فى قلة التثريب من ارادك بسوء جعله الله حصد سيفك وطريد خوفك وذليل دولتك فقال يا عمرو نعم الخطيب خطيبهم اقض حوائجهم (وذكر ثمامة) ابن اشرس قال بلغ المأمون خبر عشرة من الزنادقة ممن يذهب الى قول مانى ويقول بالنور والظلمة من أهل البصرة فأمر بحملهم اليه بعد ان سموا واحدا واحدا فلما جمعوا انظر اليهم طفيلى فقال ما اجتمع هؤلاء الا لصنيع فدخل فى وسطهم ومضى معهم ولا يعلم بشأنهم حتى صار بهم الموكلون الى السفينة فقال الطفيلى نزهة لا شك فيها فدخل معهم السفينة فما كان بأسرع من ان جىء بالقيود فقيد القوم والطفيلى معهم فقال الطفيلى بلغ من تطفيلى الى القيود ثم أقبل على الشيوخ فقال فديتكم ايش أنتم قالوا بل ايش أنت ومن أنت من اخواننا قال والله ما ادرى غير انى رجل طفيلى خرجت فى هذا اليوم من منزلى فلقيتكم فرأيت منظرا جميلا وعوارض حسنة وبزة ونعمة فقلت شيوخ وكهول وشباب جمعوا الوليمة فدخلت فى وسطكم وحاذيت بعضكم كأنى فى جملة أحدكم فصرتم الى هذا الزورق فرأيته قد فرش بهذا الفرش ومهد ورأيت سفرا مملوءة وجربا وسلالا فقلت نزهة يمضون اليها الى بعض القصور والبساتين ان هذا اليوم مبارك فابتهجت سرورا اذ جاء هذا الموكل بكم فقيدكم وقيدنى معكم فورد على ما قد ازال عقلى فأخبرونى ما الخبر فضحكوا منه وتبسموا وفرحوا به وسروا ثم قالوا الآن قد حصلت فى الاحصاء وأوثقت فى الحديد وأما نحن فمانية غمز بنا الى المأمون وسندخل

اليه ويسائلنا عن أحوالنا ويستكشفنا عن مذهبنا ويدعونا الى التوبة والرجوع عنه بامتحاننا بضروب من المحن منها اظهار صورة مانى لنا ويأمرنا ان نتفل عليها ونتبرأ منها ويأمرنا بذبح طائر ماء وهو الدرج فمن أجابه الى ذلك نجا ومن تخلف عنه قتل فاذا دعيت وامتحنت فأخبر عن نفسك واعتقادك على حسب ما تؤديك الدلالة الى القول به وأنت زعمت انك طفيلي والطفيلي يكون معه مداخلات وأخبار فاقطع سفرنا هذا الى مدينة بغداد بشئ من الحديث وأيام الناس فلما وصلوا الى بغداد وادخلوا على المأمون جعل يدعو باسمائهم رجلا رجلا فيسأله عن مذهبه فيخبره بالاسلام فيمتحنه ويدعوه الى البراءة من مانى ويظهر له صورته ويأمره ان يتفل عليها والبراءة منها وغير ذلك فيأبون فيرهم على السيف حتى بلغ الى الطفيلي بعد فراغه من العشرة وقد استوعبوا عدة القوم فقال المأمون للموكلين من هذا قالوا والله ماندرى غير انا وجدناه مع القوم فجئنا به فقال له المأمون ما خبرك قال يا أمير المؤمنين امرأتى طالق أن كنت اعرف من اقوالهم شيأ وأنما انا رجل طفيلي وقص عليه خبره من أوله الى اخره فضحك المأمون ثم أظهر له الصورة فلعنها وتبرأ منها وقال أعطونيها حتى اسلح عليها والله ما ادرى ما مانى ايهوديا كان أم مسلما فقال المأمون يؤدب على فرط تطفله ومخاطرته بنفسه (وكان) ابراهيم بن المهدى قائما بين يدى المأمون فقال يا أمير المؤمنين هب لى ذنبه واحدثك بحديث عجيب فى التطفيل عن نفسى قال قل يا ابراهيم قال يا أمير المؤمنين خرجت يوما فمررت فى سكك بغداد متطرفا حتى انتهيت الى موضع فشممت رائحة أبازير من جناح فى دار عالية وقدور قد فاح قتارها فتاقت نفسى اليها فوقفت على خياط فقلت لمن هذه الدار فقال لرجل من التجار من البزازين قلت ما اسمه قال فلان بن فلان فرفعت طرفى الى الجناح فاذا فيه شباك فنظرت الى كف قد خرج من الشباك ومعصم ما رأيت أحسن منهما قط فشغلنى يا أمير المؤمنين حسن الكف والمعصم عن رائحة القدور فبقيت باهتا قد ذهل عقلى ثم قلت للخياط هو ممن يشرب النبيذ قال نعم وأحسب ان عنده اليوم دعوة ولا ينادم الا تجارا مثله فأنا كذلك اذ اقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب فقال لى الخياط هذان منادمانه قلت ما اسماهما وما كناهما فقال فلان وفلان فحركت دابتى حتى دخلت بينهما وقلت جعلت فداكما قد استبطأكما أبو فلان اعزه الله وسايرتهما حتى انتهينا الى الباب فقدمانى فدخلت ودخلا فلما رآنى صاحب المنزل لم يشك الا انى منهما بسبيل فرحب واجلسنى فى أجل موضع فجئ يا أمير المؤمنين بالمائدة وعليها خبز نظيف وأتينا بتلك الالوان فكان طعمها اطيب من رائحتها فقلت فى نفسى هذه الالوان قد اكلتها وبقى الكف والمعصم ثم رفع الطعام فغسلنا أيدينا ثم صرنا الى مجلس المنادمة فاذا انبل مجلس وأجل فرش وجعل صاحب المجلس يلطف بى ويقبل علىّ بالحديث والرجلان لا يشكان انه منى بسبيل وأنما كان ذلك الفعل منه بى لما ظن انى منهما بسبيل حتى اذا شربنا اقداحا خرجت علينا جارية تتثنى كأنها غصن بان فسلمت غير خجلة وهيئت لها وسادة وأتى بعود فوضع فى حجرها فجسته فتبينت الحذق فى جسها ثم اندفعت تغنى

توهمها طرفى فآلم خدها * فصار مكان الوهم من نظرى أثر

وصافحها كفى فآلم كفها * فمن لمس كفى فى اناملها عقر
ومرت بقلبى خاطرا فجرحتها * ولم ارشيأقط يجرحه الفكر

فهيجت والله ياأمير المؤمنين على بلابلى وطربت لحسن غنائها وحذقها ثم اندفعت تغنى

اشرت اليها هل علمت مودتى * فردت بطرف العين انى على العهد
فحدت عن الاظهار عمدا لسرها * وحادت عن الاظهار أيضا على عمد

فصحت السلاح وجاءنى من الطرب مالا املك معه النفس ولا الصبر واندفعت تغنى

اليس عجيبا ان بيتا يضمنى * وأياك لانخلو ولا نتكلم
سوى اعين تشكو الهوى بجفونها * وترجيع أحشاء على النار تضرم
اشارة أفواه وغمز حواجب * وتكسير اجفان وكف يسلم

فحسدتها والله ياأمير المؤمنين على حذقها ومعرفتها بالغناء واصابتها معنى الشعر وانها لم تخرج من الفن الذى ابتدأته فقلت بقى عليك ياجارية شئ فغضبت وضربت بعودها الارض ثم قالت متى كنتم تحضرون مجالسكم البغضاء فندمت على ما كان منى ورأيت القوم قد تغيروا فقلت أليس ثم عود قالوا بلى يا سيدنا فاتيت بعود فاصلحت من شأنه ما اردت واندفعت اغنى

ما للمنازل لايجبن حزينا * اصممن أم بعد المدى فبلينا
راحوا العشية روحة مذكورة * ان متن متن وان حيين حيينا

فما استتممته جيدا حتى خرجت الجارية فأكبت على رجلى تقبلها وهى تقول المعذرة والله لك ياسيدى فما سمعت من يغنى هذا الصوت مثلك وقام مولاها وكل من كان عنده فصنعوا كصنعها وطرب القوم واستحثوا الشرب فشربوا بالطاسات ثم اندفعت اغنى

ابالله هل تمسين لاتذكرينى * وقد سجمت عيناى من ذكرك الدما
الى الله اشكو بخلها وسماحتى * لها عسل منى وتبدل علقما
فردى مصاب القلب أنت قتلته * ولا تتركيه ذاهل العقل مغرما
الى الله اشكو أنها اجنبية * وانى لها بالود ماعشت مكرما

فجاء من طرب القوم ياأمير المؤمنين ماخشيت ان يخرجوا من عقولهم فامسكت ساعة حتى اذا هدأ القوم اندفعت اغنى الثالثة

هذا محبك مطوى على كمده * صب مدامعه تجرى على جسده
له يد تسأل الرحمن راحته * مما به ويد أخرى على كبده
يامن رأى كلفا مستهترا اسفا * كانت منيته فى عينه ويده

فجعلت الجارية ياأمير المؤمنين تصيح السلاح هذا والله الغناء يامولاى وسكر القوم وخرجوا من عقولهم وكان صاحب المنزل جيد الشراب ونديما دونه فأمر غلمانه مع غلمانهم بحفظهم وصرفهم الى منازلهم وخلوت معه فشربنا اقداحا ثم قال ياسيدى ذهب والله ماخلا من أيامى باطلا اذ كنت لا اعرفك فمن أنت يامولاى ولم يزل يلح على حتى اخبرته فقبل رأسى وقال ياسيدى وانى اعجب ان يكون هذا الادب الا لمثلك واذا انا منذ اليوم مع الخلافة

ولا اعلم وسألني عن قصتي وكيف حملت نفسي على ما فعلته فاخبرته خبر الطعام والكف والمعصم فقال يا فلانة لجارية له قولي لفلانة تنزل فجعل ينزل الي جواريه واحدة واحدة وأنظر الى كفها واقول ليس هي حتى قال والله ما بقي غير أمي واختي ولأنزلنهما اليك فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت له جعلت فداك ابدأ بالاخت قبل الام فعسى ان تكون صاحبتي فقال صدقت ففعل فلما رأيت كفها ومعصمها قلت هي هي جعلت فداك فأمر غلمانه من فوره فصاروا الى عشرة مشايخ من جلة جيرانهم فاحضروا وجيء ببدرتين فيهما عشرون ألف درهم ثم قال هذه اختي فلانة وانا أشهدكم اني قد زوجتها من سيدي ابراهيم بن المهدي وامهرتها عنه عشرون ألف درهم فرضيت وقبلت النكاح ودفعت اليها البدرة الواحدة وفرقت الاخرى على المشايخ وقلت لهم اعذروا بهذا الذي حضر في الوقت فقبضوها وانصرفوا ثم قال يا سيدي امهد لك بعض البيوت تنام مع اهلك فاحشمني والله يا أمير المؤمنين ما رأيت من كرمه وسعة صدره فقلت بل احضر عمارية واحملها الى منزلي فقال افعل ما شئت فاحضرت عمارية وحملتها الى منزلي فوحقك يا أمير المؤمنين لقد حمل الي من الجهاز ما ضاق عنه بعض دوري فتعجب المأمون من كرم ذلك الرجل واطلق الطفيلي واجازه بجائزة حسنة وأمر ابراهيم باحضار ذلك الرجل فصار بعد من خواص المأمون وأهل مودته ولم يزل معه على افضل الاحوال السارة في المنادمة وغيرها (وذكر) المبرد وثعلب قالا كان كلثوم العتابي واقفا بباب المأمون فجاء يحيى بن اكثم فقال له العتابي ان رأيت أن تعلم أمير المؤمنين بمكاني قال لست بحاجب قال قد علمت ولكنك ذو فضل وذو الفضل معوان قال سلكت بي غير طريقي قال ان الله قد أتحفك بجاه ونعمة منه فهما مقيمان عليك بالزيادة ان شكرت وبالتغيير ان كفرت وأنا لك اليوم خير منك لنفسك ادعوك لما فيه زيادة نعمتك وأنت تابى ذلك ولكل شيء زكاة وزكاة الجاه بذله للمستعين فدخل يحيى فأخبر المأمون بالخبر فادخل اليه العتابي وفي المجلس اسحاق بن ابراهيم الموصلي فأمره بالجلوس واقبل يسأله عن احواله وشأنه فيجيبه بلسان ناطق فاستظرفه المأمون وأخذ في مداعبته فظن الشيخ انه قد استخف به فقال يا أمير المؤمنين الايناس قبل الابساس فاشتبه عليه قوله فنظر الى اسحاق ثم قال نعم ألف دينار فاتي بها فوضعت بين يدي العتابي ثم دعا الى المفاوضة واغرى المأمون اسحاق بالعبث به فاقبل اسحاق يعارضه في كل باب يذكره ويزيد عليه فعجب منه وهو لا يعلم أنه اسحاق ثم قال ايأذن أمير المؤمنين في مسئلة هذا الرجل عن اسمه ونسبه فقال العتابي من أنت وما اسمك قال انا من الناس واسمي كل بصل فقال له العتابي أما النسبة فقد عرفت وأما الاسم فمنكر وما كل بصل من الاسماء فقال له اسحاق ما أقل انصافك وما كلثوم والبصل اطيب من الثوم قال العتابي قاتلك الله ما املحك ما رأيت كالرجل حلاوة افيأذن أمير المؤمنين في صلته بما وصلني به فقد والله غلبني فقال له المأمون بل ذلك موفر عليك ونامر له بمثله فانصرف اسحاق الى منزله ونادمه بقية يومه وكان العتابي من أرض جند قنسرين والعواصم وسكن الرقة من ديار مضر وكان من العلم والقراءة والادب والمعرفة والترسل وحسن النظم للكلام

وكثرة

وكثرة الحفظ وحسن الاشارة وفصاحة اللسان وبراعة البيان وملوكية المجالسة وبراعة المكاتبة وحلاوة المخاطبة وجودة الحفظ وصحة القريحة على مالم يكن كثير من الناس في عصره مثله * وذكر انه قال كاتب الرجل لسانه وحاجبه وجهه وجليسه كله ونظم في ذلك شعرا فقال

لسان الفتى كاتبه * ووجه الفتى حاجبه
وندمانه كله * وكل له واجبه

وذكر عنه انه قال اذا وليت عملا فانظر من كاتبك فانما يعرف مقدارك من بعد عنك بكاتبك واستعقل حاجبك فانما يقضي عليك الوفود قبل الوصول اليك بحاجبك واستكرم واستطرب جليسك ونديمك فانما يؤذن للرجل بمن معه (وقد فاخر) كاتب نديما فقال الكاتب انا معونة وأنت مؤنة وأنا للجد وأنت للهزل وأنا للشدة وأنت للذة وأنا للحرب وأنت للسلم فقال النديم أنا للنعمة وأنت للنقمة وأنا للحظوة وأنت للمهنة وتقوم واجلس وتحتشم وأنا مؤنس تدأب لحاجتي وتشقى بما فيه سعادتي وأنا شريك وأنت معين وأنا تابع وأنت قرين وانما سميت نديما للندم على مفارقتي * وللعتابي أخبار حسان وتصنيفات ملاح في ذكرها خروج عما اليه قصدنا ونحوه يممنا وانما ذكرنا عنه هذه الفصول لتغلغل الكلام بنا اليها وتشعبه نحوها (وحكى) الجوهري عن العتبي عن عياش الزيدي قال رفع رجل قصة الى المأمون وسأله أن ياذن له في الدخول عليه والاستماع منه فأذن له فدخل فسلم فقال له المأمون تكلم بحاجتك قال أخبر أمير المؤمنين ان مصائب الدهر واعاجيب الايام قصدتني فأخذت مني ما كانت الدنيا اعطتني فلم تبق لي ضيعة الا خربت ولا نهر الا ابدي ولا منزل الا انهدم ولا مال الا ذهب وقد اصبحت لا املك سبدا ولا لبدا وعلي دين كثير ولي عيال اطفال وصبية صغار وأنا شيخ كبير قد قعدت بي المطالب وكبرت عن المكاسب وبي حاجة الى نظر أمير المؤمنين وعطفه قال فبينما هو في الكلام اذ ضرط فقال وهذا يا أمير المؤمنين من عجائب الدهر ومحنته ولا والله ماظهر مني قط الا في موضعه فقال المأمون لجلسائه ما رأيت قط اقوى قلبا ولا اربط جأشا ولا اشد نفسا من هذا الرجل ثم أمر له بخمسين ألف درهم * قال أبو العتاهية وجه الي المأمون يوما فصرت اليه فألفيته مطرقا متفكرا مغموما فأحجمت فاطرق مليا ثم رفع رأسه فقال يا اسماعيل شأن النفس الملال وحب الاستطراف والانس بالوحدة كما تأنس بالالف قلت أجل يا أمير المؤمنين ولي من هذا بيت شعر قال وما هو قلت

لا تصلح النفس اذ كانت مطرفة * الا التنقل من حال الى حال

قال أحسنت زدني فقلت لا اقدر على ذلك وآنسته بقية يومه وأمر لي بمال فانصرفت (ويحكى) أن المأمون أمر بعض خواصه من خدمه ان يخرج فلا يرى احدا في الطريق الا أتى به كائنا من كان من رفيع أو خسيس فأتاه برجل من العامة فدخل وعنده المعتصم أخوه ويحيى بن اكثم ومحمد بن عمر الرومي وقد طبخ كل واحد منهم قدرا فقال محمد بن ابراهيم الطاهري هؤلاء من خواص أمير المؤمنين فاجبهم عما يسألون فقال المأمون الى

أين خرجت في هذا الوقت وقد بقي عليك من الليل ثلاث ساعات فقال غرني القمر وسمعت تكبيرا فلم اشك انه اذان فقال له المأمون اجلس فجلس فقال له المأمون قد طبخ كل واحد منا قدرا هو ذا يقدم اليك من كل واحد منها قدرا فأخبر عن فضائلها وماترى من طيبها فقال هاتوا فقدمت في طبق كبير كلها موضوعة عليه لايميز بينها ولكل واحدة ممن طبخها علامة فبدأ فذاق قدرا طبخها المأمون فقال زه وأكل منها ثلاث لقمات وقال أما هذه فكأنها مسكة وطباخها حكيم لطيف ظريف مليح ثم ذاق قدر المعتصم فقال هذه والله فكأنها والاولى من يد واحدة خرجتا وبحكمة طبختا ثم ذاق قدر عمر الرومي فقال وهذه قد طباخ ابن طباخ جاد ما احكمه ثم ذاق قدر يحيى بن اكثم فأعرض بوجهه وقال شبه هذه والله جعل طباخها فيها مكان بصلها خرا فضحك القوم وذهب بهم الضحك وقعد يحادثهم ويطايبهم ويلهي وطاولوا معه فلما برق الفجر قال له المأمون لايخرجن منك ماكافيه وعلم انه علم بهم فوصله باربعة آلاف دينار وقسط له على أصحاب القدور وقال اياك ان تعود الى الخروج في مثل هذا الوقت مرة اخرى فقال لا اعدمكم الله الطبخ ولا اعدمني الخروج فسألوه عن تجارته وعرفوا منزله وجعل في خدمة المأمون وخدمة الجميع وصار في جملتهم (وحدث) أبو عباد الكاتب وكان خاصا بالمأمون قال قال لي المأمون ما اعياني الاجواب ثلاثة انفس صرت الى أم ذي الرياستين اعزيها عنه فقلت لاتأسي عليه ولا تحزني لفقده فان الله قد اخلف عليك مني ولدا يقوم لك مقامه فهما كنت تنبسطين اليه فيه فلا تنقبضين عني منه فبكت ثم قالت يا أمير المؤمنين وكيف لا احزن على ولد اكسبني ولدا مثلك واتيت برجل قد تنبأ فقلت له من أنت قال موسى بن عمران عليه السلام فقلت ويحك ان موسى بن عمران عليه السلام كانت له آيات ودلالات بان بها أمره التي عصاه فابتلعت كيد السحرة ومنها اخراجه يده من جيبه وهي بيضاء وجعلت اعدد عليه ما أتى به موسى بن عمران عليه السلام من دلائل النبوة وقلت له لو اتيتني بشيء واحد من علاماته أو آية من آياته كنت أول من آمن بك والا قتلتك فقال صدقت الا اني اتيت بهذه العلامات لما قال فرعون أنا ربكم الاعلى فان قلت أنت كذلك اتيتك من العلامات بمثل ما أتيته به والثالثة ان أهل الكوفة اجتمعوا يشكون عاملا كنت أحمد مذهبه وأرتضي سيرته فوجهت اليهم اني اعلم بسيرة هذا الرجل وأنا عازم على القعود لكم في غداة غد فاختاروا رجلا يتولى المناظرة عنكم فانا اعلم بكثرة كلامكم فقالوا ما فينا من نرتضيه لمناظرة أمير المؤمنين الارجل اطروش فان صبر أمير المؤمنين عليه تفضل بذلك فوعدتهم الصبر عليه وحضروا من الغد فأمرت بالرجال فدخلوا والاطروش فلما مثل بين يدي امرته بالجلوس ثم قلت له ماتشكو من عاملكم فقال يا أمير المؤمنين هو شر عامل في الارض أما في أول سنة ولينا فانا بعنا اثاثنا وعقارنا وفي السنة الثانية بعنا ضياعنا وذخائرنا وفي السنة الثالثة خرجنا عن بلدنا فاستغثنا بأمير المؤمنين ليرحم شكوانا ويتطول علينا بالأمر بصرفه عنا فقلت له كذبت لا ام لك بل هو رجل احمدت سيرته ومذهبه وارتضيت دينه وطريقته واخترته لكم لمعرفتي بكثرة سخطكم على عمالكم قال يا أمير المؤمنين صدقت وكذبت أنا ولكن هذا العامل الذي

ارتضيت دينه وأمانته وعدله وانصافه كيف خصصتنا به هذه السنين دون البلاد حتى يشملهم من انصافه وعدله مثل الذى شملنا فقلت له قم فى غير حفظ الله فقد عزلته عنكم * وكان يحيى ابن اكثم يقول كان المأمون يجلس للمناظرة فى الفقه يوم الثلاثاء فاذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات ادخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم انزعوا اخفافكم ثم احضرت الموائد وقيل لهم اصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ومن خفه ضيق فلينزعه ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها فاذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنون منه ويناظرهم أحسن مناظرة وانصفها وابعدها من مناظرة المتجبرين فلا يزالون كذلك الى ان تزول الشمس ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون قال فانه يوما جالس اذ دخل عليه على بن صالح الحاجب فقال يا أمير المؤمنين رجل واقف بالباب عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة ويطلب الدخول للمناظرة فقلت انه بعض الصوفية فاردت بان اشير ان لا يؤذن له فبدأ المأمون فقال ائذن له فدخل عليه رجل عليه ثياب قد شمرها ونعله فى يده فوقف على طرف البساط فقال السلام عليكم ورحمة الله فقال له المأمون وعليك السلام فقال اتأذن فى الدنو منك قال ادن فدنا ثم قال اجلس فجلس ثم قال اتاذن فى كلامك فقال تكلم بما تعلم ان الله فيه رضى قال أخبرنى عن هذا المجلس الذى أنت قد جلسته اباجتماع من المسلمين عليك ورضى منك أم بالمغالبة لهم بالقوة عليهم بسلطانك قال لم اجلسه باجتماع منهم ولا بمغالبة لهم وانما كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلى أجمعه المسلمون اما على رضى واما على كره فعقد لى ولآخر معى ولاية هذا الأمر بعده فى اعناق من حضره من المسلمين فأخذ على من حضر بيت الله الحرام من الحاج البيعة لى ولآخر معى فاعطوا ذلك اما طائعين واما كارهين فمضى الذى عقده معى على هذا السبيل التى مضى عليها فلما صار الى علمت انى أحتاج الى اجتماع كافة المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها على الرضى ثم نظرت فرأيت أنى متى تخليت عن المسلمين اضطرب حبل الاسلام وانتقضت اطرافه وغلب الهرج والفتنة ووقع التنازع فتعطلت احكام الله سبحانه وتعالى ولم يحج أحد بيته ولم يجاهد فى سبيله ولم يكن له سلطان يجمعهم ويسوسهم وانقطعت السبل ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين ومجاهدا العدو لهم وضابطا لسبلهم وآخذا على أيديهم الى أن يجمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم عليه على الرضى به فاسلم الأمر اليه واكون كرجل من المسلمين وأنت أيها الرجل رسولى الى جماعة المسلمين فتى اجتمعوا على رجل ورضوا به خرجت اليه من هذا الأمر فقال السلام عليكم ورحمة الله وقام فأمر المأمون على بن صالح بان ينفذ فى طلبه من يعرف مقصده ففعل ذلك ثم رجع وقال وجهت يا أمير المؤمنين الى مسجد فيه خمسة عشر رجلا فقالوا له القيت الرجل فقال نعم قالوا فما قال لك قال ما قال لى الا خيرا ذكر أنه ناظر فى أمور المسلمين الى ان تأمن سبلهم ويقوم بالحج والجهاد فى سبيل الله ويأخذ المظلوم من الظالم ولا يعطل الاحكام فاذا رضى المسلمون برجل سلم الأمر اليه وخرج اليه منه قالوا ما نرى بهذا باسا وافترقوا فاقبل المأمون على يحيى فقال كفينا مؤنة هؤلاء بايسر الخطب فقلت الحمد لله

الذي الهمك يا أمير المؤمنين الصواب والسداد في القول (قال المسعودي) وكان يحيى قد ولي قضاء البصرة قبل تأكد الحال بينه وبين المأمون فرفع الى المأمون انه افسد أولادهم بكثرة لواطه فقال المأمون لو طعنوا عليه في احكامه قبل ذلك منهم قالوا يا أمير المؤمنين قد ظهرت منه الفواحش وارتكاب الكبائر واستفاض ذلك عنه وهو القائل يا أمير المؤمنين في صفة الغلمان وطبقاتهم ومراتبهم في أوصافهم فقال المأمون وما الذي قال فدفعت اليه القصة فيها جمل مما رمي به وحكي عنه في هذا المعنى وهو قوله

أربعة تفتن الحاظهم * فعين من يعشقهم ساهره

فواحد دنياه في وجهه * منافق ليست له آخره

وآخر دنياه مقبوحة * من خلفه آخرة وافره

وثالث قد حاز كلتيهما * قد جمع الدنيا مع الآخره

ورابع قد ضاع ما بينهم * ليست له دنيا ولا آخره

فانكر المامون ذلك في الوقت واستعظمه وقال أيكم سمع هذا منه قالوا هذا مستفاض من قوله فينا يا أمير المؤمنين فامر باخراجهم عنه وعزل يحيى عنهم وفي يحيى وما كان عليه بالبصرة يقول ابن أبي نعيم

ياليت يحيى لم يلده اكثمه * ولم تطأ أرض العراق قدمه

ألوط قاض في العراق نعلمه * أي دواة لم يلقها قلمه

وأي شعب لم يلجه ارقمه

وضرب الدهر ضربانه فاتصل يحيى بالمامون ونادمه ورخص له في امور كثيرة فقال له يوما يا أبا محمد من الذي يقول

قاض يرى الحد في الزناء ولا * يرى على من يلوط من باس

قال ذلك ابن ابي نعيم يا أمير المؤمنين وهو القائل

أميرنا يرتشي وحاكمنا * يلوط والرأس شر ما رأس

قاض يرى الحد في الزناء ولا * يرى على من يلوط من باس

ما أحسب الجور ينقضي وعلى الأمة وال من آل عباس

فاطرق المامون خجلا ساعة ثم رفع رأسه وقال ينفى ابن أبي نعيم الى السند * وكان يحيى اذا ركب مع المأمون في سفر ركب معه بمنطقة وقباء وسيف بمعاليق وساسية واذا كان الشتاء ركب في اقبية الخز وقلانس السمور والسروج المكشوفة وبلغ من اذاعته ومجاهرته باللواط ان المامون أمره ان يفرض لنفسه فرضا يركبون بركوبه ويتصرفون في اموره ففرض أربعمائة غلام مرد اختارهم حسان الوجوه فافتضح بهم وقال في ذلك راشد بن اسحاق يذكر ما كان من أمر يحيى في الفرض

خليلي انظرا متعجبين * لاظرف منظر مقلته عيني

لفرض ليس يقبل فيه الا * اسيل الخد حلو المقلتين

والا كل أشقر آكمي * قليل نبات شعر العارضين

يقدم دون موقف صاحبيه * بقدر جاله ويقبح ذين
يقودهم الى الهيجاء قاض * شديد الطعن بالرمح الرديني
اذا شهد الوغى منهم شجاع * تجدل للجبين وللبدين
يقودهم على علم وحلم * ليوم سلامة لا يوم حين
وصار الشيخ منحنيا عليه * بصرعه يجوز الركبتين
يغادرهم الى الاذقان صرعى * وكلهم جريح الخصيتين

وفيه يقول راشد أيضا

وكنا نرتجي ان نرى العدل ظاهرا * فأعقبنا بعد الرجاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها * وقاضي قضاة المسلمين يلوط

وكان يحيى بن اكثم بن عمرو بن أبي رباح من أهل خراسان من مدينة مرو وكان رجلا من بني تميم وسخط عليه المأمون في سنة خمس عشرة ومائتين وذلك بمصر وبعث به الى العراق مغضوبا عليه وله مصنفات في الفقه وفي فروعه واصوله وكتاب أورده على العراقيين سماه بكتاب التنبيه وبينه وبين أبي سليمان أحمد بن أبي دواد بن علي مناظرات كثيرة وفي خلافة المأمون كانت وفاة أبي عبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبد الله بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف الشافعي في رجب ليلة الجمعة وذلك سنة أربع ومائتين ودفن صبيحة الليلة وهو ابن أربع وخمسين سنة وصلى عليه السري ابن الحكم أمير مصر يومئذ كذلك ذكر عكرمة بن محمد بن بشر عن الربيع بن سليمان المؤذن وذكر أيضا محمد بن سفيان بن سعيد المؤذن وغيرهما عن الربيع بن سليمان مثل ذلك ودفن الشافعي بمصر نحو قبور الشهداء في مقبرة بني عبد الحكم وبين قبورهم وعند رأسه عمود من الحجر كبير وكذلك عند رجليه وعلى العالي الذي عند رأسه حفر قد كتب فيه في ذلك الحجر هذا قبر محمد بن ادريس الشافعي امين الله وما ذكرنا فمشهور بمصر والشافعي يتفق نسبه مع بني هاشم وبني امية في عبد مناف لانه من ولد المطلب بن عبد مناف وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم نحن وبنو المطلب كهاتين واشار باصبعيه مضمومتين وقد كانت قريش حاصرت بني المطلب مع بني هاشم في الشعب (وحدثني) فقير بن مسكين عن المزني بهذا وكان فقير يحدث عن المزني وكان سماعنا من فقير بن مسكين بمدينة اسوان بصعيد مصر قال قال المزني دخلت على الشافعي غداة وفاته فقلت له كيف اصبحت يا أبا عبد الله قال اصبحت من الدنيا راحلا ولاخواني مفارقا وبكاس المنية شاربا ولا ادري الى الجنة تصير روحي فاهنيها ام الى النار فأعزيها وأنشأ يقول

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي * جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته * بعفوك ربي كان عفوك اعظما

وفي هذه السنة التي مات فيها الشافعي وهي سنة أربع ومائتين مات أبو داود سليمان بن داود الطيالسي وهو ابن احدى وتسعين سنة وفيها مات هشام بن محمد الكلبي (وادعى) رجل النبوة بالبصرة أيام المأمون فحمل اليه موثقا بالحديد فمثل بين يديه فقال أنت نبي

مرسل قال أما الساعة فانا موثق قال ويلك من غرك قال ابهذا تخاطب الانبياء أما والله لولا انى موثق لامرت جبريل ان يدمدمها عليكم قال له المأمون والموثق لا يجاب له دعوة قال الانبياء خاصة اذا قيدت لا يرتفع دعاؤها فضحك المأمون وقال من قيدك قال هذا الذى بين يديك قال فنحن نطلقك وتأمر جبريل ان يدمدمها فان اطاعك آمنابك وصدقناك فقال صدق الله اذ يقول فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ان شئت فافعل فامر باطلاقه فلما وجد راحة العافية قال يا جبريل ومد بها صوته ابعثوا من شئتم فليس بينى وبينكم الآن خبر غيرى يملك الاموال وأنا لاشئ معى ما يذهب لكم الا السجان فأمر باطلاقه والاحسان اليه (وحدث) ثمامة بن اشرس قال شهدت مجلسا للمأمون وقد أتى برجل ادعى أنه ابراهيم الخليل فقال له المأمون ما سمعت بأجرأ على الله من هذا قلت ان رأى أمير المؤمنين ان يأذن لى فى كلامه قال شأنك وأياه قلت ياهذا ان ابراهيم عليه السلام كانت له براهين قال وما براهينه قلت اضرمت له النار وألقى فيها فكانت عليه بردا وسلاما فنحن نضرم لك نارا ونطرحك فيها فان كانت عليك بردا وسلاما كما كانت عليه آمنابك وصدقناك قال هات ماهو ألين على من هذا قلت فبراهين موسى عليه السلام قال وماهى قلت ألقى العصا فاذاهى حية تسعى تلقف ما يأفكون وضرب بها البحر فانفلق وبياض يده من غير سوء قال هذا اصعب ولكن هات ماهو ألين من هذا قلت فبراهين عيسى عليه السلام قال وما براهينه قلت احياء الموتى فقطع الكلام فى براهين عيسى وقال جئت بالطامة الكبرى دعنى من براهين هذا قلت فلابد من براهين قال مامعى من هذا شئ قلت لجبريل انكم توجهونى الى الشياطين فاعطونى حجة اذهب بها والا لم اذهب فغضب جبريل عليه السلام على وقال جئت بالشر من ساعة اذهب أولا فانظر ما يقول لك القوم فضحك المأمون وقال هذا من الانبياء التى تصلح للمنادمة وفى سنة ثمان وتسعين ومائة خلع المأمون اخاه القاسم بن الرشيد من ولاية العهد وفى سنة تسع وتسعين ومائة خرج أبو السرايا السرى ابن منصور الشيبانى بالعراق واشتد أمره ومعه محمد بن ابراهيم بن اسمعيل بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وهو ابن طباطبا ووثب بالمدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن على رحمهم الله ووثب بالبصرة على بن محمد بن جعفر بن على بن الحسين عليهم السلام وزيد بن موسى بن جعفر فغلبوا على البصرة وفى هذه السنة مات أبو طباطبا الذى كان يدعو اليه أبو السرايا وهو محمد بن ابراهيم المقدم ذكره وظهر فى هذه السنة باليمن وهى سنة تسع وتسعين ومائة ابراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد وظهر فى أيام المأمون بمكة ونواحى الحجاز محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين رحمهم الله وذلك فى سنة مائتين ودعا لنفسه واليه دعت السمطية من فرق الشيعة وقالت بامامته وقد افترقوا فرقا فمنهم من غلا ومنهم من قصر وسلك طريق الامامية وقد ذكرنا فى كتاب المقالات فى اصول الديانات وفى كتاب أخبار الزمان من الامم الماضية والاجيال الخالية والممالك الداثرة فى الفن الثلاثين من أخبار خلفاء بنى العباس ومن ظهر فى أيامهم من الطالبيين وقيل ان محمد بن جعفر دعا فى بدء أمره وعنفوان شبابه الى محمد بن ابراهيم بن طباطبا صاحب أبى

السرايا

السرايا فلما مات ابن طباطبا وهو محمد بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن دعا لنفسه وتسمى بأمير المؤمنين غير محمد بن جعفر وكان يسمى بالديباجة لحسنه وبهائه وما كان عليه من البهاء والكمال وكان له بمكة ونواحيها قصص حمل فيها الى المأمون بخراسان والمأمون يومئذ بمرو فأمنه المأمون وحمله معه الى جرجان مات محمد بن جعفر بها فدفن بها وقد أتينا على كيفية وفاته وما كان من أمره وغيره من آل أبي طالب في كتابنا حدائق الأذهان في اخبار آل أبي طالب ومقاتلهم في بقاع الأرض وظهر في أيام المأمون أيضا بالمدينة الحسن ابن الحسين بن علي بن علي بن الحسين بن علي وهو المعروف بابن الافطس وقيل انه دعا في بدء أمره الى ابن طباطبا فلما مات ابن طباطبا دعا الى نفسه والقول بامامته وسار الى مكة فأتى الناس وهم بمنى وعلى الحاج داود بن عيسى بن موسى الهاشمي فهرب داود ومضى الناس الى عرفة ودفعوا الى مزدلفة بغير انسان عليهم من ولد العباس وقد كان ابن الافطس وافى الموقف بالليل ثم صار الى المزدلفة والناس بغير امام فصلى بالناس ثم مضى الى منى فنحر ودخل مكة وجرد البيت مما عليه من الكسوة الا القباطي البيض فقط وفي سنة مائتين ظهر حماد المعروف بالكبدعوس بن السرايا فأتى به الحسن بن سهل فقتله وصلبه على الجسر ببغداد وقد أتينا في كتابنا في أخبار الزمان على خبر أبي السرايا وخروجه وما كان منه في خروجه وقتله عبدوس بن أبي خالد ومن كان معه من قواد الابناء واستباحة عسكره (قال المسعودي) وفي سنة مائتين بعث المأمون برجاء بن أبي الضحاك وياسر الخادم الى علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين الرضا لاشخاصه فحمل اليه مكرما وفيها أمر المأمون باحصاء ولد العباس من رجالهم ونسائهم وصغيرهم وكبيرهم فكان عددهم ثلاثة وثلاثين ألفا ووصل الى المأمون علي بن موسى الرضا وهو بمدينة مرو فأنزله المأمون أحسن انزال وأمر المأمون بجمع خواص الاولياء وأخبرهم انه نظر في ولد العباس وولد علي رضي الله عنهم فلم يجد في وقته أحدا افضل ولا احق بالأمر من علي بن موسى الرضا فبايع له بولاية العهد وضرب اسمه على الدنانير والدراهم وزوج محمد بن علي بن موسى الرضا بابنته أم الفضل وأمر بازالة السواد من اللباس والاعلام ونمى ذلك الى من بالعراق من ولد العباس فأعظموه اذ علموا أن في ذلك خروج الأمر عنهم وحج بالناس ابراهيم بن موسى بن جعفر أخو الرضا بأمر المأمون واجتمع من بمدينة السلام من ولد العباس على خلع المأمون ومبايعة ابراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة فبويع له يوم الخميس لخمس خلون من المحرم سنة اثنتين ومائتين وقيل ان ذلك في سنة ثلاث ومائتين وفي سنة اثنتين ومائتين قتل الفضل بن سهل في حمام غيلة وذلك بمدينة سرخس من بلاد خراسان وذلك في دار المأمون في مسيره الى العراق وقبض علي بن موسى الرضا بطوس لعنب أكله وأكثر منه وقيل انه كان مسموما وذلك في صفر سنة ثلاث ومائتين وصلى عليه المأمون وهو ابن ثلاث وخمسين سنة وقيل سبع وأربعين سنة وستة اشهر وكان مولده بالمدينة سنة ثلاث وخمسين ومائة للهجرة وكان المأمون زوج ابنته أم حبيبة لعلي بن موسى الرضا فكانت احدى الاختين تحت محمد بن علي بن موسى والاخرى تحت أبيه

على بن موسى واضطربت بغداد فى أيام ابراهيم بن المهدى وثارت الرويضية وسموا انفسهم المطوعية وهم رؤساء العامة والتوابع ولما قرب المأمون من مدينة السلام صلى ابراهيم بن المهدى بالناس فى يوم النحر واختفى فى يوم الثانى من النحر وذلك فى سنة ثلاث ومائتين فخلعه أهل بغداد وكان دخول المأمون بغداد سنة أربع ومائتين ولباسه الخضرة ثم غير ذلك وعاد الى لباس السواد وذلك حين قدم طاهر بن الحسين من الرقة اليه وفى سنة احدى ومائتين كان القحط العظيم ببلاد المشرق والوباء بخراسان وغيرها وفيها كان خروج بابل الخرمى ببلاد البدين فى أصحاب جاويذان بن شهرك وقد قدمنا ذكرنا بلاد بابل وهى البدين من اذربيجان والران والبيلقان فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لجبل الفتح والباب والابواب ونهر الراس وجريانه نحو بلاد البدين وبث المأمون عيونه فى طلب ابراهيم بن المهدى وقد علم باختفائه فيها فظفر به لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة سبع ومائتين فى زى امرأة ومعه امرأتان أخذه حارس بن اسود فى الدرب المعروف بالطويل ببغداد فادخل الى المأمون فقال هيه يا ابراهيم فقال يا أمير المؤمنين ولى الثار محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الزمان واستولى عليه الاغترار بما مدله من اسباب الشقاء امكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذى عفو كما جعل كل ذى ذنب دونى فان تعاقب فبحقك وان تعف فبفضلك قال بل العفو يا ابراهيم فكبر ثم خر ساجدا فأمر المأمون فصيرت التى كانت عليه على صدره ليرى الناس الحال التى أخذ عليها ثم أمر به فصير فى دار الحرس أياما ينظر الناس اليه ثم حول الى أحمد بن خالد ثم رضى عنه من بعد أن كان وكل به فقال ابراهيم فى ذلك من كلمة له

ان الذى قسم المكارم حازها * من صلب آدم للامام السابع

جمع القلوب عليك جامع أهلها * وجرى ودادك كل خير جامع

فبذلت اعظم مايقوم بحمله * وسع النفوس من الفعال البارع

وعفوت عمن لم يكن عن مثله * عفو ولم يشفع اليك بشافع

وانحدر المأمون الى فم الصلح فى شعبان سنة تسع ومائتين وأملك بخديجة ابنة الحسن بن سهل التى تسمى بوران ونثر الحسن فى ذلك من الاموال مالم ينثره ولم يفعله ملك قط فى جاهلية ولا فى اسلام وذلك انه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك فيها رقاع باسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك فكانت البندقة اذا وقعت فى يد الرجل فتحها فقرأ مافيها فيجد على قدر اقباله وسعوده فيها فيمضى الى الوكيل الذى نصب لذلك فيقول له ضيعة يقال لها فلانة الفلانية من طسوج كذا من رستاق كذا وجارية يقال لها فلانة الفلانية ودابة صفتها كذا ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر وأنفق على المأمون وقواده وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده على المكارين والحمالين والملاحين وكل من ضمه العسكر من تابع ومتبوع ومرتزق وغيره فلم يكن أحد من الناس يشترى شيا فى عسكر المأمون مما يطعم ولا مما تعتلفه البهائم فلما اراد المأمون أن يصعد فى دجلة الى مدينة السلام قال للحسن

حوائجك يا أبا محمد قال نعم يا أمير المؤمنين اسالك ان تحفظ على مكانى من قلبك فانه لا يتهيأ لى حفظه الا بك وأمر المأمون بحمل خراج فارس وكور الاهواز اليه سنة فقالت فى ذلك الشعراء فاكثرت واطنبت الخطباء فى ذلك وتكلمت فمما استطرف مما قيل فى ذلك من الشعر قول محمد بن حازم الباهلى

بارك الله للحسن * ولبوران فى الختن
يا ابن هارون قد ظفر * ت ولكن ببنت من

فلما نمى هذا الشعر الى المأمون قال والله ماندرى خيرا أراد أم شرا ودخل ابراهيم بن المهدى يوما على المأمون بعد مدة من الظفر به فقال ان هذين يحملانى على قتلك يعنى المعتصم أخاه والعباس بن المأمون فقال ما اشارا عليك الا بما يشار به على مثلك ولكن تدع ما تخاف لما ترجو وأنشد

رددت مالى ولم تبخل على به * وقبل ردك مالى قد حقنت دمى
نبوت منها وما كافيتها بيد * هما الحياتان من موت ومن عدم
البر وطأ منك العذر عندك لى * فيما اتيت ولم تعذل ولم تلم
وقام عذرك بى فاحتج عندك لى * مقام شاهد عدل غير متهم

ولابراهيم اخبار حسان واشعار ملاح وما كان من أمره فى حال اختفائه فى سويقة غالب ببغداد وتنقله من موضع الى موضع بها وخبره فى الليلة التى قبض عليه فيها قد أتينا على جميعها فيما سمينا من كتبنا التى كان هذا تاليا لها وقد صنف يوسف بن ابراهيم الكاتب صاحب ابراهيم بن المهدى كتبا منها كتابه فى اخبار المتطببين مع الملوك فى المآكل والمشارب والملابس وغير ذلك وكتابه المعروف بكتاب ابراهيم بن المهدى فى انواع الاخبار وغير ذلك من كتبه ومن أحسن ما اخترمن أخبار ابراهيم فى حال تنقله واختفائه ببغداد خبره مع المزين وهوان المأمون لما دخل بغداد على ما ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب من بث العيون طلبا لابراهيم بن المهدى وجعل لمن دل عليه جعلا خطيرا من المال قال ابراهيم فخرجت فى يوم صائف فى وقت الظهر لا أدرى أين أتوجه فصرت الى زقاق ولا منفذ له فرأيت أسود على باب دار فصرت اليه وقلت له أعندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار فقال نعم وفتح بابه فدخلت الى بيت فيه حصير نظيف ووسادة جلد نظيفة ثم تركنى وأغلق الباب فى وجهى ومضى فتوهمته قد سمع الجعالة فى وانه خرج ليدل على فبينا أنا كذلك اذ أقبل ومعه طبق عليه كل ما يحتاج اليه من خبز ولحم وقدر جديد وآلتها وجرة نظيفة وكيزان نظاف كل ذلك جديد وقال لى جعلنى الله فداك انى حجام وانى أعلم أنك تتقذر ما أتولاه فشأنك بما لم تقع عليه يدى وكانت بى حاجة شديدة الى الطعام فقمت فطبخت لنفسى قدرا ما أذكر انى أكلت أطيب منها ثم قال لى بعد ذلك هل لك فى النبيذ فقلت ما أكره ذلك ففعل مثل فعله فى الطعام وأتانى بكل شئ نظيف لم يمس شيأ منه بيد ثم قال لى بعد ذلك أتأذن لى جعلنى الله فداك أن أقعد ناحية منك فآتى بنبيذ فأشرب منه سرورا بك قال فقلت افعل ذلك فلما شرب ثلاثا دخل خزانة له وأخرج منها عودا وقال يا سيدى ليس من قدرى أن أسألك أن تغنى

ولكن قد وجبت عليك حرمتي فان رأيت ان تشرف عبدك بان تغنيه قال فقلت وكنت توهمت على انى احسن الغناء فقال متعجبا يا سبحان الله أنت اشهر من أن لا أعرفك أنت ابراهيم بن المهدي الذى قد جعل المأمون لمن دل عليك مائة الف درهم قال فلما قال لى ذلك تناولت العود فلما هممت بالغناء قال ياسيدي أتجعل ما تغنيه ما أقترحه عليك قلت هات فاقترح ثلاثة أصوات أتقدم فيها كل من غنى قلت هبك عرفتني هذه الاصوات من اين لك قال أنا أخدم ابراهيم بن اسحاق الموصلي وكثيرا ما كنت اسمعه يذكر المحسنين وما يجيدونه ولم أتوهم أني أسمع ذلك منك في منزلى فغنيته وانست به واستظرفته فلما كان الليل خرجت من عنده وقد كنت حملت معي خريطة فيها دنانير فقلت له خذها فاصرفها في بعض مؤنتك ولك عندنا مزيد ان شاء الله تعالى فقال ما أعجب هذا والله عزمت على انى أعرض عليك جملة عندي وأسألك ان تتفضل بقبولها ثم اجللتك عن ذلك فامتنع من قبول شئ ومضى حتى دلنى على الموضع الذى احتجت اليه وانصرف وكان آخر العهد به وفي سنة ست ومائتين وذلك في خلافة المأمون مات يزيد بن هارون بن زادان الواسطي وله تسع وثمانون سنة وكان مولده سنة سبع عشرة ومائة وهو مولى بني سليم وكان ابوه يخدم في مطبخ زياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد ومصعب بن الزبير والحجاج بن يوسف وهذا عمدة اهل الحديث في علمهم وعظيم من عظمائهم وكانت وفاته بواسط العراق وفيها مات جرير بن خزيمة بن حازم وشبابة ابن سوار المدني والحجاج بن محمد الاعور الفقيه وعبد الله بن نافع الصائغ المدني مولى لبني مخزوم ووهب بن جرير ومؤمل بن اسماعيل وروح بن عبادة وفيها مات الهيثم بن عدي وكان يضعف عليه نسبه وله يقول القائل

اذا نسبت عديا في بني ثعل * فقدم الدال قبل العين في النسب

وفي سنة تسع ومائتين مات الواقدي وهو محمد بن عمر بن واقد مولى لبني هاشم وهو صاحب السير والمغازي وقد ضعف في الحديث وذكر ابن أبي الازهر قال حدثني أبو سهل الداري عمن حدثه عن الواقدي قال كان لى صديقان أحدهما هاشمي وكنا كنفس واحدة فنالتني ضيقة شديدة وحضر العيد فقالت امرأتي أما نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمة لهم لانهم يرون صبيان الجيران قد تزينوا في عيدهم وأصلحوا ثيابهم وهم على هذه الحال من الثياب الرثة فلو احتلت بشئ تصرفه في كسوتهم قال فكتبت الى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة على لما حضر فوجه الى كيسا مختوما ذكر أنه فيه ألف درهم فما استقر قراري اذ كتب الى الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت الى صاحبي فوجهت اليه الكيس بحاله وخرجت الى المسجد فاقمت فيه ليلي مستحييا من امرأتي فلما دخلت عليها استحسنت ما كان مني ولم تعنفني عليه فبينا أنا كذلك اذ وافي صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته فقال لى أصدقني عما فعلته فيما وجهت اليك فعرفته الخبر على جهته فقال انك وجهت الى وما أملك على الارض الا ما بعثت به اليك وكتبت الى صديقنا أساله المواساة فوجه بكيسي بخاتمي قال فتواسينا الالف اثلاثا ثم انا أخرجنا الى المرأة قبل ذلك مائة درهم ونمى الخبر الى المأمون فدعاني فشرحت له الخبر

فأمر لنا بسبعة آلاف دينار لكل واحد ألف دينار وللمرأة ألف دينار وقبض الواقدى وهو ابن سبع وسبعين سنة وفيها كانت وفاة يحيى بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على ببغداد وصلى عليه المأمون وقد أتينا على خبره فيما سلف من كتبنا وفيها مات أزهر السمان وكان صديقا لابى جعفر المنصور فى أيام بنى أمية وكانا قد سافرا جميعا وسمعا الحديث وكان المنصور يألفه ويأنس اليه ويكبر عنده فلما افضت الخلافة اليه أشخص اليه من البصرة وسأله المنصور عن زوجته وبناته وكان يعرفهن بأسمائهن وأظهر بره واكرامه ووصله بأربعة الاف درهم وأمره أن لا يقدم اليه مستميحا فلما كان بعد حول صار اليه فقال له ألم آمرك أن لا تصير الى مستميحا فقال له ما صرت اليك الا مسلما ومجددا بك عهدا قال ما أرى الامر كما ذكرت فأمر له بأربعة آلاف درهم وأمره أن لا يصير اليه مسلما ولا مستميحا فلما كان بعد سنة صار اليه فقال انى لم أقدم عليك للامرين اللذين نهيتنى عنهما وانما بلغنى أن علة عرضت لامير المؤمنين فأتيته عائدا فقال ما أظنك أتيت الا مستوصلا فأمر له بأربعة الاف درهم فلما كان بعد الحول الح عليه بناته وزوجته وقلن له أمير المؤمنين صديقك فارجع اليه فقال ويحكن ماذا أقول له وقد قلت له أتيتك مستميحا ومسلما وعائدا ماذا أقول فى هذه المرة وبم أحتج فأبوا على الشيخ الا الالحاح فخرج فأتى المنصور وقال لم آتك مسترفدا ولا زائرا ولا عائدا وانما جئت لسماع حديث كنا سمعناه جميعا فى بلد كذا من فلان عن النبى صلى الله عليه وسلم فيه اسم من أسماء الله تعالى من سأل الله به لم يرده ولم يخيب دعوته فقال له المنصور لا ترده فانى قد جربته فليس هو بمستجاب وذلك انى مذ جئتنى أسأل الله به أن لا يردك الى وها أنت ترجع لا تنفك من قولك مسلما أو عائدا أو زائرا ووصله بأربعة الاف درهم وقال له قد أعيتنى فيك الحيلة فصر الى متى شئت وفى سنة تسع ومائتين ركب المأمون الى المطبق بالليل حتى قتل ابن عائشة وهو رجل من ولد العباس بن عبد المطلب واسمه ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الامام أخى أبى العباس والمنصور وقتل معه محمد بن ابراهيم الافريقى وغيره وابن عائشة هذا أول عباسى صلب فى الاسلام وتمثل المأمون حين قتله بقول الشاعر

اذا النار فى أحجارها مستكنة * متى ما يهجها قادح تتضرم

وكان رجل من ولد العباس بن على بن أبى طالب ذو مال وثروة وعز ومنعة وفهم وبلاغة وهو العباس بن العباس العلوى بمدينة السلام وكان المعتصم يشنأه لحال كانت بينهما فسكن فى نفس المأمون أنه شانئ لدولته ماقت لايامه فلما كان فى تلك الليلة لحق العباس المأمون على الجسر فقال له المأمون ما زلت تنتظرها حتى وقعت فقال أعيذك بالله يا أمير المؤمنين ولكنى ذكرت قول الله عز وجل ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه فحسن موقع ذلك منه ولم يزل يسايره حتى بلغ المطبق فلما قتل ابن عائشة قال يأذن أمير المؤمنين فى الكلام قال تكلم قال الله الله فى الدماء فان الملك اذا ضرى بها لم يصبر عنها ولم يبق على أحد قال لو سمعت هذا الكلام منك قبل أن أركب ما ركبت ولا سفكت دما وأمر له بثلاثمائة ألف درهم وقد أتينا على

خبر ابن عائشة هذا وما أراد من الايقاع بالمأمون وما كان من أمره فى كتابنا فى أخبار الزمان وفى سنة احدى عشرة ومائتين مات أبو عبيدة العمرى معمر بن المثنى وكان يرى رأى الخوارج وبلغ نحوا من مائة سنة ولم يحضر جنازته أحد من الناس بالمصلى حتى اكترى لها من يحملها ولم يكن يسلم عليه شريف ولا وضيع الا تكلم فيه وله مصنفات حسان فى أيام العرب وغيرها منها كتاب المثالب يذكر فيه العرب وفسادها ويرميهم بمساوى الناس ذكره ولا يحسن وصفه وكان أبو نواس كثير العبث به وكان أبو عبيدة يقعد فى مسجد البصرة الى سارية من سواريه فكتب أبو نواس عليها فى غيبته

صلى الاله على لوط وشيعته * ابا عبيدة قل بالله آمينا

فلما جاء أبو عبيدة الى تلك السارية رأى ذلك فقال هذا فعل الماجن اللواط أبو نواس حكوه وان كان فيه صلاة على نبى وفى هذه السنة وهى سنة احدى عشرة ومائتين مات أبو العتاهية اسماعيل بن القاسم متنسكا لابسا للصوف وكان له مع الرشيد أخبار من ذلك ما قدمنا ذكره فيما سلف من هذا الكتاب ومنها أن الرشيد أمر ذات يوم بحمله وأمر أن لا يكلم فى طريقه ولا يعلم ما يراد منه فلما صار فى بعض الطريق كتب بعض من معه فى الطريق انما يراد قتلك فقال أبو العتاهية

ولعل ما تخشاه ليس بكائن * ولعل ما ترجوه سوف يكون

ولعل ما هونت ليس بهين * ولعل ما شددت سوف يهون

وحج فى بعض الحجج مع الرشيد فنزل الرشيد يوما عن راحلته ومشى ساعة ثم أعيى فقال هل لك يا أبا العباس أن تستند الى هذا الميل فلما قعد الرشيد قال له يا ابا العتاهية حركنا فقال

ألا يا طالب الدنيا * دع الدنيا لشانيكا

وما تصنع بالدنيا * وظل الميل يكفيكا

ولابى العتاهية أخبار وأشعار كثيرة حسان قد قدمنا فيما سلف من كتبنا جملا مما اختير من شعره وما انتخب من قوافيه وكذلك قدمنا من ذلك لمعا فيما سلف من هذا الكتاب فى اخبار بنى العباس ومما استحسن من ذلك قوله

أحمد قال لى ولم يدر ما بى * أتحب الغداة عتبة حقا

فتنفست ثم قلت نعم حبا * جرى فى العروق عرقا فعرقا

ليتنى مت فاسترحت فانى * أبدا ما حييت منها ملقى

لا أرانى أبقى ومن يلق مالا * قيت من لوعة الهوى ليس يبقى

فاحتسب صحبتى وقل رحمة الله * على صاحب لنا مات عشقا

انا عبد لها وان كنت لا ار * زق منها والحمد لله عتقا

ومما استحسن من شعره أيضا قوله

يا عتب مالى ولك * يا ليتنى لم أرلك

ملكتنى فانتهكى * ماشئت أن تنتهكى

أبيت ليلى ساهرا * أرعى نجوم الفلك

مفترشا جمر الغضى * ملتحفا بالحسك

ومن قوافيه الغريبة وأشعاره المستحسنة قوله

اخلاى بى شجو وليس بكم شجو * وكل امرئ عن شجو صاحبه خلو
رأيت الهوى جمر الغضى غير أنه * على جره فى صدر صاحبه حلو
اذاب الهوى جسمى وعظمى وقوتى * فلم يبق الا الروح والبدن النضو
ومامن حبيب نال ممن يحبه * هوى صادقا الا يداخله زهو
وانى لنائى الطرف من غير خلتى * ومالى سواها من حديث ولا لهو
لها دون اخوانى وأهل مودتى * من الود منى فضلة ولها العفو

ومما انتخب من شعره واستحسنه الناس من قوله قوله

يا لهف نفسى على الذى اجتنبت * بأى جرم وترونها عتبت
تبارك الله بئس ما صنعت * بى فى هواها وبئس ما ارتكبت
اتيتها زائرا فما انحرفت * على اذ جئتها وما احتسبت
كم من ديون والله يعلمها * لنا عليها لم تقض اذ وجبت
ما وهبت لى من فضلها عدة * الا استردت جميع ما وهبت
فأى خير وأى منفعة * لذات دل تريق ما حلبت
الله بينى وبين ظالمتى * طلبت منها وصالها فأبت
ماذا عليها لو أنها بعثت * منها رسولا الى أو كتبت
رغبت فى وصلها وقد زهدت * عتبة فى وصلنا وما رغبت

وكان أبو العتاهية قبيح الوجه مليح الحركات حلو الانشاد شديد الطرب ومن مليح شعره قوله

من لم يذق لصبابة طعما * فلقد أحطت بطعمها علما
انى منحت مودتى سكنا * فرأيته قد عدها جرما
يا عتب ما ابقيت من جسدى * لحما ولا ابقيت لى عظما
يا عتب ما انا من صنيعك بى * اعمى ولكن الهوى اعمى
ان الذى لم يدر ما كلفى * ليرى على وجهى به وسما

وله اشعار خرج فيها عن العروض مثل قوله

هم القاضى بيت يطرب * قال القاضى لما عوتب
ما فى الدنيا الا مذنب * هذا عذر القاضى واقلب

وزنه فعلن أربع مرات وقد قال قوم ان العرب لم تقل على وزن هذا شعرا ولا ذكره الخليل ولا غيره من العروضيين (قال المسعودى) وقد زاد جماعة من الشعراء على الخليل بن أحمد فى العروض من ذلك المديد وهو ثلاثة اعاريض وستة ضروب عند الخليل وفيه عروض رابع وضربان محدثان فالضرب الاول من العروض الرابعة المحدثة قول الشاعر

من لعين لا تنام * دمعها سح سجام

والضرب الثانى من العروض الرابعة المحدثة قول الشاعر

يا البكر لا تنوا * ليس هذا حين ونا

وغير ذلك مما ذكرناه وتكلموا فيه وذكروا فى هذا المعنى من الزيادات مما قد اتينا على وصفه وقدمنا من ذكره فى كتابنا فى أخبار الزمان وقد صنف أبو العباس عبد الله بن محمد الناشى الكاتب الانبارى عن الخليل بن أحمد عن تقليد العرب الى باب التعسف والنظر ونصب العلل عن أوضاع الجدل كان ذلك له لازما ولما أوزده كامبراولناشى اشعار كثيرة حسان منها قصيدة واحدة نحو من أربعة آلاف بيت قافية واحدة نونية منصوبة يذكر فيها أهل الآراء والنحل والمذاهب والملل واشعار كثيرة ومصنفات واسعة فى أنواع من العلوم فما جورى فيه قوله حين سار من العراق الى مصر وبها كانت وفاته وذلك فى سنة ثلاث وتسعين ومائتين على حسب ما قدمنا ذكره

يا ديار الاحباب هل من مجيب * عنك يشفى غليل نائى المزار
ما أجابت ولكن الصمت منها * فيه للسائلين طول اعتبار
ان تكن اوحشت فبعد أنيس * أوخلت منهم فبعد قرار
قد لهونا بها زمانا وحينا * ووصلنا الاسحار بالاسحار
واغتبقنا على صبوح ولهو * وحنين النايات والاوتار
بين ورد ونرجس وخزامى * وبنفس وسوسن وبهار
وأقاح وكل صنف من النو * ر الشهى الجنى والجلنار
فرمتنا الايام أحسن ما كنا * على حين غفلة واغترار
فافترقنا من بعد طول اجتماع * ونأينا بعد اقتراب الديار

وفى سنة اثنتى عشرة ومائتين نادى منادى المأمون برئت الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكلم فى اشياء من التلاوة انها مخلوقة وغير ذلك وتنازع الناس فى السبب الذى من اجله أمر بالنداء فى أمر معاوية فقيل فى ذلك أقاويل منها ان بعض سماره حدث بحديث عن مطرف بن المغيرة ابن شعبة الثقفى وقد ذكر هذا الخبر ابن بكار فى كتابه فى الاخبار المعروفة بالموفقيات التى صنفها للموفق وهو ابن الزبير قال سمعت المدائنى يقول قال مطرف بن المغيرة بن شعبة وفدت مع أبى المغيرة الى معاوية فكان أبى يأتيه يتحدث عنده ثم ينصرف الى فيذكر معاوية ويذكر عقله ويعجب مما يرى منه اذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء فرأيته مغتما فانتظرته ساعة وظننت انه لشئ حدث فينا أو فى عملنا فقلت له مالى اراك مغتما منذ الليلة قال يا بنى انى جئت من عند أخبث الناس قلت له وماذاك قال قلت له وقد خلوت به انك قد بلغت منا يا أمير المؤمنين فلو أظهرت عدلا وبسطت خيرا فانك قد كبرت ولو نظرت الى اخوتك من بنى هاشم فوصلت ارحامهم فوالله ما عندهم اليوم شئ تخافه فقال لى هيهات هيهات ملك اخو تيم فعدل وفعل ما فعل فوالله ما عدا ان هلك فهلك ذكره الا ان يقول قائل أبو بكر ثم ملك أخو عدى فاجتهد وشمر عشر سنين فوالله ما عدا ان هلك فهلك ذكره الا ان يقول قائل عمر ثم ملك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد فى مثل

نسبه فعمل ما عمل وعمل به فوالله ماغدا أن هلك فهلك وذكره وذكر مافعل به وان أخاهاشم يصرخ به فى كل يوم خمس مرات اشهدان محمدا رسول الله فأى عمل يبقى مع هذا لاام لك والله الادفنا دفنا وان المأمون لما سمع هذا الخبر بعينه ذلك على ان أمر بالنداء على حسب ماوصفنا وانشئت الكتب الى الآفاق بلعنه على المنابر فاعظم الناس ذلك واكبروه واضطربت العامة فاشير عليه بترك ذلك فاعرض عما كان هم به وفى خلافة المأمون كانت وفاة أبى عاصم النبيل وهو الضحاك بن مخلد بن سنان الشيبانى وذلك فى سنة اثنتى عشرة ومائتين وفيها مات محمد بن يوسف الفارابى وفى سنة خمس عشرة ومائتين وذلك فى خلافة المأمون مات هوذة بن خليفة بن عبد الله بن أبى بكر ويكنى بأبى الاشهب ببغداد وهو ابن سبعين سنة ودفن بباب البردان فى الجانب الشرقى وفيها مات محمد بن عبد الله بن المثنى بن عبد الله بن انس بن مالك الانصارى وفيها مات اسحاق بن الطباع بأذنة من الثغر الشامى ومعاوية ابن عمرو ويكنى بأبى عمرو وقبض ابن عقبة ويكنى بأبى عامر من بنى عامر بن صعصعة وفى سنة سبع عشرة ومائتين دخل المأمون مصر وقتل بها عبدوس وكان قد تغلب عليها وفى سنة ثمان عشرة ومائتين غزا المأمون أرض الروم وقد كان شرع فى بناء الطوانة مدينة من مدنهم على فم الدرب مما يلى طرسوس وعمد الى سائر حصون الروم ودعاهم الى الاسلام وخيرهم بين الاسلام والجزية والسيف وذال النصرانية فاجابه خلق من الروم الى الجزية (قال المسعودى) وأخبرنا القاضى أبو محمد عبد الله بن أحمد بن زيد الدمشقى بدمشق قال لما توجه المأمون غازيا ونزل البديدون جاءه رسول ملك الروم فقال له ان الملك يخيرك بين ان يرد عليك نفقتك التى انفقتها فى طريقك من بلدك الى هذا الموضع وبين ان يخرج كل اسير من المسلمين فى بلد الروم بغير فداء ولا درهم ولا دينار وبين ان يعمر لك كل بلد للمسلمين مما خربت النصرانية ويرده كما كان وترجع عن غزاتك فقام المأمون ودخل خيمة فصلى ركعتين واستخار الله عز وجل وخرج فقال للرسول قل له أما قولك ترد على نفقتى فانى سمعت الله تعالى يقول فى كتابنا حاكيا عن بلقيس وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون وأما قولك انك تخرج كل اسير من المسلمين فى بلد الروم فما فى يدك الا احد رجلين اما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة فقد صار الى ما اراد واما رجل يطلب الدنيا فلا فك الله اسره وأما قولك انك تعمر كل بلد للمسلمين قد خربته الروم فلو أنى قلعت اقصى حجر فى بلاد الروم ما اعتضت بامرأة عثرت عثرة فى حال اسرها فقالت وامحمداه وامحمداه عد الى صاحبك فليس بينى وبينه الا السيف ياغلام اضرب الطبل فرحل فلم يثن عن غزاته حتى فتح خمسة عشر حصنا وانصرف من غزاته فنزل على عين البديدون المعروفة بالقشيرة على حسب ما قدمنا فى هذا الكتاب فأقام هنالك حتى ترجع رسله من الحصون فوقف على العين ومنع الماء فاعجبه برد مائها وصفاؤه وبياضه وطيب حسن الموضع وكثرة الخضرة فأمر بقطع خشب طوال وأمر به فبسط على العين كالجسر وجعل فوقه كالازج من الخشب وورق الشجر وجلس تحت الكنيسة التى قد عقدت له والماء تحته وطرح فى الماء درهم صحيح

نقرأ كتابته وهو فى قرار الماء لصفاء الماء ولم يقدر أحد يدخل يده فى الماء من شدة برده فبيناهو كذلك اذلاحت سمكة نحو الذراع كأنها سبيكة فضة فجعل لمن يخرجها سيفا فبدر بعض الفراشين فأخذها وصعد فلما صارت على حرف العين أو على الخشب الذى عليه المأمون اضطربت وأفلتت من يد الفراش فوقعت فى الماء كالحجر فنضح من الماء على صدر المأمون ونحره وترقوته فبلت ثوبه ثم انحدر الفراش ثانية فأخذها ووضعها بين يدى المأمون فى منديل تضطرب فقال المأمون تقلى الساعة ثم أخذته رعدة من ساعته فلم يقدر يتحرك من مكانه فغطى باللحف والدواويج وهو يرتعد كالسعفة ويصيح البرد البرد ثم حول الى المغرب ودثر وأوقد النيران حوله وهو يصيح البرد البرد ثم أتى بالسمكة وقد فرغ من قليها فلم يقدر على الذوق منها وشغله ماهو فيه عن تناول شئ منها ولما اشتد به الأمر سأل المعتصم بختيشوع وابن ماسويه فى ذلك الوقت عن المأمون وهو فى سكرات الموت وما الذى يدل عليه علم الطب من أمره وهل يمكن برؤه وشفاؤه فتقدم ابن ماسويه فأخذ احدى يديه وبختيشوع الاخرى وأخذا المجسة من كلتا يديه فوجدا نبضه خارجا عن الاعتدال منذرا بالفناء والانحلال والتزقت أيديهما ببشرته لعرق كان يظهر منه من سائر جسده كالزيت أو كلعاب بعض الافاعى فأخبرا المعتصم بذلك فسألهما عن ذلك فأنكرا معرفته وانهما لم يجداه فى شئ من الكتب وأنه دال على انحلال الجسد وافاق المأمون من غشيته وفتح عينيه من رقدته فأمر باحضار أناس من الروم فسألهم عن اسم الموضع والعين فاحضر له عدة من الاسارى والادلة وقيل لهم فسروا هذا الاسم القشيرة فقيل له تفسيره مد رجليك فلما سمعها اضطرب من هذا الفال وتطير به وقال سلوهم ما اسم الموضع بالعربية فقالوا الرقة وكان فيما عمل من مولد المأمون أنه يموت بالموضع المعروف بالرقة وكان المأمون كثيرا ما يحيد عن المقام بمدينة الرقة فرقا من الموت فلما سمع هذا من الروم علم أنه الموضع الذى وعد فيه فيما تقدم من مولده وان فيه وفاته وقيل ان اسم البديدون تفسيره مد رجليك والله اعلم بكيفية ذلك فاحضر المعتصم الاطباء حوله يؤمل خلاصه مما هو فيه فلما ثقل قال اخرجونى اشرف على عسكرى وأنظر الى رجالى وأتبين ملكى وذلك فى الليل فاخرج فاشرف على الخيم والجيش وانتشاره وكثرته وما قد وقد من النيران فقال يامن لايزول ملكه ارحم من قد زال ملكه ثم رد الى مرقده وأجلس المعتصم رجلا يشهده لما ثقل فرفع الرجل صوته ليقولها فقال له ابن ماسويه لا تصيح فوالله ما يفرق بين ربه وبين مانى فى هذا الوقت ففتح عينيه من ساعته وبهما من العظم والكبر والاحمرار مالم ير مثله قط وأقبل يحاول البطش بيده بابن ماسويه ورام مخاطبته فعجز عن ذلك فرمى بطرفه نحو السماء وقد امتلأت عيناه دموعا فانطلق لسانه من ساعته وقال يامن لايموت ارحم من يموت وقضى من ساعته وذلك فى يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمانى عشرة ومائتين وحمل الى طرسوس فدفن بها على حسب ما قدمنا فى أول هذا الكتاب (قال المسعودى) وللمأمون أخبار حسان ومعان وسير ومجالسات وأشعار وأخلاق جميلة قد أتينا على مبسوطها فيما سلف من كتبنا فاغنى ذلك عن ذكرها

وفى

وفي المأمون يقول أبو سعيد المخزومي

هل رأيت النجوم اغنت عن الما * مون شيا وملكه المأنوس
خلفوه بعرصتي طرسوس * مثل ما خلفوا أباه بطوس

وكان المأمون كثيرا ما ينشد هذه الابيات

ومن لا يزل عرضا للمنو * ن يتركنه ذات يوم عميدا
فان هن اخطأنه مرة * فيوشك مخطئها ان يعودا
فبينا تحيد وتخطينه * قصدن فأعجلنه ان يحيدا

(ذكر خلافة المعتصم)

وبويع المعتصم في اليوم الذي كانت فيه وفاة المأمون على عين البديدون وهو يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين واسمه محمد بن هارون ويكنى بأبي اسحاق وكان بينه وبين العباس بن المأمون في ذلك الوقت تنازع في المجلس ثم انقاد العباس الى بيعته والمعتصم يومئذ ابن ثمان وثلاثين سنة وشهرين وامه اساحية اسمها مارية بنت شبيب وقيل أنه بويع سنة تسع عشرة وتوفي بسر من رأى سنة سبع وعشرين وهو ابن ست وأربعين سنة وعشرة اشهر فكانت خلافته ثمان سنين وثمانية اشهر وقبره بالجوسق على ما ذكرنا

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه)

واستوزر المعتصم محمد بن عبد الملك الى آخر أيامه وغلب عليه ابن أبي دواد ولم يزل محمد بن عبد الملك في أيام المعتصم والواثق الى أن ولي المتوكل وكان في نفسه عليه شيء فقتله وسنذكر لمعا من مقتله فيما يرد من هذا الكتاب في أخبار المتوكل وان كنا قد أتينا على ذلك ملخصا في الكتاب الاوسط وكان المعتصم يحب العمارة ويقول ان فيها امورا محمودة فاولها عمران الارض التي يحيي بها العالم وعليها يزكو الخراج وتكثر الاموال وتعيش البهائم وترخص الاسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك اذا وجدت موضعا متى انفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة احدى عشر درهما فلا تؤامرني فيه وكان المعتصم ذا بأس وشدة في قلبه فذكر أحمد بن أبي دواد وكان به انسا قال فلما انكر المعتصم نفسه وقوته دخلت عليه يوما وعنده ابن ماسويه فقام المعتصم فقال لي لا تبرح حتى اخرج اليك فقلت ليحيي بن ماسويه ويحك اني أرى أمير المؤمنين قد حال لونه ونقصت قوته وذهبت سورته فكيف تراه أنت قال هو والله زبرة من زبر الحديد الاان في يديه فاسا يضرب بها تلك الزبرة فقلت وكيف ذاك قال كان قبل ذلك اذا أكل السمك اتخذ له صباغا من الخل والكرويا والكمون والسذاب والكرفس والخردل فأكله بذلك الصباغ فدفع اذى السمك واضراره بالعصب واذا أكل الرؤس اتخذت له اصباغ تدفع اذاها وتلطفها وكان في اكثر اموره يلطف غذاءه ويكثر مشورتي فصار اليوم اذا انكرت عليه شيأ خالفني وقال آكل هذا على رغم انف ابن ماسويه قال وهو خلف الستر يسمع ما نحن فيه فقلت ويحك يا يحيي أدخل اصبعك في عينيه قال جعلت فداك ما أقدر أراه

ولا أجترئ عليه فى خلاف فلما فرغ من كلامه خرج علينا المعتصم فقال لى ما الذى كنت فيه مع ابن ماسويه قلت ناظرته يا أمير المؤمنين فى لونك الذى اراه حائلا وفى قلة طعمك الذى قد هذ جوارحى وأنحل جسمى قال فما قال لك قلت شكا انك كنت تقبل ما يشير به عليك وكنت ترى فى ذلك على ما يحب وانك الآن تخالفه قال فما قلت له أنت قال فجعلت اصرف الكلام قال فضحك وقال هذا بعد ما دخل فى عينى أو قبل ذلك قال فارفضضت عرقا وعلمت انه قد سمع ما كنا فيه ورأى ما قد داخلنى فقال يغفر لك يا أحمد لقد فرحت بما ظننت انه أحزنك اذا سمعته وعلمت أنه نوع من أنواع الانبساط والبسط وكان المعتصم يأنس بعلى ابن الجنيد الاسكافى وكان عجيب الصورة عجيب الحديث فيه سلامة أهل السواد فقال المعتصم يوما لمحمد بن حماد اذهب بالغداة الى على بن الجنيد فقل له يتهيأ حتى يزاملنى فأتاه فقال ان أمير المؤمنين يأمرك ان تزامله فتهيأ أشروط حزاملة الخلفاء فقال على بن الجنيد وكيف اتهيأ أهبى لى رأسا غير رأسى اشترى لحية غير لحيتى أأزيد فى قامتى انا متهيئ وفضله قال لست تدرى بعد ما شروط حزاملة الخلفاء ومعادلتهم فقال على بن الجنيد وما هى هات يا من تدرى قال له ابن حماد وكان اديبا ظريفا وكان برسم الحجاب شرط المعادلة الامتاع بالحديث والمذاكرة والمناولة وان لا يبزق ولا يسعل ولا يتنخع ولا يمخط وأن يتقدم الرئيس فى الركوب اشفاقا عليه من الميل وان يتقدمه فى النزول فمتى لم يفعل المعادل هذا كان سواء والمثقلة الرصاص التى تعدل بها القبة واحدا وليس له ان ينام وان نام الرئيس بل يأخذ نفسه بالتيقظ ومراعاة حال من هو معه وما هو راكبه لانهما اذا ناما جميعا مال جانب لا يشعر بميله كان فى ذلك ما لا خفاء به وعلى بن الجنيد ينظر اليه فلما اكثر عليه فى هذا الوصف والشروط قطع عليه كلامه وقال كما يقول أهل السواد آه حرها اذهب له فقل له ما يزاملك الا من امه زانية وهو كشخان فرجع ابن حماد فقال للمعتصم ما قال فضحك المعتصم وقال جئنى به فجاء فقال يا على أبعث اليك تزاملنى فلا تفعل فقال ان رسولك هذا الجاهل الازعر جاءنى بشروط حسان الشاشى وخالويه المحاكى فقال لا تبزق ولا تفعل كذا وافعل كذا وجعل يمطط فى كلامه ويترفع من صاداته ويشير بيديه ولا يسعل ولا يعطس وهذا لا يقوم لى ولا اقدر عليه فان رضيت ان ازاملك فان جاءنى الفساء فسوت عليك وضرطت واذا جاءك أنت فأده فأفسو وأضرط والافلس بينى وبينك عمل فضحك المعتصم حتى فحص برجليه وذهب به الضحك كل مذهب وقال نعم زاملنى على هذه الشريطة قال نعم وكرامة فزامله فى قبة على بغل فسارا ساعة وتوسطا البر فقال على يا أمير المؤمنين حضر ذلك المتاع فما ترى قال ذلك اليك اذا شئت قال تحضر ابن حماد فامر المعتصم باحضاره فقال له على تعال حتى اسارك فلما دنا منه فسا وناوله كمه وقال اجد ديب شئ فى كمى فانظر ما هو فأدخل رأسه فشم رائحة الكنيف فقال ما ارى شيأ ولكنى لم اعلم ان فى جوف ثيابك كنيف والمعتصم قد غطى فمه بكمه وقد ذهب به الضحك كل مذهب ثم جعل يفسو فسا متصلا ثم قال لابن حماد قلت لى لا تسعل ولا تبزق ولا تمخط فلم افعل ولكنى أخراعليك قال فاتصل فساؤه والمعتصم يخرج رأسه من العمارية ثم قال للمعتصم قد نفجت

القدر وأريد أخرى فقال المعتصم ورفع صوته حين كثر ذلك عليه ويلك ياغلام الارض الساعة اموت ودخل على بن الجنيد الاسكافي يوما على المعتصم فقال له بعد أن ضاحكه وزهاله ياعلى مالى لا اراك ويلك انسيت الصحبة وما حفظت المودة فقال له حينئذ بالغ الكلام الذى اريد أن اقوله قلته أنت ما أنت الا ابليس فضحك ثم قال لا تجئنى قال اه كم اجىء فلا أصل أنت اليوم نبيل فكانك من بنى ماريه وبنو ماريه اناس من أهل السواد يضرب بهم أهل السواد الامثال لكبرهم فى نفوسهم فقال له المعتصم هذا سندان التركى وأشار الى غلام على رأسه بيده مذبة وقال له ياسندان اذا حضر على فأعلمنى وان أعطاك رقعة فأوصلها الى وان حملك رسالة فأخبرنى بها قال نعم ياسيدى وانصرف فأقام أياما ثم جاء يطلب سندان فقالوا هو نائم فانصرف ثم عاد فقالوا هو داخل ولا تصل اليه فانصرف وعاد فقالوا هو عند أمير المؤمنين فاحتال حتى دخل عند المعتصم من جهة اخرى فضاحكه ساعة وعاتبه وقال له ياعلى ألك حاجة قال نعم ياأمير المؤمنين ان رأيت سندان التركى فاقرءه منى السلام فضحك وقال ماحاله قال حاله انك جعلت بينى وبينك انسانا رأيتك قبل أن أراه وقد اشتقت اليه فأسألك ان تبلغه منى السلام فغلب المعتصم الضحك وجمع بينه وبين سندان واكد عليه فى مراعاة أمره فكان لا يمنع منه وعبر المعتصم من سر من رأى من الجانب الغربى وذلك فى يوم مطير وقد تبع ذلك ليلة مطيرة وانفرد من أصحابه واذا حمار قد زلق ورمى بما عليه من الشوك وهو الشوك الذى توقد به التنانير بالعراق وصاحبه شيخ ضعيف واقف ينتظر انسانا يمر فيعينه على حمله فوقف عليه وقال مالك ياشيخ قال فديتك حمارى وقع عنه هذا الحمل وقد بقيت انظر انسانا يعيننى على حمله فذهب المعتصم ليخرج الحمار من الطين فقال جعلت فداك تفسد ثيابك هذه وطيبك الذى اشمه من اجل حمارى هذا قال لا عليك فنزل واحتمل الحمار بيد واحدة واخرجه من الطين فبهت الشيخ وجعل ينظر اليه و يتعجب ويترك الشغل بحماره ثم شد عنان فرسه فى وسطه واهوى الى الشوك وهو حزمتان فحملهما فوضعهما على الحمار ثم دنا من غدير فغسل يديه واستوى على فرسه فقال الشيخ السوادى رضى الله عنك وقال بالنبطية اسعل فرمى باجوافنا وتفسير ذلك فديتك يا شاب وأقبلت الخيول فقال لبعض خاصته أعط هذا الشيخ أربعة آلاف درهم وكن معه حتى تجاوزبه أصحاب المسالح وتبلغ به قريته وفى سنة تسع عشرة ومائتين كانت وفاة أبى نعيم الفضل ابن ركين مولى طلحة بن عبد الله بالكوفة وبشر بن غياث المريسى وعبد الله بن رجاء العراقى وفيها ضرب المعتصم أحمد بن حنبل ثمانية وثلاثين سوطا ليقول بخلق القرآن وفى هذه السنة وهى سنة تسع عشرة ومائتين قبض محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وذلك لخمس خلون من ذى الحجة ودفن ببغداد فى الجانب الغربى بمقابر قريش مع جده موسى بن جعفر وصلى عليه الواثق وقبض وهو ابن خمس وعشرين سنة وقبض أبوه على بن موسى الرضا ومحمد ابن سبع سنين وثمانية اشهر وقيل غير ذلك وقيل أن أم الفضل بنت المأمون لما قدمت معه من المدينة الى المعتصم سمته وانما ذكرنا من أمره ماوصفنا لان أهل الامامة اختلفوا فى مقدار سنه عند وفاة أبيه

وقد أتينا على ما قيل فى ذلك فى رسالة البيان فى اسماء الأئمة وما قالت فى ذلك الشيعة من القطعية وفى هذه السنة وهى سنة تسع عشرة ومائتين اخاف المعتصم محمد بن القاسم ابن على بن عمر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رحمهم الله وكان بالكوفة من العبادة والزهد والورع ونهاية الوصف فلما خاف على نفسه هرب فصار الى خراسان فتنقل من مواضع كثيرة من كورها كمرو وسرخس والطالقان ونسا فكانت له هنالك حروب وكوائن وانقاد اليه والى امامته خلق كثير من الناس ثم حمله عبد الله بن طاهر الى المعتصم فحبسه فى ازج اتخذه فى بستان بسر من رأى وقد تنوزع فى محمد بن القاسم فمن قائل يقول انه قتل بالسم ومنهم من يقول ان ناسا من شيعته من الطالقان اتوا ذلك البستان فتأتوا للخدمة فيه من غرس وزراعة واتخذوا سلالم من الحبال واللبود والطالقانية ونقبوا الازج وأخرجوه فذهبوا به فلم يعرف له خبر الى هذه الغاية وقد انقاد الى امامته خلق كثير من الزيدية الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ومنهم خلق كثير يزعمون أن محمدا لم يمت وأنه حى يرزق وأنه يخرج فيملأها عدلا كما ملئت جورا وأنه مهدى هذه الامة واكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان وقول هؤلاء فى محمد بن القاسم نحو قول رافضة الكيسانية فى محمد بن الحنفية ونحو من قول الواقفية فى موسى بن جعفر وهم الممطورة وبهذا تعرف هذه الطائفة من بين فرق الشيعة وقد أتينا على وصف قولهم فى المقالات فى أصول الديانات ووصف قول غلاتهم من العلوية وغيرهم من المحمدية وسائر فرق أهل الباطل ممن قال بتنقل الارواح فى أنواع الاشخاص من بهم الحيوان وغيره فى كتابنا المترجم بكتاب سر الحياة وكان المعتصم يحب جمع الاتراك وشراءهم من أيدى مواليهم فاجتمع له منهم أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزى عن سائر جنوده وقد كان اصطنع قوما من حوف مصر من حوف اليمن وحوف قيس فسماهم المغاربة واستنفذ رجال خراسان من الفراغنة وغيرهم من الاشروسنية فكثر جيشه وكانت الاتراك تؤذى العوام بمدينة السلام بجريها الخيول فى الاسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمة لامرأة او شيخ كبير أو صبى أو ضرير فعزم المعتصم على النقلة منهم وأن ينزل فى فضاء من الارض فنزل البراذان على أربعة فراسخ من بغداد فلم يستطب هواءها ولا اتسع له هراؤها فلم يزل يتنقل ويتفرى المواضع والاماكن الى دجلة وغيرها حتى انتهى الى الموضع المعروف بالقاطول فاستطاب الموضع وكان هنالك قرية يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر المعروف بالقاطول آخذا من دجلة فبنى هنالك قصرا وبنى الناس وانتقلوا عن مدينة السلام وخلت من السكان الا اليسير وكان فيما قاله بعض العيارين فى ذلك معيرا للمعتصم بانتقاله عنهم

ايا ساكن القاطول بين الجرامقه * تركت ببغداد الكباش البطارقه

ونالت من المعتصم شدة عظيمة لبرد الموضع وصلابة ارضه وتأذوا بالبنى فى ذلك يقول بعض من كان فى الجيش

قالوا البنان بالقاطول مشتانا * فنحن نأمل صنع الله مولانا
الناس يأتمرون الرأى بينهم * والله فى كل يوم محدث شانا

ولما تأذى المعتصم بالموضع وتعذر البناء فيه خرج يتقرى المواضع فانتهى الى موضع سامرا وكان هنالك للنصارى دير عادى فسأل بعض أهل الدير عن اسم الموضع فقال يعرف بسامرا قال له المعتصم وما معنى سامرا قال نجدها فى الكتب السالفة والامم الماضية انها مدينة سام بن نوح قال له المعتصم ومن أى بلاد هى والام تضاف قال من بلاد طيرهان واليها تضاف فنظر المعتصم الى فضاء واسع تسافر فيه الابصار وهواء طيب وأرض صحيحة فاستمراها واستطاب هواءها وأقام هنالك ثلاثا يتصيد فى كل يوم فوجد نفسه تتوق الى الغذاء وتطلب الزيادة على العادة الجارية فعلم أن ذلك لتأثير الهواء والتربة فلما استطاب الموضع دعا بأهل الدير فاشترى منهم ارضهم بأربعة آلاف دينار وارتاد لبناء قصره موضعا فيها فأسس بنيانه وهو الموضع المعروف بالوزيرية بسر من رأى واليها يضاف التين الوزيرى وهو أعذب الاتيان وأرقها قشرا وأصغرها حبا لا يبلغه تين الشام ولا تين اهواز وحلوان فارتفع البنيان وأحضر له الفعلة والصناع وأهل المهن من سائر الامصار ونقل اليها من سائر البقاع أنواع الغروس والاشجار وجعل للاتراك قطائع متميزة وجاورهم بالفراغنة والاشروسنية وغيرهم من مدن خراسان على قدر قربهم منهم فى بلادهم وأقطع اشناس التركى وأصحابه من الاتراك الموضع المعروف بكرخ سامرا ومن الفراغنة من انزلهم الموضع المعروف بالعمرى والجسر واختطت الخطط واقتطعت القطائع والشوارع والدروب وأفرد أهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار فبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت الدور والقصور وكثرت العمارة واستنبطت المياه وجرت من دجلة وغيرها وتسامع الناس أن دار ملك قد اتخذت فقصدوها وجهزوا اليها من أنواع الامتعة وسائر ما ينتفع به الناس وغيرهم من الحيوان وكثر العيش واتسع الرزق وشملهم الاحسان وعمهم العدل وكان بدء ما وصفنا فيما فعله المعتصم سنة احدى وعشرين ومائتين واشتد أمر بابك وسار عساكره نحو تلك الامصار فدق العساكر وكثر الجيوش فسير اليه المعتصم بالجيوش وعليها الافشين وكثرت حروبه واتصلت وضاق بابك فى بلاده حتى انفض جمعه وقتل رجاله وامتنع بالجبل المعروف بالبذ من أرض الران وهى بلاد بابك وبه يعرف الى هذا الوقت فلما استشعر بابك ما نزل به وأشرف عليه هرب من موضعه وزال عن مكانه فتنكر هو وأخوه وولده وأهله ومن تبعه من خواصه وقد تزيا بزى السفر وأهل التجارة والقوافل فنزل موضعا من بلاد ارمينية على بعض المياه وبالقرب منهم راعى غنم فابتاعوا منه شاة وساموا اشتراء شئ من الزاد لهم فمضى من فوره الى سهل بن سنباط فأخبره الخبر وقال هو بابك لا شك فيه وقد كان الافشين لما هرب بابك من موضعه وزال عن جبله خشى أن يعتصم ببعض الجبال المنيعة أو يتحصن ببعض القلاع أو ينضاف الى بعض الامم القاطنة ببعض تلك الديار فيكثر جمعه وينضاف اليه فلال عسكره فيرجع الى ما كان من أمره فأخذ الطرق وكاتب البطارقة فى الحصون والمواضع من بلاد ارمينية وأذربيجان والران

والبيلقان وضمن فى ذلك الرغائب فلما سمع سهل بن سنباط من الراعى ما أخبره به سار من فوره فى من حضر من عدده وأصحابه حتى أتى الموضع الذى به بابك فترجل له ودنا منه وسلم عليه بالملك وقال له أيها الملك قم الى قصرك الذى فيه وليك وموضع يمنعك فيه الله من عدوك فسار معه الى ان أتى قلعته وأجلسه على سريره ورفع منزلته ووطأ له منزله ومن معه وقدمت المائدة وقعد يأكل معه فقال له بابك بجهله وقلة معرفته بما هو فيه وما دفع اليه أمثلك يأكل معى فقام سهل عن المائدة وقال اخطأت أيها الملك وأنت أحق من احتمل عبده اذ كانت منزلتى ليست بمنزلة من يأكل مع الملوك وجاءه بحداد وقال له مد رجليك أيها الملك وأوثقه بالحديد فقال له بابك أغدرا يا سهل قال يا ابن الخبيثة انما أنت راعى غنم وبقر ما أنت والتدبير للملك ونظم السياسات وقيد من كان معه وأرسل الى الافشين يخبره الخبر وأن الرجل عنده فسرح اليه الافشين أربعة آلاف فارس عليهم الحديد وعليهم خليفة يقال له بومارة فتسلمه ومن معه وأتى به الى الافشين ومعه ابن سنباط فرفع الافشين منزلة سهل وخلع عليه وحمله وتوجه وقاد بين يديه واسقط عنه الخراج فأطلقه واطلقت الطيور الى المعتصم وكتب اليه بالفتح فلما وصل اليه ذلك ضج الناس بالتكبير وعمهم الفرح وأظهروا السرور وبثت الكتب الى الامصار بالفتح وقد كان افنى عساكر السلطان فسار الافشين ببابك وتنقل بالعساكر حتى أتى سر من رأى وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين وتلقى الافشين هارون بن المعتصم وأهل بيت الخلافة ورجال الدولة ونزل بالموضع المعروف بالقاطول على خمس فراسخ من سامرا وبعث اليه بالفيل الاشهب وكان قد حمله بعض ملوك الهند الى المأمون وكان فيلا عظيما قد جلل بالديباج الاحمر والاخضر وأنواع الحرير الملون ومعه ناقة عظيمة نجيبة قد جللت بما وصفنا وحمل الى الافشين دراعة من الديباج الاحمر منسوجة بالذهب قد رصع صدرها بأنواع الياقوت والجوهر ودراعة دونها وقلنسوة عظيمة كالبرنس ذات سفاسك بألوان مختلفة وقد نظم على القلنسوة كثيرا من اللؤلؤ والجوهر والبس بابك الدراعة والبس أخوه الاخرى وجعلت القلنسوة على رأس بابك وعلى رأس أخيه نحوها وقدم اليه الفيل والى أخيه الناقة فلما رأى صورة الفيل استعظمه وقال ماهذه الدابة العظيمة واستحسن الدراعة وقال هذه كرامة ملك عظيم جليل الى اسير فقد العز ذليل اخطأته الاقدار وزالت عنه الجدود وورطة المحن انها الفرحة تقتضى ترحة وضرب له المصاف صفين فى الخيل والرجل والسلاح والحديد والرايات والبنود من القاطول الى سامرا مدد واحد متصل غير منفصل وبابك على الفيل وأخوه وراءه على الناقة والفيل يخطر بين الصفين به وبابك ينظر الى ذات اليمين وذات الشمال ويميز الرجال والعدد ويظهر الاسف والحنين على ما فاته من سفك دمائهم غير مستعظم لما يرى من كثرتهم وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين ولم ير الناس مثل ذلك اليوم ولا مثل تلك الزينة ودخل الافشين على المعتصم فرفع منزلته وأعلى مكانه وأتى ببابك فطوف به بين يديه فقال له المعتصم أنت بابك فلم يجب وكررها عليه مرارا وبابك ساكت فمال اليه الافشين وقال الويل لك أمير المؤمنين يخاطبك وأنت ساكت فقال نعم انا بابك

فسجد المعتصم عند ذلك وأمر بقطع يديه ورجليه (قال المسعودى) ورأيت فى كتاب أخبار بغداد لما وقف بابك بين يديه لم يكلمه طويلا ثم قال له أنت بابك قال نعم انا عبدك وغلامك وكان أسم بابك الحسين وأسم أخيه عبد الله قال جردوه فسلبه الخدام ماعليه من الزينة وقطعت يمينه وضرب بها وجهه وفعل مثل ذلك بيساره وثلث برجليه وهو يتمرغ فى النطع فى دمه وقد كان تكلم بكلام كثير يرغب فى اموال عظيمة قبله فلم يلتفت الى قوله وأقبل يضرب بما بقى من زنديه وجهه وأمر المعتصم السياف أن يدخل السيف بين ضلعين من اضلاعه آسفل من القلب ليكون اطول لعذابه ففعل ثم أمر بجز لسانه وصلب اطرافه مع جسده ثم حمل الرأس الى مدينة السلام ونصب على الجسر وحمل الى خراسان بعد ذلك يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها لما كان فى نفوس الناس من استفحال أمره وعظم شأنه وكثرة جنوده واشرافه على ازالة ملك وقلب ملة وتبديلها وحمل أخوه عبد الله مع الرأس الى مدينة السلام ففعل به اسحاق بن ابراهيم مافعل بأخيه بابك بسامرا وصلبت جثة بابك على خشبة طويلة فى اقاصى سامرا وموضعه مشهور الى هذه الغاية يعرف بكنيسة بابك وان كانت سامرا فى هذا الوقت قد خلا ساكنها وبان عنها قاطنها الا يسيرا من الناس فى بعض المواضع بها ولما قتل بابك وأخوه وكان من أمرهما ما تقدم ذكره قام فى مجلس المعتصم الخطباء فتكلموا وقالت الشعراء فمن قام فى ذلك اليوم ابراهيم بن المهدى فقال شعرا بدلا من الخطبة وهو

يا امين الله الحمد لله كثيرا * هكذا النصر فلازال لك النصر وزيرا
وعلى الاعداء اعطيت من الله ظهيرا * هنا لك الله لك الفتح يسيرا
فهو فتح لم ير الناس له فيما نظيرا * وجزى الافشين عبد الله خيرا وحبورا
فلقد لاقى به بابك يوما خطيرا * ذا الذى مولاك الذى ألفيته جلدا صبورا
لك حتى ضرج السيف له حدا نظيرا * ضربة ابقت على الدهر له فى الوجه نورا

وتوج الافشين بتاج من الذهب مرصع بالجوهر واكليل ليس فيه من الجوهر الا الياقوت الاحمر والزمرذ الاخضر قد شبك بالذهب وألبس وشاحين وزوج المعتصم الحسن بن الافشين بأترجة بنت اشناس وزفت اليه وأقيم لها عرس يجاوز المقدار فى البهاء والجمال وكانت توصف بالجمال والكمال ولما كان من ليلة الزفاف ماعم سروره خواص الناس وكثيرا من عوامهم قال المعتصم أبياتا يصف حسنهما وجمالهما واجتماعهما وهى

زفت عروس الى عروس * بنت رئيس الى رئيس
أيهما كان ليت شعرى * أجل فى الصدور والنفوس
أصاحب المذهب المحلى * ام ذى الوشاحين والشموس

وفى هذه السنة وهى سنة ثلاث وعشرين خرج نوفل ملك الروم فى عساكره ومعه ملوك برجان والبرغر والصقالبة وغيرهم ممن جاورهم من ملوك الامم حتى نزل على مدينة زبطرة من الثغر الجورى فافتتحها بالسيف وقتل الصغير والكبير وأغار على بلاد ملطية فضج الناس فى الامصار واستغاثوا فى المساجد والديار فدخل ابراهيم بن المهدى على المعتصم فأنشده

فانما قصيدة طويلة يذكر فيها ما نزل بن وصفنا ويحثه على الجهاد فيها

ياغارة الله قد عاينت فانتهكى * هتك النساء وما منهن يرتكب

هب الرجال على اجرامها قتلت * مابال اطفالها بالذبح تنتهب

وابراهيم بن المهدى أول من قال فى شعره ياغيرة الله فخرج المعتصم من فوره نافرا عليه دراعة من الصوف بيضا وقد تعمم بعمامة الغزاة فعسكر غربى دجلة وذلك يوم الاثنين لليلتين خلتا من جمادى الاولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين ونصبت الاعلام على الجسر ونودى فى الامصار بالنفير والسير مع أمير المؤمنين فسارت اليه العساكر والمطوعة من سائر الاسلام وجعل على مقدمته اشناس التركى ويتلوه محمد بن ابراهيم وعلى ميسرته جعفر بن دينار وعلى ساقته بغا الكبير وعلى القلب عجيف وسار المعتصم من الثغور الشامية ودخل من درب السلامة ودخل الافشين من درب الحرث ودخل الناس من سائر الدروب فلم يكن يحصى الناس العدد ولا يضبطون كثرة فن مكثر ومقال فالمكثر يقول خمسمائة ألف والمقلل مائتى ألف ولقى ملك الروم الافشين فحاربه فهزمه الافشين وقتل اكثر بطارقته وأصحابه وحماه رجل من المتنصرة يقال له نصير فى خلق من أصحابه وقد كان الافشين قصر عن أخذ الملك فى ذلك اليوم خين ولى وقال هو ملك والملوك تبقى بعضها على بعض وفتح المعتصم حصونا كثيرة ونزل على مدينة عمورية ففتحها الله على يديه وخرج لاوى البطريق منها وسلمها اليه وأسر البطريق الكبير منها وهو ماطس وقتل منها ثلاثين ألفا وأقام عليها أربعة أيام يهدم ويحرق وأراد المسير الى القسطنطينية والنزول على خليجها والحيلة فى فتحها برا وبحرا فأتاه ما ازعجه وأزاله عما كان عزم عليه من أمر العباس بن المأمون وان ناسا قد بايعوه وانه كاتب طاغية الروم فاعجل المعتصم فى مسيره وحبس العباس وشيعته وفى هذه السنة مات العباس بن المأمون وفى سنة خمس وعشرين ادخل المازيار ابن مازن بن بندارهرمس صاحب جبال طبرستان الى سامرا فأقر على الافشين أنه بعثه على الخروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس وقبض على الافشين قبل قدوم المازيار بسامرا بيوم وأقر عليه كاتب يقال له سابور فضرب المازيار بسوط حتى مات بعد أن شهر وصلب الى جانب بابك وقد كان المازيار رغب المعتصم فى اموال كثيرة يحملها ان هو من عليه بالبقاء فأبى قبول ذلك وتمثل

ان الاسود أسود الغيل همتها * يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

ومالت خشبة مازيار الى خشبة بابك فتدانت أجسامهما وقد كان صلب فى ذلك الموضع باطس بطريق عمورية وقد انحنت نحوهما خشبته ففى ذلك يقول أبو الهمام لهما

ولقد شفا الاحشاء من برحائها * اذ صار بابك جار مازيار

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن * لاثنين ثان اذهما فى الغار

فكأنما انحنيا لكيما يطويا * عن باطس خبرا من الاخبار

ومات الافشين فى الحبس بعد أن جمع بينه وبين مازيار فأقر عليه وأخرج الافشين ميتا

فصلب بباب العامة واحضرت اصنام زعموا انها كانت حملت اليه فألقيت عليه وأضرمت النار فأتت على الجميع وفى سنة ست وعشرين ومائتين مات أبو دلف العجلى وكان سيد أهله ورئيس عشيرته من عجل وغيرها من ربيعة وكان شاعرا مجيدا شجاعا بطلا مغنيا مصيبا وهو القائل

يوما ترانى على طمر * ترهبنى الاجبل الرواسى
ويوم الهو أحث كاسا * وخلف اذنى قضيب آسى

(وذكر) أن أبا دلف طعن فارسا فنفذت الطعنة الى أن وصل السنان آخر كان خلفه فقتلهما ففى ذلك يقول بكر بن النطاح

قالوا وينظم فارسين بطعنة * يوم الهياج ولا تراه كليلا
لا تعجبوا فلو ان طول قناته * ميل اذا نظم الفوارس ميلا

(وذكر) عيسى بن أبى دلف ان أخاه دلف وكان يكنى أبوه أبا دلف كان ينتقص عليا ويضع منه ومن شيعته وينسبهم الى الجهل وانه قال يوما وهو فى مجلس أبيه ولم يكن أبوه حاضرا انهم يزعمون أن لا ينتقص عليا أحد الا كان لغير رشدة وأنتم تعلمون غيرة الامير وانه لا يتهيأ الطعن على أحد من ضربته وأنا ابغض عليا قال فما كان بأوشك من ان خرج أبو دلف فلما رأيناه قمنا له فقال قد سمعت ما قاله دلف والحديث لا يكذب والخبر الوارد فى هذا المعنى لا يختلف هو والله لزنية وحيضة وذلك انى كنت عليلا فبعثت الى اختى جارية لها كنت بها معجبا فلم اتمالك أن وقعت عليها وكانت حائضا فعلقت به فلما ظهر حملها وهبتها لى فبلغ من عداوة دلف هذا لابيه ونصبه ومخالفته له لان الغالب على أبيه التشيع والميل الى على ان شنع عليه بعد وفاته وهو ما حدث به الفرهيسانى قال حدثنا دلف بن أبى دلف قال رأيت فى المنام آتيا أتانى فقال لى أجب الامير فقمت معه فأدخلنى دارا وحشة وعرة وأصعدنى على درج منها ثم ادخلنى غرفة فى حيطانها اثر الرماد واذا به عريان واضع رأسه بين ركبتيه فقال كالمستفهم دلف قلت دلف فانشأ يقول

فلو أنا اذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كل حى
ولكنا اذا متنا بعثنا * ونسأل بعده عن كل شى

ثم قال افهمت قلت نعم وانتبهت * وفى خلافة المعتصم وذلك سنة أربع وعشرين ومائتين مات جماعة من نقلة الاخبار وعلية أصحاب الحديث منهم عمرو بن مرزوق الباهلى المصرى وأبو النعمان حازم ومحمد بن الفضل السدوسى وأبو أيوب سليمان بن حرب الواشجى البصرى من الازد وسعد بن الحكم بن أبى مريم البصرى وأحمد بن عبد الله العرانى وسليمان الشاذكونى وعلى بن المدنى وفى سنة تسع وعشرين ومائتين مات بشر الحافى ببغداد وكان من مرو وأبو الوليد هشام بن عبد الملك الطيالسى بالبصرة وهو ابن ثلاث وتسعين سنة وعبد الله بن عبد الوهاب الجمحى وابراهيم بن يسار الرمادى وقيل ان فيها كانت وفاة محمد بن كثير العبدى والصحيح ان وفاته كانت فى سنة ثلاث وعشرين ومائتين (قال المسعودى) وفى سنة سبع وعشرين كانت وفاة المعتصم على دجلة فى قصره المعروف

بالخاقانى يوم الخميس لثمانى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الاول وقيل لساعتين من ليلة الخميس وهو ابن ثمان وأربعين سنة وقيل ست وأربعين سنة على ماقدمنا فى انقضاء صدر هذا الباب وكان مولده بالخلد ببغداد سنة ثمان وسبعين ومائة فى الشهر الثامن من السنة وهو ثامن الخلفاء والثامن من ولد العباس ومات عن ثمانية بنين وثمان بنات * وللمعتصم أخبار حسان وما كان من أمره فى فتح عمورية وما كان من حروبه قبل الخلافة فى اسفاره نحو الشام ومصر وغير ذلك وما كان منه بعد الخلافة وما حكى عنه من حسن السيرة واستقامة الطريقة ابن دواد القاضى ويعقوب بن الليث الكندى فى لمع أوردها فى رسالته المترجمة بسبيل الفضائل قد أتينا على جميع ذلك فى كتابنا فى أخبار الزمان والكتاب الاوسط وقد ذكرنا فى هذا لمعا منبهة على ماسلف وباعثة على درس ماتقدم

(ذكر خلافة الواثق)

وبويع هارون بن محمد بن هارون الواثق ويكنى بأبى جعفر وأمه أم ولد رومية وتسمى قراطيس وذلك فى اليوم الذى كانت فيه وفاة المعتصم وهو يوم الخميس لثمانى عشرة ليلة خلت من ربيع الاول سنة سبع وعشرين ومائتين وبويع وهو ابن احدى وثلاثين سنة وتسعة اشهر وكانت خلافته خمس سنين وتسعة اشهر وثلاثة عشر يوما وقيل انه توفى يوم الاربعاء لست بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وهو ابن أربع وثلاثين سنة ووزيره محمد بن عبد الملك وعلى حسب ماقدمنا فى أيام المعتصم من هذا الكتاب والتواريخ متباينة فى مقادير أعمارهم وأيامهم فى الزيادة والنقصان

(ذكر لمع من أخباره وسيره ولمع مما كان فى أيامه)

كان الواثق كثير الاكل والشرب واسع المعروف متعطفا على أهل بيته متفقد الرعيته وسلك فى المذهب مذهب أبيه وعمه من القول بالعدل وغلب عليه أحمد بن أبى دواد ومحمد ابن عبد الملك الزيات فكان لا يصدر الا عن رأيهما ولا يعاب عليهما فيما رأيا وقلدهما الأمر وفوض اليهما ملكه (وذكر) أبو تمام حبيب بن أوس الطائى الجاسمى نسبة الى جاسم وهى قرية من اعمال دمشق بين بلاد الاردن ودمشق بموضع يعرف بالخولان ويعرف بجاسم على اميال من الجابية وبلاد برا وهى من مراعى أيوب عليه السلام قال خرجت فى أيام الواثق الى سر من رأى فلما قربت منها لقينى اعرابى فأردت أن اعلم خبر العسكر منه فقلت يا اعرابى ممن أنت قال من بنى عامر قلت كيف علمك بعسكر أمير المؤمنين قال قتل أرضا عالمها قلت ماتقول فى أمير المؤمنين قال وثق بالله فكفاه اشجى العاصية وقصم العادية ورغب عن كل ذى جناية قلت فما تقول فى أحمد بن أبى دواد قال هضبة لا ترام وجبل لا يضام تشحذ له المدى وتنصب له الحبائل حتى اذا أقبل كان قد وثب وثبة الذئب وختل ختلة الضب قلت فما تقول فى محمد بن عبد الحكم الزيات قال وسع الدانى شره ووصل الى البعيد ضره له فى كل يوم صريع لا يرى فيه اثر ناب ولا مخلب قلت فما تقول فى عمرو بن فرج قال ضخم نهم استعذب الدم ينصبه القوم ترسا للدعاء قلت فما تقول فى الفضل بن مروان قال رجل نبش بعد ماقبر ليس تعد له حياة فى الاحياء وعليه خفة الموتى قلت

فما تقول فى الوزير قال تخاله كبش الزنادقة أماتراه اذا أخله الخليفة سمن ورتع واذاهزه امطرفأمرع قلت فما تقول فى أحمد بن الخصيب قال ذاك اكل اكلة نهم فزرق زرقة بشم قلت فما تقول فى ابراهيم أخيه قال اموات غير احياء ومايشعرون أيان يبعثون قلت فما تقول فى أحمد بن اسرائيل قال لله دره أى فاعل هو وأى صابر هو أعد الصبر دثارا والجود شعارا وأهون عليه بهم قلت فما تقول فى المعلى بن أيوب قال ذاك رجل خبر صحيح السلطان عفيف اللسان سلم من القوم وسلموا منه قلت فما تقول فى ابراهيم بن رباح قال ذاك رجل أوثقه كرمه وأسلمه فضله وله دعاء لايسلمه ورب لايخذله وفوقه خليفة لايظلمه قلت فما تقول فى الحسن ابنه قال ذاك عود نضار غرس فى منابت الكرم حتى اذا اهتز حصدوه قلت فما تقول فى نجاح بن سلمة قال لله دره أى طالب وتر ومدرك ثار يلتهب كانه شعلة نار له من الخليفة فى الاحيان جلسة تزيل نعما وتحل نقما قلت يا أعرابى أين منزلك حتى آتيك قال اللهم غفرا مالى منزل انا أشتمل النهار وألتحف الليل فحيثما ادركنى الرقاد رقدت قلت فكيف رضاك عن أهل العسكر قال ان اعطونى لم أحمدهم وان ضيعونى لم اذمهم وانى كما قال هذا الغلام الطائى

وما ابالى وخير القول اصدقه * حقنت لى ماء وجهى أو حقنت دمى

قلت فأنا قائل هذا الشعر قال أئنك أنت الطائى قلت نعم قال لله أبوك وأنت القائل

ماجود كفك ان جادت وان بخلت * من ماء وجهى وقد اخلقته عوض

قلت نعم قال أنت اشعر أهل زمانك وفى رواية أخرى ليست فى الكتاب قلت انشدنى شيأ من شعرك فأنشدنى

اقول وجنح الدجا مليد * والليل فى كل فج يد
ونحن ضجيعان فى مجسد * فلله ماضمن المجسد
فياغد ان كنت بى محسنا * فلا تدن من ليلتى ياغد
ويا ليلة الوصل لاتنفدى * كما ليلة الهجر لاتنفد

فقلت لله أبوك ورددته معى حتى لقيت ابن أبى دواد وحدثته بخبره فأوصله الى الواثق فأمر له بالف دينار وأخذ له من سائر الكتاب وأهل الدولة ما أغناه به وأغنى عقبه بعده وهذا الخبر مخرجه عن أبى تمام فان كان صادقا فيما قال ولا اراه فقد أحسن الاعرابى فى الوصف وان كان أبو تمام هو الذى صنعه وعزاه الى هذا الاعرابى فقد قصر فى نظمه اذ كانت منزلته اكبر من هذا * وكانت وفاة أبى تمام بالموصل سنة ثمان وعشرين ومائتين وكان خليعا ماجنا وربما اداه ذلك الى ترك موجبات فرضه تماجنا لا اعتقادا (وحدث) محمد بن يزيد المبرد عن الحسن بن رجاء قال صار الى أبو تمام وأنا بفارس فأقام عندى مقاما طويلا ونمى الى من غير وجه انه لايصلى فوكلت به من يراعيه ويتفقده أوقات الصلاة فوجدت الأمر على ما اتصل بى عنه فعاتبته على فعله ذلك فكان من جوابه ان قال لم انشط للشخوص اليك من مدينة السلام وأتجشم هذه الطرقات الشاقة واكسل عن ركعات لامؤنة على فيها لو كنت اعلم ان لمن صلاها ثوابا أو على من تركها عقابا قال فهممت والله بقتله ثم تخوفت

ان يصرف الأجر الى غير جهته وهو القائل

وأحق الانام ان يقضى الديـ * ـن امرؤ كان للاله غريما

وهذا قول مباين لدليل العقل والناس فى أبى تمام فى طرفى نقيض متعصب له يعطيه اكثر من حقه ويتجاوز به فى الوصف ويرى ان شعره فوق كل شعر ومنحرف له معاند فهو ينفى عنه حسنه ويعيب مختاره ويستقبح المعانى الظريفة التى سبق اليها وتفرد بها (وذكر) عبد الله بن الحسن بن سعدان عن المبرد قال كنت فى مجلس القاضى أبى اسحاق واسماعيل ابن اسحاق وحضر جماعة سماهم منهم الحارثى الذى قال فيه على بن الجهم الشامى

لم يطلعا الا لابدة * الحارثى وكوكب الذنب

فجرى ذلك الشعر وان كان الكلام تسلسل الى ذكر أبى تمام وشعره وأن الحارثى انشد لابى تمام معاتبة أحسن فيها وأن المبرد استحى ان يستعيد الحارثى الشعر او يكتبه منه لاجل القاضى قال ابن سعدان فاعلمت المبرد أنى احفظ الشعر فانشدته اياه فاستحسنه واستعاده منى مرارا حتى حفظه منى وهو

جعلت فداك عبد الله عندى * تعقب النأى عنه والبعاد

لهلمة من الفتيان بيض * قضوا حق الصداقة والوداد

دعوتهم عليك وكنت ممن * يعينه على الفقر الجياد

قال وسألت عن أبى تمام والبحترى أيهما اشعر قال لابى تمام استخراجات لطيفة ومعان ظريفة وجيده اجود من شعر البحترى ومن شعر من تقدمه من المحدثين وشعر البحترى أحسن استواء من أبى تمام لان البحترى يقول القصيدة كلها فتكون سليمة من طعن طاعن أو عيب عائب وأبو تمام يقول البيت النادر ويتبعه البيت السخيف وما اشبهه الا بغائص البحر يخرج الدرة والمخشلبة فى نظام واحد وانما يؤتى هو وكثير من الشعراء من البخل باشعارهم والا فلو أسقط من شعره على كثرة عدده ما انكر منه لكان اشعر نظرائه فدعانى هذا القول منه الى أن قرأت عليه شعر أبى تمام وأسقطت خواطئه وكل ماذم من شعره وأفردت جيده ووجدت ما يتمثل به ويجرى على ألسنة العامة وكثير من الخاصة مائة وخمسين بيتا ولا اعرف شاعرا جاهليا ولا اسلاميا يتمثل له بهذا المقدار من الشعر ثم قال المبرد وبالبحترى يختم الشعر وانشدنى له بيتين زعم المبرد أنهما لو اضيفا الى شعر زهير لجاز فيه وهما

وماسفه السفيه وان تعدى * بانجع فيك من حلم الحليم

متى احفظت ذا كرم تخطى * اليك ببعض افعال اللئيم

قال وكان مما ذكرنا من شعر البحترى فى هذا المجلس وقدمه محمد بن يزيد على نظرائه فى قوله فى بنى صاعد بن مخلد

واذا رأيت مخايل ابنى صاعد * ادت اليك مخايل ابنى مخلد

كالفرقدين اذا تأمل ناظر * لم يعل موضع فرقد من فرقد

وقوله

من شاكر عنى الخليفة للذى * أولاه من بر ومن احسان
حتى لقد أفضلت من افضاله * ورأيت نهج الجود حيث يرانى
اغنت يداه يدى وشرد جوده * بخلى فأفقرنى كما اغنانى
ووثقت بالخلق الجميل مجلا * منه واعطيت الذى اعطانى

وقوله

وددت بياض السيف يوم لقيتنى * مكان بياض الشيب كان بمفرقى

وقوله

دنوت تواضعا وعلوت قدرا * فشأناك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى * ويدنو الضوء منها والشعاع

وقوله فى الفتح بن خاقان وقد نزل الى اسد فقتله

حملت عليه السيف لاعزمك انثنى * ولا يدك ارتدت ولا حده نبا
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا * وصمم لما لم يجد منك مهربا
وكنت متى تجمع يمينك والعلا * لدى ضيغم لم تبق للسيف مضربا

وقوله

مازال صرف الدهر يؤيس صفقتى * حتى رهنت على المشيب شبابى

وقوله فى المنتصر

وان عليا لاولى بكم * وأزكى يدا عندكم من عمر
وكان له فضله والحجو * ل يوم البراذين قبل الغرر

وقوله

تعيب الغانيات على شيبى * ومن لى أن امتع بالمشيب

ثم ذكر انتقاض الصلح بين عشيرته فقال

اذا ما الجرح رم على فساد * تبين فيه تفريط الطبيب
وللسهم الشريد أخف عبأ * على الرامى من السهم المصيب

وقوله

وما منع الفتح بن خاقان نيله * ولكنها الايام تعطى وتحرم
سحاب خطانى جوده وهو مسبل * وبحر عدانى فيضه وهو مفعم
أأشكو نداه بعد أن وسع الورى * ومن ذا يذم الغيث الامذمم

وذكر محمد بن الازهر قال كان ابراهيم بن المدبر مع محله فى العلم والادب والمعرفة يسئ الرأى فى أبى تمام ويحلف أنه لا يحسن شيأ قط فقلت له يوما ما تقول فى قوله

غدا الشيب مختطا بفودى خطة * سبيل الردى منها الى النفس مهيع
هو الزور يجفو والمعاشر يجتوى * وذو الالف يقلى والجديد يرقع
له منظر فى العين ابيض ناصع * ولكنه فى القلب اسود أسفع
ونحن نرجيه على الكره والرضا * وأنف الفتى من وجهه وهو أجدع

وفيه يقول

فان ترم عن عمرو تداعى به المدى * فخانك حتى لم تجد فيه منزعا
فما كنت الا السيف لاقى ضريبة * فقطعها ثم انثنى فتقطعا

وفيه يقول

شرف على أول الزمان وانما الـ * ـشرف المناسب ما يكون كريما

وفيه يقول

اذا أحسن الاقوام أن يتطاولوا * بلا نعمة أحسنت أن تتطاولا

وفيه يقول

مطرلى الحياة والمال لا أ * لقاك الا مستوهبا أو وهوبا
واذا ما اردت كنت رشاء * واذا ما اردت كنت قليبا

والقائل

خشعوا لصولتك التى عودتهم * كالموت يأتى ليس فيه عثار
فالمشى همس والنداء اشارة * خوف انتقامك والحديث سرار
أيامنا معقودة أطرافها * بك والليالى كلها أسحار
تبدى عقابك للعصاة وتغتدى * رفقا الى زوارك الزوار

وفيه يقول

اذا أوهدت أرضا كان فيها * رضاك فلا تحن الى رباها

قال فوالله لكأنى اغريت ابن المدبر بأبى تمام حتى سبه ولعنه فقلت اذا فعلت ذلك لقد حدثنى عمر بن أبى الحسين الطوسى الراوية أن أباه وجه به الى ابن الاعرابى يقرأ عليه أشعار هذيل فمرت بنا اراجيز فأنشدته ارجوزة لأبى تمام لم انسبها اليه وهى

وعاذل عذلته من عذله * فظن أنى جاهل من جهله
ما غبن المغبون مثل عقله * من لك يوما بأخيك كله
لبست ريعانى فدعنى ابله * وملك فى كبره ونبله
وسوقة فى قوله وفعله * بذلت مدحى فيه باغى بذله
بجزحبل املى من وصله * من بعدما استعذبنى عطله
ثم اغتدى معتديا بجهله * ذا عنق فى الجهل لم يحله
يلطلسنى فى جده وهزله * يعجب من تعجبى من بخله
لطف الاسير حلقات كبله * حتى كأنى جئته بعذله
يا واحدا منفردا بعدله * أكسبته المال فلا تقله
ما يصنع الغمد بغير نصله * والمدح ذم ما لم يكن فى اهله

فقال لابنه اكتبها فكتبها على ظهر كتاب من كتبه فقلت له جعلت فداك انها لأبى تمام فقال خرق خرق وهذا من ابن المدبر قبيح من علمه لان الواجب أن لا يدفع احسان محسن عدوا كان أو صديقا وأن تؤخذ الفائدة من الوضيع والرفيع فقد روى عن أمير المؤمنين

انه قال الحكمة ضالة المؤمن فخذ ضالتك ولو من أهل الشرك * وقد ذكر عن بزرجمهر وكان من حكماء الفرس وقد قدمنا ذكره فيما سلف من هذا الكتاب فى أخبار ملوك ساسان وهم الفرس الثانية أنه قال أخذت من كل شئ أحسن ما فيه حتى من الكلب والهرة والخنزير والغراب قيل ما أخذت من الكلب قال الفه لاهله وذبه عن صاحبه قيل فما أخذت من الغراب قال شدة حذره قيل فمن الخنزير قال بكوره فى حوائجه قيل فمن الهرة قال حسن نغمتها وتملقها لاهلها عند المسئلة ومن عاب مثل هذه الاشعار التى ترتاح لها القلوب وتحرك بها النفوس وتصغى اليها الاسماع وتشحذ بها الاذهان ويعلم كل من له قريحة وفضل ومعرفة أن قائلها قد بلغ فى الاجادة ابعد غاية واقصى نهاية فانما غض من نفسه وطعن على معرفته واختياره (وقد روى) عن ابن عباس انه قال الهوى اله معبود واحتج بقوله تعالى افرأيت من اتخذ الهه هواه * ولابى تمام أشعار حسان ومعان لطاف واستخراجات بديعة (وحكى) عن بعض العلماء بالشعر أنه سئل عن أبى تمام فقال كانه جمع شعر العالم فانتخب جوهره وقد كان أبو تمام ألف كتابا وسماه الحماسة وفى الناس من يسميه كتاب الحمية انتخب فيه شعر الناس ظهر بعد وفاته وقد صنف أبو بكر الصولى كتابا جمع فيه أخبار أبى تمام وشعره وتصرفه فى أنواع علومه ومذاهبه واستدل الصولى على ما وصف عن أبى تمام بما يوجد من شعره من ذلك قوله فى صفة الخمر

جهمية الاوصاف الا انهم * قد لقبوها جوهر الاشياء

وقد رثته الشعراء بعد وفاته والادباء من اخوانه منهم الحسن بن وهب الكاتب وكان شاعرا ظريفا له حظ فى المنثور والمنظوم فقال

سقى بالموصل الجدث الغريبا * سحائب ينتحبن له نحيبا
اذا اطللنه اطلان فيه * شعيب المزن يتبعها شعيبا
ولطمت البروق به خدودا * وشققت الرعود لها جيوبا
فان تراب ذاك القبر يحوى * حبيبا كان يدعى لى حبيبا
لبيبا شاعرا فطنا اديبا * اصيل الرأى فى الجلى اريبا
اذا شاهدته روّاك فيما * يسرّ لذرقة منه وطيبا
أبا تمام الطائى ماذا * لقينا بعدك العجب العجيبا
فقدنا منك علقا لا ترانا * نصيب له مدى الدنيا ضريبا
وكنت اخالنا ابدى الينا * ضمير الود والنسب القريبا
فلما ان كدرت الليالى * قريب الدار والاقصى الغريبا
فأبدى الدهر أقبح صفحتيه * ووجها كالحا جهما قطوبا
فأحر بأن يطيب الموت فيه * وأجدر بعيشنا أن لا يطيبا

وللحسن أشعار حسان ومعان جياد منها قوله

ابت مقلتاك لفرط الحزن * عليك الرقاد وبرد الوسن
وحق لعينيك أن لا تنام * وقلبك مجتلس مرتهن

وبين الجوانح داء دفين * لعمرك مستتر قد كمن
نجي الهموم وقرن الكلوم * ووهي الحلوم وبعد الوطن
شديد النفار كثير العثار * خليع العذار يجر الرسن
افي كل يوم تطيل الوقوف * تناجي الديار وتبكي الدمن
وتستخبر الدار عن أهلها * وتذري الدموع على من ظعن
كأنك لم ترفيما مضى * من الدهر ذا صبوة مفتتن
عذرتك أيام شرخ الشباب * وفرعك فرع نضير الغصن
فأما وقد زال ظل الشبا * ب عنك وولى كأن لم يكن
وألبسك الشيب بعد الشباب * قناع بياض كلون القطن
وصرت قذى في عيون الحسان * يخنك عهدا وان لم تخن
ويصدفن عنك اذا رمتهن * وكنت لهن زمانا سكن
فمالك عذر وأنت امرؤ * بعافية رشد لطب فطن

وفي خلافة الواثق مات علي بن الجعد مولى بني مخزوم وكان من علية أصحاب الحديث وأهل النقل وذلك في سنة ثلاثين ومائتين * وفي سنة احدى وثلاثين ومائتين قتل الواثق أحمد بن نصر الخزاعي في المحنة على القرآن (قال المسعودي) وكان يحضر مجلس الواثق فتى برسم الندماء يقوم قائما لصغر سنه ولم يكن لذلك يلحق في الجلوس بمراتب ذوي الاسنان وكان ذكيا مأذونا له في الافاضة مع الجلساء في كل ما يعرض لهم الكلام فيه والتكلم بما يسنح ويختلج في صدره من مثل سائر وبيت نادر وحديث ممتع وجواب مسرع قال وكان الواثق من شدة الشهوة للطعام والنهمة فيه على الحالة المشهورة المتعالية فقال لهم الواثق يوما ما تختارون من النقل فبعض قال نبات السكر وبعض قال رمان وبعض قال تفاح وبعض قال قصب السكر ينضح بماء الورد وبعض اخرجته الفلسفة الى التنقيص فقال ملح يغلي وبعض قال صبر يحمى بعذاب النبيذ ويجلي على سورة الشراب ومرارة النقل قال ما صنعتم شيأ ولكن ما تقول أنت يا غلام قال خشكنانج مشير فوافق ذلك ما في نفس الواثق وقال اصبت وأحسنت بارك الله لك وكان ذلك أول جلوسه * وقيل ان أبا جعفر محمد بن علي بن موسى الرضا عليهم الرضوان توفي في خلافة الواثق وقد بلغ من السن ما قدمناه في خلافة المعتصم من هذا الكتاب وقيل انه كتب الى الواثق يا أمير المؤمنين ليس من أحد وان ساعدته المقادير بمستخلص غضارة عيش الامن خلال مكروه ومن ترك معاجلة الدرك انتظار مؤاجلة الاشياء سلبته الايام فرصته فان شرط الزمان الآفات وحكم الدهر السلب * وفي سنة ثلاثين ومائتين وذلك في خلافة الواثق توفي عبد الله بن طاهر في ربيع الاول من هذه السنة وفيه يقول الشاعر وقت كون عبد الله بن طاهر بمصر

يقول اناس ان مصر بعيدة * وما بعدت مصر وفيها ابن طاهر
وأبعد من مصر رجال تراهم * بحضرتنا معروفهم غير حاضر

عن الخير موتى ماتبالى أزرتهم * على طمع ام زرت أهل المقابر

وكان الواثق محبا للنظر مكرما لاهله مبغضا للتقليد وأهله محبا للاشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطببين فجرى بحضرته أنواع من علومهم فى الطبيعيات ومابعد ذلك من الالهيات فقال لهم الواثق قد احببت أن اعلم كيفية ادراك معرفة الطب ومأخذ اصوله أذلك من الحس أم من القياس والسنة أم يدرك من جهة العقل أم علم ذلك وطريقه يعلم عندكم من جهة السمع كما يذهب اليه جماعة من أهل الشريعة وقد كان ابن بختيشوع وابن ماسويه وميخائيل فيمن حضر وقيل ان حنين بن اسحق وسلمويه فيمن حضر فى هذا المجلس فقال منهم قائل زعم طوائف من الاطباء وكثير من متقدميهم أن الطريق الذى يدرك به الطب هو التجربة فقط وحدوه بأن يتكرر الحس على محسوس واحد فى أحوال متغايرة فيوجد بالحس فى آخر الاحوال كما يوجد فى أولها والحافظ لذلك المجرب وزعموا أن التجربة ترجع الى مباد أربعة هن لها اوائل ومقدمات وبها اعلت وصحت واليها تنقسم التجربة فصارت بذلك أجزاء لها فزعموا أن قسما من تلك الاقسام طبيعى وهو ماتفعله الطبيعة فى الصحيح والمريض من الرعاف والعرق والاسهال والقئ التى تعقب فى المشاهدة منفعة أو ضررا وقسما اراديا وهو مايقع من قبل النفس الناطقة وذلك كمثل منام يراه الانسان وهو أن يرى كأنه عالج مريضا به علة مشاهدة معقولة بشئ من الاشياء معروف فيبرأ ذلك المريض من مرضه أو يخطر مثل ذلك بباله فى حال فكره فيتردد ويغلب ظنه بعطبه فيجربه بأن يفعله كما يرى فى منامه فيجده كما يرى أو يخالف ذلك ويفعله مرارا فيجده كذلك وقسما هو نقل وهو على ثلاثة أقسام اما أن ينقل الدواء الواحد من مرض الى مرض يشبهه وذلك كالنقلة من ورم الجمرة الى الورم المعروف بالنملة واما من عضو الى عضو يشبهه وذلك كالنقلة من السفرجل الى الزعرور فى علاج انطلاق البطن وكل ذلك لايعمل به عندهم الا بالتجربة وذهب طائفة اخرى منهم الى أن الحيلة فى تقريب أمر صناعة الطب وتسهيلها أن ترد أشخاص من العلل ومولداتها الى الاصول الحاصرة الجامعة لها اذا كان لاغاية لتولدها وأن يستدل على الدواء من نفس الطبيعة والمرض الحاضر الموجود فى الحال والوقت دون الاسباب الفاعلة التى عدمت ودون الازمان والاوقات والاسباب والعادات ومعرفة طبائع الاعضاء وحدودها وألزموا التحفظ بكل مايكون فى كل علة وجدت أولم توجد وبرهنوا بأن زعموا أن من المعلومات الظاهرة التى لاريب فيها أن الضدين لايجوز اجتماعهما فى حال وأن وجود احدهما ينفى الآخر فى الحال لامحالة قالوا وليس هذا ككل شئ ظاهر يستدل به على كل شئ خفى والشئ الظاهر يحتمل الوجود فيختلف الاستدلال فيكون القطع على مايوجبه غير بين وهذا قول جماعة من حذاق المتطببين وأهل التقدم فى اليونانيين مثل ماسوس وساساليس وغيرهما وهم قوم يعرفون بأصحاب الطب الحيلى قال الواثق لهم جميعا فأخبرونى عن جمهورهم الاعظم الام يذهبون فى ذلك فقالوا القياس قال وكيف ذلك قالوا جميعا زعمت هذه الطائفة أن الطريق والقانون الى معرفة الطب مأخوذ من

قوله وذلك كالنقلة من السفرجل الخ هكذا فى النسخ ولا يلائم ماقبله ولعل هنا اسقاطا ذكره يتم القسم الثانى ويحصل التنصيص على القسم الثالث ويكون قوله وذلك كالنقلة من السفرجل الخ تتميما له واحرر اهـ مصححه

مقدمات أولية فنها معرفة طبائع الابدان والاعضاء وأفعالها ومنها معرفة الابدان فى الصحة والمرض ومعرفة الاهوية واختلافها والاعمال والصنائع والعادات والاطعمة والاشربة والاسفار ومعرفة قوى الامراض وقالوا ثبت فى الشاهد أن الحيوان يختلف فى صورته وطباعه وكذلك أعضاؤه مختلفة فى طباعها وصورها وأن الاجساد الحيوانية تتغير بالاهوية المحيطة بها وبالحركة والسكون والاغذية من المأكول والمشروب والنوم واليقظة واستفراغ ما يخرج من الجسد واحتباسه من الاعراض النفسانية من الغم والحزن والغضب والهم قالوا والغرض بالطب هو تدبير الاجسام وحفظ الصحة الموجودة فى البدن الصحيح واجتلابها للعليل قالوا جب أن يكون حفظ الصحة انما هو بمعرفة الاسباب المصححة فالواجب على الطبيب لامحالة من هذه المقدمات التى قد صحت اذا اراد علاج المريض النظر فى طبائع الامراض والابدان والاغذية والعادات والازمان والاوقات الحاضرة والاسباب ليستدل بجميع ذلك وهذا يا أمير المؤمنين قول ابقراط وجالينوس فيمن تقدم وتأخر عنهم قالوا وقد اختلفت هذه الطائفة فى كثير من الاغذية والادوية مع اتفاقهم على ما وصفنا وذلك لاختلافهم فى كيفية الاستدلال فنهم من زعم أنه يستدل على طبيعة الشئ من الاغذية والادوية بطعمه أو ريحه أو لونه أو قوامه أو فعله وتأثيره فى الجسد وزعموا أن الوثيقة فى الاستدلال بالاجزاء اذا كانت الالوان والارايح وسائر ما ذكرنا من أفعال الطبائع الاربع كالاسخان والتبريد والتليين فعل لها وزعمت طائفة اخرى منهم أن اصح الشهادات واثبت القضايا فى الحكم على طبيعة الدواء والغذاء ما أخذ من فعله فى الجسد دون الطعم والرائحة وما سوى ذلك فان الاستدلال بما سوى الفعل والتاثير لا يقطع به ولا يعول على طبيعة الدواء المفرد والمركب قال الواثق لحنين من بين الجماعة ما أول آلات الغذاء من الانسان قال أول آلات الغذاء الفم وفيه الاسنان والاسنان اثنتان وثلاثون سنا منها فى اللحى الأعلى ستة عشر سنا وفى اللحى الاسفل كذلك ومن ذلك أربعة فى كل واحد من اللحيين عراض محددة الاطراف تسميها الاطباء من اليونانيين القواطع وذلك أن بها يقطع ما يحتاج الى قطعه من الاطعمة اللينة كما يقطع هذا النوع من المأكل بالسكين وهى الثنايا والرباعيات وعن جنبى هذه الاربعة فى كل واحد من اللحيين سنان رؤسهما حادة وأصولهما عريضة وهى الانياب وبها يكسر كل ما يحتاج الى تكسيره من الاشياء الصلبة مما يؤكل وعن جنبى النابين فى كل واحد من اللحيين خمس اسنان أخر عوارض خشن وهى الاضراس ويسميها اليونانيون الطواحن لانها تطحن ما يحتاج الى طحنه مما يؤكل وكل واحد من الثنايا والرباعيات والانياب له أصل واحد وأما الاضراس فما كان منها فى اللحى الاعلى فله ثلاثة أصول خلا الضرسين الاقصيين فانه ربما كان لكل واحد منهما أصول أربعة وما كان من الاضراس فى اللحى الاسفل فلكل واحد منها أصلان خلا الضرسين الاقصيين فانه ربما كان لكل واحد منهما اصول ثلاثة وانما احتيج الى كثرة اصول الاضراس دون سائر الاسنان لشدة قوة العمل بها وخصت العليا منها بالزيادة فى الاصول لتعلقها باعلى الفم قال الواثق احسنت فيما ذكرت

من

من هذه الآلات تصنف لى كتابا تذكر فيه جميع ما يحتاج الى معرفته من ذلك فصنف له كتابا جعله ثلاث مقالات يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد (وقد ذكر) أن الواثق سأل حنينا فى هذا المجلس وفى غيره عن مسائل كثيرة وأن حنينا أجاب عن ذلك وصنف فى كل ذلك كتابا ترجمه بكتاب المسائل الطبيعية يذكر فيه أنواعا من العلوم فكان مما سأل الواثق حنينا من المسائل وقيل بل احضر له نديما من ندمائه فكان يسأله بحضرته والواثق يسمع و يتعجب مما يورده السائل الى أن قال كم الاشياء المغيرة للهواء قال حنين خمس وهى أوقات السنة وطلوع الكواكب وغروبها والرياح والبلدان والبحار * قال السائل فكم هى أوقات السنة قال أربع الربيع والصيف والخريف والشتاء فمزاج الربيع معتدل فى الحرارة والرطوبة ومزاج الصيف حار يابس ومزاج الخريف بارد يابس ومزاج الشتاء بارد رطب * قال السائل أخبرنى عن كيفية تغيير الكواكب للهواء قال ان الشمس متى قربت منها أو قربت هى من الشمس كان الهواء ازيد سخونة وخاصة كلما كانت اعظم ومتى بعدت الشمس أو بعدت هى من الشمس كان الهواء ازيد بردا * قال أخبرنى عن كمية أعداد الرياح قال أربع الشمال والجنوب والصبا والدبور فأما قوة الشمال فباردة يابسة وأما الجنوب فحارة رطبة وأما الصبا والدبور فعتدلان غير أن الصبا اميل الى الحرارة واليبس والدبور اميل الى البرودة والرطوبة من الصبا * قال فأخبرنى عن أحوال البلدان فى ذلك قال هى أربعة الاول الارتفاع والثانى الانخفاض والثالث مجاورة الجبال والبحار والرابع طبيعة تربة الارض والنواحى أربع وهى الجنوب والشمال والمشرق والمغرب فناحية الجنوب اسخن وناحية الشمال ابرد وأما ناحيتا المشرق والمغرب فعتدلتان واختلاف البلدان بارتفاعها يجعلها ابرد وانخفاضها يجعلها اسخن والبلدان تختلف بحسب مجاورة الجبال لها لان الجبل متى كان من البلد فى ناحية الجنوب جعل ذلك البلد ازيد بردا لانه يستره من الرياح الجنوبية وانما تهب فيه الريح الشمالية فقط ومتى كان الجبل من البلد فى ناحية الشمال جعل ذلك البلد اسخن * قال فأخبرنى عن اختلاف البلدان عند مجاورتها البحار كيف اختلفت قال حنين ان كان البحر من البلد فى ناحية الجنوب فان ذلك البلد يسخن ويرطب وان كان فى ناحية الشمال كان ذلك البلد أبرد * قال السائل فأخبرنى عن البلدان كيف اختلفت بحسب طبيعة تربتها قال ان كانت أرضها حجرية جعلت ذلك البلد ابرد وأجف وان كانت طينا جعلته ابرد وارطب * قال فلم اختلف الهواء من قبل البحار قال اذا جاورت نقائع ماء أو جيفا أو بقولا عفنة أو غير ذلك مما يعفن تغير هواؤها * فلما كثر هذا الكلام من السائل والمجيب اضجر ذلك الواثق فقطع ذلك وأجاز كل واحد ممن حضر * ثم أمرهم أن يخبر كل واحد منهم عما حضره فى الزهد فى هذا العالم الذى هو عالم الدثور والفناء والغرور فذكر كل واحد منهم ماسنح له من الاخبار عن زهد الفلاسفة من اليونانيين والحكماء المتقدمين كسقراط وديوجانس * قال الواثق قد اكثرتم فيما وصفتم وقد أحسنتم الحكاية فيما ذكرتم فليخبرنى كل واحد عن أحسن ما سمع من نطق الحكماء الذين حضروا وفاة الاسكندر وقد جعل فى التابوت الاحمر فقال بعضهم يا أمير

المؤمنين كل ماذكروه حسن وأحسن مانطق به من حضر ذلك المشهد من الحكماء دوجانس وقد قيل انه لبعض حكماء الهند فقال ان الاسكندر امس انطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه امس وأخذ هذا المعنى من قول الحكيم أبو العتاهية حيث قال

بكى حزنا بدفنك ثم انى * نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت فى حياتك لى عظات * وأنت اليوم أوعظ منك حيا

فاشتد بكاء الواثق وعلا نحيبه وبكى كل من حضر من الناس ثم قام من فوره ذلك وهو يقول

وصروف الدهر فى تقديره * خلقت فيها انخفاض وانحدار
بينما المرء على اعلائها * اذهوى فى هوة منها فخار
انما متعة قوم ساعة * وحياة المرء ثوب مستعار

(قال المسعودى) وللواثق أخبار حسان مما كان فى أيامه من الاحداث وما كان يجرى من المباحثة فى مجلسه الذى عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين فى أنواع العلوم من العقليات والسمعيات فى جميع الفروع والاصول وقد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب فى باب خلافة القاهر بن المعتضد جملا من الاخبار فى أخلاق الخلفاء من بنى العباس لمعنى أوجب ايرادها فى باب خلافة القاهر * واعتل الواثق فصلى بالناس يوم النحر أحمد بن أبى دواد وكان قاضى القضاة فدعا فى خطبته للواثق فقال اللهم اشفه مما ابتليته وقد قدمنا فيما سلف من أخباره فى هذا الكتاب فاغنى ذلك عن اعادته

(ذكر خلافة المتوكل على الله)

وبويع جعفر بن محمد بن هرون ولقب بالمنتصر بالله فلما كان فى اليوم الثانى لقبه أحمد بن أبى دواد المتوكل على الله وذلك فى اليوم الذى مات فيه الواثق أخوه وهو يوم الاربعاء لست بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ويكنى بأبى الفضل وبويع له وهو ابن سبع وعشرين سنة واشهر وقتل وهو ابن احدى وأربعين سنة وتسعة اشهر وتسع ليال وأمه أم ولد خوارزمية يقال لها شجاع وقتل ليلة الاربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان فى أيامه)

ولما افضت الخلافة الى المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة فى الجدال والترك لما كان عليه الناس فى أيام المعتصم والواثق وأمر الناس بالتسليم والتقليد وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث واظهار السنة والجماعة واظهر لباس ثياب الملحم وفضل ذلك على سائر الثياب واتبعه من فى داره على لبس ذلك وشمل الناس لبسه وبالغوا فى ثمنه اهتماما بعمله واصطناع الجيد منها لمبالغة الناس فيها وميل الراعى والرعية اليها فالباقى فى أيدى الناس الى هذه الغاية من تلك الثياب يعرف بالمتوكلية وهى نوع من ثياب الملحم نهاية فى الحسن والصبغ وجودة الصنع * وكانت أيام المتوكل أحسن أيام وانضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالامن والعدل ولم يكن المتوكل ممن يوصف فى عطائه وبذله بالجود ولا بتركه

وامساكه بالجد ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بنى العباس ظهر فى مجلسه اللعب والمضاحك والهزل مما قد استفاض فى الناس تركه الا المتوكل فانه السابق الى ذلك والمحدث له وأحدث أشياء من نوع ما ذكرنا تبعه فيها الاغلب من خواصه واكثر رعيته فلم يكن فى وزرائه والمتقدمين من كتابه وقواده من يوصف بجود ولا افضال أو يتعالى عن مجون وطرب * وكان الفتح بن خاقان التركى مولاه اغلب الناس عليه وأقربهم منه واكثرهم تقدما عنده ولم يكن الفتح مع هذه المنزلة من الخلافة ممن يرجى فضله ويخاف شره وكان له نصيب من العلم ومنزلة من الادب وألف كتابا فى الادب ترجمه بكتاب البستان * وأحدث المتوكل فى أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيرى والكمين والاروقة وذلك أن بعض سماره حدثه فى بعض الليالى أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بنى نصر أحدث بنيانا فى دار قراره وهى الحيرة على صورة الحرب وهيئته للهجته بها وميله نحوها لئلا يغيب عنه ذكرها فى سائر أحواله فكان الرواق مجلس الملك وهو الصدر والكمان ميمنة وميسرة ويكون فى البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه وفى اليمين منهما خزانة الكسوة وفى ا[illegible] تج اليه من الشراب والرواق قد عم فضاؤه الصدر والكمين والابواب الثلا[illegible] هذا البنيان الى هذا الوقت بالحيرى والكمين اضافة الى الحيرة واتبع [illegible] ائتما بفعله واشتهر الى هذه الغاية وبايع لبنيه الثلاثة محمد المنتصر با[illegible] وابى عبد الله المعتز بالله والمستعين بالله وفى ذلك يقول ابن المدبر فى ذكره لهذه البيعة

يا بيعة مثل بيعة الشجره * فيها لكل الخلائق الخيره
اكدها جعفر وصيرها * الى بنيه الثلاثة البرره

وفى ذلك يقول على بن الجهم

قل للخليفة جعفر ياذا الندى * وابن الخلائف والائمة والهدى
لما اردت صلاح دين محمد * وليت عهد المسلمين محمدا
وثنيت بالمعتز بعد محمد * وجعلت ثالثهم اعز مؤيدا

وكان استخلاف المتوكل على الله بعد أن استخلف أبو العباس السفاح بمائة سنة وبعد موت العباس بن عبد المطلب بمائتى سنة وقد قيل غير ذلك والله اعلم على تفاوت التواريخ فى كمية أوقاتهم وعدد سنيهم والزيادة فى الايام والشهور والنقصان عن مدة ملكهم وقد كان سخط المتوكل على محمد بن عبد الملك الزيات بعد خلافته بأشهر فقبض امواله وجميع ما كان له وقلد مكانه ابا الوزير وقد كان ابن الزيات اتخذ للمصادرين والمغضوب عليهم تنورا من الحديد رؤس مساميره الى داخل قائمة مثل رؤس المسال فى أيام وزارته للمعتصم والواثق فكان يعذب الناس فيه فأمر المتوكل بادخاله فى ذلك التنور فقال محمد بن عبد الملك الزيات للموكل به أن يأذن له فى دواة وبطاقة ليكتب فيها ما يريد فاستأذن المتوكل فى ذلك فأذن له فكتب

هى السبيل فمن يوم الى يوم * كانه ماتريك العين فى النوم

لا تجزعن رويدا انها دول * دنيا تنقل من قوم الى قوم

قال وتشاغل المتوكل فى ذلك اليوم فلم تصل الرقعة اليه فلما كان الغد قرأها فأمر باخراجه فوجده ميتا وكان حبسه فى ذلك التنور الى أن مات أربعين يوما وكان كاتبا بليغا وشاعرا مجيدا وهو القائل فى تحريض المأمون على ابراهيم بن المهدى حين خرج عليه

ألم تر أن الشئ للشئ علة * يكون له كالنار تقدح بالزند
كذلك جربنا الامور وانما * يدلك ما قد كان قبل على البعد
وظنى بابراهيم أن فكاكه * سيبعث يوما مثل أيامه النكد
تذكر أمير المؤمنين قيامه * وأيامه فى الهزل منه وفى الجد
اذا هز أعواد المنابر باسمه * تغنى بليلى أو بمية أو هند

فى شعر طويل جدا ومن شعره قوله فى مرثية للمعتصم بالله

وظل له سيف النبى كأنما * مدامعه من شدة الحزن تذرف
حمائله والبرد تشهد أنه * هو الطيب الاولى الذى كان يعرف
أقول ومن حق الذى قلت أننى * أصول وقد أتى بعد ذلك وأحلف
لما هاب أهل الظلم مثلك سائسا الخلافة القاهر بن الـ المظلوم مثلك منصف

وقد أتينا على أخباره وما استحسن من اراده فى كتابنا الاوسط فكانت أيام أبى الوزير فى الوزارة يسيرة وقد كان اتخذ للوزارة محمد بن الفضل الجرجانى ثم صرفه فاستكتب عبيد الله بن يحيى سنة ست وثلاثين ومائتين الى أن قتل وقد أتينا فى الكتاب الاوسط على أخباره واتصاله بالمتوكل وأخبار الفتح بن خاقان (وذكر) محمد بن يزيد المبرد قال ذكرت للمتوكل منازعة جرت بينه وبين الفتح بن خاقان فى تأويل آية وتنازع الناس فى قراءتها فبعث الى محمد بن القاسم بن محمد بن سليمان الهاشمى وكان اليه البصرة فحملنى اليه مكرما فلما اجتزت بناحية النعمان بين واسط وبغداد ذكر لى أن بدير هرقل جماعة من المجانين يعالجون فلما حاذيته دعتنى نفسى الى دخوله فدخلته ومعى شاب ممن يرجع الى دين وأدب فاذا أنا بمجنون من المجانين قد دنا الى فقلت ما يقعدك بينهم وأنت بائن عنهم فكسر جفنه ورفع عقيرته وأنشأ يقول

ان وصفونى فناحل الجسد * أو فتشونى فأبيض الكبد
أضعف وجدى وزاد فى سقمى * أن لست أشكو الهوى الى أحد
وضعت كفى على فؤادى من * حر الاسى وانطويت فوق يدى
آه من الحب آه من كبدى * ان لم أمت فى غد فبعد غد
كأن قلبى اذا تذكرهم * فريسة بين ساعدى أسد

فقلت أحسنت لله درك زدنى فأنشأ يقول

ما أقتل البين للنفوس وما * أوجع فقد الحبيب للكبد
عرضت نفسى من البلاء لما * أسرف فى مهجتى وفى جلدى
يا حسرتى أن أموت معتقلا * بين اعتلاج الهموم والكمد

في كل يوم يفيض معوله * عيني لعضو برت في جسدي

فقلت أحسنت لافض فوك زدني فأنشأ يقول

الله يعلم انى كمد * لا استطيع ابث ما اجد
نفسان لى نفس تضمنها * بلد واخرى حازها بلد
وأرى المقيمة ليس ينفعها * صبر وليس بعينها جلد
وأظن غائبتى كشاهدتى * بمكانها تجد الذى تجد

فقلت والله أحسنت فاستزدته فقال اراك كلما أنشدتك استزدتنى وماذاك الا لفرط أدب وفراق شجن فأنشدنى أنت أيضا فقلت للذى معى أنشده فأنشأ يقول

عذل وبين وتوديع ومرتحل * أى العيون على ذا ليس تنهمل
تالله ما جلدى من بعدهم جلد * ولا اختزان دموعى عنهم بخل
بلى وحرمة ما ألقين من خبل * قلبي اليهن مشتاق وما رحلوا
وددت أن البحار السبع لى مدد * وأن جسمى دموع كلها همل
وأن لى بدلا من كل سابحة * فى كل جارحة يوم النوى مقل
لادر در النوى لو صادفت جبلا * لانهد منها وشيكا ذلك الجبل
الهجر والبين والواشون والابل * طلائع يتراءى أنها الاجل

فقال المجنون أحسنت وقد حضرنى فى معنى ما أنشدت الى شعر أفانشده قلت هات فأنشأ يقول

ترحلوا ثم نيطت دونهم سجف * لو كنت املكهم يوما لما رحلوا
يا حادى العيس مهلا كى نودعها * رفقا قليلا فى توديعها الاجل
ما راعنى اليوم شئ غير فقدهم * حتى استقلت وسارت بالدمى الابل
انى على العهد لم انقض مودتهم * فليت شعرى وطال الدهر ما فعلوا

قال المبرد فقال الفتى الذى معى ماتوا فقال المجنون آه آه ان ماتوا فسوف اموت وسقط ميتا فما برحت حتى غسل وكفن وصليت عليه ودفنته ووردت سرمن رأى فأدخلت على المتوكل وقد عمل فيه الشراب فسئلت عن بعض ما وردت له فأجبت وبين يدى المتوكل البحترى الشاعر فابتدأ ينشد قصيدة يمدح بها المتوكل وفى المجلس أبو العتاهية الصيمرى فأنشد البحترى قصيدته التى أولها

عن أى ثغر تبتسم * وبأى طرف تحتكم
حسن يضئ بحسنه * والحسن اشبه بالكرم
قل للخليفة جعفر الـ * ـمتوكل ابن المعتصم
المرتضى ابن المجتبى * والمنعم ابن المنتقم
أما الرعية فهى من * أمان عدلك فى حرم
يا بانى المجد الذى * قد كان قوض فانهدم
اسلم لدين محمد * فاذا سلمت فقد سلم

نلنا الهدى بعد العمى * بك والغنى بعد العدم

فلما انتهى مشى القهقرى للانصراف فوثب أبو العنبس فقال يا أمير المؤمنين تأمر بردّه فقد والله عارضته فى قصيدته هذه فأمر برده فأخذ أبو العنبس ينشد شيأ لولا أن فى تركه بتر الخبر لما ذكرناه وهو

من أىّ سلح تلتقم * وبأىّ كف تلتطم

ادخلت رأس البحترىّ أبى عبادة فى الرحم

ووصل ذلك بما اشبهه من الشتم فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه وفحص برجله اليسرى وقال يدفع الى أبى العنبس عشرة آلاف درهم فقال الفتح يا سيدى البحترى الذى هجى وأسمع المكروه ينصرف خائبا قال ويدفع الى البحترى عشرة آلاف درهم قال يا سيدى وهذا البصرى الذى اشخصناه من بلده لا يشركهم فيما حصلوه قال ويدفع اليه عشرة آلاف درهم فانصرفنا كلنا فى شفاعة الهزل ولم ينفع البحترى جده واجتهاده وحزمه ثم قال المتوكل لأبى العنبس أخبرنى عن حمارك ووفاته وما كان من شعره فى الرؤيا التى اريتها قال نعم يا أمير المؤمنين كان اعقل من القضاة ولم يكن له جريرة ولا زلة فاعتل على غفلة فمات منها فرأيته فيما يرى النائم فقلت له يا حمارى ألم ابرد لك الماء وأنق لك الشعير وأحسن اليك جهدى فلم مت على غفلة وما خبرك قال نعم لما كان فى اليوم الذى وقفت على فلان الصيدلانى تكلمه فى كذا وكذا مرت بى اتان حسناء فرأيتها فأخذت بمجامع قلبى فعشقتها واشتد وجدى بها فمت كمدا متأسفا فقلت له يا حمارى فهل قلت فى ذلك شعرا قال نعم وأنشدنى

هام قلبى بأتان * عند باب الصيدلانى

تيمتنى يوم رحنا * بثناياها الحسان

وبخدذى دلال * مثل خد الشنغرانى

فبها مت ولو عشت * اذا طال هوانى

قال فقلت يا حمارى فما الشنغرانى فقال هذا من غريب الحمير فطرب المتوكل وأمر الملهين والمغنين أن يغنوا ذلك اليوم بشعر الحمار وفرح فى ذلك اليوم فرحا وسرورا لم ير مثله وزاد فى تكرمة أبى العنبس وجائزته (وحدث) أبو عبد الله محمد بن عرفة النحوى قال حدثنا محمد ابن يزيد المبرد قال قال المتوكل لأبى الحسن علىّ بن محمد بن علىّ بن موسى بن جعفر بن محمد ابن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم ما يقول ولد أبيك فى العباس بن عبد المطلب قال وما يقول ولد أبى يا أمير المؤمنين فى رجل افترض الله طاعة بنيه على خلقه وافترض طاعته على بنيه فأمر له بمائة ألف درهم وانما اراد أبو الحسن طاعة الله على بنيه فعرض وقد كان سعى بأبى الحسن علىّ بن محمد الى المتوكل وقيل له ان فى منزله سلاحا وكتبا وغيرها من شيعته فوجه اليه ليلا من الاتراك وغيرهم من هجم عليه فى منزله على غفلة ممن فى داره فوجد فى بيت وحده مغلق عليه وعليه مدرعة من شعر ولا بساط فى البيت الا الرمل والحصا وعلى رأسه ملحفة من الصوف متوجها الى ربه يترنم بآيات من القرآن فى الوعد والوعيد فأخذ على ما وجد عليه وحمل الى المتوكل فى جوف الليل فمثل بين يديه والمتوكل يشرب وفى

يده كاس فلما رآه أعظمه وأجلسه الى جنبه ولم يكن فى منزله شئ مما قيل فيه ولا حالة يتعلل
عليه بها فناوله المتوكل الكاس الذى فى يده فقال يا أمير المؤمنين ما خامر لحمى ودمى قط
فاعفنى منه فعافاه وقال أنشدنى شعرا استحسنه فقال انى لقليل الرواية للاشعار فقال لا بد
أن تنشدنى فأنشده

باتوا على قلل الاجبال تحرسهم * غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم * فأودعوا حفرا يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا * اين الاسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت منعمة * من دونها تضرب الاستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم * تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهرا وما شربوا * فأصبحوا بعد طول الاكل قد أكلوا
وطالما عمروا دورا لتحصنهم * ففارقوا الدور والاهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الاموال وادخروا * فخلفوها على الاعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفرا معطلة * وساكنوها الى الاجداث قد رحلوا

قال فأشفق من حضر على علىّ وظنوا أن بادرة تبدر منه اليه قال والله لقد بكى المتوكل
بكاء طويلا حتى بلت دموعه لحيته وبكى من حضره ثم أمر برفع الشراب ثم قال له يا أبا
الحسن أعليك دين قال نعم أربعة آلاف دينار فأمر بدفعها اليه ورده الى منزله من ساعته
مكرما * قال وكانت وفاة محمد بن سماعة القاضى صاحب محمد بن الحسن وصاحب أبى
حنيفة فى خلافة المتوكل وذلك فى سنة ثلاثين ومائتين وهو ابن مائة سنة صحيح الجسم
والعقل والحواس يفتض الابكار ويركب الخيل التى تقطف وتعنق لم ينكر من نفسه شيأ
(وحكى) ابنه سماعة بن محمد قال قال لى أبى محمد بن سماعة وجدت فى حياة سوار بن عبد الله
قاضى المنصور كتابا له بخطه اراه من شعره أو أبيات استحسنها وهى

سلبت عظامى لحمها فتركتها * عوارى فى اجلادها تتكسر
وأخليت منها مخها فكأنها * قوارير فى اجوافها الريح تصفر
اذا سمعت ذكر الفراق ترعدت * فرائصها من خوف ما تتحذر
خذى بيدى ثم ارفعى الثوب وانظرى * ضنى جسدى لكننى اتستر

ولمحمد بن سماعة تصنيفات حسان فى الفقه وروايات عن محمد بن الحسن وغيره منها كتاب
نوادر المسائل عن محمد بن الحسن ألوف أوراق * وفى هذه السنة وهى سنة ثلاث وثلاثين
ومائتين مات يحيى بن معين * وفى سنة خمس وثلاثين ومائتين مات أبو بكر بن أبى شيبة
والقواريرى وكانا من علية أصحاب الحديث وحفاظهم وفيها مات اسحق بن ابراهيم بن
مصعب وكان على بغداد وولى مكانه وله أخبار حسان قد أتينا على غررها فى كتابنا أخبار
الزمان (ومن ظريف أخباره) والمستحسن مما كان فى أيامه وسيره ببغداد ما حدث به عنه
موسى بن صالح بن شيخ بن عميرة الاسدى انه رأى فى منامه كأن النبى صلى الله عليه وسلم
يقول له أطلق القاتل فارتاع لذلك روعا عظيما ونظر فى الكتب الواردة لاصحاب الحبوس فلم

قوله وكان على بغداد هكذا فى النسخ ولعل فيه سقطا والاصل وكان على شرطة بغداد مثلا أخذا من العبارة الآتية بعده وقوله وولى مكانه أى تولى غيره مكانه وليحرر اه مصححه

يجد فيها ذكر قاتل فأمر باحضار السندى وعباس فسألهما هل رفع اليهما أحد ادعى عليه بالقتل فقال له العباس نعم وقد كتبنا بخبره فأعاد النظر فوجد الكتاب فى أضعاف القراطيس واذا الرجل قد شهد عليه بالقتل وأقر به فأمر اسحق باحضاره فلما دخل عليه ورأى ما به من الارتياع قال له ان صدقتنى اطلقتك فابتدأ يخبره بخبره وذكر أنه كان هو وعدة من أصحابه يرتكبون كل عظيمة ويستحلون كل محرم وانه كان اجتماعهم فى منزل بمدينة أبى جعفر المنصور يعتكفون فيه على كل بلية فلما كان فى هذا اليوم جاءتهم عجوز كانت تختلف اليهم للفساد ومعها جارية بارعة الجمال فلما توسطت الجارية الدار صرخت صرخة فبادرت اليها من بين أصحابى فأدخلتها بيتا وسكنت روعها وسألتها عن قصتها فقالت الله الله فى فان هذه العجوز خدعتنى وأعلمتنى أن فى خزانتها حقا لم ير مثله فشوقتنى الى النظر الى ما فيه فخرجت معها واثقة بقولها فهجمت بى عليكم وجدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمى فاطمة وأبى الحسن بن على فاحفظوهم فى قال الرجل فضمنت خلاصها وخرجت الى أصحابى فعرفتهم فكأنى أغريتهم بها وقالوا لما قضيت حاجتك منها اردت صرفنا عنها وبادروا اليها وقمت دونها أمنع عنها فتفاقم الامر بيننا الى أن نالنى جراح فعمدت الى اشدهم كان فى أمرها واكلبهم على هتكها فقتلته ولم أزل امنع عنها الى أن خلصتها سالمة وتخلصت الجارية آمنة مما خافته على نفسها فأخرجتها من الدار فسمعتها تقول سترك الله كما سترتنى وكان لك كما كنت لى وسمع الجيران الضجة فبادروا الينا والسكين فى يدى والرجل يتشحط فى دمه فرفعت على هذه الحالة فقال لى اسحق قد عرفت لك ما كان من حفظك للمرأة ووهبتك لله ورسوله قال فوحق من وهبتنى له لا عاودت معصية ولا دخلت فى ريبة حتى ألقى الله فأخبره اسحق بالرؤيا التى رآها وأن الله لم يضيع له ذلك وعرض عليه برا واسعا فأبى قبول شئ من ذلك * وفى سنة تسع وثلاثين ومائتين رضى المتوكل عن أبى محمد يحيى بن اكثم الصيفى فأشخص الى سر من رأى وولى قضاء القضاة وسخط على أحمد بن أبى دواد وولده أبى الوليد محمد بن أحمد وكان على القضاء وأخذ من أبى الوليد مائة ألف وعشرين ألف دينار وجوهرا بأربعين ألف دينار واحدر الى بغداد وقد كان أبو عبد الله أحمد بن أبى دواد فلج بعد موت عدوه ابن الزيات بسبعة وأربعين يوما وذلك فى سنة ثلاث وثلاثين * وفى سنة أربعين ومائتين كانت وفاة أبى عبد الله أحمد بن أبى دواد بعد وفاة أبى الوليد محمد بن أحمد بعشرين يوما وكان ممن أدى الله الخير على يديه على ما اشتهر من أمره وسهل الله سبيله اليه وحبب اليه المعروف وفعله (وذكر) أن المعتصم كان بالجوسق يوما مع ندمائه وقد عزم على الاصطباح وأمر كل واحد منهم أن يطبخ قدرا اذ بصر بسلامة غلام ابن أبى دواد فقال هذا غلام ابن أبى دواد يتعرف خبرنا والساعة يأتى فيقول فلان الهاشمى وفلان القرشى وفلان الانصارى وفلان العربى فيعطلنا بحوائجه عما عزمنا عليه وأنا أشهدكم أنى لا أقضى اليوم له حاجة فلم يكن بين قوله وبين استئذان الاتباع لابى عبد الله الا هنيهة فقال لجلسائه كيف ترون قولى قالوا فلا تأذن له قال سوء الحمى سنة أهون على من ذلك ودخل فما هو الا أن سلم وجلس وتكلم حتى اسفر وجه المعتصم

وضحك

وضحكت اليه جوارحه ثم قال له يا أبا عبد الله قد طبخ كل واحد من هؤلاء قدرا وقد جعلناك حكما فى طبخها قال فلتحضر ثم آكل ثم أحكم بحكم بعلم فحملت اليه القدور ووضعت بين يديه فجعل يأكل من أول قدر اكلا تاما فقال له المعتصم هذا ظلم قال وكيف ذلك قال لانى اراك قد امعنت فى هذا اللون وستحكم لصاحبه قال يا أمير المؤمنين على أن آكل من هذه القدور كلها كما أكلته من هذا القدر فتبسم له المعتصم وقال له شأنك اذا فأكل كما قال ثم قال أما هذه فقد أحسن طابخها اذ أكثر فلفلها وأقل كمونها وأما هذه فقد أجاد طابخها اذ أكثر خلها وأقل زيتها وأما هذه فقد طيبها طابخها باعتدال توابلها وأما هذه فقد حذق من عملها بقلة مائها وكثرة مرقها حتى وصف القدور بصفات سر أهلها بها ثم أكل مع القوم كما اكلوا أنظف أكل وأحسنه مرة يحدثهم باخبار الاكلة فى صدر الاسلام معاوية بن أبى سفيان وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وسليمان بن عبد الملك ومرة يحدثهم عن اكلة دهره مثل سردة التمار وورق القصاب وحاتم الكيال واسحق الحامى فلما رفعت الموائد قال له المعتصم ألك حاجة يا أبا عبد الله قال نعم يا أمير المؤمنين قال اذكرها فان أصحابنا يريدون أن يتشاغلوا قال نعم يا أمير المؤمنين رجل من أهلك وطئه الدهر فغير حاله وخشن معيشته قال ومن هو قال سليمان بن عبد الله النوفلى قال قدر له ما يصلحه قال خمسين ألف درهم قال انفذت ذلك له قال وحاجة اخرى قال وما هى قال ضياع ابراهيم ابن المعتمر تردها له قال قد فعلت قال وحاجة اخرى قال قد فعلت قال فوالله ما خرج حتى سأل ثلاث عشرة حاجة لا يرده عن شئ منها حتى قام خطيبا فقال يا أمير المؤمنين عمرك الله طويلا فبعمرك تخصب جنات رعيتك ويلين عيشهم وتثمر أموالهم ولا زلت ممتعا بالسلامة محبوا بالكرامة مرفوعا عنك حوادث الايام وغيرها ثم انصرف فقال المعتصم هذا والله الذى يتزين بمثله ويبتهج بقربه ويعد به ألوف من جنسه أما رأيتم كيف دخل وكيف سلم وكيف تكلم وكيف أكل وكيف وصف القدور ثم انبسط فى الحديث وكيف طاب اكلنا ما يرد هذا عن حاجة الا لئيم الاصل خبيث الفرع والله لو سألنى فى مجلسى هذا ما قيمته عشرة آلاف ألف درهم مارددته عنها وأنا اعلم أنه يكسبنى فى الدنيا حمدا وفى الآخرة ثوابا * وفى أحمد بن أبى دواد يقول الطائى

لقد أنسى مساوى كل دهر * محاسن أحمد بن أبى دواد
فما سافرت فى الآفاق الا * ومن جدواه راحلتى وزادى
مقيم الظن عندك والامانى * وان قلقت ركابى فى البلاد

(وحكى) عن الفتح بن خاقان قال كنت عند المتوكل وقد عزم على الصبوح بالجعفرى وقد وجه خلف الندماء والمغنين قال فجعلنا نطوف وهو متكئ على وأنا احادثه حتى وصلنا الى موضع نشرف منه على الخليج فدعا بكرسى فقعد عليه وأقبل يحادثنى اذ بصر بسفينة مشدودة بالقرب من شاطئ الخليج وملاح بين يديه قدر كبيرة يطبخ فيها سكباج من لحم بقر وقد فاحت روائحها فقال يا فتح رائحة قدر سكباج والله ويحك أما ترى ما اطيب رائحتها على بها على حالها فبادر الفراشون فانتزعوها من بين يدى الملاحين فلما عاين الملاحون أصحاب

السفينة ما فعل بهم ذهبت نفوسهم فرقا وخوفا وباء والمتوكل بالقدر تفور كهيئتها فوضعت بين ايدينا فاستطاب ريحها واستحسن لونها ودعا برغيف فكسر منه كسرة ودفعها الى وأخذ هو منه مثلها وأكل كل واحد منا ثلاث لقم وأقبل الندماء والمغنون فجعل يلقم كل واحد منهم لقمة من القدر وأقبل الطعام ووضعت الموائد فلما فرغ من اكله أمر بتلك القدر ففرغت وغسلت بين يديه وأمر أن تملأ دراهم فجيء ببدرة ففرغت فيها ففضل من الدراهم مقدار ألفي درهم فقال لخادم كان بين يديه خذ هذه القدر فامض بها حتى تدفعها الى من طبخها وما فضل من هذه البدرة من الدراهم هو هبة له على تجويده طبخها قال الفتح فكان المتوكل كثيرا ما يقول اذا ذكر قدر الملاح ما كانت احسن من سكباج أصحاب السفينة فى ذلك اليوم * وأخبرنا القاسم بن جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى الفقيه بجهينة وكان من حديثه الموصل قال حدثنا أبو الحسن الصالحى قال قال الجاحظ ذكرت لامير المؤمنين المتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآنى استبشع منظرى فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفنى وخرجت من عنده فلقيت محمد بن ابراهيم وهو يريد الانصراف الى مدينة السلام فعرض على الخروج معه والانحدار فى حراقته فركبنا فيها فلما أتينا فم نهر القاطول وخرجنا من سامرا نصب ستارته وأمر بالغناء فاندفعت عوادة فغنت

كل يوم قطيعة وعتاب * ينقضى دهرنا ونحن غضاب
ليت شعرى انا خصصت بهذا * دون ذا الخلق أم كذا الاحباب

وسكتت فأمر الطنبورية فغنت

وارحمتا للعاشقينا * ما ان ارى لهم معينا
كم يهجرون ويصرمو * ن ويقطعون فيصبرونا

قال فقالت هذه العوادة فيصنعون ماذا قالت هكذا يصنعون وضربت بيدها الى الستارة فهتكتها وبرزت كأنها فلقة قمر فزجت بنفسها الى الماء وعلى رأس محمد غلام يضاهيها فى الجمال وبيده مذبة فأتى الموضع ونظر اليها وهى تمر بين الماء فأنشأ يقول

وانا الذى غرقتنى * بعد القضا لو تعلمينا

فزج بنفسه فى أثرها فادار الملاح الحراقة فاذا بهما معتنقان ثم غاصا فلم يريا فهال ذلك محمدا واستعظمه وقال يا عمرو لتحدثنى حديثا يسلينى عن فقد هذين والا ألحقتك بهما قال فحضرنى حديث يزيد بن عبد الملك وقد قعد للمظالم وعرضت عليه القصص فمرت به قصة فيها ان رأى أمير المؤمنين أعزه الله أن يخرج جاريته فلانة حتى تغنينى ثلاثة اصوات فعل فاغتاظ يزيد وأمر من يخرج اليه ويأتيه برأسه ثم أمر بأن يتبع الرسول برسول آخر يأمره أن يدخل اليه الرجل فلما وقف بين يديه قال له ما الذى حملك على ما صنعت قال الثقة بحلمك والاتكال على عفوك فأمره بالجلوس حتى لم يبق أحد من بنى امية الا خرج ثم أمر فأخرجت الجارية ومعها عودها فقال لها الفتى غنى

افاطم مهلا بعض هذا التدلل * وان كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

فغنته فقال له يزيد قل قال غنى

تألق البرق نجديا فقلت له * يا أيها البرق انى عنك مشغول
يكفيك عني عدو ثائر حنق * فى كفه صارم كالملح مسلول

فغنته فقال قل قال يأمر لى برطل خمر فما استتم شرابه حتى وثب وصعد على اعلى قبة ليزيد فرمى بنفسه على دماغه فمات فقال يزيد انالله وانا اليه راجعون اتراه الاحمق الجاهل ظن انى أخرج اليه جاريتى وأردها الى مالى يا غلمان خذوا بيدها واحملوها الى أهله ان كان له أهل والا فبيعوها وتصدقوا بثمنها عنه فانطلقوا بها الى أهله فلما توسطت الدار نظرت الى حفرة فى دار يزيد قد أعدت للمطر فجذبت نفسها من أيديهم وأنشأت تقول

من مات عشقا فليمت هكذا * لاخير فى عشق بلا موت

فزجت بنفسها على دماغها فماتت فسرى عن محمد وأحسن صلتى وقيل ان هذا الخبر انما كان مع سليمان بن عبد الملك قال فذكرت هذا الحديث لأبي عبد الله محمد بن جعفر الاخبارى بالبصرة فقال انا أخبرك بنحو من هذا الحديث الذى حدثنى به واثق الخادم وكان مولى لمحمد بن حميد الطوسى أن محمد بن حميد كان جالسا مع ندمائه يوما فغنت جارية من وراء الستارة

ياقمر القصر متى تطلع * أشقى وغيرى بك يستمتع
ان كان ربى قد قضى ما ارى * منك على رأسى فما اصنع

وعلى رأس محمد غلام بيده قدح يسقيه فرمى بالقدح عن يده وقال تصنعين هكذا ورمى بنفسه من الدار الى دجلة فهتكت الجارية الستارة ثم رمت بنفسها على اثره فنزلت الغلمة خلفهما فلم يجدوا احدا منهما فقطع محمد الشراب وقام عن مجلسه (قال المسعودى) وفى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين سخط المتوكل على عمر بن مصرح الراجحى وكان من علية الكتاب وأخذ منه مالا وجوهرا نحو مائة ألف وعشرين ألف دينار وأخذ من أخيه نحوا من مائة ألف وخمسين ألف دينار ثم صولح محمد على احد وعشرين ألف ألف درهم على أن يرد اليه ضياعه ثم غضب عليه غضبة ثانية وأمر أن يصفع فى كل يوم فأحصى ما صفع فكان ستة آلاف صفعة وألبسه جبة صوف ثم رضى عنه وسخط عليه ثالثة وأحدر الى بغداد وأقام بها حتى مات * وأهدى المؤيد الى المتوكل قارورة دهن وكتب اليه ان الهدية اذا كانت من الصغير الى الكبير فلطفت ودقت كان ابهى لها وأحسن وان كانت من الكبير الى الصغير فعظمت كان ارفع لها وأنفع (قال المسعودى) وكانت وفاة أحمد بن حنبل فى خلافة المتوكل بمدينة السلام وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة احدى وأربعين ومائتين ودفن بباب حرب فى الجانب الغربى وصلى عليه محمد بن طاهر وحضر جنازته خلق من الناس لم ير مثل ذلك اليوم والاجتماع فى جنازة من سلف قبله وكان للعامة فيه كلام كثير جرى بينهم بالعكس والضد فى الامور منها أن رجلا منهم كان ينادى العنوا الواقف عند الشبهات وهذا بالضد عما جاء عن صاحب الشريعة عليه السلام فى ذلك وكان عظيم من عظمائهم ومقدم فيهم يقف موقفا بعد موقف أمام الجنازة وينادى بأعلى صوته

وأظلمت الدنيا لفقد محمد * وأظلمت الدنيا لفقد ابن حنبل

يريد بذلك أن الدنيا أظلمت عند وفاة محمد عليه السلام وأنها أظلمت عند موت ابن حنبل كظلمتها عند موت الرسول صلى الله عليه وسلم * وفي هذه السنة انقضت الكواكب الانقضاض الذي لم ير مثله قط وذلك في ليلة الخميس لست خلون من جمادى الآخرة وقد كان في سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة انقضاض لكوكب عظيم هائل وهي الليلة التي وقعت فيها القرامطة بحجاج العراق من طريق الكوفة وذلك في ذي القعدة من سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة * وفي السنة التي مات فيها ابن حنبل كانت وفاة محمد بن عبد الله بن محمد الاسكافي وكان من أهل النظر والبحث وما عليه أهل العدل وكانت وفاة جعفر بن المبشر سنة أربع وثلاثين ومائتين وكان من كبار أهل العدلية وأهل الديانة من البغداديين ومات جعفر بن حرب سنة ست وثلاثين ومائتين وهو رجل من همدان ووجوه قحطان والى أبيه يضاف شارع باب حرب في الجانب الغربي من مدينة السلام وهو شيخ البغداديين من المتكلمين ومات عيسى بن طفيح سنة خمس وأربعين ومائتين وكان من حذاقهم وأهل الديانات منهم وذكر أبو الحسن الخياط أن أبا الهذيل محمد بن الهذيل كانت وفاته سنة سبع وعشرين ومائتين ثم تنازع أصحابه في مولده فقال قوم سنة احدى وثلاثين ومائة وقد كان أبو الهذيل هذا اجتمع مع هشام بن الحكم الكوفي الحرار وكان هشام شيخ المجسمة والرافضة في وقته ممن وافقه على مذهبه وكان أبو الهذيل يذهب الى نفي التجسيم ورفع التشبيه والى ضد قول هشام في التوحيد والامامة فقال هشام لأبي الهذيل اذا زعمت أن الحركة ترى فلم لا زعمت انها تلمس قال لانها ليست بجسم فيلمس لان اللمس انما يقع على الاجسام فقال له هشام فقل أيضا انها لا ترى لان الرؤية انما تقع على الاجسام فرجع أبو الهذيل سائلا فقال له من أين قلت ان الصفة ليست الموصوف ولا غيره قال هشام من قبل أنه يستحيل أن يكون فعلي انا ويستحيل أن يكون غيري لان التغاير انما أوقعه على الاجسام والاعيان القائمة بأنفسها فلما لم يكن فعلي قائما بنفسه ولم يجز أن يكون فعلي انا وجب انه لا انا ولا غيري وعلة اخرى أنت قائل بها زعمت يا أبا الهذيل أن الحركة ليست مماسة ولا مباينة لانها عندك مما لا يجوز عليه المماسة ولا المباينة فلذلك قلت انا ان الصفة ليست أنا ولا غيري وعلتي في انها ليست أنا ولا غيري علتك في انها لا تماس ولا تباين فانقطع أبو الهذيل ولم يرد جوابا * وكانت وفاة أبي موسى الفراء سنة ست وعشرين ومائتين وكان من شيوخ العدلية وكبار المتكلمين من البغداديين ومات واصل بن عطاء ويكنى بأبي حزيفة في سنة احدى وثلاثين ومائتين وهو شيخ المعتزلة وقديمها وأول من أظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين وهو أن الفاسق من أهل الملة ليس بمؤمن ولا كافر وبه سميت المعتزلة وهو الاعتزال وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار بني امية قول المعتزلة في الاصول الخمسة فأغنى ذلك عن اعادته وكذلك فيما سلف من كتبنا خبر عمرو بن عبيد ووفاته وكان شيخ المعتزلة والمتقدمين فيها وأن وفاته كانت سنة أربع وأربعين ومائة وقد كان عمرو بن عبيد اجتمع مع هشام بن الحكم وهشام يذهب الى القول بان الامامة نص من الله ورسوله على علي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وعلى من يلي عصره من ولده الطاهرين كالحسن والحسين

ومن يلي أيامهم وعمرو يذهب الى أن الامامة اختيار من الامة في سائر الاعصار فقال هشام لعمرو بن عبيد لم خلق الله لك عينين قال لانظر بهما الى ما خلق الله من السموات والارض وغير ذلك فيكون ذلك دليلا لى عليه فقال هشام فلم خلق الله لك سمعا قال لاسمع به التحليل والتحريم والامر والنهى فقال له هشام فلم خلق الله لك قلبا قال عمرو لتكون هذه الحواس مؤدية اليه فيكون مميزا بين منافعها ومضارها قال هشام فكان يجوز أن يخلق الله سائر حواسك ولا يخلق لك قلبا تؤدى هذه الحواس اليه قال عمرو لا فقال هشام ولم قال لان القلب باعث لهذه الحواس على ما يصلح له فلما لم يخلق الله فيها انبعاثا من نفسها استحال أن لا يخلق لها باعثا يبعثها على ما خلقت له الا بخلق القلب فيكون هو الباعث لها على ما تفعله والمميز لها بين مضارها ومنافعها ويكون الامام من الخلق بمنزلة القلب من سائر الحواس اذ كانت الحواس راجعة الى القلب لا الى غيره ويكون سائر الخلق راجعين الى الامام لا الى غيره فلم يأت عمرو بفرق يعرف وهذا الذى حكيناه ذكره أبو عيسى محمد بن هرون الوراق ببغداد فى كتابه المعروف بكتاب المجالس وكانت وفاة أبي عيسى بالرملة سنة سبع وأربعين ومائتين وله تصنيفات كثيرة منها كتابه فى المقالات فى الامامة وغيرها من النظر وكانت وفاة أبى الحسين أحمد بن يحيى بن اسحق الراوندى برحبة مالك بن طوق وقيل ببغداد سنة خمس ومائتين وله نحو من أربعين سنة وله كتب مصنفة مائة كتاب وأربعة عشر كتابا وقد ذكرنا فى كتابنا فى أخبار الزمان وفاة ارباب المقالات وأهل المذاهب والجدل والآراء والنحل وأخبارهم ومناظراتهم وتباينهم فى مذاهبهم وكذلك فى الكتاب الاوسط الى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وانما يسنح لنا ذكر بعضهم فى هذا الكتاب فنذكرهم لمعا وكذلك غيرهم من الفقهاء واصحاب الحديث وفيها مات ابراهيم بن العباس الصولى الكاتب وكان كاتبا بليغا وشاعرا مجيدا لا يعلم فيمن تقدم وتأخر من الكتاب أشعر منه وكان يكتسب فى حداثته بشعره ورحل الى الملوك والامراء ومدحهم طلبا لجدواهم وذكر رجل من الكتاب أن اسحق بن ابراهيم أخا زيد بن ابراهيم حدثه انه كان يتقلد الصيمرة والسيروان وأن ابراهيم ابن العباس اجتاز به يريد خراسان والمأمون بها وقد بايع بالعهد لعلى بن موسى الرضى وقد امتدحه بشعر يذكر فيه فضل آل على وأنهم أحق بالخلافة من غيرهم قال فاستحسنت القصيدة وسألته أن ينسخها لى ففعل ووهبت له ألف درهم وحملته على دابة وضرب الدهر من ضربه الى أن ولى ديوان الضياع مكان موسى بن عبد الملك وكنت أحد عمال موسى وكان يحب أن يكشف اسباب موسى فعزلنى وأمر أن تعمل مؤامرة فعملت وكثر على فيها وحضرت للمناظرة عنها فجعلت أحتج بما لا يدفع فلا يقبله ويحكم لى الكتاب فلا يلتفت الى حكمهم ويسمعنى فى خلال ذلك بدعا من الكلام الى أن أوجب على الكتاب اليمين على باب من الابواب فحلفت عليه فقال ليست يمين السلطان عندك يمينا لانك رافضى فقلت له تأذن لى فى الدنو منك فأذن لى فقلت ليس مع تعريضك بمهجتى للقتل صبر وهذا هو المتوكل ان كتبت اليه بما يسمع منك لم آمنه على نفسى وقد احتملت كل ما جرى سوى الرفض والرافضى من زعم أن على بن أبي طالب افضل من العباس وأن ولده أحق من ولد العباس

بالخلافة قال ومن ذلك قلت أنت وخطك عندى به وأخبرته بالشعر فوالله ماهو الا أن قلت ذلك له حتى سقط فى يده ثم قال أحضر الدفتر الذى بخطى فقلت له هيهات لا والله أو توثق لى بما اسكن اليه أنك لا تطالبنى بشئ مما جرى على يدى وتخرق هذه المؤامرة ولا تنظر لى فى حساب فحلف لى على ذلك وخرق العمل المعمول وأحضرته الدفتر فوضعه فى خفه وانصرفت وقد زالت عنى المطالبة * ولابراهيم بن العباس مكاتبات قد دونت وفصول حسان من كلامه قد جمعت قد أتينا على كثير منها فى الكتاب الاوسط فمما استحسن من فصوله وان كانت كلها فى نهاية الجودة وانتخبناه من كلامه وقد عاغذت المعصية أبناءها فحلبت عليهم من درها مرضعة وبسطت لهم من امانيها مطمعة وركبت فيهم مخاطرها موضعة حتى اذا رتعوا فأمنوا وركنوا فاطمأنوا وانقضى رضاع وآن فطام سقتهم سما ففجرت مجارى ألبانها منها دما وأعقبتهم من غذائها مرا وحطت بهم من معقل الى عقال ومن عز الى حسرة قتلا وأسرا واباحة وقسرا وقل من أوضع فى الفتنة مرهجا فى لهبها ومقتحما عند ضلالها الا استقحمته آخذة بمخنقه وموهنة بالحق كيده حتى تجعله لعاجله جزرا ولآجله حطبا وللحق موعظة وللباطل حجة ذلك لهم جزاء فى الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر وما ربك بظلام للعبيد وله اشعار حسان فمما استحسن من شعره الذى لم يسبقه عند جماعة اهل الادب أحد من زمانه قوله

لنا ابل كوم يضيق بها الفضا * ويفتر عنها أرضها وسماؤها
فمن دونها أن تستباح دماؤنا * ومن دوننا أن يستذم دماؤها
حمى وقرى فالموت دون مرامها * وأهون خطب فى الحقوق فناؤها

وقوله

ولكن الجواد أبا هشام * وفى العهد مأمون المغيب

وقوله

ومن ذخرت زمانى * شنأت فى الخلان
ومن ذخرت لنفسى * فعاد ذخر الزمان
لو قيل لى خذ أمانا * من اعظم الحدثان
لما أخذت أمانا * الامن الاخوان

وقوله

واذا جرى الله امرأ بفعاله * فجزى اخالك ماجدا اسما
نبهته من كذبه فكأنما * نبهت اذ نبهته صبحا

ومما يجب على الرؤساء أن يحفظوه قوله

تزيده الايام ان اقبلت * حزما وعلما بتصاريفها
كأنها فى وقت اسعافها * تسمعه صوت تخاريفها

ومما أحسن فيه وبرز عن نظرائه قوله

سقيا ورعيا الايام لنا سلفت * بكيت منها فصرت اليوم أبكيها

كذاك أيامنا لاشك نندبها * اذا انقضت ونحن اليوم نشكوها

وقوله

أولى البرية طرّا أن تواسيه * عند السرور لمن واساك فى الحزن
ان الكرام اذا ما اسهلوا ذكروا * من كان يألفهم فى المنزل الخشن

وقوله

لا تلمني فان همك أن تثرى وهمى مكارم الاخلاق
كيف يستطيع حفظ ما جمعت كفاه من ذاق لذة الانفاق

وقوله

اسد ضار اذا ما هجته * وأب برّ اذا ما قدرا
يعلم الاقصى اذا اثرى ولا * يعلم الادنى اذا ما افتقرا

وكان ابراهيم بن العباس يقول مثل أصحاب السلطان مثل قوم علوا جبلا ثم وقعوا منه فكان اقربهم الى التلف ابعدهم من الارتقاء وكان ابراهيم يدعى خؤولة العباس بن الاحنف الشاعر (وحكى) أبو العباس أحمد بن جعفر بن حمدان القاضى عن سليمان بن الحسين ابن مخلد عن أبيه الحسن قال انشدهم ابراهيم بن العباس قول العباس بن الاحنف

ان قال لم يفعل وان سيل لم * يبذل وان عوتب لم يعتب
صب بهجرانى ولو قال لى * لا تشرب البارد لم اشرب

فقال هذا والله الشعر الحسن المعنى السهل اللفظ العذب المستمع القليل النظير ما سمعت كلاما ايجز منه فى رقة ولا اسهل فى صعوبة ولا ابلغ فى انصاف من هذا فقال له الحسن لكلامك والله أحسن من شعره ومما استحسن من شعر العباس بن الاحنف قوله

تحمل عظيم الذنب ممن تحبه * وان كنت مظلوما فقل أنا ظالم
فطوبى لمن اغفى من الليل ساعة * وذاق اغتماضا ان ذاك لناعم

وقوله

اصرف فؤادك يا عباس معتمدا * عنها والا تمت فى حبها كمدا
لو أنها من وراء الروم فى بلد * ما كنت اسكن الا ذلك البلدا
يا من شكا شوقه من هول غيبته * اصبر لعلك تلقى ما تحب غدا

وقوله

اغب الزيارة لما بدا * له الهجر أو بعض اسبابه
وما صد عنا ولكنه * طريد ملالة احبابه

حدثنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى قال حدثنا الرياشى قال ذكر جماعة من أهل البصرة قالوا خرجنا نريد الحج فلما كنا ببعض الطريق اذا غلام واقف على المحجة وهو ينادى يا أيها الناس هل فيكم أحد من أهل البصرة قال فملنا اليه وقلنا له ما تريد قال ان مولاى لمابه يريد أن يوصيكم فملنا معه فاذا بشخص ملقى على بعد من الطريق تحت شجرة لا يحير جوابا فجلسنا حوله فأحس بنا فرفع طرفه وهو لا يكاد يرفعه ضعفا وأنشأ يقول

يا غريب الدار عن وطنه * مفردا يبكى على شجنه
كلما جد البكاء به * دبت الاسقام فى بدنه

ثم اغمى عليه طويلا وانا جلوس حوله اذ أقبل طائر فوقع على اعلى الشجرة وجعل يغرد ففتح الفتى عينيه وجعل يسمع تغريد الطائر ثم قال

ولقد زاد الفؤاد شجى * طائر يبكى على فننه
شفه ما شفنى فبكى * كلنا يبكى على سكنه

قال ثم تنفس تنفسا فاضت نفسه منه فلم نبرح من عنده حتى غسلناه وكفناه وتولينا الصلاة عليه فلما فرغنا من دفنه سألنا الغلام عنه فقال هذا العباس بن الاحنف وقد أخبرنا بهذا الخبر أبو اسحق الزجاجى النحوى عن أبى العباس المبرد عن المازنى قال حدثنا جماعة من أهل البصرة بما ذكرناه * وكانت وفاة أبى ثور ابراهيم بن خالد الكلبى سنة أربعين ومائتين * وفى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين نفى المتوكل على بن الجهم الشاعر الى خراسان وقيل فى سنة تسع وثلاثين ومائتين وقد أتينا على خبره وما كان من أمره ورجوعه بعد ذلك الى العراق وخروجه يريد الثغر وذلك فى سنة تسع وأربعين ومائتين فلما صار بالقرب من حلب من بلاد قنسرين والعواصم بالموضع المعروف بخشاف لقيته خيل الكلبيين فقال فى ذلك وهو فى الشرق

أزيد فى الليل ليل * ام سال بالصبح سيل
ذكرت أهل دجيل * وأين منى دجيل

وكان على بن الجهم السامى هذا مع انحرافه عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه واظهاره التسنن مطبوعا مقتدرا على الشعر عذب الالفاظ غزير الكلام وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب طعن من طعن على نسبه وما قال الناس فى عقب سامة بن لؤى ابن غالب وقول على بن محمد بن جعفر العلوى الشاعر

وسامة منا فأما بنوه * فامرهم عندنا مظلم
اناس اتونا بأنسابهم * خرافة مضطجع يحلم
وقلت لهم مثل قول النبى * وكل اقاويله محكم
اذا ماسئلت ولم تدرما * تقول فقل ربنا اعلم

وقول العلوى فيه أيضا

لو اكنفت النضر أو معدا * أو اتخذت البيت كهفا مهدا
وزمزما شريعة وورد ا * والاخشبين محضرا ومبدا
ما ازددت الا من قريش بعدا * أو كنت الامصقليا وغدا

وانما اعدنا هذا الشعر فى هذا الموضع وان كنا قد قدمناه فيما سلف من هذا الكتاب لما سنح لنا من ذكر على بن الجهم فى أيام المتوكل ولما احتجنا اليه عند ذكرنا الشعر على بن الجهم وأبياته العلوى على هذا الشعر فكان ما اجاب به على بن الجهم لعلى بن محمد بن جعفر العلوى

لم تذقني حلاوة الانصاف * وتعسفتني اشدّ اعتساف
وتركت الوفاء علماً بما فيه * وأسرفت غاية الاسراف
غير أني اذا رجعت الى حقّ بني هاشم بن عبد مناف
لم أجد لي الى التشفي سبيلا * بقواف ولا بغير قواف
لي نفس تأبى الدنية والاشراف لا تعتدي على الاشراف

وله في الحبس شعر معروف لم يسبقه الى معناه أحد وهو قوله

قالوا حبست فقلت ليس بضائر * حبسي وأيّ مهنّد لا يغمد
أوما رأيت الليث يألف غيله * كبرا وأوباش السباع تردّد
والشمس لولا انها محجوبة * عن ناظريك لما أضاء الفرقد
والنار في أحجارها مخبوءة * لا تصطلي ان لم تثرها الازند
والحبس ما لم تغشه لدنية * شنعاء نعم المنزل المستورد
بيت يجدّد للكريم كرامة * ويزار فيه ولا يزور ويحفد
لو لم يكن في الحبس الا انه * لا يستذلك بالحجاب الاعبد

ومما أحسن فيه قوله

خليليّ ما أحلى الهوى وأمرّه * وأعلمني بالحلو منه وبالمرّ
بما بيننا من حرمة هل رأيتما * أرق من الشكوى وأقسى من الهجر
وأفضح من عين المحبّ لسرّه * ولا سيما ان أطلقت عبرة تجري

ومما اختير من قوله

حسرت عني القناع ظلوم * وتولت ودمعها مسجوم
ثم ما أنكرت تصرّم عهد * لم يدم لي وأيّ عهد يدوم
أنكرت ما رأت برأسي وقالت * أمشيب أم لؤلؤ منظوم
قلت أولاهما علمت فقالت * آية يستثيرها المهموم
هي عندي من الهموم التي يحسن فيها العزاء والتسليم
ان أمرا أخنى عليّ بشيب الرأس في ليلة لامر عظيم
ليس عندي وان تعزيت الا * طاعة حرّة وقلب سليم

ومن جيد شعره

هي النفس ما حملتها تتحمل * وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة * وأكمل أخلاق الرجال التفضل
ولا عار ان زالت عن المرء نعمة * ولكن عارا أن يزول التحمل
وما المال الا حسرة ان تركته * وغنم اذا قدّمته متعجل

ومما اعتذر فيه فأحسن قوله في المتوكل

ان ذل السؤال والاعتذار * خطة صعبة على الاحرار
ليس من باطل يورّدها المر * ء ولكن سوابق الاقدار

فارحم للسائل الخضوع والقا * رف ذنبا بذلة الاعتذار
ان تجافيت منعما كنت أولى * من تجافى عن الذنوب الكبار
أو تعاقب فأنت أعرف بالله وليس العقاب منك بعار

ومما جوّده قوله أيضا

فقلت لها والدمع شتى طريقه * ونار الهوى بالقلب يذكو وقودها
فلا تجزعى اما رأيت قيوده * فان خلاخيل الرجال قيودها

وكان فى لسانه فضل قل من سلم معه منه وكان محمد بن عبد الله منحرفا عنه فاستشفع عليه بوصيف التركى حتى أصلح له ناحيته ثم فسد عليه وصيف فاستشفع عليه بمحمد بن عبد الله وكتب اليه

الحمد لله شكرا * قلوبنا فى يديه
صار الامير شفيعا * الى شفيعى اليه

وله أشعار نادرة وأمثال سائرة اخترنا منها ما قد مناذكره واقتصرنا بذلك عن غيره وقد رثاه جماعة من الشعراء بعد قتله منهم أبو صاعد فقال

أريقى الدمع واجتنبى الهجوعا * وصونى شمل وجدك أن يضيعا
وقولى ان كهف بنى لؤى * غدا بالشام منجدلا صريعا
عزاء يا بنى جهم بن بدر * فقد لاقيتم خطبا فظيعا
أما والله لو تدرى المنايا * بما لاقيتم لبكت نجيعا
ثوى كهف الارامل واليتامى * ومن كان الزمان به ربيعا
فتى كان السهام على الاعادى * وليثا دون حادثة منيعا

قال وفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين كان خروج المتوكل من دمشق الى سر من رأى فكان بين خروجه منها ورجوعه اليها ثلاثة أشهر وسبعة أيام وفى خروجه يقول المهلبى شعرا طويلا اخترنا منه قوله

أظن الشام يشمت بالعراق * اذا عزم الامام على انطلاق
فان تدع العراق وساكنيها * فقد تبلى المليحة بالطلاق

ولما نزل بدمشق أبى أن ينزل المدينة لتكاثف هواء الغوطة عليها وما يرتفع من بخار مياهها فنزل قصر المامون وذلك بين داريا ودمشق على ساعة من المدينة فى أعلى الارض وهذا الموضع بدمشق يشرف على المدينة وأكثر الغوطة ويعرف بقصر المامون الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وذكر سعيد بن نكيس قال كنت واقفا بين يدى المتوكل فى مضربه بدمشق اذ شغب الجند واجتمعوا وضجوا يطلبون الاعطية ثم خرجوا الى تجريد السلاح والرمى بالنشاب واقبلت أرى السهام ترتفع فى الرواق فقال لى يا أبا سعد ادع لى رجاء الحضارى فدعوته فقال له يا رجاء أما ترى ما خرج اليه هؤلاء فما الرأى عندك فقال يا أمير المؤمنين قد كنت مشفقا فى هذا السفر من مثل هذا فأشرت بما أشرت من تأخيره فقال أمير المؤمنين اليه وقال دع ما مضى وقل الآن مما حضر برأيك فقال يا أمير

المؤمنين

المؤمنين بوضع الاعطية فقال له فهذا ما أراد واوفيه مع ما خرجوا اليه ما يعلم قال يا أمير
المؤمنين مر بهذا فان الرأى بعده فأمر عبد الله بن يحيى بوضع الاعطية فيهم فلما خرج المال
وبدئ بانفاقه دخل رجاء فقال مر الآن يا أمير المؤمنين بضرب الطبل للرحيل الى العراق
فانهم لا يأخذون مما أخرج اليهم شيأ ففعل ذلك فترك الناس الاعطية حتى ان المعطى
ليتعلق بالرجل ليعطيه رزقه فلا يأخذه * قال سعيد وقد كان الاتراك قدرأوا انهم يقتلون
المتوكل بدمشق فلم يمكنهم فيه حيلة بسبب بغا الكبير فانهم دبروا فى ابعاده عنه فطرحوا فى
مضرب المتوكل الرقاع يقولون فيها ان بغا دبر أن يقتل أمير المؤمنين والعلامة فى ذلك أن
يركب فى يوم كذا فى خيله ورجله فيأخذ عليه أطراف عسكره ثم يأخذ جماعة من الغلمان
العجم يدخلون عليه فيفتكون به فقرأ المتوكل الرقاع فبهت مما تضمنته ودخل فى قلبه من
بغا كل مدخل وشكا الى الفتح ذلك وقال له فى أمر بغا والاقدام عليه وشاوره فى ذلك
فقال يا أمير المؤمنين ان الذى كتب الرقاع قد جعل للامر دلائل فى وقت بعينه من ركوب
الرجل الاطراف من العسكر وتوكيله بنواحيه وبعد ذلك يتبين الامر وانا أرى أن تمسك
فان صح هذا الدليل نظرنا كيف نفعل وان بطل ما كتب به فالحمد لله واقبلت الرقاع تطرح
فى كل وقت على جهة النصح والصدق فلما علموا بما علم به الخليفة وتمكن به ما عندهم من
الامر كتبوا رقاعا فطرحوها فى مضرب بغا يقولون فيها ان جماعة من الغلمان والاتراك
قد عزموا على الفتك بالخليفة فى عسكره ودبروا ذلك واتفقوا عليه وتعاقدوا على أن يأتوه
من نواحى كذا ونواحى كذا فالله الله الا ما احترست لامير المؤمنين وحرسته فى هذه الليلة
من هذه المواضع وحصنتها بنفسك ومن تثق به فانا قد نصحنا وصدقنا وأكثروا طرح الرقاع
بهذا المعنى والتوكيد فى حراسة الخليفة فلما وقف بغا عليها وتتابعت عليه لم يأمن أن يكون
ما كتب اليه فيها حقا مع ما كان وقع عليه من الامر قبل ذلك فلما كانت الليلة التى ذكروها
جمع جيوشه وأمرهم بالركوب بالسلاح وركب بهم الى المواضع التى ذكرت فاخذها
على المتوكل وحرسها واتصل الخبر بالمتوكل فلم يشك أن ما كتب له حق فاقبل يتوقع من
يوافيه فيفتك به وسهر ليلته وامتنع من الاكل والشرب فلم يزل على تلك الحال الى الغداة
وبغا يحرسه والامر عند المتوكل على خلاف ذلك وقد اتهم بغا واستوحش من
فعله فلما عزم المتوكل على الانصراف قال له يا بغا قد ابت نفسى مكانك منى ورأيت
أن اقلدك هذا الصقع وأقر عليك ما كان لك من رزق وحباء ونزل ومعونة وكل
سبب فقال انا عبدك يا أمير المؤمنين فافعل ما شئت وأمرنى بما أحببت فخلفه بالشام
وانصرف فأحدث الموالى عليه ما أحدثوا فلم يعلم المتوكل وجه الحيلة ولم يعلم كل واحد
منهما الحيلة فى ذلك الى أن تمت الحيلة * قال ولما عزم بغا الصغير على قتل المتوكل دعا بباغر
التركى وكان قد اصطنعه واتخذه وملأ عينه من الصلات وكان مقداما أهوج فقال له
يا باغر أنت تعلم محبتى لك وتقديمى اياك وايثارى لك واحسانى اليك وانى قد صرت عندك
فى حد من لا يعصى له أمر ولا يخرج عن محبته وأريد أن آمرك بشئ فعرفنى كيف قلبك
فيه فقال أنت تعلم كيف أنا فقل لى ما شئت حتى أفعله قال ان ابنى فارس قد أفسد على

علي وعمل على قتلي وسفك دمي وقد صح عندي ذلك منه قال فتريد مني ماذا قال أريد أن يدخل على غدا فالعلامة بيننا أن أضع قلنسوتي في الارض فاذا أنا وضعتها في الارض فاقتله قال نعم ولكن أخاف أن يبدو لك أو تجد في نفسك علي قال قد آمنك الله من ذلك فلما دخل فارس حضر باغر ووقف موقف الضارب فلم يزل يراعي بغا أن يضع قلنسوته فلم يفعل وظن انه نسي فغمزه بعينه أي افعل قال لا فلما لم ير العلامة وانصرف فارس قال له بغا اعلم أني فكرت في انه حدث وانه ولد وقدرت أن استخلصه هذه المرة فقال له باغر أنا قد سمعت وأطعت وأنت أعلم ومادبرت وقدرت عليه فيه صلاحه ثم قال له وههنا أمر أكبر من ذلك وأهم فعرفني كيف تريد أن تكون فيه قال له قل ماشئت حتى أفعله قال أخي وصيف قد صح عندي انه يدبر علي وعلى رفقائي وان مكاننا قد ثقل عليه وانه عول على أن يقتلنا ويفنينا ويتفرد بالامور قال فماذا تريد أن يصنع به قال افعل هذا فانه يصير الي غدا فالعلامة أن أنزل عن المصلى الذي يكون معي قاعدا عليه فاذا رأيتني نزلت عنه فضع سيفك عليه واقتله قال نعم فلما صار وصيف الى بغا حضر باغر وقام مقام المستعد فلم ير العلامة حتى قام وصيف وانصرف قال فقال له بغا يا باغر اني فكرت في انه أخي واني قد عاقدته وحلفت له فلم أستجز أن أفعل مادبرته ووصله واعطاه ثم انه امسك عنه مدة مديدة ودعا به فقال يا باغر قد حضرت حاجة أكبر من الحاجة التي قدمتها فكيف قلبك قال قلبي على ما تحب فقل ماشئت حتى أفعله فقال هذا المنتصر قد صح عندي انه على ايقاع التدبير علي وعلى غيري حتى يقتلنا وأريد أن أقتله فكيف ترى نفسك في ذلك ففكر باغر في ذلك ونكس رأسه وقال هذا لايجي منه شئ قال وكيف قال يقتل الابن والاب باق اذا لا يستوي لكم شئ ويقتلكم ابوه كلكم به قال فما ترى عندك قال نبدأ بالاب أولا فنقتله ثم يكون أمر الصبي أيسر من ذلك فقال له ويحك ويفعل هذا ويتهيأ قال نعم أفعله وأدخل عليه حتى أقتله فجعل يردد عليه فيقول لا نفعل غير هذا ثم قال له فادخل أنت في اثري فان قتلته والا فاقتلني وضع سيفك علي وقل اراد أن يقتل مولاه فعلم بغا حينئذ انه قاتله وتوجه له في التدبير في قتل المتوكل * وفي سنة سبع وأربعين توفيت شجاع أم المتوكل وصلى عليها المنتصر وذلك في شهر ربيع الآخر ثم قتل المتوكل بعد وفاتها بستة أشهر ليلة الاربعاء لثلاث ساعات خلت من الليل وذلك لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين وقيل لاربع خلون من شوال سنة سبع وأربعين * وكان مولده بفم الصلح حدث البحتري قال اجتمعنا ذات يوم مع الندماء في مجلس المتوكل فتذاكرنا أمر السيوف فقال بعض من حضر بلغني يا أمير المؤمنين انه وقع عند رجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له نظير ولم ير مثله فأمر المتوكل بكتاب الى عامل البصرة يطلبه بشرائه بما بلغ فنفذت الكتب على البريد وورد جواب عامل البصرة بأن السيف اشتراه رجل من أهل اليمن فأمر المتوكل بالبعث الى اليمن بطلب السيف وابتياعه فنفذت الكتب بذلك قال البحتري فبينا نحن عند المتوكل اذ دخل عليه عبيد الله والسيف معه وعرفه انه ابتيع من صاحبه باليمن بعشرة آلاف درهم فسر بوجوده وحمد الله على ماسهل من أمره وانتضاه فاستحسنه وتكلم كل واحد منا بما يجب وجعله تحت ثنى فراشه

فلما كان من الغداة قال للفتح اطلب لي غلاما تثق بنجدته وشجاعته أدفع له هذا السيف ليكون واقفا به على رأسي لا يفارقني في كل يوم ما دمت جالسا قال فلم يستتم الكلام حتى أقبل باغر التركي فقال الفتح يا أمير المؤمنين هذا باغر التركي قد وصف لي بالشجاعة والبسالة وهو يصلح لما أراده أمير المؤمنين فدعا به المتوكل فدفع اليه السيف وأمره بما أراد وتقدم أن يزاد في مرتبته وأن يضعف له الرزق قال البحتري فوالله ما انتضى ذلك السيف ولا خرج من غمده من الوقت الذي دفع اليه الا في الليلة التي ضربه فيها باغر بذلك السيف قال البحتري لقد رأيت من المتوكل في الليلة التي قتل فيها عجبا وذلك انا تذاكرنا أمر الكبر وما كانت تستعمله الملوك من الجبرية فجعلنا نخوض في ذلك وهو يتبرأ منه ثم حول وجهه الى القبلة فسجد وعفر وجهه بالتراب خضوعا لله عز وجل ثم أخذ من ذلك التراب فنثره في لحيته ورأسه وقال انما انا عبد الله وان من صار الى التراب لحقيق أن يتواضع ولا يتكبر قال البحتري فتطيرت له من ذلك وانكرت ما فعله من نثره التراب على رأسه ولحيته ثم قعد للشراب فلما عمل فيه غنى من حضره من المغنين صوتا استحسنه ثم التفت الى الفتح فقال يا فتح ما بقي أحد سمع هذا الصوت من مخارق غيري وغيرك ثم أقبل على البكاء قال البحتري فتطيرت من بكائه وقلت هذه ثانية فانا في ذلك اذ أقبل خادم من خدم قبيحة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها اليه قبيحة فقال له الرسول يا أمير المؤمنين تقول لك قبيحة اني استعملت هذه الخلعة لامير المؤمنين واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها قال فاذا فيه دراعة حمراء لم أر مثلها قط ومطرف خز احمر كأنه دبق من رقته قال فلبس الخلعة والتحف المطرف قال فاني على ذلك اذ تحرك المتوكل فيه وقد كان التف عليه المطرف فجذبه جذبة فخرقه من طرفه الى طرفه قال فاخذه واقه ودفعه الى خادم قبيحة الذي جاءه بالخلعة وقال قل لها احتفظي بهذا المطرف عندك ليكون كفنا لي عند وفاتي فقلت في نفسي انا لله وانا اليه راجعون انقضت والله المدة وسكر المتوكل سكرا شديدا قال وكان من عادته انه اذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه قال فبينما نحن كذلك ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل اذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الاتراك وهم متلثمون والسيوف في ايديهم تبرق في ضوء تلك الشمع فهجموا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الاتراك على السرير فصاح بهم الفتح ويلكم مولاكم فلما رآهم الغلمان ومن كان حاضرا من الجلساء والندماء تطايروا على وجوههم فلم يبق أحد في المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانعهم قال البحتري فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذي كان المتوكل دفعه اليه على جانبه الايمن فقده الى خاصرته ثم ثناه على جانبه الايسر ففعل مثل ذلك وأقبل الفتح يمانعهم عنه فبعجه واحد منهم بالسيف الذي كان معه في بطنه فاخرجه من متنه وهو صابر لا يتنحى ولا يزول قال البحتري فما رأيت أحدا كان أقوى نفسا ولا اكرم منه ثم طرح بنفسه على المتوكل فماتا جميعا فلفا في البساط الذي قتلا فيه وطرحا ناحية فلم يزالا على حالتهما في ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة للمنتصر فأمر بهما فدفنا جميعا وقيل ان قبيحة كفنته بذلك المطرف المخرق بعينه وقد كان بغا الصغير توحش من المتوكل

إذ كان المنتصر يجتذب قلوب الاتراك وكان أوتامش غلام الواثق مع المنتصر فكان المتوكل يبغضه لذلك وكان اوتامش يجتذب قلوب الاتراك الى المنتصر وعبيد الله بن خاقان الوزير والفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر مائلين الى المعتز وكانا قد أوغرا قلب المتوكل على المنتصر فكان المنتصر لا يبعد أحد من الاتراك الا اجتذبه فاستمال قلوب الاتراك وكثير من الفراعنة والاشروسنية الى أن كان من الامر ما ذكرناه وهذا ما اخترناه فى هذا الموضع اذ كان أحسن الفاظا وأقرب مأخذا وقد أتينا على جميع ما قيل فى ذلك فى الكتاب الاوسط فأغنى ذلك عن اكثاره فى هذا الكتاب ولم يكن المتوكل يوما أشد سرورا منه فى اليوم الذى قتل فيه فلقد أصبح فى هذا اليوم نشيطا فرحا مسرورا وقال كأنى أجد حركة الدم فاحتجم فى ذلك اليوم وأحضر الندماء والملهين فاشتد سروره وكثر فرحه فانقلب ذلك الفرح ترحا والسرور حزنا فمن ذا الذى يغتر بالدنيا ويسكن اليها ويأمن الغدر والنكبات فيها الا جاهل مغرور فهى دار لا يدوم نعيمها ولا يتم فيها سرور ولا يؤمن فيها محذور قد قرنت منها السراء بالضراء والشدة بالرخاء والنعيم بالبلوى ثم يتبعها الزوال فمع نعيمها البؤس ومع سرورها الحزن ومع محبوبها المكروه ومع صحتها السقم ومع حياتها الموت ومع فرحاتها الترحات ومع لذاتها الآفات عزيزها ذليل وقويها مهين وغنيها محروب وعظيمها مسلوب ولا يبقى الا الحى الذى لا يموت ولا يزول ملكه وهو العزيز الحكيم وفى ذلك يقول البحترى فى غدر المنتصر بأبيه وفتكه به من قصيدة له

أكان ولى العهد أضمر غدره * فمن عجب أن ولى العهد غادره
فلا ملك الباقى تراث الذى مضى * ولا حملت ذاك الدعاء منابره

وكانت أيام المتوكل فى حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء كما قال بعضهم كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ورخص السعر وأمانى الحب وأيام الشباب وقد أخذ هذا بعض الشعراء فقال

قربك أشهى موقعا عندنا * من لين السعر وأمن السبيل
ومن ليالى الحب موصولة * بطيب أيام الشباب الجميل

قال المسعودى وقد قيل انه لم تكن النفقات فى عصر من الاعصار ولا وقت من الاوقات مثلها فى أيام المتوكل ويقال انه انفق على الهارونى والجوسق الجعفرى أكثر من مائة ألف ألف درهم هذا مع كثرة الموالى والجند والشاكرية ودرور العطاء لهم وجليل ما كانوا يقبضونه فى كل شهر من الجوائز والهبات ويقال انه كان له أربعة آلاف سرية وطئهن كلهن ومات وفى بيوت الاموال أربعة آلاف ألف دينار وسبعة آلاف ألف درهم ولا يعلم أحد فى صناعته فى جد ولا هزل الا وقد حظى فى دولته وسعد بأيامه ووصل اليه نصيب وافر من ماله وذكر محمد بن أبى عون قال حضرت مجلس المتوكل على الله فى يوم نيروز وعنده محمد بن عبد الله بن طاهر وبين يديه الحسن بن الضحاك الخليع الشاعر فغمز المتوكل خادما على رأسه حسن الصورة أن يسقى الحسن كأسا ويحييه بتفاحة عنبر ففعل ذلك ثم التفت المتوكل الى الحسن فقال قل فيه أبياتا فأنشأ يقول

وكالدرة البيضاء حيا بعنبر * من الورد يسعى فى قراطيس كالورد
له عبثات عند كل تحية * بعينيه تستدعى الخلى الى الوجد
تمنيت أن أسقى بعينيه شربة * تذكرنى ماقد نسيت من العهد
سقى الله دهرا لم أبت فيه ساعة * من الليل الامن حبيب على وعد

قال المتوكل أحسنت والله يعطى لكل بيت مائة دينار فقال محمد بن عبد الله ولقد أجاب فأسرع وذكر فأوجع ولولا أن يد أمير المؤمنين لا تطاولها يد لاجزلت له العطاء ولو بالطارف والتالد فقال المتوكل عند ذلك يعطى لكل بيت ألف دينار قال ويروى انه لما أتى بمحمد بن المغيث الى المتوكل وقد دعى له بالنطع والسيف قال له يا محمد ما دعاك الى المشاقة قال الشقوة يا أمير المؤمنين وأنت ظل الله الممدود بينه وبين خلقه ان لى فيك لظنين اسبقهما الى قلبى أولاهما بك وهو العفو عن عبدك وأنشأ يقول

أبى الناس الا انك اليوم قاتلى * امام الهدى والعفو بالحر أجمل
وهل أنا الا جبلة من خطيئة * وعفوك من نور النبوة يجمل
تضاءل ذنبى عند عفوك قلة * فمن لى بفضل منك والمن أفضل
لانك خير السابقين الى العلا * وانك خير الفعلتين ستفعل

فقال المتوكل افعل خيرهما وأمن عليك ارجع الى منزلك قال ابن المغيث يا أمير المؤمنين الله أعلم حيث يجعل رسالته ولما قتل المتوكل رثته الشعراء فممن رثاه على بن الجهم فقال من قصيدة له

عبيد أمير المؤمنين قتلنه * وأعظم آفات الملوك عبيدها
بنى هاشم صبرا فكل مصيبة * سيبلى على وجه الزمان جديدها

وفيه يقول ابن زيد المهلبى من قصيدة طويلة

جاءت منيته والعين هاجعة * هلا أتته المنايا والقنا قصد
عليك أسياف من لا دونه أحد * وليس فوقك الا الواحد الصمد
خليفة لم ينل ما ناله أحد * ولم يضع مثله نور ولا جسد

وفيه يقول بعض الشعراء

سرت ليلا منيته اليه * وقد خلى مناجمه وناما
فقالت قم فقام وكم أقامت * أخا الك الى هلك فقاما

وفيه يقول الحسن بن الضحاك الخليع

ان الليالى لم تحسن الى أحد * الا أساءت اليه بعد احسان
أما رأيت خطوب الدهر ما فعلت * بالهاشمى وبالفتح بن خاقان

وذكر على بن الجهم قال لما افضت الخلافة الى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله اهدى اليه الناس على أقدارهم واهدى اليه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف وفى الهدية جارية يقال لها محبوبة كانت لرجل من أهل الطائف قد أدبها وثقفها وعلمها من صنوف العلم وكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس فحسن موقعها من المتوكل

وحلت من قلبه محلا جليلا لم يكن أحد يعدلها عنده قال علي فدخلت عليه يوما للمنادمة فلما استقر بي المجلس قام فدخل بعض المقاصير ثم خرج وهو يضحك فقال ويلك يا علي دخلت فرأيت قينة قد كتبت في خدها بالمسك جعفرا فما رأيت أحسن منه فقل فيه شيأ فقلت يا سيدي أنا وحدي أو أنا ومحبوبة قال لا بل أنت ومحبوبة قال فدعوت بدواة وقرطاس فسبقتني الى القول ثم أخذت العود فترنمت ثم خفقت عليه حتى صاغت له لحنا وتضاحكت مليا ثم قالت يا أمير المؤمنين تأذن لي فأذن لها فغنت

وكاتبة في الخد بالمسك جعفرا * بنفسي محط المسك من حيث أثرا
لئن أودعت خطا من المسك خدها * لقد أودعت قلبي من الوجد أسطرا
فيا من لمملوك يظل مليكه * مطيعا له فيما أسر وأجهرا
ويا من لعيني من رأى مثل جعفر * سقى الله صوب المستهلات جعفرا

قال علي وتغلقت خواطري حتى كأني ما أحسن حرفا من الشعر قال فقال لي المتوكل ويلك يا علي ما أمرتك به فقلت يا سيدي أقلني فوالله لقد عزب عن ذهني فلم يزل يضرب به على رأسي ويعيرني به الى أن مات * قال علي ودخلت اليه ايضا للمنادمة فقال لي ويلك يا علي علمت اني غاضبت محبوبة وأمرتها بلزوم مقصورتها ونهيت الحشم عن الدخول اليها وانفت من كلامها فقلت يا سيدي ان كنت غاضبتها اليوم فصالحها غدا ويديم الله سرور امير المؤمنين ويمد في عمره قال فأطرق مليا ثم قال للندماء انصرفوا وأمر برفع الشراب فرفع فلما كان من غد دخلت اليه فقال ويلك يا علي اني رأيت البارحة في النوم أني قد صالحتها فقالت جارية يقال لها شاطر كانت تقف أمامه والله لقد سمعت الساعة في مقصورتها هينمة لا ادري ماهي فقال لي قم ويلك حتى ننظر ماهي فقام حافيا وقمت أتبعه حتى قربنا من مقصورتها فاذا هي تخفق عودا وتترنم بشئ كأنها تصوغ لحنا ثم رفعت عقيرتها وتغنت

أدور في القصر لا أرى أحدا * أشكو اليه ولا يكلمني
حتى كأني أتيت معصية * ليس لها توبة تخلصني
فمن شفيع لنا الى ملك * قد زارني في الكرا وصالحني
حتى اذا ما الصباح عاد لنا * عاد الى هجره وصارمني

قال فصفق المتوكل طربا وصفقت معه فدخل اليها فلم تزل تقبل رجل المتوكل وتمرغ خديها على التراب حتى أخذ بيديها ورجعنا وهي ثالثتنا قال علي فلما قتل المتوكل ضمت هي وكثير من الوصائف الى بغا الكبير فدخلت عليه يوما للمنادمة فأمر بهتك الستارة وأمر بالقينات فأقبلن يرفلن في الحلي والحلل وأقبلت محبوبة حاسرة من الحلي والحلل عليها بياض فجلست مطرقة منكسة فقال لها وصيف غني قال فاعتلت عليه فقال أقسمت عليك وأمر بالعود فوضع في حجرها فلما لم تجد بدا من القول تركت العود في حجرها ثم غنت عليه غناء مرتجلا

أي عيش يلذ لي * لا أرى فيه جعفرا
ملك قد رأيته * في نجيع معفرا

كل من كان ذا خبا * ل وسقم فقد برا
غير محبوبة التى * لو ترى الموت يشترى
لاشترته بما حوته يداها لتقبرا

قال فغضب عليها وصيف وأمر بسجنها فسجنت وكان آخر العهد بها (قال المسعودى) ومات فى خلافة المتوكل جماعة من أهل العلم ونقلة الآثار وحفاظ الحديث منهم على بن جعفر المدنى بسامرا يوم الاثنين لثلاث بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين ومائتين وهو ابن اثنتين وسبعين سنة وأشهر وقد تنوزع فى السنة التى مات فيها ابن المدينى وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب السنة التى قيل فيها ان وفاته كانت فيها * وفى هذه السنة مات أبو الربيع ابن الزهرى وقد تنوزع فى السنة التى مات فيها يحيى بن معين فمنهم من رأى ما قدمنا فى هذا الكتاب ومنهم من رأى وهو الاكثر أنه مات فى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ويكنى بأبى زكريا مولى بنى مرة وقد بلغ من السن خمسا وسبعين سنة وأشهرا بالمدينة وقيل ان فى هذه السنة كانت وفاة أبى الحسن على بن محمد المدائنى الاخبارى وقيل مات فى أيام الواثق فى سنة ثمان وعشرين ومائتين وفيها كانت وفاة مسدد بن مسرهد واسمه عبد الملك بن عبد العزيز * وفيها مات الحمانى الفقيه وابن عائشة واسمه عبد الله بن محمد بن حفص ويكنى بأبى عبد الرحمن وهو من تيم قريش * وفى خلافة المتوكل مات هد بن خالد وسفيان بن فرج الايلى وابراهيم بن محمد الشافعى وذلك فى سنة ست وثلاثين ومائتين * وفى سنة سبع وثلاثين ومائتين مات العباس بن الوليد الرسى بالبصرة وعبد الاعلى بن حماد الرسى وعبيد الله ابن معاذ العبدى * وفى سنة ثمان وثلاثين ومائتين مات اسحق بن ابراهيم المعروف بابن راهويه وبشر بن الوليد القاضى الكندى صاحب أبى يوسف وقد قيل ان فى هذه السنة مات العباس بن الوليد الرسى * وفى سنة تسع وثلاثين ومائتين مات عثمان بن أبى شيبة الكوفى بالكوفة والصلت بن مسعود الجحدرى * وفى سنة أربعين ومائتين مات هياب ابن خليفة العصفرى وعبد الواحد بن عتاب * وفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين مات هشام ابن عمار الدمشقى وحميد بن مسعود الناجى وعبد الله بن معاوية الجمحى وفيها مات يحيى بن أكثم القاضى فى الربذة ومحمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب * وفى سنة ست وأربعين ومائتين مات محمد بن المصطفى الحمصى وعنبسة بن اسحق بن شمر وموسى بن عبد الملك (قال المسعودى) وللمتوكل أخبار وسير حسان غير ما ذكرنا وقد أتينا عليها على الشرح والاختصار فى كتابنا فى أخبار الزمان والله الموفق للصواب

* (ذكر خلافة المنتصر بالله) *

وبويع محمد بن جعفر المنتصر فى صبيحة الليلة التى قتل فيها المتوكل وهى ليلة الاربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين ويكنى بأبى جعفر وامه أم ولد يقال انها حبشية رومية واستخلف وهو ابن خمس وعشرين سنة وكانت بيعته بالقصر المعروف بالجعفرى الذى احدث بناءه المتوكل ومات سنة ثمان وأربعين ومائتين وكانت خلافته ستة

أشهر

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان فى أيامه)

كان الموضع الذى قتل فيه المتوكل هو الموضع الذى قتل فيه شيرويه أباه كسرى ابرويز وكان الموضع يعرف بالماخورة وكان مقام المنتصر بعد أبيه فى الماخورة سبعة أيام ثم انتقل عنه وأمر بتخريب ذلك الموضع وحكى عن أبى العباس محمد بن سهل قال كنت اكتب لعتاب بن عتاب على ديوان جيش الشاكرية فى خلافة المنتصر فدخلت الى بعض الاروقة فاذا هو مفروش ببساط سوسجرد ومسند ومصلى ووسائد بالحمرة والزرقة وحول البساط دارات فيها أشخاص ناس وكتابة بالفارسية وكنت أحسن القراءة بالفارسية واذا عن يمين المصلى صورة ملك وعلى رأسه تاج كأنه ينطق فقرأت الكتابة فاذا هى صورة شيرويه القاتل لابيه ابرويز الملك ملك ستة أشهر ثم رأيت صورا لملوك شتى ثم انتهى بى النظر الى صورة عن يسار المصلى عليها مكتوب صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك قتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ملك ستة أشهر فعجبت من ذلك واتفاقه عن يمين مقعد المنتصر وعن شماله فقلت لا أرى يدوم ملكه أكثر من ستة أشهر فكان والله كذلك فخرجت من الرواق الى مجلس وصيف وبغا وهما فى الدار الثانية فقلت لوصيف أعجز هذا الفراش أن يفرش تحت أمير المؤمنين الا هذا البساط الذى عليه صورة يزيد بن الوليد قاتل ابن عمه وصورة شيرويه قاتل أبيه ابرويز وعاشا ستة أشهر بعد ما قتلا فجزع وصيف من ذلك وقال على بأيوب بن سليمان النصرانى خازن الفرش فمثل بين يديه فقال له وصيف لم تجد ما يفرش فى هذا اليوم تحت أمير المؤمنين الا هذا البساط الذى كان تحت المتوكل ليلة الحادثة وعليه صورة ملك الفرس وغيره وقد كان ناله آثار الدماء قال سألنى أمير المؤمنين المنتصر عنه وقال ما فعل البساط فقلت عليه آثار دماء فاحشة وقد عزمت أن لا أفرشه من ليلة الحادثة فقال لم لا تغسله وتطويه فقلت خشيت أن يشيع الخبر عند من يرى ذلك البساط من أثر الحادثة فقال ان الامر أشهر من ذلك يريد قتل الاتراك لابيه المتوكل فطويناه وبسطناه تحته فقال وصيف وبغا اذا قام أمير المؤمنين من مجلسه فخذه وأحرقه بالنار فلما قام أحرق بحضرة وصيف وبغا فلما كان بعد أيام قال لى المنتصر افرش ذلك البساط الفلانى فقلت وأين ذلك البساط فقال وما الذى كان من أمره فقلت ان وصيفا وبغا أمرانى باحراقه قال فسكت ولم يعد فى أمره شيأ الى أن مات * وقد كان المنتصر طرب فى هذه الايام فدعا ببنان بن الحرث العواد وكان مطربا مجيدا وقد كان غضب عليه فأحضره فغناه

لقد طال عهدى بالامام محمد * وما كنت أخشى أن يطول به عهدى

فأصبحت ذا بعد ودارى قريبة * فيا عجبا من قرب دارى ومن بعدى

رأيتك فى برد النبى محمد * كبدر الدجا بين العمامة والبرد

وكان ذلك ثانى يوم الاضحى وقد كان المنتصر صلى بالناس فى هذا العيد ومما غنى به من الشعر للمنتصر فى ذلك اليوم

رأيتك

رأيتك فى المنام اقل بخلا * واطوع منك فى غير المنام
فليت الصبح بادولا نراه * وليت الليل آخر ألف عام
ولو أن النعاس يباع بيعا * لاغليت النعاس على الانام

ومن شعر المنتصر أيضا مما غنى بحضرته

انى رأيتك فى المنام كانى * اعطيتنى من ريق فيك البارد
وكأن كفك فى يدى وكانما * بتنا جميعا فى لحاف واحد
ثم انتبهت ومعصماك كلاهما * بيدى اليمين وفى يمينك ساعدى
فظللت يومى كله متراقدا * لاراك فى نومى ولست براقد

وقد كان استوزر احمد بن الخصيب وندم على ذلك وكان نعى عبد الله بن خاقان وذلك أن أحمد ركب ذات يوم فتظلم اليه متظلم بقصة فأخرج رجله من الركاب فزج بها فى صدر المتظلم فقتله فتحدث الناس بذلك فقال بعض شعراء ذلك الزمان

قل للخليفة يا ابن عم محمد * اشكل وزيرك انه ركال
اشكله عن ركل الرجال فان ترد * مالا فعند وزيرك الاموال

(قال المسعودى) ولو لحق هذا الشاعر الوزير حامد بن العباس فى وزارته للمقتدر بالله لرأى منه قريبا مما ظهر من ابن الخصيب وذلك انه خاطبه مخاطب ذات يوم فقلب ثيابه على كتفه ولكم حلقه ولقد دخلت عليه ذات يوم أم موسى القهرمانة الهاشمية أو غيرها من القهارمة تخاطبه فى شئ من الاموال عن رسالة المقتدر فكان مما خاطبها به أن قال اضرطى والتقطى * واحسبى لا تغلطى فأخجلها ذلك فقطعها عما له قصدت فمضت من فورها الى المقتدر والسيدة فأخبرتهما بذلك فأمر القيان يغنين ذلك اليوم بذلك الكلام وكان يوم طرب وسرور وقد أتينا على خبره وأخبار غيره من وزراء بنى العباس وكتاب بنى أمية الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة فى الكتاب الاوسط وأخبرت عن أبى العباس أحمد بن محمد بن موسى بن الفرات قال كان أحمد بن الخصيب سيئ الرأى فى والدى وكان عاملا له فجاءنى مخبر من خدم الخاصة فقال ان الوزير قد ندب لاعمالكم فلانا وقد أمره فى والدك بكل مكروه وأن يصادره على جملة من المال غليظة ذكرها فقعدت وعندى بعض أصدقائنا من الكتاب أبادر بالكتاب الى والدى بذلك فاشتغلت عن جليسى الكاتب فاتكا على الوسادة وغفا فانتبه مرعوبا وقال انى قد رأيت رؤيا عجيبة رأيت أحمد بن الخصيب واقفا فى هذا الموضع وهو يقول يموت الخليفة المنتصر الى ثلاثة أيام قال قلت له الخليفة فى الميدان يلعب بالصولجان وهذه الرؤيا ضرب من البلغم والمرار وقد قدمنا الطعام فما استتممنا الكلام حتى دخل علينا داخل فقال رأيت الوزير بدار الخاصة غير مسفر الوجه وانى سألت عن سبب ذلك فقيل لى ان الخليفة المنتصر انصرف من الميدان وهو عرق فدخل الحمام ونام فى الباذهنج فضربه الهواء وركبته حمى هائلة فدخل عليه أحمد بن الخصيب فقال ياسيدى أنت متفلسف وحكيم الزمان تنزل من الركوب تعبا فتدخل الحمام ثم تخرج عرقا فتنام فى الباذهنج فقال له المنتصر أتخاف أن اموت رأيت فى المنام البارحة آتيا أتانى

فقال لى تعيش خمسا وعشرين سنة فعاب أن ذلك بشارة فى المستقبل من عمرى وأنى ابقى فى الخلافة هذه المدة قال فمات فى اليوم الثالث فنظروا فاذا هو قد استوفى خمسا وعشرين سنة * وقد ذكر جماعة من أصحاب التواريخ أن المنتصر ضربته الريح يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الاول ومات مع صلاة العصر لخمس ليال خلون من ربيع الآخر وصلى عليه أحمد بن محمد المستعين وكان أول خليفة من بنى العباس أظهر قبره وذلك ان أمه حبشية سألت ذلك فأذن لها وأظهرته بسامرا * وقد قيل ان الصنفورى الطبيب سمه فى مشراط حجمه به وقد كان عزم على تفريق جمع الاتراك فأخرج وصيفا فى جمع كثير الى غزاة الصائفة بطرسوس وتطرقوا الى بغا الصغير وقد أقبل فى القصر وحوله جماعة من الاتراك فاقبل على الفضل بن المأمون فقال قتلنى الله ان لم أقتلهم وأفرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله فلما نظر الاتراك الى ما يفعل بهم وما قد عزم عليه وجدوا منه الفرصة وقد شكا ذات يوم حرارة فأراد الحجامة فخرج له من الدم ثلثمائة درهم لما كان فى المبضع وشرب شربة بعد ذلك خلت قواه ويقال ان السم كان فى مبضع الطبيب حين فصده * وقد ذكر ابن أبى الدنيا عن عبد الملك بن سليمان بن أبى جعفر قال رأيت فى نومى المتوكل والفتح بن خاقان وقد أحاطت بهما نار وقد جاء محمد المنتصر فاستأذن عليهما فمنع الوصول ثم أقبل المتوكل على فقال يا عبد الملك قل لمحمد بالكاس الذى سقيتنا تشرب قال فلما أصبحت غدوت على المنتصر فوجدته محموما فواظبت على عيادته فسمعته فى آخر علته يقول عجلنا فعوجلنا فمات من ذلك المرض * وكان المنتصر واسع الاحتمال راسخ العقل كثير المعروف راغبا فى الخير سخيا أديبا عفيفا وكان يأخذ نفسه بمكارم الاخلاق وكثرة الانصاف وحسن المعاشرة بما لم يسبقه خليفة الى مثله وكان وزيره أحمد بن الخصيب قليل الخير كثير الشر شديد الجهل وكان آل أبى طالب قبل خلافته فى محنة عظيمة وخوف على دمائهم قد منعوا زيارة قبر الحسين والغرى من أرض الكوفة وكذلك منع غيرهم من شيعتهم حضور هذه المشاهد وكان الامر بذلك من المتوكل سنة ست وثلاثين ومائتين وفيها أمر المعروف بالذيزج بالمسير الى قبر الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما وهدمه ومحو أرضه وازالة أثره وأن يعاقب من وجد به فبذل الرغائب لمن تقدم على هذا القبر فكل خشى العقوبة وأحجم فتناول الذيزج مسحاة وهدم اعالى قبر الحسين فحينئذ أقدم الفعلة فيه وانهم انتهوا الى الحفرة وموضع اللحد فلم يروا فيه أثر رمة ولا غيرها ولم تزل الامور على ما ذكرنا الى أن استخلف المنتصر فامن الناس وتقدم بالكف عن آل أبى طالب وترك البحث عن أخبارهم وأن لا يمنع أحد زيارة الحيرة لقبر الحسين رضى الله تعالى عنه ولا قبر غيره من آل أبى طالب وأمر برد فدك الى ولد الحسن والحسين واطلق أوقاف آل أبى طالب وترك التعرض لشيعتهم ودفع الاذى عنهم وفى ذلك يقول البحترى من أبيات له

وان عليا لاولى بكم * وازكى يدا عندكم من عمر

وكل له فضله والحجو * ل يوم التراهن دون الغرر

وفى ذلك يقول يزيد بن محمد المهلبى وكان من شيعة آل أبى طالب وما كان امتحن به الشيعة

في ذلك الوقت واغريت بهم العامة

ولقد بررت الطالبية بعدما * ذموا زمانا بعدها وزمانا
ورددت الفة هاشم فرأيتهم * بعد العداوة بينهم اخوانا
آنست ليلهم وجدت عليهم * حتى نسوا الاحقاد والاضغانا
لو يعلم الاسلاف كيف بررتهم * لرأوك أثقل من بها ميزانا

وفي سنة ثمان وأربعين ومائتين خلع المنتصر بالله اخويه المعتز وابراهيم من ولاية العهد بعده وقد كان المتوكل بالله أخذ لهم العهد في كتب كتبها وشروط اشترطها وأفرد لكل واحد منهم جزأ من الاعمال رسمه له وجعل ولي عهده والتالي الملك محمدا المنتصر وتالي المنتصر وولي عهده المعتز وتالي المعتز وولي عهده ابراهيم المؤيد وأخذت البيعة على الناس بما ذكرنا وفرق فيها اموالا وعم الناس بالجوائز والصلات وتكلمت في ذلك الخطباء ونطقت به الشعراء فمما اختير من قولهم في ذلك قول مروان بن أبي الجنوب من قصيدة

ثلاثة املاك فأما محمد * فنور هدى يهدى به الله من يهدي
وأما أبو عبد الاله فانه * شبيهك في التقوى ويجدى كما تجدى
وذو الفضل ابراهيم للناس عصمة * تقي وفي بالوعيد وبالوعد
فأولهم نور وثانيهم هدى * وثالثهم رشد وكلهم مهدى

وقوله للمتوكل مما أجاد فيه وأحسن

ياعاشر الخلفاء دمت ممتعا * بالملك تعقد بعدهم للعاشر
حتى تكون امامهم وكانهم * زهر النجوم دنت لبدر زاهر

وفي بيعة المتوكل لمن ذكرنا من ولده الثلاثة بولاية العهد يقول الشاعر المعروف بالسلمي

لقد شد ركن الدين بالبيعة الرضا * وطائر سعد جعفر بن محمد
لمنتصر بالله اثبت ركنه * واكد بالمعتز قبل المؤيد

وممن قال في ذلك فأحسن القول وأجاد النظم إدريس بن أبي حفصة

ان الخلافة مالها عن جعفر * نور الهدى وبنيه من تحويل
فاذا انقضى منها الخليفة جعفر * للناس لا فقدوه خير بديل
فسقا مليكك وانتظار محمد * خير لنا وله من التعجيل

وقد كان خرج بأيام المنتصر بناحية اليمن والبوازيج والموصل أبو العمود الشاري فحكم واشتد أمره فيمن انضاف اليه من المحكمة من ربيعة وغيرهم من الاكراد فسرح اليه المنتصر جيشا عليهم سيما التركي فكانت له مع الشاري حروب فاسر الشاري وأتى به المنتصر فجاد عليه بالعفو وأخذ عليه العهد وخلى سبيله (وحكى) عنه وزيره أحمد بن الخصيب بن الضحاك الجرجاني انه قال حين رضي عن الشاري ان لذة العفو أعذب من لذة التشفي وأقبح أفعال المقتدر الانتقام * وأخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال رأى بعض الكتاب في المنام في الليلة التي استخلف في صبيحتها المنتصر كان قائلا يقول

هذا الامام المنتصر * والملك الحادي عشر

وأمره اذا أمر * كالسيف مالاقى بتر

وطرفه اذا نظر * كالدهر فى خير وشر

وقد كان أظهر الانصاف فى الرعية فمالت اليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة الهيبة منها له * وحدثنى أبو الحسن أحمد بن على بن يحيى المعروف بابن النديم قال حدثنا على بن يحيى المنجم قال ما رأيت أحدا مثل المنتصر ولا أكرم أفعالا بغير تبجح منه ولا تكلف لقد رآنى يوما وأنا مغموم شديد الفكر بسبب ضيعة مجاورة لضيعتى وكنت أحب شراءها فلم أزل أعمل الحيلة على مالكها حتى أجابنى الى بيعها ولم يكن عندى فى ذلك الوقت قيمة ثمنها فصرت الى المنتصر وأنا على تلك الحال فتبين الانكسار فى وجهى وشغل القلب فقال لى أراك مفكرا فما قضيتك فجعلت أزوى عنه خبرى وأستر قصتى فاستحلفنى فصدقته عن خبر الضيعة فقال لى المنتصر فكم مبلغ ثمنها فقلت ثلاثون ألف درهم قال فكم عندك منها قلت عشرة آلاف فأمسك عنى ولم يجبنى وتشاغل عنى ساعة ثم دعا بدواة وبطاقة ثم وقع فيها بشئ لا أدرى ما هو وأشار الى خادم كان على رأسه بما لم أفهم فمضى الغلام مسرعا وأقبل يشغلنى بالحديث ويطاعمنى الكلام الى أن أقبل الغلام فوقف بين يديه فنهض المنتصر وقال لى يا على اذا شئت فانصرف الى منزلك وقد كنت قدرت عند مسئلته انه سيأمر لى بالثمن أو نصفه فأتيت وأنا لا أعقل غما فلما وصلت الى دارى استقبلنى وكيلى فقال ان خادم أمير المؤمنين صار الينا ومعه بغل عليه بدرتان فسلمهما الى وأخذ خطى بقبضهما قال فداخلنى من الفرح والسرور ما لم أملك به نفسى ودخلت وأنا لا أصدق قول الوكيل حتى أخرج الى البدرتين فحمدت الله تعالى على ما حباه لى ووجهت فى وقتى الى صاحب الضيعة فوفيته الثمن وتشاغلت سائر يومى بتسلمها والاشهاد بها على البائع ثم بكرت الى المنتصر من الغد فما أعاد على حرفا ولا سألنى عن شئ من خبر الضيعة حتى فرق الموت بيننا (قال المسعودى) وذكر الفضل ابن أبى طاهر فى كتابه فى أخبار المؤلفين قال حدثنى أبو عثمان سعيد بن محمد الصغير مولى أمير المؤمنين قال كان المنتصر فى أيام امارته ينادمه جماعة من أصحابه وفيهم صالح بن أحمد المعروف بالحريرى فجرى فى مجلسه ذات يوم ذكر الحب والعشق فقال المنتصر لبعض من فى المجلس أخبرنى عن أى شئ أعظم عند النفس فقدا وهى به أشد تفجعا قال فقد خل مشاكل وموت شكل موافق وقال آخر ممن حضر ما أشد جولة الرأى عند أهل الهوى وفطام النفس عند الصبا وقد تصدعت أكباد العاشقين من لوم العاذلين فلوم العاذلين قرط فى آذانهم ولوعات الحب نيران فى أبدانهم مع دموع المعانى كغروب السوانى وانما يعرف ما أقول من أبكته المغانى والطلول وقال آخر مسكين العاشق كل شئ عدوه هبوب الرياح يقلقه ولمعان البرق يؤرقه والعذل يؤلمه والبعد ينحله والذكر يسقمه والقرب يهيجه والليل يضاعف بلاءه والرقاد يهرب منه ورسوم الدار تحرقه والوقوف على الطلول يبكيه ولقد تداوت منه العشاق بالقرب والبعد فما نجع فيه دواء ولا هدأ عزاء ولقد أحسن الذى يقول

وقد زعموا أن المحب اذا دنا * يمل وأن النأى يشفى من الوجد

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا * على أن قرب الدار خير من البعد

فكل

فكل قال وأكثر الخطب فى ذلك فقال المنتصر لصالح بن محمد الحريرى يا صالح هل عشقت قط قال اى والله أيها الامير وان بقايا ذلك فى صدرى قال ويلك لمن قال ايها الملك كنت آلف الرصافة فى أيام المعتصم وكانت لقينة أم ولد الرشيد جارية تخرج فى جوائجها وتقوم فى أمرها وتلقى الناس عنها وكانت قتيبة تتولى أمر القصر اذ ذاك وكانت تقربنى فأحتشمها وأغايتها ثم راسلتها فطردت رسولى وحتدتنى وكنت أقعد على طريقها الا كلمها فاذا راتنى ضحكت وغمزت الجوارى بالعبث بى والهزء ثم فارقتها وفى قلبى منها ثار لا تخمد وغليل لا يبرد ووجد يتجدد فقال له المنتصر فهل لك أن احضرها وازوجكها ان كانت حرة او اشتريها ان كانت امة فقال والله أيها الامير ان بى الى ذلك أعظم الفاقة وأشد الحاجة قال فدعا المنتصر بأحمد ابن الخصيب وسأله أن يوجه له فى ذلك غلاما من غلمانه منفردا ويكتب معه كتابا مؤكدا الى ابراهيم بن اسحق وصالح الخادم المتولى لامر الحرم بمدينة السلام فمضى الرسول وقد كانت أعتقتها وخرجت من حد الجوارى الى حد النساء البوالغ فحملها الى المنتصر فلما حضرت نظر اليها فاذا عجوز قد حدبت وعنست وبها بقية من الجمال فقال لها تحبين أن أزوجك قالت انما أنا أمتك أيها الامير ومولاتك فافعل ما بدا لك فأحضر صالحا وأملكه بها وأمهرها ثم مزح به فأحضر سمور وأمر بتقصاها وعرضا لخلقها فنثره عليه واقامت مع صالح مدة طويلة ثم ملها ففارقها وقال يعقوب التمار فى ذلك

منح الله ابا الفضـ * ـل حياة لا تنغص
وتولاه فقد با * لغ فى الحب وأخلص
عاشقا كان على النز * ر ويجه للعقد تحرص
من هوى من شعرها يخـ * ـضب بالحناء المعقص
فتراه عندما ينـ * ـصل كالبرد المحرص
فهى من أملح خلق الله فى التاج المقصص
رزق الصبر عليها * فتنا أنى وتربص
شيخة هام بها من * وجدها شيخ دقرقص
قرنت فى عهد نوح * صاحب الفلك وقرنص
اى حظ نال لولا الشعر والدور المرصص
ليته قلد بجعل الامشتر اليها وتخلص
فأبو ابلود أن شمتها * رحين تدنو بتقلص

وذكر ابو عثمان سعيد بن محمد الصغير قال كان المنتصر فى أيام امارته قد وجهنى الى مصر فى بعض أموره للسلطان فعشقت جارية كانت لبعض النخاسين عرضت للبيع محسنة فى الصنعة مقبولة فى الخلقة قائمة على الوزن من المحاسن والكمال فساومت مولاها فأبى أن يبيعها الا بالف دينار ولم يكن ثمنها متهيأ معى فأزعجنى السفر وقد علقها قلبى فأخذنى المقيم المقعد من حبها وندمت على ما فاتنى من شرائها فلما قدمت وفرغت مما وجهنى اليه وأديت اليه ما عملت جعل يرى فيه وسألنى عن حاجتى وخبرى فأخبرته بمكان الجارية وكانى

بها فأعرض عنى وجعل لا يزداد الا حدة وقلبى لا يزداد الا كلفا وصبرى لا يزداد الا ضعفا
وسليت نفسى عنها بغيرها فكأنى أغريتها ولم تسل عنها وجعل المنتصر كلما دخلت اليه
وخرجت من عنده يذكرها ويهيج شوقى اليها وتحيلت اليه بندمائه وأهل الانس به وخاص
من يحظى من جواريه وامهات اولاده وجدته ام الخليفة أن يشتريها الى وهو لا يجيبنى الى
ذلك ويعيرنى بقلة الصبر وكان قد أمر أحمد بن الخصيب أن يكتب الى عامل مصر فى ابتياعها
وحملها اليه من حيث لا اعلم فحملت اليه وصارت عنده فنظر اليها وسمع منها فعذرنى فيها
ودفعها الى قيمة جواريه فأصلحت من شأنها فلما كان يوما من الايام استجلسنى وامرها
أن تخرج الى الستارة فلما سمعت غناءها عرفتها وكرهت انى أعلمه أنى قد عرفتها حتى ظهر فى
ما كتمت وغلب على صبرى فقال مالك يا سعيد قلت خيرا أيها الامير قال فاقترح عليها صوتا
فاقترحت عليها صوتا كنت قد أعلمته أنى سمعته منها وانى استحسنته من غنائها فغنته فقال
أتعرف هذا الصوت قلت اى والله ايها الامير وكنت اطمع فى صاحبته فأما الآن فقد
أيست منها وكنت كالقاتل نفسه بيده وكالجالب الحتف الى جيلانه فقال والله يا سعيد
ما اشتريتها الا لك ويعلم الله أنى ما رأيت لها وجها الا ساعة دخلت عليها وقد استراحت من
الم السفر وخرجت من شحوبة التبذل فهى لك فدعوت له بما امكننى من الدعاء وشكره
عنى من حضره من الجلساء وامر بها فهيئت وحملت الى فردت الى حياتى بعد أن اشرفت
على الهلكة ولا احد عندى احظى منها * ومن ملاحات احاديث الملهين المجان ما ذكره
ابو الفضل بن ابى طاهر قال حدثنى احمد بن الحرث الخزاز عن ابى الحسن المدائنى وابى على
الدرمازى قالا كان بمكة سفيه يجمع بين الرجال والنساء على الخش الريب وكان من أشراف
قريش ولم يذكرا اسمه فشكا اهل مكة ذلك الى الوالى فغربه الى عرفات فاتخذها منزلا
ودخل الى مكة مستترا فلقى بها حرفاءه من الرجال والنساء فقال وما يمنعكم منى فقالوا
واين بك وانت بعرفات فقال حمار بدرهمين وصرتم الى الامن والنزهة والخلوة واللذة
قالوا نشهد انك لصادق فكانوا يأتونه فكثر ذلك حتى أفسد على أهل مكة أحداثهم
وحواشيهم فعادوا بالشكية الى أميرهم فأرسل اليه فأتى به فقال أى عدو الله طردتك
من حرم الله فصرت الى المشعر الاعظم تفسد فيه وتجمع بين الخبائث فقال أصلح الله الامير
انهم يكذبون على ويحسدوننى فقالوا للوالى بيننا وبينه واحدة تجمع حمر المكارين وترسلها
الى عرفات فان لم تقصد الى بيته لما تعودت من اتيان السفهاء والفجار فالقول ما قال
فقال الوالى ان فى هذا الدليلا وأمر بجمع الحمر فجمعت ثم أرسلت فقصدت منزله وأتاه أمناؤه
فقال ما بعد هذا شئ جردوه فلما نظر الى السياط قال ولا بد من ضربى قال لا بد يا عدو الله
قال اضرب فوالله ما فى هذا شئ بأشد من أن يسخر بنا اهل العراق ويقولون اهل مكة
يجيزون شهادة الحمير مع تقريعهم لنا بقبول شهادة الواحد مع يمين الطالب قال فضحك الوالى
وقال لا اضربك اليوم وامر بتخلية سبيله وترك التعرض له (قال المسعودى) وللمنتصر
بالله اخبار حسان وأشعار وملح ومنادمات ومكاتبات ومراسلات قبل الخلافة وقد أتينا
على مبسوطها وما استحسناه منها مما لم نورده فى هذا الكتاب فى كتابنا أخبار الزمان من الامم

الماضية والاجيال الخالية والممالك الداثرة وكذلك فى الكتاب الاوسط اذ كنا ماضمناه كل كتاب منها لم نتعرض لذكره فى الآخر ولو كان كذلك لم يكن بينها فرق وكان الجميع واحدا وسنورد بعد فراغنا من هذا الكتاب كتابا نضمنه فنونا من الاخبار ونخلله بالآداب وفنون الآثار تاليا لما سلف من كتبنا ومعقبا لما تقدم من تصنيفنا ان شاء الله تعالى

* (ذكر خلافة المستعين بالله) *

وبويع أحمد بن محمد بن المعتصم فى اليوم الذى توفى فيه المنتصر وهو يوم الاحد لخمس خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين ويكنى بأبى العباس وكانت أمه أم ولد صقلبية يقال لها مخارق وخلع نفسه وسلم الخلافة الى المعتز فكانت خلافته ثلاث سنين وثمانية أشهر وقيل ثلاث سنين وتسعة أشهر وكانت وفاته يوم الاربعاء لثلاث خلون من شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين وقتل وهو ابن خمس وثلاثين سنة

* (ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان فى أيامه) *

واستوزر المستعين بالله اتامش أوتامش وكان المتولى لامر الوزارة والقيم بها كاتب لاوتامش يقال له شجاع وبعد أن قتل أوتامش وكاتبه صار على وزارته أحمد بن صالح بن شيرزاد ولما قتل وصيف وبغا باغر التركى تغضبت الموالى وانحدر وصيف وبغا الى مدينة السلام والمستعين معهما فانزلاه دار محمد بن عبد الله بن طاهر وذلك فى المحرم سنة احدى وخمسين ومائتين والمستعين لا امر له والامر لبغا ووصيف وكان من حصار بغداد ما ذكرناه فى الكتاب الاوسط وفى المستعين بالله يقول بعض الشعراء

خليفة فى قفص * بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له * كما يقول الببغا

وقد كان المستعين نفى أحمد بن الخصيب الى اقريطش سنة ثمان وأربعين ومائتين ونفى عبد الله بن يحيى بن خاقان الى برقة واستوزر عيسى بن فرخانشاه وقلد سعيد بن حميد ديوان الرسائل وكان سعيد حافظا لما يستحسن من الاخبار ويستجاد من الاشعار متصرفا فى فنون العلم ممتعا اذا حدث مفيدا اذا جولس وله أشعار كثيرة حسان فمما يستحسن ويختار من شعره قوله

وكنت أشوقه بالدعاء * وأخشى عليه من المأثم
فلما أقام على ظلمه * تركت الدعاء على الظالم

وقوله

أسيدتى مالى أراك بخيلة * مقيم على الحرمان من يستزيدها
فأصبحت كالدنيا تذم صروفها * ونتبعها ذما ونحن عبيدها

وقوله

الله يعلم والدنيا مولية * والعيش منتقل والدهر ذو دول
فللفراق وان هاجت بخيفته * عليك أشوق فى قلبى من الاجل
وكنت أفرح بالدنيا ولذتها * واليأس يحكم للاعداء فى الامل

وقوله

وما كان حبيا لأول نظرة * ولا عبرة من بعدها فجلت
ولكنها الدنيا تولت وما الذي * يسلي عن الدنيا اذا ما تولت

وقوله

كأن انحدار الدمع حين تحدره * على خدها الريان در على در

الا ان سعيدا على ما وصفنا عنه من الادب كان يتعصب ويظهر التسنن والتحيل ويظهر عنه الانحراف عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وعن الطاهرين من ولده وفى ذلك يقول بعض الشعراء

ما رأينا لسعيد بن حميد من شبيه
ماله يؤذى رسول الله فى شتم أخيه
انه الزنديق مسئول على دين أبيه

وكان سعيد بن حميد من أبناء المجوس وفيه يقول بعض الشعراء وهو أبو على البصير

رأس من يدعى البلاغة منى * ومن الناس كلهم فى حرامه
وأخونا ولست أعنى سعيد بن حميد يورخ الكتب باسمه

وكان لسعيد بن حميد وأبى على البصير وأبى العيناء معاتبات ومكاتبات ومداعبات وقد أتينا على ذكرها فى الكتاب الاوسط وكان أبو على البصير من أطبع الناس فى زمانه لا يزال يأتى بالبيت النادر والمثل السائر الذى لا يأتى به غيره وكان ابن ميادة بسوء اختياره يرى انه أشعر من جرير ويحسبه مقدما على أهل عصره وهو فوق نظرائه فى وقته ودون البحترى فمن مشهور شعره قوله فى المعلى بن أيوب

لعمر أبيك ما نسب المعلى * الى كرم وفى الدنيا كريم
ولكن البلاد اذا اقشعرت * وصوح نبتها رعى الهشيم

ومما استحسن له من شعره قوله

اذا ما اغتدت طلابة العلم مالها * من العلم الا ما يخلد فى الكتب
غدوت بتشمير وجد عليهم * فمحبرتى سمعى ودفترها قلبى

ومما استحسن من قوله وهو يريد الحج

خرجنا نبتغى مكة حجاجا وعمارا
فلما شارف الحيرة * داعى ابليس خارا
فقلت احطط بها رحلى * ولا تعبأ بمن سارا
فصادفنا بها الهوا * وبستانا وخمارا
وظبيا عاقدا بين الشنفا والخصر زنارا
فياظنك بالملقا * ءان أشعلتها نارا

وظهر فى هذه السنة وهى سنة ثمان وأربعين ومائتين بالكوفة ابو الحسين يحيى بن عمر

ابن

ابن يحيى بن الحسين بن عبد الله بن اسمعيل بن عبد الله بن جعفر بن ابى طالب الطيار وقيل ان ظهوره كان بالكوفة سنة خمسين ومائتين فقتل وحمل رأسه الى بغداد وصاب فضج الناس من ذلك لما كان فى نفوسهم من المحبة له لانه استفتح أموره بالكف عن الدماء والتورع عن أخذ شئ من أموال الناس وأظهر العدل والانصاف وكان ظهوره لذل نزل به وجفوة لحقته ومحنة نالته من المتوكل وغيره من الاتراك ودخل الناس الى محمد ابن طاهر يهنونه بالفتح ودخل عليهم أبو هاشم الجعفرى وهو داود بن القاسم بن اسحق ابن عبد الله بن جعفر بن ابى طالب بينه وبين جعفر الطيار ثلاثة آباء ولم يكن يعرف فى ذلك الوقت اقعد نسبا فى آل ابى طالب وسائر بنى هاشم وقريش منه وكان ذا زهد وورع ونسك وعلم صحيح العقل سليم الحواس منتصب القامة وقبره مشهور وقد اتينا على خبره وماروى عنه من الرواية عن ابيه ومن شاهد من سلفه فى كتاب حدائق الاذهان فى أخبار النبى صلى الله عليه وسلم فقال لابن طاهر ايها وخرج من داره وهو يقول يابنى طاهر البيتين وقد كان المستعين أمر بنصب الرأس فأمر ابن طاهر بانزاله لما رأى من الناس وماهم عليه وفى ذلك يقول أبو هاشم الجعفرى

يابنى طاهر كلوه وبيا * ان لحم النبى غير مرى

ان وترا يكون طالبه الله لوتر بالفوت غير حرى

وقد رثى أبو الحسن يحيى بن عمر باشعار كثيرة وقد أتينا على خبر مقتله ومارثى به من الشعر فى الكتاب الاوسط ومما رثى به ما قاله فيه أحمد بن أبى طاهر الشاعر من قصيدة طويلة

سلام على الاسلام فهو مودع * اذا مامضى آل النبى فودعوا

فقدنا العلا والمجد عند افتقادهم * واضحت عروس المكرمات تضعضع

اتجمع عين بين نوم ومضجع * ولابن رسول الله فى الترب مضجع

فقد اقفرت دار النبى محمد * من الدين والاسلام فالدار بلقع

وقتل آل المصطفى فى خلالها * وبدد شمل منهم ليس يجمع

الم تر آل المصطفى كيف تصطفى * نفوسهم أم المنون فتتبع

بنى طاهر واللؤم منكم سجية * وللغدر منكم حاسر ومقنع

قواطعكم فى الترك غير قواطع * ولكنها فى آل أحمد تقطع

لكم كل يوم مشرب من دمائهم * وغلتهم امن شربها ليس تنقع

رماحكم للطالبيين شرع * وفيكم رماح الترك بالقتل شرع

لكم مرتع فى دار آل محمد * وداركم للترك والجيش مرتع

اخلتم بان الله يرعى حقوقكم * وحق رسول الله فيكم مضيع

وأنتم وارجون الشفاعة عنده * وليس لمن يرميه بالوتر يشفع

فيغلب مغلوب ويقتل قاتل * ويخفض مرفوع ويدنى المرفع

قال وكان يحيى دينا كثير التعطف والمعروف على عوام الناس بارا بخواصهم واصلا لاهل بيته مؤثرا لهم على نفسه مثقل الظهر بالطالبيات يجهد نفسه ببرهن والتحنن عليهن لم تظهر

بمنزلة ولا عرفت له خزية ولما قتل يحيى جزعت عليه نفوس الناس جزعا كثيرا ورثاه القريب والبعيد وحزن عليه الصغير والكبير وجزع لقتله الملى والدنى وفى ذلك يقول بعض شعراء عصره ومن جزع على فقده

بكت الخيل شجوها بعد يحيى * وبكاه المهند المصقول
وبكته العراق شرقا وغربا * وبكاه الكتاب والتنزيل
والمصلى والبيت والركن والحجـ * ـر جميعا لهم عليه عويل
كيف لم تسقط السماء علينا * يوم قالوا أبو الحسين قتيل
وبنات النبى يندبن شجوا * موجعات دموعهن تسيل
ويؤبن للرزية بدرا * فقده مفظع عزيز جليل
قطعت وجهه سيوف الاعادى * بابى وجهه الوسيم الجميل
وليحيى الفتى بقلبى غليل * كيف يرضى بالجسم ذاك العليل
قتله مذكر لقتل على * وحسين ويوم أوذى الرسول
فصلاة الاله وقفا عليهم * مابكى موجع وحن ثكول

وكان ممن رثاه على بن محمد بن جعفر العلوى الحمانى الشاعر وكان ينزل بالكوفة فى حمان فاضيف اليهم فقال

يابقايا السلف الصا * لح والتجر الربيح * نحن للايام من بين قتيل وجريح
خاب وجه الارض كم غيـ * ـب من وجه صبيح * آه من يومك ما أو * داه للقلب القريح

وفيه يقول

تضوع مسكا جانب القبر اذ ثوى * وما كان لولا شلوه يتضوع
مصارع فتيان كرام اعزة * اتيح ليحيى الخير منهن مصرع

وقوله

انى لقومى من أحساب قومكم * بمسجد الخيف فى بحبوحة الخيف
ماعلق السيف منا بابن عاشرة * الا وهمته أمضى من السيف

وقد كان على بن محمد بن جعفر العلوى هذا وهو أخو اسمعيل العلوى لامه لما دخل الحسن بن اسمعيل الكوفة وهو صاحب الجيش الذى لقى يحيى بن عمر قعد عن سلامه ولم يمض اليه ولم يتخلف عن سلامه أحد من آل على بن أبى طالب الهاشميين وكان على بن محمد الحمانى مفتيهم بالكوفة وشاعرهم ومدرسهم ولسانهم ولم يكن أحد بالكوفة من آل على بن أبى طالب يتقدمه فى ذلك الوقت فتفقده الحسن بن اسمعيل وسأل عنه وبعث بجماعة فاحضروه فانكر الحسن تخلفه فاجابه على بن محمد بجواب مستقل آيس من الحياة فقال أردت أن آتيك مهنئا بالفتح وداعيا بالظفر وأنشد شعرا لا يقوم على مثله من يرغب فى الحياة

قتلت اعز من ركب المطايا * وجئتك استلينك فى الكلام
وعز على أن ألقاك الا * وفيما بيننا حد الحسام

ولكن الجناح اذا اهيضت * قوادمه يرف على الاكام

فقال له الحسن بن اسمعيل أنت موتور فلست انكر ما كان منك وخلع عليه وحمله الى منزله قال وكان أبو أحمد الموفق بالله حبس علي بن محمد العلوي لامر شنع به عليه من انه يريد الظهور فكتب اليه من الحبس

قد كان جدك عبد الله خير اب * لابني علي حسين الخير والحسن
فالكف يوهن منها كل انملة * ما كان من أختها الاخرى من الوهن

فلما وصل هذا الشعر اليه كفل وخلى الى الكوفة وله أشعار ومراث في أخيه اسمعيل وغيره من أهله وفي ذم الشيب قد أتينا على كثير من ذكرها في كتابنا أخبار الزمان عند ذكر أخبار الطالبيين وفي كتاب مزاهر الاخبار وطرائف الآثار في أخبار النبي صلى الله عليه وسلم * ومما رثى به علي بن محمد أيضا أبا الحسن يحيى بن عمر فأجاد فيه وافتخر على غيرهم من قريش قوله

لعمري لئن سرت قريش بهلكه * لما كان وقافا غداة التوقف
فان مات تلقاء الرماح فانه * لمن معشر يشنون موت الترف
فلا تشمتوا فالقوم من يبق منهم * على سنن منهم مقام المخالف
لهم معكم اما جدعتم انوفكم * مقامات ما بين الصفا والمعرف
تراث لهم من آدم ومحمد * الى الثقلين من وصايا ومصحف

وفيه يقول أيضا في الشيب

قد كان حين علا الشباب به * يقق السوالف حالك الشعر
وكأنه قمر تعلق في * افق السماء بدارة البدر
يا ابن الذي جعلت فضائله * فلك العلا وقلائد السور
من اسرة جعلت مخايلهم * للعالمين مخايل النظر
تهيب الاقدار قدرهم * فكأنهم قدر على قدر
والموت لا تسوى رميته * فلك العلا ومواضع الغرر

ومن مراثيه المستحسنة في أخيه

هذا ابن أمي عديل الروح في جسدي * شق الزمان به قلبي الى كبدي
فاليوم لم يبق شئ أستريح به * الا تفتت أعضائي من الكمد
أو مقلة بحياء الهم باكية * أو بيت مرثية تبقى على الابد
ترى أناجيك فيها بالدموع وقد * نام الخلي ولم أهجع ولم اكد
من لي بمثلك يا نور الحياة ويا * يمنى يدي التي شلت من العضد
من لي بمثلك أدعوه لحادثة * تشكى اليه ولا أشكو الى أحد
قد ذقت أنواع ثكل كنت ابلغها * على القلوب وأجناها على كبد
قل للردى لا تغادر بعده أحدا * وللمنية من أحببت فاعتمدي
ان الزمان تقضى بعد فرقته * والعيش آذن بالتفريق والنكد

وكانت وفاة محمد العلوى فى خلافة المعتمد فى سنة ست ومائتين * وفى خلافة المستعين وذلك فى سنة خمسين ومائتين ظهر ببلاد طبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن الحسن ابن زيد بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه فغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب كثيرة وقتال شديد ومازالت فى يده الى أن مات سنة سبعين ومائتين وخلفه أخوه محمد بن زيد فيهما الى أن حاربه رافع بن هرثمة ودخل محمد بن زيد الى الديلم فى سنة سبع وسبعين ومائتين فصارت فى يده وبايعه بعد ذلك رافع بن هرثمة وصار فى جملته وانقاد لدعوته والقول بطاعته وكان الحسن بن زيد ومحمد بن زيد يدعوان الى الرضى من آل محمد وكذلك من طرأ بعدهما ببلاد طبرستان وهو الحسن بن على الحسنى المعروف بالاطروش وولده ثم الداعى الحسن بن القاسم الذى قتله التتار بطبرستان وكان الحسن بن القاسم من ولد الحسين بن على بن أبى طالب وقد أتينا على خبر سائر آل أبى طالب بطبرستان ومن ظهر منهم بالمشرق والمغرب وغير ذلك من بقاع الارض الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة فى كتابنا أخبار الزمان وانما نذكر فى هذا الكتاب لمعا من سائر ما يجب ذكره لئلا يخلو هذا الكتاب من ذكرهم * وظهر فى هذه السنة وهى سنة خمسين ومائتين بالرى محمد بن جعفر بن الحسن ودعا للحسن بن زيد صاحب طبرستان وكانت له حروب بالرى مع أهل خراسان من المسودة فأسر وحمل الى نيسابور الى محمد بن عبد الله بن طاهر فمات فى مجلسه بنيسابور * وظهر بعده بالرى أحمد بن عيسى بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ودعا الى الرضى من آل محمد وحارب محمد بن طاهر وكان بالرى فانهزم عنها وسار الى مدينة السلام فدخلها العلوى * وفى هذه السنة وهى سنة خمسين ومائتين ظهر بقزوين الكركى وهو الحسن بن اسمعيل بن محمد بن عبد الله بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وهو من ولد الاوسط وقيل ان اسم الكركى الحسن بن أحمد بن محمد بن اسمعيل بن محمد بن عبد الله بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم فحاربه موسى وبغا وصار الكركى الى الديلم ثم وقع الى الحسن بن زيد الحسنى فهلك قبله * وظهر بالكوفة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب فسرح اليه محمد بن عبد الله بن طاهر من بغداد جيشا عليه ابن خاقان فانكشف الطالبى واختفى لترك أصحابه له وتخلفهم عنه وكان ذلك فى سنة احدى وخمسين ومائتين وفى سنة تسع وأربعين ومائتين عقد المستعين لابنه العباس على مكة والمدينة والبصرة والكوفة وعزم على البيعة له فانخرها لصغر سنه وكان عيسى بن فرخانشاه قال لابى البصير الشاعر أن يقول فى ذلك شعرا يشير فيه بالبيعة له فقال فى ذلك قصيدة طويلة يقول فيها

بك الله حاط الدين وانتاش أهله * من الموقف الدحض الذى مثله يردى

فول ابنك العباس عهدك انه * له موضع واكتب الى الناس بالعهد

فان خانه السن فالعقل بالغ * به رتبة الشيخ الموفق للرشد

فقد كان يحيى أوتى العلم قبله * صبيا وعيسى كلم الناس فى المهد

وقال أبو العباس المكى كنت انادم محمد بن طاهر بالرى قبل مواقعته الطالبيين فأ

رأيته فى وقت من الاوقات أشد سرورا منه ولا أكثر نشاطا قبل ظهور العلوى بالرى وذلك فى سنة خمسين ومائتين ولقد كنت عنده ليلة أتحدث والخبر وافد والستر مسبل اذ قال كأنى أشتهى الطعام فما آكل قلت صدر دراج أو قطعة من جدى باردة قال ياغلام هات رغيفا وخلا وملحا فأكل من ذلك فلما كان فى الليلة الثانية قال يا أبا العباس كأنى جائع فما ترى أن آكل قلت ما أكلت البارحة فقال أنت لا تعرف فرق ما بين الكلامين قلت البارحة كأنى أشتهى الطعام وقلت الليلة كأنى جائع وبينهما فرق فدعا بالطعام ثم قال لى صف لى الطعام والشراب والطيب والنساء والخيل قلت أيكون ذلك منثورا أو منظوما قال لا بل منثورا قلت أطيب الطعام ما لقى الجوع بطعم وافق شهوة قال فما أطيب الشراب قلت كاس مدام تبرد بها غليلك وتعاطى بها خليلك قال فأى السماع أفضل قلت أوتار أربعة وجارية مترفة غناؤها عجيب وصوتها مصيب قال فأى الطيب أطيب قلت ريح حبيب تحبه وقرب ولد تربه قال فأى النساء أشهى قلت من تخرج من عندها كارها وترجع اليها والها قال فأى الخيل أفره قلت الاشدق الاعين الذى اذا طلب سبق واذا طلب لحق قال أحسنت يا بشر أعطه مائة دينار قلت وأين تقع منى مائتا دينار قال أوقد زدت نفسك مائة دينار ياغلام أعطه المائة كما ذكرنا والمائة الاخرى لحسن ظنه بنا فانصرفت بمائتى دينار فما كان بين هذا الحديث وبين تنحيه من الرى الا جمعة * وكان المستعين حسن المعرفة بأيام الناس وأخبارهم لهجا بأخبار الماضين (وحدث) محمد بن الحسن بن دريد قال أخبرنى أبو البيضاء مولى جعفر الطيار وكان طيب الحديث قال وفدنا فى أيام المستعين من المدينة الى سامرا وفينا جماعة من آل أبى طالب وغيرهم من الانصار فاقمنا ببابه نحوا من شهر ثم وصلنا اليه فكل تكلم وعبر عن نفسه فقرب وآنس وابتدأ بذكر المدينة ومكة وأخبارهما وكنت اعرف الجماعة بما شرع فيه فقلت اياذن أمير المؤمنين فى الكلام قال ذلك اليك فشرعت معه فيما قصد اليه وتسلسل بنا الكلام الى فنون من العلم فى أخبار الناس ثم انصرفنا واقيم لنا الانزال والافضال فلما كان فى أول الليل أتانا خادم ومعه عدة من الاتراك فرسان فحملت على جنيبة كانت معهم وأتى بى الى المستعين فاذا هو جالس فى الجوسق فقربنى وأدنانى ثم أخذ بعد أن آنسنى فى أخبار العرب وأيامها وأهل التتيم فانتهى بنا الكلام الى أخبار العذريين والمتيمين فقال ما عندك من أخبار عروة بن حزام وما كان منه مع عفراء فقلت يا أمير المؤمنين ان عروة بن حزام لما انصرف من عند عفراء بنت عقال توفى وجدا بها وصبابة اليها فمر به ركب فعرفوه فلما انتهوا الى منزل عفراء صاح صائح منهم

الا أيها القصر المغفل أهله * نعينا اليكم عروة بن حزام

ففهمت صوته وأشرفت عليه وقالت

الا أيها الركب المجدون ويحكم * بحق نعيتم عروة بن حزام

فأجابها رجل من القوم فقال

نعم قد تركناه بأرض بعيدة * مقيما بها فى سبسب واكام

فقالت لهم

فان كان حقا ما تقولون فاعلموا * بان قد نعيتم بدر كل ظلام
فلا لاقى الفتيان بعدك لذة * ولا رجعوا من غيبة بسلام
ولا وضعت أنثى شريفا كمثله * ولا فرحت من بعده بغلام
ولا لا بلغتم حيث وجهتم له * ونغصتم لذات كل طعام

ثم سألتهم أين دفنوه فاخبروها فصارت الى قبره فلما قاربته قالت أنزلوني فانى أريد قضاء حاجة فأنزلوها فانسلت الى قبره فاكبت عليه فما راعهم الا صوتها فلما سمعوه بادروا اليها فاذا هى ممتدة على القبر قد خرجت نفسها فدفنوها الى جانب قبره قال لى فقال لى فهل عندك من خبره غير ما ذكرت قلت نعم يا أمير المؤمنين هذا ما أخبرنا به مالك بن الصباح العدوى عن الهيثم بن عدى بن عروة عن أبيه قال بعثنى عثمان بن عفان مصدقا فى بنى عذرة فى بلاد حى منهم يقال لهم بنو منبذة فاذا بيت جديد متحاش عن الحى فملت اليه فاذا بشاب قائم فى ظل البيت واذا عجوز جالسة فى كسر البيت فلما رآنى ترنم بصوت ضعيف يقول

جعلت لعراف اليمامة حكمه * وعراف نجدان هما شفيانى
فقالا نعم نشفى من الداء كله * وقاما مع العواد يبتدران
فما تركالى رقية يعرفانها * ولا شربة الا بها سقيانى
وقالا شفاك الله والله ما لنا * بما حملت منك الضلوع يدان
فلهفى على عفراء لهفا كانه * على الصدر والاحشاء حد سنان
فعفراء أحظى الناس عندى مودة * وعفراء عنى المعرض المتدانى
وانى لاهوى الحشر اذ قيل اننى * وعفراء يوم الحشر تلتقيان
الا لعن الله الوشاة وقولهم * فلانة أضحت خلة لفلان

ثم شهق شهقة خفيفة فنظرت فى وجهه فاذا هو قد مات فقلت أيتها العجوز ما أظن هذا النائم بفنائك الا قد مات قالت وأنا والله أظن ذلك فنظرت فى وجهه وقالت فاض ورب الكعبة فقلت من هذا فقالت عروة بن حزام العذرى وأنا أمه والله ما سمعت له أنة من سنة الا فى صدر يومى هذا فانى سمعته يقول

من كان من أمهاتى باكيا أبدا * فاليوم انى أرانى فيه مقبوضا
يسمعنه فانى غير سامعه * اذا علوت رقاب القوم معروضا

قال فأقمت حتى شهدت غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه قال فقال عثمان وما دعاك الى ذلك قلت اكتساب الاجر فيه والله قال فوصل الجماعة وفضلنى عليهم فى الجائزة (قال المسعودى) ولمن سلف من المتيمين أخبار عجيبة وأشعار حسان فمن ذلك ما حدثنا به أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى القاضى قال حدثنا محمد بن سلام الجمحى قال أخبرنى أبو الهياج بن سابق الجعدى ثم الثقفى قال خرجت الى أرض بنى عامر لا لشئ الا للقاء المجنون فاذا أبوه شيخ كبير واذا اخوته رجال واذا نعم ظاهرة وخير كثير فسألتهم عن المجنون فاستعبروا وقال الشيخ كان والله أبر هؤلاء عندى فهوى امرأة من قومه والله ما كانت تطمع فى مثله فلما عرف أمره وأمرها كره أبوها أن يزوجها اسنه فزوجها من رجل آخر فيئذناه

فكان يعض شفتيه ولسانه حتى خشينا أن يقطعهما فلما رأينا ذلك خلينا سبيله فهو في هذه الفيافي يذهب اليه في كل يوم بطعامه فيوضع له بحيث يراه فاذا عاينه جاء فأكل واذا اخلقت ثيابه جاؤه بثياب فوضعت بحيث يراها فسألتهم أن يدلوني عليه فدلوني على فتى من الحي وقالوا انه لم يزل صديقا له وليس يأنس باحد سواه فسألته أن يدلني عليه فقال ان كنت تريد شعره فكل شعره عندي الى امس وأنا ذاهب اليه غدا فان كان قد ذكر شيأ اتيتك به قلت اريد أن تدلني عليه قال ان رآك نفر منك وأخاف أن يذهب مني فيما بعد فيذهب شعره فأبيت الا أن يدلني فقال اطلبه في هذه الصحراء فاذا رأيته فادن منه مستأنسا فانه يتهددك ويتوعدك أن يرميك بشيء في يده فاجلس كأنك لا تنظر اليه والحظه فاذا رأيته قد سكن فاجهد أن تروي اقيس بن الذريح شيأ فانه معجب به قال فخرجت اليه يومي فوجدته بعد العصر جالسا على تل يخط باصبعه خطوطا فدنوت منه غير منقبض فنفر والله كما ينفر الوحش من الانسان والى جانبه أحجار فتناول منها واحدا فأقبلت حتى جلست قريبا منه فمكثت ساعة وهو كانه نافر فلما طال جلوسي سكن وأقبل يعبث باصبعه فنظرت اليه وقلت أحسن والله قيس بن الذريح حيث يقول

وانى لمفن دمع عينىّ بالبكا * حذار الما قد كان أوهو كائن
وقالوا غدا أو بعد ذاك بليلة * فراق حبيب لم يبن وهو بائن
وما كنت أخشى أن تكون منيتي * بكفي الا أن ماحان حائن

قال فبكى والله حتى سالت دموعه ثم قال أنا والله أشعر منه حيث أقول

أبى القلب الا حبها عامرية * لها كنية عمرو وليس لها عمر
تكاد يدي تندى اذا ما لمستها * وينبت في اطرافها الورق الخضر
عجبت لسعي الدهر بيني وبينها * فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فيا حبها زدني جوى كل ليلة * ويا سلوة الايام موعدك الحشر

قال ثم نهض فانصرفت ثم عدت من الغد فاصبته ففعلت فعلي بالامس وفعل مثل فعله فلما أنس قلت أحسن والله قيس بن الذريح حيث يقول قال ماذا قلت

هبوني امرأ ان تحسنوا فهو شاكر * لذاك وان لم تحسنوا فهو صافح
فان يك قوم قد أشاروا بهجرنا * فان الذي بيني وبينك صالح

قال فبكى وقال أنا والله اشعر منه حيث اقول

وأدنيتني حتى اذا ما سبيتني * بقول يحل العصم سهل الاباطح
تجافيت عني حيث مالي حيلة * وخلفت ما خلفت بين الجوانح

ثم ظهرت لنا ظبية فوثب في اثرها فانصرفت ثم عدت في اليوم الثالث فلم اصادفه فرجعت فاخبرتهم فوجهوا الذي كان يذهب بطعامه فرجع وأخبرهم أن الطعام على حاله ثم غدوت مع اخوته فطلبناه يومنا وليلتنا فلما اصبحنا اصبناه في واد كثير الحجارة واذا هو ميت فاحتمله اخوته ورجعت الى بلدي (قال) وفي سنة ثمان وأربعين ومائتين كانت وفاة بغا الكبير التركي وقد نيف على التسعين سنة وقد كان باشر من الحروب مالم يباشره أحد فما أصابته جراحة

فلما وتقلد ابنه موسى بن بغا ما كان يتقلده وضم اليه أصحابه وجعلت له قيادته وكان بغا دينا بين الاتراك وكان من غلمان المعتصم يشهد الحروب العظام ويباشرها بنفسه فيخرج منها سالما ويقول الاجل جوشن ولم يكن يلبس على بدنه شيأ من الحديد فعذل فى ذلك فقال رأيت فى نومى النبى صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة من أصحابه فقال لى يا بغا أحسنت الى رجل من امتى فدعا لك بدعوات استجيبت له فيك قال فقلت يا رسول الله ومن ذلك الرجل قال الذى خلصته من السباع فقلت يا رسول الله سل ربك أن يطيل عمرى فرفع يديه نحو السماء وقال اللهم أطل عمره وانم اجله فقلت يا رسول الله خمس وتسعون سنة فقال رجل كان بين يديه ويوقى من الآفات فقلت للرجل من أنت قال انا على بن أبى طالب فاستيقظت من نومى وانا أقول على بن أبى طالب وكان بغا كثير التعطف والبر للطالبين فقيل له من كان ذلك الرجل الذى خلصته من السباع قال كان أتى المعتصم برجل قد رمى ببدعة نجرت بينهم فى الليل مخاطبة فى خلوة فقال لى المعتصم خذه فألقه الى السباع فأتيت بالرجل الى السباع لألقيه اليها وأنا مغتاظ عليه فسمعته يقول اللهم انك تعلم ما تكلمت الا فيك ولم أرد بذلك غيرك وتقربا اليك بطاعتك واقامة الحق على من خالفك أفتسلمنى قال فارتعدت ودخلتنى له رقة وملئ قلبى له رعبا فجذبته عن طرف بركة السباع وقد كدت أن أزج به فيها وأتيت به حجرتى فأخفيته فيها وأتيت المعتصم فقال هيه قلت ألقيته قال فما سمعته يقول قلت انا أعجمى وهو يتكلم بكلام عربى ما ادرى ما يقول وقد كان الرجل اغلظ فلما كان فى السحر قلت للرجل قد فتحت الابواب وأنا مخرجك مع رجال الحرس وقد آثرتك على نفسى ووقيتك بروحى فاجهد أن لا تظهر فى أيام المعتصم قال نعم قلت فما خبرك قال هجم رجل من عماله فى بلدنا على ارتكاب المكاره والفجور واماتة الحق ونصر الباطل فسرى ذلك الى فساد الشريعة وهدم التوحيد فلم أجد عليه ناصرا فوثبت عليه فى ليلة فقتلته لان جرمه كان يستحق به فى الشريعة أن يفعل به ذلك (قال المسعودى) ولما انحدر المستعين ووصيف وبغا الى مدينة السلام اضطربت الاتراك والفراعنة وغيرهم من الموالى بسامرا وأجمعوا على بعث جماعة اليه يسألونه الرجوع الى دار ملكه فصار اليه عدة من وجوه الموالى ومعهم البرد والقضيب وبعض الخزائن ومائتا ألف دينار ويسألونه الرجوع الى دار ملكه واعترفوا بذنوبهم واقروا بخطئهم وضمنوا أن لا يعودوا ولا غيرهم من نظرائهم الى شئ من ذلك مما انكره عليهم وتذللوا وخضعوا فاجيبوا بما يكرهون وانصرفوا الى سر من رأى فاعلموا أصحابهم وأخبروهم بما نالهم واياسهم من رجوع الخليفة وقد كان المستعين اعتقل المعتز والمؤيد حين انحدر الى بغداد ولم يأخذهما معه وقد كان حذر من محمد بن الواثق حين انحداره فأخذه معه ثم انه هرب منه مع رجال الحرب فاجمع الموالى على اخراج المعتز والمبايعة له والانقياد الى خلافته ومحاربة المستعين وناصريه ببغداد فأنزلوه من الموضع المعروف بلؤلؤة الجوسق وكان معتقلا فيه مع أخيه المؤيد فبايعوه وذلك يوم الاربعاء لاحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة احدى وخمسين ومائتين وركب من غد ذلك اليوم الى دار العامة فأخذ البيعة على الناس وخلع

على

على أخيه المؤيد وعقد له عقدين اسود وأبيض فكان الاسود لولاية العهد بعده والابيض لولاية الحرمين وتقلدهما وانبثت الكتب فى سامرا بخلافة المعتز بالله من سائر الامصار وأرخت باسم جعفر بن محمد الكاتب واحدر أخاه أبا أحمد مع عدة من الموالى لحرب المستعين الى بغداد فنزل عليها فكان أول حرب جرت بينهم ببغداد بين أصحاب المعتز والمستعين وهرب محمد بن الواثق الى المعتز بالله ولم تزل الحرب بينهم وبين أهل بغداد للنصف من صفر من هذه السنة فلما نشبت الحرب بينهم كانت امور المعتز تقوى وحالة المستعين تضعف والفتنة عامة فلما رأى محمد بن عبد الله بن طاهر ذلك كاتب المعتز وجنح اليه ومال الى الصلح على خلع المستعين وقد كانت العامة ببغداد حين علمت ماقد عزم عليه من خلع المستعين ثارت منكرة لذلك متحيزة الى المستعين ناصرة له فأظهر محمد بن عبد الله المستعين على اعلى قصره مخاطبته العامة وعليه البردة فانكر مابلغهم من خلعه وشكر محمد بن عبد الله ابن طاهر ثم التقى محمد بن عبد الله بن طاهر وأبو أحمد الموفق بالشماسية فاتفقا على خلع المستعين على أن له الامان ولاهله وولده وماحوته ايديهم من أملاكهم وعلى أنه ينزل مكة هو ومن شاء من أهله وأن يقيم بواسط العراق الى وقت مسيره الى مكة فكتب له المعتز على نفسه شروطا أنه متى نقض شيأ من ذلك فالله ورسوله منه براء والناس فى حل من بيعته وعهودا يطول ذكرها وقد خذل المعتز بعد ذلك لمخالفتها حين عالج فى نقضها لخلع المستعين نفسه من الخلافة وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين فكان له مذ وافى مدينة السلام الى أن خلع سنة كاملة وكانت خلافته منذ تقلد الامر على ما بيناه آنفا الى أن زال عنه ثلاث سنين وثمانية اشهر وثمانية وعشرين يوما على ماذكرناه من الخلاف وأحدر الى دار الحسن بن وهب ببغداد وجمع بينه وبين أهله وولده ثم أحدر الى واسط وقد وكل به أحمد بن طولون التركى وذلك قبل ولايته مصر وعلم عجز محمد بن عبد الله بن طاهر عن قيامه بامر المستعين حين استجار به وخذلانه اياه وميله الى المعتز بالله وفى ذلك يقول بعض شعراء العصر من أهل بغداد

اطاقت بنا الاتراك حولا محرما * ومابرحت فى بحرها ام عامر
اقامت على ذل بها ومهانة * فلما بدت ابدت لنا اللؤم غادر
ولم ترع حق المستعين فاصبحت * تعين عليه حادثات المقادر
لقد جمعت لؤما وخبثا وذلة * وابقت لها عارا على آل طاهر

ولما كان من الامر ماقدمنا من خلع المستعين انصرف أبو أحمد الموفق من بغداد الى سامرا فخلع عليه المعتز وتوج ووشح بوشاحين وخلع على من كان معه من قواده وقدم على المعتز عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أخو محمد بن عبد الله بالبرد والقضيب والسيف وبجوهر الخلافة ومعه شاهك الخادم وكتب محمد بن عبد الله الى المعتز فى شاهك ان من أتاك بارث رسول الله صلى الله عليه وسلم لجدير أن لا تخفر ذمته وخلع المستعين وعلى وزارته أحمد بن صالح بن شيرزاد ولما كان فى شهر رمضان من هذه السنة وهى سنة اثنتين وخمسين ومائتين بعث المعتز بالله سعيد بن صالح الحاجب ليلقى المستعين وقد كان فى جملة من حمله من واسط

فلقيه سعيد وقد قرب من سامرا فقتله واحتز رأسه وحمله الى المعتز بالله وترك جثته ملقاة على الطريق حتى تولى دفنها جماعة من العامة * وكانت وفاة المستعين بالله يوم الاربعاء لست خلون من شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين وهو ابن خمس وثلاثين سنة على ماقدمنا فى صدر هذا الباب * وذكر شاهك الخادم قال كنت عديلا للمستعين عند اشخاص المعتز له الى سامرا ونحن فى عمارية فلما وصل الى القاطول تلقاه جيش كثير فقال يا شاهك انظر من رئيس القوم فان كان سعيد الحاجب فقد هلكت فلما عاينته قلت هو والله سعيد فقال انا لله وانا اليه راجعون ذهبت والله نفسى وجعل يبكى فلما قرب سعيد منه جعل يقنعه بالسوط ثم اضجعه وقعد على صدره واحتز رأسه وحمله على ماذكرنا واستقامت الامور للمعتز واجتمعت الكلمة عليه * وللمستعين أخبار غير ماذكرناه فى هذا الكتاب وأوردناه فى هذا الباب قد أتينا على ذكرها فى كتابنا أخبار الزمان والاوسط وانما ذكرنا ما اوردنا فى هذا الكتاب لئلا يتوهم أنا اغفلنا ذكرها اوعزب عنا فهمها فانا بحمد الله لم نترك شيأ من أخبار الناس وسيرهم وماجرى فى أيامهم الا وقد ذكرناه وأوردنا فى كتبنا حسنه وفوق كل ذى علم عليم والله الموفق للصواب

(ذكر خلافة المعتز بالله)

بويع المعتز بالله وهو الزبير بن جعفر المتوكل وأمه أم ولد يقال لها قبيحة ويكنى أبا عبد الله وله يومئذ ثمانى عشرة سنة بعد خلع المستعين لنفسه وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من المحرم وقيل لثلاث خلون منه سنة اثنتين وخمسين ومائتين على ماقدمنا وبايعه القواد والموالى والشاكرية وأهل بغداد وخطب له فى المسجد الجامع ببغداد فى الجانبين ثم خلع المعتز نفسه يوم الاثنين لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين ومات بعد أن خلع نفسه بستة أيام فكانت خلافته أربع سنين وستة اشهر ودفن بسامرا فجملة أيامه منذ بويع بسامرا قبل خلع المستعين الى اليوم الذى خلع فيه أربع سنين وستة اشهر وأياما ومنذ بويع له بمدينة السلام ثلاث سنين وسبعة اشهر وتوفى وله أربع وعشرون سنة

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان فى أيامه)

ولما خلع المستعين بالله واحدر الى واسط بعد أن اشهد على نفسه انه قد برئ من الخلافة وانه لايصلح لها لما رأى من الخلاف الواقع وانه قد جعل الناس فى حل من بيعته قالت فى ذلك الشعراء فاكثرت ووصفته فى شعرها فاغرقت فقال فى ذلك البحترى من قصيدة طويلة

الى واسط خلب الدجاج ولم يكن * لينبت فى لحم الدجاج مخالب

وفى ذلك يقول الشاعر المعروف بالكنانى من قصيدة

انى أراك من الفراق جزوعا * امسى الامام مسيرا مخلوعا

وغدا الخليفة أحمد بن محمد * بعد الخلافة والبهاء خليعا

كانت به الايام تضحك زهرة * وهو الربيع لمن أراد ربيعا

فازاله المقدور من رتب العلا * فثوى بواسط لا يحس رجوعا

وكان بين خلع المستعين وقتله تسعة اشهر ويوم * ومات فى خلافة المستعين جماعة من أهل العلم والمحدثين منهم أبو هاشم محمد بن زيد الرفاعى وايوب بن محمد الوراق وأبو بكر محمد بن العلاء الهمدانى بالكوفة وأحمد بن صالح المصرى وأبو الوليد السمرى الدمشقى وعيسى ابن حماد زغبة المصرى بمصر ويكنى أباموسى وأبو جعفر بن سوار الكوفى وذلك فى سنة ثمان وأربعين ومائتين * وفى خلافة المستعين وذلك فى سنة تسع وأربعين ومائتين كانت وفاة الحسن بن صالح البزار وكان من علية أصحاب الحديث وهشام بن خالد الدمشقى ومحمد بن سليمان الجهنى بالمصيصة والحسن بن محمد بن طالوت وأبو جعفر الصيرفى بسامرا ومحمد بن زنبور المكى بمكة وسليمان بن أبى طيبة وموسى بن عبد الرحمن البرقى * وفى خلافة المستعين وذلك فى سنة خمسين ومائتين مات ابراهيم بن محمد التميمى قاضى البصرة ومحمود ابن خداش وأبو مسلم أحمد بن شعيب الحرانى والحرث بن مسكين المصرى وأبو طاهر أحمد ابن عمرو بن السرح وغيرهؤلاء ممن اعرضنا عن ذكره من شيوخ المحدثين ونقلة الآثار ممن قد أتينا على ذكرهم من أول زمن الصحابة الى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة فى سنة ست من كتابنا المترجم بالاوسط وانما نذكر لمعا من وفاة من ذكرنا لئلا يخلى هذا الكتاب من نبذ مما يحتاج الى ذكره على قدر الطالب له * وقد كان المستعين فى سنة ثمان وأربعين ومائتين أخرج من خزانة الخلافة فص ياقوت احمر يعرف بالحبل وكانت الملوك تصونه وكان الرشيد اشتراه بأربعين ألف دينار ونقش عليه اسمه أحمد ووضع ذلك الفص فى اصبعه فتحدث الناس بذلك وقد ذكر أن ذلك الفص قد تداولته الملوك من الاكاسرة وقد نقش فى قديم الزمان وذكر انه لم ينقشه ملك الامات قتيلا وكان الملك اذا مات وجلس تاليه فى الملك حك النقش فتداولته فى اللبس الملوك وهو غير منقوش فيقع النادر من الملوك فينقشه وكان ياقوتا أحمر يضئ بالليل كضياء المصباح اذا وضع فى بيت لا مصباح فيه اشرق ويرى فيه بالليل تماثيل تلوح وله خبر طويل ظريف قد ذكرناه فى كتابنا أخبار الزمان فى ذكر خواتم ملوك الفرس وقد كان هذا الفص ظهر فى أيام المقتدر ثم خفى أثره بعد ذلك. وقد كان جماعة من الشعراء قالوا فى المعتز حين استتم له الامر واستقامت له الخلافة وخلعها المستعين اقوالا كثيرة فمن ذلك قول مروان بن أبى الجنوب من قصيدة طويلة

ان الامور الى المعتز قد رجعت * والمستعين الى حالاته رجعا

قد كان يعلم أن الملك ليس له * وأنه لك لكن نفسه خدعا

وفى ذلك يقول رجل من أهل سامرا وقد قيل انه البحترى

لله در عصابة تركية * ردوا نوائب دهرهم بالسيف

قتلوا الخليفة أحمد بن محمد * وكسوا جميع الناس ثوب الخوف

وطغوا فاصبح ملكنا متقسما * واما منا فيه شبيه الضيف

وفى المعتز ورجوع الامر اليه واتفاق الكلمة عليه يقول أبو على البصير

آب أمر الاسلام خير مآب * وغدا الملك ثابتا فى نصابه

سـتقر اقراره مطمئنا * آه لابعد نايه واغترابه
فاحمد الله وحده والتمس بالـ * ـعفو عن عفا جزيل ثوابه

وكان على وزارة المعتز جعفر بن محمد ثم استوزر جماعة فكانت الكتب تخرج باسم صالح بن وصيف كأنه مرسوم بالوزارة وكانت وفاة أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر ابن محمد في خلافة المعتز بالله وذلك في يوم الاثنين لاربع بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائتين وهو ابن أربعين سنة وقيل ابن اثنتين وأربعين وقيل أكثر من ذلك وسمع في جنازته جارية تقول ماذا لقينا في يوم الاثنين قديما وحديثا وصلى عليه أحمد بن المتوكل على الله في شارع أبي أحمد في داره بسامرا ودفن هناك حدثنا أبو الازهر قال حدثني القاسم ابن عباد قال حدثني يحيى بن هرثمة قال وجهني المتوكل الى المدينة لاشخاص علي بن محمد ابن علي بن موسى بن جعفر لشئ بلغه عنه فلما صرت اليه ضج أهلها وعجوا ضجيجا وعجيجا ما سمعت مثله فجعلت اسكنهم واحلف لهم اني لم أومر فيه بمكروه وفتشت بيته فلم اجد فيه الا مصحفا ودعاء وما اشبه ذلك فاشخصته وتوليت خدمته وأحسنت عشرته فبينا أنا نائم يوما من الايام والسماء صاحية والشمس طالعة اذ ركب وعليه ممطر وقد عقب ذنب دابته فعجبت من فعله فلم يكن بعد ذلك الا هنيهة حتى جاءت سحابة فارخت عزاليها ونالنا من المطر أمر عظيم جدا فالتفت الي وقال أنا أعلم انك انكرت ما رأيت وتوهمت اني علمت من الامر ما لا تعلمه وليس ذلك كما ظننت ولكن نشأت بالبادية فانا اعرف الرياح التي يكون في عقبها المطر فلما اصبحت هبت ريح لا تخلف وشممت منها رائحة المطر فتاهبت لذلك فلما قدمت مدينة السلام بدأت باسحق بن ابراهيم الطاهري وكان على بغداد فقال يا يحيى ان هذا الرجل قد ولده رسول الله صلى الله عليه وسلم والمتوكل من تعلم وان حرضته على قتله كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خصمك فقلت والله ما وقفت له الا على كل أمر جميل فصرت الى سامرا فبدأت بوصيف التركي وكنت من أصحابه فقال والله لئن سقطت من رأس هذا الرجل شعرة لا يكون المطالب بها غيري فعجبت من قولهما وعرفت المتوكل ما وقفت عليه وما سمعته من الثناء عليه فأحسن جائزته وأظهر بره وتكرمته وحدثني محمد بن الفرج بمدينة جرجان في المحلة المعروفة بسراى غسان قال حدثني أبو دعامة قال أتيت علي بن محمد بن علي بن موسى عائدا في علته التي كانت وفاته منها في هذه السنة فلما هممت بالانصراف قال لي يا أبا دعامة قد وجب حقك أفلا احدثك بحديث تسر به قال فقلت له ما احوجني الى ذلك يا ابن رسول الله قال حدثني أبي محمد بن علي قال حدثني أبي علي بن موسى قال حدثني ابي موسى بن جعفر قال حدثني أبي جعفر بن محمد قال حدثني أبي محمد بن علي قال حدثني أبي علي بن الحسين قال حدثني أبي الحسين بن علي قال حدثني أبي علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب قال قلت وما اكتب قال لي اكتب بسم الله الرحمن الرحيم الايمان ما وقرته القلوب وصدقته الاعمال والاسلام ما جرى به اللسان وحلت به المناكحة قال أبو دعامة فقلت يا ابن رسول الله ما أدري والله أيهما أحسن الحديث أم الاسناد فقال انها لصحيفة

بخط على بن أبى طالب باملاء رسول الله صلى الله عليه وسلم تتوارثها اصاغرا عن كابر (قال المسعودى) وقد ذكرنا خبر على بن محمد بن موسى رضى الله عنه مع زينب الكذابة بحضرة المتوكل ونزوله الى بركة السباع وتذللها له ورجوع زينب عما ادعته من انها ابنة الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام وأن الله تعالى اطال عمرها الى ذلك الوقت فى كتابنا أخبار الزمان وقيل انه مات مسموما عليه السلام (قال المسعودى) وفى سنة ثلاث وخمسين ومائتين وذلك فى خلافة المعتز مات محمد بن عبد الله بن طاهر للنصف من ذى القعدة بعد قتل وصيف بثلاثة عشر يوما والقمر مكسوف وكان من الجود والكرم وغزارة الادب وكثرة الحفظ وحسن الاشارة وفصاحة اللسان وملوكية المجالسة على مالم يكن عليه احد من نظرائه وفيه يقول الحسن بن على بن طاهر من قصيدة له

كسف البدر والامير جميعا * فانجلى البدر والامير عميد

عاود البدر نوره انجلى * ونور الامير ليس يعود

ياكسوفين فى ليلة الاحد النحس * احلتكما هناك السعود

واحد كان حده مثل حد السيف * والنار شب فيها الوقود

(وذكر) أبو العباس المبرد قال ارتاح محمد بن عبد الله بن طاهر يوما للمنادمة وقد حضره ابن طالوت وكان وزيره واخص الناس به واحضرهم لخلواته فأقبل عليه وقال لابد لنا اليوم من ثالث تطيب لنا به المعاشرة وتلذ بنادمته المؤانسة فمن ترى أن يكون واعفنا أن يكون شرير الاخلاق أودنس الاعراق أوظاهر الاملاق قال فأعملت الفكر وقلت أيها الامير خطر ببالى رجل ليس علينا من مجالسته من مؤنة وقد برئ من ابرام المجالس وخلا من ثقل المؤانس خفيف الوطأة اذا احببت سريع الوثبة اذا أردت قال ومن ذلك قلت مانى الموسوس قال أحسنت والله فليتقدم الى أصحاب الثمانية والعشرين الرابع فى طلبه يرفعه رفعة فما كان بأسرع من أن اقتنصه صاحب الكرخ فصار به الى باب الامير فأخذ وحذف ونظف وأدخل الحمام وألبس ثيابا نظافا وأدخل عليه فقال السلام عليك أيها الامير فقال محمد وعليك السلام يا مانى أما آن لك أن تزورنا على حين توقان منا اليك ومنازعة قلوب منا نحوك فقال مانى الشوق شديد والحب عتيد والمزار بعيد والحجاب صعب والبواب فظ ولو سهل لنا فى الاذن لسهلت علينا الزيارة فقال الطف فى الاستئذان فليلطف لك فى الاذن لا يمنع مانى أى وقت ورد من ليل أونهار ثم اذن له فى الجلوس فجلس ودعا بالطعام فأكل ثم غسل يديه وأخذ مجلسه وكان محمد قد تشوق الى السماع من مؤنسة جارية بنت المهدى فأحضرت فكان أول ماغنت به

ولست بناس اذغدوا فتحملوا * دموعى على الاحباب من شدة الوجد

وقولى وقد زالت بليل حمولهم * بواكر نجد لايكن آخر العهد

فقال مانى أحسنت وبحق الامير الا مازدت فيه

وقمت أناجى الفكر والدمع حائر * بمقلة موقوف على الضر والجهد

ولم يعدنى هذا الامير بغيرة * على ظالم قد لج فى الهجر والصد

فاندفعت تغنيه فقال له محمد أعاشق أنت يا مانى فاستحى وغمزه ابن طالوت أن لا يبوح له بشئ فيسقط من عينيه فقال بلغ طرب وشوق كان كامنا فظهر وهل بعد الشيب صبوة ثم اقترح محمد على مؤنسة هذا الصوت

حجبوها عن الرياح لانى * قلت يا ريح بلغيها السلاما

لو رضوا بالحجاب هان ولكن * منعوها عن الرياح الكلاما

فغنته فطرب محمد ودعا برطل فشرب فقال مانى ما على قائل هذا الشعر لو زاد فيه

فتنفست ثم قلت لطيفى * آه ان زرت طيفها الماما

خصه بالسلام منى فأخشى * يمنعوها الشدوى أن تناما

لكان أثقب لزند الصبابة بين الاحشاء وأشد تغلغلا الى الكبد الصديا من زلال الماء مع حسن تأليف نظمه والانتهاء بالمعنى الى نهاية تمامه فقال محمد أحسنت يا مانى ثم أمر مؤنسة بالحاقهما بالبيتين الاولين والغناء بهما ففعلت ثم غنت بهذين البيتين

ياخليلى ساعة لاتريما * وعلى ذى صبابة فأقيما

ما مررنا بدار زينب الا * هتك الدمع سرنا المكتوما

فاستحسنه محمد فقال مانى لولا رهبة التعدى لاضفت الى هذين البيتين بيتين لا يردان على سمع ذى لب فيصدران الا عن استحسان لهما فقال محمد يا مانى الرغبة فى حسن ما تأتى به حائلة دون كل رهبة فهات ما عندك فقال

ظبية كالهلال لو تلحظ الصخر * بطرف لغادرته هشيما

واذا ما تبسمت خلت ايما * ض بروق او لؤلؤا منظوما

فقال أحسنت يا مانى فأجز هذا الشعر

لم تطب اللذات الا بمن * طابت بها اللذات مانوسه

غنت بصوت اطلقت عبرة * كانت بسجن الصبر محبوسه

فقال مانى

وكيف صبر النفس عن غادة * اظلمها ان قلت طاووسه

وجرت ان شبهتها بانة * فى جنة الفردوس مغروسه

وغير عدل ان عدلنا بها * جوهرة فى البحر مغموسه

ثم سكت فقال محمد ما عدا فى وصفه لها فقال مانى

جلت عن الوصف فما فكرة * تلحقها بالنعت محسوسه

فقال محمد أحسنت فقالت مؤنسة وجب شكرك يا مانى فساعدك دهرك وعطف عليك الفك وقارنك سرورك وفارقك محذورك والله يديم لنا ذلك ببقاء من به اجتمع شملنا فقال لها مانى عند قولها وعطف عليك الفك مجيبا

ليس لى الف فيعطفنى * فارقت نفسى الاباطيل

أنا موصول بنعمة من * حبله بالمجد موصول

أنا مغبوط بنعمة من * طبعه بالجد مأمول

فأومأ اليه ابن طالوت بالقيام فنهض وهو يقول

ملك قل النظير له * زانه الغر البهاليل
ظاهري في مواكبه * عرفه في الناس مبذول
دم من يشقى بصارمه * مع هبوب الريح مطلول
يا أبا العباس صن أدبا * حده بالدهر مفلول

فقال محمد وجب جزاؤك لشكرك على غير نعمة سبقت ثم أقبل على ابن طالوت فقال ابت خساسة المرء ولا اتضاع الدهر ولا نبو العين عن الظاهر بمذهب جوهرية الادب المركب في الانسان وما أخطأ صالح بن عبد القدوس حيث يقول

لا يعجبنك من يصون ثيابه * خوف الغبار وعرضه مبذول
فلربما افتقر الفتى فرأيته * دنس الثياب وعرضه مغسول

قال ابن طالوت فما رأيت احضر ذهنا منه اذ تقول الجارية عطف عليك الف وانشاده عند قولها ذلك

ليس لي الف فيعطفني * فارقت نفسي الاباطيل

قال فلم يزل محمد مجريا عليه رزقه حتى توفي * ونمي الى المعتز أن المؤيد يدبر عليه وأنه قد استمال جماعة من الموالي فحبس المؤيد وأبا أحمد وهما لاب وأم وطولب المؤيد بأن يخلع نفسه من ولاية العهد فضرب أربعين عصا الى أن أجاب واشهد على نفسه بذلك ثم اتصل بالمعتز أن جماعة من الاتراك اجتمع رأيهم على اخراج المؤيد من حبسه فلما كان يوم الخميس لثمان بقين من رجب سنة اثنتين وخمسين ومائتين أخرج المؤيد ميتا وأحضر القضاة والفقهاء حتى رأوه ولا اثر فيه فيقال انه أدرج في لحاف مسموم وشد طرفاه حتى مات فيه وضيق حبس أبي أحمد فكان بين دخوله سر من رأى وما لقي بها من الاكرام وبين حبسه ستة أشهر وثلاثة أيام ثم أشخص الى البصرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان بعد قتل المؤيد بخمسين يوما ورتب اسمعيل بن فتيحة وهو أخو المعتز لابيه وأمه مكان المؤيد في ولاية العهد واجتمع قواد الموالي الى المعتز فسألوه الرضا عن وصيف وبغا فأجابهم الى ذلك * وفي هذه السنة مات زرافة صاحب دار المتوكل بمصر * وقد كان يوسف بن اسمعيل العلوي غلب على مكة فمات في هذه السنة فخلفه بعد وفاته أخوه محمد بن يوسف وكان أسن منه بعشرين سنة فنال الناس في هذه السنة جهد شديد فبعث المعتز بابن الساج الاشروسني الى الحجاز فهرب محمد ابن يوسف وقتل خلق من أصحابه * وفيها أوقع الحسن بن زيد الحسيني بسليمان بن عبد الله بن طاهر فأخرجه عن طبرستان * وفي هذه السنة قدم الى سامرا عيسى ابن الشيخ الشيباني من مصر ومعه مال كثير وستة وسبعون رجلا من سائر ولد أبي طالب من ولد علي وجعفر وعقيل كانوا اخرجوا من الحجاز خوف الفتنة والجهد النازل بالحجاز الى مصر فحملوا منها فامر المعتز بكفايتهم والتخلية عنهم لما وقف عليه من أمرهم * وولى عيسى ابن الشيخ فلسطين * وفي هذه السنة وهي سنة ثلاث وخمسين ومائتين مات صفوان العقيلي صاحب ديار مصر في حبس سامرا * وفي هذه السنة قتل أهل كرخ سامرا من الفراعنة والاتراك وصيف التركي

وتخاص بغامنهم واشتد أمر شاور الشارى ورتب صالح بن وصيف فى موضع وصيف * وفى سنة أربع وخمسين ومائتين خرج بغا من سامرا الى ناحية الموصل فانتهبت اموال داره وانفض من كان معه من الجيش وانحدر فى زورق فوقع به بعض المغاربة بجسر سامرا فقتل ونصب رأسه بسامرا وهو بغا الصغير ثم أخذ الرأس الى مدينة السلام فنصب على الجسر وكان المعتز فى حياة بغا لا يلتذ بالنوم ولا يخلع سلاحه لا فى ليل ولا فى نهار خوفا من بغا وقال لا ازال على هذه الحالة حتى أعلم لبغا رأسى أو رأسه لى وكان يقول انى لاخاف أن ينزل على بغا من السماء أو يخرج على من الارض وقد كان بغا عزم على أن ينحدر سرا فيصل الى سامرا فى الليل ويصرف الاتراك عن المعتز ويفيض فيهم الاموال فكان من أمره ما وصفنا ولما رأى الاتراك من اقدام المعتز على قتل رؤسائهم واعماله الحيلة فى فنائهم وانه قد اصطنع المغاربة والفراعنة دونهم صاروا اليه باجمعهم وذلك لاربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وجعلوا يقرعونه بذنوبه ويوبخونه على أفعاله وطالبوه بالاموال وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قواد الاتراك فلج وانكر أن يكون قبله شئ من المال فلما حصل المعتز فى ايديهم بعث الى مدينة السلام فى محمد بن الواثق الملقب بالمهتدى وقد كان المعتز نفاه اليها واعتقله فيها فأتى به فى يوم وليلة الى سامرا فتلقاه الاولياء فى الطريق ودخل الى الجوسق وأجاب المعتز الى الخلع على أن يعطوه الامان أن لا يقتل وأن يؤمنوه على نفسه وماله وولده وأبى محمد بن الواثق أن يقعد على سرير الملك أو يقبل البيعة حتى يرى المعتز ويسمع كلامه فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل فلما رآه محمد بن الواثق وثب اليه فعانقه وجلسا جميعا على السرير فقال له محمد بن الواثق يا أخى ما هذا الامر قال المعتز أمر لا اطيقه ولا اقوم به ولا اصلح له فاراد المهتدى أن يتوسط أمره ويصلح الحال بينه وبين الاتراك فقال المعتز لا حاجة لى فيها ولا يرضونى لها قال المهتدى فانا فى حل من بيعتك قال انت فى حل وسعة فلما جعله فى حل من بيعته حول وجهه عنه فأقيم عن حضرته ورد الى محبسه فقتل فى محبسه بعد أن خلع بستة أيام على ما قدمنا فى صدر هذا الباب * وقد قالت الشعراء فى خلع المعتز وقتله فاكثرت ورثته فأحسنت فمن ذلك قول بعض أهل ذلك العصر من قصيدة له

عين لا تبخلى بسفح الدموع * واندبى خير فاجع مفجوع
خانه الناصح السفيه ونالته * أكف الردى بحتف سريع
بكر الترك ناقمين عليه * لخلعه افديه من مخلوع
قتلوه ظلما وجورا فألفو * ه كريم الاخلاق غير جزوع
كان يغشى بحسنه بهجة البد * ر فتلقاه مظهر الخضوع
وترى الشمس تستكين فلا تشر * ق اذا رأته وقت الطلوع
لم يهابوا جيشا ولا رهبوا السيـ * ـف فلهفى على القتيل الخليع
أصبح الترك مالكى الامر والعا * لم ما بين سامع ومطيع
وترى الله فيهم مالك الامـ * ـر سيجزيهم بقتل ذريع

وقال

وقال فيه آخر من قصيدة طويلة

أصبحت مقلتي بدمع سفوحا * حين قالوا أضحى الامام ذبيحا
قتلوه ظلما وجورا وغدرا * حين أهدوا اليه حتفا مريحا
نضر الله ذلك الوجه وجها * وسقى الله ذلك الروح روحا
أيها الترك سوف تلقون للدهـ * ـر سيوفا لا تستبيل الجريحا
فاستعدوا للسيف عاقبة الامـ * ـر فقد جئتم فعالا قبيحا

وقال آخر من قصيدة طويلة أيضا

أصبحت مقلتي تسح الدموعا * اذ رأت سيد الانام خليعا
لهف نفسي عليه ما كان املا * وأسراه تابعا متبوعا
الزموه ذنبا على غير جرم * فثوى فيهم قتيلا صريعا
وبنو عمه وعم أبيه * اظهروا ذلة وابدوا خضوعا
ما بهذا يصح ملك ولا يغـ * ـزى عدو ولا يكون جميعا

وكان المعتز أول خليفة اظهر الركوب بحلية الذهب وكان من سلف قبله من خلفاء بني العباس وكذلك جماعة من بني امية يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة والمناطق واتخاذ السيوف والسروج واللجم فلما ركب المعتز بحلية الذهب اتبعه الناس في فعل ذلك * وكذلك المستعين قبله أحدث لبس الاكمام الواسعة ولم يكن يعهد ذلك فجعل عرضها ثلاثة اشبار ونحو ذلك وصغر القلانس وكانت قبل ذلك طوالا كأقباع القضاة * وفي سنة خمس وخمسين ومائتين ظهر بالكوفة علي بن زيد وعيسى بن جعفر العلوي فسرح اليهما المعتز سعيد بن صالح المعروف بالحاجب في جيش عظيم فانهزم الطالبيان لتفرق أصحابهما عنهما * وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب وفاة اسمعيل بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وما ناله أهل المدينة وغيرهم من أهل الحجاز في أيامه من الجهد والضيق وما كان من أمر أخيه بعد وفاته محمد بن يوسف مع أبي الساج وحربه اياه ولما انكشف من بين يدي أبي الساج سار الى اليمامة والبحرين فغلب عليها وخلفه بها عقبه المعروف ببني الاخيضر الى اليوم وقد كان ظهر بناحية المدينة بعد ذلك ابن لموسى بن عبد الله بن موسى بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (قال المسعودي) وقد ذكرنا في كتابنا أخبار الزمان سائر أخبار من ظهر من آل أبي طالب ومن مات منهم في الحبس وبالسم وغير ذلك من أنواع القتل منهم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب وهو أبو هاشم سقاه عبد الملك بن مروان السم ومحمد بن أحمد بن عيسى ابن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حمله سعيد الحاجب من البصرة فحبس حتى مات وكان معه ابنه علي فلما مات الاب خلي عنه وذلك في أيام المستعين وقيل غير ذلك وجعفر بن اسمعيل بن موسى بن جعفر قتله ابن الاغلب بأرض المغرب والحسن بن يوسف بن ابراهيم بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب قتله العباس بمكة وحمل في أيام المعتز من الري علي بن موسى بن اسمعيل بن موسى بن جعفر بن محمد ومات في

حبسه * وحمل سعيد الحاجب من المدينة موسى بن عبد الله بن موسى بن الحسن بن علي
ابن أبي طالب وكان من النسك والزهد في نهاية الوصف وكان معه ادريس بن موسى
فلما صار سعيد بناحية زبالة من جادة الطريق اجتمع خلق من العرب من بني فزارة وغيرهم
لاخذ موسى من يده فسمه فمات هنالك وخلصت بنو فزارة ابنه ادريس بن موسى * وفي
خلافة المعتز في سنة اثنتين وخمسين ومائتين كان بدو الفتنة بين الملالية والسعدية بالبصرة
وما نتج من ذلك من ظهور صاحب الزنج * وللمعتز أخبار حسان غير ما ذكرنا قد أتينا على
مبسوطها في كتابنا أخبار الزمان والأوسط وبالله التوفيق

* (ذكر خلافة المهتدي بالله) *

وبويع المهتدي محمد بن هرون الواثق قبل الظهر من يوم الاربعاء لليلة بقيت من رجب سنة
خمس وخمسين ومائتين وامه أم ولد رومية يقال لها قرب ويكنى بأبي عبد الله وله يومئذ تسع
وثلاثون سنة وقيل تسع وثلاثون سنة وانه قتل ولم يستكمل الاربعين سنة في سنة ست
وخمسين ومائتين فكانت ولايته أحد عشر شهرا ودفن بسامرا وقيل ان مولده كان في سنة
ثماني عشرة ومائتين

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه)

واستوزر المهتدي بالله جماعة على قصر مدته فسلوا امنه من قتل وغيره منهم عيسى بن
فرخانشاه وبنى المهتدي قبة لها أربعة ابواب وسماها قبة المظالم وجلس فيها للعام والخاص
للمظالم وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرم الشراب ونهى عن القيان وأظهر العدل
وكان يحضر كل جمعة الى المسجد الجامع ويخطب الناس ويؤمهم فثقلت وطأته على العامة
والخاصة بحمله اياهم على الطريق الواضحة فاستطالوا خلافته وسئموا أيامه وعملوا الحيلة
عليه حتى قتلوه وذلك أن موسى بن بغا الكبير كان عاملا غائبا بالري مشتغلا بحرب آل
أبي طالب كالحسن بن زيد الحسني وما كان من الديلم ببلاد قزوين ودخولهم اياها عنوة
وقتلهم اهلها فلما نمى الى موسى بن بغا قتل المعتز وما كان من أمر صالح بن وصيف والاتراك
في ذلك قفل من تلك الديار متوجها الى سامرا منكرا لما جرى على المعتز وقد قدمنا فيما سلف
من هذا الكتاب في أخبار المعتز قتل المعتز مجملا ولم نبين كيفية قتله وتنازع الناس في ذلك
مفصلا ورأيت أصحاب السير والتواريخ وذوي العناية بأخبار الدول قد تباينوا في مقتله
فنهم من ذكر أن المعتز مات في حبسه في خلافة المهتدي بالله على ما قدمنا من التاريخ
حتف أنفه ومنهم من ذكر أنه منع في حبسه من الطعام والشراب فمات عند قطع مواد
الغذاء عنه من المأكل والمشرب ومنهم من رأى أنه حقن بالماء الحار المغلي فمن أجل ذلك
حين أخرج الى الناس وجدوا جوفه وارما والاشهر في الاخبار بين من عنى بأخبار
العباسيين أنه أدخل حماما واكره في دخوله اياه وكان الحمام محميا ومنع الخروج منه ثم
تنازع هؤلاء فنهم من قال انه ترك في الحمام حتى فاضت نفسه ومنهم من ذكر أنه أخرج
بعد أن كادت نفسه تتلف للحمى ثم اسقي شربة ماء مقراة بثلج فنثرت الكبد وغيره فخمد من
فوره وذلك ليومين خلوا من شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين وقد أتينا على مبسوط هذه

الاخبار

الاخبار فى كتابنا أخبار الزمان ولما اتصل بالمهتدى مسير موسى بن بغا الى دار الخلافة أنكر ذلك وكاتبه بالمقام فى موضعه وأن لا يحل عن مركزه للحاجة اليه فأبى موسى بن بغا الا اعداد المسير والسرعة فيه حتى وافى سامرا وذلك فى سنة ست وخمسين ومائتين وصالح ابن وصيف يدبر الامر مع المهتدى فلما دنا موسى من سامرا صاحت العامة فى مواضعها والغوغاء فى طرقاتها يا فرعون قد جاء موسى وكان صالح بن وصيف قد نفر عن المهتدى حين علم بموافاة موسى وقال ان المهتدى راسل موسى فى السر فى المسير الى سامرا والشخوص اليها وكاتبه فى ظاهر الامر وراسله أن لا يقدم وكان رجل من قواد الاتراك يقال له بايكبال قد غلب على الامر أيضا وترأس فدخل موسى سامرا حتى انتهى الى مجلس المهتدى وهو جالس للمظالم والدار غاصة بخواص الناس وعوامهم فشرع أصحاب موسى فدخلوا الدار وجعلوا يخرجون العامة منها بأشد ما يكون من الضرب بالدبابيس والطبرزينات والعسف فضجت العامة فقام المهتدى منكرا عليهم فعلهم بمن فى الدار فلم يرجعوا عما هم عليه فنحى مغضبا فقدم اليه فرس وقد استشعر منهم الغدر فمضى به الى دار ماروج وقد كان موسى بن بغا انصرف عن دار المهتدى لما نظر الى ضجة العامة فيها فنزل تلك الدار فسير بالمهتدى اليها فأقام فيها ثلاثا عند موسى بن بغا وكان فيه ديانة وتقشف حتى ان الجند تأسوا به ولم يكن يشرب النبيذ وكان المهتدى فى أخلاقه شراسة فنافر موسى وكاد الامر أن ينفرج والحال أن يتسع غير أن موسى تعطف عليه وأعملا الحيلة فى قتل صالح بن وصيف وخاف موسى أن يكون صالح بن وصيف يعمل الحيلة عليهم فى حال اختفائه فبث فى طلبه العيون حتى وقع عليه فقاتل ومانع عن نفسه فقتل واحتز رأسه وأتى به الى موسى بن بغا ومنهم من رأى أنه أحمى له حمام وأدخل اليه فمات على حسب ما فعل بالمعتز وقوى أمر شاور الشارى ودنا فى عسكره من سامرا وعم الناس بالاذى وانقطعت السابلة وظهرت الاعراب فأخرج المهتدى بالله موسى بن بغا وبايكبال الى حرب الشارى وخرج معهما فشيعهما ثم قفلا من غير أن يلقيا شراة فلما استشعر المهتدى رجوعهما خرج فعسكر بجسر سامرا فى جمع من المغاربة والفراعنة وغيرهم من الرسوم ليحارب بايكبال فانصرف موسى على ظهر سامرا متحرجا لقتال المهتدى فكانت بين المهتدى وبين بايكبال حرب عظيم قتل فيها خلق كثير من الناس وانكشف بايكبال واستظهر المهتدى عليه فخرج كمين بايكبال على المهتدى وفيه ماروج التركى فولى المهتدى وأصحابه ودخل سامرا مستغيثا بالعامة مستنصرا بالناس يصيح فى الاسواق فلا مغيث وقدامه اناس من الانصار فمضى مؤيسا من النصر الى دار ابن خيعونة بسامرا ليختفى فهجموا عليه وعزلوه وحملوه منها الى دار ماروج وقيل له أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها فقال أريد أن أحملهم على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيته والخلفاء الراشدين فقيل له الرسول صلى الله عليه وسلم كان مع قوم قد زهدوا فى الدنيا ورغبوا فى الآخرة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم وأنت انما رجالك تركى وخزرى ومغربى وغير ذلك من أنواع الاعاجم لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم وانما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا فكيف

تحملهم على ماذكرت من الواضحة فكثر منهم ومنه الكلام والمراجعة فى هذا المعنى واشباهه ثم انقادوا اليه على حسب ماظهر للناس من ذلك فلما كاد الامر أن يتم قام فيهم سليمان بن وهب الكاتب وقيل غيره وقال هذا اسوء رأى منكم وخطأ فى تدبيركم ان أعطاكم بلسانه فنيته فيكم غير هذا قال وسيأتى عليكم جميعا ويفرق جمعكم فلما سمعوا هذا القول استرجعوا وجاؤه بالخناجر فكان أول من جرحه ابن عم لبايكبال جرحه بخنجر فى أوداجه وانكب عليه فالتقم الجرح والدم يفور منه وأقبل يمص الدم حتى روى منه والتركى سكران فلما روى من دم المهتدى قام قائما وقد مات المهتدى فقال يا أصحابنا قد رويت من دم المهتدى كما رويت فى هذا اليوم من الخمر وقد تنوزع فيما ذكرنا من قتل المهتدى والاشهر ماذكرناه من قتله بالخناجر ومنهم من رأى أنه عصرت مذاكيره حتى مات ومنهم من رأى انه جعل بين لوحين عظيمين وشد بالحبال الى أن مات وقيل خنقا وقيل كبس عليه بالبسط والوسائد حتى مات فلما مات داروا به ينوحون ويبكون عليه وندموا على ما كان منهم من قتله لما تبينوا من نسكه وزهده وقيل ان ذلك كان يوم الثلاثاء لاربع عشرة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وكان موسى بن بغا ومارجوج التركى غير داخلين فى فعل الاتراك وكان حنق الاتراك على المهتدى بسبب قتله بايكبال وذلك أن بايكبال وقع بيد المهتدى فضرب عنقه ورمى به الى أصحابه ومنهم من رأى انه قتل فى الحرب المتقدم ذكرها فى الموضع المعروف بجسر سامرا وقد كان المهتدى لما أفضت الخلافة اليه أخرج أحمد ابن اسرائيل الكاتب وأبانوح الكاتب الى باب العامة بسامرا يوم الخميس لثلاث خلون من شهر رمضان فضرب كل واحد منهما خمسمائة سوط فماتا وذلك لامور كانت منهما استحقا عند المهتدى فيما يجب فى حكم الشريعة أن يفعل بهما ذلك وقتل المهتدى وله من الولد سبعة عشر ذكرا وست بنات وقد كان المهتدى ولى أحمد بن المدبر خراج فلسطين وكانت له معه أخبار قد أتينا على جميعها فيما سلف من كتبنا وأخبار ابن المدبر لما وصل الى فلسطين وما حمل الى سامرا وقيل ان المعتز بالله كان أخرجه الى الشام ولاحمد بن المدبر أخبار حسان ولابراهيم بن المدبر أخيه مع صاحب الزنج أخبار حين أسره (قال المسعودى) فمن أخبار أحمد بن المدبر المستحسنة عادتها الناس فى أخبار الطفيليين أن أحمد كان قليل الجلوس للمنادمة وكان له سبعة ندماء لا يأنس بغيرهم ولا ينبسط الى سواهم قد اصطفاهم لعشرته وأخذهم لمنادمته كل رجل منهم قد انفرد بنوع من العلم لا يساويه فيه غيره وكان طفيلى يعرف بابن دراج من أكمل الناس أدبا وأخفهم روحا فترتا فى زى ندمائه ودخل فى جملتهم وظن حاجبه أن ذلك بعلم من صاحبه ومعرفة من أولئك الندماء ولم ينكر شيأ من حاله وخرج أحمد بن المدبر فنظر اليه بين القوم فقال لحاجبه اذهب الى ذلك الرجل فقل له ألك حاجة فسقط فى يد الحاجب وعلم أن الحيلة قد تمت عليه وأن ابن المدبر لا يرضى فى عقوبته الا بقتله فرجع وهو يجر برجليه فقال له الاستاذ يقول لك ألك حاجة فقال قل له لا فقال له ارجع اليه فقل له ما جلوسك فقال الساعة جلسنا بابغض فقال

ارجع اليه فقيل له أى شئ أنت فقال قل له طفيلى يرحمك الله فقال له ابن المدبر أنت طفيلى
قال نعم أعزك الله قال ان الطفيلى يحتمل على دخوله بيوت الناس وافساده عليهم
ما يريدونه من الخلوة بندمائهم والخوض فى أسرارهم لخصال منها أن يكون لاعبا بالشطرنج
أو بالنرد أو ضاربا بالعود والطنبور فقال ابدك الله أنا أحسن هذه الاشياء كلها قال
وفى أى وظيفة أنت منها قال فى العليا من جميعها قال لبعض ندمائه لاعبه بالشطرنج فقال
الطفيلى أصلح الله الاستاذ فان قمرت قال أخرجناك من ديارنا قال فان قمرت قال اعطيناك
ألف درهم قال فان رأيت ابدك الله أن تحضر الالف درهم فان فى حضورها قوة للنفس
والايقان بالظفر فأحضرت فلعبا فغلب الطفيلى ومد يده ليأخذ الدراهم فقال الحاجب
ليبنى عن نفسه بعض ما وقع فيه أعز الله الاستاذ انه زعم أنه فى الطبقة العليا وابن فلان
غلام لك يغلبه فأحضر الغلام فغلب الطفيلى فقال له انصرف فقال أحضروا النرد فأحضرت
فلوعب فغلب فقال الحاجب ولا هذا يا سيدى فى الطبقة العليا من النرد ولكن بوابنا
فلان يغلبه فأحضر البواب فغلب الطفيلى فقال له اخرج فقال يا سيدى فالعود فأتى بالعود
فضرب فأصاب وغنى فأطرب فقال الحاجب يا سيدى فى جوارنا شيخ هاشمى يعلم القيان
أحذق منه فأحضر الشيخ فكان أطرب منه فقال له اخرج فقال فالطنبور فأعطى طنبورا
فضرب ضربا لم ير الناس أحسن منه وغنى غناء فى النهاية فقال الحاجب أعز الله الاستاذ فلان
المحتكر فى جوارنا أحذق منه فأحضر المحتكر فكان أحذق منه وأطيب فقال له ابن المدبر
قد تقصيناك بكل جهد فأبت حرفتك الا طردك عن منزلنا فقال يا سيدى بقيت معى بابة
حسنة قال ماهى قال تأمر لى بقوس بندق مع خمسين بندقة رصاص ويقام هذا الحاجب
على أربع وأرميه فى دبره فان أخطأت بواحدة منهن ضربت رقبتى فضج الحاجب من
ذلك ووجد ابن المدبر فى ذلك شفاء لنفسه وعقوبة ومكافأة له على ما فرط منه فى ادخال
الطفيلى الى مجلسه فأمر بآكافين فأحضرا وجعل أحدهما فوق الآخر وشد الحاجب فوقهما
وأمر بالقوس والبندق فدفع الى الطفيلى فرمى به فما أخطأه وخلى عن الحاجب وهو
يتأوه لما به فقال له الطفيلى أعلى باب الاستاذ من يحسن مثل هذا فقال يا قرنان ما دام
البرجاس استى فلا * وللطفيليين أخبار حسان مثل خبر ساسان الطفيلى مع المتوكل فى
اللوزنيج وما يبدأ من العدد من الواحد الى ما فوقه من القران ولغيره منهم ما قد أتينا على
ذكره فى كتابنا أخبار الزمان والاوسط على الشرح والتمام والكمال وانما نورد فى هذا الكتاب
لمعا مما لم يتقدم له ذكر فيما سلف من كتبنا فى هذا المعنى * وقد كان المهتدى بالله ذهب فى أميره
الى القصد والدين فقرب العلماء ورفع من منازل الفقهاء وعمهم بيره وكان يقول يا بنى هاشم
دعونى حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز فأكون فيكم مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى
أمية وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب وأمر باخراج آنية الذهب والفضة من
الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم وعمد الى الصور التى كانت فى المجالس فمحيت وذبح
الكباش التى كان ينالطح بها بين يدى الخلفاء والديوك وقتل السباع المحبوسة ورفع بسط
الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة باباحته وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها فى كل يوم

عشرة آلاف درهم فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤنته فى كل يوم نحو مائة درهم وكان يواصل الصيام وقيل انه لما قتل أخرج رحل من الموضع الذى كان يأوى اليه فأصيب له سفط مقفل فتوهموا أن فيه مالا أو جوهرا فلما فتح وجد فيه جبة صوف وغل وقيل جبة شعر فسألوا من كان يخدمه فقال كان اذا جن الليل لبسها وغل نفسه وكان يركع ويسجد الى أن يدركه الصباح وانه كان ينام من الليل ساعة من بعد العشاء الآخرة ثم يقوم وانه سمعه بعض من كان يأنس اليه قبل أن يقتل وقد صلى المغرب وقد نام من افطاره وهو يقول اللهم انه قد صح عن نبيك محمد صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة لا تحجب لهم دعوة عن الله دعوة الامام العادل وقد أجهدت نفسى فى العدل على رعيتى ودعوة المظلوم وأنا مظلوم ودعوة الصائم حتى يفطر وأنا صائم وجعل يدعو عليهم وأن يكفى شرهم (وذكر صالح) ابن على الهاشمى قال حضرت يوما من الايام جلوس المهتدى للمظالم فرأيت من سهولة الوصول اليه ونفوذ الكتب عنه الى النواحى فيما يتظلم به اليه ما استحسنته فأقبلت أرمقه ببصرى اذ نظر فى القصص فاذا رفع طرفه الى أطرقت فكأنه علم ما فى نفسى فقال يا صالح أحسب أن فى نفسك شيئا تحب أن تذكره قلت نعم يا أمير المؤمنين فأمسك فلما فرغ من جلوسه أمرنى أن لا أبرح ونهض فجلست جلوسا طويلا ثم دعانى فدخلت اليه وهو على حصير الصلاة فقال لى يا صالح أتحدثنى بما فى نفسك أو أحدثك به قلت بل هو من أمير المؤمنين أحسن فقال كأنى بك قد استحسنت ما رأيت من مجلسنا فقلت أى خليفة ان لم يكن يقول بخلق القرآن فقلت نعم فقال قد كنت على ذلك برهة من الدهر حتى أقدم على الواثق شيخ من أهل الفقه والحديث من أهل أذنة من الثغر الشامى مقيد طوال حسن الهيئة فسلم عليه غير هائب ودعا فأوجز فرأيت الحياء منه فى حماليق عين الواثق والرحمة له فقال له يا شيخ أجب أبا عبد الله أحمد بن أبى دواد فيما يسألك عنه فقال يا أمير المؤمنين أحمد يقل ويضعف عن المناظرة فرأيت الواثق قد صار فى مكان الرقة والرحمة له غضبا فقال له أبو عبد الله يضعف عن المناظرة فقال له هون عليك يا أمير المؤمنين أتأذن فى كلامه فقال له الواثق قد أذنت لك فأقبل الشيخ على أحمد فقال له يا أحمد الى ماذا دعوت الناس اليه فقال الى القول بخلق القرآن فقال الشيخ مقالتك هذه التى دعوت الناس اليها من القول بخلق القرآن داخلة فى الدين فلا يكون الدين تاما الا بالقول بها قال نعم قال الشيخ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس اليها أو تركهم قال تركهم قال فعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لم يعلمها قال علمها قال فلم دعوت الناس الى ما لم يدعهم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركهم منه فأمسك أحمد فقال الشيخ يا أمير المؤمنين هذه واحدة ثم قال له بعد ساعة يا أحمد قال الله فى كتابه العزيز اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا فقلت أنت لا يكون الدين تاما الا بمقالتكم بخلق القرآن فالله أصدق فى اكماله وتمامه أو أنت فى نقصانك فأمسك فقال الشيخ يا أمير المؤمنين وهذه ثانية ثم قال له بعد ساعة أخبرنى يا أحمد عن قول الله عز وجل فى كتابه يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك الآية فقالتك

هذه التى دعوت الناس اليها مما بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم للائمة أم لا فأمسك فقال الشيخ يا أمير المؤمنين وهذه ثالثة ثم قال بعد ساعة أخبرنى يا أحمد ما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقالتك هذه التى دعوت الناس اليها والى القول بها من خلق القرآن أوسعه أن أمسك عنهم أم لا قال أحمد بل اتسع له ذلك فقال وكذلك لابى بكر وعمر وكذلك لعثمان وكذلك لعلى رضى الله عنهم قال نعم فصرف وجهه الى الواثق وقال يا أمير المؤمنين اذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولاصحابه فلا وسع الله علينا فقال الواثق نعم لا وسع الله علينا ان لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولاصحابه ثم قال الواثق اقطعوا قيده فلما فكوا قيده جاذب عليه فقال الواثق دعوه ثم قال للشيخ لم جاذبت عليه قال لانى عقدت فى نيتى أن أجاذب عليه فاذا أخذته أوصيت أن يجعل بين كفنى وبدنى حتى أقول يا رب سل عبدك هذا لم قيدنى ظلما وأراع فى أهلى فبكى الواثق وبكى الشيخ وكل من حضر ثم قال له الواثق يا شيخ اجعلنى فى حل فقال يا أمير المؤمنين ما خرجت من منزلى حتى جعلتك فى حل اعظاما لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقرابتك منه فتهلل وجه الواثق وسر ثم قال له أقم عندى آنس بك فقال مكانى فى ذلك الثغر أنفع أنا شيخ كبير ولى حاجة قال سل ما بدالك قال يأذن أمير المؤمنين لى فى الرجوع الى الموضع الذى أخرجنى منه هذا الظالم قال قد أذنت لك وأمر له بجائزة فلم يقبلها فرجعت من ذلك الوقت وأحسب أن الواثق رجع عنها * قال وعرض على المهتدى يوما دفاتر خزائن الكتب فاذا على ظهر كتاب منها هذه الابيات قالها المعتز بالله وكتبها بخطه وهى

انى عرفت علاج الطب من وجعى *	وما عرفت علاج الحب والخدع
جزعت للحب والحمى صبرت لها *	انى لاعجب من صبرى ومن جزعى
من كان يشغله عن الفه وجع *	فليس يشغلنى عن حبكم وجعى
وما أمل حبيبى ليتنى أبدا *	مع الحبيب ويا ليت الحبيب معى

فقطب وجه المهتدى بالله وقال حدث وسلطان الشباب وكان المهتدى كثيرا ما ينشد البيت الاول من هذا الشعر * وكان محمد بن على الربعى ممن يكثر ملازمة المهتدى فقال لى ذات ليلة أتعرف خبر نوف الذى حكاه عن على بن أبى طالب حين كان يأتيه قلت نعم يا أمير المؤمنين ذكر نوف قال رأيت عليا رضى الله عنه قد أكثر الخروج والدخول والنظر الى السماء ثم قال لى يا نوف أنائم أنت قال قلت بل رامق أرمق بعينى منذ الليلة يا أمير المؤمنين فقال لى يا نوف طوبى للزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة أولئك قوم اتخذوا أرض الله بساطا وترابها ثيابا وماءها طيبا والكتاب شعارا والدعاء دثارا ثم قرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام يا نوف ان الله تعالى أوحى الى عبده عيسى عليه السلام أن قل لبنى اسرائيل أن لا يدخلوا الى الا بقلوب وجلة وأبصار خاشعة وأكف نقية واعلم انى لا أجيب لاحد منهم دعوة ولا لاحد من خلقى قبلهم مظلمة قال محمد بن على الربعى فوالله لقد كتب المهتدى هذا الخبر بخطه ولقد كنت أسمعه فى جوف الليل وقد خلا بربه فى بيت كان لخلوته وهو يبكى ويقول يا نوف طوبى للزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة ويمر فى الخبر الخ الى أن

كان من امره وما كان مع الاتراك وقتلهم اياه * قال محمد بن على قلت للمهتدى ذات يوم وقد خلوت به وقد أكثر نامن ذكر آفات الدنيا ومن رغب فيها ومن انحرف عنها يا امير المؤمنين ما للانسان العاقل المميز مع علمه بجميع آفات الدنيا وسرعة انتقالها وزوالها وغرورها لطلابها يحبها ويأنس اليها قال المهتدى حق ذلك له منها خلق فهى أمه وفيها انشأ فهى عيشه ومنها اقتدر رزقه فهى حياته وفيها يعاد فهى كفاته وفيها اكتسب الجنة فهى مبدأ سعادته والدنيا ممر الصالحين الى الجنة فكيف لا يحب طريقا تأخذ بسالكها الى الجنة فيها نعيم مقيم خالدا ان كان من أهلها وقيل ان هذا الكلام فى جواب على بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجاب به شاذ لا سأله عن ذلك وهو ماخوذ من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه حين مدح الدنيا وذم الذام لها على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب من باب ذكر زهده واخباره (قال المسعودى) وكان خروج صاحب الزنج بالبصرة فى خلافة المهتدى وذلك فى سنة خمس وخمسين ومائتين وكان يزعم انه على بن أحمد ابن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب واكثر الناس يقول انه دعى آل ابى طالب وكان من اهل قرية من أعمال الرى يقال لها ورزنين وظهر من فعله ما دل على تصديق ما رمى به انه كان يرى رأى الازارقة من الخوارج لان افعاله فى قتل النساء والاطفال وغيرهم من الشيخ الفانى وغيره ممن لا يستحق القتل يشهد بذلك عليه وله خطبة يقول فى أولها الله أكبر الله أكبر لا اله الا الله والله أكبر الا لا حكم الا لله وكان يرى الذنوب كلها شركا وكان أنصاره الزنج وكان ظهوره ببرغيل بين مدينة الفتح وكرخ البصرة فى ليلة الخميس لثلاث بقين من شهر رمضان سنة خمس وخمسين وقيل ليلة السبت لليلتين خلتا من صفر سنة سبعين ومائتين وذلك فى خلافة المعتمد على الله وقد صنف الناس فى أخباره وحروبه وما كان من أمره كتبا كثيرة وكان اول من صنف أخباره وما كان من بدو امره ووقوعه الى بلاد البحرين وما كان من خبره مع الاعراب محمد بن الحسن بن سهل بن اخى ذى الرياستين الفضل بن سهل صاحب المامون وهو الرجل الذى كان من امره مع المعتضد بالله ما قد ذكرناه واشتهر قبل ذلك فى الناس وما كان من امره الى أن جعله كدجاج على النار وجلده ينتفخ ويتفرقع * وقد ذكر الناس صاحب الزنج فى أخبار المبيضة وكتبهم وقد أتينا على جميع خبره وبدو خبر البلالية والسعدية بالبصرة فى الكتاب الاوسط فأغنى ذلك عن اعادته وانما أوردنا فى هذا الكتاب فى الموضع المستحق له لمعا من ذكره وما كان من امره فى مقتله (قال المسعودى) وفى هذه السنة سنة خمس وخمسين ومائتين وقيل سنة ست وخمسين ومائتين كانت وفاة عمرو بن بحر الجاحظ بالبصرة فى المحرم ولا يعلم احد من الرواة واهل العلم اكثر كتبا منه مع قوله بالعثمانية وقد كان ابو الحسن المدائنى كثير الكتب الا أن ابا الحسن المدائنى كان يؤدى ما سمع وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلو صدأ الاذهان وتكشف واضح البرهان لانه نظمها احسن نظم ووصفها احسن وصف وكساها من كلامه اجزل لفظ وكان اذا تخوف ملل القارى وسآمة السامع خرج من جد الى هزل ومن حكمة بليغة الى نادرة ظريفة وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين وهو اشرفها لانه جمع فيه

بين

بين المنثور والمنظوم وغرر الاشعار ومستحسن الاخبار وبليغ الخطب مالو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين والبخلاء وسائر كتبه فى نهاية الكمال مالم يقصد منها الى نصب ولا الى دفع حق ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه وكان غلام ابراهيم بن سيار النظام وعنه أخذ ومنه تعلم (وحدث يموت بن المزرع) وكان الجاحظ خاله قال دخل الى خالى أناس من البصرة من أصدقائه فى العلة التى مات فيها فسألوه عن حاله فقال عليل من مكانين من الاسقام والدين ثم قال أنا فى هذه العلة المتناقضة التى يتخوف من بعضها التلف وأعظمها نيف وسبعون سنة يعنى عمره قال يموت بن المزرع وكان يطلى نصفه الايمن بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الآخر لو قرض بالمقاريض ماشعر به من خدره وبرده قال ابن المزرع وسمعته يقول رأيت رجلا يروح ويغدو فى حوائج الناس فقلت له قد أتعبت بذلك بدنك وأخلقت ثيابك وأعجفت برذونك وقتلت غلامك فمالك راحة ولا قرار فلو اقتصدت بعض الاقتصاد قال سمعت تغريد الاطيار فاطربت طربى لنغمة شاكر أوليته معروفا أو سعيت له فى حاجة وكان يموت لا يعود مريضا خوفا من أن يتطير باسمه وله أخبار حسان وأشعار جياد وقد كان سكن طبرية من بلاد الاردن من الشام فمات بها وذلك بعد الثلثمائة وكان من أهل العلم والنظر والمعرفة والجدل وله ولد يقال له مهلهل بن يموت بن المزرع وهو شاعر مجيد من شعراء هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وفيه يقول أبوه يموت بن المزرع

مهلهل قد حلبت شطور دهر * فكادت بى الزمن العنوت
وجاريت الرجال بكل ربع * فخادعت الحبالة والذموت
فأوجع ما أجن عليه قلبى * كريم عضه زمن عنوت
كفى حزنا بغيبة ذى وداع * وابقاء العميد لها النحوت
وقد أسهرت عينى بعد غمض * مخافة أن يضيع اذا فنيت
وفى لطف المهيمن لى عزاء * بمثلك ان فنيت وان بقيت
وان يشتد عظمك بعد موتى * فلا تقطعك جائحة سبوت
وقل بالعلم كان أبى جوادا * يقال ومن أبوك فقل يموت
تقر لك الاباعد والادانى * بعلم ليس يجحده البهوت

وللمهتدى أخبار حسان قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا والله ولى التوفيق

(ذكر خلافة المعتمد على الله)

وبويع المعتمد أحمد بن جعفر المتوكل يوم الثلاثاء لاربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وهو ابن خمس وعشرين سنة ويكنى أبا العباس وأمه أم ولد كوفية يقال لها فتيان ومات فى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وهو ابن ثمان وأربعين سنة فكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان فى أيامه)

ولما أفضت الخلافة الى المعتمد على الله استوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان ثم استوزر الحسن ابن مخلد ثم صارت الوزارة الى سليمان بن وهب ثم صارت الى صاعد وخلع المعتمد على أخيه أبى

أحمد الموفق وعلى مفلح يوم الخميس مستهل ربيع الاول سنة ثمان وخمسين ومائتين وأشخصهما
الى البصرة لمحاربة صاحب الزنج فأوقع مفلح التركى بصاحب الزنج يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة
ليلة بقيت من جمادى الاولى سنة ثمان وخمسين ومائتين فأصاب مفلحا سهم فى صدغه فأصبح
يوم الاربعاء ميتا وحمل الى سامرا فدفن بها وانصرف أبو أحمد عن محاربة صاحب الزنج
(وفى سنة ستين ومائتين قبض أبو محمد) الحسن بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن
محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام فى خلافة المعتمد وهو ابن تسع
وعشرين سنة وهو أبو المهدى المنتظر والامام الثانى عشر عند القطيعة من الامامية وهم جمهور
الشيعة وقد تنازع هؤلاء فى المنتظر من آل النبى صلى الله عليه وسلم بعد وفاة الحسن بن على
عشرين فرقة وقد ذكرنا حجاج كل طائفة منهم لما أجبته نفسها واختارته لمذهبها فى كتابنا
المترجم بسر الحياة وفى كتاب المقالات فى أصول الديانات وما ذهبوا اليه من الغيبة وغير ذلك
(وقد كان المهتدى) سير بقبيحة أم المعتز وعبد الله بن المعتز واسمعيل بن المتوكل وطلحة بن المتوكل
وعبد الوهاب بن المنتصر الى مكة فلما أفضت الخلافة الى المعتمد بعث بحملهم الى سامرا * وفى سنة
اثنتين وستين ومائتين كان مسير يعقوب بن الليث الصفار نحو العراق فى جيوش عظيمة فلما نزل
دير العاقول على شاطئ دجلة بين واسط وبغداد وقد أتينا فى كتابنا فى اخبار الزمان على بدو خبر
يعقوب بن الليث ببلاد سجستان وكونه فى حال صغره صفارا وخروجه مع مطوعة سجستان الى
حرب الشراة واتصاله بدرهم بن نصر وخبر شاروق مدينة الشراة مما يلى بلاد سجستان المعروفة
باوق وترقى الامر بيعقوب الى أن كان من أمره ودخوله بلاد زياستان وهى بلاد فيروز بن كبك
ابن زياستان وما كان من أمره مع زنبيل ملك السند على جسر نسط ودخوله بلاد هراة ثم بلخ
واعماله الحيلة الى أن دخل بلاد نيسابور وقبضه على محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين
ثم دخوله الى بلاد طبرستان ومواقعته الحسن بن زيد الحسينى مع ما قدمنا قبل وصفنا من خبر
حمزة بن أدرك الخارجى وما كان من أمره فى أيام عبد الله بن طاهر واليه تضاف الحمزية من
الخوارج وانتهينا باخبار يعقوب بن الليث من بدئه الى غايته ووفاته ببلاد جنداسابور من كور
الاهواز فلما نزل يعقوب بن الليث دير العاقول خرج المعتمد فعسكر يوم السبت لثلاث خلون
من جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين ومائتين فى الموضع المعروف بالقائم بسامرا واستخلف
ابنه المفوض ووصل المعتمد الى سيب بنى كرمان يوم الخميس لخمس خلون من رجب من هذه السنة
فواقع الصفار يوم الاحد لتسع خلون من رجب من السنة فى الموضع المعروف باصطربند بين
السيب ودير العاقول فهزم الصفار واستباح عسكره وأخذ من أصحابه نحو عشرة آلاف رأس
من الدواب وذلك أنه فجر عليه النهر المعروف بالسيب فغشى الماء الصحراء وعلم الصفار أن الحيلة
قد توجهت عليه وقد كان حمل على أصحاب السلطان فى ذلك اليوم بضع عشرة حملة وغرق ابراهيم
ابن سيما وقتل بيده خلقا كثيرا وطعن محمد بن أوتامش التركى وكان يتوهم أنه خادم وقال
لاصحابه ما رأيت فى عسكرهم مثل هذا الخادم وقد كان الصفار فى هذا اليوم قصد الميمنة وكان
عليها موسى بن بغا وقتل خلقا كثيرا من الناس منهم المغربى المعروف بالمبرقع ونجا الصفار بنفسه
والخواص من أوليائه واتبعه جيش المعتمد وأهل القرى والسواد فغنم الاكثر من ماله وعدده

واستنقذ محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر وكان متقيدا كان أسره من نيسابور على ما قدمنا ودعه الحسن بن قريش وأتى الموفق وكان فى القلب محمد بن طاهر ففك قيوده وخلع عليه ورده الى مرتبته وقيل ان السبب كان فى هزيمة الصفار فى ذلك اليوم مع ما ذكرنا من بثق النهر وانتظام الخيول فيه أن بصيرا الديلمى مولى سعيد بن صالح الحاجب كان فى الشذوات فى بطن دجلة فوافى مؤخر عسكر الصفار وسواده فخرج من الشذوات فطرح النار فى الابل والبغال والخيول وكان فى عسكره خمسة آلاف جمل بختى من حمر وغيرها فتفرقت الابل فى العسكر وشردت البغال والخيل واضطرب الناس فى مصاف الصفار لما سمعوه ورأوه فى عسكره وسواده من ورائهم فكانت الهزيمة على الصفار بما ذكرنا ويقال ان يعقوب بن الليث قال فى سفرته هذه أبياتا وفى مسيره وأنه خرج منكرا على المعتمد ومن معه من الموالى اضاعتهم الدين واهمالهم أمر صاحب الزنج فقال

خراسان أحويها وأعمال فارس * وما أنا من ملك العراق بآيس
اذا ما أمور الدين ضاعت وأهملت * ورثت فصارت كالرسوم الدوارس
خرجت بعون الله يمنا ونصرة * وصاحب رايات الهدى غير حارس

(وكانت وفاة الصفار) يوم الثلاثاء لسبع بقين من شوال سنة خمس وستين ومائتين على ما ذكرنا بجنداسابور (وخلف فى بيت ماله) خمسين ألف ألف درهم وثمانمائة ألف ألف دينار وخلفه أخوه عمرو بن الليث مكانه (وكانت سياسة يعقوب بن الليث) لمن معه من الجيوش سياسة لم يسمع بمثلها فيمن سلف من الملوك من الامم الغابرة من الفرس وغيرهم ممن سلف وخلف وحسن انقيادهم لامره واستقامتهم على طاعته لما كان قد شملهم من احسانه وغمرهم من بره وملأ قلوبهم من هيبته فماذكر من ظهور طاعتهم له انه كان بأرض فارس وقد أباح الناس أن يرتعوا ثم حدث أمر أراد النقلة والرحيل من تلك الكورة فنادى مناديه بقطع الدواب عن الرتع وانه رؤى رجل من أصحابه قد أسرع الى دابته والحشيش فى فمها فأخرجه من فيها مخافة أن تلوكه بعد سماعه النداء وأقبل على الدابة مخاطبا لها فقال بالفارسية أميرالمؤمنين دوابرا أزتر بريدند وتفسير ذلك اقطعوا الدواب عن الرطبة وأنه رؤى فى عسكره فى ذلك الوقت رجل من قواده ذو مرتبة والدرع الحديد على بدنه لاثوب بينه وبين بشرته فقيل له فى ذلك فقال نادى منادى الامير البسوا السلاح وكنت أغتسل من جنابة فلم يسعنى التشاغل بلبس الثياب عن السلاح وكان الرجل اذا أتاه راغبا فى خدمته مؤثرا للانقطاع اليه تفرس فيه فاذا أعجبه منظره امتحن خبره واستبرما عنده من رمى أو طعان أو غير ذلك من ثقافة فاذا رأى منه ما يعجبه سأله عن خبره وحاله ومن أين أقبل ومع من كان فاذا وافقه ما سمعه منه قال له أصدقنى عما معك من المال والمتاع والسلاح فيقف على جميع مامعه ثم يبعث أناسا قد رتبوا لذلك فيبيعون جميع ذلك ويجعلونه عينا أو ورقا ويدفع اليه ويثبت فى الديوان ثم يزيح علله فى اللباس والسلاح والمأكل والمشرب والدواب والبغال والحمير من اصطبله حتى لا يفقد الرجل جميع ما يحتاج اليه من أمره على قدر مكانه ومرتبته فان نقم عليه بعد ذلك مذهبه ولم يرض اختياره سلبه جميع ما أنعم به عليه حتى يخرج من عسكره نحو ما دخل اليه محتملا بما معه من ذلك العين والورق

الا أن يكون ذلك الرجل معتضدا فيصير له فضل من أرزاقه فلا يمنعه ما كان له من متقدم ماله وكان جميع دوابه ملكا له وان اعلافها من قبله ولها سياسة ووكلاء يقومون بأمرها الا خصوص دوابهم التى تكون عندهم الا ان ملكها له واتخذ لنفسه عريشا من خشب يشبه السرير حيثما توجه من مسيره فيكثر الجلوس عليه ويشرف منه على أهل عسكره وعلى قضيم دوابه ويؤمن الخلل من وكلائه فاذا رأى شيأ يكرهه بادر بتغييره (وقد كان انتخب من أصحابه ألف رجل) على اختيار لهم والغنى الظاهر منهم والنكاية فى حروبهم فجعلهم أصحاب الاعمدة الذهب كل عمود منها فيه ألف مثقال من الذهب ثم يليهم فى اللباس والغنى فوج ثانى أصحاب الاعمدة الفضة فاذا كان فى الاعياد أو فى الايام التى يحتاج فيها الى مباهاة الاعداء والاحتفال دفع اليهم تلك الاعمدة وانما ضربت هذه الاعمدة عدة للنوائب (وسئل بعض ثقاته) ممن ينظر حاله عن اشغاله فى خلواته وعن مجالسته مع أهل بطانته وهل يسمر مع أحد أو يجالسه فذكر أنه لا يطلع أحدا على سره ولا يعرف أحدا بتدبيره وعزمه وأكثر نهاره خاليا بنفسه يفكر فيما يريده ويظهر غير ما يضمره ولا يشرك أحدا فيما يريده برأى ولا غيره وأن تفرجه واشتغاله بغلمان صغار يتخذهم ويؤدبهم ويخرجهم ويدعوهم ويدفع لهم ما قد عمله لهم من السيور يتضاربون بها بين يديه ففى هذا أكثر شغله اذا فرغ من تدبيره (ولما واقع الصفار الحسن بن زيد الحسينى بطبرستان) وذلك فى سنة ستين ومائتين وقيل سنة تسع وخمسين ومائتين وانكشف الحسن بن زيد وأمعن يعقوب فى الطلب وكانت معه رسل السلطان قد قصدوه بكتب ورسالة من المعتمد وهم راجعون فى طلب الحسن بن زيد قال له بعضهم لما رأى من طاعة رجاله وما كان منهم فى تلك الحرب ما رأيت أيها الامير كاليوم قال له الصفار وأعجب منه ما أريك اياه ثم قربوا من الموضع الذى كان فيه عسكر الحسن بن زيد فوجدوا البدر والكراع والسلاح والعدد وجميع ما خلف فى العسكر حين الهزيمة على حاله لم يلتبس أحد من أصحابه منه بشئ ولا دنوا اليه معسكرين بالقرب منه من حيث يرونه بالموضع الذى خلفهم فيه الصفار فقال له الرسول هذه سياسة ورياضة راضهم الامير بها الى أن تأتى له منهم ما أراده وكان لا يجلس الا على قطعة مسح يشبه أن يكون طوله سبعة أشبار فى عرض ذراعين أو أرجح والى جانبه ترسه وعليه اتكاؤه وليس فى مضربه شئ غيره فاذا أراد أن ينام من ليله أو نهاره اضطجع على ترسه ونزع رايته فيجعلها مخدته وأكثر لباسه خفتان مصبوغ فاختى (وكان من سنته) للقواد والرؤساء والعظماء عنده مراتب فى الدخول بباب مضربه بحيث تقع عينه عليهم ويرى مداخلهم فيمرون مع أطناب الشقاق الى خيمة مضروبة بحيث لا يرى هو موضعها لكنه يرى مداخلهم اليها ومخرجهم منها فمن احتاج اليه منهم واحتاج الى كلامه أو أمره أو نهيه دعاه فأمره وكان دخولهم بحيث يقع نظره عليهم عوضا من السلام عليه ولم يكن لاحد أن يتقدم الى باب مجلسه الا رجل من خواصه يعرف بالعزيز واخوته وله من وراء خيمته خيمة تقرب من أطناب مجلسه فيها غلمان من خواصه فاذا احتاج الى أمر يأمر به صاح بهم فخرجوا اليه والا فهو فى أكثر نهاره وليله فى ذلك الموضع لا يقومون على رأسه وخيمته من داخل أخبية مطنبة كلها بد ورفيها خمسمائة غلام يبيتون من داخل مضربه على كل نفس منهم ثقة قد وكل بتفقد أحواله لئلا يكون منهم عبث أو فساد فهو المأخوذ به ويذبح له فى كل يوم

عشرون شاة فتطبخ فى خمس قدور من الصفر الكبار وله قدور حجارة يتخذ له فيها بعض ما يشتهيه وله أوزة فى كل يوم وخبيصة وفالوذج مع القدور الخمس وهى ألوان غليظة فيأكل منها ويفرق الباقى فى الغلمان الذين فى داخل مضربه ثم أهل عسكره حول مضربه وقربهم منه على حسب مراتبهم عنده (وقال بعض من ورد اليه) برسالة السلطان أيها الأمير أنت فى رياستك ومجلسك ليس فى خيمتك الا سلاحك ومسح أنت عليه قال ان رئيس القوم يأتم به أصحابه فى أفعاله وسيرته فلو استعملت ما ذكرت من الاثاث لاثقلنا البهائم ولائتمّ بى فى فعلى من فى عسكرى ونحن نقطع فى كل يوم المهامه والمفاوز والاودية والقيعان ولا يصلح لنا الا التخفيف وكان قليل الاستعمال للبغال فى عسكره وكان فى عسكره خمسة آلاف جمل بخت وأضعاف عددها حمير شهب كالبغال وهى الحمير المعروفة بالصفارية تحمل الاثقال عوضا من البغال وكان السبب فى ذلك أنه اذا نزل خليت الجمال والحمير للرعى وليس فى وسع البغال ذلك (قال المسعودى) وليعقوب بن الليث الصفار وعمرو بن الليث أخبار وسياسات عجيبة وحيل ومكايد فى الحروب قد أتينا على ذكرها وما انتظم لنا فى وصفها فى كتابنا أخبار الزمان والاوسط وانما نذكر فى هذا الكتاب منها لمعا لم نعرض لذكرها فيما سلف من كتبنا (وفى سنة أربع وستين ومائتين) وذلك فى خلافة المعتمد كانت وفاة موسى بن بغا وفيه يقول بعض الشعراء وكان قد امتدحه فلم يصله بشئ

مات موسى فهان ذاك علينا * لم يضرنى اذ قبل قد مات شيا
وكذا لا يضرنى من من لم * يسد خيرا الى اذ كان حيا

(وفى هذه السنة) وهى سنة أربع وستين ومائتين مات أبو ابراهيم اسمعيل بن يحيى المزنى صاحب المختصر من علم محمد بن ادريس الشافعى يوم الخميس لست بقين من شهر ربيع الاول من هذه السنة بمصر (وفيها) مات أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن وهب ابن أخى عبد الله بن وهب وهو صاحب مالك بن أنس وقد روى عن عمه عبد الله بن وهب عن مالك (وفيها) مات يونس بن عبد الاعلى الصدفى بمصر وهو ابن اثنتين وتسعين سنة (وفيها) مات أبو خالد يزيد بن سنان بمصر وصلى عليه بكار بن قتيبة القاضى (وشخص الموفق) لمحاربة صاحب الزنج فى صفر سنة سبع وستين ومائتين وقدم الموفق ابنه أبا العباس فى ربيع الآخر الى سوق الخميس وقد كان الشعرانى صاحب العلوى قد تحصن بها فى جمع كثير من الزنج ففتح هذا الموضع وغنم جميع ما كان فيه وفتح مواضع كثيرة وقتل من كان فيها من الزنج وسار الموفق الى الاهواز فأصلح ما أفسده الزنج ثم عاد الى البصرة فلم يزل منازلا لصاحب الزنج حتى قتل فكانت مدة أيامه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر يقتل الصغير والكبير والذكر والانثى ويحرق ويخرب وقد كان أتى بالبصرة فى وقعة واحدة على قتل ثلثمائة ألف من الناس (وقد كان المهلبى) من علية أصحاب على بن محمد بعد هذه الوقعة بالبصرة فنصب منبرا بالموضع المعروف بمقبرة بنى يشكر وكان يصلى يوم الجمعة بالناس ويخطب على ذلك المنبر لعلى بن محمد ويترحم بعد ذلك على أبى بكر وعمر ولا يذكر عثمان ولا عليا فى خطبته ويلعن جبابرة بنى العباس وأبا موسى الاشعرى وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان على ما قدمنا من قوله فى هذا الكتاب وأنه كان يذهب الى رأى الازارقة من الخوارج ولما ركن من بقى بالبصرة الى هذا الفعل من المهلبى فاجتمعوا فى بعض الجمع فوضع فيهم السيف

فمن ناج سالم ومن مقتول ومن غريق واختفى كثير من الناس فى الدور والآبار فكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها والفيران والسنانير فأفنوها حتى لم يقدروا منها على شىء فكانوا اذا مات منهم الواحد أكلوه وعدموا مع ذلك الماء العذب (وذكر) عن امرأة منهم أنها حضرت امرأة تنازع ومعها أختها وقد احتوشوها ينظرون أن تموت فيأكلون لحمها قالت المرأة فما ماتت حتى ابتدرناها فقطعناها وأكلناها ولقد حضرت أختها وقد جاءت على النهر وهى تبكى ومعها رأس أختها فقيل لها ويحك مالك تبكين قالت اجتمعوا على أختى فما تركوها حتى تموت موتا حسنا حتى قطعوها فظلمونى فلم يعطونى من لحمها شيأ الا رأسها هذا وهى تشتكى ظلمهم لها فى أختها ومثل هذا كثير وأعظم مما وصفنا (وبلغ) من أمر عسكره أنه كان ينادى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر العرب وأبناء الناس تباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة وينادى عليها بنسبها هذه ابنة فلان الفلانى لكل زنجى منهم العشرة والعشرون والثلاثون يطؤهن الزنج ويخدمن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف ولقد استغاثت الى على بن محمد امرأة من ولد الحسن بن على بن أبى طالب كانت عند بعض الزنج وسألته أن ينقلها منه الى غيره من الزنج أو يعتقها مما هى فيه فقال هو مولاك وأولى بك من غيره (وقد تكلم) الناس فى مقدار ما قتل فى هذه السنين من الناس فمكثر ومقلل فأما المكثر فانه يقول أفنى من الناس ما لا يدركه العد ولا يقع عليه الاحصاء ولا يعلم ذلك الا عالم الغيب فيما افتتح من هذه الامصار والبلدان والضياع وأباد أهلها والمقلل يقول أفنى من الناس خمسمائة ألف ألف وكلا الفريقين يقول فى ذلك ظنا وحدسا اذ كان شيأ لا يدرك ولا يضبط (وكان مقتله) ما بينا آنفا سنة سبعين ومائتين وذلك فى خلافة المعتمد (وقد كان الموفق) بعد ذلك وجه بصاعد بن مخلد فى سنة اثنتين وسبعين ومائتين الى حرب الصفار فأمره على من معه من الجيوش وشيعه الموفق فلما صار الى بلاد فارس تجبر واشتد سلطانه وانصرف من المدائن فى بعض الايام فاحتجم فى حفة وأذنة عليه ونمى ذلك الى الموفق وما هو عليه من التجبر فقال فى ذلك أبو محمد عبد الله بن الحسن بن سعيد القطربلى الكاتب فى قصيدة طويلة اقتصرنا منها على ما نذكره وهو

بكتم لما ظعن * ودان بدين العجم
وأصبح فى حفة * وفى اذنة محتجم

فأشخصه الموفق الى واسط فكان مدة مقامه فى الوزارة سبع سنين الى أن قبض عليه وعلى أخيه عبدون النصرانى وماتت جارية لصاعد بعد حبسه وكانت الغالبة على أمره وكان يقال لها جعفر وماتت بعدها بأيام أم الموفق ففى ذلك يقول عبد الله بن الحسين بن سعيد من أبيات له

أخذت جعفر برأس القطار * ثم قالت آذنتكم بالبوار
فأجابت أم الامير وقالت * قد أتيناك أول الزوار
وسيأتيك صاعد عن قريب * كسبد للتلاقى والاشكدار

وأحصى ما وجد لصاعد من الرقيق والمتاع والكسوة والسلاح والآلات فى خاصة نفسه دون ما وجد لأخيه عبدون فكان مبلغه ثلثمائة ألف دينار وكان مبلغ غلاته فى سائر ضياعه

ألف ألف وثلثمائة ألف (ومات صاعد) فى الحبس وذلك فى سنة ست وسبعين ومائتين (وفى سنة) سبعين ومائتين كانت وفاة أبى سليمان بن وهب الكاتب وأحمد بن طولون وذلك بمصر يوم السبت لعشر خلون من ذى القعدة من سنة سبعين ومائتين وله خمس وستون سنة (وكانت) ولاية أحمد بن طولون سبع عشرة سنة وكان ابن المظفر يصاحب الزنج ومرض أحمد بن طولون عشرة أشهر ولما يئس أحمد بن طولون من نفسه بايع لابنه أبى الجيش بالامر من بعده فلما توفى جدد أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون العهد لنفسه (ووجه الموفق) ابنه أبا العباس لمحاربة أبى الجيش خمارويه فى سنة احدى وسبعين ومائتين فكانت الوقعة بينهما بالطواحين من أعمال فلسطين يوم الثلاثاء لاربع عشرة ليلة بقيت من شوال من هذه السنة فكانت الهزيمة على أبى الجيش واحتوى أبو العباس على جميع عسكره وأفلت أبو الجيش فى جماعة من قواده حتى أتى الفسطاط وتخلف غلامه سعيد الاعسر فواقع أبا العباس فهزمه واستباح عسكره وقتل رؤساء قواده وجلة أصحابه ومضى أبو العباس لايلوى على شئ حتى أتى العراق وقلد أبو الجيش أمر وزارته على بن أحمد المادرانى وأبو بكر محمد بن على بن أحمد المادرانى هو المعتقل فى يد الاخشيد أحمد بن طغج فى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وقد كان على وزارته بمصر هو وولده الحسن بن محمد فلما استوزر الاخشيد أبا الحسن على بن خلف بن طباب وانفصل من دمشق الى الفسطاط قبض عليه وعلى أخيه ابراهيم بن خلف واستوزر أبا الحسن بن محمد بن عبد الوهاب (وفى سنة) سبعين ومائتين كانت وفاة الربيع بن سليمان المرادى المؤذن صاحب محمد بن ادريس الشافعى والراوى لاكثر كتبه عنه بمصر وأخبرنا أبو عبد الله الحسن بن مروان المصرى وغيره عن الربيع بن سليمان قال استعار الشافعى من محمد بن الحسن الكوفى شيأ من كتبه فلم يبعث بها اليه فكتب اليه الشافعى

يا قل لمن لم تر عيـ ـن من رآه مثله
من كان من قد راه * ماقد رأى من قبله
ومن كلا مثاله * حيث عقلنا عقله
لانّ ما يجنبه * فاق الكمل كله
العلم ينهى أهله * أن يمنعوه أهله
لعـــله يبذله * لاهله لعـــله

فبعث اليه محمد بن الحسن بأكثر كتبه التى سأل عنها (وبايع المعتمد) لابنه جعفر وسماه المفوض الى الله وقد كان المعتمد آثر اللذة وغلب الملاهى وغلب أخوه أبو أحمد الموفق على الامور يدبرها ثم حصر على المعتمد وحبسه فكان أول خليفة قهر وحجر عليه ووكل به فى الصلح وقد كان قبل ذلك هرب وصار الى حديثة الموصل فبعث الموفق بصاعد الى سامرا وكتب الى اسحق بن كنداج فرده من الموصل (وفى سنة) أربع وستين ومائتين كان خروج أحمد بن طولون من مصر مظهر الغزو فى عساكر كثيرة وخلق من المطوعة قد انجذبوا معه من مصر وفلسطين فقبل وصوله الى دمشق مات ماجور التركى وقد كان عليها فدخلها أحمد واحتوى على جميع تركته من الخزائن وغيرها وسار منها الى حمص وسار منها الى بلاد انطاكية ووصلت مقدمته الى الاسكندرية من شاطئ

بحر الروم . ووصل هو الى الموضع المعروف سفواس من جبل الاكام وقد تقدمته المطوعة والغزاة الى الثغر الشامي ثم عطف هو راجعا من غير أن يكون تقدم الى الناس معرفة ذلك منه حتى نزل مدينة انطاكية وفيها يومئذ سيما الطويل في عدة منيعة من الاتراك وغيرهم وقد قدمنا فيما تقدم من هذا الكتاب الخبر عن كيفية بناء انطاكية وقصة سورها والملك الباني لها وصفة سورها في السهل والجبل وقد كان قبل نزول أحمد بن طولون على انطاكية وقع بين سيما وبين أحمد المؤيد حروب كثيرة ببلاد جند قنسرين والعواصم من أرض الشأم وكان سيما الطويل قد عم أذاه أهلها من قتل وأخذ مال وكان نزول ابن طولون على باب من أبوابها يعرف بباب البحر وقد كان لؤلؤ بعد ذلك انحدر الى السلطان مستأمنا فأتى الموفق وهو منازل لصاحب الزنج فكان من أمره وقتل صاحب الزنج ماقدمنا ذكره فيما سلف من كتبنا من وقوع المشاجرة بين أصحاب لؤلؤ وأصحاب الموفق كما قدمنا أيهم القاتل لصاحب الزنج وكادت الحال أن تفرج بينهم في ذلك اليوم حتى قيل في عسكر الموفق

كيفما شئتم فقولوا * انما الفتح للؤلؤ

فكان ابن طولون على انطاكية في آخر سنة أربع وستين ومائتين وكان افتتاحه اياها في سنة خمس وستين ومائتين بالحيلة من داخلها من بعض أهلها بالليل وقد أخذوا بجراسهم سورها فتحدر بعضهم عما يلي الجبل وباب فارس فأتى ابن طولون وقد يئس من فتحها لمنعها وحصانة سورها فوعدوه فتحها فضم اليه عدة من رجاله فتسلقوا من حيث نزلوا واستعد هو في عسكره وأخذ أهبته وسيما في داره فما انفرج عمود الصبح الا والطولونية قد كبروا على سورها ونزلوا منحدرين اليها وارتفع الصوت وكثر الضجيج وركب سيما فيمن يسرع معه من خواصه فأرسلت عليه امرأة من أعالي سطح حجرا فأتت عليه وأخذ بعض من عرفه رأسه فأتى به ابن طولون وقد دخل من باب فارس ونزل على عين هنالك ومعه الحسين بن عبد الرحمن القاضي المعروف بابن الصابوني الانطاكي الحنفي فعاث أصحاب ابن طولون ساعة بانطاكية وشمل الناس أذاهم ثم رفع ذلك لساعتين من النهار وارتحل ابن طولون يؤم الثغر الشامي فأتى المصيصة واذنة وامتنع منه أهل طرسوس وفيها مازنار الخادم فلم يكن له في فتحها حيلة فرجع عنها وقد أراد الغزو على ماقيل والله أعلم لامر بلغه أن العباس ولده قد عصى عليه وفزع أن يحال بينه وبين مصر فحث في السير ودخل الفسطاط ولحق العباس ببرقة من بلاد المغرب خوفا من أبيه وقد حمل معه ما أمكنه حمله من الخزائن والاموال والعدد وقد أتينا على ماجرى بين أحمد بن طولون وولده العباس من المراسلات في كتابنا أخبار الزمان وكانت وفاة مازنار الخادم في أرض النصرانية غازيا في جيش الاسلام تحت الحصن المعروف بكوكب وكان مولى للفتح بن خاقان فحمل الى طرسوس فدفن بباب الجهاد وذلك للنصف من رجب سنة ثمان وسبعين ومائتين وكان معه في تلك الغزاة من أمراء السلطان المعروف بالعجيفي وابن أبي عيسى وكان على امرة طرسوس وكان مازنار في نهاية البلاغة في الجهاد في البر والبحر وكان معه رجال من البحريين لم ير مثلهم ولا أشد منهم وكان له في العدو نكاية عظيمة وكان العدو يهابه وتفزع منه النصرانية في حصونها ولم ير في الثغور الشامية والجزرية بعد عمر بن عبد العزيز بن مروان الاقطع صاحب ملطية

وعلى

وعلى بن يحيى الارمنى صاحب الثغور الشامية أشد اقداما على الروم من مازيار الخادم (وكانت) وفاة عمرو بن عبيد الله الاقطع وعلى بن يحيى الارمنى فى سنة واحدة استشهدا جميعا وذلك فى سنة تسع وأربعين ومائتين فى خلافة المستعين بالله وقد كان عمرو بن عبيد الله غازيا فى تلك السنة فى المطلبين فلقى ملك الروم فى خمسين ألفا فصبر الفريقان جميعا فاستشهد عمرو بن عبيد الله ومن كان معه من المسلمين الا اليسير وذلك يوم الجمعة للنصف من رجب من هذه السنة وقد كان على بن يحيى الارمنى انصرف عن الثغر الشامى وولى أرمينية ثم صرف عنها فلما صار الى بلاد ميافارقين من ديار بكر عدل الى ضياع له هنالك ووقع النفير فخرج مسرعا وقد أغارت جيوش الروم فقتل على بن يحيى مقدار أربعمائة نفس والروم لا تعلم أنه على بن يحيى الارمنى (وأخبرنى) بعض الروم ممن كان قد أسلم وحسن اسلامه أن الروم صورت عشرة أنفس فى بعض كنائسها من أهل البأس والنجدة والمكايد فى النصرانية والحيلة من المسلمين منهم الرجل الذى بعث به معاوية حين احتال على البطريق فأسره من القسطنطينية فأقاد منه بالضرب ورده الى القسطنطينية وعبد الله البطال وعمرو بن عبيد الله وعلى بن يحيى الارمنى والعربل بن بكار واحمد بن أبى قطيعة وقرماس السلقانى صاحب مدينة ابريق وهى اليوم للروم وكان بطريق البيالقة وكانت وفاته فى سنة تسع وأربعين ومائتين وحرس حارس أخت قرماس ومازيار الخادم فى موكبه والرجال حوله وأبو القاسم بن عبد الباقى وقد أتينا على وصف مذهب البيالقة واعتقاداتهم وهو مذهب بين النصرانية والمجوسية وقد دخلوا فى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة فى جملة الروم وقد فسرنا خبرهم فى كتابنا أخبار الزمان (فأما خبر معاوية) وماذكرناه من خبر الرجل الذى أسر البطريق من مدينة القسطنطينية فهو أن المسلمين غزوا فى أيام معاوية فأسر جماعة منهم فأوقفوا بين يدى الملك فتكلم بعض أسارى المسلمين فدنا منه بعض البطارقة ممن كان واقفا بين يدى الملك فلطم حر وجهه فآلمه وكان رجلا من قريش فصاح واإسلاماه أين أنت عنا يا معاوية اذ أهملتنا وضيعت ثغورنا وحكمت العدو فى ديارنا ودمائنا وأعراضنا فنمى الخبر الى معاوية فآلمه وامتنع من لذيذ الطعام والشراب فخلا بنفسه وامتنع من الناس ولم يظهر ذلك لاحد من المخلوقين ثم أجمل الامر فى اعمال الحيلة بافامة الفداء للمسلمين فلما صار الرجل الى دار الاسلام دعاه معاوية فبره وأحسن اليه ثم قال له لم نهملك ولم نضيعك ولا أبحنا دمك وعرضك ومعاوية مع ذلك يجيل الرأى ويعمل الحيلة ثم بعث الى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور وكان به عارفا كثير الغزوات فى البحر مبل من الرجال مرطان بالرومية فأحضره وخلا به وأخبره بما قد عزم عليه وسأله اعمال الحيلة فيه والتأنى له فتوافقا على أن يدفع للرجل مالا عظيما يبتاع به أنواعا من الطرف والملح والجهاز والطيب والجوهر وغير ذلك وابتنى له مركب لا يلحق فى جريه سرعة ولا يدرك فى مسيره بنيانا عجيبا فسار الرجل حتى أتى مدينة قبرس فاتصل برئيسها وأخبره أن معه جارية للملك وأنه يريد التجارة الى القسطنطينية قاصدا الى الملك وخواصه بذلك فروسل الملك بذلك واعلم بحال الرجل فأذن له فى الدخول فدخل خليج القسطنطينية وسار فيه حتى انتهى الى القسطنطينية وقد أتينا على مقدار مسافة هذا الخليج واتصاله بالبحر الرومى وبحر مانطس عند ذكرنا البحار فيما سلف من هذا

الكتاب فلما وصل الى القسطنطينية أهدى للملك وجميع بطارقته وبايعهم وشاراهم ولم يعط للبطريق الذى لطم وجه القرشى شيأ وقصده الى ذلك البطريق الذى لطم الرجل القرشى وتأنى الصورى فى الامر على حسب مارسمه معاوية وأقبل الرجل من القسطنطينية الى الشأم وقد أمره البطارقة والملك بابتياع حوائج ذكروها وأنواع من الامتعة وصفوها فلما صار الى الشام سار الى معاوية سرا وذكر له من الامر ماجرى فابتيع له جميع ماطلب منه وماعلم أن رغبتهم فيه وتقدم اليه فقال ان ذلك البطريق اذا عدت الى كرتك هذه سيعذلك عن تخلفك عن بره واستهانتك به فاعتذر اليه ولاطفه بالقصد والهدايا واجعله القيم بأمرك والمتفقد لاحوالك وانظر ماذا يطلب منك حين أوبك الى الشأم فان منزلتك ستعلو وأحوالك تزداد عندهم فاذا أتقنت جميع ما أمرتك به وعلمت غرض البطريق منك وأى شئ يأمرك بابتياعه لتكون الحيلة بحسب ذلك فلما رجع الصورى الى القسطنطينية ومعه جميع ماطلب منه والزيادة على مالم يطلب منه زادت منزلته وارتفعت أحواله عند الملك والبطارقة وسائر الحاشية فلما كان فى بعض الايام وهو يريد الدخول الى الملك قبض عليه ذلك البطريق فى دار الملك وقال له ماذنبى اليك وعماذا استحق غيرى أن تقصده وتقضى حوائجه وتعرض عنى فقال له الصورى أكثر من ذكرت ابتدانى وأنا غريب أدخل الى هذا الملك والبلد كالمتنكر من أسارى المسلمين وجواسيسهم لئلا ينموا بخبرى ويعنوا بأمرى الى المسلمين فيكون فى ذلك فقدى واذ قد علمت ميلك الى فلست أحب أن يعتنى أمرى سواك ولا يقوم به عند الملك وغيره غيرك فأمرنى بجميع حوائجك وجميع مايعرض من أمورك بأرض الاسلام وأهدى الى البطريق هدية حسنة من الزجاج المخروط والطيب والجواهر والطرائف والثياب ولم يزل هذا فعله يتردد من الروم الى معاوية ومن معاوية الى الروم ويسأل الملك والبطريق وغيره الحوائج والحيلة لاتتوجه لمعاوية حتى مضى على ذلك سنين فلما كان فى بعضها قال البطريق للصورى وقد أراد الخروج الى دار الاسلام قد اشتهيت أن تغمرنى بقضاء حاجة وتمن بها على أن تبتاع لى بساطا سوسنجرى بمخاده ووسائده يكون فيه من أنواع الالوان من الحمرة والزرقة وغيرهما ويكون من صفته كذا وكذا ولو بلغ ثمنه كل مبلغ فأنعم له بذلك وكان من شأن الصورى اذا ورد الى القسطنطينية تكون مركبه بالقرب من موضع ذلك البطريق وللبطريق ضيعة سرية وفيها قصر مشيد ومنتزه حسن على أميال من القسطنطينية راكبة على الخليج وكان البطريق أكثر أوقاته فى ذلك المنتزه وكانت الضيعة مما يلى فم الخليج مما يلى بحر الروم والقسطنطينية فانصرف الصورى الى معاوية سرا وأخبره بالحال فأحضر معاوية بساطا بوسائد ومخاد ومجلس فانصرف به الصورى مع جميع ماطلب منه من دار الاسلام وقد تقدم اليه معاوية بالحيلة وكيفية ايقاعها وكان الصورى فيما وصفنا من هذه المدة قد صار كأحدهم فى المؤانسة وفى العشرة وفى الروم طمع وشره فلما دخل من البحر الى خليج القسطنطينية وقد طابت له الريح وقد قرب من ضيعة البطريق أخذ الصورى خبر البطريق من أصحاب القوارب والمراكب فأخبر أن البطريق فى ضيعته وذلك أن الخليج طوله نحو من ثلثمائة ميل وخمسين ميلا بين هذين البحرين وهما الرومى ومانطس على حسب ماقدمنا فيما سلف من

هذا الكتاب والضياع والعمائر على هذا الخليج من حافتيه والمراكب تختلف والقوارب بأنواع المتاع والاقوات الى القسطنطينية وهذه المراكب لاتحصى فى هذا الخليج كثرة فلما علم الصورى ان البطريق فى ضيعته فرش ذلك البساط ونضد ذلك الصدر والمجالس بالوسائد والمخاد فى صحن المركب ومجلسه والرجال تحت المجالس بأيديهم المجاذف مشكلة قائمة غير قاذفين بها ولا يعلم بهم أنهم فى بطن المركب الامن ظهر منهم فى المركب يميله والريح فى القلع والمركب مارّ فى الخليج كأنه سهم قد خرج من كبد قوس لا يستطيع القائم على الشط أن يملأ بصره منه لسرعة سيره واستقامته فى جريه فأشرف على قصر البطريق وهو جالس فى مستشرفه مع حرمه وقد أخذت منه الخمر وعلاه الطرب وذهب به الفرح والسرور فلما رأى البطريق مركب الصورى غنى طربا وصاح فرحا وسرورا وابتهاجا بقدومه فدنا من أسفل القصر وحط القلع وأشرف البطريق على المركب فنظر الى ما فيه من حسن ذلك البساط ونظم ذلك الفرش كأنه رياض تزهر فلم يستطع اللبث فى موضعه حتى نزل قبل أن يخرج الصورى من مركبه اليه فطلع المركب فلما استقرت قدمه فى المركب ودنا من المجلس ضرب الصورى بعقبه على من تحت البساط من الوقوف وكانت علامة بينه وبين الرجال الذين فى بطن المركب فما استقر دقه بقدمه حتى اختطف المركب بالمجاذيف فاذا هو فى وسط البحر لا يلوى على شئ وارتفع الصوت ولم يدر ما الخبر لمعاجلة الامر فلم يكن الليل حتى خرج من الخليج وتوسط البحر وقد أوثق البطريق كتافا وطابت له الريح وأسعده الجد وجلة الجاذيف فى ذلك الخليج فتعلق اليوم السابع بساحل الشأم ورأى البر وحمل الرجل فكانوا اليوم الثالث عشر حضورا بين يدى معاوية بالفرح والسرور لا ثلاجيه بالامر وتمام الحيلة وأيقن معاوية بالظفر وعلو الجد فقال على بالرجل القرشى فأتى به وقد حضره خواص الناس فأخذوا مجالسهم وانغص المجلس بأهله فقال له معاوية انظر لا تعتدى ما جرى عليك منه واقتص منه على حسب ما صنع بك ولا تعتدى وراع ما أوجب الله عليك من المماثلة فلطمه القرشى لطمات ووكزه فى حلقه ثم انكب القرشى على يد معاوية وأطرافه يقبلها وقال ما أضاع من سودك ولا خاب فيك أمل من أملك أنت ملك لا تضام تمنع حماك وتصون رعيتك وأغرق فى دعائه ووصفه وأحسن معاوية الى البطريق وخلع عليه وبره وحمل معه البساط وأضاف الى ذلك أمورا كثيرة وهدايا الى الملك وقال له ارجع الى ملكك وقل له تركت ملك العرب يقيم الحدود على بساطك ويقتص لرعيته فى دار مملكتك وسلطانك وقال للصورى سر معه حتى تأتى الخليج فتطرحه فيه ومن كان أسر معه ممن بادر فصعد المركب من غلمان البطريق وخاصته فحملوا الى صور مكرمين وحملوا فى المركب فطابت لهم الريح فكانوا فى اليوم الحادى عشر متعلقين ببلاد الروم وقربوا من فم الخليج واذا به قد أحكم بالسلاسل والمنعة من الموكلين به فطرح البطريق ومن معه وانصرف الصورى راجعا وحمل البطريق من ساعته الى الملك ومعه الهدايا والامتعة فتباشرت الروم بقدومه وتلقوه مهنئين له من الاسر فيكافأ الملك معاوية على ما كان من فعله بالبطريق والهدايا فلم يكن يستضام أسير من المسلمين فى أيامه وقال الملك هذا أمكر الملوك وأدهى العرب ولهذا قدمته العرب عليها فساس أمرها

والله لو همّ بأخذي لتمت له الحيلة علي (وقد أتينا) على خبر معاوية فيما سلف من هذا الكتاب وأتينا على مبسوطه وأخبار الوافدين والوفدات عليه من الامصار فيما سلف من كتبنا وان كنا قد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب من أخبار معاوية جملا وملوك الروم وبطارقتها ممن سلف وخلف الى هذا الوقت أخبار حسان مع ملوك بني أمية والخلفاء من بني العباس في المغازي والسرايا وغيرها وكذلك لاهل الثغور الشامية والحرورية الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة قد أتينا على مبسوطها فيما سلف من كتبنا وقدمنا في هذا الكتاب جملا من أخبارهم ومقادير أعمارهم وأيامهم ولمعا من سيرهم وكذلك أخبرنا عن ملوك الامم وسيرهم (قال المسعودي) وكان المعتمد مشغوفا بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي وذكر عبد الله بن خرداذبه أنه دخل عليه ذات يوم وفي المجلس عدة من ندمائه من ذوي العقول والمعرفة والحجى فقال له أخبرني عن أول من اتخذ العود قال ابن خرداذبه قد قيل في ذلك يا أمير المؤمنين أقاويل كثيرة أول من اتخذ اللهو لمك بن متوشلخ بن محويل ابن عاد بن خنوخ بن قادين آدم وذلك أنه كان له ابن يحبه حبا شديدا فمات فعلقه بشجرة فتقطعت أوصاله حتى بقي منه فخذه والساق والقدم والاصابع فأخذ خشبا فرققه وألصقه فجعل صدر العود كالفخذ وعنقه كالساق ورأسه كالقدم والملاوي كالاصابع والاوتار كالعروق ثم ضرب به وناح عليه فنطق العود قال الجدوني

وناطق بلسان لاضمير له * كأنه فخذ نيطت الى قدم
يبدي ضمير سواه في الحديث كما * يبدي ضمير سواه منطق القدم

واتخذ موسك بن لمك الطبول والدفوف وعملت ضلال بنت لمك المعازف ثم اتخذ قوم الطنابير يستميلون بها الغلمان والاكراد نوعا مما يصفر به فكانت أغنامهم اذا تفرقت صفروا فاجتمعت ثم اتخذ الفرس الناي للعود والشاني للطبلوت والسرياني للطبل والسنج والصنج وكان غناء الفرس بالعيدان والصنوج وهي لهم ولهم النغم والايقاعات والمقاطع والطروق الملوكية وهي سبع طرق فأولها سكاف وهو أكثرها استعمالا لتفعل الانهار وهو أفصحها مقاطع وأحرسه وهو أجمعها لمحاسن النغم وأكثرها تصعدا وانحدارا ومادار وسنان وهو أثقلها وسابكاد وهو المحبوب للارواح وسسم وهو المجلس المنقل وحوبران وهو الدرج الموقوف على نغمة وكان غناء أهل خراسان وما والاها بالزنج وعليها سبعة أوتار وايقاعه يشبه ايقاع الصنج وكان غناء أهل الري وطبرستان والديلم بالطنابير وكانت الفرس تقدم الطنبور على كثير من الملاهي وكان غناء النبط والجرامقة بالعيروارات وايقاعها يشبه ايقاع الطنابير وقال قندروس الرومي جعلت الاوتار أربعة بازاء الطبائع فجعلت الزير بازاء المرة الصفراء والمثنى بازاء الدم والمثلث بازاء البلغم والبم بازاء المرة السوداء وللروم من الملاهي الاوعر وعليه ستة عشر وترا وله صوت بعيد المذهب وهو من صنعة اليونانيين والسلبان وله أربعة وعشرون وترا وتفسيره الغصون ولهم اللورا وهي الرباب وهي من خشب ولها خمسة أوتار ولهم القشاوة ولها اثنا عشر وترا ولهم الصليج وهو من جلود العجاجيل وكل هذه معازف مختلفة الصفة ولهم الارغن وهو منافخ من الجلود والحديد وللهند الكنكلة وهو وتر واحد يمد على قرعة فيقوم مقام

العود والصنج قال وكان الحداء فى العرب قبل الغناء وقد كان مضر بن نزار بن معد سقط عن بعير فى بعض أسفاره فانكسرت يده فجعل يقول يايداه يايداه وكان من أحسن الناس صوتا فاستوسقت الابل (١) وطاب لها السير فاتخذه العرب حداء برجز الشعر وجعلوا كلامه أول الحداء فمن قول الحادى

يا هاديا يا هاديا * ويا يداه يا يداه

فكان الحداء أول السماع والترجيع فى العرب ثم اشتق الغناء من الحداء وتحن نساء العرب على موتاها ولم تكن أمة من الامم بعد فارس والروم أولع بالملاهى والطرب من العرب وكان غناؤهم النصب ثلاثة أجناس الركبانى والسناد الثقيل والهزج الخفيف (وكان أول من غنى من العرب الجرادتان وكانتا قينتين على عهد عاد لمعاوية بن بكر العلقمى وكانت العرب تسمى القينة الكرينة (٢) والعود المزهر وكان غناء أهل اليمن بالمعازف وايقاعها جنسا من واحد وغناؤهم جنسان حنفى وحميرى والحنفى أحسنهما ولم تكن قريش تعرف من الغناء الا النصب حتى قدم النضر بن الحرث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى من العراق وافدا على كسرى بالحيرة فتعلم ضرب العود والغناء عليه فقدم مكة فعلم أهلها فاتخذوا القينات (والغناء) يرق الذهن ويلين العريكة ويبهج النفس ويسرها ويشجع القلب ويسخى البخيل وهو مع النبيذ تعاون على الحزن الهادم للبدن ويحدثان له نشاطا ويفرجان الكرب والغناء على الانفراد يفعل ذلك وفضل الغناء على المنطق كفضل المنطق على الخرس والبرء على السقم وقد قال الشاعر

لا تبعثن على همومك اذ ثوت * غير المدام ونغمة الأوتار

فلله در حكيم استنبطه وفيلسوف استخرجه أى غامض أظهر وأى مكنون كشف وعلى أى فن دل والى أى علم وفضيلة سبق فذلك نسيج وحده وقريع دهره (وقد كانت الملوك تنام على الغناء ليسرى فى عروقها السرور وكانت ملوك الاعاجم لا تنام الا على غناء مطرب أو سهر لذيذ والعربية لا تنوم ولدها وهو يبكى خوف أن يسرى الهم فى جسده ويدب فى عرقه ولكنها تنازعه وتضاحكه حتى ينام وهو فرح مسرور فيزو جسده ويصفو لونه ودمه ويشف عقله والطفل يرتاح الى الغناء ويستبدل ببكائه ضحكا وقد قال يحيى بن خالد بن برمك الغناء ما أطربك فأرقصك وأبكاك فأشجاك وما سوى ذلك فبلاء وهم (قال المعتمد) قد قلت فأحسنت ووصفت فأطنبت وأقمت فى هذا اليوم سوقا للغناء وعلم أنوع الملاهى وان كان كلامك لمثل الثوب الموشى يجتمع فيه الاحمر والاصفر والاخضر وسائر الالوان فما صفة المغنى الحاذق. قال ابن خرداذبه المغنى الحاذق يا أمير المؤمنين من تمكن من أنفاسه ولطف فى اختلاسه وتفرع فى أجناسه (قال المعتمد) فعلى كم تنقسم أنواع الطرب. قال على ثلاثة أوجه يا أمير المؤمنين وهى طرب محرك مستخف لاريحية ينعش النفس ودواعى الشيم عند السماع وطرب شجن وحزن لا سيما اذا كان الشعر فى وصف أيام الشباب والشوق الى الاوطان والمراثى لمن عدم الصبر من الاحباب وطرب يكون فى صفاء النفس ولطافة الحس لا سيما عند سماع جودة التأليف واحكام الصنعة اذ كان من لا يعرفه ولا يفهمه لا يسره بل تراه متشاغلا عنه فذلك كالحجر الجلمد

والجماد الصلد سواء وجوده وعدمه وقد قال يا أمير المؤمنين بعض الفلاسفة المتقدمين وكثير
من حكماء اليونانيين من عرضت له آفة فى حاسة الشم كره رائحة الطيب ومن غلظ حسه كره سماع
الغناء وتشاغل عنه وعابه وذمه (قال المعتمد) فما منزلة الايقاع وأنواع الطرق وفنون الغناء قال
قد قال فى ذلك يا أمير المؤمنين من تقدم ان منزلة الايقاع من الغناء بمنزلة العروض من الشعر
وقد أوضحوا الايقاع ورسموه بسمات ولقبوه بألقاب وهو أربعة أجناس ثقيل الاول وخفيفه
وثقيل الثانى وخفيفه والرمل الاول وخفيفه والهزج وخفيفه والايقاع هو الوزن ومعنى
أوقع وزن ولم يقع خرج من الوزن والخروج ابطاء عن الوزن أو سرعة فالثقيل الاول نقره ثلاثة
ثلاثة اثنتان ثقيلتان بطيئتان ثم نقرة واحدة وخفيف ثقيل الثانى نقره اثنتان متواليتان
وواحدة بطيئة واثنتان مزدوجتان وخفيف الرمل نقره اثنتان اثنتان مزدوجتان وبين كل
زوج وقفة والهزج نقره واحدة واحدة مستويتان ممسكة وخفيف الهزج نقره واحدة واحدة
متساويتان فى نسق واحد أخف قدرا من الهزج والطرائق ثمان الثقيلان الاول والثانى
وخفيفاهما وخفيف الثقيل منهما يسمى بالماخورى وانما سمى بذلك لان ابراهيم بن ميمون
الموصلى وكان من أبناء فارس وسكن الموصل كان كثير الغناء فى هذه المواخير (١) بهذه الطريقة
والرمل وخفيفه ويتفرع من كل واحد من هذه الطرائق مرسوم ومطلق وتختلف مواقع
الاصطلاح فيها فيحدث لها ألقاب تميزها كالمحصور والمخبول والمجثوث والمخدوع والارواح
والعود عند أكثر الامم وجل الحكماء يونانى صنعة أصحاب أهل الهندسة على هيئة طبائع
الانسان فان اعتدلت أوتاره على الاقدار الشريفة جانس الطبائع فأطرب والطرب رد
النفس الى الحال الطبيعية دفعة وكل وتر مثل الذى يليه ومثل ثلثه والرسانة الذى يلى الانف
موضوع على خط التسع من جملة الوتر فهذه يا أمير المؤمنين جوامع فى صفة الايقاع ومنتهى
حدوده ففرح المعتمد فى هذا اليوم وخلع على ابن خرداذبه وعلى من حضره من ندمائه وفضله
عليهم وكان يوم لهو وسرور (فلما كان) فى صبيحة تلك الليلة دعا المعتمد من حضر فى اليوم
الاول فلما أخذوا مراتبهم من المجلس قال لبعض من حضره من ندمائه صف لى الرقص وأنواعه
والصفة المحمودة من الرقاص واذكر لى شمائله فقال المسؤل يا أمير المؤمنين أهل
الاقاليم والبلدان مختلفون فى رقصهم من أهل خراسان وغيرهم فجملة الايقاع فى الرقص ثمانية
أجناس الخفيف والهزج والرمل وخفيف الرمل وثقيل الثانى وخفيفه وخفيف
الثقيل الاول وثقيله والرقاص يحتاج الى أشياء فى طباعه وأشياء فى خلقته وأشياء فى
عمله فأما ما يحتاج اليه فى طباعه فخفة الروح وحسن الطبع على الايقاع وأن يكون طالبه
مرحا الى التدبير فى رقصه والتصرف فيه وأما ما يحتاج اليه فى خلقته فطول العنق والسوالف
وحسن الدل والشمائل والتمايل فى الاعطاف ودقة الخصر وحسن أقسام الخلق واقع المناطق
واستدارة الثياب (٢) من أسافلها ومخارج النفس والاراحة والصبر على طول الغاية ولطافة
الاقدام ولين الاصابع وامكان لينها فى نقلها وفيما يصرف فيه من أنواع الرقص من الابل ورقص
الكرة وغيره ولين المفاصل وسرعة الانتقال فى الدوران ولين الاعطاف وأما ما يحتاج اليه
فى عمله فكثرة التصرف فى ألوان الرقص واحكام كل جزء من حدوده وحسن الاستدارة

وثبات

وثبات القدمين على مدار رهما واستواءهما تعمل يمنى الرجل ويسراهما حتى يكون فى ذلك واحدا ولوضع القدم ورفعها وجهان أحدهما أن يوافق بذلك الايقاع والآخر ان يتبطبه فأكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن فليكن ما يوافق الايقاع فهو من الحب والحسن سواء وأما ما يتبط به فأكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن فليكن ما يوافق الايقاع مترافعا وما يتبط به متسافلا (قال المسعودى) وللمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس قد دونت فى أنواع من الادب منها مدح النديم وصفاته وعفافه وأمن عبثه والتداعى فى المنادمات والمراسلات فى ذلك وعدد أنواع الشرب فى الكثرة وهيئة السماع وأقسامه وأنواعه وأصول الغناء ومباديه فى العرب وغيرها من الامم وأخبار الاعلام من مشهورى المغنين المتقدمين والمحدثين وهيئة المجالس ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم وتعبية مجالس الندماء والتحيات كما قال العطوى فى ذلك

حى التحية أصحاب التحيات * القائلين اذا لم تسقهم هات
أما الغداة فسكرى فى نعيمهم * وبالعشى فصرعى غير أموات
وبين ذلك قصف لا يعادله * قصف الخليفة فى لهو ولذات

وقد أتينا على وصف جميع ذلك فى كتاب أخبار الزمان مما لم يتقدم له ذكر كصنوف الشراب والاستعمال لانواع النقل اذا وضع ذلك فى المناقل والاطباق فنضد تنضيدا ووصف رصفا والابانة عن المراتب فى ذلك ووصف جمل لذات الطبيخ مما يحتاج التابع الى معرفته والاريب الى قيمته من المتولدات فى معرفة الالوان ومقادير التوابل والابزار وأنواع المحادثات وغسل اليدين بحضرة الرئيس والمقام عن مجلسه وادارات الكاسات وما حكى فى ذلك عن الاسلاف من ملوك الامم وغيرهم وما قيل فى الاكثار والاقلال من الشراب وما ورد فى ذلك من الاخبار وطلب الحاجات والاستماحات من أهل الرياسة على المعاقرات وهيئة النديم وما يلزمه لنفسه وما يلزم الرئيس لنديمه والفرق بين التابع والمتبوع والنديم والمنادم وما قال الناس فى العلة التى من أجلها سمى النديم نديما وكيفية الادب فى لعب الشطرنج والفرق بينها وبين النرد وما ورد فى ذلك من الاخبار وانتظمت فيه من الدلائل والآثار وما ورد عن العرب فى أسماء الخمر وورود التحريم فيها وتنازع الناس فى رد غيرها من أنواع الانبذة عليها قياسا ووصف أنواع آنيتها ومن كان يشربها فى الجاهلية ومن حرمها ووصف السكر وما قال الناس فى ذلك وكيفية وقوعه أمن الله أم من خلقه وغير ذلك مما لحق بهذا الباب واتصل بهذه المعانى وانما نذكر هذه اللمع منبهين بها على ما قدمنا فيما سلف من كتبنا (وكان أبو العباس) المعتضد محبوسا فلما خرج أبوه الموفق خلفه بدار الوزير اسمعيل بن بلبل وكان مضيقا عليه الى أن وافى الموفق من أذربيجان علة لامد نفاد ورما فى بيت من الخشب قد اتخذ له مبطنا بالخز والحرير وفى أسفله حلق قد جعل فيها الدهن فحمله الرجال على أكتافها نوائب وكان وصوله الى بغداد يوم الخميس لليلتين خلتا من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين فأقام بمدينة السلام أياما فاشتدت علته وأرجفت بموته وانصرف اسمعيل بن بلبل وقد يئس منه فوجه اسمعيل بن بلبل الى كفه من وقيل الى بكتمر وكان موكلا بالمعتضد بالمدائن على أقل من يوم من مدينة

السلام أن ينصرف بالمعتضد والمفوض الى الله الى بغداد فدخل المعتضد اليها في يومه واتصل باسمعيل صلاح الموفق فانحدر ومعه المعتضد والمفوض في طيارة الى ولده وقد كان أنس الخادم ومؤنس الخادم وصاف الحرمين وغيرهم من خدم الموفق وغلمانه أخرجوا أبا العباس من الموضع الذى كان فيه محبوسا وساروا به الى الموفق ولما أحضر اسمعيل بن بلبل الموفق والمعتضد معه وكثر اضطراب القواد والموالى وأسرعت العامة وسائر الخدم فى النهب فانتهبوا دار اسمعيل بن بلبل ولم تبق دار جليل ولا كاتب نبيل الا نهبوها وفتحت الجسور وأبواب السجون ولم يبق أحد فى المطابق ولا فى الحديد الا أخرج وكان أمرا فظيعا غليظا وخلع على أبى العباس وعلى اسمعيل بن بلبل وانصرف كل واحد منهما الى منزله فلم يجد اسمعيل فى داره ما يقعد عليه حتى وجه اليه الشاه بن ميكال ما قعد عليه وقام بأمر طعامه وشرابه وقد كان اسمعيل أسرع فى بيوت الاموال وأسرف فى النفقات والجوائز والخلع وأمد العرب وأجزل لهم الانزال والارزاق واصطنع بنى شيبان من العرب وغيرهم من ربيعة وكان يزعم أنه رجل من بنى شيبان وطالب بخراج سنة مبهمة فثقل على الرعية وكثر الداعى عليه ومكث الموفق بعد ذلك ثلاثة أيام ثم توفى يوم الخميس لثمان بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين ومات وله تسع وأربعون سنة وأمه أم ولد رومية يقال لها اسحق وكان اسم الموفق طلحة وفيه يقول الشاعر

لما استظل بظل الملك واجتمعت * له الامور فقاد وقسور
حطت عليه لمقدار منيته * كذا تصنع بالناس المقادير

فلما مات الموفق قام المعتضد بأمور الناس فى التدبير كان أبيه الناصر وهو الموفق وخلع جعفر المفوض من ولاية العهد وقام اسمعيل بن بلبل فى الوزارة بعد شغب كثير كان فى مدينة السلام وكان لابى عبد الله بن أبى الساج ولخادمه وصيف خطب جليل وقيد اسمعيل بن بلبل ووجه أبو العباس الى أبى عبد الله بن سليمان بن وهب فأحضره وخلع عليه ورد اليه أمر كتابته وذلك فى يوم الثلاثاء لثمان بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين ولم يزل اسمعيل بن بلبل يعذب بأنواع العذاب وجعل فى عنقه غلا فيه رمانة حديد والغل والرمانة مائة وعشرون رطلا وألبس جبة صوف قد صبرت فى ودك الاكارع وعلق معه رأس ميت فلم يزل على ذلك حتى مات فى جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين ومائتين ودفن بغله وقيوده وأمر المعتضد بضرب جميع الآنية التى كانت فى خزانته فضربت وفرقت فى الجند (قال المسعودى) وقد كان المعتمد قعد للغداء واصطبح يوم الاثنين لاحدى عشرة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين فلما كان عند العصر قدم الطعام فقال يا موشكير للموكل به ما فعلت الرؤس بأرقابها وقد كان قدم من الليل أن يقدم له رأسا جملين وقد فصل فيها أرقابها فقدمتا وكان معه على المائدة رجل من ندمائه يعرف بقف الملقم ورجل آخر يعرف بمخلف المنحك فأول من ضرب بيده الى الرؤس الملقم فانتزع أذن واحد منهما وأما المنحك فانه يقتلع اللهازم والاعين فأكلوا وأكل المعتمد وأتموا يومهم فأما الملقم صاحب اللقمة الاولى فانه تهرى فى الليل وأما المنحك فانه مات قبل الصباح وأما المعتمد فأصبح ميتا قد لحق بالقوم ودخل

اسمعيل

اسمعيل بن حماد القاضى الى المعتضد وعليه السواد فسلم عليه بالخلافة وكان أول من سلم عليه بها وحضر الشهود منهم أبو عوف والحسين بن سالم وغيرهم من العدول حتى أشرفوا على المعتمد ومعهم بدر غلام المعتضد يقول هل ترون به من بأس أو أثر مات فجأة وقبلته مدا ومته لشرب النبيذ فنظروا اليه فاذا ليس به من أثر فغسل وكفن وحمل فى تابوت قد أعدله الى سامرا فدفن بها (وذكروا) والله أعلم أن سبب وفاته أنه سقى نوعا من السم فى شرابهم الذى كانوا يشربونه وهو نوع يقال له البيش يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والتبت وربما وجدوه فى سنبل الطيب وهو ألوان ثلاثة وفيه خواص عجيبة (وللمعتمد) أخبار حسان وما كان فى أيامه من الكوائن والحوادث مما كان من حروب الصفار وما كان بديار بكر من بلاء وأسر وغيرهما من أحمد بن عيسى بن الشيخ وما كان باليمن قد أتينا على مبسوطها وجميع ذلك كله والغرر منه وما حدث فى كل سنة من أيامه من الحوادث فى كتابنا أخبار الزمان والاوسط فأغنى ذلك عن اعادته فى هذا الكتاب

(ذكر خلافة المعتضد بالله)

وبويع أبو العباس أحمد بن طلحة المعتضد بالله فى اليوم الذى مات فيه المعتمد على الله عمه وهو يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وأمه أم ولد رومية يقال لها ضرار وكانت وفاته يوم الاحد لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين فكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر ويومين وتوفى بمدينة السلام وله سبع وأربعون سنة وقيل انه ولى الخلافة وهو ابن احدى وثلاثين سنة وتوفى سنة تسع وثمانين على ماذكرنا وله أربعون سنة وأشهر على تباين أصحاب التواريخ فى كتبهم وما أرخوه فى أيامهم والله الموفق

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان فى أيامه)

ولما أفضت الخلافة الى المعتضد بالله سكنت الفتن وصلحت البلدان وارتفعت الحروب ورخصت الاسعار وهدأ الهرج وسالمه كل مخالف وان كان مظفرا قد دانت له الامور وانفتح له الشرق والغرب وأديل له فى أكثر المخالفين عليه والمنابذين له وظفر بهرون الشارى وكان صاحب المملكة والقيم بأمر الخلافة بدر مولاه واليه جميع المعارف فى جميع الآفاق واليه أحمل الجيوش وسائر القواد وخلف المعتضد فى بيوت الاموال تسعة آلاف ألف دينار ومن الورق أربعون ألف ألف درهم والدواب والبغال والحمير والجمال اثنى عشر ألف رأس وكان مع ذلك شحيحا بخيلا ينظر فيما لا ينظر فيه العوام (وحكى عبد الله بن حمدون) وكان نديمه وخاصته وممن كان يأنس به فى خلواته أنه أمر أن تنقص حشمه ومن كان يجرى عليه من الاتراك من كل رغيف أوقية وأن يبتدأ بأمر خبز الارز للوصائف عددا من الرغفان فيها ثلاث وأربع كذا وأكثر من ذلك قال ابن حمدون فتعجبت من ذلك فى أول أمره ثم تبينت القصة فاذا أنه يتوفر من ذلك فى كل شهر مال عظيم وتقدم الى خزانه أن يحاز له من الثياب التسترية والدبيقية (١) أحسنها التقطيعها لنفسه (وكان) مع ذلك قليل الرحمة كثير الاقدام سفاكا للدماء شديد الرغبة

فى أن يمثل عن بقتله (وكان) اذا غضب على القائد النبيل والذى يخصه من غلمانه أمر أن تحفر له حفيرة ثم يدلى على رأسه فيها ويطرح التراب عليه ونصفه الاسفل ظاهر على التراب ويداس التراب فلا يزال كذلك حتى تخرج روحه من دبره (وذكر) من عذابه أنه كان يأخذ الرجل فيكتف ويقيد فيؤخذ القطن فيحشى فى أذنه وخيشومه وفيه وتوضع المنافخ فى دبره حتى ينفخ ويعظم جسمه ثم يسد الدبر بشئ من القطن ثم يفصد وقد صار كالجمل العظيم من العرقين الذين فوق الحاجبين فتخرج النفس من ذلك الموضع وربما كان يقتل الرجل فى أعلى القصر مجردا موثقا ويرمى بالنشاب حتى يموت (واتخذ) المطامير وجعل فيها صنوف العذاب وجعل عليها الحرمى المتولى لعذاب الناس ولم يكن له رغبة الا فى النساء والبناء فانه أنفق على قصره المعروف بالثريا أربعمائة ألف دينار وكان طول قصره المعروف بالثريا ثلاثة فراسخ (وأقر عبيد الله) بن سليمان على وزارته فلما مات استوزر القاسم بن عبيد الله (وقد كان المعتضد) فى هذه السنة وهى سنة تسع وسبعين ومائتين ركب يوم الفطر وهو يوم الاثنين الى مصلى اتخذه بالقرب من داره وكبر فى الركعة الأولى ست تكبيرات وفى الآخرة تكبيرة واحدة ثم صعد المنبر فحصر ولم تسمع له خطبة (ففى ذلك) يقول بعض الشعراء

حصر الامام ولم يبين خطبة * للناس فى حل ولا احرام

ماذاك الا من حياء لم يكن * ما كان من عى ولا افحام

(وفى هذه السنة) قدم الحسن بن عبد الله المعروف بابن الجصاص رسولا من مصر لخماروية بن أحمد ومعه هدايا كثيرة وأموال جليلة فوصل الى المعتضد يوم الاثنين لثلاث خلون من شوال وخلع عليه وعلى سبعة نفر معه ثم سعى فى تزويج ابنة خمارويه من على المكتفى فقال المعتضد انما أراد أن يتشرف بنا وأنا أزيد فى تشريفه أنا أتزوجها فتزوجها وتولى ابن الجصاص أمرها وحمل جهازها فقيل انه حمل معها جوهر الم يجتمع مثله عند خليفة قط فاقتطع ابن الجصاص بعضه وأعلم قطر الندا بنت خمارويه أن ما أخذ نمودع لها عنده الى وقت حاجتها اليه فماتت والجوهر عنده فكان ذلك سبب غناه واستقلاله وقد كانت لابن الجصاص محن بعد ذلك فى أيام المقتدر وما كان من القبض عليه وما أخذ منه من الاموال بهذا السبب وغيره وحمل المعتضد صداق قطر الندا وهو بمدينة بلد (١) الى أبى الجيش وكان الصداق ألف ألف درهم وغير ذلك من المتاع والطيب ولطائف الصين والهند والعراق وكان مما خص به أبا الجيش فى نفسه وحباه به بدرة من الجوهر الثمين فيها در وياقوت وأنواع من الجوهر ووشاح وتاج واكليل وقبل قلنسوة وكردف وكان وصولهم الى مصر فى رجب سنة ثمانين ومائتين وانحدر المعتضد من مدينة بلد والموصل بعد أن حمل ما وصفنا الى مدينة السلام فى الماء (وحدث أبو سعيد) أحمد ابن الحسين بن منقذ قال دخلت يوما على الحسين بن الجصاص واذا بين يديه سفط (٢) خمار مبطن بالحرير فيه جوهر قد نظم منه سبح فرأيت شيأ حسنا ووقع فى نفسى أن عددها يجاوز العشرين فقلت له جعلنى الله فداك كم عدد كل سبحة فقال لى مائة حبة وزن كل حبة كوزن صاحبتها لا تزيد ولا تنقص قد عدلت كل سبحة وزن صاحبتها واذا بين يديه سبائك ذهب توزن بقبان كما يوزن الحطب فلما خرجت من عنده تلقانى أبو العيناء فقال لى يا أبا سعيد على أى حال

تركت هذا الرجل فوصفت له ما رأيت فقال رافعا رأسه الى السماء اللهم انك لم تساو بيني وبينه في العمى ثم اندفع يبكي فقلت يا أبا عبد الله ما شأنك فقال لا تنكر ما رأيت مني لو رأيت ما رأيت لسعفت ثم قال الحمد لله على هذه الحالة وقال يا أبا سعيد ما حمدت الله تعالى على العمى الا في وقتي هذا فقلت لمن يخبر حال ابن الجصاص بأي شئ ختم هذه السجع فقال بياقوتة حمراء العل قيمتها أكثر مما تحتها (وكانت وفاة أبي العيناء) سنة اثنتين وثمانين ومائتين بالبصرة في جمادى الآخرة وكان يكنى بأبي عبد الله وكان قد انحدر من مدينة السلام الى البصرة في زورق فيه ثمانون نفسا في هذه السنة فغرق الزورق ولم يتخلص مما كان فيه الا أبو العيناء وكان ضريرا اتعلق بطلال الزورق فأخرج حيا وتلف كل من كان معه فبعد أن سلم ودخل البصرة مات (وكان) لابي العيناء من اللسان وسرعة الجواب والذكاء مالم يكن عليه أحد من نظرائه وله أخبار حسان وأشعار ملاح مع أبي البعير وغيره وقد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا (وحضر) مجلس بعض الوزراء فتذاكروا حديث بعض البرامكة وكرمهم وما كانوا عليه من الجود فقال الوزير لابي العيناء وقد كان أمعن في وصفهم وما كانوا عليه من البذل والافضال قد أكثرت من ذكرهم ووصفك اياهم وانما هذا من تصنيف الوراقين وتأليف المحسنين فقال له أبو العيناء فلم لا يكذب الوراقون عليك أيها الوزير بالبذل والجود فأمسك عنه الوزير وتعجب الناس من اقدامه عليه (واستأذن) يوما على الوزير صاعد بن مخلد فقال له الحاجب الوزير مشغول فانتظر فلما أبطأ اذنه قال للحاجب ما صنع الوزير قال يصلي قال صدقت لكل جديد لذة يعيره بأنه حديث عهد بالاسلام (وقد كان أبو العيناء) دخل على المتوكل في قصره المعروف بالجعفري وذلك في سنة ست وأربعين ومائتين فقال له كيف قولك في دارنا هذه فقال ان الناس بنوا الدور في الدنيا وأنت بنيت الدنيا في دارك فاستحسن ذلك ثم قال له كيف شربك النبيذ فقال أعجز عن قليله وأفتضح من كثيره فقال له دع هذا عنك ونادمنا فقال أنا امرؤ محجوب والمحجوب تختطف اشارته ويجور قصده وينظر منه الى ما لا ينظر اليه وكل من في مجلسك يخدمك وأنا أحب أن أخدم وأخرى لست آمن أن تنظر الى بعين راض وقلبك غضبان أو بقلب غضبان وعينك راضية ومتى لم أميز بين هاتين هلكت فأختار العافية على التعرض للبلاء واحفظ فقال بلغنا عنك بذاء قال يا أمير المؤمنين قد مدح الله تعالى وذم فقال نعم العبد انه أواب وقال جل ذكره همازمشاء بنميم الآية فان لم يكن البذاء بمنزلة العقرب يلدغ النبي والذمي فلا ضير في ذلك قال الشاعر

اذا أنا بالمعروف لم أك صادقا * ولم أشتم النكس اللئيم المذمما
ففيم عرفت الخير والشر باسمه * وشق لي الله المسامع والفما

قال من أين أنت قال من البصرة قال ما تقول فيها قال ماؤها أجاج وحرها عذاب وتطيب في الوقت الذي تطيب فيه جهنم وكان وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان واقفا على رأسه قال ما تقول في عبيد الله بن يحيى بن خاقان قال نعم العبد منقسم بين طاعة الله تعالى وخدمتك ودخل ميمون بن ابراهيم صاحب ديوان البريد فقال له ما تقول في ميمون قال يد تسرق واست تضرط وهو بمنزلة يهودي قد سرق نصف خزينته له اقدام ومعه احجام احسانه تكلف واساءته طبيعة

فأضحك ذلك منه ووصله وصرفه (وفى سنة) ثلاث وثمانين ومائتين وردت هدايا من قبل عمرو بن الليث الصفار مائة دابة من مهارى خراسان وحمارات كثيرة وصناديق كثيرة وأربعة آلاف ألف درهم وكان معها صنم من صفر على مثال امرأة لها أربعة أيد وعليها وشاحان من فضة مرصعان بالجوهر الاحمر والابيض وبين يدى هذا المثال أصنام صغار لها أيد ووجوه وعليها الحلى والجوهر وكان هذا التمثال على عجل قد عمل على مقدارها تجره الجمازات فصير بذلك أجمع الى دار المعتضد ثم رد هذا التمثال الى مجلس الشرطة فى الجانب الشرقى فنصب للناس ثلاثة أيام ثم رد الى دار المعتضد وذلك يوم الخميس لاربع خلون من شهر ربيع الآخر من هذه السنة فسمت العامة هذا التمثال شغلا لاشتغالهم عن أعمالهم بالنظر اليه عدة هذه الايام وقد كان عمرو ابن الليث قد حمل هذا الصنم من مدن افتتحها من بلاد الهند ومن جبالها مما يلى بلاد يسط ومعبر (١) وبلاد الدوار وهى ثغور فى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة مما يليها من الاكابر والامم المختلفة حضر وبدو من الخضر بلاد كابل وبلاد ماحان وهى بلاد متصلة ببلاد رابلستان والرخج وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب فى أخبار الامم الماضية والملوك الغابرة أن رابلستان تعرف ببلاد فيروز بن كبك ملك رابلستان (وقد كان) عيسى بن على بن ماهان دخل فى طلب الخوارج فى أيام الرشيد الى السند وجبالها والقندهار والرخج ورابلستان يقتل ويفتح فتوحا لم يتقدم مثلها فى تلك الديار. (فى ذلك يقول) الاعمى الشاعر المعروف بابن القذافى القمى

كاد عيسى يكون ذا القرنين * بلغ المغربين والمشرقين
لم يدع كابلا ولا رابلستا * ن فما حولها الى الرخجين

وقد قدمنا فيما سلف من كتبنا الاخبار عن قلاع فيروز بن كبك الملك ببلاد رابلستان التى ليس فى قلاع العالم على ما ظهر للناس من ذوى العناية والتنقير ومن أكثر فى الارض المسير أحصن منها ولا أمنع ولا أعلى فى الجو ولا أكثر عجائب منها وذكرنا عجائب تلك الديار الى بلاد الطبسين وبلاد خراسان واتصالها بسجستان وعجائب المشرقين والمغربين من عامر وغامر وما فى الامم من الامم المختلفة الخلق والخلق (وقد كان) أهل البصرة وردوا على المعتضد فى مراكب بحرية بيض مشحمة بالشحم والنورة على ما فى بحرهم ووفد فيها خلق من خطبائهم ومتكلميهم وأهل الرياسة والشرف والعلم منهم أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى وكان مولى آل جمح من قريش وكان ولى القضاء بعد ذلك يشكون الى المعتضد ما نزل بهم من محن الزمان وجدب لحقهم وجور من العمال اعتورهم وألحوا بالصياح والضجيج فى مراكبهم فى دجلة فجلس لهم المعتضد من وراء حجاب وأمر الوزير القاسم بن عبيد الله وغيره من كتاب الدواوين بالجلوس لهم بحيث يسمع المعتضد خطابهم فيقضون لهم بما يشكونه من حكم الدواوين ثم أذن للبصريين فدخلوا وأبو خليفة فى أولهم عليهم الطيالسة الزرق والاقناع على رؤسهم ذوو عوارض جلة وهيئة حسنة فاستحسن المعتضد ما رأى منهم وكان المبتدئ منهم بالنطق أبو خليفة فقال غمر العامر ودثر الظاهر واختلفت الاهواء وخسفت الجوزاء وأناخت علينا المصائب واعتورتنا المحن وقام كل رجل منا فى ظلمة واصطلمت الضياع وانخفضت القلاع فنظر الينا بعين الامام

تستقيم

تستقيم لك الايام وتنقاد لك الانام والافهن البصريون لاندفع عن فضيلة ولاننافس عن جليلة وسجع فى كلامه وأغرق فى خطابه فقال له الوزير أحسبك مؤدّبا أيها الشيخ فقال له أيها الوزير المؤدّبون أجلسوك هذا المجلس قال له الوزير كم فى خمس من الابل قال له أبو خليفة للخبير سألت فى خمس من الابل شاة وفى العشر شاتان ثم مضى فى وصف فرائض الابل واصفا لما يجب فيها ذاكرا للتنازع فى موضعه منها ثم شرع فى البقر والغنم بلسان فصيح وخطاب حسن فى ايجاز من خطاب وبيان من الوصف فبعث المعتضد وقد أعجبه ماسمع وأكثر لذلك من الضحك بخادم الى الوزير فقال له اكتب لهم عما يريدون وأجبهم الى ماسألوه ولاتصرفهم الاشاكرين فهذا شيطان قذف به البحر ومثله فليقذف على الملوك (وكان) ابو خليفة لايتكلف الاعراب بل قد صار له كالطبع لدوام استعماله اياه من عنفوان حداثته وكان ذا محل من الاسناد (وله أخبار) ونوادر حسان قد دوّنت (منها) أن بعض عمال الخراج بالبصرة كان مصروفا من عمله وابو خليفة مصروفا عن قضائه فبعث العامل الى أبى خليفة أن مبرمان (١) النحوى صاحب أبى العباس المبرد قد زارنى فى هذا اليوم الى بعض الانهار والبساتين فأتوه متنكرين مع من حضرنا من أصحابنا وسألوه الحضور معهم فجلسوا فى سمارية متفكهين قد غيروا ظواهر زيهم حتى أتوا نهرا من أنهار البصرة وقدم اليهم ماحملوا معهم من الطعام وكان أيام المبادى وهى الايام التى يثمر فيها التمر والرطب فيكبسونه فى القواصر غرا وتكون حينئذ البساتين مشحونة بالرجال ممن يعمل فى التمر من الاكرة وهم الزراع وغيرهم فلما أكلوا قال بعضهم لابى خليفة غير مكترث له خوفا أن يعرفه من حضر ممن ذكرنا من الاكرة والعمال فى النخل أخبرنى أطال الله بقاءك عن قول الله عزوجل قوا أنفسكم وأهليكم نارا هذه الواو ماموقعها من الاعراب قال أبو خليفة موقعها رفع وقوله قوا هو أمر للجماعة من الرجال قال له كيف تقول للواحد من الرجال وللاثنين قال يقال للواحد من الرجال ق وللاثنين قيا وللجماعة قوا قال كيف تقول للواحدة من النساء وللاثنين منهن وللجماعة منهن قال أبو خليفة يقال للواحدة قى وللاثنين قيا وللجماعة قين قال فأسألك أن تجمل بالجملة كيف يقال للواحد من الرجال والاثنين والجماعة والواحدة من النساء والاثنين منهن والجماعة منهن قال أبو خليفة بجملان ق قيا قوا قى قيا قين وكان بالقرب منهم جماعة من الاكرة فلما سمعوا ذلك استعظموه وقالوا يازنادقة أنتم تقرؤن القرآن بحرف الدجاج وغدوا عليهم فصفعوهم فما تخلص أبو خليفة والقوم الذين كانوا معه من أيديهم الا بعد كد طويل (وقد أتينا) على نوادر أبى خليفة وأخباره ومخاطبته لبغلته حين أتته وما تكلم به حين دخول اللص الى داره وغير ذلك فى كتابنا الاوسط (وكانت) وفاة أبى خليفة بالبصرة فى سنة خمس وثلثمائة (وفى سنة) ست وثمانين ومائتين فى ربيع الاول نزل المعتضد على آمد وذلك بعد وفاة أحمد بن عيسى ابن الشيخ عبد الرزاق وقد تحصن بها ولده محمد بن أحمد بن عيسى بن عبد الرزاق فبث جيوشه حولها وحاصرها فحدث علقمة بن عبد الرزاق قال حدثنا رواحة بن عيسى بن عبد الملك عن شعلة بن شهاب اليشكرى قال وجه بى المعتضد الى محمد بن أحمد بن عيسى ابن الشيخ لآخذ بالحجة عليه فلما سرت اليه واتصل الخبر بأم الشريف أرسلت الى فقالت ياشهاب كيف خلفت أمير المؤمنين قال فقلت خلفته والله ملكا جذلا وحكما عدلا آمرا بالمعروف فعالا للخير

متعززا على أهل الباطل بتذللا للحق لا تأخذه في الله لومة لائم قال فقالت لي هو والله أهل لذلك ومستحقه ومستوجبه وكيف لا يكون ذلك كذلك وهو ظل الله الممدود على بلاده وخليفته المؤتمن على عباده أعزبه دينه وأحيا به سنته وثبت به شريعته ثم قالت لي وكيف رأيت صاحبنا تعني ابن أخيها محمد بن أحمد قال فقلت رأيت غلاما حدثا معجبا قد استحوذ عليه السفهاء فاستمد بآرائهم وأنصت لاقوالهم فهم يزخرفون له الكلام ويوردونه الندم فقالت لي فهل لك أن ترجع اليه بكتاب فلعلنا أن نحل ما عقده السفهاء قال قلت أجل فكتبت اليه كتابا لطيفا حسنا أجزلت فيه الموعظة وأخلصت فيه النصيحة وكتبت في آخره هذه الابيات

اقبل نصيحة أم قلبها وجع * عليك خوفا واشفاقا وقل سددا
واستعمل الفكر في قولي فانك ان * فكرت ألفيت في قولي لك الرشدا
ولا تثق برجال في قلوبهم * ضغائن تبعث الشنآن والحسدا
مثل النعاج تجول في بيوتهم * حتى اذا امنوا ألفيتهم أسدا
وداو ذلك والأدواء ممكنة * واذ طبيبك قد ألقى اليك يدا
واعط الخليفة ما يرضيه منك ولا * تمنعه مالا ولا أهلا ولا ولدا
واردد أبا شكر ردا يكون له * ردا من السوء لا تشمت به أحدا

قال فأخذت الكتاب وسرت به الى محمد بن أحمد فلما نظر فيه رمى به الي ثم قال يا أبا شكر ما بآراء النساء تساس الدول ولا بعقولهن يساس الملك ارجع الى صاحبك فرجعت الى أمير المؤمنين فأخبرته الخبر عن حقه وصدقه فقال وأين كتاب أم الشريف قال فأظهرته فلما عرض عليه أعجبه شعرها وعقلها ثم قال والله اني لارجو أن أشفعها في كثير من القوم فلما كان في فتح آمد ما كان ونزل محمد بن أحمد على الامان لما عظم القتال وجه الى أمير المؤمنين فقال يا شعلة بن شهاب هل عندكم علم من أم الشريف قال قلت لا والله يا أمير المؤمنين قال امض مع هذا الخادم فانك تجدها في جملة نسائها قال فمضيت فلما بصرت بي أسفرت عن وجهها وأنشأت تقول

ريب الزمان وصرفه * وعتوه كشف القناعا
وأذل بعد العز منا الصعب والبطل الشجاعا
ولقد نصحت فما أطعـ * ـت وكم حرصت بأن أطاعا
فأبى بنا المقدور الا أن نقسـ * ـم أو نباعا
ياليت شعري هل نرى * يوما لفرقتنا اجتماعا

قال ثم بكت وضربت بيدها على الاخرى ثم قالت لي يا شهاب كأني والله كنت أرى ما أرى فانا لله وانا اليه راجعون قال فقلت لها ان أمير المؤمنين قد وجهني اليك وما ذاك الا لحسن رأي منه فيك قالت فهل لك أن توصل اليه كتابي هذا بما فيه قلت نعم فكتبت اليه بهذه الابيات

قل للخليفة والامام المرتضى * رأس الخلائق من قريش الابطح
بك أصلح الله البلاد وأهلها * بعد الفساد وطالما لم تصلح
وتزحزحت بك قبة العزاقي * لولاك بعد الله لم تتزحزح

وأراك ربك ما تحب فلا ترى * ما لا يحب فجد بعفوك واصفح
يا بهجة الدنيا وبدر ملوكها * هب ظالمي ومفسدي لمصلح

قال فأخذت الكتاب وسرت به الى أمير المؤمنين فلما عرضت عليه الابيات أعجبته وأمر أن يحمل اليها نحو من الثياب وجملة من المال والى ابن أخيها محمد بن أحمد مثل ذلك وشفعها في كثير من أهلها ممن عظم جرمه واستحق العقوبة عليه (وكتب) المعتضد الى أحمد بن عبد العزيز ابن أبي دلف بمواقعة رافع بن هرثمة وذلك في سنة سبع وسبعين ومائتين فسار أحمد بن عبد العزيز الى رافع والتقوا بالري لسبع بقين من ذي القعدة من هذه السنة وأقامت الحرب بينهم أياما ثم كانت على رافع بن هرثمة فولى وركب أصحاب ابن أبي دلف أكتافهم واستولوا على عسكرهم وكان وصول هذا الخبر الى بغداد لست خلون من ذي الحجة من هذه السنة (وفي سنة) ثمانين ومائتين أخذ ببغداد رجل يعرف بمحمد بن الحسن بن سهل ابن أخي ذي الرياستين الفضل ابن سهل يلقب بشيلمة ومعه عبيد الله بن المهتدي ولمحمد بن الحسن بن سهل هذا تصنيفات في أخبار المبيضة وله كتاب مؤلف في أخبار علي بن محمد صاحب الزنج على حسب ما ذكرنا من أمره فيما سلف من هذا الكتاب فأقر عليه جماعة من المستأمنة من عسكر العلوي وأصيبت له جرائد فيها أسماء رجال قد أخذ عليهم البيعة لرجل من آل أبي طالب وكانوا قد عزموا على أن يظهروا ببغداد في يوم بعينه ويقتلوا المعتضد فأدخلوا الى المعتضد فأبى من كان مع محمد بن الحسن أن يقروا وقالوا أما الرجل الطالبي فانا لا نعرفه وقد أخذت علينا البيعة له ولم نره وهذا كان الواسطة بيننا وبينه يعنون محمد بن الحسن فأمر بهم فقتلوا واستبقى شيلمة طمعا في أن يدله على الطالبي وخلى عبيد الله بن المهتدي لعلمه ببراءته ثم أراد المعتضد بالله محمد بن الحسن بجميع الجهات أن يدله على الطالبي الذي أخذ له العهد على الرجال فأبى وجرى بينه وبين المعتضد خطب طويل وكان في مخاطبته للمعتضد أن قال لو شويتني على النار ما زدتك على ما سمعت مني ولم أقر على من دعوت الناس الى طاعته وأقررت بامامته فاصنع ما أنت له صانع فقال له المعتضد لسنا نعذبك الا بما ذكرت فذكر أنه جعل في حديدة طويلة أدخلت في دبره وأخرجت من فيه وأمسك بأطرافها على نار عظيمة حتى مات بحضرة المعتضد وهو يسبه ويقول فيه العظائم والاشهر أنه جعل بين رماح ثلاثة وشد أطرافها وكتف وجعل فوق النار من غير أن يماسها وهو في الحياة يديرها ويشوى كما تشوى الدجاج وغيرها الى أن تفرقع جسمه وأخرج فصلب بين الجسرين من الجانب الغربي (وفي هذه السنة) كان خروج المعتضد في طلب الاعراب من بني شيبان وكانوا عتوا وأكثروا الفساد وأوقع بهم مما يلي الجزيرة والدواب في الموضع المعروف بوادي الذئاب فقتل وأسر وساق الذراري وسار الى الموصل (وفي هذه السنة) افتتح أبو عبيد الله بن أبي الساج المراغة من بلاد اذربيجان فقبض على عبيد الله بن الحسن واستبقى أمواله ثم أتى عليه بعد ذلك (وفي هذه السنة) كانت وفاة أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف (وفي هذه السنة) افتتح أحمد بن ثور عمان وكان مسيره اليها من بلاد البحرين فواقع الشراة من الاباضية (١) وكانوا في نحو من مائتي ألف وكان امامهم الصلت بن مالك بيلاد برو من أرض عمان وكانت له عليهم فقتل منهم مقتلة عظيمة وحمل كثيرا من رؤسهم الى بغداد (وفيها)

دخل المعتضد بغداد منصرفا من الجزيرة (وفي هذه السنة) كان دخول عمرو بن الليث ...
(وفي هذه السنة) نقلت ابنة محمد بن أبي الساج الى بدر غلام المعتضد وقد أتينا على خبر ابن أبي
الساج وما كان من تزويجه ابنته لبدر بحضرة المعتضد وما كان من خبر ابن أبي الساج وورود
من باب خراسان وخروجه الى اذربيجان في الكتاب الاوسط (وفي هذه السنة) سار اسمعيل بن
أحمد بعد وفاة أخيه نصر بن أحمد واستيلائه على امرة خراسان الى أرض الترك فافتتح المدينة
الموصوفة من مدنهم بدار الملك وأسر خاتون زوجة الملك وأسر خمسة عشر ألفا من الترك وقتل
منهم عشرة آلاف ويقال ان هذا الملك يقال له طنكس وهذا الاسم سمة لكل ملك لهذا الجيل
من ملوكهم وأراهم من الجنسين المعروفين بالخلجية وقد أتينا فيما سلف من هذا الكتاب على ذكر
من أخبار الترك وأجناسهم وأوطانهم وكذلك فيما سلف من كتبنا (وفي سنة) احدى وثمانين
ومائتين كانت الحرب بين وصيف خادم ابن أبي الساج وعمرو بن عبد العزيز ببلاد الجبل وكان من
أمره ما ذكرنا فيما سلف من كتبنا وكان المعتضد خرج في هذه السنة الى الجبل لامور بلغته من
قصة محمد بن زيد العلوي الحسني صاحب بلاد طبرستان وولى ولده عليا المكتفي الري وأنزله بها
وأضاف اليه قزوين وزنجان وأبهر وقم وهمدان وانصرف المعتضد الى بغداد وقد قلد عمرو بن عبد
العزيز اصبهان وكرخ بعد ابن أبي دلف وفيها استأمن الى المكتفي على كوره ... سار الى المعتضد
في عدة كثيرة وفيها سار طغج بن شيث بن الاخشيد صاحب مصر في هذا الوقت وهو سنة اثنتين
وثلاثين وثلثمائة في عساكر كثيرة من دمشق فدخل طرسوس غازيا وافتتح لورية مما يلي بلاد
برغوث ودرب الراهب (وفي هذه السنة) نزل المعتضد على حمدان بن حمدون وقد تحصن في
القلعة المعروفة بالصوارة نحو عين الزعفران وسار اسحق بن أيوب العنبري ومن كان معه
من أصحابه الى المعتضد وقد أتينا على خبر حمدان بن حمدون وما كان من أمره وصعوده الجبل
الجودي وعبوره دجلة وكاتبه النصراني ودخول عسكر المعتضد لائذا الى اسحق بن يعقوب حتى
أتى به الى المعتضد واخراب المعتضد لهذه القلعة وقد كان حمدان أنفق عليها أموالا جليلة وهو
حمدان بن حمدون بن الحرث بن منصور بن لقمان وهو جد أبي محمد الحسن بن عبد الله الملقب
بناصر الدولة في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وما كان من الحسين بن حمدان في
طلبه هرون الشاري وما كان من أخذ الحسين بن حمدان اياه بعد هذا الموضع فيما يرد من هذا
الكتاب (قال المسعودي) وفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين ذبح أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن
طولون بدمشق في ذي القعدة وقد كان بنى في سفح الجبل أسفل من دير مران قصرا كان يشرب
فيه في تلك الليلة وعنده طغج وكان الذي تولى ذلك خادما من خدمهم وأتي بهم على أثر فقتلوا
وصلبوا ومنهم من رمي بالنشاب ومنهم من شرح لحمه من أفخاذه وعجيزته وأكله السودان
مماليك أبي الجيش وقد أتينا على أخبار الخدم من السودان والصقالبة والروم والصين وذكر
أن أهل الصين يخصون كثيرا من أولادهم كفعل الروم بأولادهم وما اجتمع عليه الناس من
الخصاء وذلك لما يحدث بهم من قطع هذا العضو في كتابنا أخبار الزمان وما أحدثته الفلسفة عند
الفلاسفة فيهم عند ذلك مما ذكره الناس فيهم وما ذكروه من الصفات (وذكر المدائني) أن معاوية
بن أبي سفيان دخل ذات يوم على امرأته فاختة وكانت ذات عقل وحزم ومعه خصي وكانت

مكشوفة الرأس لما رأت معه الخصى غطت رأسها فقال لها معاوية انه خصى فقالت يا أمير المؤمنين أترى المثلة به أحلت له ما حرم الله عليه فاسترجع معاوية وعلم أن الحق ما قالته فلم يدخل بعد ذلك على حرمه خادما وان كان كبيرا فانيا (وقد تكلم) الناس فيهم وذكروا الفرق بين المجبوب والمسلوب وأنهم رجال مع النساء ونساء مع الرجال وهذا خلف من الكلام وفاسد من المقال بل هم رجال وليس فى عدم عضو من أعضاء الجسد ما يوجب الحاقهم بما ذكروا ولا عدم نبت اللحية محيلا لهم عما وصفوا ومن زعم أنهم بالنساء أشبه فقد أخبر عن تغيير فعل البارى جل وعز لانه خلقهم رجالا ذكرانا لا اناثا وليس فى الجناية عليهم ما يقلب أعيانهم ويزيل خلق البارى جل وعز وقد قلنا فى علة عدم نتن الآباط فى الخدم وما قالته الفلاسفة فيما سلف من كتبنا لأن الخادم بطىء الا يوجد لآباطه رائحة وهذا من فضائل الخدم (وحمل أبو الجيش) فى تابوت الى مصر وورد الخبر بذلك الى مصر فأخرج من التابوت وجعل على السرير وذلك على باب مصر وخرج ولده الامير جيش وسائر الامراء والاولياء فتقدم القاضى أبو عبيد الله محمد بن عبدة المعروف بالعبدانى وصلى عليه وذلك فى الليل فحكى أبو بشر الدولابى عن أبى عبد الله النجارى وكان شيخا من أهل العراق وكان يقرأ فى دور آل طولون ومقابرهم أنه كان بات فى تلك الليلة ممن يقرأ عند القبر وقد قدم أبو الجيش ليدلى فى القبر ونحن نقرأ جماعة من القراء سبعة سورة الدخان فأحدر من السرير ودلى فى القبر وانتهينا من السورة فى هذا الوقت الى قوله عز وجل خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق انك أنت العزيز الكريم قال فخفضنا أصواتنا وأذعرنا حياء ممن حضر (ومما ذكر) من خبر المعتضد وحزمه فى الامور وحيله أنه أطلق من بيت المال لبعض الرسوم فى الجند عشر بدر فحملت الى منزل صاحب عطاء الجيش ليصرفها فيهم فنقب منزله فى تلك الليلة وأخذت العشر البدر فلما أصبح نظر الى النقب ولم ير المال فأمر باحضار صاحب الحرس وكان على الحرس يومئذ مؤنس العجلى فلما أتاه قال له ان هذا المال للسلطان والجند ومتى لم تأت به أو بالذى نقبه وأخذ المال ألزمك أمير المؤمنين غرمه فجد فى طلبه وطلب اللص الذى جسر على هذا الفعل فصار الى مجلسه وأحضر التوابين والشرط والتوابون هم شيوخ أنواع اللصوص الذين قد كبروا وتابوا فاذا جرت حادثة علموا من فعل من هى فدلوا عليه وربما يتقاسمون اللصوص ما سرقوه فتقدم اليهم فى الطلب وتهددهم وأوعدهم وطالبهم فتفرق القوم فى الدروب والاسواق والغرف والمواخير ودكاكين الرواسين ودور القمار فما لبثوا أن أحضروا رجلا نحيفا ضعيف الجسم رث الكسوة هين الحالة فقالوا يا سيدى هذا صاحب الفعلة وهو غريب من غير هذا البلد وأطبق القوم كلهم على أنه صاحب النقب ولص المال فأقبل عليه مؤنس العجلى فقال له ويلك من كان معك ومن أعانك وأين أصحابك ما أظنك تقدر على عشر بدر وحدك فى ليلة ما كنتم الا عشرة وأقل ذلك خمسة فاقرلى بالمال ان كان مجتمعا وعلى أصحابك ان كان المال قد قسم فما زاده على الانكار شيأ فأقبل يترفق به ويعده أن ينيه ويرزقه ويعظم جائزته ويعده بكل جميل على رده والاقرار به ويتوعده بكل مكروه على جحوده وانكاره فلما غاظه ذلك وأنكره ويئس من اقراره أخذ فى عقوبته ومسائلته فضربه بالسوط والقالوس والمقارع والدرة على

ظهره وبطنه وقفاه ورأسه وأسفل رجليه وكعابه وعضله حتى لم يكن للضرب فيه موضع وبلغ به ذلك الى حالة لا يعقل فيها ولا ينطق فلم يقر بشئ فبلغ ذلك المعتضد فأحضر صاحب الجيش فقال له ماصنعت فى المال فأخبره الخبر فقال له ويلك تأخذ لصا قد سرق من بيت المال عشر بدر فتبلغ به الموت والتلف حتى يهلك الرجل ويضيع المال فأين حيل الرجال فأتى به وقد حمل فى جل فوضع بين يديه وقد عقل فسأله فأنكر فقال له ويلك ان مت لم ينفعك وان برئت من هذا الضرب لم أدعك تصل اليه فلك الامان والضمان على ما تصلح به حالتك ويحمد به أمرك فأبى الا الانكار فقال على بأهل الطب فأحضروا فقال خذوا هذا الرجل اليكم فعالجوه بأرفق العلاج وواظبوا عليه بالمراهم والغذاء والتعاهد واجتهدوا أن تبرؤه فى أسرع وقت فأخذوه اليهم وأخرج ما لا مكان المال وأمر بتفريقه على الجند فيقال انه برئ وصلح فى أيام يسيرة ثم واظبوا عليه بالطعام والشراب والوطاء والطيب حتى صح وقوى جسمه وظهر لونه ورجعت اليه نفسه ثم ذكر به فأمر باحضاره فلما حضر بين يديه سأله عن حاله فدعا وشكر وقال أنا بخير ما أبقى الله أمير المؤمنين ثم سأله عن المال فعاد الى الانكار فقال له ويلك لست تخلو من أن تكون أخذته وحدك كله أو وصل اليك بعضه فان كنت أخذته كله فانك تنفقه فى أكل وشرب ولهو ولا أظنك تفنيه قبل موتك وان مت فعليك وزره وان كنت أخذت بعضه سمحنا لك به فأقر على أصحابك فانى أقتلك ان لم تقر ولا ينفعك بقاء المال بعدك ولا يبالى أصحابك بقتلك ومتى أقررت دفعت اليك عشرة آلاف درهم وأخذت لك من أصحاب الجسر مثل ذلك ورسمتك من التوابين وأجريت لك فى كل شهر عشرة دنانير تكفيك لأكلك وشربك وكسوتك وطيبك وتكون عزيزا وتنجو من القتل وتخلص من الاثم فأبى الا الانكار فاستحلفه بالله وأظهر له مصحفا فحلف عليه فقال انى سأظهر على المال فان أنا ظهرت عليه بعد هذه اليمين قتلتك ولم أستبقك فأبى الا الانكار فقال له فضع يدك على رأسى واحلف بحياتى فوضع يده على رأسه وحلف بحياته انه ما أخذه وانه مظلوم متهم وان التوابين قد تبرؤا به فقال له المعتضد فان كنت قد كذبت قتلتك وأنا برئ من دمك قال نعم فأمر باحضار ثلاثين أسود بحيث يراهم ويرونه وأمرهم أن يتناوبوا فى ملازمته فأتت عليه أيام وهو قاعد لا يتكئ ولا يستلقى ولا يضطجع وكلما خفق خفقة وجئ فكه ورفع رأسه حتى اذا ضعف وقارب التلف أمر باحضاره فأعاد عليه ما كان خاطبه به واستحلفه بالله وبغير ذلك من الايمان فحلف على ذلك كله وعالم يستحلفه به انه ما أخذ المال ولا يعرف من أخذه فقال المعتضد لمن حضر قلبى يشهد أنه برئ وأن ما يقول حق وان التوابين قد عرفوا صاحبه وقد أعنتنا فى هذا الرجل وسأله أن يجعله فى حل ففعل ثم أمر باحضار مائدة عليها طعام وأحضر بارد الشراب وأمره بالجلوس والاكل والشرب فاقبل يأكل ويشرب ويحث على الاكل ويلقم ويعاد الشراب عليه ويكرر حتى لم يبق للاكل والشرب موضع ثم أمر ببخور وطيب فبخر وطيب وأتى له بحشية ريش فوطئ له ومهد فلما استلقى واستراح وغفا أمر بازعاجه وسرعة ايقاظه فحمل من موضعه حتى أقعد بين يديه وفى عينيه الوسن فقال له حدثنى كيف صنعت وكيف نقبت ومن أين خرجت والى أين ذهبت بالمال ومن كان معك قال ما كنت الا وحدى وخرجت من النقب الذى دخلت منه

وكان

وكان مقابل الدار حمام له كوم شوك فوقد به فأخذت المال ورفعت ذلك الشوك والقماش والقصب فوضعته تحته وغطيته وهو هنالك فأمر برده الى فراشه فرد وأضجعوه عليه ثم أمر باحضار المال فأحضر عن آخره وأحضر مؤنس العجلى وأحضر الوزير والجلساء وقد غطى المال بالبساط ناحية من المجلس ثم أمر بايقاظ اللص وقد اكتفى فى النوم وذهب عنه الوسن فقال له بحضرة الجميع مثل قوله الاول فجحد وأنكر فأمر بكشف البساط وقال له ويلك أليس هذا المال أليس فعلت كذا وكذا يصف له ما كان حدثه به فأسقط فى يد اللص ثم أمر فقبض على يديه ورجليه وأوثق ثم أمر بمنفاخ فنفخ فى دبره وأتى بقطن فحشى فى أذنيه وفيه وخيشومه وأقبل ينفخ وخلى عن يديه ورجليه من الوثاق وأمسك بالايدى وقد صار كأعظم ما يكون من الزقاق المنفوخة وقد ورم سائر أعضائه وعظم جسمه وعيناه قد امتلأتا وبرزتا فلما كاد أن ينشق أمر بعض الاطباء فضربه فى عرقين فوق الحاجبين وهما فى الجبين فأقبلت الريح تخرج منهما مع الدم ولها صوت وصفير الى أن خمد وتلف وكان ذلك أعظم منظر رؤى فى ذلك اليوم من العذاب وقيل ان البدر كانت عينا وان عددها كان أكثر مما وصفنا (وقد كان ببغداد رجل) يتكلم على الطريق ويقص على الناس بأخبار ونوادر ومضاحك ويعرف بابن المغازلى وكان فى نهاية الحذق لا يستطيع من يراه ويسمع كلامه أن لا يضحك قال ابن المغازلى فوقفت يوما فى خلافة المعتضد على باب الخاصة أضحك وأنادر فحضر حلقتى بعض خدمة المعتضد فأخذت فى حكاية الخدم فأعجب الخادم بحكايتى وأشغف بنوادرى ثم انصرف عنى فلم يلبث أن عاد وأخذ بيدى وقال انى لما انصرفت عن حلقتك دخلت فوقفت بين يدى المعتضد أمير المؤمنين فذكرت حكايتك وما جرى من نوادرك فاستضحكت فرآنى أمير المؤمنين فأنكر ذلك منى وقال ويلك مالك فقلت يا أمير المؤمنين على الباب رجل يعرف بابن المغازلى يضحك ويحاكى ولا يدع حكاية أعرابى وتركى ومكى ونحوى ونبطى وزنجى وسندى وخادم الا حكاها ويخلط ذلك بنوادر تضحك الثكول وتصبى الحليم وقد أمرنى باحضارك ولى نصف جائزتك فقلت له وقد طمعت فى الجائزة السنية يا سيدى أنا ضعيف وعلى عيلة وقد من الله على بك فما عليك ان أخذت بعضها سدسها أو ربعها فأبى الا نصفها فطمعت فى النصف وقنعت به فأخذ بيدى وأدخلنى عليه فسلمت وأحسنت ووقفت فى الموضع الذى أوقفت فيه فرد على السلام وقد كان ينظر فى كتاب فلما نظر فى أكثره أطبقه ثم رفع رأسه الى وقال أنت ابن المغازلى قلت نعم يا أمير المؤمنين قال قد بلغنى أنك تحكى وتضحك وأنك تأتى بحكايات عجيبة ونوادر ظريفة قلت نعم يا أمير المؤمنين الحاجة تفتق الحيلة أجمع بها الناس وأتقرب الى قلوبهم بحكايتها ألتمس برهم وأتعيش بما أناله منهم قال فهات ما عندك وخذ فى فنك فان أضحكتنى أجزيتك بخمسمائة درهم وان لم أضحك فمالى عليك فقلت للجبن والخذلان ما معى الا قفاى فاصفعه ما أحببت وكم شئت وبما شئت فقال لى قد أنصفت ان أضحكتك فلك ما ضمنت وان أنا لم أضحك صفعتك بهذا الجراب عشر صفعات فقلت فى نفسى ملك لا يصفع الا بشئ يسير وبشئ خفيف هين ثم التفت واذا أنا بجراب أدم ناعم فى زاوية البيت فقلت فى نفسى ما أخطأ حزرى ولا أخلف ظنى وما عسى أن يكون من جراب فيه ريح ان أنا أضحكته ربحت وان أنا لم

أضحكه فأمر بعشر صفعات بجراب منفوخ هين ثم أخذت فى النوادر والحكايات والنفاسة والعبارة فلم أدع حكاية أعرابى ولا نحوى ولا مخنث ولا قاض ولا زطى ولا نبطى (١) ولا سندى ولا زنجى ولا خادم ولا اشارة ولا عبارة ولا نادرة ولا حكاية الا أحضرتها وأتيت بها حتى نفد جميع ما عندى وتصدع رأسى ولم يبق ورائى خادم الإهرب ولا غلام الاذهب لما استفزهم الضحك وورد عليهم من الامر فقلت يا أمير المؤمنين قد نفد والله ما معى وتصدع رأسى وذهب معاشى وما رأيت قط مثلك وما بقيت لى الا نادرة واحدة فقال هاتها فقلت يا أمير المؤمنين وعدتنى أن تصفعنى عشرا وجعلتها مكان الجائزة فاسألك أن تضعف الجائزة وتضيف اليها عشرا فأراد أن يضحك فاستمسك ثم قال نفعل يا غلام خذ بيده فأخذ بيدى ومددت قفاى فصفعت بالجراب صفعة فكأنما سقط على قفاى قلعة واذا فيه حصى مدور كأنه صنجات فصفعت به عشرا كادت أن تنفصل رقبتى وينكسر عنقى وطنت أذناى وقدح الشعاع من عينى فلما استوفيت العشرة صحت يا سيدى نصيحة فرفع الصفع عنى بعد أن عزم على ايفاء ما كنت سألته من اضعاف جائزتى فقال ما نصيحتك قلت يا سيدى انه ليس فى الدنيا أحسن من الامانة ولا أقبح من الخيانة وقد ضمنت للخادم الذى أدخلنى عليك نصف هذه الجائزة على قلتها أو كثرتها وأمير المؤمنين أطال الله بقاءه بفضله وكرمه قد أضعفها فقد استوفيت نصفها وبقى للخادم نصيبها فضحك حتى استلقى واستفزه ما كان قد سمعه منى أولا وتحامل له وصبر عليه فما زال يضرب بيده ويفحص برجله ويمسك بمراق بطنه حتى اذا سكن ضحكه ورجعت اليه نفسه قال على بفلان الخادم فأتى به وكان طوالا فأمر بصفعه فقال يا أمير المؤمنين أى شئ قضيتى وأى جناية جنايتى فقلت له هذه جائزتى وأنت شريكى وقد استوفيت نصفها وبقى نصيبك منها فلما أخذه الصفع وطرق قفاه الصافع أقبلت عليه أقول له أقول لك انى ضعيف معيل وشكوت اليك الحاجة والمسكنة وأقول يا سيدى لا تأخذ نصفها لك سدسها لك ربعها وأنت تقول ما آخذ الا نصفها ولو علمت أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه جوائزه صفع وهبتها لك كلها فعاد الى الضحك من قولى للخادم وعتابى له فلما استوفى صفعه وسكن أمير المؤمنين من ضحكه أخرج من تحت تكائه صرة قد كان أعدها فيها خمسمائة درهم ثم قال له وقد أراد الانصراف قف هذه كنت أعددتها لك فلم يدعك فضولك حتى أحضرت لك شريكا فيها ولعلى كنت أمنعه منها فقلت يا أمير المؤمنين وأين الامانة وقبح الخيانة وودت أنك كنت تدفعها كلها اليه وتصفعه مع العشرة عشرة أخرى وتدفع له الخمسمائة درهم فقسم الدراهم بيننا وانصرفنا (وفى سنة) اثنتين وثمانين ومائتين كانت وفاة اسمعيل بن اسحق القاضى والحرث بن أبى أسامة وبلال بن العلاء الرقى (وفى سنة) ثلاث وثمانين ومائتين نزل المعتضد تكريت (٢) وسار الحسن بن حمدان فى الاولياء لحرب هرون الشارى فكانت بينهم حرب عظيمة كانت للحسن بن حمدان عليه فأتى به المعتضد أسيرا بغير أمان ومعه أخوه فدخل المعتضد بغداد وقد نصبت له القباب وزينت له الطرقات وعبى المعتضد بالله جيوشه بباب الشماسية أحسن ما يكون من التعبئة وأكمل هيئة فاشتقوا بغداد الى القصر المعروف بالحسنى ثم خلع المعتضد على الحسن بن حمدان خلعا شرفه بها وطوقه بطوق من ذهب وخلع على جماعة من فرسانه ورؤساء أصحابه وأهله وشهرهم فى الناس

كرامة لما كان من فعلهم وحسن بلائهم ثم أمر بالشارى فأركب فيلا وعليه دراعة ديباج وعلى رأسه برنس خز طويل وخلفه أخوه على جمل فالج وهو ذو السنامين وعليه دراعة ديباج وبرنس خز وسيرهم فى أثر الحسن بن حمدان وأصحابه ثم دخل المعتضد فى أثره عليه قباء أسود وقلنسوة محدودة على فرس صاف عن يساره أخوه عبد الله بن الموفق وخلفه بدر غلامه وأبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب وزيره وابنه القاسم بن عبيد الله فأكثر الناس الدعاء له وتكاثف الناس فى منصرفهم من الجانب الشرقى الى الغربى فانخسف بهم كرسى الجسر الاعلى وسقط على زورق مملوء ناسا فغرق فى هذا اليوم نحو من ألف نفس ممن عرف دون من لم يعرف واستخرج الناس من دجلة بالكلاليب والغاصة وارتفع النحيب وكثر الصراخ من الجانبين جميعا فبينما الناس كذلك اذ أخرج بعض الغاصة صبيا عليه حلى فاخرة من ذهب وجوهر فبصر به شيخ من النظارة طرار (١) فجعل يلطم وجهه حتى دمى أنفه ثم تمرغ فى التراب وأظهر أنه ابنه وجعل يقول ياسيدى لم تمت اذ أخرجوك صحيحا سويا لم تأكل السمك ولم تمت حبيبى اذ كلت عينى بك مرة قبل الموت وأخذه فحمله على حمار ثم مضى به فبارح القوم الذين رأوا من الشيخ ما رأوا حتى أقبل رجل معروف باليسار مشهور من التجار حين بلغه الخبر وهو لا يشك الا أن الصبى فى أيديهم وايس بهمه ما كان عليه من حلى وثياب وانما أراد أن يكفنه ويصلى عليه ويدفنه فخبره الناس بالخبر فبقى هو ومن معه من التجار متحيرين مبهوتين وسألوا عنه واستبحثوا فاذا الاعين ولا أثر وعرف تواثبوا هذا الجسر هذا الشيخ المحتال فأيأسوا أبا الغريق منه وذكروا أنه شيخ قد أعياهم أمره وحيرهم كيده وأنه بلغ من حيله وخبثه ودهائه أنه أتى بوما من أول الصباح الى باب بعض العدول الكبار المشهورين بالرياسة واليسار ومعه جرة فارغة على عاتقه وفأس وزنبيل فقام فى ثوب خلق ولم يتكلم حتى وضع الفاس فى الدكاكين التى على باب ذلك العدل فهدمها وجعل يتقى الآجر ويعزله فسمع ذلك العدل بهدمها ووقع الفأس والهدم فخرج لينظر فاذا الشيخ دائب بهدم دكاكينه التى على باب داره فقال يا عبد الله أى شئ تصنع ومن أمرك بهذا فجعل الشيخ يعمل عمله ولا يلتفت الى العدل ولا يكلمه فاجتمع الجيران وهم فى المجاورة فأخذوا بيد الشيخ فوكزه هذا ودفعه هذا فالتفت اليهم فقال ويلكم أى شئ تريدون منى أما تستحيون تعبثون بى وأنا شيخ كبير فقالوا اما لنا والعبث بك ويحك من أمرك بهذا قال ويحكم أمرنى صاحب الدار فقالوا هذا صاحب الدار يكلمك قال لا والله ما هو هذا فلما سمعوا بكلامه وغفلته رحموه وقالوا هذا مجنون أو مخدوع خدعه بعض جيران هذا العدل ممن قد حسده على ما أنعم الله تعالى به عليه وهم الذين حملوا هذا الشيخ على هذا الفعل فلما منعوه من الهدم مضى الى الجرة التى جاء بها وقد كان وضعها الى جانب الباب فأدخل يده فيها كأنه قد خبأ ثيابه فيها فصرخ وبكى فلم يشك العدل أن محتالا خدعه وأخذ ثيابه فقال وأى شئ ذهب لك قال قميص جديد اشتريته أمس وملحفة لبيتى وسراويل فرقوا له جميعا ودعاه العدل فكساه ووهب له دراهم كثيرة ووهب له الجيران دراهم كثيرة وانصرف غانما وهذا الشيخ كان يعرف بالعقاب ويكنى بأبى الباز وله أخبار عجيبة وحيل وهو الذى احتال للمتوكل حين بايعه بختيشوع الطبيب أنه ان سرق من داره شيئا يعرفه فى ثلاث ليال ذكرت من ذلك الشهر فعليه

أن يحمل الى خزانة أمير المؤمنين عشرة آلاف دينار وان خرجت هذه الليالى ولم يتم عليه ماذكرناه فله البيعة المعين ذكرها فى المبايعة فأتى بهذا الشيخ فى عنفوان شبابه الى المتوكل نضمن للمتوكل أن يأخذ من دار بختيشوع شيأ لا ينكره وقد كان بختيشوع حرس داره وحصنها فى هذه الليالى فاحتال هذا الشيخ المعروف بالعقاب بحيل لطيفة الى أن سرق بختيشوع وجعله فى صندوق وأتى به المتوكل فى خبر ظريف وأنه رسول لعيسى بن مريم نزل الى بختيشوع بشمع أسرجه وتخليط عمله وبنج فى طعام اتخذه وأطعمه الحراس لداره فى تلك الليلة وقد ذكرنا ذلك فى كتابنا أخبار الزمان وهذا الشيخ قد برز فى مكايده وما أورده من حيله على دالة المحتالة وغيرها من سائر المكارين والمحتالين ممن سلف وخلف منهم (ولطلاب صنعة الكيميا) من الذهب والفضة وأنواع الجواهر من اللؤلؤ وغيره وصنعة أنواع الاكسيرات من الاكسير المعروف بالفرار وغيره واقامة الزئبق وصنعته فضة وغير ذلك ممن خدعهم وحيلهم فى القرع والمغناطيس والتقطير والتكليس والبوادق والحطب والفحم والمنافخ أخبار عجيبة وحيل قد أتينا على ذكرها ووجوه الخدع فيها وكيفية الاحتيال بها فى كتابنا أخبار الزمان وماذكروه فى ذلك من الاشعار وما عزوه الى من سلف من اليونانيين والروم مثل قلونطرة الملكة ومارية وماذكره خالد بن يزيد بن معاوية فى ذلك وهو عند أهل الصنعة من المتقدمين فيهم فى شعره الذى يقول فيه

خذ الطلق مع الاشق * وما يوجد فى الطرق
وشيأ يشبه البرقا * فدبره بلا حرق
فان أحببت مولاكا * فقد سودت فى الخلق

(وقد صنف) يعقوب بن اسحق بن الصباح الكندى رسالة فى ذلك وجعلها مقالتين يذكر فيها تعذر فعل الناس لما انفردت الطبيعة بفعله وخدع أهل هذه الصناعة وحيلهم وترجم الرسالة بابطال دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة من غير معادنهما وقد نقض هذه الرسالة على الكندى أبو بكر محمد بن زكريا الرازى الفيلسوف صاحب الكتاب المنصورى فى صناعة الطب الذى هو عشر مقالات وأرى القول أن ماذكره الكندى فاسد وأن ذلك قد يتأتى فعله ولابى بكر بن زكريا فى هذا المعنى كتب قد صنفها وأفرد كل واحد منها بنوع من الكلام فى هذه الصنعة فى الاحجار المغنية وغير ذلك من كيفية الاعمال وهذا باب قد تنازع الناس فيه ممن فعل قارون وغيره ونحن نعوذ بالله من التهوس فيما يخسف الدماغ ويذهب بنور الابصار ويكسف الالوان من بخار التصعيدات ورائحة الزاجات وغيرها من الجمادات (وفى سنة) ثلاث وثمانين ومائتين كان الفداء بالاسر بين المسلمين والروم فى شعبان وكان بدوه يوم الثلاثاء وفيه كان مسير جيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون من الشأم الى مصر فى جيوشه فخالفه طغج بدمشق بعد ذلك (وفيها) خرج عن جيش بن خمارويه خاقان المفلحى وبدقة بن كشحور وابن كنداج فساروا الى وادى القرى ودخلوا مدينة السلام فخلع عليهم المعتضد (وفيها) كان الشغب بمصر وقتل أحمد الماوردى بن محمد بن على الماردانى المقبوض عليه فى هذا الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة بمصر وقبض على جيش بن خمارويه ونصب أخوه هرون بن خمارويه

مكانه

مكانه وكانوا قد نقموا على جيش تقدمه لغلامه نجح المعروف بالطولونى وأخيه سلامة المعروف بالمؤتمن وقد كان أخوه سلامة هذا بعد ذلك صحب جماعة من الخلفاء منهم القاهر والراضى وأراه مع المتقى فى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة (وفى سنة) ثلاث وثمانين ومائتين كانت وفاة أبى عمرو مقدام بن عمرو الرعينى بمصر ليومين بقيا من شهر رمضان وكان من جلة الفقهاء ومن كبار أصحاب مالك (وفيها) ولى المعتضد يوسف بن يعقوب القضاء بمدينة السلام وخلع عليه وانتدبه للجانب الشرقى (وفى هذه السنة) وهى سنة ثلاث وثمانين ومائتين قبض المعتضد على أحمد بن الطيب بن مروان السرخسى صاحب يعقوب بن اسحق الكندى وسلمه الى بدر غلامه ووجه الى داره من قبض على جميع ماله وقرر جواريه على المال حتى استخرجوه فكان جملة ما حصل من العين والورق وثمن الآلات خمسين ومائة ألف دينار وكان ابن الطيب قد ولى الحسبة ببغداد وكان موضعه من الفلسفة لا يجهل وله مصنفات حسان فى أنواع من الفلسفة وفنون من الاخبار (وقد تنازع الناس) فى كيفية قتله والسبب الذى من أجله كان قتل المعتضد اياه وقد أتينا على ما قيل فى ذلك فى كتابنا المترجم بالاوسط فأغنى ذلك عن اعادته فى هذا الكتاب (وفيها) ورد الخبر بقتل عمرو بن الليث ورافع بن هرثمة (وفى سنة) أربع وثمانين ومائتين أدخل الى بغداد رأس رافع بن هرثمة ثم صلب ساعة من نهار ثم رد الى دار السلطان (وفى هذه السنة) كان لاهل بغداد ثورة مع السلطان لصياحهم بالخدم السودان يا عقيق صب ماء واطرح دقيق يا عاق يا طويل الساق وذلك أن الخدم فى دار السلطان منهم اجتمعوا فكلموا المعتضد بما يلحقهم فى الازقة والشوارع والدروب وسائر الطرق من الصغير والكبير من العوام فأمر المعتضد بجماعة من العامة فضربوا بالسياط فتشعب العامة لذلك (وفى هذه السنة) ظهر للمعتضد شخص فى صور مختلفة فى داره فكان تارة يظهر فى صورة راهب ذى لحية بيضاء وعليه لباس الرهبان وتارة يظهر شابا حسن الوجه ذا لحية سوداء بغير تلك البزة وتارة يظهر شيخا أبيض اللحية ببزة التجار وتارة يظهر بيده سيف مسلول وضرب بعض الخدم فقتله فكانت الابواب تؤخذ وتغلق فيظهر له أين كان فى بيت أو صحن أو غيره وكان يظهر له فى أعلى الدار التى بناها فأكثر الناس القول فى ذلك واستفاض الامر واشتهر فى خواص الناس وعوامهم وسارت به الركبان وانتشرت به الاخبار والقول فى ذلك على حسب ما كان يقع لكل واحد منهم فمن قائل ان شيطانا مريدا اصمد له يظهر فيؤذيه ومنهم من يقول ان بعض مؤمنى الجن رأى ما هو عليه من المنكر وسفك الدماء فظهر له رادعا وعن المنكر زاجرا ومنهم من رأى أن ذلك بعض خدمه كان قد هوى بعض جواريه فاحتال بحيلة فلسفية من بعض العقاقير الخاصة فيضعها فى فيه فلا يدرك بحاسة البصر وكل ذلك ظن وحسبان فاحضر المعتضد المعزمين واشتد قلقه واستوحش وحار عليه أمره فقتل وغرق جماعة من خدمه وجواريه وضرب وحبس جماعة منهم وقد أتينا على الخبر فى ذلك وما حكى عن افلاطون فى هذا المعنى وعلى خبر سعب أم المقتدر بالله والسبب الذى من أجله حبسها المعتضد وأراد قطع أنفها والتشويه بها فى كتابنا أخبار الزمان (وفى هذه السنة) ورد الخبر بقتل أبى الليث الحرث بن عبد العزيز بن أبى دلف بسيفه لنفسه فى الحرب وذلك أن سيفه كان على عاتقه

مشهرا فكابه فرسه فذبحه سيفه فأخذ عيسى النوشرى رأسه وأنفذه الى بغداد (وفى سنة خمس وثمانين ومائتين وقع صالح بن مدرك الطائى فى نبهان وسنبس (١) وغيرهم من طي بالحاج وعلى الحاج يحيى الكبير وكانت ليحيى مع صالح ومن معه من الطالبيين حرب عظيمة فى الموضع المعروف بقاع الاجفر وتشوش الحاج وأخذهم السيف فمات عطشا وقتلا خلائق من الحاج وأصاب يحيى ضربات كثيرة وكانت العرب ترتجز فى ذلك اليوم وتقول

ما إن رأى الناس كيوم الاجفر * الناس صرعى والقبور تحفر

وأخذ من الناس نحو من ألفى ألف دينار (وفى هذه السنة) وهى سنة خمس وثمانين ومائتين كانت وفاة أبى اسحق ابراهيم بن محمد الفقيه المحدث فى الجانب الغربى وله خمس وثمانون سنة وكانت يوم الاثنين لسبع بقين من ذى الحجة ودفن مما يلى باب الانبار وشارع الكبش والاسد وكان صدوقا عالما فصيحا جوادا عفيفا وكان زاهدا عابدا ناسكا وكان مع ما وصفنا من زهده وعبادته ضاحك السن ظريف الطبع سلس القياد ولم يكن معه تجبر ولا تكبر وربما مزح مع أصدقائه بما استحسن منه ويستقبح مع غيره وكان شيخ البغداديين فى وقته وظريفهم وناسكهم وزاهدهم ومسندهم فى الحديث وكان يتفقه لاهل العراق وكان له مجلس يوم الجمعة فى المسجد الجامع الغربى (وأخبرنا) أبو اسحق بن جابر قال كنت أجلس يوم الجمعة فى حلقة ابراهيم الحربى وكان يجلس الينا غلامان فى نهاية الحسن والجمال من الصورة والبزة من أبناء التجار من الكرخيين وبزتهما واحدة كأنهما روحان فى جسد إن قاما قاما معا وان قعدا قعدا معا فلما كان فى بعض الجمع حضر أحدهما وقد بان الاصفرار بوجهه والانكسار فى عينيه فتوسمت أن غيبة الآخر لعلة قد لحق الحاضر من أجل ذلك الانكسار فلما كان الجمعة الثانية حضر الغائب ولم يحضر الذى كان فى الجمعة الاولى منهما وان الصفرة والانكسار أبين فى لونه ونشاطه فعلمت أن ذلك للفراق بينهما ولاجل الالفة الجامعة لهما فلم يزالا يتسابقان فى كل جمعة الى الحلقة فأيهما سبق صاحبه الى الحلقة لم يجلس الآخر فصح عندى ما كان تقدم فى نفسى جواز كونه فلما كان فى بعض الجمع حضر أحدهما فجلس الينا وجاء الآخر فأشرف على الحلقة فاذا صاحبه قد سبق واذا المسبوق المطلع على الحلقة قد خنقته العبرة فتبينت ذلك فى حماليق عينيه واذا فى يسراه رقاع صغار مكتوبة فقبض بيمينه رقعة من تلك الرقاع وحذف بها فى وسط الحلقة وانساب بين الناس مارا مستحيا وأنا أرمقه ببصرى وكذلك جماعة ممن كان جالسا فى الحلقة وكان الى جانبى على اليمين أبو عبد الله على بن الحسين بن جورية وذلك فى عنفوان الشباب وأوان الحداثة فوقعت الرقعة بين يدى ابراهيم الحربى فقبض عليها ونشرها وقرأها وكان من شأنه فعل ذلك اذا وقعت فى يده رقعة فيها دعاء أن يدعو لصاحبها مريضا كان أو غير ذلك ويؤمن على دعائه من حضر فلما قرأ الرقعة أقبل يتأمل ما فيها تأملا شافيا لانه رأى ملقيها ثم قال اللهم اجمع بينهما وألف بين قلوبهما واجعل ذلك مما يقرب منك ويزلف لديك وأمنوا على دعائه كما جرت العادة منهم بفعله ثم أدرج الرقعة بسبابته وابهامه وحذفنى بها فتأملت ما فيها وقد كنت مستطلعا نحوها لتبين الملقى لها فاذا فيها مكتوب

عفا الله عن عبد أعان بدعوة * لخلين كانا دائمين على الود

الى

الى أن وشى واشى الهوى بنميمة * الى ذا الذى من هذا خالا عن العهد

فكانت الرقعة معى فلما كانت الجمعة الثانية حضرا معا واذا الاصفرار والانكسار قد زال فقلت لابى جويرية انى لارى الدعوة قد سبقت لهما بالاجابة من الله تعالى وان دعاء الشيخ كان على التمام ان شاء الله تعالى فلما كان فى تلك السنة كنت ممن حج فكانى أنظر اليهما بين منى وعرفات محرمين جميعا فلم أزل أراهما متألفين الى أن كهلا وأرى أنهما فى صف أصحاب الديباج فى الكرخ أو غيره من الصفوف (قال المسعودى) وهذا الخبر سمعته من ابراهيم ابن جابر القاضى قبل ولايته القضاء وهو يومئذ ببغداد يعالج الفقر ويتلقاه من خالقه بالرضا ناصرا للفقر على الغنى ثم امضت أيام حتى لقيته بحلب من بلاد قنسرين والعواصم من أرض الشام وذلك فى سنة تسع وثلثمائة واذا هو بالضد عما عهدته متوليا القضاء على ما وصفنا ناصرا ومشرفا للغنى على الفقر فقلت له أيها القاضى تلك الحكاية التى كنت تحكيها عن الوالى الذى كان بالرى وأنه قال لك ان الخواطر اعترضتنى بين منازل الفقراء والاغنياء فرأيت فى النوم أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال لى يا فلان ما أحسن تواضع الاغنياء للفقراء شكرا لله تعالى وأحسن من ذلك تعزز الفقراء على الاغنياء ثقة بالله تعالى فقال لى ان الخلق تحت التدبير لا ينفكون من أحكامه فى جميع متصرفاتهم وكنت كثيرا ما أسمعه فيما وصفنا من حال فقره يذم ذوى الحرص على الدنيا ويذكر فى ذلك خبرا عن على كرم الله وجهه وهو أن عليا عليه السلام كان يقول ابن آدم لا تحمل هم يومك الذى لم يأت على يومك الذى أنت فيه فانه ان يكن من أجلك يأت الله فيه برزقك واعلم أنك لن تكتسب شيأ فوق قوتك الا كنت خازنا فيه لغيرك فركب بعد ذلك الهماليج من الخيل (ولقد أخبرت) أنه قطع لزوجته أربعين ثوبا تستريا وقصبا وأشباه ذلك من الثياب على مقراض واحد وخلف مالا عظيما لغيره (وفى هذه السنة) وهى سنة خمس وثمانين ومائتين كانت وفاة أبى العباس محمد بن يزيد النحوى المعروف بالمبرد ليلة الاثنين لليلتين بقيتا من ذى الحجة وله تسع وسبعون سنة ودفن بمقابر باب الكوفة من الجانب الغربى بمدينة السلام (وفى سنة) ست وثمانين ومائتين مات محمد بن يونس الكوفى المحدث ويكنى بأبى العباس يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة وله مائة سنة وست سنين ودفن بمقابر الكوفة من الجانب الغربى وكان عالى الاسناد (وفى هذه السنة) كان الفزع من أبى سعيد الجبائى بالبصرة ومن معه بالبحرين خوفا من أن يكبسها وكتب الواثقى وهو أحمد بن محمد وكان على حربها الى المعتضد بذلك فأطلق لسورها أربعة عشر ألف دينار فبنيت وحصنت (وفى هذه السنة) ظفر ابو الاغر خليفة بن المبارك السلمى بصالح بن مدرك الطائى بناحية فيد مكرا فى ذهابهم الى مكة وقد كانت الاعراب جمعت لابى الاغر ليستنقذوا ما صار فى يده فواقعهم وقتل رئيسهم جحش بن ديال وجماعة معه وأخذ رأسه فلما علم صالح بن مدرك بقتل جحش بن ديال يئس من الخلاص من يد أبى الاغر فلما نزل المنزل المعروف بمنزلة القرشى أتاهم غلام بطعام فاستلب منه سكينا وقتل نفسه فأخذ أبو الاغر رأسه وأظهره بالمدينة قبل شراء الحاج وكانت لابى الاغر فى رجوعه وقعة عظيمة اجتمع هو ونحرير وغيرهما من أمراء قوافل الحاج مع الاعراب وكانت الاعراب قد اجتمعت وتحشدت من طئ وأحلافها فكانت رجالتها نحوا من

ثلاثة آلاف راجل والخيل نحو من ذلك فكانت الحرب بينهم ثلاثا وذلك بين معدان القرشي والحاجز ثم انهزمت الاعراب وسلم الناس وكان ممن تولى مع أبي الاغر الحيلة على صالح بن مدرك سعيد بن عبد الاعلى (ودخل) أبو الاغر مدينة السلام وقدامه رأس صالح وجحش ورأس غلام لصالح أسود وأربعة أسارى وهم بنو عم صالح بن مدرك فخلع السلطان في ذلك اليوم على أبي الاغر وطوقه بطوق من ذهب ونصب الرؤس على الجسر من الجانب الغربي وأدخل الاسارى المطابق (وفي هذه) السنة مات اسحق بن أيوب العبدي وكان على حرب ديار ربيعة (وفيها) شخص العباس بن عمرو الغنوي الى البصرة لحرب القرامطة بالبحرين (وفي هذه السنة) كانت الحرب بين اسمعيل بن أحمد وعمرو بن الليث صاحب بلخ فاسر عمرو وقد أتينا على كيفية أسره في الكتاب الاوسط (وفي سنة) سبع وثمانين ومائتين كان خروج العباس بن عمرو من البصرة في جيش عظيم ومعه خلق من المطوعة نحو هجر فالتقى هو وأبو سعيد الجبائي فكانت بينهم وقائع انهزم فيها أصحاب العباس وأسر وقتل من أصحابه نحو سبعمائة صبرا دون من هلك من الرمل والعطش فأحرقت الشمس أجسادهم ثم ان أبا سعيد من على العباس بن عمرو بعد ذلك فأطلقه فصار الى المعتضد فخلع عليه وبعد هذه الوقعة افتتح أبو سعيد مدينة هجر بعد حصار طويل وقد أتينا على مبسوط هذه الحروب والسبب الذي كان من أجله تخلية أبي سعيد العباس بن عمرو الغنوي مع من بالبحرين من قومه وعصبتهم له (وفي هذه السنة) وهي سنة سبع وثمانين ومائتين كان سير الداعي العلوي من طبرستان الى بلد جرجان في جيوش كثيرة من الديلم وغيرهم فلقيته جيوش المسودة من قبل اسمعيل بن أحمد وعليها محمد بن هرون فكانت وقعة لم ير مثلها في ذلك العصر وصبر الفريقان جميعا وكانت للمبيضة على المسودة ثم كانت مكيدة من محمد بن هرون لما رأى من ثبوت الديلم على مصافها فلم ينقض صفوفه وولى فأسرعت الديلم ونقضت صفوفها فرجعت عليهم المسودة وأخذهم السيف فقتل منهم بشر كثير وأصاب الداعي ضربات وذلك أن أصحابه لما نقضوا صفوفهم في الغنيمة ولم يعرجوا عليه ثبت مع من وقف لنصره فكرت عليهم الجيوش فأسفرت الحرب وقد أثخن بالكلوم وأسر ولده زيد بن محمد بن زيد وغيره وبقي محمد الداعي أياما يسيرة وتوفي لما ناله فدفن بباب جرجان وقبره هنالك معظم الى هذه الغاية (وقد أتينا) على خبره بطبرستان وغيرها وما كان من سيرته وخبر بكر بن عبد العزيز بن أبي دلف حين دخل اليه مستأمنا في كتابنا أخبار الزمان وكذلك ذكرنا خبر يحيى بن الحسين الحسني الرسي باليمن وتظافره هو وأبو سعد بن يعفر على ما كان من حروبهم باليمن مع القرامطة وما كان من أمرهم مع علي بن الفضل صاحب المذيخرة وما كان من قصته وخبر وفاته وقصة شيخ لاعة صاحب قلعة نحل (١) وخبر ولده الى هذا الوقت بها وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ونزول يحيى بن الحسين الرسي مدينة صعدة من بلاد اليمن وخبر ولده أبي القاسم وخبر ولد ولده الى هذه الغاية وانما نذكر في هذا الكتاب لمعا منبهين على ما قدمناه من تصنيفنا مما بسطناه من أخبار من ذكرناه وشرحنا من قصصهم وسيرهم وما كان منهم (وفي هذه السنة) وهي سنة ثمان وثمانين ومائتين كان دخول المعتضد الى الثغر الشامي في طلب وصيف الخادم وراسله مع رشيق المعروف بالحزامي واستأمن الى المعتضد وصيف البكشمري وغيره من القواد قواد الخادم وأصحابه وقد كان وصيف الخادم

لما أخذ الأكثر من أصحابه أراد الدخول الى أرض الروم والتعلق بالدروب وقد كان المعتضد أسرع فى السير من بغداد وستر أخباره ولم يعلم بذلك وصيف مع شدة حذره وتفقده لامره حتى عبر المعتضد الفرات وسار الى الشأم فلم يفلح جند المعتضد لذلك لما أتعب نفسه فى سرعة السير وقد كان المعتضد لما توسط الثغر الشامى خلف سواده بالكنيسة السوداء وجرد القواد فى طلب وصيف فساروا فى طلبه خمسة عشر ميلا الى أن أدركه أوائل الخيل وفيهم خاقان المفلحى ووصيف موشكير وعلى كوره وغيرهم من القواد فقاتلهم وصيف وذلك فى الموضع المعروف بدرب الحب فلما أشرف المعتضد ووصيف قد خذله أصحابه وتفرق عنه جمعه أسر وأتى به المعتضد فسلمه الى مؤنس العجلى وأمن جميع أصحابه الا نفرا انضافوا اليه من الثغر الشامى وغيره وأحرق المعتضد المراكب الحربية وحمل من طرسوس أبا اسحق امام الجامع وأبا عمير عدى بن أحمد بن عبد الباقى صاحب مدينة أذنة من الثغر الشامى وغيرهم من البحريين مثل اسمعيل وابنه وكان دخول المعتضد الى مدينة السلام فى الماء لسبع خلون من صفر سنة ثمان وثمانين ومائتين ودخل جعفر بن المعتضد وهو المقتدر وبدر الكبير وسائر الجيش على الظهر وقد زينت الطرق وبين أيديهم وصيف الخادم على جمل فالج وعليه دراعة ديباج وبرنس وخلفه على جمل آخر البغيل وخلف البغيل ابنه على جمل آخر وخلف ابن البغيل على جمل آخر رجل من أهل الشأم يعرف بابن المهندس وقد لبسوا الدراريع من الحرير الاحمر والاصفر وعلى رؤسهم البرانس وطوقوا وذكر خاقان المفلحى وغيره من القواد ممن ابلى فى ذلك اليوم الذى كان فيه أسر وصيف الخادم وقد كان المعتضد أراد استحياء وصيف وأسف على موت مثله لشهامته وشجاعته وحسن حيله واقدامه ثم قال ليس فى طبع هذا الخادم أن برأسه أحد بل فى طبعه أن يرؤس فى نفسه وقد كان بعث اليه بعد أن قبض عليه وأوثق بالحديد هل لك من شهوة قال نعم باقة من الريحان أشمها وكتب من سير الملوك الغابرة أنظر فيها فلما رجع الرسول الى المعتضد وأخبره أنه يديم النظر فى سير الملوك وحروبها ومحنها دون سائر ما حمل الى حضرته من الدفاتر فتعجب المعتضد وقال هو يهون على نفسه الموت (وفى هذه السنة) كانت وفاة أبى عبيد الله محمد بن أبى الساج باذربيجان واختلفت كلمة أصحابه وغلمانه بعده فنهم من انحاز الى اخيه يوسف بن أبى الساج ومنهم من انحاز الى ابنه بودار (وفى هذه السنة) أدخل عمرو بن الليث الى مدينة السلام فى جمادى الأولى قدم به عبد الله بن الفتح رسول السلطان فشهر عمرو وأركب على جمل فالج وقد ألبس دراعة ديباج وخلفه بدر والوزير القاسم بن عبيد الله فى الجيش فأتوا به الثريا فرآه المعتضد ثم أدخل المطامير وقد كان فى هذا الوقت سارت عساكر الشاكرية من قبل طاهر بن محمد بن عمرو ابن الليث غضبا لجده عمرو ولحقته ببلاد الاهواز وخرجت عن حدود فارس واضطرب الامر وبعث المعتضد بعبد الله بن الفتح واشناس الى اسمعيل بن أحمد بهدايا منها مائة بدلة ديباج منسوجة بالذهب مرصعة بالجوهر ومنطقة ذهب مرصعة بالجوهر وغير ذلك من الجواهر وثلثمائة ألف دينار ليفرقها فى أصحابه ويبعثهم الى بلاد سجستان الى حرب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث وأمر عبد الله بن الفتح أن يحمل فى طريقه من خراج ما يجتاز به من بلاد الجبل عشرة آلاف ألف درهم ويضيفها الى الثلثمائة ألف دينار وسار بدر غلام المعتضد بالله فى عساكره الى

بلاد فارس من هذه السنة فنزل شيراز وانكشف عن البلد اليشكرية (وفى أول يوم) من المحرم وهو يوم الثلاثاء من سنة تسع وثمانين ومائتين توفى وصيف الخادم فأخرج وصلب على الجسر بدنا بلا رأس وقد كان الخدم سألوا المعتضد أن يستروا عورته فأباح لهم ذلك فألبس ثيابا ولف عليه ثوب جديد وخيط على مكان الثياب من سرته الى الركبتين وطلى بدنه بالصبر وغيره من الاطلية القابضة والماسكة لاجزاء جسمه فأقام مصلوبا على الجسر لا يبلى الى سنة ثلثمائة فى خلافة المقتدر بالله (وفى هذه السنة) تشعب الجند والعامة فعمدت العامة اليه تماجنا وحطوه من فوق الخشبة وقالوا قد وجب علينا حق الاستاذ أبى على وصيف الخادم لطول مجاورته لنا وصبره علينا لا يبلى على هذه الخشبة فلفوه فى رداء بعضهم وحملوه على أكتافهم وهم نحو من مائة ألف من الناس يرقصون ويغنون ويصيحون حوله الاستاذ الاستاذ فلما ضجروا من ذلك طرحوه فى دجلة وذلك أنهم شيعوه فى الماء سباحه فغرق منهم فى جريه الماء خلق كثير (وفى هذه السنة) أتى بجماعة من القرامطة من ناحية الكوفة منهم المعروف بأبى الفوارس وبعد أن قطعت يداه ورجلاه صلب الى جانب وصيف الخادم ثم حول الى ناحية الكناس مما يلى الناشرية من الجانب الغربى فصلب مع قرامطة هناك (وقد كان لاهل بغداد) فى قتل أبى الفوارس هذا أراجيف كثيرة وذلك أنه لما قدم ليضرب عنقه أشاعت العامة أنه قال لمن حضر قتله من العوام هذه عمامتى تكون قبلك فانى راجع بعد أربعين يوما فكان يجتمع فى كل يوم خلائق من العوام تحت خشبته ويحصون الايام ويقتتلون ويتناظرون فى الطرق فى ذلك فلما تمت الاربعون ليلة وقد كان كثر لغطهم واجتمعوا فكان بعضهم يقول هذا جسده ويقول آخر قد مر وانما السلطان قتل رجلا آخر وصلبه موضعه لكى لا يفتتن الناس فكثر تنازع الناس فى ذلك حتى نودى بتفريقهم فترك التنازع والخوض فيه (وكان ورد مال) من محمد بن زيد من بلاد طبرستان ليفرق فى آل أبى طالب سرا فغمز بذلك الى المعتضد فأحضر الرجل الذى كان يحمل المال اليهم فأنكر عليه اخفاء ذلك وأمره باظهاره وقرب آل أبى طالب وكان السبب فى ذلك قرب النسب ولما أخبرنا به أبو الحسن محمد بن على الوراق الانطاكى الفقيه المعروف بابن الغنوى بانطاكية قال أخبرنى محمد بن يحيى ابن أبى عباد الجليس قال رأى المعتضد بالله وهو فى سجن أبيه كأن شيخا جالسا على دجلة يمد يده الى ماء دجلة فيصير فى يده وتجف دجلة ثم يرده من يده فتعود دجلة كما كانت قال فسألت عنه فقيل لى هذا على بن أبى طالب عليه السلام قال فقمت اليه وسلمت عليه فقال يا أحمد ان هذا الامر صائر اليك فلا تتعرض لولدى ولا تؤذيهم فقلت السمع والطاعة يا أمير المؤمنين وعم الناس تأخر الخراج عنهم وكان انعام المعتضد عليهم فقالت الشعراء فى ذلك وأكثرت ووصفت فى أشعارها ذلك وأطنبت فأحسن يحيى بن على المنجم فقال

يا محيى الشرف اللباب * ومجدد الملك الخراب

ومعمد ركن الدين فينا * ثابتا بعد اضطراب

فتة الملوك مبرزا * فوت المبرز فى الحلاب

اسعد بنير وزجمعت * الشكر فيه الى الثواب

قدمت

قد تمت فى تأخيرما * قد قدموه الى الصواب

وقوله

يوم نيروزك يوم * واحد لا يتأخر

من حزيران يوافى * أبدا فى أحد عشر

(وكان) وصول قطر الندا بنت خمارويه الى مدينة السلام مع ابن الجصاص فى ذى الحجة سنة احدى وثمانين ومائتين ففى ذلك يقول على بن العباس الرومى

ياسيد العرب الذى زفت له * باليمن والبركات سيدة العجم

اسعد بها كسعودها بك انها * ظفرت بما فوق المطالب والهمم

ظفرت بملء ناظريها بهجة * وضميرها نبلا وكفيها كرم

شمس الضحى زفت الى بدر الدجى * فتكشفت بهما عن الدنيا ظلم

(ولما أدخل) عمرو بن الليث الى مدينة السلام من المصلى العتيق رافعا يديه يدعو وهو على جمل فالج وهو ذو السنامين وكان أنفذه الى المعتضد فى هدايا تقدمت له قبل أسره فقال فى ذلك الحسن بن محمد بن مهر

ألم تر هذا الدهر كيف صروفه * يكون عسيرا مرة ويسيرا

وحسبك بالصفار نبلا وعزة * يروح ويغدو فى الجيوش اميرا

حباهم بأجمال ولم يدر أنه * على جمل منها يقاد أسيرا

وفى ذلك يقول محمد بن بسام

أيها المغتر بالدنـ * ـيا أما أبصرت عمرا

مقبلا قد أركب الفا * لج بعد الملك قسرا

وعليه برنس السخـ * ـطة اذلالا وقهرا

رافعا كفيه يدعو الله اسرارا وجهرا

أن ينجيه من القتـ * ـل وأن يعمل صفرا

(ولما قتل) محمد بن هرون لمحمد بن زيد العلوى أظهر المعتضد لذلك النكير والحزن تأسفا على قتله (وكانت) وفاة نصر بن أحمد صاحب ما وراء نهر بلخ فى أيام المعتضد وذلك فى سنة تسع وثمانين ومائتين وصار الأمر الى أخيه اسمعيل بن أحمد (وكانت) وفاة احمد بن أبى طاهر الكاتب صاحب كتاب أخبار بغداد سنة ثمانين ومائتين (وفيها كانت) وفاة أحمد بن محمد القاضى الذى يحدث (وفى سنة) احدى وثمانين ومائتين كانت وفاة أبى بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى مؤدب المكتفى بالله فى المحرم وهو صاحب الكتب المصنفة فى الزهد وغيره (وفى سنة) اثنتين كانت وفاة أبى سهل محمد بن أحمد الرازى المحدث وانما نذكر وفاة هؤلاء لدخولهم فى التاريخ وحمل الناس العلم عنهم من الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (وكانت) وفاة عبيد الله بن شريك المحدث فى سنة خمس وثمانين ومائتين ببغداد (وفيها) وفاة بكر بن عبد العزيز بن أبى دلف بطبرستان (وفيها) مات محمد بن الحسين بن الجنيد (وفى سنة) ثمان وثمانين ومائتين مات أبو على بشر بن عمرة الاسدى وله نيف وتسعون سنة وقبض ولده وهو ابن تسع وتسعين سنة وفيها مات أبو المثنى معاذ بن المثنى بن معاذ العنبرى فى أيام المعتضد (قال المسعودى) وقد ذكرنا من اشتهر من الفقهاء والمحدثين وغيرهم

من أهل الآراء والادب في كتابنا أخبار الزمان والاوسط وانما نذكر في هذا الكتاب لمعا ملوحين على ماسلف (وكانت) وفاة المعتضد لاربع ساعات خلت من ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين في قصره المعروف بالحسني بمدينة السلام وقيل ان وفاته كانت بسم اسمعيل بن بلبل قبل قتله اياه فكان يسري في جسده ومنهم من ذكر أن جسمه تحال في مسيره في طلب وصيف الخادم على ماذكرنا ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته في منديل أعطته اياه يتنشف به وقيل غير ذلك مما عنه أعرضنا (وقد كان) أوصى أن يدفن في دار محمد بن عبد الله بن طاهر في الجانب الغربي من الدار المعروفة بدار الرخام فلما اعتراه الغشى ووقع للموت شكوا في وفاته فتقدم الطبيب الى بعض أعضائه يجسه فأحس به وهو على مابه من السكرات فأنف من ذلك وركله برجله نقلبه أذرعا فيقال ان الطبيب مات منها ومات المعتضد من ساعته وسمع ضجة وهو على مابه من الحال ففتح عينيه وأشار بيديه كالمستفهم فقال له مونس الخادم ياسيدى الغلمان قد ضجوا عند القاسم بن عبيد الله فأطلقنا لهم العطاء فقطب وهم في سكرته فكادت أنفس الجماعة أن تخرج من هيبته وحمل الى دار محمد بن عبد الله بن طاهر فدفن بها (قال المسعودى) وللمعتضد أخبار وسير وحروب ومسير في الارض غير ماذكرنا قد أتينا على ذكرها والغرر من مبسوطها في كتاب أخبار الزمان والاوسط

(ذكر خلافة المكتفي بالله)

وبويع المكتفي بالله وهو على بن أحمد المعتضد بمدينة السلام في اليوم الذى كانت فيه وفاة أبيه المعتضد وهو يوم الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين وأخذ له البيعة القاسم بن عبيد الله والمكتفي يومئذ بالرقة وللمكتفي يومئذ نيف وعشرون سنة ويكنى بأبي محمد فكان وصول المكتفي الى مدينة السلام يوم الاثنين لسبع ليال بقين من جمادى الأولى سنة تسع وثمانين ومائتين وكان دخوله في الماء ونزل قصر الحسنى على دجلة وكانت وفاته يوم الاحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين وهو يومئذ ابن احدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر فكانت خلافته ست سنين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوما وقيل ست سنين وستة أشهر وستة عشر يوما على تباين الناس في تواريخهم والله أعلم

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه)

ولم يتقلد الخلافة الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة من خلافة المتقى لله من اسمه على الا على بن أبي طالب والمكتفي ولما نزل المكتفي قصر الحسني في اليوم الذى كان دخوله الى مدينة السلام خلع على القاسم بن عبيد الله ولم يخلع على أحد من القواد وأمر بهدم المطامير التي كان المعتضد اتخذها لعذاب الناس واطلاق من كان محبوسا فيها وأمر برد المنازل التي كان المعتضد اتخذها موضع المطامير الى أهلها وفرق فيهم أموالا فمالت قلوب الرعية اليه وكثر الداعى له بهذا السبب وغلب عليه القاسم بن عبيد الله وفاتك مولاه ثم غلب عليه بعد وفاة القاسم بن عبيد الله وزيره العباس بن الحسين وفاتك وقد كان القاسم بن عبيد الله

أوقع بمحمد بن غالب الاصبهاني وكان يتقلد ديوان الرسائل وكان ذا علم ومعرفة وأوقع بمحمد بن بسار وابن منارة لشئ بلغه عنهم فأوثقهم بالحديد وأحدرهم الى البصرة فيقال انهم غرقوا في الطريق ولم يعرف لهم خبر الى هذه الغاية ففي ذلك يقول على بن بسام

عذرناك في قتلك المسلمين * وقلنا عداوة أهل الملل

فهذا المناري ماذنبه * ودينكما واحد لم يزل

وقد كانت الحال انفرجت بين القاسم بن عبيد الله و بدر قبل هذا الوقت فلما استخلف المكتفي أغراه القاسم ببدر وكان ميل جماعة من القواد الى بدر فساروا الى حضرة السلطان وسار بدر الى واسط فأخرج القاسم المكتفي الى نهر ذيال فعسكر هنالك وجعل في نفس المكتفي من بدر كل حالة يقدر عليها من الشر وأغراه به فأحضر القاسم أبا حازم القاضي وكان ذا علم ودراية فأمره عن أمير المؤمنين بالمسير الى بدر فيأخذ له الامان ويجيء به معه ويضمن له عن أمير المؤمنين ما أحب فقال أبو حازم ما كنت أبلغ عن أمير المؤمنين رسالة لم أسمعها منه فلما امتنع عليه أحضر أبا عمرو بن يوسف القاضي فأرسل به الى بدر في سر فأعطاه الامان والعهود والمواثيق عن المكتفي وضمن له أنه لايسلمه عن يده الا عن رؤية أمير المؤمنين فخلى عسكره وجلس معه في السرا مصعدين فلما انتهوا الى ناحية المدائن والسيب (١) تلقاه جماعة بالحذر فأحاطوا بالسرا وتنحى أبو عمرو عنه الى طيار فركب فيه وقرب بدر الى الشط وسألهم أن يصلي ركعتين وذلك في يوم الجمعة لست خلون من شهر رمضان سنة تسع وثمانين ومائتين وقت الزوال فأمهلوه للصلاة فلما كان في الركعة الثانية قطعت عنقه وأخذ رأسه فحمل الى المكتفي فلما وضع الرأس بين يدي المكتفي سجد وقال الآن ذقت طعم الحياة ولذة الخلافة ودخل المكتفي الى مدينة السلام يوم الاحد لثمان خلون من شهر رمضان ففي محمد بن يوسف القاضي يقول بعض الشعراء في ضمانه لبدر العهود والمواثيق عن المكتفي

قل لقاضي مدينة المنصور * بم أحللت أخذ رأس الامير

بعد اعطائه المواثيق والعهـ * ـد وعقد الامان في مسطور

أين ايمانك التي يشهد الله على أنها يمين فجور

أين تأكيدك الطلاق ثلاثا * ليس فيهن نية التخيير

ان كفيك لاتفارق كفيـ * ـه الى أن ترى مليك السرير

ياقليل الحياء ياأكذب الامة ياشاهدا شهادة زور

ليس هذا فعل القضاة ولايحـ * ـسن أمثاله ولاة الجسور

قد مضى من قتلت في رمضان * راكعا بعد سجدة التكبير

اى ذنب أتيت في الجمعة الزهـ * ـراء في خير خير خير الشهور

فأعد الجواب للحكم العا * دل من بعد منكر ونكير

يابني يوسف بن يعقوب أضحى * أهل بغداد منكم في غرور

شتت الله شملكم وأراني * بكم الذل بعد ذل الوزير

أنتم كلكم فداء أبي حا * زم المستقيم كل الامور

قالوا وكان بدرحراوهو بدربن خيرمن موالى المتوكل وكان بدرفى خدمة ناشئ غلام الموفق صاحب بركابه ثم اتصل بالمعتضد وقرب من قلبه وخف بين يديه فى أيام الموفق وكان للمعتضد غلام يقال له فاتك وكان من أعلى غلمانه فبعد من قلبه وانحطت مرتبته وكان السبب فى ذلك أن المعتضد غضب على بعض جواريه فأمر ببيعها فدس فاتك من ابتاعها له فكان السبب فى ابعاده من قلب المعتضد عند نمو ذلك اليه وزاد أمر بدر وعلت مرتبته حتى كان يلتمس الحوائج به من المعتضد وكانت الشعراء تقرن مدح بدر بمدح المعتضد وكذلك من خاطبه فيما عدا المنظوم من الكلام (قال المسعودى) وأخبرنى أبو بكر محمد بن يحيى الصولى النديم الشطرنجى بمدينة السلام قال كان لى وعد على المعتضد فما ظفرت به حتى عملت قصيدة ذكرت فيها بدرا أولها

أيها الهاجر مزحا لا يجد * أجزاء الودان يلتى بصد
لامير المؤمنين المعتضد * بحر جود ليس يعدوه أحد
وأبو النجم لمن يقصده * جدول منه الى البحر يرد
قد مضى الفطر الى الاضحى وقد * آن أن يقرب وعد قد بعد
ما اقتضانى الوعد أن لست على * ثقة من انه أخذ بيد
غير أن النفس تهوى عاجلا * وسوا أعطى كريم أو وعد

قال فضحك وأمر لى بما وعدنى به (وأخبرنا) محمد بن النديم بمدينة السلام قال سمعت المعتضد يقول انا آنف من هبة القليل ولا أرى الدنيا لو كانت لى أموالها وجمعت عندى تفى بقدر جودى والناس يزعمون أنى بخيل أتراهم لا يعلمون أنى جعلت أبا النجم بينى وبينهم أعرف ما مبلغ ما ينفقه يوما فيوما لو كنت بخيلا ما أطلقت ذلك له (وأخبرنا) أبو الحسن محمد بن على الفقيه الوراق الانطاكى بمدينة انطاكية قال أخبرنى ابراهيم بن محمد الكاتب عن يحيى بن على المنجم النديم قال كنت يوما بين يدى المعتضد وهو مقطب فأقبل بدر فلما رآه من بعيد ضحك وقال لى يا يحيى من الذى يقول من الشعراء

فى وجهه شافع يمحو اساءته * من القلوب وجيه حيثما شفعا

فقلت يقوله الحكم بن مرة المازنى فقال لله دره أنشدنى هذا الشعر فأنشدته

ويلى على من أطار النوم فامتنعا * وزاد قلبى على أوجاعه وجعا
كأنما الشمس فى أعطافه لمعت * حسنا أو البدر من أزراره طلعا
مستقبل بالذى يهوى وان كثرت * منه الذنوب ومعذور بما صنعا
فى وجهه شافع يمحو اساءته * من القلوب وجيه حيثما شفعا

قال وأخذ قوله أو البدر من أزراره طلعا أحمد بن يحيى بن العراف الكوفى فقال

بدا وكأنما قمر * على أزراره طلعا
يحث المسك عن عرق الـ * جبين بنانه ولعا

(وفى سنة) تسع وثمانين ومائتين ظهر القرمطى بالشام وكان فى حروبه مع طغج وعساكر المصريين ما قد اشتهر خبره وقد أتينا على ذكره فيما سلف وما كان من خروج المكتفى الى الرقة وأخذ القرامطة

وذلك

وذلك فى سنة احدى وتسعين ومائتين وكذلك ما كان من ذكرويه بن مبرويه ووقوعه بالحاج فى سنة أربع وتسعين ومائتين الى أن قتل وأدخل الى مدينة السلام (قال المسعودى) وكان فداء الغدر فى ذى القعدة من سنة اثنتين وتسعين ومائتين بالامنين بعد أن فادوا بجماعة المسلمين ثم ان الروم قدروا بعد ذلك وكان فداء التمام بالامنين بين المسلمين على التمام فى شوال من سنة خمس وتسعين ومائتين والامير فى الفداء ابن جعفار ثم وكان على الثغور الشامية فكان عدة من فدى به من المسلمين فى فداء ابن طغان فى سنه ثلاث وثمانين ومائتين على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب من ذكره ألفى نفس وأربعمائة وخمسا وتسعين نفسا من ذكر وأنثى وكان عدة من فدى به من المسلمين فى الغدر ألفا ومائة وأربعا وخمسين نفسا وعدد من فودى به فى فداء التمام ألفين وثمانمائة واثنين وأربعين نفسا ومات المكتفى وقد خلف فى بيوت الاموال ثمانية آلاف ألف دينار ومن الورق خمسة وعشرين ألف ألف درهم ومن الدواب والبغال والجمازات وغيرها تسعة آلاف رأس وكان مع ذلك بخيلا ضيقا (وأخبرنا) أبو الحسن أحمد ابن يحيى المنجم المعروف بابن النديم وكان من حذاق أهل النظر والبحث وأهل الرياسة من أهل التوحيد والعدل وفى ابنه على بن يحيى يقول أبو هفان

لربيع الزمان فى الحول وقت * وابن يحيى فى كل وقت ربيع

رجل عنده المكارم سوق * يشترى دهره وغن نبيع

قال وكانت وظيفة المكتفى بالله عشرة ألوان فى كل يوم وجدى فى كل جمعة وثلاث جامات حلوا وكان يرد عليه الحلوا ووكل على مائدته بعض خدمه وأمره أن يحصى ما فضل من الخبز فما كان من المكسر عزله للثريد وما كان من الصحاح رده الى مائدته من الغد وكذلك كان يفعل بالنوادر والحلوا وأمر أن يتخذ له قصر بناحية الشماسية بازاء قطربل فأخذ بهذا السبب ضياعا كثيرة ومزارع كانت فى تلك النواحى بغير ثمن من ملاكها فكثر الداعى عليه فلم يستتم ذلك البناء حتى توفى وكان هذا الفعل مشاكلا لفعل أبيه المعتضد فى بناء المطامير (وكان وزيره) القاسم ابن عبيد الله عظيم الهيبة شديد الاقدام سفاكا للدماء وكان الكبير والصغير على رعب منه لا يعرف أحد منهم لنفسه نعمة معه (وكانت) وفاته عشية الاربعاء لعشر خلون من شهر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين ومائتين وله نيف وثلاثون سنة ففى ذلك يقول بعض أهل الادب وأراه عبد الله بن الحسن بن سعد

شربنا عشية مات الوزير * ونشرب يا قوم فى ثالثه

فلا قدس الله تلك العظام * ولا بارك الله فى وارثه

(وكان) ممن قتل القاسم بن عبيد الله عبد الواحد بن الموفق وكان معتقلا عند مؤنس فبعث اليه حتى أخذ برأسه وذلك فى أيام المكتفى وقد كان المعتضد يعزه ويميل اليه ميلا شديدا ولم يكن لعبد الواحد همة فى خلافة ولا سمو الى رياسة بل كان همته فى اللعب مع الاحداث وقد كان المكتفى أخبر عنه أنه أرسل عدة من غلمانه الخاصة ووكل به من يراعى خبره وما يظهر من قوله اذا أخذ الشراب منه فسمع منه وقد طرب وهو ينشد شعر العتابى حيث يقول

تلوم على ترك الغنى باهلية * طوى الدهر عنها من طريف وتالد

رأت حولها النسوان يمشين حلقة * مقلدة أجيادها بالقلائد
يسرك أنى نلت مانال جعفر * من الملك أو مانال يحيى بن خالد
وأن أمير المؤمنين أغصنى * مغصهما بالمرهفات البوارد
ذريني تجئنى ميتتى مطمئنة * ولم أتجشم هول تلك الموارد
فان نفيسات الأمور مشوبة * بمستودعات فى بطون الاساود
وان الذى يسمو الى درك العلا * ملقى باسباب الردى والمكايد

فقال له بعض ندمائه وقد أخذ منه الشراب ياسيدى أين أنت عما تمثل به يزيد بن المهلب

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد * حياة لنفسى مثل أن أتقدما

فقال له عبد الواحد مه لقد أخطأت الغرض وأخطأ ابن المهلب وأخطأ قائل هذا البيت وأصاب أبو فرعون التميمى حيث يقول قال النديم حيث يقول ماذا قال قال

ومابى شئ فى الوغى غير أننى * أخاف على مجراى أن يتحطما
ولو كنت مبتاعا من السوق مثلها * لدى الدرع ماباليت أن أتقدما

فلما انتهى ذلك الى المكتفى ضحك وقال قد قلت للقاسم ليس عمى عبد الواحد ممن تسمو همته اليها هذا قول من ليس له همة غير فرجه وجوفه وأمر ديعانقه وكلاب يهارش بها وكبش يناطح بها وديوك يقاتل بها أطلقوا العمى كذا وكذا فلم يزل القاسم بعبد الواحد حتى قتله (وقد كان) المكتفى لما أن مات القاسم وتبين قتله لعبد الواحد أراد نبش القاسم من قبره وضربه بالسوط وحرقه بالنار وقد قيل غير ذلك والله أعلم (وممن أهلك) القاسم بن عبيد الله على ماقيل بالسم فى خشكنانجة على بن العباس بن جريج الرومى وكان منشؤه ببغداد ووفاته بها وكان من مختلقى معانى الشعراء والمجودين فى القصير والطويل متصرفا فى المذاهب تصرفا حسنا وكان أقل أدواته الشعر ومن محكم شعره وجيده قوله

رأيت الدهر يجرح ثم يأسو * يعوض أو يسلى أو ينسى
أبت نفسى الهلاك لفقد شئ * كفى حزنا لنفسى فقد نفسى

(ومن قوله) العجيب الذى ذهب فيه الى معانى فلاسفة اليونانيين ومن مهر من المتقدمين قوله فى القصيدة التى قالها فى صاعد بن مخلد

لما تؤذن الدنيا به من زوالها * يكون بكاء الطفل ساعة يوضع (١)
والا فما يبكيه منها وانها * لأفسح مما كان فيه وأوسع

ومما دقق فيه فأحسن وذهب الى معنى لطيف من النظر على ترتيب الجدليين وطريقة حذاق المتقدمين قوله

غموض الشئ حين تذب عنه * يقلل ناصر الخصم المحق
تضيق عقول مستمعيه عنه * فيقضى للمجل على المدق

(ومما أجاد) فيه فى وصف القناعة قوله

اذا ما شئت أن تعلم يوما كذب الشهوه
فكل ماشئت بصدرك * عن المزة والحلوه

وطأ ماشئت يحصنك * عن الحسناء والدره
وكم أنسالك ماتهوا * فيل الشئ لم تهوه

وقوله
بأبي حسن وجهك اليوسفى * ياكفى الهوى وفوق الكفى
فيه ورد ونرجس وعجيب * اجتماع الشتوى والصيفى

وقوله فى العنب الرازقى
ورازقى مخطف الخصور * كأنه مخازن البلور
ألين فى المس من الحرير * لوأنه يبقى على الدهور
* لتقرطوه للحسان الحور *

(ولابن الرومى) أخبار حسان مع القسم بن عبيد الله وأبى الحسن على بن سليمان الاخفش النحوى وأبى العباس الزجاجى النحوى وكان ابن الرومى الاغلب عليه من الاخلاط السوداء وكان شرها نهما وله أخبار تدل على ماذكرناه من هذه الجمل مع أبى سهل اسمعيل بن على النوبختى وغيره من آل نوبخت (وفى سنة) تسعين ومائتين مات عبد الله بن أحمد بن حنبل يوم السبت لعشر بقين من جمادى الآخرة (وفى سنة) احدى وتسعين ومائتين كانت وفاة أبى العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب ليلة السبت لثمان بقين من جمادى الأولى ودفن فى مقابر الشأم فى حجرة اشتريت له وخلف احدى وعشرين ألف درهم وألفى دينار وغلة بشارع باب الشأم قيمتها ثلاثة آلاف دينار ولم يزل أحمد بن يحيى مقدما عند العلماء منذ أيام حداثته الى أن كبر وصار اماما فى صناعته ولم يخلف وارثا الا ابنة لابنه فرد ماله عليها وكان هو وأحمد بن المبرد عالمين قد ختم بهما ختام الادباء وكانا كما قال بعض الشعراء من المحدثين

أياطالب العلم لاتجهل * وعذ بالمبرد أوثعلب
تجد عند هذين علم الورى * وانك كالجمل الاجرب
علوم الخلائق مقرونة * بهذين فى الشرق والمغرب

(وكان) محمد بن يزيد المبرد يحب أن يجتمع فى المناظرة مع أحمد بن يحيى ويستكثر منه وكان أحمد بن يحيى يمتنع من ذلك (وأخبرنا) أبو القاسم جعفر بن حمدان الموصلى الفقيه وكان صديقهما قال قلت لابى عبيد الله الدينورى ختن ثعلب لم يأب أحمد بن يحيى الاجتماع مع المبرد فقال لى أبو العباس محمد بن يزيد حسن العبارة حلو الاشارة فصيح اللسان ظاهر البيان وأحمد بن يحيى مذهبه مذهب المعلمين فاذا اجتمعا فى محفل حكم لهذا على الظاهر الى أن يعرف الباطن (وأخبرنا) أبو بكر القاسم بن بشار الانبارى النحوى أن أبا على الدينورى هذا كان يختلف الى أبى العباس المبرد يقرأ عليه كتاب سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر فكان ثعلب يعزله على ذلك فلم يكن ذلك يردعه وقيل ان وفاة أحمد بن يحيى ثعلب كانت فى سنة اثنتين وتسعين ومائتين (وفى هذه السنة) مات محمد بن محمد الجذوعى القاضى وله أخبار عجيبة فيما كان به من المذهب قد أتينا على وصفه ونوادره فيها وما كان به من التعزز فى الاوسط (وفى سنة) اثنتين وتسعين ومائتين كانت وفاة أبى حازم عبد العزيز بن عبد الحميد القاضى يوم الخميس لسبع ليال خلون من جمادى الآخرة من هذه السنة ببغداد وله نيف وتسعون سنة (وفى هذه السنة) تغلب ابن

الخليجي في ستة آلاف وتسعين بمصر وأبوه على مصر (وفيها) وقع الحريق العظيم فأحرق الغلة بباب الطاق نحوا من ثلثمائة دكان وأكثر وظفر بابن الخليجي في سنة ثلاث وتسعين ومائتين بمصر وأدخل الى بغداد وقد أشهر وقدامه أربعة وعشرون انسانا من أصحابه منهم العراجي الخادم الاسود وذلك النصف من شهر رمضان من هذه السنة (وفي سنة) أربع وتسعين ومائتين مات موسى بن هرون بن عبد الله بن مروان البزار المحدث المعروف بالجمال في يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة بقيت من شعبان ببغداد ويكنى أبا عمران وهو ابن نيف وثمانين سنة ودفن في مقابر باب حرب الى جانب أحمد بن حنبل وقد قدمنا العذر فيما سلف من هذا الكتاب لذكرنا وفاة هؤلاء الشيوخ اذ كان الناس في أغراضهم مختلفين وفي طلبهم الفوائد متباينين وربما قد يقف على هذا الكتاب من لا غرض له فيما ذكرناه فيه ويكون غرضه معرفة وفاة هؤلاء الشيوخ (وكانت) وفاة أبي مسلم ابراهيم بن عبد الله الكجي البصري المحدث في المحرم سنة اثنتين وتسعين ومائتين وكان مولده في شهر رمضان سنة مائتين (وقبض) أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب وهو في سن أبي مسلم على ما ذكرناه من تنازع الناس في تاريخ وفاته (وقد كان) أبو العباس أحمد بن يحيى قد ناله صمم وزاد عليه قبل موته حتى كان المخاطب له يكتب ما يريده في رقاع (وأخبرنا) محمد بن يحيى الصولي الشطرنجي قال كنا يوما نأكل بين يدي المكتفي فوضعت بين أيدينا قطائف رفعت من بين يديه في نهاية النضارة ورقة الخبز واحكام العمل فقال هل وصفت الشعراء هذا فقال له يحيى بن علي نعم قال أحمد بن يحيى فيها

قطائف قد حشيت باللوز * والسكر المازي حشو الموز
تسبح في أزي دهن الجوز * سررت لما وقعت في حوزي
* سرور عباس بقرب فوز *

قال وانشدت لابن الرومي

وأتت قطائف بعد ذاك لطائف

فقال هذا يقتضي ابتداء فأنشدني الشعر من أوله فأنشدته لابن الرومي

وخبيصة صفراء دينارية * ثمنا ولونا زفها لك جؤذر
عظمت فكادت أن تكون أوزة * وثوت فكاد إهابها يتفطر
طفقت تجود بوابلها جوزابه * فاذا الباب اللوز فيها السكر
نعم السماء هناك ظل صبيبها * يهمي ونعم الارض ظلت تمطر
يا حسنها فوق الخوان وبنتها * قدامها بصبيرها تتغرغر
ظلنا نقشر جلدها عن لحمها * وكأن تبرا عن لجين يقشر
وتقدمتها قبل ذاك ثرائد * مثل الرياض بمثلهن يصدر
ومرققات كلهن مزخرف * بالبيض منها ملبس ومدثر
وأتت قطائف بعد ذاك لطائف * ترضى اللهاة بها ويرضى الحنجر
ضحك الوجوه من الطبرزذ فوقها * دمع العيون مع الدهان يعصر

فاستحسن المكتفي بالله الابيات وأومأ الي أن أكتبها له فكتبتها له (قال محمد) بن يحيى الصولي

وأكلنا

وأ كانا يوما بين يديه بعد هذا بعقد ارشهر فجاءت لوزينجة فقال هل وصف ابن الرومي اللوزينج فقلت نعم فقال أنشدنيه فأنشدته

لا يخطئني منك لوزينج * اذا بدا أعجب أو أعجبا
لم تغلق الشهوة أبوابها * الا أبت زلفاه أن تحجبا
لو شاء أن يذهب في صحنه * لسهل الطيب له مذهبا
يدور بالنفحة في جامه * دورا ترى الدهن له لولبا
عاون فيه منظر مخبرا * مستحسن ساعد مستعذبا
كالحسن المحسن في شدوه * تم فأضحى مغربا مطربا
مستكثف الحشو ولكنه * أرق جلدا من نسيم الصبا
كأنما قدت جلابيبه * من أعين القطر الذى طنبا
تخال في رقة خرسانه * شارك في الاضحية الجندبا
لو أنه صور من خبزه * ثغر الكان الواضح الاشنبا
من كل بيضاء يود الفتى * أن يجعل الكف لها مركبا
مدهونة أرقاء مدفونة * شهباء تحكي الارق الاشهبا
دين لداللوز فلا مرة * مرت على الذائق الا أتى
وانتقد السكر نقاده * وشارفوا في نقده المذهبا
فلا اذا العين رأتها نبت * ولا اذا الطرس علاها نبا

فحفظها المكتفي فكان ينشدها (ومما استحسن) من شعر المكتفي لنفسه

انى كلفت فلا تخلو بجارية * كأنها الشمس بل زادت على الشمس
لها من الحسن أعلاه فرؤيتها * سعدي وغيبتها عن ناظري نحسي

وللمكتفي أيضا

بلغ النفس ما اشتهت * فاذا هي قد اشتفت
انما العيش ساعة * أنت فيها وما انقضت
كل من يعذل المحب اذا ماهدا سكت

وله أيضا

من لى بأن تعلم ما ألقى * فتعرف الصبوة والعشقا
مازال لى عبدا وحبي له * صيرني عبدا له رقا
أعتق من رقي ولكنني * من حبه لا أملك العتقا

(وأخبرنا) ابو عبدالله ابراهيم بن محمد بن عرفة النحوى المعروف بنفطويه قال أخبرنا أبو محمد عبد بن حمدون قال تذاكرنا يوما بحضرة المكتفي فقال فيكم من يحفظ في نبيذ الدوشاب شيأ فأنشدته قول ابن الرومي

اذا أخذت حبه ودبسه * ثم أخذت ضربه ومرسه
ثم أطلت في الاناء حبسه * شربت منه البابلي نفسه

فقال المكتفي قبحه الله ما أشرهه لقد شوقني في هذا اليوم الى شرب الدوشابي وقدم الطعام فوضع بين أيدينا طيفورية عظيمة فيها هريسة وقد جعل في وسطها مثل السكرجة الضخمة فيها دسم الدجاج فضحكت وخطر ببالي خبر الرشيد مع أبان القارى فلحظني المكتفي وقال يا أبا عبد الله ماهذا الضحك فقلت خبر ذكرته في الهريسة يا أمير المؤمنين ودهن الدجاج مع جدك الرشيد فقال ماهو قلت نعم يا أمير المؤمنين ذكر العتبي والمدايني أن أبان القارى تغدى مع الرشيد فجاؤا بهريسة عجيبة في وسطها مثل السكرجة الضخمة على هذا المثال من دهن الدجاج قال أبان فاشتهيت من ذلك الدسم وأجللت الرشيد من أن أمد يدي فأغمس فيه قال ففتحت باصبعي فيه فتحا يسيرا فانقلب الدسم نحوي فقال الرشيد يا أبان أخرقتها لتغرق أهلها فقال أبان لا يا أمير المؤمنين ولكن سقناه لبلد ميت فضحك الرشيد حتى أمسك صدره (وفي سنة) خمس وتسعين ومائتين وردت الى مدينة السلام هدية زيادة الله بن عبد الله ويكنى أبا مضر وكانت الهدية مائتي خادم أسود وأبيض ومائة وخمسين جارية ومائة من الخيل العربية وغير ذلك من اللطائف. وقد كان الرشيد في سنة أربع وثمانين ومائة وذلك بالرقة قلد ابراهيم ابن الاغلب أمر افريقية من أرض المغرب فلم يزل آل الاغلب أمراء افريقية حتى أخرج عنها زيادة الله بن عبد الله هذا في سنة ست وتسعين ومائتين وقيل في سنة خمس وتسعين ومائتين أخرجه من المغرب أبو عبد الله المحتسب الداعية الذي ظهر في كتامة وغيرها من البربر فدعا الى عبد الله صاحب المغرب وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب تولية المنصور للاغلب بن سالم السعدي المغرب (قال) واشتدت علة المكتفي بالله بالدرب فأحضر محمد بن يوسف القاضي وعبد الله بن علي بن أبي الشوارب فأشهدهما على قضيته بالعهد الى أخيه جعفر وقد قدمنا ذكر وصيته فيما سلف من هذا الكتاب فأغنى ذلك عن اعادته في هذا الموضع (قال المسعودي) وللمكتفي بالله أخبار حسان وما كان في عصره من الكوائن في قصة ابن الخلنجي بمصر وأمر القرمطي بالشأم وأمر ذكرويه وخروجه على الحاج وغير ذلك مما كان في خلافته قد أتينا على جميع ذلك في كتابينا أخبار الزمان والاوسط فأغنى ذلك عن اعادة ذكره

(ذكر خلافة المقتدر بالله)

وبويع المقتدر جعفر بن أحمد في اليوم الذي توفي فيه أخوه المكتفي بالله وكان يوم الاحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين ويكنى أبا الفضل وأمه أم ولد يقال لها شغب وكذلك أم المكتفي أم ولد يقال لها ظلوم وقيل غير ذلك وكان له يوم بويع ثلاث عشرة سنة وقتل ببغداد بعد صلاة العصر يوم الاربعاء لثلاث ليال بقين من شوال سنة عشرين وثلثمائة فكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وستة عشر يوما وبلغ من السن ثمانيا وثلاثين سنة وخمسة عشر يوما وقد قيل في مقدار عمره غير ماذكرنا والله أعلم

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه)

وبويع المقتدر وعلى وزارته العباس بن الحسن الى أن وثب الحسين بن حمدان ووصيف بن سوارتكين وغيرهما من الاولياء على العباس بن الحسن فقتلوه وفاتكا معه وذلك في يوم السبت لاحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الاول سنة ست وتسعين ومائتين وكان من أمر

عبد

عبد الله بن المعتز ومحمد بن داود وغيرهما ما قد انتشر في الناس واشتهر وأتينا على ذكره في الكتاب الاوسط وغيره من أخبار المقتدر وقد صنف جماعة من الناس أخبار المقتدر مجتمعة مع أخبار غيره من الخلفاء ومفردة وعمل ذلك في أخبار بغداد وقد صنف أبو عبد الله بن عبدوس الجهشاري أخبار المقتدر في ألوف من الاوراق ووقع لي منها أجزاء يسيرة (وأخبرني) غير واحد من أهل الدراية أن ابن عبدوس صنف أخبار المقتدر في ألف ورقة وانما نذكر من أخبار كل واحد منهم لمعا وانما الغرض جوامع من أخبارهم تبعث على درسه وحفظ ما فيه ونسخه (وكان) عبد الله بن المعتز أديبا بليغا شاعرا مطبوعا مجودا مقتدرا على الشعر قريب المأخذ سهل اللفظ جيد القريحة حسن الاقتراح للمعاني فمن ذلك قوله

يقول العاذلون تعزعنها * وأطف لهيب قلبك بالسلو
وكيف وقبلة منها اختلاسا * ألذ من الشماتة بالعدو

(وقوله)
ضعيفة أجفانه * والقلب منه حجر
كأنما ألحاظه * من فعله تعتذر

(وقوله)
تولى الجهل وانقطع العتاب * ولاح الشيب وافتضح الخضاب
لقد أبغضت نفسي في مشيبي * فكيف تحبني الخود الكعاب

(وقوله)
عجبا للزمان من حالتيه * وبلاء دفعت منه اليه
رب يوم بكيت فيه فلما * صرت في غيره بكيت عليه

وقوله في أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات الوزير

أبا حسن ثبت في الارض وطأتي * وأدركتني في المعضلات الهزاهز
وألبستني درعا علي حصينة * فناديت صرف الدهر هل من مبارز

(وقوله)
ومن شر أيام الفتى بذل وجهه * الى غير من خفت عليه الصنائع
متى يدرك الاحسان من لم تكن له * الى طلب الاحسان نفس تنازع

(وقوله)
فان شئت عادتني السقاة بكأسها * وقد فتح الاصباح في ليلة فما
تخلت الدجا والفجر قد مد خيطه * رداء موشى بالكواكب معلما

(وقوله)
وأبكي اذا ما غاب نجم كأنني * فقدت صديقا أو رزئت حميما
فلو شق من طرف الليالي كواكب * شققت لها من ناظري نجوما

ومما أحسن فيه قوله في عبيد الله بن سليمان

لآل سليمان بن وهب صنائع * الي ومعروف لدي تقدما
هم علموا الايام كيف تبرني * وهم غسلوا من ثوب والدي الدما

وقوله عند وفاة المعتصم بالله

قضوا ما قضوا من حقه ثم قدموا * اماما يؤم الخلق بين يديه
وصلوا عليه خاشعين كأنهم * صفوف قيام للسلام عليه

وقوله في فصادة المعتضد بالله

يا دما سال من ذراع الامام * أنت أذكى من عنبر ومدام

قد ظننالك اذ جريت الى الطشـ * ـت دموعا من مقلتى مستهلم
انما غرق الطبيب شبا المبـ * ـضع فى نفس مهجة الاسلام

(وقوله) اصبر على حسد الحسو * د فان صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها * ان لم تجد ما تأكله

(وقوله) يطوف بالراح بيننا بشر * محكم فى القلوب والمقل
يكاد لحظ العيون حين بدا * يسفك من خده دم الخجل

(وقوله) وشأ تيه بحسن صورته * عبث الفتور بلحظ مقلته
وكأن عقرب صدغه وقفت * لما دنت من نار وجنته

(وقوله) اذا اجتنى وردة من خده فه * تكونت تحتها أخرى من الخجل

(قال) وكانت وفاة أبى بكر محمد بن داود بن على بن خلف الاصبهانى الفقيه سنة ست وتسعين ومائتين وكان ممن قد علا فى رتبة الادب وتصرف فى بحار اللغة وتفنن فى موارد المذاهب وأشفى على أغراض المذاهب وكان عالما بالفقه منفردا وواحدا فيه فريدا وألف فى عنفوان صباه وقبل كماله وانتهائه الكتاب المعروف بالزهرة ثم تناهت فكرته ونسقت قوته فصنف الفقهيات ككتابه فى الوصول الى معرفة الاصول وكتاب الانذار وكتاب الاعذار والايجار وكتابه المعروف بالانتصار على محمد بن جرير وعبد الله بن شرشى وعيسى بن ابراهيم الضرير (ومما قال) فيه فأحسن فى عنفوان شبابه وأثبته فى كتابه المترجم بالزهرة وعزاه الى بعض أهل عصره وان كان محسنا فى سائر كلامه من منظومه ومنثوره قوله

على كبدى من خيفة البين لوعة * يكاد لها قلبى أسى يتصدع
يخاف وقوع البين والشمل جامع * فيبكى بعين دمعها متسرع
فلو كان مسرورا بما هو واقع * كما هو محزون بما يتوقع
لكان سواء برؤه وسقامه * ولكن وشك البين أدهى وأوجع

(وقوله)

تمتع من حبيبك بالوداع * الى وقت السرور بالاجتماع
فكم جربت من وصل وهجر * ومن حال ارتفاع واتضاع
وكم كأس أمر من المنايا * شربت فلم يضق عنها ذراعى
فلم أر فى الذى لاقيت شيأ * أمر من الفراق بلا وداع
تعالى الله كل مواصلات * وان طالت تؤل الى انقطاع

(وقوله) لا خير فى عاشق يخفى صبابته * بالقول والشوق فى زفراته بادى
يخفى هواه وما يخفى على أحد * حتى على العيس والركبان والحادى

(وفى سنة) ثلاث وثلثمائة فى خلافة المقتدر بالله كانت وفاة على بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام وكان شاعرا لسانا مطبوعا فى الهجاء ولم يسلم منه وزير ولا أمير ولا صغير ولا كبير وله فى هجاء أبيه واخوته وسائر أهل بيته فمما قال فى أبيه

بنى أبو جعفر دارا فشيدها * ومثله لخيار الدور بناء

فالجوع داخلها والذل خارجها * وفى جوانبها بؤس وضراء

(وله فيه) ما ينفع الدار من تشييد حائطها * وليس داخلها خبز ولا ماء

(وله فيه) هبك عمرت عمر عشرين نسرا * أترى أننى أموت وتبقى

فلئن عشت بعد يومك يوما * لأشقن جيب مالك شقا

(وله فيه) رأى الجوع طبا فهو يحمى ويحتمى * فلست ترى فى داره غير جائع

ويزعم أن الفقر فى الجود والسخا * وأن ليس حظ فى اكتساب الصنائع

لقد أمن الدنيا ولم يخش صرفها * ولم يدر أن المرء رهن الفجائع

(وأنشدنى) أبو الحسن محمد بن على الفقيه الوراق الانطاكى بانطاكية لعلى بن محمد بن بسام يهجو الموفق والوزير أبا الصقر اسمعيل بن بلبل والطائى أمير بغداد وعبدون النصرانى أخا صاعد وأبا العباس بن بسام وحامد بن العباس وزير المقتدر بالله بعد ذلك واسحق بن عمران أمير الكوفة يومئذ

أيرجو الموفق نصر الاله * وأمر العباد الى دانية

ومن قبلها كان أمر العباد * لعمر أبيك الى زانية

فان رضيت رضيت أنه * كداليــة فوقها داليــة

وظل ابن بلبل يدعى الوزير * ولم يك فى الاعصر الخالية

وطعان طى تولى الجسور * وسقى الفرات وزرقاميه

ويحكم عبدون فى المسلمين * ومن ضله موجد الحالية

وأحول بسطام ظل المشير * وكان يحوك ببرزاطيــة

وحامد ياقوم لو أمره * الى لألزمتــه الراوية

نعم ولأرجعتــه صاغرا * الى بيع رمان حصراوية

واسحق عمران يدعى الامير * لداهيــة أيها داهيــة

فهذى الخلافة قد ودعت * وظلت على عرشها خاوية

فخل الزمان لاوغاده * الى لعنــة الله والهاوية

فيارب قد ركب الارذلون * ورجلى فى رحلهم عاليــة

فان كنت حاملنا مثلهم * والا فأرحل بنى الزانيــة

جمع فى شعره هذا جميع رؤساء أهل الدولة فى ذلك العصر (وأنشد) أبو اسحق الزجاج النحوى صاحب المبرد فى المعتضد وقد ختن ابنه جعفر المقتدر

انصرف الناس من ختان * يدعون من جوعهم حزاما

فقلت لاتعجبوا لهذا * فهكذا تختن اليتامى

(وله أيضا فى المعتضد)

الى كم لاترى ما ترتجيــه * ولاتنفك من أمل كذوب

لئن سموك معتضدا فانى * أظنك سوف تعضد عن قريب

(وله فى الوزير) العباس بن الحسن وابن عمرويه الخراسانى وكان أمير بغداد يومئذ

لعن الله الذى قلد عباس الوزاره
والذى ولى ابن عمر * وبه بغداد الاماره
لوزير سمج الوجـ * ـه بطين كالقواره
وقفاه سناما * ن ورأس كالحجاره
لم يزل يعرف بالزفـ * ـن قديما والعياره
وأمير أعجمى * كما رابن حماره
رحل الاسلام عنا * بتوليه الوزاره

(وأنشدنى فى أبى الحسن جحظة البرمكى المغنى)

لجحظة المحسن عندى يد * أشكرها منه الى المحشر
لما أرانى وجه برذونه * وصاننى عن وجهه المنكر

(وله فى أبيه محمد بن نصر بن منصور بن بسام)

خبيصة تعقد من سكره * وبرمة تطبخ فى قنبره
عند فتى أسمح من حاتم * يطبخ قدرين على مجمره
وليس ذا فى كل أيامه * لكنه فى الدعوة المنكره
فى يوم لهو وقطع هائل * ومجمع اللذات والقرقره
يقول للآكل من خبزه * تعسا لهذا البطن ما أكبره

(وله فى أبيه أيضا)

خبز أبى جعفر طباشير * فيه الادويه والعقاقير
فيه دواء لكل معضلة * للبطن والصدر والبواسير
وقصعة الاكل مثل مدهنة * يرهق من حولها النواظير
ونيل ما ترتجيه من يده * ما ليس تجرى به المقادير

(وله فيه) بعثت لأستهديه عيرا ولم أكن * لاعلم أن العير صار لنا صهرا
فوجه لى كى نستوى فى ركوبه * فيركبه بطنا وأركبه ظهرا

(وقال فى جماعة من الرؤساء)

قل للرؤس ومن ترجى نوافلهم * ومن يؤمل فيه الرفد والعمل
ان تشغلونى بأعمال أصيرها * شغلا والا ففى اعراضكم شغل

وقوله مالى رأيتك دائبا * مستسخطا أبدا لرزقك
ارجع الى ما تستحق فان قوتك فوق حقك

(وله فى عبيد الله بن سليمان الوزير)

عبيد الله ليس له معاد * ولا عقل وليس له سداد
رددت الى الحياة فعدت عنها * لقول الله لو ردوا لعادوا

(وله فى القاسم بن عبيد الله بن سليمان)

قل للمولى دولة السلطان * عند الكمال توقع النقصان

كم من وزير قد رأيت معظما * أضحى بدار مذلة وهوان

(وله فى عبيد الله بن سليمان)

لابد يا نفس من سجود * فى زمن القرد للقرود
هبت لك الريح يا ابن وهب * فخذ لها أهبة الركود

(وله فى اسمعيل بن بلبل الوزير)

لابى الصقر دولة * مثله فى التخلف
مزنة حين ألمعت * أذنت بالتكشف

(وله فى العباس بن الحسن الوزير)

تحمل أوزار البرية كلها * وزير بظلم العالمين يجاهر
ألم تر أسباب الذين تقدموا * وكيف أتتهم بالبلاء الدوائر

(وله فى الوزير صاعد بن مخلد)

سجدنا للقرود رجاء دنيا * حوتها دوننا أيدى القرود
فما نالت أناملنا بشئ * عملناه سوى ذاك السجود

(وله فى العباس بن الحسن الوزير)

بنيت على دجلة مجالسا * تباهى به فعل من قد مضى
فلا تفرحن فكم مثل ذا * رأيناه ما تم حتى انقضى

(وله فى الوزير على بن محمد بن الفرات)

وقفت شهورا للوزير أعدها * فلم تنه نحوى الحقوق السوالف
فلا هو يرعى لى رعاية مثله * ولا أنا أستحيى الوقوف وآنف

(وله فى أبى جعفر محمد بن جعفر الفوملى)

سألت أبا جعفر * فقال يدى تقصر
فقلت له عاجلا * يكون كما تذكر

(وله فيه)

لحية كثة أضر بها النتـ * ـف ووجه مشوه ملعون
قلت لما بدا يجمجم فى القو * ل ويهذى كأنه مجنون
صدق الله أنت من ذكر اللـ * ـه مهين ولا يكاد يبين

(وله فى ابن المرزبان وقد كان سأله دابة فمنعه)

بخلت عنى بقرف عطب * فلم ترانى ما عشت أركبه
وان تكن صنته فما خلق الله مصونا وأنت تركبه

(وله مما أحسن فيه)

تضمن لى فى حاجة ما أحبه * فلما اقتضيت الوعد قطب واعتلا
وصرت عذرا شغله واتصاله * ولولا اتصال الشغل ما كان أشغلا

(ولعلى بن محمد بن بسام) فى هذه المعانى أشعار كثيرة اكتفينا بذكر البعض عن ايراد ما هو أكثر منه فى هذا الكتاب لما قدمناه ذكره فيما سلف قبله من الكتب وقد كان أبوه محمد بن جعفر فى غاية الستر

والمروأة وكان رجلا متترفا حسن الزى ظاهر المروأة مشغوفا بالنساء (وذكر) أبو عبد الرحمن العتبى قال دخلت عليه يوما شاتيا شديد البرد ببغداد فاذا هو فى قبة واسعة قد طليت بالطين الاحمر الارمنى وهو يلوح بريقا فقدرت أن تكون القبة عشرين ذراعا فى مثلها وفى وسطها كانون بزرافين اذا اجتمع ونصب كان مقداره عشرة أذرع فى مثلها وقد ملئ جمر الغضى وهو جالس فى صدر القبة عليه غلالة تسترية وما فضل عن الكانون مفروش بالديباج الاحمر فأجلسنى بالقرب منه فكدت أتلظى فدفع الى جام ماء الورد وقد مزج بالكافور فمسحت به وجهى ثم رأيته قد استسقى ماء فأتوه بماء رأيت فيه ثلجا فلم يكن لى وكد الا قطع ما بينى وبينه ثم خرجت من عنده الى برد مائع وقد قال لى لا يصلح هذا البيت لمن يريد الخروج منه (قال) ودخلت عليه فى بعض الايام وهو جالس فى موضع فى آخر داره وقد رفعه على بركة وفى صدره صفة وهو يشرف منها على البستان وعلى حيز الغزلان وحظيرة القمارى وأشباهها فقلت له يا أبا جعفر أنت والله جالس فى الجنة قال فليس ينبغى لك أن تخرج من الجنة حتى تصطبح فيها فما جلست واستقر بى المجلس حتى أتوه بمائدة جزع لم أر أحسن منها وفى وسطها جام جزع ملونة قد لوى على جنباتها الذهب الاحمر وهى مملوأة من ماء ورد وقد جعل ساقا على ساق كهيئة الصومعة من صدور الدجاج وعلى المائدة سكرجات جزع فيها الاصباغ وأنواع الملح ثم أتينا بشنبوشق بلور وبعده جامات اللوزينج ورفعت المائدة وقمنا من فورنا الى موضع الستارة فقدم بين أيدينا اجانة صينى بيضاء قد كرست بالبنفسج والخيرى وأخرى مثلها قد عبى فيها التفاح الشامى قدرنا مقدار ما حضر فيها ألف حبة فما رأيت طعاما انظف منه ولا ريحا أظرف منه فقال لى هذا حق الصبوح فما أنسى الى الساعة طيب ذلك اليوم (قال المسعودى) وانما ذكرنا هذا الخبر عن محمد بن جعفر ليعلم أن على بن محمد ابنه أخبر بضد ما كان عليه وأنه لم يسلم من لسانه انسان وله أخبار وهجو كثير فى الناس قد أتينا على مبسوطها فيما سلف من كتبنا وما كان من قوله فى القاسم بن عبيد الله ودخوله الى المعتضد وهو يلعب بالشطرنج ويتمثل بقول على بن بسام

حياة هذا كموت هذا * فليس يخلو من المصائب

فلما شال رأسه نظر الى القاسم فاستحيا فقال يا قاسم اقطع لسان ابن بسام عنك فخرج القاسم مبادرا ليقطع لسانه فقال له المعتضد بالبر والشغل ولا تعرض له بسوء فولاه القاسم البريد والجسر جسر قنسرين والعواصم من أرض الشام وما كان من قوله فى أسد بن جهور الكاتب وخبره معه وما عم بهجائه أسدا وغيره من الكتاب وهو

تعس الزمان لقد أتى بعجائب * ومحا رسوم الظرف والآداب

أو ما ترى أسد بن جهور قد أتى * متشبها بأجلة الكتاب

وأتى بأقوام لو انبسطت يدى * فيهم رددتهم الى الكتاب

(ولما قتل) العباس بن الحسن استوزر المقتدر على بن محمد بن موسى بن الفرات يوم الاربعاء لاربع ليال خلون من ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين فكانت وزارته الى أن سخط عليه ثلاث سنين وتسعة اشهر وأياما واستوزر محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان فى اليوم الذى سخط فيه على على بن محمد بن موسى بن الفرات وهو يوم الاربعاء لاربع خلون من ذى الحجة وخلع

عليه

عليه ولم يخلع على أحد غيره وقبض عليه يوم الاثنين لعشر خلون من المحرم سنة احدى وثلثمائة ونخلع على الوزير على بن عيسى بن داود بن الجراح يوم الثلاثاء لاحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة احدى وثلثمائة وقبض عليه يوم لاثنين لثمان خلون من ذى الحجة سنة أربع وثلثمائة واستوزر على بن محمد بن الفرات ثانية وخلع عليه يوم الاثنين لثمان خلون من ذى الحجة سنة أربع وثلثمائة وقبض عليه يوم الخميس لاربع بقين من جمادى الاولى سنة ست وثلثمائة وخلع على الوزير حامد بن العباس يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة ست وثلثمائة وأطلق على بن عيسى فى اليوم الثانى من وزارته وهو يوم الاربعاء وفوضت الامور اليه وقبض على حامد بن العباس واستوزر على بن محمد بن الفرات وهى الثالثة من وزارته وقد كان ولده محسن بن على هو الغالب على الامور فى هذه الوزارة فأتى على جماعة من الكتاب واستوزر المقتدر عبد الله بن محمد بن عبد الله الخاقانى ثم استوزر بعده احمد بن عبيد الله الخصيبى ثم استوزر على بن عيسى ثانية ثم استوزر على بن محمد بن على بن مقلة ثم استوزر بعده سليمان بن الحسن بن مخلد ثم استوزر بعده عبيد الله بن محمد الكلواذى ثم استوزر بعده الحسن بن القاسم ابن عبيد الله بن سليمان بن وهب وهو المقتول بالرقة ثم استوزر بعده الفضل بن جعفر بن موسى ابن الفرات (وقتل المقتدر بالله) ببغداد وقت صلاة العصر يوم الاربعاء لثلاث ليال بقين من شوال سنة عشرين وثلثمائة وكان قتله فى الوقعة التى كانت بينه وبين مؤنس الخادم بباب الشماسية من الجانب الشرقى وتولى دفن المقتدر العامة وكان وزيره فى ذلك اليوم أبا الفتح الفضل بن جعفر (وذكر) أن الفضل أخذ الطالع فى وقت ركوب المقتدر بالله الى الوقعة التى قتل فيها فقال له المقتدر أى وقت هو فقال وقت الزوال فقطب له المقتدر وأراد أن لا يخرج حتى أشرفت عليه خيل مؤنس فكان آخر العهد به من ذلك الوقت وكل سادس من خلفاء بنى العباس مخلوع مقتول فكان السادس منهم محمد بن هرون المخلوع والسادس الآخر المستعين والسادس الآخر المقتدر بالله (وللمقتدر أخبار حسان) وما كان فى أيامه من الحروب والوقائع وأخبار ابن أبى الساج وأخبار مؤنس وأخبار سليمان بن الحسن الجبارى وما كان منه بمكة فى سنة سبع عشرة وثلثمائة وغيرها وما كان فى المشرق والمغرب قد أتينا على جميع ذلك فى كتابنا أخبار الزمان مفصلا وفى الكتاب الاوسط مجملا وذكرنا منه فى هذا الكتاب لمعا وأرجو أن يفسح الله لنا فى البقاء ويمد لنا فى العمر ويسعدنا بطول الايام فنعقب تأليف هذا الكتاب بكتاب آخر نضمنه فنون الاخبار وأنواعا من ظرائف الآثار على غير نظم من تأليف ولا ترتيب من تصنيف على حسب ما يسنح من فوائد الاخبار ويوجد من نوادر الآثار ونترجمه بكتاب وصل المجالس بجوامع الاخبار ومخلط الآداب تاليا لما سلف من كتبنا ولاحقا لما تقدم من تصنيفنا (وكانت) وفاة موسى بن اسحق القاضى فى خلافة المقتدر وذلك فى سنة سبع وتسعين ومائتين ومحمد بن عثمان بن أبى شيبة الكوفى ودفن فى الجانب الشرقى وكان هذا من علماء أهل الحديث وكبار أهل النقل وورد الخبر الى مدينة السلام بأن أركان البيت الحرام الاربعة غرقت حتى عم الغرق الطواف وفاضت بئر زمزم وان ذلك لم يعهد فيما سلف من الزمان (وفيها) كانت وفاة يوسف بن يعقوب بن اسمعيل بن حماد القاضى وذلك فى شهر رمضان بمدينة

السلام وهو ابن خمس وتسعين سنة وقيل ان فى هذه السنة كانت وفاة محمد بن داود بن خلف الاصبهانى الفقيه وقد قدمنا ذكره وان وفاته كانت فى سنة ست وتسعين ومائتين وانما حكينا الخلاف فى ذلك (وفى هذه السنة) وهى سنة سبع وتسعين ومائتين كانت وفاة ابن أبى عوف البرورى المعدل ببغداد وذلك فى شوال وهو ابن نيف وثمانين سنة ودفن فى الجانب الغربى وانما نذكر هؤلاء لنقلهم السنن واشتهارهم بذلك وحاجة أهل العلم وأصحاب الآثار الى معرفة وقت وفاتهم (وفيها) مات أبو العباس أحمد بن مسروق المحدث وهو ابن أربع وثمانين سنة ودفن بباب آل حرب من الجانب الغربى وقد قدمنا فى هذا الكتاب أخبار من ظهر من آل أبى طالب فى أيام بنى أمية وبنى العباس وفى غيره مما سلف من كتبنا وما كان من أمرهم من قتل أو حبس أو حرب وقد كان ظهر بصعيد مصر أحمد بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فقتله أحمد بن طولون بعد أقاصيص قد أتينا عليها فيما سلف من كتبنا وانما نذكر من ظهر من آل أبى طالب واللمع من أخبارهم فى هذا الكتاب لاشتراطنا فيه على أنفسنا ان ايراد ذكرهم ومقاتلهم وغير ذلك من أخبارهم من منذ أمير المؤمنين الى الوقت الذى ينتهى اليه تصنيفنا لهذا الكتاب (وكانت) وفاة يحيى بن الحسين الرسى بعد أن قطن بمدينة صعدة من أرض اليمن فى سنة ثمان وسبعين ومائتين وقام بعده ولده الحسين بن يحيى وكان ظهور أبى الرضا وهو محسن بن جعفر بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد فى أعمال دمشق فى سنة ثلثمائة وكانت له مع أبى العباس أحمد بن كيغلغ وقعة فقتل صبرا وقيل قتل فى المعركة وحمل رأسه الى مدينة السلام فنصب على الجسر الجديد بالجانب الغربى وظهر ببلاد طبرستان والديلم الاطروش وهو الحسن بن على وأخرج عنها المسودة وذلك فى سنة احدى وثلثمائة وقد كان ذا فهم وعلم ومعرفة بالآراء والنحل وقد كان أقام فى الديلم سنين وهم كفار على دين المجوسية ومنهم جاهلية وكذلك الجيل فدعاهم الى الله عز وجل فاستجابوا وأسلموا وقد كان للمسلمين بازائهم ثغور مثل قزوين وغيرها وبنى فى الديلم مساجد والديلم زعم كثير من الناس من ذوى المعرفة بالنسب أنهم من ولد باسل بن ضبة بن أد وأما الجيل من تميم وقد قيل ان دخول الاطروش الى طبرستان كان فى أول يوم من المحرم سنة احدى وثلثمائة وان فى هذا اليوم دخل صاحب البحرين البصرة وقتل أميرها عسكر المفلحى وقد أتينا على خبر الاطروش العلوى وخبر ولده وخبر أبى محمد الحسن بن القاسم الحسنى الداعى واستيلائه على طبرستان ومقتله وما كان من الجيل والديلم فى أمره فى كتابنا أخبار الزمان (وكانت) وفاة أبى العباس أحمد بن شريح القاضى فى سنة ست وثلثمائة (وكانت) وفاة أبى جعفر محمد بن ابراهيم بن جابر القاضى بحلب وأدخل الليث بن على بن الليث ابن أخى الصفار الى مدينة السلام على الفيل فى سنة سبع وتسعين ومائتين وقدامه الجيش وحوله وقد شهر وقيل ان الليث أدخل الى مدينة السلام فى سنة ثمان وتسعين ومائتين (وفى هذه السنة) وهى سنة ثمان وتسعين ومائتين مات ببغداد أبو بكر محمد بن سليمان المروزى المحدث صاحب الجاحظ وقيل أيضا ان وفاته كانت فى سنة ثمان وتسعين (وفى هذه السنة) كان دخول فارس صاحب مراكب الروم وحربها الى ساحل الشأم فافتتح حصن القبة بعد حرب طويل وعدم مغيث يغيثهم من المسلمين وافتتح مدينة

اللاذقية فسبى منها خلقا كثيرا ووقع فى الكوفة برد عظيم الواحدة رطل بالبغدادى وريح مظلمة وذلك فى شهر رمضان وانهدم كثير من المنازل والبنيان وكان فيه ارجفة عظيمة هلك فيها خلق كثير من الناس هكذا كان بالكوفة فى سنة تسع وثمانين ومائتين وكان بمصر فى هذه السنة زلزلة عظيمة وفيها طلع نجم الذنب (وفيها) غزا وهنانة صاحب الغزو البحر الرومى فى مراكب المسلمين جزيرة قبرس وقد كانوا انقضوا العهد الذى كان فى صدر الاسلام أن لا يعينوا الروم على المسلين ولا المسلين على الروم وأن خراجه نصفه للمسلمين ونصفه للروم وأقام وهنانة فى هذه الجزيرة أربعة أشهر يسبى ويحرق ويفتح مواضع قد تحصن فيها وقد أتينا على خبر هذه الجزيرة فيما سلف من هذا الكتاب عند اخبارنا عن جمل البحار ومبادى الانهار ومطارحها فمنع ذلك من اعادة وصفها (وفى سنة) احدى وثلثمائة مات عبد الله بن ناجية المحدث بمدينة السلام وكان مولده فى سنة اثنتى عشرة ومائتين وكان القبض على ابن الجصاص الجوهرى بمدينة السلام فى سنة اثنتين وثلثمائة والذى صح مما قبض من ماله من العين والورق والجوهر والفرش والثياب والمستغلات خمسة آلاف ألف وخمسمائة ألف دينار (وفيها) مات القاسم بن الحسن بن الاشيب ويكنى أبا محمد يوم الاثنين لليلتين بقيتا من جمادى الأولى وكان من كبار العلماء والمحدثين ودفن فى الجانب الغربى فى الشارع المعروف بشارع الحماليق وحضر جنازته محمد بن يوسف القاضى وأبو جعفر محمد بن اسحق بن البهلول القاضى وغيرهم من الفقهاء والعدول والكتاب وأهل الدولة وهو أبو أبى عمران موسى بن القاسم بن الحسن المعروف بابن الاشيب وهو كبير من فقهاء الشافعيين فى هذا الوقت (وفى هذه السنة) وهى سنة اثنتين وثلثمائة ورد الجيش من الغرب فكان لاهل مصر من أصحاب السلطان معهم حروب عظيمة وقتل فيها خلق كثير واستأمن رجل من وجوه البرابرة يعرف بأبى حزة الى السلطان وسار الى مدينة السلام فخلع عليه (وفى سنة) سبع عشرة وثلثمائة أدخل يوسف بن أبى الساج الى مدينة السلام وقد شهر على الجمل الفالج وعليه دراعة الديباج التى لبسها عمرو بن الليث ووصيف الخادم وعلى رأسه برنس طويل بشقائق وجلاجل وحوله الجيوش ومؤنس الخادم وراءه مع أرباب الدولة من أصحاب السيوف وقد أتينا على خبر هذه الوقعة التى أسر فيها مؤنس الخادم ابن أبى الساج بناحية أردبيل ومن حضرها من الامراء مثل ابن أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان وعلى بن حسان وأبى الفضل المروى وأحمد بن على بن صعلوك وغيرهم من الامراء والقواد وذكرنا تخلية المقتدر لابن أبى الساج وخروجه من ديار ربيعة ومضر الى بلاد اذربيجان التى هى من أعماله وأرمينية وما كان من غلامه مسك واستيلائه على عمل مولاه ومفارقته الفارقى وما كان من سائر أخبار ابن أبى الساج ومسيره الى واسط ثم مسيره الى الكوفة وما كان من خبره فى حربه لابى طاهر سليمان بن الحسن الجبائى وأسره اياه وقتله له نحو الانبار وهيت حين أشرف على سواده بليق ونظيف غلام ابن أبى الساج وما كان فى هذه الوقعة وهزمه لبليق ونظيف ومسير القرمطى ونزوله على هيت وغير ذلك وذلك فى سنة خمس عشرة وثلثمائة فيما سلف من كتبنا وكذلك ذكرنا ما كان من مؤنس الخادم ومن كان معه من أولياء السلطان من القتال لجيش صاحب المغرب بمصر وذلك فى سنة تسع وثلثمائة

(ذكر خلافة القاهر بالله)

وبويع القاهر محمد بن أحمد المعتضد بالله يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلثمائة ثم خلع يوم الاربعاء لخمس خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة وسملت عيناه وكانت خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام ويكنى بأبي منصور وأمه أم ولد

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه)

واستوزر القاهر أبا علي محمد بن علي بن مقلة في سنة احدى وعشرين وثلثمائة ثم عزله واستوزر أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبد الله الخصيبي وكانت أخلاقه لا تكاد تحصى لتقلبه وتلونه وكان شهما شديد البطش بأعدائه وأباد جماعة من أهل الدولة منهم مؤنس الخادم وبليق وعلي بن بليق فهابه الناس وخشوا صولته واتخذ حربة عظيمة يحملها في يده اذا سعى في داره ويطرحها بين يديه في حال جلوسه يباشر الحرب بتلك الحربة لمن يريد قتله فسكن من كان يستعدي على من قبله من الخلفاء والتشعب والوثب عليهم وكان قليل التثبت في أمر مخوف السطوة فاذا ما وصفنا من فعله الى أن احتيل عليه في داره فقبض عليه وسملت كلتا عينيه وهو حي هذا في الجانب الغربي في دار ابن طاهر على ما نمي الينا من خبره واتصل بنا من أمره وذلك أن الراضي بالله غيب خبره وقطع ذكره فلما بويع ابراهيم المتقي لله أصيب القاهر معتقلا في بعض المقاصير فأمر به الى دار ابن طاهر فاعتقل بها الى هذه الغاية التي وصفنا (وذكر) محمد بن علي العبدي الخراساني الاخباري وكان القاهر به آنسا قال خلا بي القاهر فقال أصدقني أو هذه وأشار الى الحربة فرأيت والله الموت عيانا بيني وبينه فقلت أصدقك يا أمير المؤمنين فقال لي انظر يقولها ثلاثا فقلت نعم يا أمير المؤمنين قال عما أسألك عنه ولا تغيب عني شيأ ولا تحسن القصة ولا تسجع فيها ولا تسقط منها شيأ قلت نعم يا أمير المؤمنين قال أنت علامة بأخبار بني العباس من أخلاقهم وشيمهم من أبي العباس فمن دونه فقلت على أن لي الامان يا أمير المؤمنين قال ذلك لك قال قلت اما أبو العباس السفاح فكان سريعا الى سفك الدماء واتبعه عماله في الشرق والغرب من فعله واستنوا بسيرته مثل محمد بن الاشعث بالمغرب وصالح بن علي بمصر وحازم بن خذيمة وحميد بن قحطبة وكان مع ذلك بحرا سمحا وصولا جوادا بالمال وسلك من ذكرنا ممن كان في عصره سبيله وذهبوا مذهبه مؤتمين به قال وأخبرني عن المنصور قلت الصدق يا أمير المؤمنين قال الصدق قلت كان والله أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس بن عبد المطلب وبين آل أبي طالب وقد كان قبل ذلك أمرهم واحدا وكان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسي المنجم وأسلم على يديه وهو أبو هؤلاء النوبختية وابراهيم الفزاري المنجم صاحب القصيدة في النجوم وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك وعلي بن عيسى الاسطرلابي المنجم وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية الى العربية منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السندهند وترجمت له كتب ارسطاطاليس من المنطقيات وغيرها وترجم له كتاب المجسطي لبطليموس وكتاب الارثماطيقي وكتاب اقليدس وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية وخرجت الى الناس فنظروا فيها وتعلقوا الى علمها وفي أيامه

وضع محمد بن اسحق كتاب المغازى والسير وأخبار المبتدا ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مصنفة وكان أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم فى مهماته وقدمهم على العرب فاتخذت ذلك الخلفاء من بعده من ولده فسقطت وبادت العرب وزال بأسها وذهبت مراتبها وأفضت الخلافة اليه وقد نظر فى العلوم وقرأ المذاهب وارتاض فى الآراء ووقف على النحل وكتب الحديث فكثرت فى أيامه روايات الناس واتسعت عليهم علومهم قال القاهر قد قلت فأحسنت وعبرت فبينت فأخبرنى عن المهدى كيف كانت خلافته قلت كان سمحا سخيا كريما جوادا فسلك الناس فى عصره سبيله وذهبوا فى أمرهم مذهبه واتسعوا فى مساعيهم وكان من فعله فى ركوبه أن يحمل معه بدر الدنانير والدراهم فلا يسأله أحد الا أعطاه وان سكت ابتدأه المفرق بين يديه وقد تقدم بذلك اليه وامعن فى قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم فى أيامه واعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته لما انتشر من كتب مانى وابن ديصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية وما صنف فى ذلك ابن أبى العرجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن اياس من تأييد المذاهب المانية والديصانية والمرقونية فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم فى الناس وكان المهدى أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم وأقاموا البراهين على المعاندين وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكين وشرع فى بناء المسجد الحرام ومسجد النبى صلى الله عليه وسلم على ما هما عليه الى هذه الغاية وبنى بيت المقدس وقد كان هدمته الزلازل قال فأخبرنى عن الهادى على قصر أيامه كيف كانت أخلاقه وشيمه قلت كان جبارا عظيما وأول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والاعمدة المشهورة والقسى الموتورة فسلكت عماله طريقته وعموا منهجه وكثر السلاح فى عصره قال لقد أجدت فى وصفك وبالغت فيما ذكرت من قولك فأخبرنى عن الرشيد كيف كانت طريقته قلت كان مواظبا على الحج والغزو واتخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور فى طريق مكة وأظهر ذلك بها وبمنى وعرفات ومدينة النبى صلى الله عليه وسلم فعم الناس احسانه مع ما قرن به من عدله ثم بنى الثغور ومدن المدن وحصن فيها الحصون مثل طرسوس وأذنه وعمر المصيصة ومرعش وأحكم بناء الحرب وغير ذلك من دور السبيل والمواضع للمرابطين واتبعه عماله وسلكوا طريقته وقفته رعيته مقتدية بعمله مستنة بامامته فقمع الباطل وأظهر الحق وأنار الاسلام وبرز على سائر الامم وكان أحسن الناس فى ايامه فعلا أم جعفر زبيدة بنت جعفر ابن المنصور لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكة واتخاذ المصانع والبرك والآبار بمكة وطريقها المعروف الى هذه الغاية وما أحدثته من الدور للتسبيل بالثغر الشامى وطرسوس وما أوقفت على ذلك من الوقوف وما ظهر فى أيامه من فعل البرامكة وجودهم وافضالهم وما اشتهر عنهم من أفعالهم وكان الرشيد أول خليفة لعب بالصولجان فى الميدان ورمى بالنشاب فى البرجاس ولعب بالاكرة والطبطاب وقرب الحذاق فى ذلك فعم الناس ذلك الفعل وكان أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بنى العباس والنرد وقدم اللعاب وأجرى عليهم الرزق فسمى الناس أيامه لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها أيام العروس وكثير مما يجاوز النعت ويتفاوت فيه الوصف قال

القاهر فأراك قد قصرت فى تفصيل أم جعفر فلم ذلك قلت يا أمير المؤمنين ميلا الى الاختصار
وطلبا للايجاز قال فتناول الحربة وهزها فرأيت الموت الاحمر فى طرفها ثم برق عينيه مع ذلك
فاستسلمت وقلت هذا ملك الموت ولم أشك أنه يقبض روحى فأهوى بها نحوى فزغت منها
فاسترجع وقد أخطأتنى فقال ويلك أبغضت مافيه عيناك ومللت الحياة قلت ماهو يا أمير
المؤمنين قال أخبار أم جعفر زدنى منها قلت نعم يا أمير المؤمنين كان من فعلها وحسن
سيرتها فى الجد والهزل ما برزت فيه على غيرها فأما الجد والآثار الجليلة التى لم يكن فى الاسلام
مثلها مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز فانها حفرتها ومهدت الطريق لمائها فى
كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثنى عشر ميلا الى مكة
فكان جملة ما أنفق عليها مما ذكر وأحصى ألف ألف وسبعمائة ألف دينار وما قدمت ذكره
من المصانع والدور والبرك والآبار بالحجاز والثغور وانفاقها الالوف على ذلك دون ما كان فى
وقتها من البذل وما عم أهل الفاقة من المعروف والخصب وأما الوجه الثانى مما تتباهى به الملوك
فى أعمالهم وينعمون به فى أيامهم ويصونون به دولهم ويدققون فى أفعالهم وسيرهم فهو أنها أول
من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر وصنع لها الرفيع من الوشى حتى بلغ الثوب
من الوشى الذى اتخذ لها خمسين ألف دينار وهى أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجوارى
يختلفون على الدواب فى جهاتها ويذهبون فى حوائجها برسائلها وكتبها وأول من اتخذ
القباب الفضة والابنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشى والسمور
والديباج وأنواع الحرير من الاحمر والاصفر والاخضر والازرق واتخذت الخفاف المرصعة
بالجوهر وشمع العنبر وتشبه الناس فى سائر أفعالهم بأم جعفر ولما أفضى الامر الى ولدها أمير
المؤمنين قدم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم ككوثر وغيره من خدمه فلما رأت أم جعفر
شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه وعممت رؤسهن
وجعلت لهن الطرر والاصداغ والاقفية وألبستهن الاقبية والقراطق والمناطق فبانت
قدودهن وبرزت أردافهن وبعثت بهن اليه فاختلفن فى يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه
اليهن وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة واتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى
المطمومات وألبسوهن الاقبية والمناطق وسموهن الغلاميات فلما سمع القاهر ذلك الوصف
ذهب به الفرح والطرب والسرور ونادى بأعلى صوته يا غلام قدح على وصف الغلاميات
فبادر اليه جوار كثيرة قدهن واحد توهمتهن غلمانا بالقراطق والاقبية والطرر
والاقفية ومناطق الذهب والفضة فأخذ الكاس بيده فأقبلت أتأمل صفاء جوهر
الكأس ونورية الشراب وشعاعه وحسن أولئك الجوارى والحربة بين يديه وأسرع
فى شربه فقال هيه فقلت نعم يا أمير المؤمنين ثم أفضى الامر الى المأمون فكان فى بدء أمره
لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره يستعمل النظر فى أحكام النجوم وقضاياها وينقاد
الى موجباتها ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كاردشير بن بابك واجتهد فى
قراءة الكتب القديمة وأمعن فى درسها وواظب على قراءتها فافتن فى فهمها وبلغ درايتها انما
كان من الفضل بن سهل ذى الرياستين ما اشتهر وقدم العراق فانصرف عن ذلك كله وأظهر

القول

القول بالتوحيد والوعد والوعيد وجالس المتكلمين وقرب اليه كثيرا من الجدليين والنظارين كأبي الهذيل وأبي اسحق ابراهيم بن سيار النظام وغيرهم ممن وافقهم وخالفهم وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الادباء وأقدمهم من الامصار وأجرى عليهم الارزاق فرغب الناس في صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ووضع كل فريق منهم كتبا ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله وكان أكثر الناس عفوا وأشدهم احتمالا وأحسنهم مقدرة وأجودهم بالمال الرغيب وأبذلهم للعطايا وأبعدهم من النسافه واتبعه وزراؤه وأصحابه في فعله وسلكوا سبيله وذهبوا مذهبه ثم المعتصم فانه يا أمير المؤمنين سلك في النحلة رأى أخيه المأمون وغلب عليه حب الفروسية والتشبه بالملوك الاعاجم في الآلة ولبس القلانس والشاشيات فلبسها الناس اقتداء بفعله وائتماما به فسميت المعتصميات وعم الناس افضاله وامنت به السبل في أيامه وشمل احسانه ثم هرون بن محمد الواثق فانه اتبع ديانة أبيه وعمه وعاقب المخالف وامتحن الناس وكثر معروفه وأمر القضاة في سائر الامصار أن لا يقبلوا شهادة من خالفه وكان كثير الاكل واسع العطاء سهل الانقياد متحببا الى رعيته ثم المتوكل يا أمير المؤمنين فانه خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد ونهى عن الجدل والمناظرة في الآراء وعاقب عليه وأمر بالتقليد وأظهر الرواية للحديث فحسنت أيامه وانتظمت دولته ودام ملكه وغير ذلك يا أمير المؤمنين مما اشتهر من أخلاقه قال القاهر قد سمعت كلامك وكأني مشاهد للقوم على ما وصفت معاين لهم فيما ذكرت ولقد سرني ما سمعت منك ولقد فتحت أبواب السياسة وأخبرت عن طرق الرياسة ثم أمر لي بجائزة عجل لي عطاءها في وقتها ثم قال لي اذا شئت فقم فقمت وقام على أثرى بحربته فخيل والله لي أن يرسيني بها من ورائى ثم عطف نحو دار الحدم فما مضت الايام يسيرا حتى كان من أمره ما ظهر (قال المسعودي) وهذا الرجل الذي أخبرت عنه بهذا الحديث له أخبار حسان وهو حي يرزق الى هذه الغاية وهي سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة مداحا للملوك شاعر الاهل الرياسات حسن الفهم جيد الرأى (وفي خلافة القاهر بالله) وهي سنة احدى وعشرين وثلثمائة كانت وفاة أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد ببغداد وكان ممن قد برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل بن أحمد فيها وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين وكان يذهب في الشعر كل مذهب فطورا يجزل وطورا يرق وشعره أكثر من أن نحصيه أو يأتي عليه كتابنا هذا فمن جيد شعره قصيدته المقصورة وأولها

أما ترى رأسي حاكى لونه * طرة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض في مسوده * مثل اشتعال النار في جزل الغضى

(ومنها) ان الجديدين اذا ما استوليا * على جديد أدنياه للبلى
لست اذا ما أنهضتني غمرة * ممن يقول بلغ السيل الربى

(ومنها) وان ثوت بين ضلوعي زفرة * تملأ ما بين الرحا الى الرحا

وقد عارضه في هذه القصيدة المقصورة جماعة من الشعراء منهم أبو القاسم علي بن محمد بن داود ابن الفهم التنوخي الانطاكي وهو في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة بالبصرة في جملة

اليزيديين وأول قصيدته المقصورة التي يمدح فيها تنوخ وقومه من قضاعة

لولا انتهائي لم أطع نهي الهوى * مدى الصبا نطلب من حاز المدى
ان كنت أقصرت فما أقصر قلـ * ـب داميا ترميه الحاظ الدمى
ومقـلة ان مقلت أهل الفضا * أغضت وفي أجفانها جمر الغضى

(وفيها يقول) وكم ظباء رعيها الحاظها * أسرع في الانفس من حد الظبي
أسرع من حرف الى جزومن * حب الى حبة قلب وحشي
فصاعد من ملك ابن حمير * ما بعده للمرتقين مرتقا

وقد سبق الى المقصورة أبو المقاتل نصر بن نصر الحلواني بن محمد بن زيد الداعي بطبرستان بقوله

قفا خليلي على تلك الربى * وسائلاها أين هاتيك الدمى
أين اللواتي ربعت ربوعها * عليك باستنجادها تشفي الجوى

(ولابن ورقاء في المقصورة أيضا)

ماشئت قل هي المهاهي القنا * جواهر بكين اطراف الدمى

وممن تأخر بعد موت ابن دريد العماني أبو عبد الله المفجع وكان شاعرا بصيرا بالغريب وهو صاحب الباهلي المصري الذي كان يناقض ابن دريد فما جود فيه المفجع قوله

ألا اطرب الفؤاد الى ردين * ودون مزارها ذوا الحلمتين
ألم خيالها وهنا برحلي * فولى رعيه المشرطين عني

وقد أتينا على ما كان في أيام القاهر مع قصر مدته من الكوائن في الكتاب الاوسط فمنع ذلك من ذكره في هذا الكتاب

(ذكر خلافة الراضي بالله)

وبويع الراضي بالله محمد بن جعفر المقتدر ويكنى أبا العباس يوم الخميس لست خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة فأقام في الخلافة الى أن مضى من ربيع الاول عشرة أيام سنة تسع وعشرين وثلثمائة ومات حتف أنفه بمدينة السلام وكانت خلافته ست سنين واحدى عشر شهرا وثلاثة أيام وأمه أم ولد يقال لها ظلوم

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه)

واستوزر الراضي أبا علي محمد بن علي بن مقلة ثم استوزر أبا علي عبد الرحمن ابن عيسى بن داود ابن الجراح ثم أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي ثم أبا القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد ثم أبا الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات ثم أبا عبد الرحمن بن محمد اليزيدي وكان الراضي أديبا شاعرا ظريفا وله أشعار حسان في معان مختلفة ان لم يكن ضاهى بها ابن المعتز فما انقص عنه فمن ذلك قوله في حاله وحال معشوقه اذا التقيا

يصفر وجهي اذا تأمله * طرفي ويحمر وجهه خجلا
حتى كأن الذي بوجنته * من دم وجهي اليه قد نقلا

(ومن جيد شعره قوله) يارب ليل قد دنا مزاره * يسترني وتنسي أزراره

ساق مليح القد كدجاره * سراجه ووجهه مناره
يشهد لي بيذله زناره * تادبحة ظهر احمراره
ماس مع الجرة جانا اره * أي كثيب قد حوى ازاره
وأي نور ضمنت أزراره * طوع الكؤس غرة عذاره
أخفاه وتعتاده امراؤه * لا كان لهو لم يستر غباره

(وقد كان) أبو بكر الصولي يروي كثيرا من أشعار الراضي ويذكر حسن أخلاقه وجميل أخباره وارتياضه بالعلم وفنون الأدب واشرافه على علوم المتقدمين وخوضه في بحار الجدليين من أهل الدراية والمتفلسفين (وذكر) أن الراضي رأى في بعض متنزهاته بالبونابستانا مونقا وزهرا رائقا فقال لمن حضر هل رأيتم أحسن من هذا فكل قال أشياء ذهب فيها الى مدحه ووصف محاسنه وانه لايفي بها شئ من زهرات الدنيا فقال لعب الصولي بالشطرنج والله أحسن من هذا ومن كل ما تصفون (وذكر) أن الصولي في بدء دخوله الى المكتفي وقد كان ذكر له بجودة لعبه الشطرنج وكان الماوردي اللاعب معجبا بلعبه فلعبا جميعا بحضرة المكتفي فحمل المكتفي حسن رأيه في الماوردي وتقدم الخدمة والالفة على نصرته وتسميعه حتى أدهش ذلك الصولي في أول وهلة فلما اتصل اللعب بينهما وجمع له الصولي غايته غلبا لايكاد يرد عليه شيأ وتبين حسن لعب الصولي للمكتفي فعدل عن هواه ونصره للماوردي وقال له صار ماء وردك بولا (قال المسعودي) وقد تناهى بنا الكلام وتغلغل بنا التصنيف الى جمل من أخبار الشطرنج وما قيل فيها مع ماقدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا الاخبار الهند ومبادي اللعب بالشطرنج والنرد واتصال ذلك بالاجسام العلوية والاجرام السماوية فلنذكر جملا مما ذكر في ذلك مما لم يتقدم له ذكر فيما سلف من هذا الكتاب وذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه في تفصيل صنعة الكلام وهي الرسالة المعروفة بالهاشمية أن الخليل بن أحمد من أجل احسانه في النحو والعروض وضع كتابا في الايقاع وتراكيب الاصوات وهو لم يعالج وترا قط ولا مس بيده قضيبا قط ولا كثرت مشاهدته للمغنين وكتب كتابا في الكلام ولو جهد كل بليغ في الارض أن يتعمد ذلك الخطا والتعقيد لما وقع له ولو أن ممرورا استغرق قوامرته في الهذيان لما تهيأ له مثل ذلك منه ولا يتأتى مثل ذلك لاحد الا بخذلان الله الذي لايبقى منه شئ قال الجاحظ ولولا أن أسخف الكتاب وأهجر الرسالة وأخرجهما من حد الجد الى الهزل لحكيت صدر كتابه في التوحيد وبعض ما وصفه في العدل قال ولم يرض بذلك حتى عمد الى الشطرنج فزاده في الدولاب جملا فلعبت به أناس من حاشية الشطرنجيين ثم رموا به وقد ذكر الناس ممن سلف وخلف أن جميع الآلات على هيآتها ست صور لم يظهر في اللعب غيرها فأولها آلة المربع المشهورة وهي ثمانية في مثلها ونسبت الى قدماء الهند ثم الآلة المستطيلة وأبياتها أربعة في ستة عشر والامثلة تنصب فيها في أول وهلة في أربعة صفوف من كلا الوجهين حتى تكون الرقاب منها في صفين والبيادق أيضا أمامها صفين ومسيرها كمسير أمثلة الصورة الأولى والآلة المربعة وهي عشرة في مثلها والزيادة في امثلتها قطعتان تسميان الدبابتين ومسيرهما كمسير الشاه الا أنهما يأخذان ويؤخذان ثم الآلة المدورة المنسوبة الى الروم ثم الآلة النجومية التي تسمى الفلكية وأبياتها على عدد

نجوم الفلك مقسومة نصفين . وينقل فيها سبعة أمثلة مختلفة الالوان على عدد الخمسة الانجم والنيرين وعلى ألوانها (وقد بينا) فيما سلف من أخبار الهند كيفية اتصالها بالاجسام السماوية وقد قيل فى عشقها للاشخاص العلوية أو تحرك الفلك بعشقه لما فوقه وقولهم فى النفس ونزولها فى عالم العقل الى عالم الحس حتى نسيت بعد الذكر وجهلت بعد العلم وغير ذلك من تخاليطهم مما يتصل علمه عندهم بمنصوبات الشطرنج ثم آلة أخرى تسمى الجوارحية استحدثت فى زماننا هذا وهى سبعة أبيات فى ثمانية وأمثلتها اثنا عشر فى كل جهة منها ستة كل واحد من الستة يسمى باسم جارحة من جوارح الانسان التى بها يميز وينطق ويسمع ويبصر ويبطش ويسعى وهى سائر الحواس والخامس المشترك وهو الذى من القلب (وقد ذكرت) الهند وغيرها من اليونانيين والفرس والروم وغيرهم ممن لعب بها كيفية صورها ومباديها ووجوه عللها والغرائب فيها وتصنيف القوائم والمفردات وأنواع ظرائف المنصوبات (وقد استعمل) نصاب الشطرنج عليها فنون الهزل والنوادر المدهشة فزعم كثير منهم أن ذلك مما يبعث على لعبها وانصباب المواد وصحح الافكار اليها وان ذلك بمنزلة الارتجاز الذى يستعمله أهل القتال عند اللقاء والحادى عند الاعياء والمائح للعرب عند الاستقاء وان ذلك عدة للاعب كما ان الشعر والارتجاز من عدة المحارب (وقد قيل) فيما وصفنا أشعار كثيرة مما قاله بعض اللعاب فمن ذلك

نوادر الشطرنج فى وقتها * أحر من ملتهب الجمر
كم من ضعيف اللعب كانت له * عونا على مستحسن القمر

(ومما قيل فيها) وبالغ فى وصف اللعب بها المأمون

أرض مربعة حمراء من أدم * ما بين الفين موصوفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شبها * من غير أن يسعيا فيها بسفك دم
هذا يغير على هذا وذاك على * هذا يغير وعين الحرب لم تنم
فانظر الى الخيل قد جاشت بمعركة * فى عسكرين بلا طبل ولا علم

ومما قيل لها وبولغ فى وصفها واستوعب النظر لاكثر معانيها ما قاله أبو الحسن بن أبى البغل الكاتب وكان من جلة الكتاب وكبار العمال ومما اشتهر بمعرفتها واللعب بها وهو

فتى نصب الشطرنج كيما يرى بها * عواقب لا يسمو بها غير جاهل
وأبصر أعقاب الاحاديث فى غد * بعينى مجد فى مخيلة هازل
ليجرى على السلطان فى ذاك أنه * أراه بها كيف اتقاء الغوائل
وتصريف ما فيها اذا ما اعتبرته * شبيه بتعريف القنا والقنابل

(قال المسعودى) فأما ما قيل فى النرد وأوصافها فقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب كيفية نصبها والمحدث للعبها على ما حكى من التنازع فى ذلك عند ذكرنا أخبار الهند وفيها عند ذوى المعرفة بها ضروب من اللعب وفنون من الترتيب ووجوه من النصب الا ان عدد البيوت واحد لا زيادة فيها ولا نقصان على ما تقدم فى ذلك من عملها والمعهود فى أصولها وان الفصين فيها محكمان واللاعب بهما وان لم يكن مختارا ولا خارجا عن حكم الفصين فيها وقضائهما محتاج الى أن يكون صحيح النقل وسابقه صحيح الحساب حسن الترتيب جيده (وقد قيل) فى لعبها ووصفها وأحكام

الفصين فيها وقضائهما على لعابها أشعار كثيرة بالغوا بالقول فيها وأغرقوا فى استيعاب معانيها (من ذلك) قول بعضهم

لا خير فى النرد لا يغنى ممارسها * حسن الذكاء اذا ما كان محروما
تريك أفعال فصيها بحكمهما * ضدين فى الحال ميمونا ومشؤما
فما تكاد ترى فيها أخا أدب * يفوته القمر الا كان مظلوما

(وأخبرنى) أبو الفتح محمد بن الحسن السندى بن شاهك الكاتب المعروف بكشاجم وكان من أهل العلم والرواية والمعرفة والادب انه كتب الى صديق له يذم النرد وكان بها مشتهرا أبياتا وهى

أيها المعجب المفاخر بالنر * د يزهو بها على الاخوان
فلعمرى حرصت جهدا على قمـ * ـرك لولم تواتك الفصان
غير ان الاديب يكذبه الظن * ويبكى لشدة الحرمان
واذا ما القضاة جاءت بحكم * لم يحد عن قضائها الخصمان
ولعمرى ما كنت أول انسا * ن تمنى فأخلفته الامانى

وأنشدنى أبو الفتح أيضا لابى نواس

ومأمورة بالامر تأتى بغيره * ولم تتبع فى ذاك غيا ولا رشدا
اذا قلت لم تفعل وليست مطيعة * وافعل ما قالت فصرت لها عبدا

(وقد قدمنا) فى أخبار ملوك الهند فيما سلف من هذا الكتاب قول من قال فى النرد والفصين انها جعلت مثلا للمكاسب وانها لا تنال بالكيس ولا بالحيل وما ذكر عن أردشير بن بابك فى ذلك أنه أول من لعب بها وأرى تقلب الدنيا بأهلها وجعل لبيوتها اثنى عشر على ترتيب عدد الشهور وان كلابها ثلاثون كلبا بعدد أيام الشهور وان الفصين مثال القدر وتلعبه بأهل هذا العالم وغير ذلك مما وصفنا من أحوالها وما قدمنا من ذكرها فى هذا الكتاب وغيره مما سلف من كتبنا (وذكر) بعض أهل النظر من الاسلاميين أن واضع الشطرنج كان عدليا مستطيعا فيما يفعل وان واضع النرد كان مجبرا قيبنا باللعب بها انه لا صنع له فيها بل تصرفه فيها على ما يوجبه القدر عليه بها (وذكر) العروضى وهو ممن كان له أدب الراضى وغيره من الخلفاء وأبنائهم قال حدثت الراضى ذات يوم خبرا ألفيته عن مسلم الباهلى فى الكبر وغيره من الخصال التى توجد فى أهل الرياسات مما يحمد فيهم ويكره منهم من الاخلاق فكتب ذلك منى فى حال صباه وعنفوان حداثته ولقد رأيته مواظبا على درسه الى أن استكمل اتقانه فى مجلسه فداخله عند ذلك طرب وفرح وأريحية لم أعهدها منه ثم قال لى وقد أقبل على لعل الزمان أن يبلغ بى ان أتأدب بهذه الخصال وأكون فى مرتبة من يرتاض بهذه الآداب وهو أنه قيل لقتيبة بن مسلم وهو وال على خراسان للحجاج محارب للترك لو وجهت فلانا الرجل من أصحابه الى حرب بعض الملوك على الجيش فقال قتيبة انه رجل عظيم الكبر ومن عظم كبره اشتد عجبه ومن أعجب برأيه لم يشاور كفيا ولم يؤامر نصيحا ومن تبجح بالاعجاب وفخر بالاستبداد كان من الصنع بعيدا ومن الخذلان قريبا والخطأ مع الجماعة خير من الصواب مع الفرقة ومن تكبر على عدوه حقره واذا حقره تهاون بأمره ومن تهاون بأمر عدوه وثق بأمن قوته وسكن الى جميع عدته ومن سكن الى جميع عدته

قل احتراسه ومن قل احتراسه كثر عثاره ومارأيت عظيما تكبر على صاحب حرب قط الا كان منكوبا ومهزولا ومخزولا لا والله حتى يكون أسمع من فرس وأبصر من عقاب وأهدى من قطاة وأحذر من عقعق وأشد اقداما من أسد وأوثب من فهد وأحقد من جمل وأروغ من ثعلب وأسخى من ديك وأشح من ظبي وأحرس من كركى وأحفظ من كلب وأصبر من ضب وأجمع من النمل وان النفس انما تسمح بالعناية على قدر الحاجة وتتحفظ على قدر الخوف وتطمع على قدر السبب وقد قيل على وجه الدهر ليس لمعجب رأى ولا لمتكبر صديق ومن أحب أن يحب تحبب (قال المسعودى) وتذاكرنا يوما بحضرة الراضى بالله فى حال صباه وقد حضر جماعة من ذوى العلم والمعرفة بأخبار الناس ممن غبر فانتهى بنا الامر الى خبر معاوية بن أبى سفيان حين ورد عليه كتاب من ملك الروم أن يرسل اليه سراويل أجسم رجل عنده فقال معاوية لا أعلمه الا قيس بن سعد فقال لقيس اذا انصرفت فابعث الى سراويلك فخلعها ورمى بها فقال معاوية هلا بعثت بها من منزلك فقال قيس

أردت لكيما يعلم الناس أنها * سراويل قيس والوفود شهود
وأن لا يقولوا غاب قيس وهذه * سراويل عاد قد نمته ثمود

فقال قائل ممن حضر قد كان جبلة بن الايهم أحد ملوك بنى غسان طوله اثنا عشر شبرا فاذا ركب مسحت قدماه الارض فقال له الراضى بالله قد كان قيس بن سعد هذا المذكور يخط قدماه الارض واذا مشى بين الناس يتوهمون أنه راكب وقد كان جدى على بن عبد الله بن العباس طويلا جميلا يتعجب الناس من طوله وكان يقول كنت الى منكب عبد الله بن عباس وكان عبد الله الى منكب جدى العباس وكان العباس بن عبد المطلب اذا طاف بالبيت يرى كأنه فسطاط أبيض قال فتعجب والله من حضر من ايراده هذا الخبر مع صغر سنه ثم تذاكرنا عجائب البلدان وما خص به كل صقع من الارض من أنواع النبات والحيوان والجماد من أحجار أنواع الجواهر وغيرها فقال لى قائل ممن حضر ان أعجب ما فى الدنيا يكون بأرض طبرستان على شاطئ الانهار شبيه بالباشق وأهل طبرستان يسمونه بالككم وهو صياحه الذى يصيح به ولا يصيح فى السنة الا فى هذا الفصل فاذا صاح اجتمعت عليه العصافير وصغار الطيور مما يكون فى المياه وغيرها فتزقه من أول النهار حتى اذا كان فى آخره أخذ واحدا مما قرب من الطير فأكله وكذلك يفعل فى كل يوم الى أن ينقضى هذا الفصل الربيعى فاذا انقضى ذلك انعكست عليه الطيور فلا تزال تجتمع عليه وتضربه وتطرده وهو يهرب منها ولا يسمع له صوت الى الفصل الربيعى وهو طير حسن موشى حسن العينين قال وذكر على بن يزيد الطبيب الطبرى صاحب كتاب فردوس الحكمة أن هذا الطائر ليس يكاد يرى ولم ترقط قدماه على الارض معا بل يطأ على الارض باحدى قدميه على البدل لا يطأ الارض بهما فى حالة واحدة قال وقد ذكر الجاحظ ان هذا الطير من احدى عجائب الدنيا وذلك أنه لا يطأ الارض بقدميه بل باحداهما خوفا على الارض أن تخسف به من تحته قال والعجب الثانى دودة تكون من المثقال الى الثلاثة تضىء بالليل كضوء الشمع وتطير بالنهار ويرى لها أجنحة خضراء ملساء لا جناحين لها غذاؤها التراب لا تشبع منه قط خوفا أن يفنى تراب الارض فتهلك جوعا وفيها خواص كثيرة ومنافع واسعة قال والعجب

الثالث أعجب من الطير والدودة من يكري نفسه للقتل يعني المرتزقة من الجند فاستحسن هذا الخبر من حضر فقال أبو العباس الراضي معارضا لهذا الخبر الذي أخبر بالخبر الاول قد ذكر عمرو بن بحر الجاحظ أن أعجب ما في الدنيا ثلاث البوم لا يظهر بالنهار خوفا أن تصيبها العين لحسنها وجمالها ولما قد تصوّر في نفسها أنها أحسن الحيوان فتظهر بالليل والعجب الثاني الكركي لا يطأ بقدميه الارض بل بأحداهما فاذا وطئ بأحداهما لا يعتمد عليها اعتمادا قويا ومشى بالتأني خوفا من أن تخسف الارض من تحته لثقله والعجب الثالث الطائر الذي يقعد على سوق الماء من الانهار اذا انخزنت الذي يعرف بمالك الحزين (١) على شبه الكركي خوفا من الماء أن يفنى من الارض فيموت عطشا قال العروضي فتفرق من حضره وكل متعجب من الراضي مع صباه وصغر سنه كيف تأتى دمنه هذه المذاكرات مع أن من حضره من أهل الرأي والسن والمعرفة (قال المسعودي) وقد أتينا فيما سلف من كتبنا على عجائب الارض والبحار وما فيها من عجائب البلدان والحيوان والجماد والمائع والرجراج فأغنى ذلك عن ايرادها في هذا الموضع وانما ذكرنا أخبار الراضي وما كان من أمره في صباه وما أخبره عنه مؤدبه ونظمنا من أخباره ما تأتى لنا ذكره في هذا الكتاب (وأخبرنا) العروضي قال سمرت عند الراضي في ليلة شاتية صبيحتها كئيبة فرأيته قلقا متململا فقلت له يا أمير المؤمنين أرى منك خصالا لم أعهدها رضيق صدر لم أعرفه فقال له دع هذا وحدثني بحديث فان أنت أزلت بحديثك ما أجده من الهم فلك ما على وما تحتى على أن أشترط عليك ازالة الهم بالضحك قلت يا أمير المؤمنين رحل رجل من بني هاشم الى ابن عمه بالمدينة فأقام عنده حولا لم يدخل مستراحا فلما كان بعد الحول أراد الرجوع الى الكوفة فخاف عليه أن يقيم عنده أياما أخر فأقام وكان للرجل قينتان فقال لهما أما رأيتما ابن عمي وظرفه أقام عندنا حولا لم يدخل الخلاء فقالتا له فعلينا أن نصنع له شيأ لا بد معه بداء من الخلاء قال شأنكما وذلك فعمدتا الى خشب العشر (٢) فدقتاه وهو مسهل وطرحتاه في شرابه فلما حضر وقت شرابهما قدمتاه اليه وسقيا مولاهما من غيره فلما أخذ الشراب منهما تناوم المولى وغمص الفتى فقال للتي تليه يا سيدتي أين الخلاء فقالت لها صاحبتها ما يقول لك قالت يسألك أن تغنيه

خلا من آل فاطمة الديار * فمنزل أهلها منها قفار

فغنته فقال الفتى أظنهما كوفيتين وما فهمتا ثم التفت الى الاخرى فقال لها يا سيدتي أين الحش فقالت لها صاحبتها ما يقول لك قالت يسألك أن تغنيه

أوحش الدقرات والدير منها * فمغناها بالمنزل المعمور

فغنته فقال الفتى أظنهما عراقيتين وما فهمتا عني ثم التفت الى الاخرى فقال لها أعزك الله أين المتوضأ فقالت لها صاحبتها ما يقول لك قالت يسألك أن تغنيه

توضأ للصلاة وصل خمسا * وأذن بالصلاة على النبي

فغنته فقال أظنهما حجازيتين وما فهمتا عني ثم التفت الى الاخرى فقال لها يا سيدتي أين الكنيف قالت لها صاحبتها ما يقول لك قالت يسألك ان تغنيه

تكنفني الواشون من كل جانب * ولو كان واش واحد لكفانيا

(١) مالك الحزين قال الجوهري انه من طير الماء وقال ابن بري في حواشيه انه البلشون قال وهو طائر طويل العنق والرجلين اه قال الجاحظ من أعاجيب الدنيا أمر مالك الحزين لانه لا يزال يقعد بقرب المياه ومواضع نبعها من الانهار وغيرها فاذا نشفت يحزن على ذهابها ويبقى حزينا كئيبا وربما ترك الشرب حتى يموت عطشا خوفا من زيادة نقصها بشربه منها وهذا الطائر لما كان يقعد عند المياه التي انقطعت عن الجري وصارت مخزونة سمي مالكا ولما كان يحزن على ذهابها سمي بالحزين وهو عطف بيان لمالك كما قال أبو حفص عمر قاله الدميري في حياة الحيوان اه

(٢) العشر ويقال عشار شجرة سبطة دقيقة الورق كثيرة الاغصان لها زهر الى الصفرة يتحول كأنه كيس مملوء قطنا يقال انه من أجود حراق القدح اذا طبخت بالزيت حتى تتهرى أبرأت من الفالج والتشنج والخدر طلاء ولبنها يأكل اللحم الزائد وينفع من القراع يسقط الباسور طلاء وأهل مصر يقولون انها تطرد البق بخورا وفرشا ولم يعمله وهي تقرح وتسحج وتقتل بالاسهال ويصلحها الادهان والالبان والتنقية بالقيء وشربتها نصف درهم وفي لبنها اصلاح للارواح الصاعدة في الصناعة من تذكرة داود اه

فغنته فقال أظنهما عاينتين وما فهمتا عنى ثم التفت الى الاخرى فقال لها يا هذه أين المستراح فقالت لها صاحبتها ما قال لك قالت يسألك أن تغنيه

ترك الفكاهة والمزاحا * وقلا الصبابة واستراحا

فغنته والمولى يسمع ذلك وهو متناوم فلما اشتد به الامر أنشأ يقول

تكنفنى السلاح وأضجرونى * على مابى بتكرير الاغانى

فلما ضاق عن ذاك اصطبارى * ذرقت به على وجه الزوانى

ثم انه حل سراويله وسلح عليهما فتركهما آية للناظرين وانتبه المولى فى أثر ذلك فلما رأى ما نزل بجواريه قال يا أخى ما حملك على هذا الفعل قال يا ابن الفاعلة لك جوار يرون المخرج صراطا مستقيما لا يدلننى عليه فلم أجد جزاء غير هذا ثم رحل عنه قال فذهب بالراضى الضحك كل مذهب وسلم الى كل ما كان عليه وتحته من لباس وفرش فكان مبلغ ثمن ذلك نحوا من ألف دينار (وذكر) الصولى قال قال الراضى ما كان السبب فى لبس المأمون الخضرة ورفعه السواد ثم لبسه السواد بعد ذلك قلت هو ما أخبرنا به محمد بن زكريا العلائى قال حدثنا يعقوب بن جعفر بن سليمان قال لما قدم المأمون بغداد اجتمع الهاشميون الى زينب بنت سليمان بن على وكانت أقعد ولد العباس نسبا وأكرمهم يتنافسوها أن تكلم أمير المؤمنين فى تغييره الخضرة فضمنت لهم ذلك وجاءت الى المأمون فقالت يا أمير المؤمنين انك على بر أهلك من ولد على بن أبى طالب أقدر منك على برهم لنا من غير أن تزيل سنة من مضى من آبائك فدع لباسك الخضرة ولا تطمعن أحدا فيما كان منك قال لها يا عمة ما كلمنى أحد فى هذا المعنى بكلام أوقع من كلامك ولا أقصد لما أردت أكن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى فولى الامر أبو بكر فقد عرفت ما كان من أمره فينا أهل البيت ثم وليها عمر فلم يتعد فيها فعل من تقدمه ثم وليها عثمان فأقبل على بنى أمية وأعرض عن غيرهم ثم آل الامر الى على بن أبى طالب من غير صفو كصفوها الغير بل مشوبة بالاكدار فولى مع ذلك عبد الله بن العباس البصرة وولى عبيد الله بن العباس اليمن وولى قثم البحرين وما أحد منهم الا ولاه فكانت هذه فى أعناقنا حتى كافأته فى ولده بما فعلت ولا يكون بعد هذا الا ما تحبون ثم رجع الى لبس السواد وللمأمون يا أمير المؤمنين شعر يشاكل معنى ما ذكرت من هذا الخبر وهو قوله

ألام على شكر الوصى أبى الحسن * وذلك عندى من عجائب ذا الزمن

خليفة خير الناس والاول الذى * أعان رسول الله فى السر والعلن

ولولاه ما عدت لهاشم امرة * وكانت على الايام تقضى وتمتهن

فولى بنى العباس ما اختص غيرهم * ومن فيه أولى بالتكرم والمنن

فأوضح عبد الله بالبصرة الهدى * وفاض عبيد الله جودا على اليمن

وقسم أعمال الخلافة بينهم * فلا زلت مربوطا بذا الشكر مرتهن

وكان القاهر قد عمد الى كثير من الاموال عند قتله لمؤنس وبليق وابنه على وغيرهم فغيبها لما قبض عليه وسملت عيناه وأفضت الخلافة الى الراضى طولب القاهر بالاموال فأنكر أن يكون عنده شئ من ذلك فأوذى وعذب بأنواع من العذاب وكل ذلك لا يزيده الا انكارا

فأخذه الراضى وقربه وأدناه وطالت مجالسته اياه واكرامه له وأعطاه حق العمومية والسن والتقدم فى الخلافة ولاطفه وأحسن اليه غاية الاحسان وكان للقاهر فى بعض الحصون بستان من ريحان وغرس من النارنج قد حمل اليه من البصرة وعمان مما حمل الى أرض الهند قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من أحمر وأصفر وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزهر وقد جعل مع ذلك فى الصحن أنواع الاطيار من القمارى والدباسى والشحارير والببغاء مما قد جلب اليه من الممالك والامصار وكان فى غاية الحسن وكان القاهر كثير الشرب عليه والجلوس فى تلك المجالس فلما أفضت الخلافة الى الراضى اشتد شغفه بذلك الموضع فكان يداوم الجلوس والشرب فيه ثم ان الراضى رفق بالقاهر وأعلمه بما هو فيه من مطالبة الرجال بالاموال والحاجة اليها ولاشئ قبله منها وسأله أن يسعفه بما عنده منها اذ كانت الدولة له وأن يدبر تدبيره ويرجع فى كل الامور الى قوله وحلف له بالايمان الوكيدة أن لا يسعى فى قتله ولا الاضرار به ولا بأحد من ولده فأنعم له القاهر بذلك وقال ليس لى مال الا فى بستان النارنج فسار به الراضى الى البستان وسأله عن الموضع فقال له القاهر قد حجب بصرى فلست أعرف موضعه ولكن مر بحفره فانك تظهر على الموضع ولا يخفى عليك فكان ذلك فحفر البستان وقلع تلك الاشجار والغروس والازهار حتى لم يبق منه موضع الا حفره وبولغ فى حفره فلم يجد شيأ فقال له الراضى فما ههنا شئ مما ذكرت فما الذى حملك على ما صنعت فقال له القاهر وهل عندى من المال شئ انما كانت حسرتى جلوسك فى هذا الموضع وتمتعك به وكان لذتى من الدنيا فتأسفت على أن يتمتع به بعدى غيرى فتأسف الراضى على ما ترجه عليه من الحيلة فى أمر ذلك البستان وندم على قبوله منه وأبعد القاهر فلم يكن يدنو منه خوفا على نفسه أن يتناول بعض أطرافه وكان الراضى كثير الاستعمال للطيب حسن الهيئة سخيا جوادا حسن المذاكرة بأخبار الناس وأيامهم مقربا لاهل العلم والادب والمعرفة كثير الدنو منهم فائضا بجوده عليهم ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه فى كل يوم الا بصلة أو خلعة أو طيب وكانوا عدة ندماء منهم محمد بن يحيى الصولى وابن حمدون النديم وغيرهما فعوتب على كثرة افضاله على من يحضره من الجلساء فقال أما استحسن فعل أمير المؤمنين أبى العباس لانه كانت فيه فضائل لا نكاد تجتمع فى أحد لا يحضره نديم ولا مغن ولا قينة فينصرف الا بصلة أو كسوة قلت أو كثرت وكان لا يؤخر احسان محسن لغد ويقول العجب من انسان يفرح انسانا فيتعجل السرور ويؤخر ثواب من سره تسويفا وعدة فكان أبو العباس فى كل ليلة أو يوم يقعد لشغله لا ينصرف أحد ممن حضره الا مسرورا ونحن وان لم تتأت لنا الامور كتأتيها لمن سلف فانا نواسى جلساءنا بل اخواننا ببعض ما حضرنا وكان سخيا على سائر الاشياء لا يستكثر لاحد من ندمائه كثرة ما يصل اليه على طول الايام حتى كان بعضهم ربما تأخر عن الحضور لما يترادف عليه من فضله وكان الغالب عليه من الخدم راغب الخادم وزيرك ومن الغلمان ذكى وغيره (وحدث) أبو الحسن العروضى مؤدب الراضى قال اجتزت فى يوم مهرجان بدجلة بدار بجكم التركى فرأيت من الهرج والملاهى واللعب والفرح والسرور ما لم أره له ثم دخلت الى الراضى بالله فوجدته خاليا بنفسه قد اعتراه هم فوقفت بين يديه فقال لى ادن فدنوت فاذا بيده دينار ودرهم فى الدينار نحو من مثاقيل

وفى الدرهم كذلك عليه صورة بجكم شاك فى سلاحه وحوله مكتوب

انما العز فاعلم * للامير المعظم * سيد الناس بجكم

ومن الجانب الآخر الصورة بعينها جالس فى مجلسه كالمفكر المطرق فقال الراضى أماترى صنع هذا الانسان وما تسمو اليه همته وما تحدثه به نفسه فلم أجبه بشئ وأخذت به فى أخبار من مضى من ملوك الفرس وغيرها وما كانت تلقى من اتباعها وصبرهم عليهم وحسن سياستهم لذلك حتى تصلح أمورهم وتستقيم أحوالهم فسلا عما عرض لنفسه ثم قلت يمتع الله أمير المؤمنين أن يكون كالمأمون فى هذا الوقت حيث يقول

صل الندمان يوم المهرجان * بصاف من معتقة الدنان

بكأس خسروانى عتيق * فان العيد عيد خسروانى

وجنبنى الزبيب بن طرّا * فشأن ذوى الزبيب خلاف شان

فأشربها وأزعمها حراما * وأرجو عفو رب ذى امتنان

ويشربها ويزعمها حلالا * وتلك على الشقى خطيئتان

فطرب وأخذته أريحية فقال لى صدقت ترك الفرح فى مثل هذا اليوم عجز وأمر باحضار الجلساء وقعد فى مجلس التاج على دجلة فلم أر يوما كان أحسن منه فى الفرح والسرور وأجاز فى ذلك اليوم من حضر من الندماء والمغنين والملهين بالدنانير والدراهم والخلع وأنواع الطيب وأتته هدايا بجكم وألطافه من أرض العجم فسر فى ذلك اليوم وجميع من حضره (قال المسعودى) وقد أتينا على ما كان فى أيام الراضى من الكوائن والحوادث مجملا ومفصلا فى كتابنا أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الامم الماضية والاجيال الخالية والممالك البائرة وما كان من أمره حال خروجه مع بجكم الى بلاد الموصل وديار ربيعة وما كان بين بجكم وأبى محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان المسمى بعد ذلك بناصر الدولة وقصدنا فيما ذكرنا فى هذا الكتاب الى الاختصار دون الشرح والاكثار اذ كان فى الاكثار من الاخبار ثقل على القلوب وملل للسامع وقليل الاخبار يغنى عن كثير الاقتدار

(ذكر خلافة المتقى لله)

وبويع المتقى لله وهو أبو اسحق ابراهيم بن المقتدر لعشر خلون من ربيع الاول سنة تسع وعشرين وثلثمائة وخلع وسملت عيناه يوم السبت لثلاث خلون من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة وكان خلافته ثلاث سنين واحدى عشر شهرا وثلاثة وعشرين يوما وأمه أم ولد

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان فى أيامه)

ولما أفضت الخلافة الى المتقى لله أقر على الوزارة سليمان بن الحسن بن مخلد ثم استوزر أبا الحسين أحمد بن محمد بن ميمون وكان كاتبه قبل الخلافة ثم استوزر أبا اسحق محمد بن أحمد القراريطى ثم استوزر أبا العباس أحمد بن عبد الله الاصبهانى ثم استوزر أبا الحسن على بن مقلة وغلب على الامر أبو الوفاء توزون التركى واشتد أمر البريديين بالبصرة ومنعوا السفن أن تصعد وعظم جيشهم وكثرت رجالهم وصار لهم جيشان جيش فى الماء فى السميريات والطيارات والزبازب

والديارب وهذه أنواع من المراكب يقاتل فيها صغار وكبار وجيش فى البر عظيم واصطنعوا الرجال وبذلوا الرغائب فانضاف اليهم جريه السلطان وغلمانه وصار جيش السلطان الاتراك والديلم والجيل ونفرا من القراسطة وكل ذلك مع توزون وكان توزون من رنقاءَ بكم والخواص من أصحابه فنحدر توزون الى واسط لحرب البريديين وكانوا املكوا واسط وتغلبوا عليها فكانت بينهم حروب الاوالمتقي لله لا أمر له ولا نهى فكاتب المتقي أبا محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان ناصر الدولة وأخاه أبا الحسن على بن عبد الله سيف الدولة أن يجدوه ويستنقذوه مما هو فيه ويفوض اليهما الملك والتدبير وقد كان قبل ذلك خرج اليهم وتوزون فى جملتهم منضاف وغيره من الاتراك والديلم وذلك عند قتلهم محمد بن رائق فى سنة ثلاثين وثلثمائة وانحدارهم الى مدينة السلام واستيلائهم على الملك ولقيامه وحربهم البريديين وما كان بينهم من الوقائع الى أن توجه عليهم ماذكرنا فى كتابنا أخبار الزمان من خروج أبى محمد الحسن بن عبد الله من الحضرة الى الموصل ولحوق أخيه أبى الحسن على بن عبد الله وخلاصه مما دبره عليه توزون وجحجع التركى فخرج المتقي الى الموصل فلما بلغ توزون ذلك رجع الى بغداد وقصد بنى حمدان فكان التقاؤهم بعكبرا فكانت بينهم سجالا ثم كانت لتوزون عليهم فرجع الى بغداد ثم أجمعوا الدأيضا ورجعوا اليه فتركهم حتى قربوا الى بغداد فخرج عليهم فلقيهم فهزمهم بعد مواقعات كانت بينهم وسار هو حتى دخل الموصل وخرج عنها الى مدينة بلد فصالحوه على مال حملوه اليه فرجع الى بغداد وهو مستظهر بمن معه من الاتراك والجيل والديلم وكمال العدة والكراع وسار المتقي الى نصيبين ورجع عنها الى الرقة فنزلها وذلك لايام بقين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وكاتب الاخشيد محمد بن طغج فسار الى الرقة وحمل اليه مالا كثيرا وأهدى اليه غلمانا وأثاثا وضم اليه قائدا من قواده وجمل أمره وزاد فى حمله وبر جميع من معه من وزيره أبى الحسن على بن مقلة وقاضى القضاة أحمد بن عبد الله بن اسحق الخرقي وسلام الحاجب المعروف بأخى نجح الطولونى وجماعة الوجوه والغلمان ثم لم يعبر الاخشيد محمد بن طغج الى الرقة ولا الى شئ من جانب الجزيرة وديار مصر وعبر المتقي وسار الى معسكره من الجانب الشامى فكانت بينهم خطوب وايمان وعهود وأبو الحسن على بن عبد الله بن حمدان مقيم بحران طول مقام المتقي بالرقة وقد كان أبو عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان سار عن حلب وبلاد حمص عند مسير الاخشيد الى بلاد قنسرين والعواصم فانفض جمعه وتفرق جنده عنه وانضافوا الى الحسن بن على بن عبد الله واتصلت كتب توزون بالمتقي وتواترت رسله يسأله الرجوع الى الحضرة وأشهد توزون من حضره من القضاة والفقهاء والشهود وأعطى العهود والمواثيق بالسمع والطاعة للمتقي والتصرف له بين أمره ونهيه وترك الخلاف عليه وأنفذ اليه كتب القضاة والشهود مما بذل من الايمان وأعطى من العهود وأشار بنو حمدان على المتقي أن لا ينحدر وخوفوه من توزون وحذروه أمره فانه لا يأمنه على نفسه فأبى الامخالفتهم والثقة بما ورد عليه من توزون وقد كان بنو حمدان انفقوا على المتقي نفقة واسعة عظيمة طول مقامه عندهم واجتيازه بهم يكثر وصفها ويعسر علينا فى التحصيل ايرادها باكثار المخبرين لنا بتحديدها وانصرف الاخشيد عن الفرات متوجها نحو مصر وانحدر المتقي فى الفرات فتلقاه أبو جعفر بن سيرار كاتب توزون بأحسن لقاء

وأقام الاتراك يومين فى انحداره حتى دخل النهر المعروف بنهر عيسى وسار الى الضيعة المعروفة بالسندرية على شاطئ هذا النهر فتلقاه توزون هنالك وترجل له ومشى بين يديه فأقسم عليه أن يركب ففعل حتى وافى به الى المضرب الذى كان ضرب له على الشط من نهر عيسى وذلك على شوط من مدينة السلام فأقام هنالك وأنفذ رسلا الى دار طاهر ليحضر المستكفى فلما حصل المستكفى فى المضرب قبض على المتقى ونهب جميع ما كان معه وقبض على وزيره أبى الحسن على بن محمد بن مقلة وعلى قاضيه أحمد بن عبد الله بن اسحق ونهب جميع العسكر وانصرف القائد الذى كان الاخشيد ضمه الى المتقى ومن معه الى صاحبهم وأحضر المستكفى فبويع له وبكى المتقى وصاح النساء والخدم لصياحه فأمر توزون بضرب الدبادب حول المضرب لتخفى صراخ الخدم وأدخل الى الحضرة مسمول العينين وأخذ منه البردة والقضيب والخاتم وسلم الى المستكفى بالله وبلغ ذلك القاهر فقال قد صرنا بحقيق نحتاج الى صدر يعرض بالمستكفى بالله (وحدث) محمد بن عبد الله الدمشقى قال لما نزل المتقى الرقة كنت فيمن يتصرف بين يديه وأقرب منه فى الخدمة لطول صحبته فقال لى فى بعض الايام فى الرقة وهو جالس فى داره على الفرات اطلب لى رجلا اخباريا يحفظ أيام الناس أتفرج اليه فى خلواتى واستريح به فى الاوقات قال فسألت بالرقة عن رجل بهذا الوصف فأرشدت الى رجل بالرقة كهل لازم لمنزله فصرت اليه ورغبته فى الدخول الى المتقى لله فقام معى كالمكره وصرنا الى المتقى فأعلمته احضارى للرجل الذى طلبه فلما خلا وجهه دعا به واستدناه فوجد عنده ما أراد فكان معه أيام مقامه بالرقة فلما انحدر كان معه فى الزورق فلما صار الى نهر سعيد وذلك بين الرقة والرحبة أرق المتقى ذات ليلة فقال للرجل ما تحفظ من أشعار المبيضة وأخبارها فمر الرجل فى أخبار آل أبى طالب الى أن صار الى أخبار الحسن بن زيد وأخيه محمد بن زيد بن الحسن وما كان من أمرهما ببلاد طبرستان وذكر كثيرا من محاسنهما وقصد أهل العلم والادب اياهما وما قالت الشعراء فيهما فقال له المتقى أتحفظ شعر أبى المقاتل نصر بن نصر الحلوانى فى محمد بن زيد الحسنى الداعى قال لا يا أمير المؤمنين لكن معى غلام لى قد حفظ بحداثة سنه وحدة مزاجه وغلبة الهمة لطلب العلم والادب عليه ما لم أحفظ من أخبار الناس وأيامهم وأشعارهم قال أحضره ولم أخفيت عنى خبر مثل هذا فيكون حضوره زيادة فى أنسنا فأحضر الغلام من زورق آخر فوقف بين يديه فقال له صاحبه أتحفظ قصيدة أبى المقاتل فى ابن زيد قال نعم قال المتقى أنشدنيها فابتدأ ينشده اياها

لا تقل بشرى وقل لى بشريان * غرة الداعى ويوم المهرجان
خلقت كفاه موتا وحياة * وحوت أخلاقه كنه الجنان
فهو فصل فى زمان بدوى * وابن زيد مالك رق الزمان
فهو للكل بكل مستقل * بالعطايا والمنايا والامان
أوحد قام بتشييد المبانى * فبه استنبط أجناس المعان
مسرف فى الجود من غير اعتذار * وعظيم البر من غير امتنان
وهو من أرسى رسول الله فيه * وعلماه المعلى والحسان

شيد عزق فيه السيدان * والذى يكبر عن ذكر الحسان
محتف فكرته فى كل شئ * فهو فى كل محل ومكان
يعرف الدهر على ماغاب عنه * فيرى المضمر فى شخص العيان
تتناءى الفاظ اعنه ولكن * هو بالاوصاف فى الاذهان دان
أخرجت ألفاظه مافى الخفايا * وكفاه الدهر نطق الترجمان
كافر بالله جهرا والمثانى * كل من قال له فى الخلق ثان
واذا ماأسبغ الدرع عليه * وانكفت يمناه بالسيف اليمان
بعثت سطوته فى الموت رعبا * أيقن الموت بأن الموت فان
يحدق الابطال بالالحاظ حتى * يترك الاقدام فى شخص الجبان
ملك الموت يناديه أجرنى * منك كم تغزو بضرب وطعان
لاتكلفنى فوق الوسع وارفق * فلقد ملكك الله عنان
ياشقيق القدر المحتوم كم قد * رضت بالضيم عمادا وحزان
لك يومان فيوم من لبان * يقتنى فى يوم أرون أوريان
انجزت كفالك وعدا ووعيدا * وأحاطت لك بالدنيا اليدان
فاذا ماأروت اليمنى حباء * همت اليسرى بارواء السنان
جدتا فى النفع والضر بدارا * فهما فى كل حال ضرتان
أرخت كفالك فى الآفاق حتى * ماتلاقى بسوالك الشفتان
قدمتك المدح الغر وصالت * لك أيضا فى أعاديك الهجان
أنت لاتحوى بمعقول كتاب * لك شأن خارج عن كل شان
لك أثقال اياد مثقلات * عجزت عن حملهن الثقلان
انما مدحك وحى وزبور * والذى ضمت عليه الدفتان
هاكها جوهرة تبرية تو * لى وجود الموت تكفين الحنان
ياامام الدين خذها من امام * ملكت أشعاره سبق الرهان
واستمع للرمل الاول ممن * كشف المحنة من غير امتحان
فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن * ستة أجزاؤها عز الوزان
كرة الآفاق لاتطلع الا * صارت الريح لها كالصولجان
حليت فى صنعة الالفاظ لما * يرتجيه كل ذى عفو وبان
أنت تحكى جنة الخلد طباعا * والقوافى فيك كالحور الحسان
وابق للشعر بقاء الشعر والشكر * وصع الدهر فنعم الباقيان
عمر رضوى بل ثبير وشمام * وارام وشما ريخ أبان
شهد الله على مافى ضميرى * فاستمع لفظى ترجيع أذان
حسنات ليس فيها سيئات * مدحة الداعى اكتبا يا كاتبان

فلم يزل المتقى كلما مر به بيت استعاده ثم أمر الغلام بالجلوس فلما كان فى اليوم الذى لقيه

فيه ابن سيرار الكاتب سمعه ينشد هذا البيت * لا تقل بشرى وقل لى بشريان * فقال له الغلام وقد كان انس به يا أمير المؤمنين * دامت البشرى فقل لى بشريان * وقد كان أنشده أولا القصيدة لا تقل بشرى وأنشده هذا الوجه دامت البشرى فقل لى وذكر له خبر أبى المقاتل مع الداعى فوالله مازال المتقى يقول لا تقل بشرى ولا يختار فى ذلك الوجه غيره ذلك فقال له الرقى والغلام والله لتطيرنا لامير المؤمنين من اختياره انشاد هذا البيت على هذا الوجه فكان من أمره ما ذكرنا (وحدث) محمد بن عبد الله الدمشقى قال لما انحدرنا مع المتقى من الرحبة وصرنا الى مدينة غانة دعا بالرقى وغلامه فحادثاه وتسلسل بهم القول الى فنون من الاخبار الى أن صاروا الى ذكر الخيل فقال المتقى أيكم يحفظ خبر سليمان بن ربيعة الباهلى فقال الغلام ذكر عمرو بن العلاء يا أمير المؤمنين أن سليمان بن ربيعة الباهلى كان يهجن الخيل ويعدبها فى زمن عمر بن الخطاب فجاءه عمرو بن معد يكرب بفرس كميت هجينا فاستعدى عليه عمر وشكاه اليه فقال سليمان ادع باناء رجراج قصير الجدر فدعا به فصب فيه ماء ثم أتى بفرس عتيق لا شك فى عتقه فأسرع ونزل وشرب ثم أتى بفرس عمرو الذى كان هجن فأسرع سنبكه ومد عنقه كما فعل العتيق ثم ثنى أحد السنبكين قليلا فشرب فلما رأى ذلك عمر بن الخطاب وكان ذلك بحضره قال أنت سليمان الخيل فقال المتقى فما عندكم عن الاصمعى وغيره من علماء العرب فى صفاتها قال الرقى ذكر الرياشى عن الاصمعى قال اذا كان الفرس طويل أوظفة اليدين قصير أوظفة الرجلين طويل الذراعين قصير الساقين طويل الفخذين طويل العضدين منفرج الكتفين لم يكد يسبق وقال اذا سلم من الفرس شيآن لم يضره عيب سواهما مغروز عنقه فى كاهله ومغروز عجزه فى صلبه واذا جادت حوافره فهو وأنشدنا المبرد

ولقد شهدت الخيل تحمل سكتى * عنه كسرحان القضيمة منهب
فرس اذا استقبلته فكأنه * فى العين جرع من أوائل مشرب
واذا اعترضت له استوت اقطاره * فكأنه مستدبر المتصوب

وسأل يا أمير المؤمنين معاوية مطر بن دراج أى الخيل أفضل وأوجز فقال الذى اذا استقبلته قلت نافر واذا استدبرته قلت زاخر واذا استعرضته قلت زافر سوطه عنانه وهواه أمامه قال فأى البراذين شر قال الغليظ الرقبة الكثير الجلبة الذى اذا أرسلته قال أمسكنى واذا أمسكته قال أرسلنى قال الغلام أحسن ما قيل فى الفرس ووصفه قول بعضهم

خير ما ركب الشجاع اذا ما * قيل يوما ألا اركبوا للغوار
كل نهد أقب معتدل الملـ * ـق متين الشظى عتيق النجار
سلجم اللحى واسع السحر حد الاذن وافى الدماغ والوجه عار
ما جمته الحرار واشتد علبا * ه فأكدى محدودبا بالعوار
محضر القصر مكرب الرسغ دامى الابط ساعى الجفون والاشفار
مسرف مفتل نجيب اذا ما أد * بر مستدبر ككر صغار
فهو فى خلقه طوال ورحب * وعراض الى سداد قصار
طال زاهيه والذراعان والاضـ * ـلاع منه فنم فى اخفار

ثم طالت وأبدت نخذاه * فهو كفت الوثوب بيت الخيار
والرحيب الفروج والجلد والمشعر قدام منحر كالوجار
والعريض الوظيف والجنب والاو * رالد والجبهة العريض الفقار
والحديد الفؤاد والسمع والعر * قوب والطرف حدة في وقار
فهو صافي الاديم والعين والحا * فر غمر بديهة الاحضار
والقصير الكراع والظهر والرسغ العصيب العسيب والصلب وار
ثم تحسن مشله القطاة ولم يسـ * ـله تركيبها الى استنجار
مطمئن النسور بين حزام * كل لام أحم كالمنقار
يكفت المشي كالذي يتخطى * طنبا أو يستل كالمسمار
واذا ما استمر من غير ما بأ * س به ما نعم من استمرار
لان فاهتز مقبلا فاذا ما * أدبر أهوى متابع الادبار
في تعاقيب كالتماثيل أو كالشـ * ـعن أو كالظباء أو كالجوار
فاذا ما طما به الجري فالعقـ * ـبان تهوى كواسر الاعصار

فلما كان في الليلة الثانية دعا بهما فقال عودا الى ما كنتما عليه البارحة واشرعا في أخبار الحلائب ومراتب الخيل فيها قال الغلام يا أمير المؤمنين أذكر قولا جامعا أخبرني به كلاب بن حمزة العقيلي قال كانت العرب ترسل خيلها عشرة عشرة أو أسفل والقصب تسعة ولا يدخل الحجر المحجر من الخيل الاثمانية وهذه أسماؤها الاول السابق وهو المجلي قال أبو الهندام كلاب انما سمي المجلي لانه جلى عن صاحبه ما كان فيه من الكرب والشدة وقال الفراء انما سمي المجلي لانه يجلي عن وجه صاحبه والثاني المصلي لانه وضع جحفلته على قطاة المجلي وهي صلاة والصلا عجب الذنب بعينه والثالث المسلي لانه كان شريكا في السبق وكانت العرب تعد من كل ما يحتاج ثلاثة أولانه سلى عن صاحبه بعض همه بالسبق والرابع التالي سمي بذلك لانه تلا هذا المسلي في حال دون غيره والخامس المرتاح وهو المفتعل من الراحة لان في الراحة خمس أصابع لا بعد منها غيرهن واذا أومأت العرب من العدد الى خمس فتح الذي يومئ بهايده وفرق أصابعه الخمس وذلك أيضا ما يومؤن به من غير عقد الحساب ثم يكون بعدها الى أن تكون عشرة فيفتح الذي يومئ بها يديه جميعا ويقابل الخمس أصابع بالخمس فلما كان الخامس مثل خامسة الاصابع وهي الخنصر سمي مرتاحا وسمي السادس حظيا لان له حظا وقيل لان رسول الله صلى الله عليه وسلم اعطى السادس قصة وهي آخر حظوظ خيل الحلبة فله حظ وسمي السابع العاطف لدخوله الحجرة لانه قد عطف بشئ وان قل وحسن اذ كان قد دخل المحجور وسمي الثامن المؤمل على القلب والتفاؤل كما سموا الفلاة مفازة واللديغ سليما وكنوا الحبشي أبا البيضاء ونحو ذلك فكذلك سموا الخائب المؤمل أي أنه يؤمل وان كان خائبا لانه قرب من بعض ذوات الحظوظ بعد والتاسع اللطيم لانه لو رام الحجرة لاطم دونها لانه أعظم جرما من السابع والثامن والعاشر السكيت لان صاحبه يعلوه خشوع وذلة ويسكت حزنا وعيا فكانوا يجعلون في عنق السكيت حبلا ويحملون عليه قردا ويدفعون للقرد سوطا فيركضه القرد ليعير

بذلك صاحبه وأنشد فى ذلك الوليد بن حصن الكلبى

اذا أنت لم تسبق وكنت مخلفا * سبقت اذا لم تدع بالقرد والحبل

وان تك حقا بالسكيت مخلفا * فورث مولاك المذلة بالنبل

أما ذكره النبل فان بعضهم كان يفعل ذلك ينصب فرسه ثم يرميه بالنبل حتى يتجعف وقد فعل ذلك النعمان بفرسه النهب قال كلاب بن حمزة ولم نعلم أحدا من العرب فى الجاهلية والاسلام وصف خيل الحلبة العشرة بأسمائها وصفاتها وذكرها على مراتبها غير محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان وكان بالجزيرة بالقرية المعروفة بحصن مسلمة من اقليم بلخ من كورة الرقة من ديار مضر فانه قال فى ذلك

شهدنا الرهان غداة الرهان * بجميعة ضمها الموسم

نقود اليها مقاد الجميع * ونحن بصنعتها أقوم

غدونا بمقودة كالقداح * غدت بالسعود لها الانجم

مقابلة نسبة فى الصريح * نماهن للاكرم الاكرم

كميت اذا ما تباطى بيل * يفوت الخطوط اذا يلجم

فتهن أحوى بمر أغر * وأجود ذو غرة أرثم

تلألأ فى وجهه فرجة * كأن تلألؤها المرزم

فقيدت لمذخور ما عندها * لمنتظرى أنها تنجم

عليهن سحم صغار الشخوص * نماهم لجام انى تنحم

كأنهم فوق اشباحها * زرازير فى نقق حوم

فصفت على الخيل فى محضر * يلى أمره ثقة مسلم

تراضوا به حكما بينهم * فبالحق بينهم يحكم

وربك بالسيف عن ساعة * من الناس كلهم أعلم

فقلت ونحن على جدة * من الارض نيرها مظلم

لقد فرغ الله مما يكون * ومهما يكن فهو لا يكتم

فأقبل فى أمرنا نافر * كما يقبل الوابل المثجم

واتبع فوضى ومرفضة * كما ارفض من سلكه المنظم

أو السرب سرب القطا راعه * من الجو شوذانق مغلم

فواصل من كل سقط له * كأن عنانيها العندم

وللمرء من فرح ما تستثير * سنابكهن سنا يحزم

فجلى الاغر وصلى الكميت * وسلى فلم يذمم الادهم

وأرد فها رابع تاليا * وأين من المنجد المتهم

ومادم مرتاحها خامسا * وقد جاء يقدم ما يقدم

وجاء الحظى لها سادسا * فأسهمه حظه المسهم

وسابعها العاطف المستجير * يكاد لحيرته يحرم

وجاء المؤمل فيها يخب * وغنى له الطائر الاشيم
وجاء اللطيم لها تاسعا * فمن كل ناحية يلطم
يخب السكيت على اثره * وذفراه من قبة أعظم
كأن جوانبه بين ذى * جمانة نيط بها قمقم
اذا قيل من رب ذا لم يجز * من الخزى بالصمت يستعصم
ومن لا يعد للحلاب الجواد * وشيك لعمرك ما يندم
وماذ واقتضاب لمحمولها * كمن يتقيها ويستلزم
فرحنا بسبق شهر نابه * ونيل به الفخر والمغنم
وأحرزن عن قصبات الرهان * رغائب أمثالها تقسم
برود من القصب موشية * وأكيسة الخز والمحم
فراحت عليهن منشورة * كأن حوا شيهن الدم
ومن ورق صامت بدرة * ينوء بها الاغلب الاعصم
ففضت لهن خواتيمها * وبدرتنا الدهر لا تختم
نوزعها بين خدامها * ونحن لها منهم أخدم
وانا لنرتبط المعربا * ت فى اللدنات فما ترزم
يعد لها المحض بعد الثليث * كما يصلح الصبية المعظم
ويخلطها بصميم العيال * بمن لم يخب وهو المحرم
مشاربها الصافيات العذاب * ومطعمها فهو المطعم
فهن باكناف أبياتنا * صوافن يصهلن أو حوم

ومال محمد بن يزيد فى كلمته هذه الى انه لاحظ للثامن وجعل للسابع حظا فى السبق والهندسة اجراء الخيل وتجربتها فيما دون الغاية وانما سميت الحلبة حلبة لان العرب تحلب اليها خيولها من كل مكان (قال المتقى) أثبتنا ما يجرى فى هذه الاوقات ودونا فلم نر الامعه فى ذلك يجدد لهما البر الى أن كان من أمره ما قد اشتهر وقد تناهى بنا الكلام الى هذا الموضع من خلافة المتقى فلنذكر الآن بعض من اشتهر شعره فى هذا الوقت واستفاض فى الناس وظهر فنهم أبو نصر القاسم بن أحمد الحروى وهو أحد المطبوعين المجودين فى البديهة المعروفين بالغزل فمن جيد شعره قوله

أضنى الهوى جسدى وبدلنى به * جسدا تكون من هوى متجسد
ما زال ايجاد الهوى عدمى الى * أن صرت لو أعدمته لم أوجد

ومن جيد شعره ما عاتب به ابن لنكك الشاعر وهو

لم لا ترى لصداقتى تصديقا * فينا ولم تدع الصديق صديقا
ذو العقل لا يرضى بوسم صداقة * حتى يرى لحقوقها تحقيقا
فلمن يرجى الحب أن يدعى أخا * وعلى الرفيق بأن يكون رفيقا
ان غاب غاب محافظا أو حل كا * ن مداعبا أو قال كان صدوقا

وفى هذا الشعر يقول

ويكاد من علق الهوى بفؤاده * مما تفكر أن يرى زنديقا

وقوله

أعليك أعتب أم على الايام * بدأت وكنت مؤكدا بتمام

قطع التواصل قربنا بتواعد * وقطعت أنت تواصل الاقلام

هلا أنفت اذا الزمان مشتت * والالف للارواح لا الاجسام

وفى هذا الشعر يقول

عذرا أباعيسى عسى لك فى القلا * عذرا وذا علم بلا اعلام

من غابت الاخبار عنه ودينه * دين الامامة قال بالاوهام

خذ من فرائدك الذى أعطيتنى * فالدر درك والنظام نظامى

حكم معانيها معانيك التى * فصلتها الى والكلام كلامى

وشعره فى الهزل وغيره أكثر من أن نأتى عليه وأكثر الغناء المحدث فى وقتنا هذا من شعره وقد أشيع بموته وأن اليزيدى غرقه لانه كان هجاه وقيل بل هرب من البصرة ولحق بهجر ولجأ بأبى طاهر بن سليمان بن الحسن صاحب البحرين (قال المسعودى) وقد أتينا على أخبار المتقى وما كان فى ايامه من الكوائن والاحداث على الشرح والايضاح فى الكتاب الاوسط الذى كتابنا هذا تال له وانما نذكر من أخبارهم فى هذا الكتاب لمعا لاشتراطنا فيه على أنفسنا الاختصار والايجاز وكذلك أتينا على خبر مقتل بحكم التركى وكان مقتله فى رجب سنة تسع وعشرين وثلثمائة وما كان من أمره مع الاكراد بناحية واسط وما كان من كونكار الديلى واستيلائه على جيش بحكم وانحدار محمد بن رائق من الشأم ومحاربته كونكار بعكبر ومقاتلته اياه ودخوله الحضرة وما كان بينهم من الوقعة بالحضرة الى أن انهزم كونكار واستولى محمد بن رائق على الامر وما كان من اليزيديين وموافاتهم الحضرة وخروج المتقى عنها مع محمد بن رائق الموصلى فى كتابنا المترجم باخبار الزمان فأغنى ذلك عن اعادته فى هذا الكتاب والله الموفق للصواب

(ذكر خلافة المستكفى بالله)

وبويع المستكفى بالله وهو أبو القاسم عبد الله بن على المكتفى يوم السبت لثلاث خلون من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة وخلع فى شعبان سنة أربع وثلاثين وثلثمائة لسبع بقين من هذا الشهر فكانت خلافته سنة وأربعة أشهر الا أياما وأمه أم ولد

(ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان فى أيامه)

قد قدمنا عند ماذكرنا خلع المتقى لله أن المستكفى بويع له بالسبق على نهر عيسى من أعمال قادور بازاء القرية المعروفة بالسندية فى الوقت الذى سملت فيه عينا المتقى بايع له أبو الوفاء تورون وسائر من حضره من القواد وأهل الدولة وأهل عصره من القضاة منهم القاضى أبو الحسن محمد بن الحسين بن أبى الشوارب وجماعة من الهاشميين فصلى بهم فى يومهم ذلك المغرب والعشاء وسار حتى نزل فى يوم الاحد بالشماسية فلما كان فى يوم الاثنين انحدر فى الماء راكبا فى الطيار

الذي يسمى المغزالة وعليه قلنسوة طويلة محدودة ذكر أنها كانت لابيه المكتفي بالله وعلى رأسه توزون التركي ومحمد بن محمد بن يحيى شيرزاد وجماعة من غلمانه وسلم اليه المتقي ضريرا وأحمد ابن يحيى القاضي مقبوضا عليه وحضر بعد ذلك سائر القضاة والهاشميين فبايعوا له واستوزر أبا الفرج محمد بن علي السامري مدة ثم غضب عليه وغلب على أمره محمد بن شيرزاد وجلس للناس وسأل عن القضاة وكشف عن أمر شهود الحضرة فأمر باسقاط بعضهم وأمر باستتابة بعضهم من الكذب وقبول بعضهم لاشياء كان قد علمها منهم قبل الخلافة فامتثل القضاة ما أمر به من ذلك واستقضى على الجانب الشرقي محمد بن عيسى المعروف بابن أبي موسى الحنفي وعلى الجانب الغربي محمد بن الحسن بن أبي الشوارب الاموي الحنفي فقالت العامة الى ههنا انتهى سلطانه وانتهى في الخلافة أمره ونهيه وقد كان بينه وبين الفضل بن المقتدر الذي يسمى بالمطيع قبل ذلك محاورة في دار ابن طاهر وعداوة في اللعب بالحمام وتطييرها واللعب بالكباش والديوك والسمان وهو الذي يسمى بالشأم الفتح فلما حمل المستكفي الى نهر عيسى ليبايع له هرب المطيع من داره وعلم أنه سيأتي عليه فلما استقرت للمستكفي طلب المطيع فلم يقف له على خبر فهدم داره وأتى على جميع ما قدر عليه من بستان وغيره (وذكر) أبو الحسن علي بن أحمد الكاتب البغدادي قال لما استخلف المستكفي ضم اليه توزون غلاما تركيا من غلمانه يقف بين يديه وكان للمستكفي غلام قد وقف على أخلاقه ونشأ في خدمته فكان المستكفي يميل الى غلامه وكان توزون يريد من المستكفي أن يقدم المضموم اليه على غلامه الاول فكان المستكفي يبعث بالغلام التركي في حوائجه ابتغاء لمرضاة توزون فلا يبلغ له ما يبلغ غلامه (قال) وأقبل المستكفي يوما على محمد بن محمد بن يحيى بن شيرزاد الكاتب فقال له أتعرف خبر الحجاج بن يوسف مع أهل الشأم قال لا يا أمير المؤمنين قال ذكروا أن الحجاج بن يوسف كان قد اجتبى قوما من أهل العراق ووجد عندهم من الكفاية مالم يجد عند مختصيه من الشاميين فشق ذلك على الشاميين وتكاموا فيه فبلغ اليه كلامهم فركب في جماعة من الفريقين وأوغل بهم في الصحراء فلاح لهم من بعد قطار ابل فدعا برجل من أهل الشأم فقال له امض فاعرف ماهذه الاشباح واستقص أمرها فلم يلبث أن جاء وأخبره أنها ابل فقال أمحملة هي أم غير محملة قال لا أدري ولكني أعود وأتعرف ذلك وقد كان الحجاج أتبعه برجل آخر من أهل العراق وأمره بمثل ما كان أمر الشامي فلما رجع العراقي أقبل عليه الحجاج وأهل الشأم يسمعون فقال ماهي قال ابل قال وكم عددها قال ثلاثون قال وما تحمل قال زيتا قال ومن أين صدرت قال من موضع كذا قال ومن ربها قال فلان فالتفت الى أهل الشأم فقال

ألام على عمرو ولومات أو نأى * لقل الذي يغني غناءك يا عمرو

فقال ابن شيرزاد فقد قال يا أمير المؤمنين بعض أهل الادب في هذا المعنى

شر الرسولين من يحتاج مرسله * منه الى العود والامران سيان

كذاك ما قال أهل العلم في مثل * طريق كل أخي جهل طريقان

قال المستكفي ما أحسن ما وصف البحتري الرسول بالذكاء بقوله،

وكأن الذكاء يبعث منه * في سواد الامور شعلة نار

وعلم ابن شيرزاد استثقال المستكفي لغلام توزون فأخبر توزون بذلك فأعفاه منه وأزاله عن خدمته (وحدث) أبو اسحق ابراهيم بن اسحق المعروف بابن الوكيل البغدادي قال كان أبي قديما في خدمة المكتفي فلما كان من أمره ما اشتهر صرت في خدمة أخيه عبد الله بن المكتفي فلما أفضت الخلافة اليه كنت أخص الناس به فرأيته في بعض الايام وعنده جماعة من ندمائه ممن كان يعاشرهم قبل الخلافة من جيرانه بناحية دار ابن طاهر وقد تذاكروا الخمر وأفعالها وما قال الناس فيها من المنثور والمنظوم وما وصفت به فقال بعض من حضر يا أمير المؤمنين ما رأيت أحدا وصف الخمرة بأحسن من وصف بعض من تأخر فانه ذكر في بعض كتبه في الشراب ووصفه انه ليس في العالم شئ واحد أخذ من أمهاته الاربع فضيلتها وابتزها أكرم خواصها الا الخمرة فلها لون النار وهو أحسن الالوان ولدونة الهواء وهي ألين المجسات وعذوبة الماء وهي أطيب المذاقات وبرد الارض وهي ألذ المشروبات قال وهذه الاربع وان كن في جميع المآكل والمشارب متركبة فليس الغالب عليه ما وصفنا من الغالب على الخمر قال واصفها قد قلت في اجتماع الصفات التي ذكرنا فيها

لست أرى كالراح في جمعها * لاربع هن قوام الورى
عذوبة الماء ولين الهوا * وسخنة النار وبرد الثرى

ولما كانت الراح بالموضع الذي وصفنا به من الفضل على سائر ما ينال ويوصف من صنوف اللذات والمدح بها بما ينفع من فنون الشهوات قال فأما شعاع الخمر فانه يشبه بكل شئ نوري من شمس وقمر ونجم ونار وغير ذلك من الاشياء النورية فأما لونها فيحتمل أن يشبه بكل أحمر في العالم وأصفر من ياقوت وعقيق وذهب وغير ذلك من الجواهر النفيسة والحلي الفاخرة قال وقد شبهها الاولون بدم الذبيح ودم الجوف وشبهها غيرهم بالزيت والرازقي وغيرهما وتشبيهها بالجوهر الاكرم أفضل لها وأحسن في مدحها قال فأما صفاؤها فيحتمل أن يشبه بكل ما يقع عليه اسم الصفاء وقد قال بعض الشعراء المتقدمين في صفائها

* تريك القذى من دونها وهي دونه * وهذا أحسن ما قاله الشعراء في وصف الخمر قال وقد أتى أبو نواس في وصفها ووصف طعمها وريحها وحسنها ولونها وشعاعها وفعلها في النفس وصفة آلاتها وظروفها وأدنانها وحال المنادمات عليها والاصطباح والاغتباق وغير ذلك من أحوالها بما يكاد يعلو به باب وصفها لولا اتضاع الاوصاف لها واحتمالها اياها وأنها لا تكاد تحصر ولا يبلغ الى غاياتها قال وقد وصف أبو نواس نورها فقال

فكأنه في كفه * شمس وراحته قمر

(وقال)

فعلت في البيت اذ مزجت * مثل فعل الصبح في الظلم
فاهتدى ساري الظلام بها * كاهتداء السفر بالعلم

(وقال أيضا)

اذا عب فيها شارب القوم خلته * يقبل في داج من الليل كوكبا
ترى حيثما كانت من البيت مشرقا * وما لم تكن فيه من البيت مغربا

(وقال أيضا)

وكأن شاربها الفرط شعاعها * في الكأس يكرع في ضيا مقباس

(وقال أيضا)

فقلت له ترفق بي فاني * رأيت الصبح من خلل الديار
فقال تعجبا مني أصبح * ولا صبح سوى ضوء العقار
وقام الى الدنان فسد فاها * فعاد الليل مصبوغ الازار

(وقال أيضا)

وحمراء قبل المزج صفراء دونه * كأن شعاع الشمس يلقاك دونها

(وقال) كأن نارا بها محرشة * تهابها تارة وتخشاها

(وقال أيضا)

حمراء لولا انكسار الماء لاختطفت * نور النواظر من بين الحماليق

(وقال أيضا)

ينقض منها شعاع كلما مزجت * كالشهب تنقض في اثر العفاريت

(وقال) عتقت في الدنان حتى استفادت * نور شمس الضحى وبرد الظلام

(وقال) يجودها حتى عيانا ترى لها * الى الشرف الاعلى شعاعا مطنبا

(وقال) قال ابغني المصباح قلت له اتئد * حسبي وحسبك ضوءها مصباحا

فسكبت منها في الزجاجة شربة * كانت لنا حتى الصباح صباحا

قال وله في هذا الفن أشياء كثيرة قد وصفها في مشابهة النار ومحاكاتها الانوار والرفع للظلام وتصيير الليل نهارا والظلم أنوارا مما واعراق الواصف واشتطاط المادح قال وليس الى صفة لونها ونورها ما هو أحسن مما وصفها اذ ليس بعد الانوار شئ في الحسن قال فداخل المستكفي سرور وفرح وابتهاج بما وصف فتمايل وبحك فرج عني من هذا الوصف قال نعم يا سيدي (قال) عبد الله بن محمد الناشي وقد كان المستكفي ترك النبيذ حتى أفضت الخلافة اليه فدعا بها من وقته ودعا الى شربها وقد كان المستكفي حين أفضت الخلافة اليه طلب الفضل بن المقتدر على حسب ما قدمنا لما كان بينهما من العداوة فيما ذكرنا وغير ذلك مما عنه أعرضنا فهرب الفضل وقيل انه هرب الى أحمد بن بويه الديلمي منتصرا وأحسن اليه أحمد ولم يظهره فلما مات توزون ودخل الديلمي الى بغداد وخرج الاتراك عنها صار الى ناصر الدولة أبي محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان وانحدر معه هو وابن عمه أبو عبد الله بن العلاء فكان بينه وبين ابن بويه الديلمي من الحرب ما قد اشتهر وانحاز الديلمي الى الجانب الغربي ومعه المستكفي والمطيع مختف ببغداد والمستكفي يطلبه أشد الطلب وأنزل المستكفي في بيعة النصارى المعروفة بدرنا من الجانب الغربي فذكر أبو اسحق ابراهيم بن اسحق المعروف بابن الوكيل ومنزلته من خدمة المستكفي ما قدمنا قال كان المستكفي في سائر أوقاته فازعا وجلا من المطيع أن يلي الخلافة ويسلم اليه فيحكم فيه بما يريد فكان صدره يضيق لذلك فيشكو ذلك في بعض الاوقات الى من ذكرنا من كان يألفه من ندمائه فيشجعونه ويهونون عليه أمر المطيع الى أن قال لهم في بعض الايام قد اشتهيت أن نجتمع في مكان كذا وكذا فنتذاكر أنواع الاطعمة وما قال الناس في ذلك

سنظلوما فاتفق معهم على ذلك فلما كان فى اليوم الذى حضروا واقبل المستكفى نقال هاتوا ما الذى أعده كل واحد منكم فقال واحد منهم قد حضرنى يا أمير المؤمنين أبيات لابن المعتز يصف سلة سكارج كوامخ فقال

امتع بسلة قضبان أتتك وقد * حفت جوانبها الجامات أسطار
فيها سكارج أنواع مصففة * حمر وصفر ومافيهن انكار
فيهن كامخ طرخون مبوهرة * وكامخ أحمر فيها وتيار
أعطته شمس الضحى لونا فجاء به * كأنه من ضياء الشمس عطار
فيهن كامخ مرزنجوش قابله * من القرنفل نوع منه مختار
وكامخ الدار صينى فليس له * فى الطعم شبه ولا فى لونه عار
كأنه المسك ريحا فى تنسمه * حريف فى طعمه والريح معطار
وكامخ الزعتر البرى ان له * لونا حكاه لدينا المسك والقار
وكامخ الثوم لما أن بصرت به * أبصرت عطر اله بالاكل أمار
كأن زيتونها فيها ظلام دجى * فى الجيب منه من المحضور أسفار
اذا تأملت مافيهن من بصل * كأنهن لحسن حشوه نار
وسلجم مستديرا لقد خالطه * طعم من الخل قد حازته أسطار
كأن أبيضه فيه وأحمره * دراهم صففت فيهن دينار
فى كل ناحية منها يلوح لنا * نجم البنا بصفو الفجر نظار
كأنها زهرة البستان قابلها * بدر وشمس وأظلام وأنوار

قال المستكفى تحضر هذه الجونة بعينها على هذا الوصف وهاتوا فليس نأكل اليوم الا ما تصفون فقال آخر من الجلساء يا أمير المؤمنين لمحمود بن الحسين الكاتب المعروف بكشاجم فى صفة سلة نوادر

متى تنشط للأكل * فقد أصلحت الجونه
وقد زينها الطاهى * لنا أحسن ما زينه
فجاءت وهى من أطيب * ما يؤكل مشحونه
فمن جدى شويناه * وعصبنا مصارينه
ونضدنا عليه نعـ * ـنع الفلفل وطرخونه
وفرخ وافر الزور * أجدنا لك تسفينه
وطيهوج وفروج * أجدنا لك تطجينه
وسنبوسجة مقلوة * فى اثر طبريونه
وحمراء من البيض * الى جانب زيتونه
وأوساط سطيرات * بزيت الماء مدهونه
يولدن لذى التخمـ * ـة جوعا ويشهينه
ربوع بكسور الند * بالعنبر معجونه

وحريف من الخبز * به الاوساط مقرونه
وطابع كالآلي في * سموط العيد مكنونه
وخل ترعف الآنا * ف منه وهي محتونه
وباذنجان بوران * به نفسك مفتونه
وهليون وعهدي بـ * ـك تستعذب هليونه
ولوزينجة في الدهـ * ـن والسكر مدفونه
وعندي لك رستيد * ـه مطبوخ وقنينه
وساق واعد بالوصـ * ـل منه عطفة النونه
له شدة ألحاظ * وفي ألفاظه لينه
وقري يغنيك * لحونا غير ملحونه
ألا يا من لمحزون * نأى عن دار محزونه
فما عذرك في أن لا * ترى من سكره طينه

فقال المستكفي أحسنت وأحسن القائل فيما وصف ثم أمر باحضار كل ما يجري في وصفه مما يمكن احضاره ثم قال هاتوا من معه شئ في هذا المعنى فقال آخر في هذا المعنى لابن الرومي في صفة وسط

يا سائلي عن مجمع اللذات * سألت عنه أنعت النعات
فهاك ما أنشأته من قصه * مسلما من سوئه ونقصه
خذ يا مريد المأكل اللذيذ * جردقتي خبز من السميذ
ثم ترعينا ناظر مثليهما * فقشر الحرفين عن وجهيهما
حتى اذا ما صار تا طفاطفا * فاضف على احداهما تأنفا
من لحم فروج ولحم فرخ * تدوب جوزا باهما بالنفخ
واجعل عليها أسطرا من لوز * معارضات أسطرا من جوز
اكفاحها الجبن مع الزيتون * وشكلها النعنع بالطرخون
حتى ترى بينهما مثل اللبن * مقسومة كانها وشي اليمن
واعمد الى البيض السليق الاحمر * فدرهم الوسط به ودنر
ورتب الاسطر بالملح ولا * تكثر ولا تزل معتدلا
وردد العينين فيه لحظا * فان للعينين منه حظا
ومتع العينين به مليا * وأطبق الوسط وكل هنيا
وامسك بنابيك وأكدم كدما * تشرع فيما قد بنيت هدما
طورا ترى حلقة الدولاب * حروفه ودوره كالداب
وتارة مثل الرحى بلا سغب * قد شذبت عنها بنابيك الشذب
لهفي عليها وأنا الزعيم * بعدة شيطانها رجيم

وقال آخر يا أمير المؤمنين لاسحق بن ابراهيم الموصلي في صفة سنبوسج

ياسائلى عن أطيب الطعام * سألت عنه أبصر الانام
اعمد الى اللحم اللطيف الاحمر * فدقه بالشحم غير مكثر
واطرح عليه بصلا مدورا * وكرنبا طريا جنيا أخضرا
والق السذاب بعده موفرا * ودارصيني وكف كزبرا
وبعده شئ من القرنفل * وزنجبيل صالح وفلفل
وكف كمون وشئ من مرى * وملء كفين بملح تدرى
فدقه ياسيدى شديدا * ثم اوقد النار له وقودا
واجعله فى القدر وصب الماء * من فوقه واجعل له غطاء
حتى اذا الماء فنى وقلا * وتشفه النار عنك كلا
فلفه ان شئت فى رقاق * ثم احكم الاطراف بالالزاق
أوشئت خذ جزأ من العجين * معتدل التقريك مستكين
فابسطه بالسويق مستديرا * ثم اظفرن أطرافه تظفيرا
وصب فى الطابق زيتا طيبا * ثم اقله بالزيت قليا عجبا
وضعه فى جام له لطيف * ووسطه من خردل حريف
وكله أكلا طيبا بخردل * فهو ألذ المأكل المعجل

فقال آخر يا أمير المؤمنين لمحمود بن الحسين بن السندى كشاجم الكاتب فى وصف هليون

لنا رماح فى أعاليها أود * مثقلات الجسم فتلا كالمسد
مستحسنات ليس فيهامن عقد * لها رؤس طالعات فى جسد
مكسورة من صنعة الفرد الصمد * منتصبات كالقداح فى العمد
ثوب من السندس من فوق برد * قد أشربت حمرة لون يتقد
كأنها ممزوجة حمرة خد * قد فرضت حمرته كف خرد
نخالطته حمرة خد ويد * كأنها فى صحن جام أو برد
منضدات كتناضيد الزرد * نسائج العسجد حسنا منتضد
كأنها مطرف خز قد نضد * لو أنها تبقى على طول الابد
كانت فصوصا بخواتيم الخرد * من فوقها مودى عليها يطرد
يجول فى جانبها جرد مرد * مكشوفة من فوقها ثوب زبد
كأنه من فوقه حين لبد * شذر التبر أو لجين قد مسد
فلو رآها عابد أو مجتهد * أفطر مما يشتهيها وسجد

فلما فرغ منها قال له المستكفى هذا مما يتعذر وجوده فى هذا الوقت بهذا الوصف فى هذا البلد الآن نكتب الى الاخشيد محمد بن طغج يحمل الينا من ذلك البر من دمشق فأنشدونا فيما يمكن وجوده قال آخر يا أمير المؤمنين لمحمد الوزير المعروف بالحافظ الدمشقى فى صفة أرزية

لله در أرزة وافى بها * طاه كمثل البدر وسط سماء
أنقى من الثلج المضاعف سحه * من صنعة الاهواء والانداء

وكأنها فى صحفة مقدودة * بيضاء مثل الدرة البيضاء
تهرب عيون الناظرين بضوئها * وتريك ضوء البدر وقت مساء
وكان شكرها على آكلها * نور تجسد فوقها بضياء

فقال آخر يا أمير المؤمنين أنشدت لبعض المتأخرين فى هريسة

ألذما يأكله الانسان * اذا أتى من صيفه نيسان
وكانت الجديان والخرفان * هريسة يصنعها النسوان
لهن طيب الكف والاتقان * يجمعن فيها الطير والحملان
وتلتقى فى قدرها الادهان * واللحم والالية والشحمان
وبعده أوزه السمان * والحنطة البيضاء والجلبان
وبعده الارز والالبان * جودها بطحنه الطحان
وبعده الملح وخولنجان * كأنها ريد وترسيان
تخجل من رؤيتها الالوان * اذا بدت يحملها الغلمان
تضعها الصحفة والخوان * وفوقها كالقنو خيزران
يمسكه سقف له حيطان * مقبب وماله أركان
أبرزها للآكل الولدان * يقتر من لهيبها العينان
والمرء فيها فله مكان * يؤثرها الجائع والشبعان
ويشتهيها الاهل والضيفان * لها على أضرابها السلطان
تصفو بها العقول والاذهان * وانتعشت بأكلها الابدان
أبدعها فى عصره سلسان * وأعجبت كسرى أنوشروان
اذا رآها الجائع الغرثان * لم يعط صبرا معها الجيعان

وقال آخر يا أمير المؤمنين لبعض المتأخرين فى صفة المضيرة

ان المضيرة فى الطعام * كالبدر فى ليل التمام
اشراقها فوق الموا * ئد كالضياء على الظلام
مثل الهلال اذا بدا * للناس فى خلل الغمام
فى صحفة مملوءة * للناس من جرع الهمام
قد أعجبت لابى هريـ * ـرة اذ أتت بين الطعام
حتى لقد مال الهوى * بهواه عن طلب الصيام
ولقد رأى فى أكلها * حظا فبادر بالقيام
ولقد تنكب أن يكو * ن مؤاكلا عند الامام
اذ ليس ثم مضيرة * تشفى السقيم من السقام
لا عذر فى اتيانها * من غير اتيان الحرام
فهى اللذيذة والغر * يـبة والعجيبة فى الانام

فقال آخر يا أمير المؤمنين لمحمود بن الحسين فى صفة جوزابة

جوزابة من أرز فائق * مصفرة فى اللون كالعاشق
عجيبة مشرقة لونها * فى كف طاه محكم حاذق
نسيجة كالتبر فى حمرة * وردية من صنعة الخالق
بكر الاهواز مصنوعة * قطعها أحلى من الرائق
غريقة فى الدهن رجراجة * تزورّ بالنفخ من الرانق
لينة ملمسها زبدة * وريحها كالعنبر الفائق
كأنها فى جامها اذ بدت * تزهر كالكوكب فى الغاسق
عشقة صفرتها فاقع * فى جيد خود بضة عاتق
أحلى من الامن أتى مومنا * الى فؤاد قلق خافق

(وقال آخر يا أمير المؤمنين من بعض المحدثين فى صفة جوزابة أخرى)

وجوزابة مثل لون العقيق * وفى الطعم عندى كطعم الرحيق
من السكر المحض معمولة * ومن خالص الزعفران السحيق
مغرقة بشحوم الدجاج * وبالشحم أكرم بها من غريق
لذيذة طعم اذا استعملت * وفى اللون منها كلون الخلوق
عليها اللآلئ من فوقها * تضم جوانبها ضم ضيق
يردد هافى الانا نفخه * ومافى حلاوتها من مطيق

(وقال آخر يا أمير المؤمنين لمحمود بن الحسين كشاجم فى صفة قطائف)

عندى أصحابى اذا اشتد السغب * قطائف مثل أضابير الكتب
كأنه اذا ابتدى من كثب * كوائر النحل بياضا قد ثقب
قد سح دهن اللوز مما قد شرب * وابتل مما عام فيه ورسب
وجاء ماء الورد فيه وذهب * فهى عليه حبب فوق حبب
اذا رآه واله القلب طرب * مدرج تدريج أبناء الكتب
أطيب منه أن تراه ينتهب * لكل امرئ لذته فيما أحب

فأقبل المستكفى على معلم كان يعلمه فى صباه طيب النفس وكان يضحك منه ويستظرفه فقال له أنشدنا ما سمعت فقال أنشدنا أنت قال لا أدرى ما قال هؤلاء وما أنشدوا غير أنى مضيت فى أمس يومنا هذا أدور حتى أتيت باطرنجا فرأيت رياضها فذكرت من أمرها فقلت

نوم عينيك يا ابن وهب غرار * ولنار الهوى بقلبك نار
من حديثى انى مررت بهايو * ما وقلبى من الهوى مستطار
وبها ترجعن يشادى علانا * قف فقد أدركت لدينا العقار
وتغنى دراج واستمطر اللهو * وجادت بنورها الازهار
فانثنينا الى رياض عيون * ناظرات ما ان بهن احورار
ومكان الجفون منها بياض * ومكان الاحداق منها اصفرار
بينما نحن عندها صرخ الور * د الينا يا معشر السمار

عندنا قهوة تغافل عنها * دهرها فالوجوه منها اجمار
واثننا للورد من غير أن * تدنوا عن النرجس المضاعف دار
فرأى النرجس الذى صنع الورد * فنادى مستصرخا يابها ر
ورأى الورد عسكرين من الصفر * فنادى بخاءه الجلنار
واستجاشا تفاح لبنان لما * جيئت من وطيسها الاوتار
واستجاش البهار جيشا من الاترج * فيه صغاره والكبار
فرأيت الربيع فى عسكر الصفر * وقلبى بشفه الاحمرار
ليس الاحمرة من خدود * من أناس بغوا علينا وجاروا

فلم أر المستكفى منذ ولى الخلافة أشد سرورا منه فى ذلك اليوم وأجاز جميع من حضر من الجلساء والمغنين والملهين ثم أحضر ما حضره فى وقته من عين وورق عن ضيق الامر اليه فوالله ما رأيت له بعد ذلك يوما مثله حتى قبض عليه أحمد بن بويه الديلمى وسمل عينيه وذلك أن الحرب لما طالت بين أبى محمد الحسين بن عبد الله بن حمدان وكان فى الجانب الشرقى ومعه الاتراك وابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان وابن أحمد بن بويه الديلمى فى الجانب الغربى والمستكفى معه اتهم الديلمى المستكفى بمماءلة بنى حمدان ومكاتبتهم بأخباره واطلاعهم على اسراره مع ما كان قد تقدم له فى نفسه فسمل عينيه وولى المطيع وأعمل الديلمى الحيلة فى البيات بالديلم فحملهم فى السفن مع بوقات ودبادب فى الليل وألقاهم فى مواضع كثيرة من الشارع الى الجانب الشرقى فتوجهت له على بنى حمدان الحيلة فخرجوا نحو الموصل من بعد أحداث كثيرة بين الاتراك وبينهم ببلاد تكريت واستوثق الامر لاحمد بن بويه الديلمى وشرع فى عمارة البلد وسد البثوق على حسب ما يمنو الينا من أخباره واتصل بنا من أفعاله على بعد الدار وفساد السبل وانقطاع الاخبار وكوننا ببلاد مصر والشأم (قال المسعودى) ولم يتأت لنا من أخبار المستكفى مع قصر أيامه غير ما ذكرنا والله الموفق للصواب

(ذكر خلافة المطيع لله)

وبويع المطيع لله وهو أبو القاسم الفضل بن جعفر المقتدر لسبع بقين من شعبان سنة أربع وثلاثين وثلثمائة وقيل انه بويع فى جمادى الاولى من هذه السنة وغلب على الامر ابن بويه والمطيع فى يده لا أمر له ولا نهى ولا خلافة تعرف ولا وزارة تذكر وقد كان أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد يدبر الأمر بحضرة الديلمى فيما بأمر الوزارة برسم الكتبة ولم يخاطب بالوزارة الى أن استأمن الحسين بن على بن حمدان الى الجانب الغربى وخرج معه عند خروجه الى ناحية الموصل الى أن اتهمه بتغريته الاتراك عليه فسمل عينيه وقد قيل ان أبا الحسن محمد بن على بن مقلة يعرض الكتب على الديلمى والمطيع ويتصرف برسم الكتبة لا برسم الوزارة فى هذا الوقت وهو جمادى الاولى سنة ست وثلاثين وثلثمائة ولم نفرد بجوامع تاريخ المطيع بابا مفصلا عن أخباره كما افردنا لغيره مما سلف ذكره فى هذا الكتاب لانا فى خلافته بعد (قال المسعودى) وقد كنا شرطنا فى صدر كتابنا هذا أن نذكر مقاتل آل أبى طالب

ومن ظهر منهم في أيام بني أمية وبني العباس وما كان من أمرهم من قتل أو حبس أو ضرب ثم
ذكرنا ما تأتي لنا ذكره من أخبارهم من قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه (وبقي)
علينا من ذلك ما لم نورده وقد ذكرناه في هذا الموضع وفاء بما تقدم من شرطنا في هذا الكتاب (فمن)
ذلك أنه قام بصعيد مصر أحمد بن عبد الله بن ابراهيم بن اسمعيل بن ابراهيم بن عبد الله بن الحسن
ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله أحمد بن طولون بعد أقاصيص قد أتينا على
ذكرها فيما سلف من كتبنا وذلك نحو سنة سبعين ومائتين وكان خروج ابن عبد الرحمن العمري
على أحمد بن طولون بصعيد مصر وما كان من أمره الى أن قتل (ومن ذلك) ظهور ابن الرضا وهو
محسن بن جعفر بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي
الله عنهم في أعمال دمشق سنة ثلثمائة فكانت له مع أميرها أحمد بن كيغلغ فقتل صبرا وقيل قتل
في المعركة وحمل رأسه الى مدينة السلام فنصب على الجسر الجديد بالجانب الغربي (وظهر)
ببلاد طبرستان والديلم الاطروش وهو الحسن بن علي بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله
عنهم وأخرج عنها المسودة وذلك في سنة احدى وثلثمائة وقد كان أقام في الديلم والجبل
سنين وهم جاهلية ومنهم مجوس فدعاهم الى الله تعالى فاستجابوا واسلموا الا قليلا منهم في مواضع
من بلاد الجبل والديلم في جبال شاهقة وقلاع وأودية ومواضع خشنة على الشرك الى هذه
الغاية وبنى في بلادهم مساجد وقد كان للمسلمين بازائهم ثغور مثل قزوين وسالوس وغيرهما من
بلاد طبرستان وقد كان بمدينة شالش حصن منيع وبنيان عظيم بنته ملوك فارس يسكن
فيه الرجال المرابطون بازاء الديلم ثم جاء الاسلام فكان كذلك الى أن هدمه الاطروش والحسن
ابن القاسم الحسني الداعي وافى الري وذلك في سنة سبع عشرة وثلثمائة في جيوش كثيرة من
الجبل والديلم ووجوههما فأخرج عساكر أحمد بن اسمعيل بن أحمد وصاحبه عنها واستولى
عليها وعلى قزوين وزنجان وأبهر وقم واغار وغير ذلك مما اتصل بالري فكتب المقتدر كتابا الى نصر بن
أحمد بن اسمعيل بن أحمد صاحب خراسان ينكر عليه ذلك ويقول اني ضمنتك المال والدم
فأهملت أمر الرعية وأضعفت البلد حتى دخلته المبيضة وألزمه اخراجهم عنه فوقع اختيار
نصر صاحب خراسان على انفاذ رجل من أصحابه بالجبل يقال له اسفار بن شيرويه وأخرج معه
ابن النساج وهو أمير من امراء خراسان في جيش كثير ليحارب من مع الداعي وما كان بن كالكي
من الديلم لما بين الجبل والديلم من الضغائن والتنافر فسار اسفار بن شيرويه الجبلي فيمن معه
من الجيوش الى حدود الري فكانت الوقعة بين اسفار بن شيرويه الجبلي وبين ما كان بن كالكي
الديلمي فاستأمن اكثر أصحاب ما كان بن كالكي الديلمي وقواده مثل مستر وتايجين
وسليمان بن سلكة والاسكري ومرداالاشكري وهشونه بن أومكن في آخرين من قواد الجبلي
فحمل عليهم ما كان في نفر يسير من غلمانه سبع عشرة حملة ومدت له عساكر خراسان ومن معه من
الاتراك فولى ما كان ودخل بلاد طبرستان وانهزم الداعي بين يديه وما كان على حاميته
فلحقته خيول خراسان والجبل والديلم والاتراك فيهم اسفار بن شيرويه ومضى ما كان لكثرة
الخيول وانحاز الداعي وقد لحق بقرب بلاد طبرستان الى ناحية هنالك وقد تخلى عنه
ما كان معه من الانصار فقتل هنالك ولحق ما كان بالديلم واستولى اسفار بن شيرويه على بلاد

طبرستان

طبرستان والري وجرجان وقزوين وزنجان وابهر وقم وهمدان والكرج ودعا لصاحب خراسان
واستوثقت له الامور وعظمت جيوشه وكثرت عدته فتجبر وطغى وكان لايدين بملة الاسلام
وعصى صاحب خراسان وخالف عليه وأراد أن يعقد التاج على رأسه وينصب بالري سريرا من
ذهب للملك ويتملك على مافي يده مما قد ذكرنا من البلاد ويحارب السلطان وصاحب خراسان
فسير المقتدر هرون بن غريب في الحال نحو قزوين فكانت له معه حروب فانكشف هرون وقتل
من أصحابه خلق كثير وذلك بباب قزوين وقد كان أصحاب قزوين عاونوا أصحاب السلطان
فقتلوا منهم عدة فكانت لهم بعد هزيمة هرون بن غريب مع الديلم حروب وسار اليهم اسفار بن
شيرويه فأتى على خلق عظيم بها وملك القاعة التي في وسط قزوين وتدعى بالفارسية مكثرين
وهو الحصن الذي كان للمدينة أولا في نهاية المنعة مما كانت الفرس جعلته ثغرا بازاء
الديلم وشحنته بالرجال لان الديلم والجبل مذ كانوا لم ينقادوا الى ملة ولا استجابوا اشرعا ثم جاء
الاسلام وفتح الله على المسلمين البلاد فجعلت قزوين للديلم ثغرا هي وغيرها مما أطاف ببلاد الديلم
والجبل وقصدها المطوعة والغزاة فرابطوا وغزوا ونفروا منها الى ان كان من أمر الحسن بن
علي العلوي الداعي والاطروش واسلام من ذكرنا من ملوك الجبل والديلم على يديه ما تقدم ذكره
في صدر هذا الباب من خبره والآن فقد فسدت مذاهبهم وتغيرت آراؤهم وألحد أكثرهم
وقد كان قبل ذلك جماعة من ملوك الديلم ورؤسائهم يدخلون في الاسلام وينصرون من ظهر
ببلاد طبرستان من آل أبي طالب مثل الحسن بن محمد بن زيد الحسيني وخرب اسفار بن شيرويه
قزوين لما كان من فعل أهلها ومعاونتهم أصحاب السلطان على رجاله وقلع أبوابها وسبا
وأباح الفروج وسمع المؤذن يؤذن على صومعة الجامع فأمر أن ينكس منها على أم رأسه
وخرب المساجد ومنع الصلوات فاستغاث الناس في المساجد في أمصار المشرق واستفحل أمره
وسار صاحب خراسان يريد الري لحرب اسفار بن شيرويه في عساكره وانفصل عن مدينة بخارى
وهي دار مملكة صاحب خراسان في هذا الوقت وعبر نهر بلخ فنزل مدينة نيسابور وسار اسفار
ابن شيرويه الى الري وجمع عساكره وضم اليه رجاله من الاطراف وعزم على محاربة صاحب
خراسان فأشار عليه وزيره وهو مطرف الجرجاني وكان يخاطب بالوزير الرئيس أن يلاطف
صاحب خراسان ويراسله ويطمعه في المال واقامة الدعوة فان الحرب تارات وأوقاتها
سجال والانفاق عليها من رأس المال فان جنح الى مادعوته وراسلته به والا فالحرب بين يديك
لان من معك من الاتراك وأكثر فرسان خراسان انما هم رجاله وانما قد تملكتهم
بالاحسان اليهم ولا يدرى عليه اذا قرب منك صاروا مع صاحبهم فقبل قوله وأمر بمكاتبته
فلما وردت الكتب على صاحب خراسان أبى أن يقبل شيأ من ذلك وعزم على المسير اليه فأشار
عليه وزيره أن يقبل منه وأن يرضى منه بما يحمل من الاموال واقامة الدعوة فان الحرب
عثراتها لا تقال ولا يدرى الى ما تؤول لان الرجل قوي بالمال والرجال فان هزم لم يكن في ذلك
كبير فتح اذ كان رجلا من رجالك انتدبته لحرب عدولك وضممت اليه عساكرك وغلمانك
فخالف عليك وان كانت وعائذا بالله عليك لم تستقل من ذلك أبدا وصاحب خراسان ذوي الرأي
من قواده وأصحابه فيما قال وزيره فسددوا رأيه وصوبوا قوله فجنح الى قولهم وما أشير عليه

فأجاب اسفار بن شيرويه الى ما سأل وأعطاه ما طلب من بعد شروط اشترطها عليه من حمل أموال وغير ذلك فلما ورد الكتاب على اسفار بن شيرويه قال لوزيره هذه أموال عظيمة قد اشترط علينا حملها ولا سبيل الى اخراجها من بيت المال فالواجب أن نستفتح خراج هذه البلاد فقال له وزيره ان فى استفتاح الخراج فى غير وقته مضرة على أرباب الضياع وخراب البلاد وخللا كبيرا من أهل الخراج قبل ادراك الغلات قال له اسفار فما الوجه قال الوزير الخراج انما يخص بعض الناس من أرباب الضياع خاصة وههنا وجه يعم سائر الناس من أرباب الضياع وغيرهم من المسلمين وسائر الملل من أهل هذه البلاد وغيرهم من الغرباء من غير ضرر عليهم ولا كثير مؤنة بل اعطاء شئ يسير وهو أن تجعل على كل رأس دينارا فيكون فى ذلك ما اشترط علينا من المال وزيادة عليه كثيرة فأمره اسفار بذلك فكتب أهل الاسواق والمحال من المسلمين وأهل الذمة حتى استوفى الاحصاء الى من فى الفنادق والخانات من الغرباء من التجار وغيرهم وحشر الناس الى دار الخراج بالرى وسائر أعمالها فطولبوا بهذه الجزية فمن أدى كتب له براءة بالاداء مختومة على حسب ما تكتب براءة أهل الذمة عند أدائهم الجزية فى سائر الامصار فأخبرنى جماعة من أهل الرى وغيرهم ممن طرأ عليهم من الغرباء والتجار والكتاب وغيرهم وأنا يومئذ بالاهواز وفارس أنهم أدوا هذه الجزية وأخذوا هذه البراءة بادائها فاجتمع من ذلك أموال عظيمة حمل منها ما اشترط حمله وكان الباقى من ذلك ألف ألف دينار ونيفا وقيل أضعاف ما ذكرنا على حسب الخلائق الذين بالرى وأعمالها ورجع صاحب خراسان الى بخارى وعظم أمر اسفار على خلاف ما عهد وبعث برجل من أصحابه يقال له مرداويج بن زياد الى ملك من ملوك الديلم مما يلى قزوين وهو صاحب الطرم من أرض الديلم وهو ابن أسوار المعروف بسلام الذى ولده فى هذا الوقت صاحب أذربيجان وغيرها ليأخذ عليه البيعة لاسفار بن شيرويه والعهد والدخول فى طاعته فسار مرداويج الى سلام فتشاكيا ما نزل بالاسلام من اسفار بن شيرويه واخرابه البلاد وقتله الرعية وتركه العمارة والنظر فى عواقب الامور فتحالفا وتعاقدا على التظافر على أسفار والتعاون على حربه وقد كان أسفار سار فى عساكره الى قزوين وقرب من نحو الديلم من أرض الطرم من مملكة ابن اسوار منتظرا لصاحبه مرداويج بن زياد وانه ان لم ينقد ابن اسوار الى طاعته ورجع اليه رسولا بما لا يحب وطئ بلاده وسلام هذا هو خال على بن دهشوذان المعروف بابن حسان ملك آخر من ملوك الديلم وهو الذى قتل بالرى قتله ابن اسوار هذا فى خبر يطول ذكره فلما قرب مرداويج من عساكر أسفار راسل قواده وكاتبهم فى معاونته على الفتك باسفار وأعلمهم مظافرة سلام عليه وقد كان القواد وسائر أصحابه سئموا وملوا دولته وكرهوا سيرته فأجابوا مرداويج الى ذلك فلما دنا من الجيش استشعر اسفار بن شيرويه البلاء وعلم توجه الحيلة عليه وان لا ناصر له من أصحابه ولا غيرهم لما تقدم من سوء سيرته فهرب فى نفر من غلمانه فوافى مرداويج وقد فاته اسفار فاستولى على الجيش وحاز الخزائن والاموال وأحضر وزير اسفار المعروف بمطرف الجرجانى فاستخرج منه الاموال وأخذ البيعة على القواد والرجال وفرق فيهم الاموال من الارزاق والجوائز وزاد فى انزالهم وأحسن اليهم

بما لم يكونوا يعرفونه من اسفار ومضى اسفار الى نحو مدينة السارية من بلاد طبرستان فلم
يجد له ملجأ يقصده وحار فى أمره فرجع يريد قلعة من قلاع الديلم منيعة تعرف بقلعة الموت وكان
فيها شيخ من شيوخ الديلم يعرف بأبى موسى مع عدة من الرجال قبله ذخائر اسفار بن شيرويه من
خزائنه وأمواله وكان مرداويج لما توجه له ذلك وملك الجيش والاموال خرج يتصيد على
أسيال من قزوين نحو الطريق الذى سلكه اسفار ليستعلم أمره وأى البلاد سلك والى أى
القلاع لجأ فمال الى القلعة فنظر الى خيل يسيرة فى بعض الاودية فأسرع أصحابه نحوها ليأخذوا
خبرها فوجدوا اسفار بن شيرويه فى عدة يسيرة من غلمانه يؤم القلعة ليأخذ ماله فيها من
الاموال ويجمع الرجال والديلم والجبل ويعود الى حرب مرداويج بن زياد فأتى عليه مرداويج
فلما وقعت عينه عليه نزل فذبحه من ساعته وأقبل رجال الديلم والجبل نحو مرداويج لما ظهر
من بذله واحسانه الى جنده وتسامع الناس بادراره الارزاق على جنده فقصدوه من سائر
الامصار فعظمت عساكره وكثرت جيوشه واشتد أمره ولم يسعه ما فى يديه من الامصار
ولا كفى رجاله ما فيها من الاموال ففرق قواده الى بلاد قم وخرج أبو دلف الى البرج وهمذان
والنهروز نجان فكان من أنفذ الى همدان ابن أخت له فى جيش كثيف مع جماعة من قواده
ورجاله وكان بها جيش السلطان مع أبى عبد الله محمد بن خلف الدينورى السرمانى ومعه خفيفا
غلام أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان فى جماعة من قواد السلطان فكانت لهم مع الديلم حروب
متصلة ووقائع كثيرة وعاون أهل همدان أصحاب السلطان فقتل من رجال مرداويج خلق
كثير من الديلم والجبل أربعة آلاف وقتل ابن أخت مرداويج صاحب الجيش المعروف
بأبى الكراديس بن على الطلحى وكان من وجوه قواد مرداويج وولت الديلم نحو مرداويج
أوحش هزيمة فلما أتاه الخبر وفجعت أخته ورأى ما نزل بها من أمر ولدها سار عن الرى
فى جيوشه حتى نزل مدينة همدان على الباب المعروف بباب الاسد وانما سمى هذا الباب
باب الاسد لان أسدا من حجارة كان على أعمدة من هذا الباب على الطريق المؤدية الى الرى
وجادة خراسان أعظم ما يكون من الاسد كالثور العظيم كأنه أسد حين يدنو الانسان منه فيعلم أنه
حجر قد صور أحسن صورة ومثل أقرب ما يكون من تمثيل الاسد فكان أهل همدان به يتوارثون
أخبارهم عن أسلافهم مستفيضا فيهم أن الاسكندر بن فيلبس بنى همدان حين انصرف
من بلاد خراسان ورجوعه من مطافه من الهند والصين وغيرهما وأن ذلك الاسد جعل طلسما
للمدينة وسورها وأن خراب البلد وفناء أهله وهدم سوره والقتل الذريع يكون عند كسر ذلك
الاسد وقلعه من موضعه وأن ذلك من وجه الديلم والجبل وكان أهل همدان يمنعون من
يجتاز بهم من العساكر والسابلة والمتولفة من أحداثهم أن يقلبوا ذلك الاسد أو يكسروا شيأ منه
ولم يكن ينقلب لعظمه وصلابة حجره الا بالخلق الكثير من الناس وقد كان عسكر مرداويج
الذى سير مع ابن أخته نزلوا على هذا الباب وانبسطوا فى تلك الصحراء قبل الوقعة بينهم وبين
أصحاب السلطان فقلب على ماذكر هذا الاسد فكسر فكان من أمر الوقعة ماذكرنا وذلك على
طريق الوارد من الديلم فلما سار مرداويج ونزل على هذا الباب ونظر الى مصارع أصحابه وقتل
أهل همدان لابن أخته اشتد غضبه لذلك فكانت بينه وبين أهل همدان ثورة ثم ولى القوم وقد

أسلمهم قبل ذلك أصحاب السلطان فدخلوا فقتلوا في اليوم الاول في قول المقلل من الناس على ما أدركه الاحصاء ممن حمل السلاح في المعركة نحوا من أربعين ألفا وأقام السيف يعمل فيها ثلاثة أيام والنار والسبي ثم نادى برفع السيف في اليوم الثالث وأمن بقيتهم ونادى أن تخرج شيوخ البلد ومستورده اليه فلما سمعوا النداء أملوا الفرج فخرج من وثق بنفسه من الشيوخ وأهل الستر ومن لحق بهم فخرجوا الى المصلى فدخل اليه صاحب عذابه وكان يقال له الشقطيني فسأله عن أمره فيهم فأمره أن يطوف بهم الديلم والجبل بحرابهم وخناجرهم فيؤتى عليهم فأطافت بهم الرجال من الديلم فأتى على القوم جميعا وألحقوا بمن مضى منهم وبعث منها بقائد من قواده يعرف بابن علان القزويني وكان يلقب بخواجه وذلك أن أهل خراسان اذا عظموا الشيخ فيهم سموه خواجه في عسكر من عساكره الى مدينة الدينور ومن همدان اليها ثلاثة أيام فدخلها بالسيف وقتل من أهلها في اليوم الاول سبعة عشر ألفا في قول المقلل والمكثر يقول خمسة وعشرين ألفا فخرج اليه رجل من مشهور أهل الدينور وصوفيتها وزهادها يقال له ممشاد وبيده مصحف قد نشره فقال لابن علان المعروف بخواجه أيها الشيخ اتق الله وارفع السيف عن هؤلاء المسلمين فبلا ذنب لهم ولا جناية يستحقون ما قد نزل بهم فأمر بأخذ المصحف من يده فضرب به وجهه ثم أمر به فذبح وسبى وأباح الاموال والدماء والفروج وبلغت عساكر مرداويج وجنوده الى الموضع المعروف بالسحوس وهو فرز بين الجبل واعمال حلوان مما يلي العراق وذلك من بلاد طرز والمطامير ومرج قلعة قتلا وسبيا وغنم الاموال ثم ولت جيوشه راجعة وقد غنمت الاموال وقتلت الرجال وملكت الاولاد وأخذوا الغلمان وتملكوهم وسبوا من بلاد الدينور وقد ساسين والربذة الى حيث ما بلغوا مما وصفنا من البلاد مما أدركه الاحصاء من الجوار العتق العراقي والغلمان في قول المقلل خمسين ألفا وفي قول المكثر مائة ألف فلما تم لمرداويج ما وصفنا وحملت اليه الاموال والغنائم بعث بها الى اصبهان بجماعة من قواده في قطعة من عساكره فلكوها وأقيمت لهم الانزال والعلوفات وعمرت لهم قصور أحمد ابن أبي دلف العجلي وهيئت له البساتين والرياض وزرع له فيها أنواع الرياحين على حسب ما كان في آل عبد العزيز فسار مرداويج الى اصبهان فنزلها وهو في نحو من خمسين ألفا وقيل أربعين سوى ماله بالري وقم وهمدان وسائر أعماله من العساكر وقد كان أنفذ جماعة من قواده وعساكره مع أبي الحسن محمد بن وهبان الصنعاني وهو الذي استأمن بعد ذلك الى السلطان ثم قصد الى محمد بن رائق وهو بالرقة من بلاد ديار مضر قبل دخول الشام ومحاربته الاخشيد محمد بن طغج فاحتال عليه رافع القرمطي وكان من قواد ابن رائق حتى فرق بينه وبين عسكره وغرقه في الفرات وذلك نحو رحبة مالك بن طوق وقد أتينا على خبره وما كان من الحيلة في أمره ومدة بقائه في الماء مقيدا الى أن خرج ثم قتل بعد ذلك في الكتاب الاوسط في أخبار محمد بن رائق وسار ابن وهبان فيمن معه من العساكر الى أوسع كور الاهواز وذلك على طريق مناذر والعش ونوح واحتوى على هذه البلاد وجبى أموالها وحمل ذلك الى مرداويج فتكبر وعظمت جيوشه وأمواله وعساكره وضرب سريرا من الذهب رصع له بالجوهر وعملت له بدلة وتاج من الذهب وجمع في ذلك أنواع الجواهر وقد كان سأل عن تيجان الفرس

وهيأتها

وهيا تهافصورت له ومثلت فاختار ومنها تاج أنوشروان بن قتادة (وكان) نمى اليه من كتابه ومن أطاف به من أتباعه من دهاة العالم وشياطينه أن الكواكب ترى شعاعاتها الى بلاد اصبهان فيظهر بها ديانة وينصب بها سرير ملك ويجبى له كنوز الارض وأن الملك الذي يليها يكون مصفر الرجلين ويكون من صفته كيت وكيت وأن مدة عمره فى الملك كذا وكذا ثم يتلوه من بعده فى هذه المملكة أربعون ملكا وقربوا له الزمان فى ذلك وحددوه وتقربوا اليه بأشياء من هذه المعانى مما مال اليه هواه واستدعاه منهم واستهواه وأنه المصفر الرجلين الذي يملك الارض وكان معه من الاتراك نحو أربعة آلاف مماليك دون من فى عسكره من الاتراك مع ما عنده من الامراء والاتراك وكان سيء الصحبة لهم كثير القتل فيهم فعملوا على قتله وتحالفوا وقد كان على المسير الى مدينة السلام والقبض على الملك وتولية أصحابه مدن الاسلام بأمرها فى شرق البلاد وغربها مما فى يد ولد العباس وغيرهم فأقطع الدور ببغداد لاهله ولم يشك أن الامر فى يده والملك له فخرج ذات يوم الى الصيد وهو فرح مسرور لما قد تم له من الامر وتأتى له من الملك فدخل الحمام بعد رجوعه فى قصر أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلى باصبهان فدخل اليه غلام من وجوه الاتراك وهو بجكم وكان من خواص الغلمان ومعه ثلاثة نفر من وجوه الاتراك أرى أحدهم توزون مدبر الدولة بعد بجكم فقتلوه فخرج بجكم ومن معه وقد كان أعلم الاتراك بذلك فكانوا له متأهبين فركبوا من فورهم وذلك فى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة فى خلافة الراضى وتفرق الجيش عند وقوع الضجة ونهب بعض الناس بعضا وأخذت الخزائن وانتهبت الاموال ثم ان الجبل والديلم ثابوا واجتمعوا وتشاوروا وقالوا ان بقينا على ما نحن عليه من التحزب بغير رئيس ننقاد اليه هلكنا فجمع أمرهم على مبايعة وشمكير أخى مرداويج وتفسير مرداويج معلق الرجال وقد يكتب مرداويج بالزاى فبايعوا وشمكير بعد أن تفرق كثير من الجيش ففرق فيهم كثيرا مما بقى من الاموال وأحسن اليهم وتوجه فيمن معه من العساكر الى الرى فنزلها وسار بجكم التركى فيمن معه من الاتراك وقد جمعوا أنفسهم الى أن يخلصوا من الديلم وساروا الى بلاد الدينور فجبى منها الخراج وأخذ كثيرا من الاموال وسار الى النهروان على أقل من يومين من مدينة السلام فراسل الراضى وكان الغالب على امره الساجية وعدة من الغلمان الحجرية فأبوا أن يتركوه يصل الى الحضرة خوفا أن يغلب على الدولة فمضى بجكم لما منع من الحضرة الى واسط الى محمد بن رائق وكان مقيما بها فأدناه وحباه وغلب عليه وقوى أمر بجكم واصطنع الرجال وضعف أمر ابن رائق عنه فكان من أمره ما قد اشتهر وقد قدمنا ذكره فيما سلف من كتبنا من اختفائه وخروج بجكم مع الراضى الى الموصل ومعهم على بن خلف بن طباب الى ديار بنى حمدان من بلاد الموصل وديار ربيعة وظهور محمد بن رائق ببغداد ومعاونة الغوغاء له ومسيره الى دار السلطان وقتله لابن بدر الشرابى وخروجه من الحضرة ومن تبعه من الجبل والقرامطة مثل رافع وعمارة وغيرهما وكانوا أنصاره ومسيره الى ديار مضر ونزوله الرقة وما كان بينه وبين غير ودخول يانس المونسى وحملته ومسيره الى جند قنسرين والعواصم واخراجه طريفا اليشكرى عنها وتوليته الثغر الشامى (وقد أتينا) فى الكتاب الاوسط الذي كتابنا هذا تال له والاوسط لكتابنا أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الامم الماضية والاجيال الخالية والممالك

الدائرة على ما كان منه ومحاربته الاخشيد محمد بن طغج بالعريش من بلاد مصر وانكشافه ورجوعه الى دمشق وما كان من قتله لاخيه الاخشيد محمد بن طغج باللجون من بلاد الاردن وما كان قبل وقعة العريش بينه وبين عبد الله بن طغج وما كان معه من القواد وانكشافهم عنه واستئمان من استأمن منهم اليه مثل محمد بن بكسين الخاصة وبكر الخاقانى غلام خاقان المفلحى وغيرهما وغير ذلك من أخباره وأخبار غيره وذكرنا مقتل ظريف اليشكرى فى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة على باب طرسوس وما كان من وقيعته مع الثملية وهم غلمان ثميل الخادم فأغنى ذلك عن اعادته مبسوطا فى هذا الكتاب وانما تغلغل بنا الكلام فى التصنيف فيما ذكرنا من أخبار الديلم والجبل وما كان من أمر اسفار بن شيرويه ومرداويج عند ذكرنا آل أبى طالب وأمر الداعى الحسن ابن القاسم الحسنى صاحب طبرستان ومقتله وخبر الاطروش الحسن بن على بن الحسن (قال المسعودى) وقد أتينا على ذكر سائر الاحداث والكوائن فى أيام من ذكرنا من الخلفاء والملوك فى كتابنا أخبار الزمان والاوسط وذكرنا فى هذا الكتاب ما يكتفى به الناظر فيه وانتهى التصنيف فيه الى هذا الوقت وهو جمادى الاولى سنة ست وثلاثين وثلثمائة ونحن بفسطاط مصر والغالب على أمر الدولة والحضرة أبو الحسن أحمد بن بويه الديلمى المسمى معز الدولة وأخوه الحسن بن بويه صاحب بلاد اصبهان وكور الاهواز وغيرها المسمى ركن الدولة وأخوهما الاكبر والرئيس المعظم على بن بويه الملقب بعميد الدولة المقيم بأرض فارس والمدبر منهم لامر المطيع أحمد بن بويه معز الدولة وهو المحارب للبريديين بأرض البصرة والمطيع معه على حسب ما ينمو الينا من أخبارهم ودللنا فى كتابنا هذا بالقليل على الكثير وبالجزء القليل على الجليل الخطير وذكرنا فى كل كتاب من هذه الكتب ما لم نذكره فى الآخر الا ما لا يسع تركه ولم نجد بدا من ايراده لما دعت الحاجة الى وصفه وأتينا على أخبار أهل كل عصر وما حدث فيه من الاحداث وما كان فيه من الكوائن الى وقتنا هذا مع ما أسلفناه فى هذا الكتاب من ذكر البر والبحر والعامر منهما والغامر والملوك وسيرها والامم وأخبارها وأرجو أن يفسح الله تعالى لنا فى البقاء ويمد لنا بالعمر ويسعدنا بطول الايام فنعقب تأليف هذا الكتاب بكتاب آخر نضمنه فنونا من الاخبار وأنواعا من ظرائف الآثار على غير نظم من التأليف ولا ترتيب من التصنيف على حسب ما يسنح من فوائد الاخبار ونترجمه بكتاب وصل المجالس بجوامع الاخبار ومختلط الآثار تاليا لما سلف من كتبنا ولاحقا بما تقدم من تصنيفنا وجميع ما أوردناه فى هذا الكتاب لا يسع ذوى الدراية تجهله ولا يعذر فى تركه والتغافل عنه فمن عد أبواب كتابى هذا ولم يمعن النظر فى قراءة كل باب منه لم يبلغ حقيقة ما قلنا ولا عرف للعلم مقداره فلقد جمعناه فى عدة السنين باجتهاد وتعب عظيم وجولان فى الاسفار وطواف فى البلدان من الشرق والغرب وكثير من الممالك غير مملكة الاسلام فمن قرأ كتابنا هذا فليتدبره بعين المحبة وليتفضل هو باصلاح ما أنكر منه مما غيره الناسخ وصحفه الكاتب وليرع لى نسبة العلم وحرمة الادب وموجبات الرواية مما تجشمت من التعب فيه فان منزلتى فيه وفى نظمه وتأليفه بمنزلة من وجد جوهرا منثورا ذا أنواع مختلفة وفنون متباينة فنظم منه سلكا واتخذ عقدا نفيسا ثمينا باقى الطلاوة وليعلم من نظر فيه أنى لم أتعصب فيه لمذهب ولا تحيزت

ولا تخيرت الى قول ولا حكيت عن الناس الا مجالس أخبارهم ولم أعرض فيه لغير ذلك فلنذكر الآن الباب الثانى من جامع التاريخ على حسب ما قدمنا الوعد بايراده فى صدر هذا الكتاب

(ذكر جامع التاريخ الباقى من الهجرة الى هذا الوقت)

وهو جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلثمائة الذى فيه انتهينا من الفراغ من هذا الكتاب قد أفردنا فيما سلف من هذا الكتاب بابا للتاريخ فى تاريخ العالم والانبياء والملوك الى مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه الى هجرته ثم ذكرنا هجرته الى وفاته وأيام الخلفاء والملوك الى هذا الوقت على حسب ما يوجبه الحساب وما فى كتب السير وأصحاب التواريخ ممن عنى باخبار الخلفاء والملوك ولم نعرض فيما ذكرنا من ذلك لما فى كتب الزيجات مما ذكره أصحاب النجوم على حسب ما يوجبه تاريخهم فلنذكر فى هذا الباب جميع ما أثبتوه فى كتب زيجات النجوم من الهجرة الى هذا الوقت المؤرخ ليكون ذلك أكثر لفائدة الكتاب وأجمع لمعرفة تباين أصحاب التواريخ من الاخباريين والمنجمين وما اتفقوا عليه من ذلك فالذى وجدناه من ذلك فى كتاب الزيجات أن الابتداء فى يوم الجمعة مستهل المحرم سنة احدى للتروية وذلك يوم ستة عشر من تموز سنة تسعمائة وثلاثة وثلاثين لذى القرنين وكانت هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة سنة احدى بعد أن مضى منها شهران وثمانية أيام فمكث بها حتى قبض صلى الله عليه وسلم تسع سنين واحدى عشر شهرا واثنين وعشرين يوما فذلك عشر سنين وشهران (أبو بكر) الصديق رضى الله عنه سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام فذلك اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثمانية أيام (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه عشر سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوما (١) فذلك اثنان وعشرون سنة (عثمان بن عفان) رضى الله عنه احدى عشرة سنة واحد عشر شهرا وتسعة عشر يوما (على) بن أبى طالب رضى الله عنه أربع سنين وسبعة أشهر فذلك تسع وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة عشر يوما والى بيعة معاوية بن أبى سفيان ستة أشهر وثلاثة أيام فذلك أربعون سنة وشهران وعشرون يوما (معاوية) بن أبى سفيان رضى الله عنه تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوما فذلك تسع وخمسون سنة وستة أشهر وخمسة وعشرون يوما (يزيد) بن معاوية ثلاث سنين وثمانية أشهر (معاوية) بن يزيد بن معاوية ثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوما (مروان) ابن الحكم اربعة أشهر (عبد الله) بن الزبير ثمان سنين وخمسة أشهر (عبد الملك) بن مروان حتى قتل ابن الزبير سنة وشهرين وستة أيام

(ذكر أيام بنى مروان)

عبد الملك بن مروان بن الحكم اثنتى عشرة سنة وأربعة أشهر وخمسة أيام (الوليد) بن عبد الملك تسع سنين وتسعة أشهر وعشرين يوما (سليمان) بن عبد الملك سنتين وسبعة أشهر وعشرين يوما (عمر) بن عبد العزيز بن مروان سنتين وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما (يزيد) بن عبد الملك اربع سنين ويوما واحدا (هشام) بن عبد الملك تسع عشرة سنة وثمانية اشهر وسبعة

أيام فذلك مائة سنة وأربعة وعشرون سنة وثلاثة أشهر وستة أيام (الوليد) بن يزيد بن عبد الملك حتى قتل سنة وشهرين وعشرين يوما فذلك مائة سنة وخمسة وعشرون سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرون يوما وكانت الفتنة بعد مقتله بشهرين وخمسة وعشرين يوما فذلك مائة سنة وخمسة وعشرون سنة وثمانية أشهر واثنتان وعشرون يوما (يزيد) بن الوليد بن عبد الملك شهرين وسبعة أيام فذلك مائة وخمس وعشرون سنة واحد عشر شهرا ويوم واحد (ابراهيم) ابن الوليد بن عبد الملك حتى خلع شهرين واحد عشر يوما فذلك مائة سنة وست وعشرون سنة وشهر واثنا عشر يوما (مروان) بن محمد حتى قتل خمس سنين وشهرين فذلك مائة سنة واحدى وثلاثون سنة وثلاثة أشهر واثنا عشر يوما

(ذكر الخلفاء من بني هاشم)

أبو العباس عبد الله بن محمد أربع سنين وثمانية أشهر ويومين فذلك مائة وخمس وثلاثون سنة واحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما حتى انتهت البيعة الى المنصور أربعة عشر يوما فذلك مائة وخمس وثلاثون سنة واحدى عشر شهرا وثمانية وعشرون يوما (أبو جعفر) عبد الله بن محمد المنصور احدى وعشرين سنة واحدى عشر شهرا وستة أيام حتى انتهى الخبر الى المهدى اثنى عشر يوما فذلك مائة وسبع وخمسون سنة واحد عشر شهرا وثمانية عشر يوما (المهدى) عشر سنين وشهرا واحدا وخمسة أيام فذلك مائة وثمان وستون سنة وثلاثة عشر يوما حتى انتهى الخبر الى الهادى ثمانية أيام فذلك مائة وثمان وستون سنة وشهر واحد ويوم واحد (الهادى) سنة وثلاثة أشهر فذلك مائة وتسع وستون سنة وشهران وستة عشر يوما (الرشيد) ثلاثا وعشرين سنة وشهرين وستة عشر يوما فذلك مائة واثنتان وتسعون سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يوما (الامين) حتى خلع وحبس ثلاث سنين وخمسة وعشرين يوما فذلك مائة وخمس وتسعون سنة وستة أشهر واثنا عشر يوما وأخرج وبويع له وحارب وحوصر حتى قتل سنة وستة أشهر وثلاثة عشر يوما (المأمون) عشرين سنة وخمسة أشهر واثنين وعشرين يوما فذلك مائتان وسبع عشرة سنة وستة أشهر وتسعة عشر يوما (المعتصم) ثمان سنين وثمانية أشهر ويوما فذلك مائتان وستة وعشرون سنة وشهران وتسعة عشر يوما (الواثق) خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام فذلك مائتان واحدى وثلاثون سنة واحد عشر شهرا وأربعة وعشرون يوما (المتوكل) أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة أيام فذلك مائتان وست وأربعون سنة وتسعة أشهر ويوم واحد (المنتصر) ستة أشهر فذلك مائتان وسبعة وأربعون سنة وثلاثة أشهر ويوم واحد الى أن انحدر المستعين الى مدينة السلام سنتين وتسعة أشهر وثلاثة أيام فذلك مائتان وخمسون سنة وأربعة عشر يوما والى أن خطب للمعتز بمدينة السلام احد عشر شهرا وعشرين يوما فذلك مائتان واحدى وخمسون سنة وأربعة أيام والى أن خلع ثلاث سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوما فذلك مائتان وأربعة وخمسون سنة وستة أشهر وسبعة وعشرون يوما والى بيعة المهتدى يومين فذلك مائتان وأربع وخمسون سنة وسبعة أشهر (المهتدى) احد عشر شهرا وثمانية وعشرين يوما فذلك مائتان وخمس وخمسون سنة وستة أشهر وسبعة عشر يوما (المعتمد)

ثلاثا وعشرين سنة وثلاثة أيام فذلك مائتان وثمان وثمانون سنة وثلاثة أشهر واثنان وعشرون يوما (المقتدر) حتى خلع احدى وعشرين سنة وشهرين وخمسة أيام فذلك ثلثمائة سنة وست عشرة سنة وتسعة عشر يوما (ابن المعتز) حتى خلع يومين فذلك ثلثمائة سنة وستة عشر سنة واحدى وعشرون يوما (المقتدر) حتى قتل ثلاث سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام فذلك ثلثمائة وتسع عشرة سنة وعشرون يوما (القاهر) حتى خلع سنة وستة أشهر واثنى عشر يوما فذلك ثلثمائة سنة واحدى وعشرون سنة وأربعة أشهر وسبعة أيام (الراضى) ست سنين واحد عشر شهرا وثمانية أيام فذلك ثلثمائة وثمانية وعشرون سنة وسبعة عشر يوما (المتقى) ثلاث سنين وتسعة أشهر وستة عشر يوما فذلك ثلثمائة واثنتان وثلاثون سنة وشهر واحد وثلاثة أيام (المستكفى) سنة وثلاثة أشهر فذلك ثلثمائة سنة وثلاث وثلاثون سنة وسبعة أشهر واثنا عشر يوما (المطيع لله) الى غرة جمادى الاولى سنة ست وثلاثين وثلثمائة سنة وثمانية أشهر وخمسة عشر يوما فذلك ثلثمائة وخمسة وثلاثون سنة وأربعة أشهر الاثلاث ليال (قال المسعودى) وسنو الهجرة قريبة وبين هذا التاريخ وتاريخ أصحاب الاخبار والسير تفاوت من زيادات الشهور والايام ومعولنا فيما ذكرنا من التاريخ من الهجرة الى هذا الوقت على ماوجدنا فى كتب الزيجات وكان أهل هذه الصناعة يراعون هذه الاوقات ويحيطون علما على التحديد والذى نقلناه من التاريخ فمن زيج أبى عبد الله محمد ابن جابر السانى وغيره من الزيجات الى هذا الوقت فأما ماقدمناذكره فى هذا الوقت من الهجرة الى هذا الوقت فانا نعيد ذكره مفصلا فى هذا الكتاب لكى يقرب تناوله على الطالب له ولا يبعد عما ذكرناه من الزيجات (فالذى صح) من تاريخ أصحاب السير والاخبار من أهل النقل والآثار انه بعث صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة وهاجر عشرا وقبض وهو ابن ثلاث وستين سنة صلى الله عليه وسلم (أبو بكر) سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام (عمر) بن الخطاب عشر سنين وتسعة أشهر وأربع ليال (عثمان) بن عفان احدى عشرة سنة (على) بن أبى طالب أربع سنين (الحسن) ابن على بستة أشهر وعشرة أيام (معاوية) بن أبى سفيان سبع عشرة سنة وثمانية أشهر (يزيد) ابن معاوية ثلاث سنين وثمانية أشهر الاثمان ليال (معاوية) بن يزيد شهرا واحدا واحد عشر يوما (مروان) بن الحكم ثمانية أشهر وخمسة أيام (عبد الملك) بن مروان احدى وعشرين سنة وشهرا ونصفا (الوليد) بن عبد الملك سبع سنين وثمانية أشهر ويومين (سليمان) بن عبد الملك سنتين وسبعة أشهر وسبعة وعشرين يوما (عمر) بن عبد العزيز سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام (يزيد) بن عبد الملك أربع سنين وشهرا ويومين (هشام) بن عبد الملك تسع عشرة سنة وتسعة أشهر واحدى عشرة ليلة (الوليد) بن يزيد سنة وشهرين واثنين وعشرين يوما (مروان) بن محمد خمس سنين وعشرة أيام (عبد الله) بن محمد السفاح أربع سنين وتسعة أشهر (المنصور) اثنتين وعشرين سنة الاتسع ليال (المهدى) عشر سنين وشهرا وخمسة عشر يوما (الهادى) سنة وستة أشهر (الرشيد) ثلاثة وعشرين سنة وستة أشهر (الامين) اربع سنين وستة أشهر (المأمون) احدى وعشرين سنة سواء (المعتصم) ثمان سنين وثمانية

اشهر (الواثق) خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام (المتوكل) أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسع ليال (المنتصر) ستة أشهر (المستعين) ثلاث سنين وثمانية أشهر (المعتز) أربع سنين وستة أشهر (المهتدى) احدى عشر شهرا (المعتمد) ثلاثا وعشرين سنة (المعتضد) تسع سنين وتسعة أشهر ويومين (المكتفى) ست سنين وسبعة أشهر ويومين (المقتدر) أربعا وعشرين سنة واحد عشر شهرا وستة عشر يوما (القاهر) سنة وستة أشهر وستة أيام (الراضى) ست سنين واحد عشر شهرا وثمانية أيام (المتقى) ثلاث سنين وتسعة أشهر وستة عشر يوما (المستكفى) سنة وثلاثة أشهر (المطيع) الى غرة جمادى الاولى سنة ست وثلاثين وثلثمائة سنة وثمانية اشهر وخمسة عشر يوما (ونحن نؤمل من الله) تعالى البقاء والزيادة فى العمر لنزيد فى هذا الكتاب مايحدث فى أيامهم ومايكون فى المستقبل من دولتهم فهذا جمل التاريخ من الهجرة الى هذا الوقت وهو جمادى الاولى سنة ست وثلاثين وثلثمائة وقد أوردنا فى الكتاب ماذكر الفريقان جميعا لكى لايبعد فهم ذلك على مريده والطالب لما ان شاء الله تعالى والتاريخ من المولد الى هذا الوقت معلوم ومن المبعث الى الوفاة معروف غير مجهول ولايتعذر تناوله على ذى الدراية من هذا الكتاب الآن معول الناس أن بدء التاريخ من الهجرة على حسب مابينا فيما سلف فى كتبنا من مشاورة عمر الناس فى التاريخ عند حدوث بدئه وماقاله الناس من كل فريق منهم وأخذه بقول على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه أن يؤرخ بهجرة النبى صلى الله عليه وسلم وتركه ارض الشرك وان ذلك كان من عمر رضى الله عنه فى سنة سبع عشرة او ثمانى عشرة على حسب التنازع فى ذلك والله اعلم

(ذكر تسمية من حج بالناس أول الاسلام الى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة)

(قال المسعودى) فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فى شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة ورجع الى المدينة واستعمل عتاب بن أسيد بن ابى العيص بن امية على مكة فحج بالناس سنة ثمان وقيل بل حج الناس اوزاعا ليس عليهم احد ثم كانت سنة تسع فحج بالناس ابو بكر الصديق رضى الله عنه حين خرج من المدينة مع ثلثمائة وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين بدنة ثم ارسل على اثره على بن ابى طالب رضى الله عنه فادركه بالعرج ومعه سورة براءة فاذن بها يوم النحر عند العقبة فأقام ابو بكر الحج وخطب ابو بكر بمكة قبل التروية بيوم ويوم عرفة بعرفة ويوم النحر بمنى ثم كانت سنة عشر فحج بالناس سيد المرسلين رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كانت سنة احدى عشرة فحج بالناس عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثم كانت سنة اثنتى عشرة فحج بالناس أبو بكر الصديق رضى الله عنه ثم كانت سنة ثلاث عشرة فحج بالناس عبد الرحمن بن عوف ثم كانت سنة أربع عشرة فحج بالناس عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثم كانت سنة خمس عشرة فحج بالناس

ثم كانت سنة ست عشرة فحج بالناس عمر بن الخطاب ثم كانت سنة سبع عشرة فحج بالناس عمر ابن الخطاب ثم كانت سنة ثمان عشرة فحج بالناس عمر بن الخطاب ثم كانت سنة تسع عشرة فحج بالناس عمر بن الخطاب ثم كانت سنة عشرين فحج بالناس عمر بن الخطاب ثم

كانت سنة احدى وعشرين فحج بالناس عمر بن الخطاب ثم كانت سنة اثنتين وعشرين فحج بالناس عمر بن الخطاب ثم كانت سنة ثلاث وعشرين فحج بالناس عمر بن الخطاب ثم قتل رضى الله عنه آخر ذى الحجة ثم كانت سنة أربع وعشرين فحج بالناس عبد الرحمن بن عوف ثم كانت سنة خمس وعشرين فحج بالناس عثمان بن عفان الى سنة أربع وثلاثين ثم كانت سنة خمس وثلاثين حج بالناس عبد الله بن عباس بأمر عثمان وهو محصور ثم كانت سنة ست وثلاثين حج بالناس عبد الله بن عباس ثم كانت سنة سبع وثلاثين بعث على بن أبى طالب على الموسم عبد الله بن العباس وبعث معاوية بن أبى سفيان سمرة الرهاوى فاجتمعا بمكة وتنازعا الامارة ولم يسلم أحدهما لصاحبه فاصطلحا على أن يصلى بالناس شيبة بن عثمان الجحبى ففعل ذلك ثم كانت سنة ثمان وثلاثين حج بالناس قثم بن عباس نائب مكة ثم كانت سنة تسع وثلاثين حج شيبة بن عثمان ثم كانت سنة أربعين والتنازع مع معاوية والحسن بن على فى الخلافة فحج بالناس المغيرة بن شعبة عن كتاب يقال انه افتعله فيما قيل ثم كانت سنة احدى وأربعين حج بالناس عتبة بن أبى سفيان ثم حج بعده مروان بن الحكم ثم كانت سنة أربع وأربعين حج معاوية بن أبى سفيان ثم كانت سنة خمس وأربعين حج بالناس مروان بن الحكم ثم كانت سنة ست وأربعين حج بالناس عتبة بن أبى سفيان ثم كانت سنة سبع وأربعين حج بالناس عتبة بن أبى سفيان ثم كانت سنة ثمان وأربعين حج بالناس مروان بن الحكم ثم كانت سنة تسع وأربعين حج بالناس سعيد بن العاص ثم كانت سنة خمسين حج بالناس معاوية بن أبى سفيان ثم كانت سنة اثنين وخمسين حج بالناس سعيد بن العاص عامين ثم كانت سنة أربع وخمسين حج بالناس مروان بن الحكم ثم كانت سنة خمس وخمسين حج بالناس مروان بن الحكم ثم كانت سنة ست وخمسين حج بالناس عتبة بن أبى سفيان ثم كانت سنة سبع وخمسين حج بالناس الوليد بن عتبة عامين ثم كانت سنة تسع وخمسين حج بالناس عثمان بن أبى سعيد ثم كانت سنة ستين حج بالناس عمرو ابن سعيد بن العاص ثم كانت سنة احدى وستين حج بالناس الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ثم كانت سنة اثنتين وستين حج بالناس الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ثم كانت سنة ثلاث وستين حج بالناس عبد الله بن الزبير الى سنة احدى وسبعين حج بالناس الحجاج بن يوسف وقتل عبد الله بن الزبير ثم كانت سنة أربع وسبعين حج بالناس الحجاج بن يوسف ثم كانت سنة خمس وسبعين حج بالناس عبد الملك بن مروان ثم كانت سنة ست وسبعين حج بالناس الى سنة ثمانين أبان بن عثمان ابن عفان ثم كانت سنة احدى وثمانين حج بالناس سليمن بن عبد الملك بن مروان ثم كانت سنة اثنتين وثمانين حج بالناس أبان بن عثمان بن عفان ثم كانت سنة ثلاث وثمانين حج بالناس الى سنة خمس وثمانين هشام بن اسمعيل بن هشام بن الوليد بن مغيرة المخزومى ثم كانت سنة ست وثمانين حج بالناس العباس بن الوليد بن عبد الملك ثم كانت سنة سبع وثمانين حج بالناس عمر بن عبد العزيز بن مروان ثم كانت سنة ثمان وثمانين حج بالناس الوليد بن عبد الملك ثم كانت سنة تسع وثمانين حج بالناس عمر بن عبد العزيز ثم كانت سنة تسعين حج بالناس عمر بن عبد العزيز ثم كانت سنة احدى وتسعين حج بالناس الوليد بن عبد الملك ثم كانت

سنة اثنتين وتسعين حج بالناس عمر بن عبد العزيز ثم كانت سنة ثلاث وتسعين حج بالناس عثمان
ابن الوليد بن عبد الملك ثم كانت سنة أربع وتسعين حج بالناس مسلمة بن عبد الملك ثم كانت
سنة خمس وتسعين حج بالناس الوليد بن عبد الملك ثم كانت سنة ست وتسعين حج بالناس أبو
بكر محمد بن عمرو بن حزم ثم كانت سنة سبع وتسعين حج بالناس سليمان بن عبد الملك ثم كانت سنة
ثمان وتسعين حج بالناس عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن العاص بن أمية ثم كانت
سنة تسع وتسعين حج بالناس أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم ثم كانت سنة مائة حج بالناس
أبو بكر أيضا ثم كانت سنة احدى ومائة حج بالناس عبد العزيز بن عبد الله أمير مكة ثم
كانت سنة اثنتين ومائة حج بالناس عبد الرحمن بن الضحاك الفهري ثم كانت سنة ثلاث
ومائة حج بالناس عبد الله بن كعب بن عمير بن سبع بن عوف بن نصر بن معاوية النصري ثم
كانت سنة أربع ومائة حج فيها أيضا ثم كانت سنة خمس ومائة حج بالناس ابراهيم بن
هشام بن اسمعيل المخزومي ثم كانت سنة ست ومائة حج بالناس هشام بن عبد الملك ثم
كانت سنة سبع ومائة حج بالناس ابراهيم بن هشام المخزومي الى سنة اثنتي عشرة ومائة
ثم كانت سنة ثلاث عشرة ومائة حج بالناس سليمان بن هشام بن عبد الملك ثم كانت سنة
أربع عشرة ومائة حج بالناس خالد بن عبد الملك بن الحرث بن الحكم بن العاص بن أمية
ثم كانت سنة خمس عشرة ومائة حج بالناس محمد بن هشام ابن اسمعيل بن الوليد بن المغيرة
ثم كانت سنة ست عشرة ومائة حج بالناس الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهو ولي عهده ثم
كانت سنة سبع عشرة ومائة حج بالناس خالد بن عبد الملك ثم كانت سنة ثمان عشرة
ومائة حج بالناس محمد بن هشام بن اسمعيل ثم كانت سنة تسع عشرة ومائة حج بالناس
مسلمة بن هشام بن عبد الملك أبو شاكر وقيل بل مسلمة بن عبد الملك ثم كانت سنة
عشرين ومائة حج بالناس محمد بن هشام بن اسمعيل ثم كانت سنة احدى وعشرين ومائة
حج بالناس محمد بن هشام بن اسمعيل الى سنة أربع وعشرين ومائة ثم كانت سنة
خمس وعشرين ومائة حج بالناس يوسف ابن أخي الحجاج بن يوسف ثم كانت سنة ست
وعشرين ومائة حج بالناس عمر بن عبد الله بن عبد الملك ثم كانت سنة سبع وعشرين ومائة حج
بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ثم كانت سنة ثمان وعشرين ومائة حج بالناس عبد
العزيز بن عمر بن عبد العزيز ثم كانت سنة تسع وعشرين ومائة حج بالناس عبد الواحد
ابن سليمان بن عبد الملك بن مروان وكان أبو حمزة المختار بن عوف الخارجي من الازد داعية
المعروف بطالب الحق قد وقف وخرج تلك السنة فكلمه الناس حتى نزل عبد الواحد
يصلي بالناس ويخرج الى منزله ثم كانت سنة ثلاثين ومائة حج بالناس محمد بن عبد الملك
ابن مروان ثم كانت سنة احدى وثلاثين ومائة حج بالناس عروة بن محمد بن عطية السعدي
بكتاب افتعله على لسان عمه عبد الملك بن محمد وهو والي الحجاز واليمن لمروان بن محمد
(قال المسعودي) فهذا آخر ما حج بنو أمية ثم كانت سنة اثنتين وثلاثين ومائة حج بالناس داود بن
علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ثم كانت سنة ثلاث وثلاثين ومائة حج بالناس زياد
ابن عبد الله الحارثي ثم كانت سنة أربع وثلاثين ومائة حج بالناس عيسى بن موسى بن محمد بن علي

بن

ابن عبدالله بن عباس ثم كانت سنة خمس وثلاثين ومائة حج بالناس سليمان بن على بن عبدالله بن عباس ثم كانت سنة ست وثلاثين ومائة حج بالناس أبوجعفر المنصور وفيها بويع لابى جعفر المنصور ثم كانت سنة سبع وثلاثين ومائة حج بالناس اسمعيل بن على بن عبدالله ابن العباس ثم كانت سنة ثمان وثلاثين ومائة حج بالناس الفضل بن صالح بن على ثم كانت سنة تسع وثلاثين ومائة حج بالناس العباس بن محمد بن على ثم كانت سنة أربعين ومائة حج بالناس أبوجعفر المنصور ثم كانت سنة احدى وأربعين ومائة حج بالناس صالح بن على ثم كانت سنة اثنتين وأربعين ومائة حج بالناس اسمعيل بن على ثم كانت سنة ثلاث وأربعين ومائة حج بالناس أبوجعفر المنصور ثم كانت سنة أربع وأربعين ومائة حج بالناس ثم كانت سنة خمس وأربعين ومائة حج بالناس السرى بن عبدالله ابن الحرث بن العباس بن عبد المطلب ثم كانت سنة ست وأربعين ومائة حج بالناس عبدالوهاب بن ابراهيم بن محمد بن على بن على بن عبدالله بن العباس ثم كانت سنة سبع وأربعين ومائة حج بالناس أبوجعفر المنصور وقيل محمد بن ابراهيم الامام وقيل فى سنة ثمان ثم كانت سنة تسع وأربعين ومائة حج بالناس عبد الوهاب بن ابراهيم بن محمد بن على ثم كانت سنة خمسين ومائة حج بالناس عبد الصمد بن على ثم كانت سنة احدى وخمسين ومائة حج بالناس محمد بن ابراهيم بن محمد بن على ثم كانت سنة اثنتين وخمسين ومائة حج بالناس أبوجعفر المنصور ثم كانت سنة ثلاث وخمسين ومائة حج بالناس المهدى محمد بن عبد الله بن محمد بن على ثم كانت سنة أربع وخمسين ومائة حج بالناس محمد بن ابراهيم بن محمد بن على ثم كانت سنة خمس وخمسين ومائة حج بالناس عبد الصمد بن على ثم كانت سنة ست وخمسين ومائة حج بالناس العباس بن محمد بن على ثم كانت سنة سبع وخمسين ومائة حج بالناس ابراهيم ابن يحيى بن محمد بن على ثم كانت سنة ثمان وخمسين ومائة حج بالناس ابراهيم بن يحيى أيضا ثم كانت سنة تسع وخمسين ومائة حج بالناس يزيد بن منصور بن عبدالله بن شهر بن يزيد بن مثوب الحميرى ثم كانت سنة ستين ومائة حج بالناس (١) الهادى بن موسى بن المهدى وهو ولى عهد ثم كانت سنة اثنتين وستين ومائة حج بالناس ابراهيم بن جعفر بن أبى جعفر ثم كانت سنة ثلاث وستين ومائة حج بالناس على بن المهدى ثم كانت سنة أربع وستين ومائة حج بالناس صالح ابن أبى جعفر ثم كانت سنة خمس وستين ومائة حج بالناس صالح أيضا ثم كانت سنة ست وستين ومائة حج بالناس محمد بن ابراهيم بن محمد بن على ثم كانت سنة سبع وستين ومائة حج بالناس ابراهيم بن يحيى بن محمد بن على ثم كانت سنة ثمان وستين ومائة حج بالناس على بن محمد المهدى ثم كانت سنة تسع وستين ومائة حج بالناس سليمان بن أبى جعفر المنصور ثم كانت سنة سبعين ومائة حج بالناس هرون الرشيد ثم كانت سنة احدى وسبعين ومائة حج بالناس عبد الصمد بن على ثم كانت سنة اثنتين وسبعين ومائة حج بالناس

ثم كانت سنة ثلاث وسبعين ومائة حج بالناس هرون الرشيد خرج محرما من عسكره الى مكة ثم كانت سنة أربع وسبعين ومائة حج بالناس هرون الرشيد الى سنة تسع وسبعين ومائة ثم كانت سنة ثمانين ومائة حج بالناس موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على ثم كانت

سنة احدى وثمانين ومائة حج بالناس هرون الرشيد ثم كانت سنة اثنتين وثمانين ومائة حج بالناس موسى بن عيسى ثم كانت سنة ثلاث وثمانين ومائة حج بالناس العباس بن محمد المهدى ثم كانت سنة أربع وثمانين ومائة حج بالناس ابراهيم بن المهدى ثم كانت سنة خمس وثمانين ومائة حج بالناس منصور بن المهدى ثم كانت سنة ست وثمانين ومائة حج بالناس هرون الرشيد ثم كانت سنة سبع وثمانين ومائة حج بالناس عبد الله بن العباس بن على "وقيل منصور بن المهدى ثم كانت سنة ثمان وثمانين ومائة حج بالناس هرون الرشيد ثم كانت سنة تسع وثمانين ومائة حج بالناس العباس بن موسى بن عيسى بن محمد بن على " ثم كانت سنة تسعين ومائة حج بالناس على "بن الرشيد ثم كانت سنة احدى وتسعين ومائة حج بالناس العباس بن عبيد الله بن جعفر بن أبى جعفر المنصور ثم كانت سنة اثنتين وتسعين ومائة حج بالناس العباس بن عبيد الله أيضا ثم كانت سنة ثلاث وتسعين ومائة حج بالناس داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن على " ثم كانت سنة أربع وتسعين ومائة حج بالناس على "بن الرشيد ثم كانت سنة خمس وتسعين ومائة حج بالناس داود بن عيسى ابن موسى ثم كانت سنة ست وتسعين ومائة حج بالناس العباس بن موسى الى ثمان وتسعين ثم كانت سنة تسع وتسعين ومائة حج بالناس محمد بن داود بن عيسى بن محمد بن على " ووثب ابن الافطس العلوى بمكة فقبض عليها فتنحى محمد بن داود ولم يمض الى عرفة وخرج الناس فوقفوا بغير امام فلما كانوا بالمزدلفة طلع عليهم ابن الافطس فأقام لهم باقى حجتهم ثم كانت سنة مائتين حج بالناس المعتصم بن اسحق ثم كانت سنة احدى ومائتين حج بالناس اسحق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على ثم كانت سنة اثنتين ومائتين حج بالناس ابراهيم بن موسى بن جعفر ابن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو أول طالبى" أقام للناس الحج فى الاسلام على أنه أقام متغلبا عليه لا مولى من قبل خليفة وكان ممن سعى فى الارض بالفساد وقتل أصحاب ابراهيم بن عبيد الله الحجبى وغيره فى المسجد الحرام ويزيد بن محمد بن حنظلة المخزومى وغيره من أهل العبادة ثم كانت سنة ثلاث ومائتين حج بالناس سليمان بن عبد الله ابن جعفر بن سليمان بن على ثم كانت سنة أربع ومائتين حج بالناس عبيد الله بن الحسن بن عبيد الله ثم كانت سنة خمس ومائتين حج بالناس عبيد الله بن الحسن أيضا ثم كانت سنة ست وسبع ومائتين حج بالناس أبو عيسى بن الرشيد ثم كانت سنة ثمان ومائتين حج بالناس صالح بن الرشيد ومعه زبيدة الى سنة عشر ومائتين ثم كانت سنة احدى عشرة ومائتين حج بالناس اسحق بن العباس بن محمد بن على ثم كانت سنة اثنتى عشرة ومائتين حج بالناس المأمون ثم كانت سنة ثلاث عشرة ومائتين حج بالناس أحمد بن العباس ثم كانت سنة أربع عشرة ومائتين حج بالناس عبيد الله بن عبد الله ثم كانت سنة خمس عشرة ومائتين حج بالناس عبد الله بن عبيد الله أيضا ثم كانت سنة ست عشرة ومائتين حج بالناس

ثم كانت سنة سبع عشرة ومائتين حج بالناس سليمان بن عبد الله بن على ثم كانت سنة ثمان عشرة ومائتين حج بالناس صالح بن العباس بن محمد ثم كانت سنة تسع عشرة ومائتين حج بالناس صالح ابن العباس بن محمد ثم كانت سنة عشرين ومائتين حج بالناس صالح بن العباس أيضا

ثم

ثم كانت سنة احدى وعشرين ومائتين حج بالناس أيضا صالح بن العباس بن محمد ثم كانت
سنة اثنتين وعشرين ومائتين حج بالناس محمد بن داود بن عيسى بن محمد بن على بن عبد الله بن
العباس بن عبد المطلب ثم كذلك الى سنة ست وعشرين ومائتين ثم كانت سنة سبع
وعشرين ومائتين حج بالناس جعفر المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ثم كانت سنة ثمان
وعشرين ومائتين حج بالناس الى سنة خمس وثلاثين ومائتين محمد بن داود بن عيسى ثم كانت
سنة ست وثلاثين ومائتين حج بالناس محمد المنتصر ومعه جدته شجاع ثم كانت سنة سبع
وثلاثين ومائتين حج بالناس على بن عيسى بن جعفر بن المنصور ثم كانت سنة ثمان وثلاثين
ومائتين الى سنة احدى وأربعين ومائتين حج بالناس عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى
ابن على بن عبد الله بن عباس ثم كانت سنة اثنتين وأربعين ومائتين حج بالناس الى سنة أربع
وأربعين ومائتين عبد الصمد بن موسى بن محمد بن ابراهيم الامام بن محمد بن على بن عبد الله بن
عباس ثم كانت سنة خمس وأربعين ومائتين حج بالناس الى سنة ثمان وأربعين ومائتين محمد
ابن سليمان بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم الامام. ثم كانت سنة تسع وأربعين ومائتين
حج بالناس عبد الصمد بن موسى بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ثم
كانت سنة خمسين ومائتين حج بالناس جعفر بن الفضل بن موسى بن عيسى بن موسى ويلقب
بباسان ثم كانت سنة احدى وخمسين ومائتين وقف بالناس اسمعيل بن يوسف العلوى
المقدم ذكره فيما مضى من هذا الكتاب وبطل الحج الا اليسير الان اسمعيل هذا اطلع على الحاج
وهم بعرفة فى جموعه فقتل من المسلمين خلقا عظيما حتى زعموا أنه كان يسمع بالليل تلبية
القتلى وكان شأنه فى الفساد عظيما ثم كانت سنة اثنتين وخمسين ومائتين حج بالناس كعب
البقر محمد بن أحمد بن عيسى بن جعفر بن المنصور ثم كانت سنة ثلاث وخمسين ومائتين حج
بالناس عبد الله بن محمد بن سليمان بن عبد الله الرسى ثم كانت سنة أربع وخمسين ومائتين حج
بالناس على بن الحسن بن اسمعيل بن العباس بن محمد بن على ثم كانت سنة خمس وخمسين
ومائتين حج بالناس على بن الحسين أيضا ثم كانت سنة ست وخمسين ومائتين حج بالناس كعب
البقر محمد بن أحمد بن عيسى بن جعفر بن المنصور ثم كانت سنة سبع وخمسين ومائتين حج
بالناس الفضل بن العباس بن الحسن بن اسمعيل بن العباس بن محمد بن على ثم كانت سنة ثمان
وخمسين ومائتين حج بالناس الفضل بن العباس أيضا ثم كانت سنة تسع وخمسين ومائتين حج
بالناس ابراهيم بن محمد بن اسمعيل بن جعفر بن سليمان بن على بن بويه ثم كانت سنة ستين
ومائتين حج بالناس ابن بويه أيضا ثم كانت سنة احدى وستين ومائتين حج بالناس الفضل
ابن العباس بن الحسن بن اسمعيل بن العباس بن محمد بن على ثم كانت سنة اثنتين وستين ومائتين
حج بالناس الفضل بن العباس أيضا ثم كانت سنة ثلاث وستين ومائتين حج بالناس الفضل
ابن العباس أيضا ثم كانت سنة أربع وستين ومائتين حج بالناس الى سنة ثمان وسبعين
ومائتين خمس عشرة سنة متوالية هرون بن محمد بن اسحق بن موسى بن عيسى بن موسى بن
محمد بن على بن عبد الله بن عباس ثم كانت سنة تسع وسبعين ومائتين حج بالناس الى سنة
سبع وثمانين ومائتين تسع حجج متوالية أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن داود بن عيسى بن موسى

ثم كانت سنة ثمان وثمانين ومائتين حج بالناس محمد بن هرون بن العباس بن ابراهيم بن عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور ثم كانت سنة تسع وثمانين ومائتين حج بالناس الفضل بن عبد الملك ابن عبد الله بن العباس بن محمد بن علي ولم يزل يحج بالناس كل سنة الى سنة خمس وثلثمائة ثم كانت سنة ست وثلثمائة حج بالناس أحمد بن العباس بن محمد بن عيسى بن سليمان بن محمد بن ابراهيم الامام وهو المعروف بأخي أم موسى الهاشمية قهرمانة شعب أم المقتدر بالله ثم كانت سنة سبع وثلثمائة حج بالناس أحمد بن العباس أيضا ثم كانت سنة ثمان وثلثمائة حج بالناس الى سنة احدى عشرة وثلثمائة اسحق بن عبد الملك بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد ثم كانت سنة اثنتي عشرة وثلثمائة حج بالناس الحسن بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ثم كانت سنة ثلاث عشرة وثلثمائة حج بالناس أبو طالب عبد السميع بن أيوب بن عبد العزيز بن عبد الله بن العباس بن محمد خليفة لعمه الحسن ثم كانت سنة أربع عشرة وثلثمائة حج بالناس عبد الله بن عبيد الله بن سليمان بن محمد الاكبر ثم كانت سنة خمس عشرة وثلثمائة حج بالناس عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد المعروف بأبي أحمد الازرق خليفة الحسن بن عبد العزيز بن العباس ثم كانت سنة ست عشرة وثلثمائة حج بالناس أبو أحمد الازرق أيضا ثم كانت سنة سبع عشرة وثلثمائة دخل سليمان بن الحسن صاحب البحرين مكة وقد حضر عمر بن الحسن بن عبد العزيز المقدم نسبه اليه لاقامة الحج خليفة لابيه فكان من أمر الناس ما كان فيما قدمنا ذكره فيما سلف من هذا الكتاب ولم يتم حج في موسم سنة سبع عشرة وثلثمائة هذه من أجل حادثة القرامطة لعنهم الله الا القوم يسير غدروا فتم حجهم دون امام وكانوا رجالة ثم كانت سنة ثمان عشرة وثلثمائة حج بالناس عمر بن الحسن بن عبد العزيز الهاشمي خليفة لابيه الحسن بن عبد العزيز ثم كانت سنة تسع عشرة وثلثمائة حج بالناس فيها جعفر بن علي بن سليمان خليفة الحسن بن عبد العزيز ثم كانت سنة عشرين وثلثمائة حج بالناس فيها عمر بن الحسن بن عبد العزيز خليفة لابيه أيضا ولم يزل يحج بالناس الى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة وهو على قضاء مكة في هذا الوقت وهو جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وثلثمائة واليه قضاء مصر وغيرها

(قال أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي رحمه الله) قد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب أنواعا من الاخبار وفنونا من العلم من أخبار الانبياء عليهم الصلاة والسلام والملوك وسيرها والامم وأخبارها وأخبار الارض والبحار وما فيها من العجائب والآثار وما اتصل بذلك ليستدل به على ما سلف من كتبنا ومدخلا الى ما تقدم من تصنيفنا في أنواع العلوم مما قدمنا ذكره ولم نترك نوعا من العلوم ولا فنا من الاخبار ولا طريقا من الآثار الا أوردناه في هذا الكتاب مفصلا أو ذكرناه مجملا أو أشرنا اليه بضرب من الاشارات أو لوحنا اليه بفحوى من العبارات من أخبار العجم والعرب والكوائن والاحداث في سائر الامم فمن حرف شيأ من معنى هذا الكتاب أو أزال ركنا من مبناه أو طمس واضحة من معانيه أو لبس شاهرة من تراجمه أو غيره أو بدله أو انتحله أو اختصره أو نسبه الى غيرنا أو أضافه الى سوانا أو أسقط منه ذكرنا فوافاه من غضب الله وسرعة نقمته وفوادح بلاياه ما يعجز عنه صبره ويحار له فكره وجعله الله

مثلا للعالمين وعبرة للمعتبرين وآية للمتوسمين وسلبه الله ما أعطاه وحال بينه وبين ما أنعم به
عليه من قوة ونعمة مبدع السموات والارض من أى الملل كان والآراء انه على كل شئ قدير
وقد جعلنا هذا التخويف فى أول كتابنا هذا وآخره وكذلك نقول فى سائر ما تقدم من تصنيفنا
ونظمناه من تأليفنا فليراقب امرؤ ربه وليحاذر منقلبه فالمدة يسيرة والمسافة قصيرة والى الله
المصير (وقد قدمنا) الاعتذار فى مواضع مما سلف من هذا الكتاب من سهو ان عرض أو تصحيف
أو تغيير من الكاتب ان وقع ولما قد دفعنا اليه من الاسفار المتواترة والحركة المتصلة تارة مشرقين
وتارة مغربين وطورا متيامنين وطورا متشائمين وما يلحقنا من سهو الانسانية ويصحبنا من
عجز البشرية عن بلوغ الغاية وتقضى النهاية ولو كان لا يؤلف كتابا الا من حوى جميع
العلوم اذن ما ألف أحد كتابا ولا تأتى له تصنيف لان الله عز وجل يقول وفوق كل ذى علم عليم
جعلنا الله ممن يؤثر طاعته ويوفق لرشده ونسأله أن يمحو بخير شرا وبجد هزلا ثم يعود علينا
بعد ذلك بعفوه ويتغمدنا بفضله انه جواد منان لا اله الا هو رب العرش العظيم

(قال مصحح دار الطباعه * كمل الله بالكمال طباعه)

الحمد لله الذى أتم نظام الوجود وأفاض نعمه على كل موجود والصلاة والسلام على سيد
الانام الذى قص عليه من الاخبار أنفسها ومن الحكم أحسنها وعلى آله الذين اتبعوا
أثره وصحبه الذين أرخوا سيره (وبعد) فقد أتم الله سبحانه نعمه بطبع هذا الكتاب
الازهر المسمى بمروج الذهب ومعادن الجوهر وهو اسم طابق مسماه ولفظ تحقق معناه
فلقد أخبر عن الخبايا ت ودل على الايات البينات وأخبر عما كان حتى كأنه حاضر
للعيان وحكى من السير ما فيه معتبر وأشار باخبار الملوك الى حسن السياسة والى تعلم
كيفية الفراسة تفجرت عن ينابيع الحكمة أنهاره وفاضت بعوارف المعارف بحاره
وانسجمت بالبركات أمطاره وصدحت أطياره وتفتحت بحسن شمائله أزهاره وطابت
بنفحات عرف سيرته أثماره وهو من جملة المحاسن التى تم ظهورها وابتهج سرورها فى أيام
صاحب السعادة وحليف المجد والسيادة من أشرقت شمس عدالته فى الحكومة المصرية
وانتشر فى أرجائها نشر عواطفه العلية سعادة أفندينا المحروس بعناية ربه العلى اسمعيل
ابن ابراهيم بن محمد على لا زال جيد الدهر حاليا بعقود مواكبه وفم الافق ناطقا بسعود
كواكبه حفظ الله دولته كما حفظ رعيته وأدام مجده وخلد حمده وحرس أشباله
الكرام وجعلهم غرة فى جبين الايام ثم ان هذا الطبع الظريف والوضع اللطيف بدار
الطباعة العامرة ببولاق مصر القاهرة ذات الشهرة الباهرة والأحاسن الزاهرة ملحوظة
بنظر ناظرها المشمر عن ساعد الجد والاجتهاد فى تدبير نضارها من لا تزال عليه أخلاقه
باللطف تثنى حضرة حسين بك حسنى ثم ان كمال تصحيح هذه المبانى من هذا الجزء الثانى

بمعرفة الفقير الى الله سبحانه محمد الصباغ أسبغ الله عليه النعم أتم اسباغ وتضوع عرف
ختامه وتم سلك نظامه في العشر الاول من ذى القعدة
الحرام من عام ثلاث وثمانين بعد الالف
والمائتين من هجرته عليه الصلاة
والسلام وعلى آله وصحبه
وأنصاره وحزبه ما هبت
نسمات وهدأت
حركات
تم